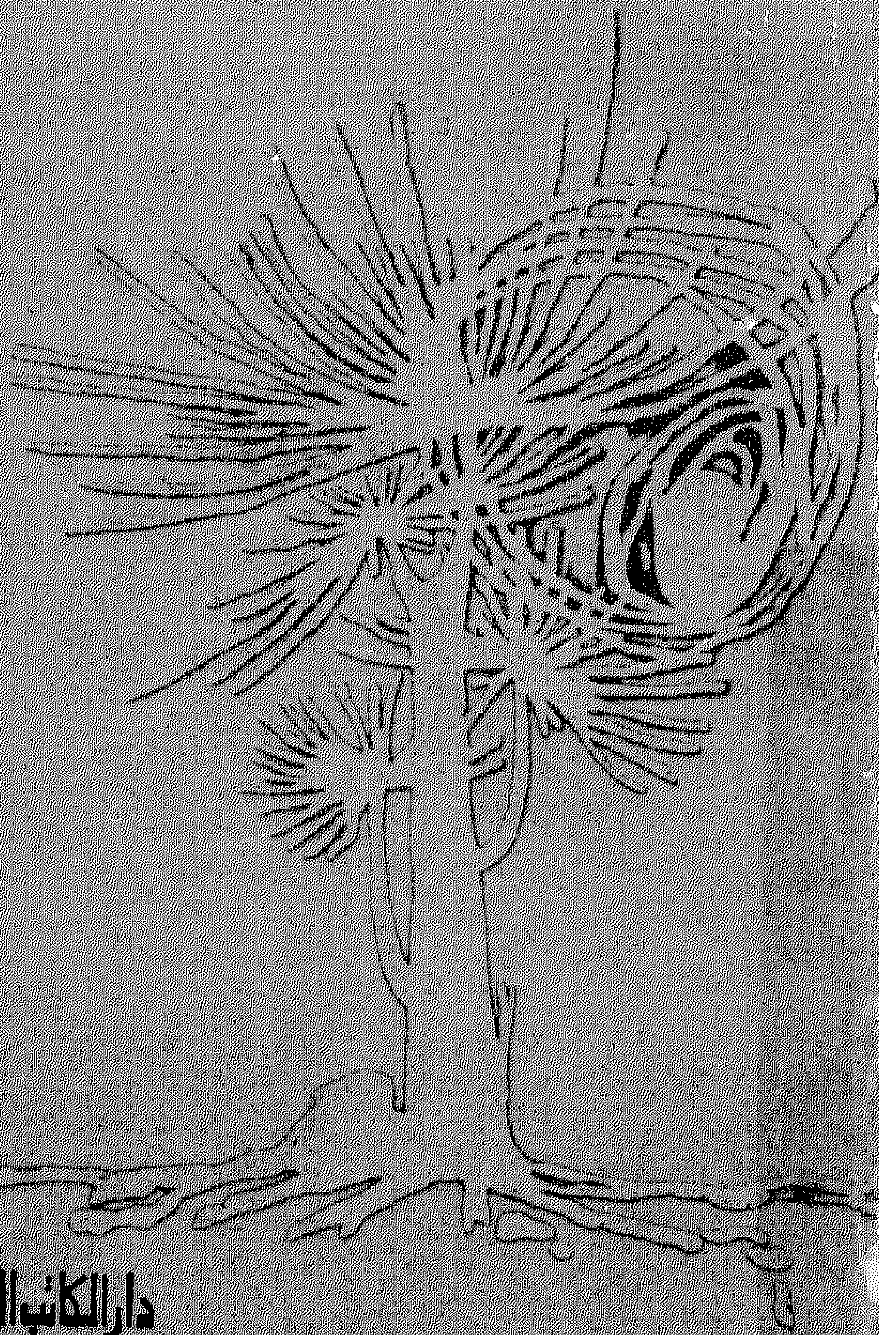
أيون

تأليف : ليڤيو ريبريانو



ترجمة :

عادل محمد غالي

لويس بقطر

مراجعة :

عبد الرحمن الخميسي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

ليفيو ربريانو

إيون

ترجمة عادل محمد على
لويس بقطر

مراجعة عبد الرحمن الخميسى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الساحل

الإهداء

« الى قضية التحرير المقدسة .

الى كل شهيد من أجل تحرير الأرض .

الى كل مناضل من أجل وطنه فى عالمنا العربى،

وفى كل مكان فى العالم » .

« المترجمان »

المقدمة

كان نشر رواية « ايون » عام ١٩٢٠ ، حدثاً جوهرياً فى تطور الأدب الروائى الرومانى الذى بدأ بهذه الرواية يحتل مكانته فى دائرة الرواية العالمية •

ويعود اهتمام الكتاب فى رومانيا بالرواية الأدبية الى مطلع النصف الأول من القرن الماضى ، بعد أن اجتذبتهم تلك الامكانيات العديدة التى تتميز بها الرواية كعمل فنى ، والتى تتسع للملحمة ، وتعبر عن ألوان الصراع : فلسفية وسياسية ، وتتوفر بها القدرة على البحث عن جوهر الأشياء ، ودواخلها ومكوناتها المتباينة •

ومع ذلك فلم يحرز النجاح فى بداية الأمر فى عـالم الرواية الرومانية غـير قلة منهم : « نيـكولاى فليمون » و « سلافتشى » • هذا بينما كان النثر الأدبى الرومانى قد جعـل ينجب فنـانين عظماء من بينهم : « أودبسـكو » و « جرينجا » ، و « كاراجيال » ، و « سادوفيانو » •

كان « ليفيو ربريانو » لايزال فى عمر الشباب حين نشر روايته « ايون » التى عكف على كتابتها سـبعة أعوام كاملة ليخرجها عملا فنيا ، متنوع الألوان • ولم يكن قد عرف عنه من قبل انه روائى على هذا المستوى • حقا كان معروفا كمؤلف لقليل من القصص القصيرة والمسرحيات التى لم تجذب اليها الانتباه تماما • ولكن روايته « ايون » قفزت باسمه الى دائرة الضوء العميم •

ان « ايون » هي حكاية قرية من القرى الرومانية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، وهي تصف الحياة الاجتماعية في ريف « رومانيا » قبل تحريرها عام ١٩٤٤ ٠ وتبدو عظمة تلك الرواية كعمل فني رائع في مقدرة الكاتب الفائقة على خلق الرموز ، معالجا بها قضية الأرض والفلاحين ٠

وبطل روايتنا شاب قوى البناء يتصف بالمهارة والنشاط الفائق ، ولكنه يكابد الفقر ويشقى به ، ويحسب أن باستطاعته الحصول بفضل مهارته ونشاطه على مكانة غير مكانته ٠

ان « ايون » طاقة هائلة لم تستطع أن تأخذ صورتها الكاملة كشخصية متكاملة البناء ، وهو يحاول أن يتخطى حالة بؤسه ، وأن يتخلص من مركبات النقص الاجتماعي والاخلاقي التي يعيش أسيرها ٠

غير أن الاسلوب الذى اتبعه «ايون» نحو محاولته تحقيق ذاته على النحو الذى يرتجيـــه ، يشـــير الى حقيقة جلية في الرواية وهي أن الفلاح الفقير كان محروما من أن يجد الطريق الذى ينتهي به الى وضع اجتماعي آخر ٠ ان المؤلف يؤكد في روايته أن العـــمل الدائب والقدرات الفائقة والصفات التي يتمتع بها « ايون » كانت عديمة الجـدوى ، ولم تستطع أن تنتزعه من تعاسته وعوزه ٠

ان العلاقة بين « ايون » والأرض علاقة عاطفية غنائية ، واذا كانت ترفضها مكونات شخصية « ايون » فهي تعبر في النهاية عن الاختلاجات الغنائية للمؤلف نفسه ٠

وليس يعنينا بصورة أســاسية ذلك المصير الفردى ولا الحل الشخصي للبطل « ايون » ولكن طبيعة « ايون » المميزة هي التي تعنينا حيث تتكون من عديد من الدوافع الاجتماعية والظروف المحيطة به والمثل العليا التي حددتها وجهات نظره الاجتماعية والتاريخية ٠

وليس « ايون » انسانا فطريا كما قد يبدو لأول وهلة ، ولكنه طاقة هائلة ترفض أن تجمد عند الحدود الثابتة لظروف المجتمع الذى تعيش فيه ، تلك الحدود المفروضة عليه ٠

وتعتبر نهاية « ايون » المفجعة ، تعبيراً عن النهاية التى لابد أن تكون بالضرورة عنيفة أشف العنف ، وهى النهاية التى تلقاها طاقة دائمة الحـــركة ، تصطدم بالحواجز عنــد كل منعرج ٠

ان الحافز الرئيسى عند « ايون » هو البؤس بكل مايعنيه من آثار اجتماعية ونفسية ، والهدف عند « ايون » هو الارض التى تعنى الثروة والكرامة الاجتماعية ، واكتمال النفس ٠ ان الصراع يكمن فى وضعه القائم ورفضه له ٠

والحقيقة أنه متى كان للقيم ثمنها المتمثل فى فدادين الأرض ، فان الهدف الرئيسى لشاب قوى مثل « ايون » لابد أن يصبح هو النضال من أجل تلك الفدادين ٠ ذلك لأن الأرض هى مقياس كل شىء ، وبدونها يصبح وجود الرجل وحياته بلا معنى ، كما تفقد صفته كل اعتبار وتفقد وجهة نظره كل احترام ٠ ان « ايون » يرفض أن يكون هذا اللاشىء ٠

وباستطاعتنا أن نلحظ فى بنـــاء هذه الرواية ، مقدرة الكاتب على اعطائنا صورا حية من أرجاء الحياة الريفية ٠ وكفى هذه الصور غناء ، أنها تجعلنا ندرك عن طريق تذوقها وفنيتها جملة الحياة هناك ٠ ان المشـــاهد واللحظات التى تضمنتها الرواية ، كفيلة بأن تملأ وجدان القارىء وعقله بنوعية الحياة فى ريف رومانيا قبل عام ١٩٤٤ ٠

وبوسع القارىء بعد مطالعته لهذا العمل أن يدرك كم كان الكاتب صادقا وأمينا حيث لم يقل كلمة دون فائدة ، وحيث رسم الصورة من جملة زواياها ٠

ان فن البناء الروائى لا يرتبط بمسألة القـــدرة الفنية وحدها بقدر مايرتبط بفهم الكاتب المتكامل للصورة ٠

والحقيقة أن مؤلف « ايون » فشل فى ايجاد الحل سواء فى روايته « ايون » أو فى روايته « الثورة » ٠ ولعل السبب فى ذلك هو قصور الواقعية الشكلية ٠

ومع ذلك فنحن نحيى الصدق فى « ايون » ، ذلك الصدق الذى يستشعر القـــارىء بواسطته أن عـوامل خنق الطاقة الانسانية وتحويل الحياة الى يوم متكرر ممل حزين ، تلك

العوامل لا يمكن أن تنفصل عن مسببها الرئيسي وهو طبقية المجتمع ٠

ونورد في نهاية هذه المقـــدمة العاجلة ، ماذكره « ج ٠ كالينسكو » في كتابه عن تاريخ الأدب الروماني :

« ان « ايون » عمل لشاعر ملحمي يشدو في وقار ليحكي كل ظروف الحياة ٠٠ الطفولة ٠٠ الزواج ٠٠ الموت ٠ رواية « ايون » تتألف من غنائيات وتتشكل في قالب ملحمي ٠٠ رقصة القرية ٠٠ مشاجرات الشبان ٠٠ النزاع حول جهـــاز العروس ٠٠ زواج الفلاحين ٠٠ عائلة المدرس ٠٠ مولد طفل « أنا » ٠٠ موت « دوميترو موركاش » العجـــوز ٠٠ كل هذه صور للحياة في القرية ، ترمز في تفاصيلها الى عناصر نوعية ٠٠ ان « ايون » قصيدة ملحمية ، ذات طابع وقور ٠٠ انها عمل فني عظيم » ٠

وبعـــد ٠٠ فان تكن كلمتنا عاجلة في تلك المقـــدمة ، فللقارىء عن ذلك غناء أي غناء ، في العمل الروائي العظيم الذي هو كفيل بالحديث عن نفسه ٠

عبد الرحمن الخميسي

الجزء الأول

صوت الأرض

الفصل الأول

البداية

- ١ -

كان الطريق الرئيسى القادم من « كيرلى بابا » يمتد بمحاذاة نهر سومش ، مرافقا ضفته اليمنى تارة ، وضفته اليسرى تارة أخرى حتى يصل الى مدينة « كلوج » ، ثم يأخذ الطريق فى التفرع بعد « أرماديا » بقليل ٠٠ وهناك يمتد طريق أبيض وأكثر ضيقا ، ويعبر النهر على قنطرة خشبية عتيقة ، أبلت الرياح سقفها الجمالونى ٠٠ ويمضى الطريق مخترقا قرية « جيدوفيتسا » ، ثم ينحدر صوب نهـر « بيستريتسا » ، ويلتقى بالطريق الرئيسى القادم من « بوكوفينا » خلال ممر « برجو » ٠

ويمضى الطريق مخلفا « جيدوفيتسا » وراءه ، صاعدا فى نشاط عبر منحدرات التلال الصغيرة ٠٠ ثم يلف منبسطا فى مرج ليختفى فترة بين أشجار الزان فى غابات « دومنشتى » فيعرج على « بئر الرجـل الميت » حيث الماء البارد يبقبق دائما من الينبوع ٠ ثم يتخطر الطريق فجأة متجولا عند « مضيق الشيطان » ، ويندفع الى قرية « بريبـاس » مختفيا فى تجويف داخل التل ٠

وعلى مشارف القرية نلتقى ، من ناحية اليسار ، بمزار على جانب الطريق ، وصليب مقوس صلب عليه المسيح وقد غسلت وجهه ميـــاه الأمطار ، بينما تدلت من قدميه باقة من الزهور الذابلة ۰ الجو هنـــاك تسوده نسمات خافتة ، والمسيح يرتعش باكتئاب ، ويرتطم جســـده الصفيحى المترب بالخشب الذى نخره السوس وعفى عليه الزمن ۰

القرية تبدو وكأنها ميتة ، وقد نسج حولها الطقس الحار الذى تشبع به الجو كفنا من الجمود القاتل ۰ وبين الحين والحين يرف حفيف متكاسل لأوراق الشجر الناعسة ، وتحلق حلقات من الدخـــان الأزرق الرمادى تجاهد فى الصعود الى أعلى من خلال أوراق الشجر ، ثم تترنح وتتمايل مثل وحش ثمل ، وتسقط على الحدائق التى يغلفها غطـــاء من التراب فتكسوها بضباب رمادى !

وفى وسط الطريق ، نجد كلب معلم المدرسة وقد غالبه النعاس فبدت عيناه نصف مفتوحتين ، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ۰ وتلمح الكلب قطة بيضاء فى لون اللبن ، كانت تسير على أطراف أقدامها خشية أن تنغمس مخالبها الصغيرة فى تراب سكة القرية ، فتتردد لحظة ثم تهرب من خلال سياج النبات الى الحديقة الواقعة عبر الطريق ۰

والمنزل الأول الذى يقابلنا ، هو منزل « زهاريا هرديليا » معـــلم القرية ، وتمتد جذوره الى منحدر التل ، وهو ذو شرفة دائرية تشـــبه الصينية ۰ ويؤدى بابه الأمامى الى الطريق ، وتشرف على قلب القرية من ذلك المنزل مباشرة نافذتان متفحصتان كاشفتان ۰ وفوق درابزين الشرفة وبالقرب من الباب ، تقبع جرة خضراء بلون الأرض كأنها حارس أمين ۰ وفى هذا المكان يغسل المعلم يديه كل صباح ، كمـــا تغسل الســـيدة « هرديليا » يديها بعد الظهر ، عندما تنتهى من قضاء أعمالها المنزلية ۰ وفى الفناء يمتد على الدوام حبل بين شجرتى تفاح ، وقد علقت عليـــه بعض الملابس القطنية ۰۰ وفى ظل هذه الملابس تنبش بعض الدجاجات فى الرمال الساخنة ، بينما أخذ ديك صغير ذو عرف أحمر كالدم يراقبهن بدقة ۰

ويعبر الطريق جدولا يسمى « بيريول دومنى » تاركا على يســـاره منزل « الكسندرو بوب جلانيتاشو » ۰۰ المنزل مغلق بالمزلاج ، ويشبه سقفه المغطى بالقش رأس التنين ، ويمكن للناظر عبر الشقوق الموجودة بسور المنزل أن يرى حيطانه البيضاء الحديثة الطلاء ۰

ونلتقى بعـــد ذلك بمنزل « ماكيدون سيرسيتاشو » ثم بمنزل « فلوريا تانكو » العمدة ·· وبقية المنازل الاخرى · وتقبع فى صــحن ساحة كبيرة بقرتان مجريتان ترقدان على الارض وتلوكان طعامهمـــا ·· وفى نفس الوقت نرى امرأة عجوزا محنية مثل قضيب من الحديد المعوج ، تجلس فى أحد الجوانب ، تخبز فى الشمس ، بلا حراك كأنما هى منحوتة فى الخشب ·

كان القيظ المرهق المتساقط من الســماء يجفف الحلق ويكتم الانفاس · وكانت المنازل التى تصطف الى اليمين واليسار تطل بخجل من فوق الأسوار المعشبة ، مخفية واجهاتها خلف أهدابها التى أكلتهـا الأمطار والماشية حتى أتت عليها · وكان كلب الحراسة الأشعث يعرج صاعدا الطريق بخطوات كسولة بلا هدف محدد ، وقد تدلى لســانه بين فكيه · ويظهر جرو صغير قذر رافعا ذيله فى الهواء ، خارجا من حفرة غطى نباتاتها الطفيلية التراب فاكتست بلون رمادى ، فلا يلقى الكلب الأشعث بالا اليه ، اذ كان يشعر بالكسل حتى عن مجرد الوقوف · وعندما يصر الكلب الآخر على أن يقترب منه ليشمه ، يكتفى بأن يكشف له عن نابيه مهددا ثم يواصل رحلته موفور الكرامة · ويتوقف الكلب الصغير ، بينما يلقى بنظرة حائرة على منظر الكلب الأشعث الذى سار مبتعدا ·· ثم يعود الى عريشته التى يستظل بها فى الحفرة التى ينبعث منها عندئذ صوته اذ يقضم عظمة فى جوع ونهم ·

انك لا تشهد علامات الحياة فى القرية الا بعد أن تصل الى ماخور « أفروم » ، اذ ذاك ستجد فى دهليز ذلك الماخور فلاحان يبدو عليهما الكدر ، وقد راحا يتبادلان الآهات العميقة فوق زجاجة من الخمر وضعت بينهما ·· بينما يأتى النسيم من بعيد بصوت عزف على آلات الكمان ، وصياح قوم يرقصون فى مرح ·

- ٢ -

كان اليوم هو الأحد ، وكانت القرية كلها تشارك فى رقصـــة الأحد · وقد انعقد الحفل فى حارة خلفية عند دار « تودوســيا » أرملة « مكسيم أوبريا » ·

ويقع كوخ الأرملة أمام الكنيسة القديمة المتهدمة المتفككة مباشرة . وعندما ترملت هذه السيدة جاءها الفقر فى صحبة الترمل ، ثم مضت حالها من سيء الى اسوأ . ان ما صنعه الرجل فى حياته بأكملها ، قد اضاعته المرأة عديمة الحيلة خلال عام واحد أو أقل . كان مكسيم عندما يضم ذراعيه فوق صدره ، يرى ساحته وقد امتلأت بخيرات الأرض ، ويرى حظيرتيه وقد امتلأتا بالماشية عن آخرهما . وكان المخزن ومرافق الدار تزدحم بعربات اليد والمركبات ، وكانت دلائل الرخاء تبدو للقادم من بعيد .. غير أن الساحة أصبحت الآن جرداء خاوية ، ولم يعد الانسان يسمع فى الحظائر سوى الخوار المقفر لشبح بقرة واحدة عقيم جائعة على الدوام .

كان الرقص دائرا على أشده .. واكتظ المكان بالناس .. وكانت أشجار الجوز العجوز القائمة بقرب المخازن تلقى ظلا كثيفا . وكانت أشعة الشمس تنفذ فى حزم بيضاء بين أوراق الشجر ، لتداعب الوجوه النضرة لصانعى المرح . كانت الحرارة اللافحة تثير الدماء ، وكانت الشمس معلقة فوق حافة « ماجورا كوكوريلور » — تل الغرانيق — شاحبة ومتبرمة ، فقد كان عليها أن تقوم برحلة طويلة قبل أن يحل الغسق .

كان الموسيقيون الثلاثة يعزفون بالقرب من المخزن المسقوف ، ويكادوا يكسرون أقواسهم فى غمرة الحماس . وكان « بريسياج » يعتمد بساقه على كتلة من الخشب ، وقد استند بمرفقه الايسر على ركبته ، والتصق وجهه فى نشوة بكمانه ، وأغلقت عينيه ، وجرت أصابعه برشاقة على أوتار الكمان فانطلقت أغنيته بعاطفة جياشة . وكان « هولبيا » أحنف ذا عين واحدة ، ولم يكن لكمانه غير ثلاثة أوتار .. ومع ذلك فقد كان يصاحب زميله بنفس القوة مثل « جافن » الغجرى الأسود الفظ ، الذى يعزف ببراعة وقوة على أوتار الكونترباص الغليظة . وكان « بريسياج » يتوقف من حين الى حين ، ليضبط كمانه .. وعندئذ كان « هولبيا » و « جافن » يضاعفان حماسهما ليضبطا ايقاع الرقصة حتى يلحق بهما « بريسياج » عازفا فى هوس أكثر من ذى قبل .. وهو يغمز الى « هولبيا » تارة ، والى « جافن » تارة أخرى ، مستحثا كلما أراد أن يغير لحنا .

كانت الأرض ترتجف تحت أقدام الراقصين ، فقد كان العشرات يرقصون رقصة « السومشانا » الوطنية فى حماس جنونى يجعل الشرر

يتطاير من أحذية الرجال ذات المسامير الغليظة · وكانت جونلات البنات تنتفخ كأجراس كبيرة فيرتفع الغبار من الارض ليستقر فى طبقات سميكة على الوجوه التى غطتها سيول العرق وراحت تلتمع بالبهجه رغم ما كان يحس به اصحابها من تعب وارهاق · وكلما زاد بريسياج من سرعة عزفه زادت مهـــارة الشـــبان فى الرقص ، وازداد دورانهم فى كل خطوة وهم يديرون البنات من تحت أذرعهم المرفوعة ، ثم يخلصـــــون أيديهم منهن ليدور كل منهم وحده وهو يدق الارض بقدميه ، ثم يرمى بكعبيه فى الهواء وهو يضربهما معا فى صخب ، ثم يلطم أعلى حذاءه براحة يده التى غطاها العرق ·· وكانت الأصوات مغلفة بسحابة من الغبار الذى كان يحيط بكل شيء ·· وبين الفينة والفينة كان شاب ذو عينين غائرتين فى محجريهمـــا يطلق صيحة جريئة فى صوت مبحوح ، معايقاع الرقص الجنونى · وبعد مقطوعتين موسيقيتين أو ثلاث يسقط مطلقا صرخة ألم جنونية · ويستمر الرقص دون كلمة ، ويزداد عنفا · ويشدد الفتيان قبضتهم على خصـــور الصبايا ·· وترتجف صدور الفتيات تحت قمصانهن البيضاء عندما تمس صدور الفتيان من حين لآخر ، فترف العيون مع وجيب القلوب ، وتطوف بالشفاه ابتسامات سعيدة مرحة ، دون أن ينطق أحد ببنت شفة ·· ودون أن يتبادل النظرات مع من يرقص معه ·

واستمرت « الانفرتيتا » ما يقرب من ساعة دون أن تتوقف لحظـــة واحدة ، ورغم ذلك فلم يكن يبدو على الشبان أنهم قد شبعوا بعد · وقد حاول بريسياج أن يتوقف عن العزف مرتين ليريح أصابعه المتشنجة ، ولكن الشبان كانوا فى كلتا المرتين ينظرون اليـــه فى توسل أو يهرعون نحوه منزعجين فى تهور :

ـ استمر أيها الغجرى ·· هيا أيها الطائر المغرد !

وتجمع الراقصون وتزاحموا حول العازفين ، فكان بعضهم يصطدم بالبعض الآخر ، وأخذوا يتدافعون بالمناكب العارية ·· فكنت ترى بينهم بعض صغار الصبية الذين لم يمارسوا الرقص الا حديثا وقد أصـــابهم الدوار بســـبب هذا الدوران السريع الذى لا ينتهى ، فأخذوا يترنحون ويتمايلون ، وأوشك بعضهم على السقوط اعياء ، فما تماسكوا الا اشفاقا من أن يلحق بهم الخزى أمام الفتيات اللائى كن يرقصن معهم · وجرف التيار ثلاث أزواج من الراقصين الى أرض بيدر المحاصيل ، حيث كان المكان أكثر اتساعا للرقص ، ولـــكن الغبـــار كان يملأ المكان حتى السقف فى سحابة كثيفة حتى يخال المرء أنه يمكن قطعها بالسكين ··

وعلى بعد خطوات من جموع الراقصين كنت ترى صفا من الزهور ، حيث وقفت الفتيات اللاتى لم يدعين للرقص بعد ، ينظرن فى شوق الى جموع الراقصين ، ويتهامسن بينهن ثم ينفجرن فى ضحكات صاخبة مفتعلة ٠ وقد وضعت كل منهن باقة صغيرة من الزهور المتعددة الالوان خلف أذنها أو ضفرتها فى شعرها المجدول ، وأمسكت فى يدها بباقة أكبر قليلا لتهديها الى الشاب الذى يقع عليه اختيارها ، ليثبتها فى قبعته ٠ وقد ترى شابة متزوجة تضع منديلا حريريا على رأسها وقد زاغت وسط الفتيات استعدادا لمشاركتهن فى النزول الى حلبة الرقص اذا حدث ان أبدى زوجها رغبته فى أن يأخذ بنصيب من الرقص هو أيضا ٠ أما فى الخلف فتتجمع الأمهات والعجائز وقد أخذت كل منهن تبث الأخريات شكواها ، وتتيه فخرا بأولادها ، بينما وقف بعض المهرجين الصغار يتسابقون بين جونلات الصبايا المتأرجحة فى حلبة الرقص ، ليسرقوا الأزهار من الفتيات ، ويسخرون من ضحاياهن عندما يصرخن فى وجوههم اذا ما انتابهن شىء من غضب ٠ بل لقد جلس بعض الشبان الرقعاء القرفصاء بجوار الراقصين يحدقون فى جونلات الصبايا ، حتى اذا ارتفعت احداها كاشفة عن ساقى صاحبتها الى مافوق ركبتها ، صاح الشياطين الصغار فى حماس :

ــ هل رأيت ؟

ــ نعم ٠٠ وأنت ؟

ــ لقد رأيت أنا أيضا ٠

وظلوا على حالهم هذا ، يرقبون الجونلات حتى طاردتهم احدى العجائز ساخطة على ما يفعلون ، ولكن ذلك لم يمنعهم من العودة بعد قليل ليتخذوا أماكنهم من جديد ٠

أما الرجال فكانوا أكثر عزلة ، اذ وقفوا متجمعين فى حلقات بالقرب من المنزل أو عند البوابة ، يتحدثون فى شئون القرية ، ويلقون بنظرهم أحيانا صوب الشبان الذين تجمعوا حول العازفين ٠ كان العمدة بشاربه الأبيض المفتول بطريقة ملفتة ، وعينيه الزرقاوين الكبيرتين ، يحاول جاهدا أن يحتفظ بوقاره أمام مجموعة من عجائز القرية ، مؤكدا حديثه بنبرة عميقة أو بحركة نشطة من يده فى بعض الاحيان ٠٠ أما «ستيفان هوتنوج» المزارع الغنى ذو الكرش الكبير ، الذى يربت بطنه باستمرار كأنما يعانى من ألم فيها ، فقد أخذ يجادل معارضا أقوال العمدة ، لا لشىء الا ليثبت لمن

حوله أنه لا يهمه أحد · وكان « تريفون تاتارو » يقف بين العمدة وستيفان، وهو رجل ربعة القوام ، ذو شعر كستنائى وصـــوت حاد ·· كان يدير عينيه مذعورا فيما بين الرجلين خشية أن ينشب بينهما عراك ، خاصة وأن الاثنين كانا من أقربائه ــ أقربائه البعيدين طبعا · وعلى مقربة منهم كان « الكساندرو جلانيتاشو » يقف كالكلب بباب المطبخ ، وقد أصغى بأذنيه محاولا أن يشارك ولو بكلمة على هامش الحديث ، وان لم يجسر على التدخل مع أمثال هؤلاء المزارعين الأغنياء ·

وعلى السقيفة كان « سيميون بوتونويو » يجلس وقد أحس أنه أرفع منهم مكانا ·· فقد كان مدرس القرية منذ حوالى عشرين عاما · وهو الآن يتقاضى خمسة « زلوتى » معاشا شهريا ، ويفلح أرضه بمهارة تفوق مهارة شاب فى مقتبل العمر · وقد تجمع حـــوله « ماكيدون سيرسيتاشو » ، و « كوزما كيوكاناش » ، وخفير القرية « سيميون لونجو » ، و « تودور بيرلاكو » ، و « ستيفان الينا » وآخرون ، والكل يصغى فى خشـــوع الى حكايات المدرس المعادة المكررة · وكان « سيميون بوتونويو » من حين الى حين يرسل عطسة هادرة تجعل النساء يجفلن فى ذعر ويســـتدرن ، أو تأخذه نوبة من نوبات سعاله المألوف الذى كان يقض مضاجع أهل القرية فى الليل ·· فكان « ماكيدون » ينتظر فى أدب حتى ينتهى الاستاذ من سعاله ، ثم يحضر زجاجة الخمر من فوق افريز النافذة ، ويرفع الزجاجة فى تكلف ليقذف فى فمه بجرعة ثم يمرر الزجاجة الى الرجل العجوز الذى ما يفتأ يغمغم ــ ليحفظنا الله جميعا ــ ثم يرفع الزجاجة بدوره الى شفتيه· وتدور الزجاجة على الجميع بينما يستحث « ماكيدون » ، الذى لعبت الخمر برأسه ، رفاقه على الشرب وهو يصيح فيهم آمرا بالالمانية :

ــ تقدم يا سيميون ·· هيا ياكوزما ·· هيا ! ··

كان قد خدم لمدة اثنى عشر عاما فى الجيش الامبراطورى النمساوى، واستمتع بتلك الفترة أيما استمتاع ، حتى انه كان عندما يعود الى بيته ثملا ، لا يتعارك مع زوجته الا باللغة الألمانية · ورغم عراكه مع زوجتـــه وهو ثمل ، فقد كان ذا قلب فى رقة الشمع · فهو لم يضرب زوجته مرة واحدة طوال حياته الزوجية التى تنيف على ثمانية وعشرين عاما · بل ان زوجته « فلوريا » فى الواقع هى التى كانت تعنفه أحيانا ·

وتصل الزجاجة أخيرا الى « تودور بيرلاكو » بعد أن نفد ما بها من شراب ، فيضحك « ماكيدون » فى سرور صائحا :

ـ فارغة ٠٠ هه ٠٠ أين الأونباشي ؟ ٠٠ تقدم ! ٠٠

فيقفز صبي في نحو العاشرة من عمره ليقف وقفة انتباه على السقيفة ويصيح ضاحكا :

ـ تمام يا افندم !

ـ فيصرخ فيه « ماكيدون » :

ـ لا ضحك في الطابور أيهـــا الوغد ٠٠ أتسمعني ! ٠٠ خذ هذه الزجاجة واجر بها الى حانة « أفروم » واطلب اليه أن يعطيك كمية أخرى لي ! ٠٠ هيا بسرعة أيها الأونباشي !

ولكن الأونباشي يرفض أن ينفذ الأوامر قائلا :

ـ لقد أخبرني أنه لن يعطيك شيئا آخر على الحساب يا سيدي ٠٠ فلا جدوى من ارسالي ، فهو لن يعطيني شيئا ٠

واد ذاك ينتفض شارب « ماكيدون » ، ويزم ما بين حاجبيه ، وينظر الى الغلام نظرة صارمة ، ثم يجلس على السقيفة ويهز رأسه متنهدا وهو يقول :

ـ هيه ٠٠ أين تلك الأيام الخوالي عندما كنت رئيسا للحرس ٠٠ أكان يجسر على رفض خدماتي آنذاك ! لو فعل لكنت علمته كيف يكون الأدب ٠

ويغمغم ببضع كلمات بصـــوت غير مســموع ، ثم يصمت ناظرا باكتئاب صوب زوجته التي كانت تحمل مالا ، ولكنها ترفض أن تعطيــه وقد راحت تثرثر مع النساء الأخريات دون أن تعيره أدنى اهتمام ٠

في تلك اللحظة كانت « سافيستا » الكسيحة تزحف خلال البوابة، وتشق طريقها بين أرجل القوم كأنها دودة تزحف ٠ كانت سافيستا ابنة عم « فلوريكا » أجمل فتيات القرية ، كما كانت تمت بصلة قرابة بعيدة لزوجة « تريفون تاتارو » ٠ ولما كانت ساقاها كسيحتين منذ مولدها فقد كانت تستخدم ذراعيها اللذين يبدوان لفرط طولهما ونحولهما كالخطاطيف في جر جسدها الكسيح ٠ كانت ضخمة الفم ، ذات شفاه باهتة اللون تخفي لثتها المبقعـة التي يغطيها الزبد وأســنانها المصفرة المتناثرة التي تبدو كأعقاب مدببة في فمها الكبير ٠ كان « تريفون » قد أبقاها في بيته لترعى أولاده ، فكانت كلما تحسن الطقس تخرج لتجلس بجوار المدخـل وتثير الشجار مع كل صغار القرية ٠ وكان يحدث احيانا أن يمر بها عابر

سبيل طيب القلب فيسقط فى حجرها قطعة من النقود ·· وأحدث وصولها الى الحفل شغبا كبيرا ، فقد راحت تهمس فى صوت جاف مضطرب بشىء غير واضح ·· غير أن أحدا لم يلحظها فيما عدا « تريفون » الذى أومأ الى زوجته « ماريا » التى هرعت اليها تسألها فى غضب :

ـ ألم يكن يمكنك البقاء فى البيت أيتها المرأة ؟ هل أصابت الحكة باطن قدميك حتى تتركى المزرعة وحدها فى مثل هذا الوقت من النهار ·· ولا أحد من الخدم هناك ؟ ·· ماذا تريدين ؟ ما الذى حدث ؟ ·· هيا ·· انطفى ·

كانت الكسيحة قد استغرقت ساعتين كاملتين فى الزحف من الحارة الرئيسيه ، حيث يقطن تريفون ، حتى وصلت الى هذا المكان · فبدأت تتلعثم فى انفعال وهى تشير اشارات يائسة مع كل حركة تأتيها ·

وصرخت امرأة تريفون وهى تحاول جاهدة أن تفهم ما تقول :

ـ ماذا قلت ؟ فاسيلى باكيو تعارك وتضارب مع أفروم ؟ ·· كلا ؟ ·· مع فلوريا كارونتو ؟ ·· وفيم يهمنى هذا ؟ وما شأنك أنت بهذا ؟ ·· هل هذا ما جئت من أجله كل هذه المسافة ·· حقا انك أسوأ من أكثر الاطفال غباء ·· انظرى كيف أصبحت ملابسك ! وأنا التى أعطيتك ملابس نظيفة هذا الصباح ·· ان هذا لكثير !

وغمغمت سافيستا شيئا أرادت به أن يفهم منه أن أمر الملابس لا يعنيها فى شىء ·· ومن ثم انفجرت ضاحكة ضحكة مرحة بلهاء ·

ـ ماذا ؟ ··· من المخمور ؟ ··· فاسيلى باكيو ··· وماذا يهم فى ذلك · انها ليست أول ولا آخر مرة يسكر فيها ···

وتركتها ماريا متضايقة وعادت الى حيث تقف زوجات المزارعين · بينما زحفت الكسيحة الى حيث تتجمع الصبايا ، شاقة طريقها متلوية بينهن ، وراحت تحملق فى الرقص بذهول · كانت سافيستا فى الخامسة والعشرين من عمرها ، وكان جسدها يرتجف من فرط السعادة كلما سمعت عزفا على الكمان ، أو كلما شهدت أى احتفال ·

ـ ٣ ـ

ولكن نشوة سافيستا لم تدم طويلا هذه المرة ·· فما كادت تستقر بعد أن تشاحنت طويلا مع الفتيات الأخريات لتفسح لنفسها مكانا

تنظر منه ، حتى توقف الرقص ·· فان بريسياج الذى كان يتصبب عرقا وقد بلغ به التعب مداه ، أنهى رقصة « الانفرتيتا » بضربة سريعة من قوسه تسبب عنها قصف أحد أوتار السكمان ·· واذ ذاك هرع « ايون » نجل جلانيتاشو ، الذى كان يحتضن بذراعيه خصر « أنا » ــ ابنة فاسيلى باكيو ــ هرع ناحية الموسيقيين مستعطفا :

ــ هيا يا بريسياج ··· اعزف لنا ولو لفترة قصيرة أخرى ! ·· هيا أيها الغجرى ··· بضع دقائق أخرى فقط !

بينما صاح شبان آخرون فى لهجة آمرة :

ــ استمر أيها الغجرى ! هل تحاول أن تخدعنا ؟ ··· لماذا ندفع لك اذن أيها الغراب الأسود ؟!

ولكن بريسياج القى بنظرة ازدراء الى الشبان الذين كانوا يتوعدونه، ثم خاطب ايون مشيرا الى كمانه ، قائلا بلهجة مقنعة :

ــ لا أستطيع أن أستمر يا ايون ··· بشرفى لا أستطيع ··· صدقنى ! فأصابعى قد أصابها الخدر ··· فضلا عن أن أحد الأوتار قد قطع ·

ولكن ايون راح يلح عليه أن يعزف ولو لفترة قصيرة · فانفجر الغجرى فجأة وقد أصابه الغضب ، واستدار ملقيـــا بكمانه بين ذراعى هولبيا وأخذ يسب فى مرارة قائلا :

ــ ألا لعنة الله على كل قيثارة فى العالم ! وليأخذ الشيطان ذلك الرجل الذى علمنى كيف أمسك قوس الكمان ·· أنا أقول لذلك الرفيق فى أدب ولطف انى لا أستطيع أن أعزف أكثر من ذلك وهو يســتمر فى اغاظتى طالبا أن أستمر ·· لعنة الله على كل الرقصات وعلى من اخترعوها !

وقف ايون لحظات قليلة يستمع فى دهشة الى شتائم بريسياج ، ثم استشاط غضبا وانفجر صائحا فى صوت أجش :

ــ كفاك هذا أيها الغراب ·· فلتشنق أنت وكل بنى جلدتك ! ·· امسك لسانك والا ضربتك حتى تتطاير أسنانك متناثرة حولك حتى تبلغ « حوش » الكنيسة هناك ! فلتخرس اذن !

ولما كان بريسياج يعرف ايون جيدا منذ زمن بعيد ، فقد أغلق فمه ولم ينبس ببنت شفة حتى تحرك ايون مبتعدا وهو يتمتم ببضع كلمات

بصوت غير مسموع ، وحينئذ انطلق الغجرى ورفاقه يسبون بالرومانية الدارجة ٠

أما الفتيان فقد احتضنوا فتياتهم ، شاكرين لهن مشاطرتهم الرقص ٠٠ وقاومت الفتيات وهن يهمسن فى سرور خجول :

ـ شكرا ٠

واجتذب ايون فتاته أنا برفق ، وضمها الى صدره برهة طويلة بعض الشيء ٠٠ فغمغمت الفتاة فى نعومة وقد كست صوتها نبرة سعيدة :

ـ دعنى يا ايون ٠٠ دعنى ٠

فرد ايون قائلا فى رقة :

ـ لا تنس يا أنا ٠ سوف اكون فى انتظارك عند ٠٠ أنت تعرفين المكان ٠

فلم تجب أنا ، ولكن عيناها كانتا تلتمعان فى فرح ٠ وراحت تحاول التخلص من بين ذراعيه وهى تهمس فى ضعف :

ـ دعنى أذهب يا ايون ٠٠ دعنى !

ولكن الشاب جذبها نحوه بقوة أكبر ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة شرسة وهو يمسك بثدييها كتفاحتين فى قبضة واحدة ، ويعتصرهما بقوة حتى شهقت أنا ألما ٠

وصوب ايون نظرة جائعة آمرة الى عينيها قائلا :

ـ اياك أن تجسرى على التخلف ٠

فوثبت أنا مبتعدة صوب الفتيات وقد تورد خداها ، وراحت تنفض التراب عن ملابسها وقلبها يخفق فى عنف ، ثم أخذت تتحدث الى مرجريتا، ابنة كوزما كيوكاناش ، وهى فتاة ثقيلة الظل عابسة الوجه ، تكاد ساقاها تشبهان الجرادل فى استدارتهما ، ويشبه ذراعاها أذرع الرجال ، ووجهها المتورد بادى العظام ٠ وأخذت أنا تقول :

ـ ان ايون هذا دائما ما ٠٠ فى الحقيقة ٠٠

خانتها الكلمات فلم تجد ما تقول ، فسارعت تغير الموضوع قائلة :

ـ ما أفظع الحرارة ٠٠ انى أكاد أذوب ٠

لم تكن مرجريتا قد رقصت هذه المرة ، فكان صدرها يعتمل غيرة وحسدا لمن رقصن ، ولذا لم تجب أنا ، بل راحت تحدق فى ترقب وشوق

صوب جماعة الفتيان الذين راحوا يحتسون كئوس البراندى أو يشعلون السجائر ٠٠ فقد كانت على أحر من الجمر مخافة أن يدعوها أحدهم للرقص فتفوتها ملاحظة دعوته ٠٠

وقف ايون يرقب أنا بضـع لحظات ٠٠ كان هناك شيء غريب فى نظراته ٠٠ خليط من التردد والدهاء الواضـح ٠ وعندئذ لمح فلوريكا ، ابنة ارملة مكسيم أوبريا ، واقفة غير بعيد ٠ كان ايون على علاقة بها حتى تلك اللحظة ٠٠ كانت فلوريكا تبدو قانطة مكسورة الخاطر ، لـكنها كانت أجمل منها فى أى وقت مضى ٠ وارتعشت أهدابه فى تجهم كأنما يحاول أن يطرد فكرة تراود ذهنه ، ثم نادى صبيا صغيرا وسأله :

ـ هل أحضرتها ؟

فأجابه الصبى فى أدب :

ـ نعم يا سيد ايونيكا ٠٠ وقد أعطيتها للعمة زنوبيا لتحتفظ بها ٠

وتحرك ايون صوب المجموعة التى تجلس أمه بينها ، بينما أضاف الصبى :

ـ لقد أعدها بحيث أصبحت غاية فى القوة ياسيدى ، وقد وضع فيها عشر قطع كاملة من السكر ٠٠ وقال انه أفضل من العسل ٠٠

كانت زنوبيا تمسـك بالزجاجة فى يدها ، وهى تشـكو للأرملة تودوسيا من اللمباجو اللعين الذى أصابها ولا يريد أن يتركها ، عندما سألها ايون فى اقتضاب :

ـ أين الزجاجة يا أماه ؟

وازدرد ايون جرعة كبيرة سائلا :

ـ وماذا عنك أنت ٠٠ ألا تأخذين جرعة ؟

فأجابته زنوبيا وهى تأخذ الزجاجة وتبتلع جرعة كبيرة :

ـ لا شأن لك بى ، فلست حاملا ٠٠ دعنى فى رعاية الله ٠

ثم أردفت قائلة :

ـ ياالهى ٠٠ ان مذاقه لحلو ٠٠ احترس يا بنى ولا تدعه يديررأسك ٠٠ انه لشديد المفعول ،ولا يعلم الا الله مدى ماسيدفعك اليه من مرحولهو ٠٠ ان المرء لا يستطيع أن يتكهن بما قد يفعله الرجل اذا ما أغرق فى الشراب ٠٠ ألا فليحفظنا الله ٠

أخذ ايون الزجاجة وانصرف مبتعدا ، دون أن يلقى بالا الى نصائحها ٠

كان الصبى قد ظل واقفا يحدق في نهم الى زجاجة الشراب ، فاعتراه شيء من القلق عندما رأى ايون يسير بها مبتعدا ٠ لكن قلقه لم يلبث أن تبدد اذ اختطف باقة الزهور من يد مرجريتا وانطلق بها فى لمح البصر ، مشيعا بسباب عنيف من الفتاة التى كانت ما تزال تنتظر فى أمل أن يدعوها أحدهم الى الرقص ٠

- ٤ -

صعد ايون فى هدوء فوق السلم المجاور لباب الحظيرة ، وراح ينظر الى أنا التى ظلت تراقبه لحظـــة ، ثم لم تلبث أن لحقت به فى خطوات متعجلة ٠ كان وجهها محتقنا حتى أصبح لونه كالجمر ، واعتراها شعور عميق بالخجل اذ خيل اليها أن كل الأعين مسلطة عليها ٠

كان هناك بستان فسيح بعض الشيء خلف شونة المحاصيل ، تتناثر فيه أشجار الفاكهة ويقسمه الى نصفين ممر يؤدى الى « جيرلابوبيى » — غدير الفس — ويمتد حتى مؤخرة حانة أفروم ٠ وكان شذى أكوام البرسيم الذى جز حديثا وصف فى أكوام صلبت بأعمدة قوية ، يملأ المكان بأريج عطر ٠

سار ايون خطوتين أو ثلاثا على الممر ، ثم استدار الى اليسار وجلس تحت شجرة جوز عتيقة مجوفة ، متخذا من أحد جذورها المفتولة مقعدا ٠ ولحقت به الصبية وجسـدها يرتجف صـبابة ، وعيناها تلتمعان جذلا ٠ وجلست بجواره دون أن تنظر نحوه وهى تغمغم :

ــ أجالس أنت هنا ؟

وأجاب الفتى فى هدوء :

ــ ان المكان هنا أجمل ٠

ثم رفع الزجاجة بسرعة قائلا :

ــ فى صحتنا يا أنا العزيزة !

فأجابت أنا وهى تنظر فى قلق الى الممر حيث كان الناس لا ينقطعون عن السير فى طريقهم من الحانة أو اليها :

ـ أتمنى لك حظا سعيدا يا ايون !

ـ ألا تشربين يا أنا ؟ ·· لقد أحضرته خصيصا من أجلك وجعلته حلو المذاق كشفتيك ·

فأجابته في صوت هادئ :

ـ انى لأتمنى زوال الخمر من العالم كله · ان مجرد رائحتها تصيبنى بالغثيان · ان أبى لايدع يوما واحدا يمر دون أن يشرب حتى الثمالة ·· اننى لأعجب الام سيئول حالنا ·

فأجاب ايون :

ـ ان الرجل يشرب ليغرق متاعبه ·

ثم أضاف فى نبرة مختلفة :

ـ هيا يا أنا ، تناولى كأسا ·· هذه المرة فقط ·· لتبعثى السرور الى نفسى ···

وتناولت أنا الزجاجة ، وما كاد الشراب يبلل شفتيها حتى قطبت وأعادتها بسرعة وهى تسعل ضاحكة ، وقالت :

ـ يا الهى ! لا أستطيع ·· ان له مذاق السم !

فأجابها ايون وهو يرفع الزجاجة الى شفتيه :

ـ كلا ·· انه ليس كذلك ، انه أكثر من جيد ·

وساد بينهما الصمت لحظات لم يجرؤ أحدهما فيها على النظر الى رفيقه · ثم مد الشاب ذراعيه حول خصرها وأطلق زفرة حارة وهو يقول .

ـ آه يا أنا ·· ان بقلبى أشواقا حارة !

تجهم وجه أنا النحيل الذى لوحته الشمس ، وظهرت عليه آثار المعاناة وهى تئن قائلة :

ـ آه لو تعلم كم أقاسى ·· عسى الله الا يبتلى أحدا بمثل ما أعانى · لقد قرر أبى أن أتزوج جورج ، ابن توما ، ولا أحد سواه · وانه لصعب على أن أتزوج برجل لا يهواه قلبى ·

حدق ايون بامعان فى شفتيها الرقيقتين وهما تنفرجان عن أسنانها الجميلة البيضاء فى لون اللبن ولثتها الوردية · كان يعرف جيدا أن فاسيلى باكيو رجل عنيد صلب الرأى ، وأنه اذا ما قر قراره على شىء

سار فيه حتى النهاية ، حتى لو اضطر أن يقود مركبته وسط كل حفر العالم وأخاديده • ولكن هــــذا نفسه هو ما كان يجعل ايون أكثر عنادا واصرارا •

وراح يقلب الأمر على كل الوجوه •• فهو لم يحب أنا قط ، وحتى فى تلك اللحظة لم يكن متأكدا ما اذا كان أمرها يعنيه •• فقد كان غارقا فى حب فلوريكا ، وكان كلما رآها ، أو طافت بخياله ذكراها أحس أنه ما زال مفتونا بها • كان يحمل فى قلبه آثار ضحكاتها المرحة ، وشفتيها الرطبتين الممتلئتين ، وخديها اللذين يشبهان خوختين ناضجتين ، وعينيها الزرقاوين كسماء الربيع الصافية • ولكن فلوريكا أرق منه حالا ، بينما تمتلك أنا أرضا وبيوتا وكثيرا من الماشية ••

كان ينصت لصوتها الملىء بالشجن وهو يشعر بالاسف من أجلها ، ولكن عقله كان مع فلوريكا • ثم هب واقفا فجأة ، وضم الفتاة الى صدره، ودون أن ينطق بكلمة طبع على شفتيها قبلة طويلة •• فأحاطت الفتاة عنقه بذراعيها ، وأحست بقواها تخور والدماء تلتهب فى عروقها ، وراح قلبها يدق فى عنف حتى ليكاد الفتى يسمع كل دقة من دقاته •

وانتفضا فجأة على صوت أجش يصيح بهما من ناحية الممر :

ـ مرحى يا ايون •• مرحى !

نظر ايون غاضبا تجاه الصوت ، فوجد ايليا أونو الذى كان عائدا من الحانة وفى يده زجاجة من الخمر ، وهو يضحك مازحا فى صـوته الأجش •

وانفجر ايون صائحا فى عنف :

ـ ألا عليك •• وليسامحنى الله •

وكان ايليا اذ ذاك قد بلغ مخزن الغلال واختفى • كان ايليا صديقا حميما لجورج ، وما كان ليدخر جهدا فى الاساءة الى ايون الذى كان قد ضربه علقة ساخنة فى حفل زفاف منذ مدة وجيزة بسبب أخلاقه الشرسة•

كان ايليا قد ذهب لاحضار زجاجة من البراندى لجورج الذى كان منهمكا فى محـــاولة تلقين بريسياج لحنا جديدا كان قد سمع الموسيقيين يعزفونه فى بيستريتسا ذات ليلة مرحة عنـدما كان هنـــاك مع الطبيب « فليبو » فى مشرب البيرة الكبير • وراح بريسياج يتتبع شفتى الشاب الذى كان يصفر له اللحن ، بينما راحت أصـــابعه تداعب أوتار كمانه

متعثرة ، وهولبيا المخلص يحاول جاهدا أن يتابعهما • وراح جورج يصفر في قوة وقد انتفخ شدقاه ، وضاق ما بين عينيه ، وهو يرى الشبان وقد تجمعوا حوله يرقبونه في اعجاب •• ثم توقف في منتصف اللحن ليسأل بريسياج :

ـ حسن •• هل عرفته ؟

فاجابه بريسياج في صوت خفيض :

ـ نعم ، أعتقد أنني قد عرفته الآن •

وأخذ يزداد ثقة بنفسه مع كل حركة من حركات القوس •

صاح ايليا وهو يرفع الزجاجة في يده :

ـ هأنذا قد حضرت ياجورج •

فأجابه جورج وهو يأخذ جرعة ويعيد الزجاجة اليه ثانية ليستأنف تدريب الموسيقيين على اللحن الجديد :

ـ لقد عدت بسرعة •

وسأله هولبيا متزلفا وهو يخزه بقوسه :

ـ ألا تعطنا كأسا نحن أيضا ، يابن العم ؟

وأجاب جورج في ضحكة مكتومة ، وهو سعيد بأن يرى كل الواقفين حوله كيف يعامل الموسيقيين الغجر في سخاء :

ـ حسن أيها الطيور المغردة •• لعنة الله عليكم !

وعندما حاول جافن أن يعيد الزجاجة اليه قال جورج :

ـ فلتشربوها كلها •

وعندئذ قفز ايليا صائحا كالديك :

ـ ايه •• كفاكم هذا •• فلنأخذ كأسا نحن أيضا •• والا ستنفجر الغربان بكل ما في بطونها من شراب كثير •

واستمر « النقار » بين ايليا والغجر فترة غير قصيرة ، فما كان الموسيقيون راغبين في التخلي عن البراندي عنطواعية • وكاد الامر يتطور الى شجار عندما اندفع ايليا ، وقد أعماه الغضب ، محاولا أن يكسر آلة الكونترباص •

- ٥ -

وفجأة استدار القوم ناحية الطريق ، وخلع الرجال جميعا قبعاتهم ، ووقف من كانوا جالسين على السقيفة ..

كان الأب « بلكيوج » قادما ، وفى رفقته السيدة ماريا هرديليا زوجة معلم القرية ، والآنسة « لورا » و « تيتو » . وتقدم العمدة وكبار رجال القرية للترحيب بالقادمين الأفاضل .

وسأل القس وهو يبتسم ابتسامة رقيقة :

ـ لعلكم تمضون وقتا طيبا ؟

وأجاب العمدة وقبعته في يده :

ـ وماذا عسانا نفعل غير هذا ياأبى .. لقد منح الله الناس الاجازات ليستمتعوا بها .

وغمغم الأب بلكيوج وابتسامته تزداد اتساعا

ـ هذا صحيح .. هذا صحيح .

فأضاف فلوريا تانكو بصوت رقيق وهو يضع قبعته على رأسه :

ـ ألا تأتى لمشاهدة رقصنا يا أبى ؟

وأخذ القرويون يعيدون قبعاتهم الى رءوسهم بينما راح القس يهمس ببضع كلمات الى السيدة هرديليا التى ألقت برأسها الى الوراء فى كبرياء وأجابت مؤكدة :

ـ نعم نستطيع أن نبقى بضع لحظات .. فاننى أستمتع تماما بهذه الاحتفالات الريفية .

كانت ماريا هرديليا ابنة فلاح من بلدة مونور ، ولكنها اذ كانت ترتدى دائما ملابس المدينة ، خاصة وقد تزوجت مدرسا .. فقد كانت تعتبر نفسها أرقى بكثير من عامة الناس ، وكانت تضمر شعورا بالازدراء المشبع بالعطف لكل ما هو ريفى ..

وصاح العمدة وهو يدفع بالقرويين الذين احتشدوا حولهم جانبا :

ـ تفضلوا .. تفضلوا .. أفسحوا أيها القوم الطيبون.. أفسحوا!

وسارع بعض الوجهاء لمساعدة العمدة صائحين بالناس :

ـ تحركوا ... افسحوا مكانا !!

فتقدم بلكيوج بضع خطوات عبر الفناء وتوقف بجـــوار الباب ٠ واندفعت الزوجات الورعات العجائز تقبلن يده ، فمد القس لهن يده فى رضى يفعم ملامح وجهه الواهن الذابل وهو يغمغم :

ــ كلا ٠٠ كلا ! ٠٠ كفوا عن هذا ٠٠ أرجوكم !

كان الشبان رغم ما نالهم من ارهاق فى الرقص مازالوا يفكرون فى معاودته ، فظلوا متكاثرين حــول الموسيقيين ، أما جورج الذى كان تواقا دائما لاظهار فطنته فقد شق لنفسه طريقا بين الكبار ، منــاضلا بمنكبيه ليقترب من القس ومن أسرة المدرس ٠٠ وقد سار ايليا فى أعقابه ككلب أمين ٠

كان تيتو هرديليا شابا حليقا نحيلا كالعصا ، فى نحـــو الثالثة والعشرين ، يرتدى بزة متواضعة ولــكنها أنيقة ، وقميصا أبيض ذا ياقة منشاة ، ورباط عنق أزرق سماوى ٠ ولم يكد تيتو يلمح جورج حتى مد له يده المغطاة بقفاز من القطن الرمادى صائحا :

ــ أهلا جورج ٠٠ لقد حضرنا لتونا لمشاهدة الرقص ٠٠ ألن ترقص ثانية ؟

فأجابه جورج فى نبرات لينة مسترضية :

ــ بلى يا سيد تيتو ٠٠ ان الغجر يستريحون بضع لحظات ٠٠ فقد عزفوا طويلا حتى كادت أرواحهم تزهق ٠

ثم اقترب منه مضيفا :

ــ وأنت ياسيد تيتو ٠٠ ألن تشاطرنا الرقص ؟

ضحك تيتو ونظر الى لورا التى أجابته بابتسامة حيرى ٠ فقال :

ــ أنا ٠٠ لا ياجورج ٠٠ ليس الآن ٠٠ لندع ذلك لمرة أخرى ٠

لكن الفتى ألح قائلا :

ــ سوف أعطيك فتاة ، ياسيد تيتو ، يسيل لها لعابك ٠ فتاة فى خفــة الريشة ، حلوة كأميرة ٠٠ ولكن الآنسة لورا يجب أن ترقص هى الاخرى ٠

فغمغمت شقيقة تيتو وهى تمسك بذراع أمها فى انزعاج وقد بدت على وجهها فجأة ملامح الجد :

ـ يالها من فكرة !! انى لأتساءل لم لا ٠٠

وكان القس يتحدث الى العمدة وغيره من القرويين عن الطقس ، والكل يوافقه على أنه سيكون شيئا رائعا لو أن الله من عليهم بجرعة أخرى من الامطار تبلل الارض ، والا فان عزق الذرة مرة أخرى سيكون أمرا شديد المشقة ٠

كان جورج ما زال يلازم تيتو ولورا كأنه علقة ، مما زاد فى سخط السيدة هرديليا ، التى لم تكن تطيق اختلاط ابنتها بالفلاحين ٠

لاحظ تيتو أن القرويين قد تجمعوا حوله لينصتوا الى توسلات جورج فأراد أن يغير موضوع الحديث ، فنظر حوله فجأة وكأنما تذكر أمرا ، وتساءل وقد علت شفتيه ابتسامة ازدراء خفيفة :

ـ أين ايون ؟

وعلى الرغم من أن جورج كان يعلم أن ايون هو أقرب الاصدقاء الى قلب السيد تيتو من بين شبان القرية جميعا ، فقد أحس بلذعة غيظ لسؤال تيتو عنه ٠٠ وأجاب على مضض :

ـ لا بد أنه فى مكان ما هنا ٠

واذ ذاك أسرع ايليا أونو ، الذى كان واقفا خلفه ، قائلا :

ـ كلا ٠٠ انه فى الحديقة ، تحت شجرة الجوز ، مع أنا ٠

وصاح جورج وهو يستدير فى عنف كأنما أصابته لطمة ، سائلا :

ـ أين ؟

فأجابه ايليا باقتضاب وقد علت وجهه ابتسامة رضا :

ـ انه هناك حيث قلت ٠

نكس جورج رأسه ولبث صامتا ٠٠ ولما لم يفه أحد بكلمة فقد انتهز تيتو الفرصة ليتخلص من دعوة جورج له للرقص ، وسارع بالسير نحو بلكيوج الذى كان قد بدأ لتوه يقص على الرجال كيف استأصل الاطباء العظام فى مستشفى مدينة كلوج احدى كليتيه ٠

كانت كلمات ايليا قد أصابت جورج فى الصميم ٠٠ فقد كانت أنا ، ابنة فاسيلى باكيو ، هى العروس التى اختيرت له ٠٠ وكانت لها بائنة طيبة ، وكان هو يشعر بأنه ند لها ، فأهله هو الآخر من المزارعين الاثرياء ٠ كانت الأسرتان قد اتفقتا على ذلك منذ وقت بعيد ، كما كان يحس أن أنا

تلائمه تماما • حقيقة أنها ليست فائقة الجمال ، ولكنه هو الآخر لم يكن بالغ الوسامة •• بل لعله كان أقرب الى الجسامة والضخامة ، فقد كان عريض المنكبين كالثور ، اذا سار فبخطوات متثـــاقلة وقد انثنت ركبتيه تحته لفرط ثقله •

كان يغلي غضبا •• وما فتىء يفكر في شـــق طريقه عبر الممر الى الحديقة ليراها وهي تحدق في عيني ايون • ولكنه اســـتبعد هذا الخاطر هامسا لنفسه أن هذا قد يضر أكثر مما ينفع ، فضلا عن أنه قد يؤدي الى شجار ؛ خاصة وأن ايون أكثر عدوانا من ذئب جائع •• يضاف الى هذا أن الفتاة لو عرفت أنه يعلم بأمرها فسوف يزيدها هذا عنادا في موقفها منه • ولعله من الافضل أن يتركهما وشأنهما •• ولعل قيراطا من المكر أفضل من فدان من الشجاعة أحيانا •

ولكن ماالذي يجري وراءه ايون؟ ولماذا يحاول أن يستميل الفتاة؟•• ونظر لا اراديا نحو فلوريكا ، ابنة أرملة مكسيم أوبريا• كانت تقف مغتمة حزينة مثله تماما • وهي على الارجح تعلم ما يعلمه ويقلقها نفس الذي يقلقه •• وخفف هذا بعضا من غضبه • فعندما يشاطرك الآخرون آلامك تكون المعاناة أكثر احتمالا • وأطلق زفرة عميقة من أعماق قلبه ، وجذب قبعته فوق عينيه قائلا لنفسه :

ـ من الآن فصاعدا سوف أرقص مع فلوريكا •• وفلوريكا وحدها• ان هذا على الاقل سوف يصيبه في صميمه !

- ٦ -

أخذ الموسيقيون يعبثون بآلاتهم في ضجيج مرتفع ليعلنوا للجميع ، وخاصة لأولئك الذين كانوا يهيمون في الحديقة ، أن الرقص يوشك أن يبدأ ثانية • وأخذ الشبان يدقون كعوبهم في صبر نافذ وهم يشهقون بين الفينة والفينة ، وتتابعت نظراتهم الى الفتيـــات اللائي وقفن ينتظرن أن يدعين الى حلبة الرقص في تشوق ولهفة •

في هذه اللحظة برز فاسيلي باكيو قادما على الطريق ، وقـد غطى أذنيه بقبعته ، وبدت عيناه حمراوين في لون الدم ، غائمتين كأنما غطتهما غلالة من الضباب من فرط الشراب• كان فاسيلي يصفر أحد ألحانه المرحة،

ويدور حول نفسه مترنحا بعض الشيء ، ويحرك ذراعيه كأنما يجادل في عنف خصما وهميا • وعندما لمح الجمع الذى التف حول علية القوم توقف لحظة يفكر في جمود ، ثم انطلق رأسا الى الأب بلكيوج قائلا :

ـ انى لشـــديد الاثم يا أبى •• أنا خاطىء كبير جدا •• جدا •• جدا •• وهذه هى الحقيقة • اننى ســكير •• ولا يرجى منى خـير على الاطلاق • انك لن تجد من هو أسوأ منى فى كل القرى السبع المجاورة •• فلتساعدنى •• ألا تريد أن تساعدنى ! أنا فعـــلا أستحق ألا تمد لى يد المساعدة ! •• ان الحقائق لا يمـكن انكارها ، أليس كذلك يا أبى ؟ أنا أشرب لأغرق أحزانى ، أليس كذلك ؟ •• واذا كنت أشرب فأنا انما أشرب على حسابى ••

كان القس قد قطع قصته ، وتجهمت ملامحه ، وحدج فاسيلى باكيو بنظرة قاسية ، بينما كان الفلاح يهمس فى تواضع وقـــد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة كأنما يعترف حقا للقسيس، غير ملق بالا الى الناس من حولهما ، بل الى أى شىء فى العالم •

ـ صدقنى يا أبى ، اننى مهموم أشد الهم •• منزعج أشد الانزعاج ! •• لعلك لا تصدقنى ، ولكن هذا هو السبب فى مداومتى على الشراب ! ان ما أقوله لك هو الحقيقة • وقد تسأل يا أبى ما الذى يزعجك ويكدر بالك أيها السكير ؟ ولكن كيف لا أكون منزعجا ومهموما يا أبى ؟ ان لى ابنة كما تعلم ، وأنا لست راضيا على الاطـــلاق عن ابنتى هذه • أنا لست راضيا عنها •• لست راضيا •• فهى لا تطيعنى •• ان هذا يحطم قلبى تماما•• ولكنها لا تكترث بما أقول • قل لى يا أبى ، هل أنا على صواب أم اننى مخطىء ؟

لم يكن بلكيوج قادرا على تحمل رائحة الشراب ، فقد كانت صحته أوهن من أن تتحمل ما تسببه له من غثيان ، ولكن فاسيلى استمر يلهث ويتجشأ دافعا بأبخرة الخمر الى أنفه • ولكن ما أثار امتعاضه أكثر من أى شىء فى سلوك ذلك القروى هو تحديه لسلطـــانه أمام الناس • أما السيدة هرديليا فكانت تنصتفى وقار شديد ، وقد رفعت رأسها، وزمت شفتيها ، وراحت ترمق بغضب أولئـك الرجال الذين تجمعوا حولهم فى فضول وراحوا يضحكون من ذلك المشهد الذى قدمه باكيو • أما تيتو فكان على العكس من ذلك يستمتع برطانة السكير أيما استمتاع ، وكان يحاول جهده أن يدفعه فى غفلة من القس للاسترسال فى حديثه •

وابتلع بلكيوج غضبه وراح يحاول أن يهدىء من ثائرة باكيو وهو يلومه فى رفق قائلا :

ـ كلا يا فاسيلى ٠٠ انك لست على حــق ٠٠ انك حتى لا تشعر بالخجل أمام هؤلاء الشــبان الذين يرونك دائمــا تترنح فى الطريق كأى سكير ٠ان الرجل الشريف لايضيع وقتــه هكذا ٠٠ لايفعل شيئا ســوى زيادةدخل أصحاب الحانات اليهود وتسميم نفسه بمشروباتهم الشيطانية٠ هل تفهمنى يا فاسيلى ؟

جذب باكيو نفســه على الفــور وشــد قامته فى هــدوء ، ثم تراجع خطوتين وأجاب بلهجة تأنيب ساخرة :

ـ كيف تقول ذلك يا أبى ؟ هل أسأت الى أحد قط ؟ هل شربت بمال أحد أو ثروته ؟ صــحيح أننى أشرب ، ولا اســتطيع أن أنــكر هذا ٠٠ ولكننى أشرب بثمرة جهدى ٠٠ بعرق جبينى ٠٠ لماذا تظلمنى اذن على هذا النحو ؟ أى خطأ ارتكبته فى حقك ؟ أخبرنى بالحقيقة !

ورأى العمدة أنه من الأنسب أن يتدخل فى الأمر ، فأمســك بذراع باكيو وراح يدفعه جانبا قائلا فى لهجة مهدئة :

ـ انك على حق تماما يا فاسيلى ، فالأمر كما تقول تماما ٠٠ ولكن هذا يكفى الآن ٠٠ دع السادة وشأنهم ، فقد حضروا ليشهدوا الرقص ، لا ليستمعوا الى ثرثرتك ٠

ثم استدار ناحية الشبان وصاح بهم فى لهجة آمرة :

ـ هيا أيها الفتيان ، ماذا تفعلون عندكم ؟ هل سترقصون أم لا ؟

وفى تلك اللحظة لمح فاسيلى باكيو جورج الذى كان يقف محزونا ، كالشجرة الجوفاء ، فأمسك بيده وجره أمام القس قائلا :

ـ ها هو ذا يا أبى ! هل تراه ؟ هذا هو زوج ابنتى الذى أحبه ! عليك أن تزوج ابنتى له ، وليس لأحد آخر ، حتى ولو انشــق قلبهــا نصفين !

فأجاب جورج بارتباك وهو يغتصب ضحكة :

ـ حسن يا سيد فاسيلى ، سوف نرى ٠٠

ولكن الرجل هدر ثائرا :

ـ لا ٠٠ لن أرى ٠٠ أتسمعنى ؟ اننى أريد زوجا صالحا لابنتى ٠٠ لست أريد لها ثرثارا مائعا ٠٠ سوف أزوجك الفتاة وعليك أن تمسك بسوطك وتطردالاوهام من رأسها ! ٠٠ لا أريد أن أسمع عن أولئك الصعاليك الذين يحاولون تملقها والتودد اليها ٠٠ كلا لا أريد هذا ٠٠ لا أريده ٠٠ وما دمت لا أريده فسوف أدفع بعنقها على خشبة الفرم وأجهز عليها بضربة واحـدة من بلطتى ، حتى ولو علقونى من أجل ذلـك على المشنقة ٠٠ أليس هذا صوابا يا جورج ؟

فغمغم الشاب مطيبا خاطره :

ـ هذا حق ٠

ونظر فاسيلى حوله فى زهو المنتصر وبصق بين قدمى العمدة ٠ ثم انطلق ناحية جمع الفتيات كأنما تذكر شـيئا ، وراح يشـد جورج فى أعقابه بعنف صائحا بأعلى صوته :

ـ آنى ! ٠٠ آنى ! أين أنت يا ابنتى ؟

وتورد وجه جورج خجلا كما لو كان قد ألقى به فى أتون ملتهب واجتاحه مزيج من مشاعر السخط والخجل ٠ وراح فجأة يتمتم فى صوت خفيض حتى لا يسمعه الآخرون :

ـ لا تزعج آنى ٠٠ انها فى الحديقة مع ايون جلانيتاشو ، تحت شجرة الجوز ٠

أجفل باكيو كأنما أصابته لدغة ، وأطلق صرخة مدوية ، وأسرع فى خطى متعجلة صوب ناصيه مخزن الغلال حيث كانت أنا قد ظهرت لتوها وهى ترتجف رعبا بعد أن سمعت صوته المدوى ٠ وتوقف القروى لساعته وسط حوش المزرعة وقد انفرجت ساقاه ، وانثنت ذراعاه ، وبرز كرشه ، وراح يرشق أنا بنظرات كالخناجر ٠ وظل واقفـا هكذا لحظة ، ثم انفجر فيها :

ـ أهذا ما اتفقنا عليه يا آنا ؟

واندفع نحوها وقد رفع قبضته ليضربها ٠٠ فصرخت امرأة فى يأس :

ـ انقذوها ! انقذوها ٠٠ سوف يقتلها ٠

وقبل أن يصل فاسـيلى الى الفتاة ، لمح ايون الذى كان قادما من

خلف مخزن الغلال ، فنسى أمر آنا واندفع متوعدا نحو الشاب • وتردد ايون لحظة عندما رأى فاسيلى متجها نحوه ، ثم استأنف طريقه بهدوء ناظرا بلا مبالاة صوب باكيو ، كأنه لا يعلم شيئا عما يجرى •

وهدر فاسيلى باكيو وهو يقترب من ايون وقد استشاط غضبا لما بدا على الشاب من رباطة الجأش :

ـ بماذا نبهت عليك أيها الصعلوك !

أحس الفتى بوقع الاهانة كأنها طعنة خنجر ، واتقدت عيناه السوداوين بشرر الغضب وهما تلتمعان كخرزتين متقدتين •• وأجاب فى صوت تشوبه رجفة رغم نبرة الازدراء الواضحة فيه :

ـ ماذا تظنني حتى تصدر الى أوامرك هكذا ؟ أتحسبنى خادما عندك؟

فصاح القروى وهو يرتجف غضبا من قمة رأسه حتى أصابع قدميه :

ـ سوف أملى عليك أوامرى أيها الوغد ، واذا لم تستمع الى صوت العقل فسوف أضربك حتى تتكسر عظامك •

وأتبع هذا بأن وثب مندفعا نحو ايون •

وتوقف ايون وقد ضم قبضتيه وصاح فى صوت مختنق كأنما يحاول أن يسيطر على نفسه :

ـ اياك أن تجرؤ على لمسى يا سيد فاسيلى ••

ووثب بعض الرجال والشبان نحو فاسيلى ليمسكوا به ، بينما وقف ايون أمامه منتصبا كالصارى دون أن يطرف له جفن ، وان كان قلبه قد راح يدق بين ضلوعه كمطرقة متقدة • كان ايون قد قرر فى البداية أن يتجنب الدخول فى عراك مع فاسيلى ، فقد كان الأخير سكرانا ، فضلا عن أنه والد أنا •• ولكن ايون فقد صوابه عندما توعده فاسيلى وتهجم عليه ليضربه • كانت الدماء تغلى فى عروقه ، وراح ينتظر فى لهفة أن يمسه فاسيلى ولو بطرف اصبعه حتى يسحقه ويمزقه اربا ، خاصة وقد لمح جورج يقف خلفه يرقب ما يجرى فى ازدراء ورضى •

كان باكيو يحاول التخلص من أيدى الرجال وهو يهدر بلا توقف :

ـ دعونى ! •• دعونى أمسك به لأمزق أحشاءه ! •• لابد أن أناله وأشرب من دمه والا سأنفجر ! •• دعونى ! •

ولكن القرويين دفعوه ، أو بالأصح حملوه حملا الى البوابة بينما كان هو يتلوى بين أيديهم ويصيح قائلا :

ـ ما الذى يريده هـذا اللص من ابنتى ؟ ماذا يريـد ؟ ٠٠ دعنى يا نستور ! ٠٠ دعنى ! ٠

أحس ايون بالدماء تصعد الى رأسه ٠٠ كانت ساقاه ترتجفان وقد جف حلقه كأن نارا قد دبت فى جسده ٠٠ كانت كل كلمة كأنها طعنه فى صميم قلبه ، وفاقم احساسـه هـذا أن يجرى هذا كله أمام القرية كلهـا ٠ وكم ود لو وثب فوقه وكال له ضربة سـاحقة تجعله يغص بشتائمه ٠ ولكنه كلما راودته هذه الفكرة كانت أنا تلوح لعينيه فتصده ٠ وراح يتلفت حوله ليرى أين تقف ، ولكن الفتاة كانت قد هربت الى بيتها باكية فى ضجيج الاحداث ٠ كانت النساء والفتيات اللائى تناثرن كسرب من الأوز أخافه صقر جارح يرقبن ما يجرى من الحارة الرئيسـية ومن الأفنية المجاورة وهن يتوقعن فى كل لحظة أن تنشب المشاجرة ٠ وانتهز القس فرصة الهرج الذى ساد ، وانصرف قائلا للسيدة هرديليا فى نبرات ساخطة :

ـ ان أمثال هؤلاء « العصبجية » ينبغى أن يسلموا للشرطة كى تدق عظامهم ٠٠ ان هذه هى الطريقة الوحيدة كى يعودوا الى صوابهم ٠ انه لمن المؤسف أن ايون لم يطرحه أرضا ٠٠ فلم يكن هذا يؤذيه كثيرا ، وهو يستحق هذا فعلا ٠

هزت السيدة زوجة المدرس رأسها فى عصبية ، ورفعت أذيال ثوبها حتى لا تكنس بها غبار الطريق ، وسارت فى حذر مع بلكيوج ولورا ٠ أما تيتو فقد سار فى المؤخرة وهو يأسف أنه لم تسنح له فرصة مشاهدة نهاية الشجار ، وراح يدير رأسه نحو المتشاجرين وهو يسير مبتعدا ٠

كانت حلبة الرقص قد خلت تماما ٠٠ فقد انسحب الموسـيقيون الغجر فى خوف الى مخزن الغلال ، وأسند جافن آلة الـكونترباص الى الحائط فى أحد الأركان ، منتويا أن يدافع عنه بأظافره وأسـنانه حتى لا يحطمه المتشاجرون ، بينما التف الشبان حول ايون وراحوا يثيرونه قائلين :

ـ كيف تدعه يسبك هكذا ؟ كان ينبغى أن تترك على جسده أثرا يتذكرك به الى الأبد ٠

كان بعض أصدقاء جورج يقفون على بعد وقد تجهمت منهم الوجوه • ولم يلبث جورج أن انضم اليهم ، وتبعه ايليا أونو الذى كان يسير لصقه كظله •

وقال جورج لايون وفى صوته نبرة ضيق طفيفة :

ـ انظر كيف فسد الحفل بسبب ما حدث !

لكن ايون لم يكن قادرا على أن يرى أو يسمع أى شىء •• بل وقف مسمرا الى الارض وقد غمره احساس بالعار ، وراح يحدق فى جمع من الرجال يتوسطهم فاسيلى باكيو مناضلا للتخلص من بين أيديهم ، وفكرة ضربه وسحقه لا تبارح ذهنه •

وتبادل جورج بضع كلمات مع أصدقائه ، ثم نادى الموسيقيين فى غطرسة قائلا :

ـ هيا •• أيها الغجرى •• لنذهب الى حانة أفروم •• فلا فائدة من البقاء هنا •

ودوى الصوت كالنفير فى أذن ايون ، وفى وثبتين كان يقف بجوار بريسياج ويأمره فى لهجة قاطعة :

ـ هيا !

كانت عيناه مليئتين بسخط ملتهب ، فما كان من بريسياج الا أن هز كتفيه لجورج ، ورفع كمانه وراح يعزف لحنا مرحا • وأخذ أصدقاء ايون يدقون الأرض بأرجلهم وهم يصيحون فى انتصار ، مصاحبين اللحن بصيحاتهم وشهقاتهم ، وطرقعة أصابعهم ، حتى اهتزت الأرض من فرط ضجيجهم • وسار ايون فى اتجاه البوابة ، وتبعه الآخرون وهم يصفرون ويتصايحون •• وتبعهم الموسيقيون وهم يعزفون موسيقاهم ، وعلق جافن الكونترباص فى رقبته وسار به وقد تكوم كذكر الاوز المحشى• وتوقف الجمع فى الحارة الرئيسية لحظة وهم يرقصون ويدقون الأرض بأرجلهم ، مما أثار اعجاب الفتيات اللاتى كن يراقبنهم خلال أبواب الأفنية • ومن ثم انعطف الجميع الى اليسار وهم يطلقون صرخاتهم على ايقاع الموسيقى ، يتبعهم جمع غفير من الأطفال •

كان جورج قد مكث مع أقرانه بجوار شونة الغلال ، وقد تملكه الغضب اذ لم يجرؤ على معارضة ما حدث • وكان ما يثير غضبه أكثر وأكثر أنه هو الذى اتفق مع الموسيقيين ودفع لهم جزءا من أتعابهم تحت الحساب،

وكان عليه أن يدفع لهم بقية أتعابهم ليكمل المبلغ الى أربعة « زلوتى » • صحيح أن المبلغ سيجمع من الشبان جميعا ، اذ سيدفع كل منهم عشرين « كرويتزر » ، ولكنه كان عليه أن يتشاجر مع كل واحد منهم تقريبا حتى يتم له جمع المبلغ ، خاصة وأن بريسياج لم يكن على استعداد لامهاله فى السداد بعد أن أكلوا حقه فى مرة سابقه • كان قد قبل القيام بهذه المهمة رغم ما فيها من مشقة ، لما كان يراه فى ذلك من رفع لشأنه وسط أقرانه • ولكنه عندما رأى الجميع ينحازون الى صف ايون أحس بالمهانة ، خاصة وقد حدث ذلك بعد أن علم الجميع بمغازلة ايون لأنا •

ألقى جورج بنظرة اشتياق صوب الشبان الذين ساروا مع الموسيقيين وداعبته فكرة الاختلاط بهم والتظاهر بعدم الغضب • ولكنه وجد أن ذلك سيحط من قدره فى عيون أقرانه • ولذا ما كاد الآخرون يتوارون منعطفين الى الحارة الرئيسية حتى قال مبتسما كأنما يغرى نفسه منتقما لها مما حدث :

ـ لن أعطى الموسيقيين « كرويتزر » واحدا • فليدفع لهم ايون •• فان لدى جلانيتاشو مالا وفيرا •

ولكن رفاقه لم يجدوا فى ملاحظته ما يبعث على الدعابة ، فقد كانوا محزونين لما حاق بهم من هزيمة بعد أن تركهم الموسيقيون وحدهم •• وقطع ايليا أونو حبل الصمت قائلا :

ـ ماذا نفعل هنا ؟ لقد حل الظلام وذهب الجميع •• فلماذا لا نذهب الى الحانة نحن أيضا !

ولم يفه أحد بكلمة •• فقد أخذ الجميع طريقهم فى سكون عبر الحديقة ، وعبروا الجسر فوق « غدير القس » ليصلوا الى حانة أقروم قبل الآخرين •

كانت تودوسيا تقف على عتبة بابها ، تنتظر انصرافهم من الفناء •• وما أن رأتهم ينصرفون حتى رسمت علامة الصليب وغمغمت قائلة :

ـ شكرا لك يا الهى أن منعتهم من التشاجر وتوريطى فى مشاكل مع رجال الشرطة !

وعلى مقربة من البوابة كانت سافيستا الكسيحة أقرب الى الموت منها الى الحياة بعد أن أفزعتها صيحات الرجال ، فقبعت متكومة بجوار مدخل الباب ، وانكمشت هناك حتى لا تدوسها الأقدام • ولم تلاحظها تودوسيا الا عندما ذهبت لتغلق البوابة ، فصاحت بها :

ـ « ألم تنصرفى بعد ياسافيستا ؟ انه لمن حسن حظك انهم لم يسحقوك تحت اقدامهم وسط كل هذا الزحام ٠٠ هيا ، انصرفى يا عزيزتى ، فان أمامك رحلة طويلة وسوف يحل الظلام بعد لحظات » ٠

كان الرعب قد أفقد سافيستا النطق ، فجمعت أطراف ثوبها ، ووضعتها حول وسطها وانطلقت تزحف بكل قواها الى الحارة ، ثم اتخذت طريقها الى البيت فى سرعة أقل بمحاذاة حافة الاخدود ٠

ـ ٧ ـ

كانت الحانه تقع فى منزل لا يميزه عن غيره من منازل القرية الا سقفه المصنوع من الاجر ، ونافذتاه الصغيرتان اللتان تطلان على الحارة الرئيسية تغطيهما شبكة من السلك الرفيع ٠ وكانت هناك زجاجات مليئة بمشروبات ملونه ، وأوعية مليئة بالحلوى المبرقشة ، وسلع أخرى مما يطلبه الفلاحون ٠ وكانت الغرفة الامامية أكثر اتساعا ، ذات أرضية خشبية ، وقد صفت بها مناضد خشبية طويلة وما يقرب من ضعف عددها من الدكك المصنوعة من خشب الموسكى التى كانت الخادم تدعكها بالرمل وتغسلها بالماء يوم الجمعة من كل أسبوع حتى تصبح فى لون الطباشير استعدادا ليوم الأحد ، حيث يأتى القرويون لاغراق همومهم فى الشراب ٠ وكان أفروم وولده أيزيك يقفان فى ركن أغلق بشبكة من السلك حتى صار كالقفص ، وقد أحاطت بهما صفوف من الزجاجات ، وبرميل خشبى ضخم ملىء بالبراندى ٠ وكان أيزيك من آن لآخر يهبط الى القبو الذى يقع تحت الكابين وقد حمل فى يده شمعة موقدة ، حيث صفت براميل أخرى ودمجانات امتلأ بعضها بالمسكرات ، وامتلأ بعضها الآخر بالنبيذ أو البيرة من أجل علية القوم الذين كانوا اذا أرادوا تناول الشراب اعتكفوا فى الحجرة الخلفية ، وهى حجرة أفروم الخاصة ، حتى يكونوا بمنأى عن أعين عامة الناس ٠

ما ان انفض الرقص حتى بدأ الرجال يقصدون حافة أفروم زرافات ووحدانا ٠ وعندما وصل جورج ورفاقه كان المدخل مزدحما بالرجال يتناقشون فيما حدث أثناء الرقص ٠٠ وراح بعضهم يعضد موقف ايون ، وراح آخرون يعضدون موقف باكيو ، فسار الشبان مباشرة الى الحجرة الداخلية حيث كانت المناضد والمقاعد قد حجزت لهم ، حتى يستطيعون

أن يأخذوا بنصيبهم من المتعة بمعزل عن الآخرين • واتخذ كل منهم مكانه بهدوء وهم يتجرعون مرارة الهزيمة •

وبرز أفروم مسرعا من الكابين وفي يده زجاجتا خمر وضعهما على المنضدة أمام جورج سائلا :

ـ من الذي سيدفع ؟

فأجابه ايليا أونو وهو يمد يده نحو احدى الزجاجتين :

ـ سندفع لك •• حاضر •• لا تخف يا سيد أفروم !

ـ« اذا كان على أن آخذ النقود منك أنت ، فليس لدى أمل كبير في أن أحصل عليها • » قالها صاحب الحانة وهو يرمق كلا من الجالسين كانما يحاول أن يستشف من وجوههم مقدار ما يحملون من نقود ، ثم أضاف قائلا :

ـ لو أخذت بكلامك فلن أعطيم قطـــرة ماء •• والأن من الذي سيدفع ؟ أريد أن أعرف والا أخذت المشروبات وأعدتها الى البرميل •

دفع جورج بيده في جيب صديريته ، وأخرج حافظة يعلوها الشحم ، وعد منها القدر المطلوب من النقود دون أن ينطق بحرف • والتقط أفروم النقود في حرص وعاد الى كابينه وهو يهز النقود بين يديه • ولم يستطع ايليا أن يكبح جماح نفسه فصاح فيه متعاليا كما لو كان هو الذي دفع النقود : ـ

ـ ها أنتذا قد حصلت على نقودك •• أليس كذلك ؟ •• لا أريد أن أسمع ملاحظاتك هذه في المستقبل •

وتسربت رائحة الشراب الى خياشيم أحد الشبان ، فراح يضرب المنضدة بقبضته مهتاجا وهو يصرخ بأعلى صوته حتى أخذت النوافذ تهتز • ودبت الحياة في الباقين كأنما كانت صيحته موجة مرح عصفت بأرواحهم اليائســــة • وعلى الفور دبت الحيـــاة في الحانة كلها حتى راحت تهتز بصرخاتهم المدوية •

وتجاوبت مع صرخاتهم الملتهبة صرخات أخرى أكثر صخبا وتوحشا انطلقت من طرقات القرية • وبدا الأمر فترة كأنما يحاول كل فريق أن يتنافس مع الفريق الآخر ليخمد أنفاسه •

كان الفريق القادم من الخارج كلما اقترب من الحانة يغطى أكثر

فأكثر على أصوات الآخرين . حتى اذا اندفعوا فى النهاية الى غرفة الحانة أغرقت أصواتهم صيحات جورج ورجاله • ولم يلبث القادمون الجدد ، الذين أحضروا الموسيقيين معهم . أن انهكت قواهم من فرط الصراخ فكفوا عنه ، وتحولت الصرخات والشهقات الى طنين من النداءات المبحوحة، والصيحات التى تنم عن نفاذ الصبر والأوامر الساخطة التى يمكن أن نميز من بينها أحيانا :

ــ هوه •• أنت يا من هناك ! • اعطنى كأسا من النوع الحلو ! •• أو « هيا يا أفروم •• أسرع ! » أو ــ « أين أنت بحق الجحيم •• أنت أيها اليهودى •• عليك اللعنة أنت وكل أبناء جلدتك !

لم يكن المكان يتسع لكل الرجال الجالسين الى المناضد • وكان الغجر قد استطاعوا أن يحشروا أنفسهم أمام منضدة ايون فيما عدا جافن الذى كان عليه أن يظل واقفا فى الركن بجوار الكونترباص • وظهرت على المناضد أكوام من الزجاجات وكئوس الشراب •• واختلطت رائحة الشراب برائحة الطباق الثقيلة ورائحة العرق الكريهة • كان الجميع يتحدثون فى وقت واحد ، يتبادلون الأنخاب ، ويصرخون ، ويغنون • وكانت الأفواه جميعا تتوسل بالله أو الشمس أو القمر لتصب لعناتها على الغجر ، على أفروم ، أو على الله ذاته •

كان الليل قد أقبل فأضيئت الغرفة بمصباح زيتى مغطى بالهباب ، يتدلى من احد العروق الخشبية فى السقف • كان الرجال يبدون فى ذلك الضوء الشاحب الواهن المتأرجح أكثرا سكرا مما كانوا فى الواقع ، وقد راحت عيونهم تلتمع فى وحشية ، وبدت أذرعهم المفتولة بعضلاتها المنتفخة كثعابين متعطشة ترتفع مهددة فوق رءوسهم التى أعماها السكر ، لتنذر بالخطر • وكانت الأصوات تزداد بحة وفظاظة ، والكلمات تزداد خشونة ، والشتائم تنهال فى غضب أكثر حدة • واتخذت الوجوه التى غمرها العرق أشكالا غريبة متباينة الألوان ، فبدت بعضها حمراء فى لون الجمر ، وبعضها أصفر تشوبه خضرة • ووسط تلك الجلبة التى تصم الآذان كانت ترتفع جلجلة الضحكات العاصفة والتجشؤ المدوى ، والصرخات التى تشق الآذان •

وكان سيميون لونجو منحنيا فوق ركن احدى المناضد وقد أعماه السكر فراح يسب ويتوعد زوجته التى كانت تقف بالقرب منه ترضع طفلها • وأخذت المرأة تجذب أكمامه وتشدها وهى تردد فى صوت رتيب غير عابئة بشتائمه :

ـ هيا يا سيميون ٠٠ فلنعد الى البيت ، فعليك أن تستيقظ غدا في الصباح الباكر لتحضر لنا بعض الأخشاب ٠ ليس عندى من الخشب ما يكفى ليوقد نارا ٠٠ هيا يا سيميون ٠٠ فلتقم الآن !

واستمر سيميون يشكو متاعبه للجالسين بجواره وقد راح يسب ويشرب وهم لا يعيرونه التفاتا ، حتى يئست المرأة فى النهاية فجلست بجواره ضاحكة ودفعت بحلمة ثديها فى فم الطفل وهى تنظر بطرف عينها دون جدوى الى الشاب الذى قهره الشراب ٠

وراح كل من الشبان يقرع كأسه ويشرب نخب الموسيقيين الذين كانوا يعزفون بحماس متزايد ويغنون أغانى السكارى فى نغمة داعرة لزجة أقرب الى ذوق عاهرة فاجرة ٠ كان الشراب قد لعب برأس بريسياج فأخذ يعزف كما لم يعزف من قبل ، بينما كان هولبيا الذى شرب حتى الثمالة يصاحبه بعزف ردىء كان هو نفسه خجلانا منه ٠ وكان جافن وحده واعيا بما يدور حوله ، لأنه كان خائفا أن يفقد آلته الموسيقية من ناحية ، ولأنه كان مدمنا محنكا ، يستطيع أن يجرع جالونا من الخمر دون أن يطرف له رمش من ناحية أخرى ٠

لم يعوض الشراب ايون عما كان يشعر به من غم ٠ كان العار الذى الحقه به فاسيلى باكيو يجثم على صدره كحجر الطاحون ٠ وحاول ألا يفكر فيما حدث ، ولكن عقله كان قد تسمم بما لحقه من اهانة ٠ وتملكته رغبة جامحة فى أن يضرب أحدا أو يحطم شيئا ليخفف من غضبه المشتعل ٠ وبين الفينة والفينة راح ينظر بركن عينه الى المنضدة الأخرى التى كان يجلس اليها جورج وقد استعاد حيويته ، وراح يقرع كأسه ، ويرفع عقيرته بالغناء فى عظمة بصوته الأجش المزعج ، وقد التمعت عيناه ببريق التحدى والكبرياء ٠ أخذ ايون يحدق فيه بطرف عينه ، فاذا بالغشاوة تنقشع فجأة عن عينيه ٠ وتذكر أن ايليا أونو قد رآه فى الحديقة محتضنا أنا بين ذراعيه ٠ وها هو ذا ايليا يجلس بجوار جورج ٠ لابد اذن أن ايليا هو الذى أذاع الخبر ، ولابد أن جورج هو الذى حرض باكيو ٠٠ ولما كان ايون لم يستطع أن يصفى حسابه مع باكيو ، فقد التمعت فى ذهنه فكرة تصفيته مع جورج ٠ ولم يكد هذا القرار يتبلور فى رأسه حتى أخذ يعذبه ٠ وراح يفكر مكروبا كيف يبدأ تنفيذه ٠

فى هذه اللحظة دلف تيتو هرديليا الى غرفة الحانة ، وخفتت جلبة القوم لحظة اثر دخوله ، فصاح بهم تيتو وقد عراه الاضطراب عندما لاحظ أن عيون القوم كلها قد اتجهت نحوه :

ـ مساء الخير !

وأجابه الجميع في صوت واحد :

ـ مساء الخير !

ثم عاد الصخب ثانية أقوى مما كان ٠

كان الفضول هو الذى دفع تيتو الى الحضور ٠ كان لديه احساس بأن المشاجرة التى بدأت عند المرقص لن تنتهى دون عواقب ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من المرور بحانة أفروم ليرى كيف تسير الأمور ٠ كانت أسرة هرديليا قد ناقشت ما حدث بالتفصيل على مائدة العشاء،وقد انحازوا جميعا الى ايون ، فقد كان جارهم ، فضلا عن أنه كان أذكى شباب بريباس ٠ واختتمت المناقشة بقول تيتو :

ـ يجدر به أن يضربه « علقة » ساخنة !

لم يفصح تيتو باسم الشخص الذى يستحق « العلقة » ، ولم يسأله أحد من الجالسين ٠٠ فقد كان الوقت متأخرا ، وكانوا يشعرون بالنعاس يداعب جفونهم ، حتى أن المدرس غلبه النعاس بالفعل عدة مرات أثناء المناقشة ٠ وعندما ذهبت الأسرة كلها الى النوم ، جلس تيتو يكتب فى سجل المدرسة بعض الأشياء التى كلفه بها والده ٠ وظل يكتب فترة ، لكنه لم يستطع أن يواصل كبح جماح نفسه ٠ ولما كان كيس طباقه قد أوشك أن يفرغ فقد ارتدى قبعته واتجه رأسا الى الحانة ٠

اتجه تيتو الى أفروم مصافحا ، كما تعود أن يفعل كلما أراد أن يأخذ شيئا على الحساب ، ثم طلب صندوقا من التبغ طالبا أن يقيده على حسابه ٠ ولكى يبرر تسكعه راح يتبادل بضع كلمات مع اليهودى ، وعينه على المناضد التى يجلس اليها الشبان ٠ وكم كان يتمنى أن يسأل عما حدث ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك ٠ فماذا يقول الناس عنه لو سمعوه يسأل عن مشاحنات هؤلاء الفلاحين الصعاليك ؟ وأخيرا اتخذ طريقه عائدا ، معزيا نفسه بأنه لا يمكن أن تكون قد حدثت مشاجرة ذات شان ما دام الشبان جميعا ما زالوا جالسين معا فى هذه الحجرة ٠

وعندما مر بمنضدة ايون ابتسم له فى تودد ، فنهض الفتى وقدم له كأسا من الشراب قائلا باحترام :

ـ تفضل ياسيد تيتو وتناول معنا كأسا !

وتردد تيتو لحظة ـ من باب التظاهر لا اكثر ـ فقد وجد الظروف مواتية ليكتشف ما حدث ٠ وتظاهر بالتردد حتى ألح عليه الباقون ،

فتناول الكأس ورفعها علامة على أنه سيشرب نخبهم · وصاح ايون بصوت آمر طالبا من الجميع أن يسكتوا فتلاشت الأصوات كلها فى لحظة · كان السيد الصغير مضطربا بعض الشىء ، اذ لم يكن خبيرا بتلك الخطب الطويلة الرنانة التى كان القرويون يستمتعون بها كثيرا · وكل ما استطاع أن يقوله ، بعد لحظة من التردد ، فى صوت مبحوح من فرط التأثر هو :

ــ أتمنى لك يا ايون حظا سعيدا ! ·· حظ سعيد لكم جميعا ·· فى صحتكم !

ثم شرب كأسه واعاده وهو يحاول اخفاء قشعريرة الامتعاض التى أحس بها بسبب طعم الشراب · ورد عليه ايون وهو يشرب نخبه هو الآخر بكلمات ذكية لماحة ضاعت وسط الضجيج الذى كان قد بدأ من جديد ·

ومد له تيتو يده قائلا :

ــ شكرا لك يا ايون ·· عم مساء !

ورد عليه ايون وهو يصحبه الى الباب :

ــ ونحن نشكرك ياسيد تيتو أن منحتنا هذا الشرف !

كان الرجال فى المدخل وفى الطريق أمام الحانة قد تجمعوا فى جماعات صغيرة يشربون ويثرثرون أو يتنازعون · وراحت بعض الفتيات الفضوليات والصبية الأشقياء يختلسون النظر من النوافذ المطلة على الحديقة ، وقد فغروا أفواههم والتصقت أنوفهم بألواح الزجاج · وعلى حافة الأخدود كان ماكيدون سيرسيتاشو يرقد ممددا وقد أعماه السكر ، وراح يهدر بالألمانية بأوامره العسكرية حتى تردد صداها فى كل أنحاء القرية ·

وراح ايون يقول لتيتو فى نبرات خافتة حتى لا يسمعه أحد :

ــ أرأيت ما فعله بى العم فاسيلى ياسيد تيتو ؟

فأجابه تيتو وهو يهز رأسه :

ــ نعم لقد رأيت · وأقول لك الحق ، لقد دهشت كيف استطعت أن تسكت دون أن ترد عليه ولو بكلمة ·

فقال ايون وهو يفح بالكلمات من بين أسنانه المطبقة :

ــ وماذا كنت استطيع أن أفعل ياسيد تيتو ؟ لو أننى ضربته ربما كنت قتلته وزججت بنفسى فى السجن ·· وعلاوة على ذلك فاللوم لا يقع على الرجل بقدر مايقع على من حرضه !

التصق تيتو بايون حتى لا تفوته كلمة من كلماته • ولما كان ايون قد توقف عن الكلام ، استحثه سائلا :

ــ حقا ؟ أتعنى أن الرجل قد دفع الى مافعل بواسطة شخص آخر ؟

فأجاب ايون :

ــ انني على يقين من ذلك ، واستطيع أن أقسم عليه بالصليب المقدس • ألا تعرف أنه يريد أن تتزوج أنا من جورج ،ابن تومابولبوك ؟

ــ تتزوج جورج ! لا أحسبك تعنى هذا ؟ •

ــ بلى •• لقد قرر هذا •• وراح يعلن ذلك فى جميع الانحاء حتى علم الجميع •• حتى الكلاب علمت بذلك •• من هذا تستطيع أن تتبين بنفسك من الذى يستحق اللوم •

وأجابه تيتو بصوت رقيق ، قاصدا بذلك أن يستفزه أكثر :

ــ أجل •• ولكن ربما لم يكن جورج هو الذى حرضه •

فقاطعه ايون فى غيظ :

ــ لماذا ياسيد تيتو •• كيف تقول ذلك ؟ أنا أعرف جيدا أن جورج لا يطيق رؤيتى • وأنت تعرف أنه كان يلاحق أنا منذ مدة طويلة •• ولكن أنا صدته لأنها لا تأبه به ، وها هو ذا يحاول أن يسوى حسابه معى •••

صمت تيتو برهة ، وبعد أن أعمل فكره قال فى بطء :

ــ لا •• لا •• ان جورج لعلى خطأ عظيم فى تصرفه هذا •

ــ هل تعتقد أنى سأحتمله اكثر من هذا ؟ سوف أسوى أمورى معه هذا المساء ! لن يوقفنى عن ذلك أحد الا الله • سوف يحملون عظامه فى ملاءة ••

كان الشاب يهتز من فرط الغضب ، فانزعج تيتو وراح يقول له فى هدوء واخلاص :

ــ هدىء روعك يا ايون •• واحترس حتى لا تزج بنفسك فى المتاعب!

فزمجر ايون وهو يرسل انفاسا ملتهبة ، وقد ضم قبضتيه وراح جسده كله يرتجف غضبا :

ــ لن أدعها له •• سوف أشج رأسه أولا ، حتى ولو قضيت عشر سنوات فى السجن نتيجة لذلك •

كان من الواضح أن معركة كبيرة سوف تحدث ، ولهذا قرر تيتو ألا يعود الى البيت • لابد أن يشهد المعركة حتى يستطيع وصفها لأفراد أسرته في اليوم التالى ، وربما رواها أيضا لأصدقائه فى أرماديا • ومن ثم فقد راح يتجول فى هدوء حتى بلغ رأس الحارة الرئيسية ، ثم عاد فمر بالحانة سائرا حتى منزل سيميون بوتونويو ، محاذرا ألا يبتعد كثيرا حتى يستطيع أن يعود الى الحانة مسرعا اذا ما بدأت المشاجرة •

وقطع المسافة اكثر من عشرين مرة دون أن يحدث شيء •• فأيا كان تصميم ايون على ضرب جورج ، لم يكن باستطاعته أن يأخذ بتلابيبه دون ما سبب • كان فى حاجة الى أى مبرر ، مهما كان تافها ، لكنه لم يستطع أن يجد سببا ليبدأ معه العراك • فقد كان جورج يتعاطى الخمر مع رفاقه دون أن ينظر نظرة واحدة صـــوب منضدته ، كأنما قد أحس أن ايون يتربص به •

ولكن الأمور تأزمت قبل أن ينتصـــف الليل بقليل •• اذ أراد الموسيقيون الانصراف ـ فقد كانوا يسكنون فى لوشكا التى تقع على مسيرة ساعتين ـ فنهضوا وذهبوا الى جورج يسألونه أجرهم • وكأنما كان جورج ينتظر هذه اللحظة ليثأر لنفسه ، فقد صاح وهو يهز قبضتيه متوعدا فى وجه بريسياج :

ـ أتسألنى أنا عن أجركم أيها الغراب اللعين ؟ هل كنت تعزف من أجلى ؟

فأجابه الغجرى وقد استشعر أنه لن يقبض شيئا :

ـ ألم تستأجرنى أنت ؟

ـ فليدفع لك من عزفت له ، فلديه مالا وفيرا •• أما أنا فلن أدفع شيئا !

ـ ألم تجمع النقود من الشبان ؟

فقال جورج فى احتقار وتعال وهو يرفع الزجاجة الى شفتيه ليتناول جرعة أخرى :

ـ كلا •• لم أفعل •

فى هذه الاثناء كان ايون قد نهض متجها الى مائدة جورج •• وقال له فى شراسة بصوت أشبه بالفحيح :

ـ ادفع له !

فصاح الآخر وهو يثب واقفا ، وقد شجعه سكون ايون فظنه ضعفا :

ـ أنا ؟ •• أتكلمني أنا ؟

ـ أجل •• أنت !

فصرخ جورج متوعدا وقد رفع هامته :

ـ ماذا تظنني بحق السماء ؟ أتعتقد أنني حفنة من التراب تحت قدميك ؟ •• انه يجرؤ على مواجهتي ! تصوروا •• شخص مثله يجرؤ على مواجهتي !؟

ولم يستطع أن يتفوه باكثر من ذلك ، فقد ضربه ايون بكلتا قبضتيه في وجهه عبر المنضدة •• ووثب جورج عليه ، ولكن ايون سدد اليه ضربة ثانية أقسى من سابقتها •• وابتدأ العراك ••وزمجر جورج كالثور الهائج، وأمسك بياقة قميص ايون وراح يجذبها ويلويها حتى انتفخت أوردة خصمه وازداد وجهه احتقانا •• ولكن ايون رغم ذلك كان يلكم جورج بقسوة في بطنه ، ثم في رأسه ، وقد تلطخت يداه بالدم الذى سال من أنف جورج وتناثرت قطراته فوق ملابسهما •

كان كل من في القاعة قد احتشدوا حولهما وهم يصيحون:

ـ النجدة ! • أوقفوهما ••

ولكن أحدا لم يحاول أن يوقفهما •• كأنما كانوا جميعا يرغبون أن يعرفوا من منهما الأقوى • كان أفروم وحده هو الذى قفز بشجاعة نادرة ، يدفعه الى ذلك خوفه من أن تتحطم زجاجاته واكوابه ونوافذه ، محاولا دفع المتصارعين نحو الباب الأمامي • وكان المصباح أثناء العراك قد علا دخانه، منذرا بقرب انطفائه • واستطاع أفروم أخيرا أن يدفع بهما خارجا ، بعد أن فقد عن طيب خاطر خصلة من لحيته المحمرة ، وناله نصيب طيب من الضربات • وتدافع الرجال الى الطريق في اثر المتشاجرين ، وخلت الغرفة ممن كانوا فيها في ثوان • وسارع اليهودى باغلاق بابه ، سعيدا بتخلصه منهم دون خسائر ، ثم أحكم اغلاقه بالمزلاج ليتأكد من أن أحدا من الزبائن لن يعود اليه •

استطاع كل من الرجلين أن يتخلص من قبضة الآخر وهما يتدحرجان في الطريق •• واندفع ايون الى سور الحانة فانتزع أحد الأعمدة ، وقبل أن يتمكن أحد من ايقافه ضرب جورج بكل ما أوتى من قوة فوق ظهره ، وسقط جورج متكوما وهو يئن أنة طويلة قائلا :

ـ أوه ٠٠ لقد قتلني الوحش ٠

كان الدم يلوث فم جورج ولحيته وشاربه ، وفكه وقميصه ، ولكن تلك الضربة بالعمود هي التي أجهزت عليه ٠ وحاول النهوض من الحفرة التي تدحرج اليها وهو يغمغم ببعض الشتائم ٠٠ ولكن الألم كان أعظم مما يحتمل ٠ وأحس كأن عموده الفقري قد انقسم نصفين ٠ ورقد متكوما وسط الحشائش المغطاة بالوحل وقد التف حوله بعض الفتيان الذين سارعوا لنجدته ، بينما أخذت بعض النسوة تولولن ، وراح الرجال يسبون ويلعنون ، وانفلتت حلمة الثدي من فم طفل سيميون لونجو ، وراح يصرخ وقد أخافه ذلك الشغب المتزايد ٠ وراح ايليا أونو يصيح في غضب وهو يحاول جاهدا أن يكسر قطعة من الخشب من أحد الأسوار عبر الطريق ليحطم بها رأس ايون :

ـ انه لقاتل أيها القوم الطيبون ٠٠ إنه لسارق !

ولكن ايون لم يكن يعبأ بما يجري حوله ، فقد رضيت نفسه وهدأ٠ ووقف مستندا الى عموده كأنه أحد الرعاة ، وهو ينظر حوله في تحد وانتصار ليرى اذا ما كان أحدهم سيجرؤ على مهاجمته ٠

وانفثأ غضب ايليا في محاولته نزع قطعة الخشب ، فحمل هو وبعض الشبان الآخرين جورج فوق أيديهم ، وذهبوا به الى البيت ، وقد راح كل منهم يباري الآخرين سبا وشتما ٠ وسار في أعقابهم لفيف من النسوة المذعورات ، وبعض الصبية الذين كانوا قد تخلفوا على الطريق ٠

وكان الهلال قد ظهر في السماء ، فغمر الطريق والأشجار بأشعته الفضية ٠٠

- ٩ -

تجمع الشبان الآخرون حول ايون وهم ينظرون اليه باحترام ، وراحوا يمزحون معه ببعض الكلمات المعتادة اعرابا عن اعجابهم وصداقتهم٠ كانوا يودون لو استأنفوا الرقص ، ولكن الغجر كانوا قد غادروا المكان أثناء المشاجرة ، وعبثا راحوا يدقون باب أفروم ، فقد رفض أن يفتح لهم٠ وظلوا يثرثرون فترة أمام الحانة ، ثم تفرقوا ، فاتخذ بعضهم طريقه الى بيته ، وذهب البعض الآخر الى فتاته ٠٠ أما ايون فقد طوح بالعمود الى

حديقة اليهودى وسار متباطئا فى طريقه الى منزله وقد غمره السرور كأنما ادى عملا بارعا • ومر فى طريقه بمنزل فاسيلى باكيو ، الذى كان البيت الثالث فيما يلى الحانة • وتمهل مفكرا فى الدخول ليرى أنا •• فها هوذا قد انتقم لشرفه وحفظ لنفسه كرامتها • ولكنه فكر أن فتاته قد لا تعلم بالعمل المجيد الذى قام به لتوه ، ووجد أنه من غير اللائق أن يخبرها هو بما حدث • كان من الأفضل أن تعلم به من الآخرين ، وعندئذ ستكون أكثر رغبة فى لقائه • وراحت عينـــاه تطوفان فى تمهل بالبيت الجديد ، الذى تظلله أشجار التفاح الثلاث العتيقة القائمة فى الحديقــــة الصغيرة •• ونظر الى النوافذ المطفأة التى لاحت له كعيون سوداء ناعسة ، ثم الى الفناء الواسع والاسطبلات التى لفها السكون ، ثم الى البوابة الخشبية بأعمدتها الطويلة ، وغمره شعور بالبهجة والسرور كأنما قد أصبحت كل هذه الأشياء ملكا له •

كانت أنا واقفة تنتظر خلف البوابة الصغيرة ، وقد تملكها الخوف • كانت قد سمعت الضجيج الذى حدث فى حانة أفروم ، فتسللت خارجة وهى تتوجس أن يكون ايون قد زج بنفسه فى مشـــاجرة بسبب مزاجه المعتل • كان قلبها يرتجف مخافة أن يحدث له شىء • وكادت تخرج الى عرض الطريق لولا خوفها من أن يوقظ صرير البوابة الخشبية أباها الذى كان يرقد فى المدخل وقد علا شـــخيره ، منذ أحضره الرجال من حلبـــة الرقص •

ثم رأت جورج محمولا فرسمت علامة الصليب شاكرة ربها على أن الذى تهشـــم هو جورج وليس ايون • وراحت تنتظره وقد ملأها الزهو وغمرها احساس بأن حبا قويا بدأ ينمو فى قلبها •• حبا من ذلك النوع الذى يترك بصماته على مصير الانسان • وجعلها ذلك الاحساس ترتجف، وأيقظ كل أحاسيسها المكبوتة •• وها هى ذى تسمع خطوات ايون تقترب وتراه يقف أمام بيتها • وودت لو نادته وألقت بنفسها بين ذراعيه القويتين اللتين تبعثان فى نفسها الأمن والطمأنينة •• ولكنها لم تســـتطع أن تتحرك • ولما رأته لا يتحرك من مكانه انتابهـــا الخوف ، وراحت تعتصر يديها ، وتهمس ضارعة فى رقة ، بشفتين دب اليهما الجفاف ، وبصوت لا يكاد يسمع لفرط خفوته :

ـ ايونيكا ! •• ايونيكا ! •• ايونيكا ! ••

ولكن ايون كان قد استأنف طريقه وهو يصفر لحنا ، ويطأ الأرض

بخطوات ثابتة • وتردد وقع حذائه على الطريق المترب ، وراحت القطع الحديدية المثبتة الى كعبيه تقرقع كلما اصطدمت بحجر فى الطريق ••

عندما اشرف ايون على الوصول الى منزله سمع وقع خطوات متعجلة وراءه • كان تيتو يجرى وقد تقطعت أنفاسه • لم يسعده الحظ أن يرى المعركة ، وهذا شيء لا يمكن أن يتعزى عنه • كان تيتـــو قد راح يذرع الطريق جيئة وذهابا أمام الحانة حتى أدركه الملل ، فراح يسير حتى نهاية القرية قتلا للوقت •• وهناك سمع دوى المعركة ، فأسرع عائدا بأقصى سرعة ، ولكن كل شيء كان قد انتهى قبل أن يصل الى حانة أفروم ، وساد السكون ، ولم يبق فى المكان شخص واحد •

وتساءل تيتو وهو يفرك يديه :

ـ حسن يا ايون •• ماذا جرى ؟

فغمغم الفتى بهدوء :

ـ لا شيء •• كل ما فى الأمر أننى أخملت حرقتى ••

وكان هذا كل ما استطاع الحصول عليه من معلومات ، رغم الحاحه على ايون بالاسئلة •

وافترقا بعد أن تبادلا تحية المساء •

وكانت الديكة قد بدأت تصيح ايذانا بانتصاف الليل •

الفصل الثانى

العذاب

- ١ -

كان ضوء الفجر المعتم يتسلل عبر النوافذ عندما استيقظ جلانيتاشو . كان صياح الديكة يأتى خافتا من بعيد .. وتجاوبت معه بعد برهة صيحة ديك قريب ، عالية تشق السكون .. ثم تبعته ديكة أخرى أقرب وأقرب .. وراح صياح الديكة يعلو فى كبرياء متزايد حتى أصبح بامكانه أن يسمع رفرفة الأجنحة الخفيضة فى الحجرة الخارجية ، وتبعها صياح أحد الديكة وقد استبد به الغيظ فأراد أن يثبت تفوقه على الآخرين ، وأنهى صيحته بصرخة مباهاة جعلت البيت كله يهتز ، وأفزعت جلانيتاشو الذى سارع برسم علامة الصليب على صدره فى فزع ، وغمغم وهو يتقلب فى سريره ليدرأ عن نفسه النعاس :

- ألا لعنة الله عليك أيها الديك المجنون !

وراح يسأل زنوبيا وهو يخزها بكوعه :

- ألا زلت نائمة يا امرأة ؟

فأجابته على الفور فى صوت ثاقب :

- كلا .

وظلا راقدين فى صمت فترة ، كانا خلالها يهرشـــان ويزومان كما يفعل العجائز •

ثم تثاءب الرجل سائلا بعد برهة :

ــ كم تكون الساعة يا ترى •• هه ؟

فدمدمت زنوبيا فى لهجة أكثر كآبة من ذى قبل وهى تنهض من فراشها :

ــ هيا •• انهض •• لقد حان وقت الاستيقاظ •

فقال جلانيتاشو فى تكاسل وهو يطقطق عظامه :

ــ حقا ؟

ــ بلى •• استيقظ أيها الرجل •• حتى أذهب لايقاظ ايون ، فأنا أعرف أنه لن يستيقظ من تلقاء ذاته ، فقد كان يرقص طوال اليوم ، وظل ساهرا فى حانة أفروم حتى وقت متأخر ليلة أمس • هيا ، قم •• فعليك أن تذهب الى عملك ، والا جاء الظهر ونحن ما زلنا كسالى • ان هذا لعار عليك ! ••

فحك الرجل العجوز رأسه ، ثم لحيته وصدره ، ثم تثاءب فى عمق ، وألقى بنظرة نحو النوافذ ، وغمغم فى صوت متسائل :

ــ أهذا ضوء القمر أم ضوء النهار ؟

وجاءه الجواب من الديك فى الدهليز ، فقد أطلق صـــيحة حادة عالية •

وصاحت به زنوبيا وقد قامت من سريرها وراحت تزرر قميصها وهى تغمغم بصلواتها فى صوت خافت :

ــ ألا تسمع •• لقد أقبل النهار !

نهض جلانيتاشو جالسا فى سريره ، وشرد فكره لحظة ، وقفز من السرير فى النهاية وهو يحاول أن يبدو نشيطا ليطرد الكسل عن نفسه ، ولم يلبث أن قال :

ــ أوقدى المصباح •

وراح يبحث عن علبة الثقاب فى كوة المدفأة ، ولما لم يجدها صرخ غاضبا فى زوجته :

ـ أين وضعتها هذه المرة بحق الشيطان ؟

لم تجب زنوبيا ، وراحت ترسم علامة الصليب عدة مرات ، وهى تغمغم منهيه صلاتها ، وبعد أن فرغت منها صرخت فيه غاضبة :

ـ سحقا لك أيها المخبول الذى لا يخاف ربه ٠٠ ألا يستطيع المرء أن يختم صلاته بفضلك !

وخرجت تلعن بعد أن صفقت الباب خلفها ٠ كانت الفراخ فى الغرفة الخارجية تنقر بعضها البعض وتقرقر بصبر نافذ ، وعندما فتحت زنوبيا الباب المؤدى الى الفناء انطلقت الدواجن خارجة كأنها تهرب من سجن ٠ والقت المرأة اليها بضع حفنات من الذرة وهى ما تزال تسب جلانيتاشو بينما كان ذهنها مشغولا بعد الدجاجات التى كانت تتصارع فيما بينها لتلتقط أكبر قدر ممكن من الحب ، بينما اكتفى الديك ، الذى كان يحاول أن يبدو رصينا أمام قريناته رغم خوفه الدائم من زنوبيا ، بأن يلتقط حبة من آن الى آخر ٠ وجثمت الدجاجات الكبيرة فى خجل عندما راحت السيدة تتحسس كلا منها لترى اذا كانت ستبيض أم لا ، مما زاد فى ضيق الديك الذى رفع ذيله مهددا وسار فى تباه الى أحد الآركان وأطلق صيحته وهو يغلى غضبا ٠

وعندما تفرقت الدجاجات صعدت زنوبيا الى مخزن الدريس وصاحت من أعلى السلم :

ـ ايون ! ٠٠ انت يا ايون ! استيقظ فان عليك أن تذهب لتحصد البرسيم ، فلا يمكن أن ننتظر حتى تأتى الأمطار وتتلفه !

غمغم الفتى فى لهجة ناعسة :

ـ حسن ٠٠ حسن ٠٠ سأستيقظ حالا !

وكفت زنوبيا عن مضايقته ، فقد كانت تعرف جيدا أن الشاب ـ على عكس أبيه ـ لا يتكاسل فى فراشه أو يتهرب من عمل عليه أن يؤديه ٠

اعتاد ايون أن ينام فى الصيف فى مخزن الدريس فوق الحظيرة ، وذلك حتى لا يوقظ أبويه العجوزين عند عودته من جولاته الليلية ٠ وفضلا عن ذلك كان يستطيع أن يسمع « دومانا » ، بقرتهم الوحيدة ، وهى تمضغ بصوت عال، أو تنفخ غاضبة وهى تلتقط أعواد الدريس من بين التبن الذى وضعه لها فى المذود فى المساء ٠

ولم يلبث ايون أن تغلب على النعاس ، وزحف الى السلم وتسلقه هابطا الى الفناء ٠

كانت القرية ما زالت غارقة في النوم ٠ ومن هنا وهناك كانت تأتي صيحات الديكة التي تأخرت في النوم معلنة قدوم الفجر ٠ وعبرت السقوف العالية طبقة شفافة من الضباب ، وبدت التلال الصغيرة التي تحف بالمكان كأنها تتمايل وتتماوج وقد غطتها حقول الذرة وبعض حقول الشعير والقمح ، بينما بدت القمم الساكنة المعتمة المغطاة بالغابات والتي تحف بالقرية الغافية ، كأنها رءوس عمالقة دفنوا في الأرض حتى أعناقهم ٠

وسرى النسيم الرطب الى أعطاف ايون ، فطرد ما تبقى من آثار النوم في جسده ٠ وألقى بنظرة عبر الفناء ، وحك مؤخرة رأسه متحيرا من أين يبدأ ٠ وصاحت زنوبيا في دهشة وهي تخرج من البيت :

ـ عجبا ٠٠ هل نمت في قميصك الذي ترتديه أيام الآحاد ؟

واضطرب ايون فلم يحر جوابا ، بينما استطردت المرأة في صوت نائح :

ـ لقد تمزق التطريز كله ٠٠ وسقط الخرز كله أيضا ، وأصبح الثوب قذرا بشكل شنيع فلا أدري كيف سأجعله نظيفا ثانية ! ٠٠ بل انه ملوث بالدم أيضا ٠٠٠ مع من تشاجرت ؟

وراح الشاب يتفحص قميصه بعناية ، وهو يلاحظ لأول مرة أن صدر وأكمام ردائه الريفي قد تلوثت بالدماء ٠ وتمتم يجيبها عن سؤالها :

ـ لقد تشاجرت مع جورج بولبوك ٠

ثم دلف الى الغرفة الخارجية ، حيث خلع قميصه ، وارتدى ملابس العمل ، ولبس صندله وذهب ليغسل وجهه في بيريول دومني ، وهو غدير يصب في جيرلا بوبيي خلف منزلهم مباشرة ٠

وأصبح الآن على استعداد للرحيل ٠ كانت زنوبيا قد وضعت في جرابه رغيفا كبيرا من خبز الذرة وبعض الجبن والبصل ، بعد أن لفتها جميعا في قطعة نظيفة من القماش ٠ ثم سأل ايون والده الذي كان مايزال يتململ متهرشا :

ـ هل ستذهب لتعمل في أرض كاتب القرية اليوم ؟

ـ أظن أني سأفعل ذلك ـ لقد استأجرني أمس الأول عندما كان يطوف بالقرية باحثا عن أيدي عاملة في ٠٠٠

فقاطعه ايون قائلا فى حسم :

ـ حسن ٠٠ ضع فى اعتبارك اذن ألا تشرب بما تحصل عليه من نقود ٠٠ اذ يجب أن ندخر شيئا منها ٠٠ فقد يمر نائب العمدة والخفير فى أى يوم لجباية الضرائب ٠

فصاح جلانيتاشو فى غضب :

ـ أنا أعرف ما يجب عمله ٠٠ فأنا لست طفلا ! ٠٠

وسأل ايون وهو يتحسس ثقل جرابه :

ـ هل وضعت الطعام فيه يا أماه ؟

فأجابته وهى تنفخ فى الموقد قدر استطاعتها لتوقد الجذوات التى كانت تفرقع وتدخن دون أن تشتعل تماما :

ـ نعم لقد فعلت ٠٠ وسأوافيك بالمزيد فى الظهيرة ٠

فقال ايون فى صوت خفيض وهو يخرج من الغـــرفة راسما علامة الصليب على صدره :

ـ لا تنس أن عليك أن تأتى لتقليب الدريس ٠٠ فلا ينبغى أن أضيع وقتى فى هذا أيضا ، والا فلن أنتهى من حصاد البرسيم ، فمساحته ليست صغيرة ٠

ـ صحبتك السلامة يا بنى ! ٠٠

أخذ ايون منجله من فوق مشجب فى الغرفة الخارجية ، وعلق به جرابه ومضى فى طريقه حاملا منجله على كتفه ٠ وراح يحث الخطى مارا بمنزل المدرس الذى كان ما يزال يغط فى النوم ، بينما كان الدجاج فى حظيرته المجاورة للسور يصيح مرفرفا بجناحيه ويتعارك مع بعضه البعض٠ وسار فى الحارة المبللة بقطرات الندى الى حيث يتفرع الطريق العتيق ، ثم انعطف يمينا وتسلق فى بطء ممرا منبسطا يمتد خلال حقول الذرة الكبيرة والضيقة التى تفصلها قطع مستطيلة من الأرض المغطـــاة ببرسيم طويل نام فى غزارة ٠ وراح ايون يسير مسرعا ليصل الى أرضه مبكرا قدر استطاعته ، حتى يحصد أقصى ما يســـتطيع قبل شروق الشمس ، حيث يكون البرسيم الرطب أسهل حصادا ٠

لم يكن أحد قد وصل الى حقله بعد ، فلم يلق فى طريقه غير سيميون لونجو الذى كان منهمكا فى حصد البرسيم فى الحقل الذى استأجره من

أفروم ، والذى يجاور حقل فاسيلى باكيو المنزرع شعيرا • فلما مر به صاح محييا :

ـ يالها من همة !

فقطع سيميون بضع صفوف أخرى ، ثم توقف ليشحذ منجله ورد مجيبا ايون الذى كان قد سار بعيدا ولم يعد يستطيع سماعه :

ـ وماذا عسانا نفعل غير هذا ؟ •• اننا نعمل طبعا •• فمن أجل هذا تركنا الله فى هذه الدنيا ••

- ٢ -

سار ايون سيرا حثيثا لمدة ربع ساعة تقريبا •• فقد كانت أرضه تتوسط الحقول تماما •• كانت قطعة أرض طويلة ضيقة تنتج محصـــولا يبلغ نحو ثلاث عربات من الدريس • وكانت هى كل ما تبقى من الحقل الذى كان بائنـــة لزنوبيا ، والذى كان محصوله يبلغ اثنى عشر عربة والذى كان يمتد حتى يكاد يصل الى الحارة الخلفية •• كان جلانيتاشو قد بدده شيئا فشيئا حتى انتهى به الحال على هذا النحو •• فلم يكن العجوز يوما من هواة العمل ، وانما كانت هوايته كأس من الشراب • وقد كان فى صباه زمارا ماهرا ، امتدت شهرته حتى وصلت الى بوكوفينا • وكان يعزف على مزامير البوص فى مهارة فائقة حتى ليحســـبه المرء عازفا على الكلارينيت •• ولهذا أطلقوا عليه اسم جلانيتاشو «عازف الكلارينيت» • وكان فى شبابه أنيقا وسيما ، ولكنه كان أشد فقرا من فأر الكنيسة وأكثر كسلا من سائر الخلق •• وكان يتهرب من أى عمل يشم فيه رائحة المشقة، حتى ليقال أنه لم يخط بالمحراث خطا واحدا مضبوطا فى عمقه واتســاعه طوال حياته كلها •• بل انه لم يكن يستطيع أن يمسك بمقبض المحراث بين يديه كما ينبغى • ولم يكن يستطيع استخدام المنجل فى غير مشقة ، فقد كانت أنفاسه سرعان ما تتقطع ، وكان يمسك به كأنه عصا وليس أداة للعمل فى الحقل • وكان على وجه العموم يفضل الأعمال التى تقوم بهـــا النساء ، كعزق الأرض ، وتجفيف الدريس وحمل الحبوب أو بذر البذور• وكان أكثر ما يحبه هو أن يضيع وقته فى أروقة بيوت علية القوم مثـــل كاتب حسابات القرية ، أو القس ، أو المدرس ، أو حتى فى بيوت اليهود فى أرماديا وجيدوفيتسا • ولم تخشوشن يداه قط بالعمل الشاق ، كما لم يتعلق قلبه أبدا بحب الأرض ••

وقد ساق اليه حظه السعيد ٠٠ زنوبيا ٠٠ وهى امرأة لا تقل كفاءة عن أى رجل ٠٠ ولولاها لتخاطفته الكلاب بكل بساطة ٠ فقد تزوجتـــه برغم ابويها اللذين ما فتئا ينصحانها بأن الوسامة لا تنتج الذرة ٠٠ وأن الأناقة لا تطهو ثريدا ٠ وقد كان فى امكانها ان تتزوج أيا من خيرة شباب القرية ، فقد كانت الابنة الوحيدة لأبوين ثريين ٠٠ ولكنها كانت تريد جلانيتاشو ٠ وانصاع أبويها لرغبتها فمنحـــاها كبائنة أربع أفدنة من الأذرة ، وفدانان من البرسيم ، فضلا عن البيت الكائن فى نهـاية القرية والحديقة المحيطة به ٠ وعندما انتقل الشابان الى البيت حيث كان الوالدان يعيشان حتى يتم بناء بيتهما الجديد المواجه لبيت القس ، وجد العروسان كل ما يحتاجان ٠٠ بل لقد كانت أوانى الطهى تغلى على النار ٠ وفى الفناء وجدا زوجا من الثيران وبقرتين وسربا من الدجاج ، وخمس بطات أو ست ٠٠ كان منزل الاسرة الوليدة نموذجيا ، ولكن جلانيتاشـــو لم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يتحمل تبعاته ومسئولياته ٠

وظل جلانيتاشو على حاله حتى بعد زواجه ، فلم يتغير سلوكه قط٠ وتركت له زنوبيا تسيير دفة الأمور بعض الوقت ، حتى وجدت فى النهاية أنه لا جدوى منه ، ومن ثم فقـــد تولت هى تصريف الأمور فى كل شىء وأصبحت هى رجل البيت وسيده٠كانت امرأة مجتهدة ، نشيطة ، مدبرة٠ واذا كانت لم تستطع أن تدبر الأمور كما ينبغى ، فان ذلك لم يكن خطؤها ٠٠ فعندما يفتقر البيت الى حكمة القيادة يصبح تقدمه صــــعبا ٠٠ فقد راحت الديون تغرقهم يوما بعد يوم ٠٠ وكل دين يجر وراءه دينا آخر ٠ وكانوا لكى يسدوا ثقبا هنا يحدثون شقا هناك ٠ وهكذا راحت الارض تتسرب قطعة وراء أخرى ٠٠فيوما يضيع حقل أذرة٠٠ ويوما يضيع بستان ٠٠ وهكذا ٠٠ ومن حسن الحظ أن الله لم يمن عليهما الا بطفل واحد ٠٠ ولو كانا قد رزقا مزيدا من الأطفال لاضطرا أن يتسولا قوت يومهما ٠

وعندما توفى والدا زنوبيا كان كل ما أبقى عليه جلانيتاشو قطعتين صغيرتين منفصلتين من الأرض تزرعان بالأذرة ، وبقرتين عاقرين ٠ وقد أنقذهما موت الوالدين من التردى فى الوحل لفترة من الوقت ٠٠ فقـــد ورثا نحو عشرة رءوس من الماشية ، وخمس أو ست قطع لا بأس بها من الأرض ، فضلا عن البيت الجديد ٠ وباعا البيت على الفور لافتودى كوندراتو ليسددا جزءا مما عليهما من ديون ٠

ولو أن جلانيتاشو بدأ يكد ويكدح حينئذ لكان حالهما قد انصلح٠٠ ولكنه لم يفعل ٠ فقد كف عن عزف المزمار ، ولكنه استعاض عنه بالشراب

.. فلم تكن هناك حانة فى طول أرماديا وعرضها لم يزرها . وكان بدلا من أن يحصد فى أرضه أو يفلحها يفضل أن يعمل عملا تافها عند اليهود فى جيدوفيتسا ، ليحصل على قرش أو قرشين ، ينفقهما لتوه فى الشراب. ولم يكن يفقد وعيه أبدا عندما يشرب ، ولم يكن ينقلب فظا غليظا عندما ينتشى ، بل كان يظل يضحك ويمرح ويؤلف الحكايات الملفقة والأقاصيص التى كان الجميع يستمتعون بالاستماع اليها ..

وهكذا ترديا فى وهدة الفقر فى سنوات قليلة مرة أخرى . وكم أقسمت زنوبيا ــ عبثا ــ بكل أسماء القديسين التى يحويها التقويم أنها لن تبيع بوصة واحدة من الأرض بعد ذلك ، وأنها تفضل أن تشنق نفسها على ان تفقد قطعة أخرى من الأرض .. ولكن الدعاوى القضائية انهالت عليهم، ولم يكن أمامهم من خيار سوى السداد تفاديا للحجز على ما بقى من أملاكهم وبيعها بالمزاد .

وعندما شب ايون عن الطوق كان كل ما تبقى لهم ثلاث رقع من الأرض ، احداها حقل البرسيم الصغير الذى كان ايون يسرع الآن اليه، وقطعتى أرض صغيرتين مزروعتين ذرة على الجانب الآخر من الطريق العام، على حدود قرية ساراكوتسا . وقد شب ايون على ما كان ينبغى أن يكون عليه أبوه . فقد نشأ حاذقا دءوبا على العمل مثل أمه . وكانت بركة الرب تحل بكل شىء يلمسه .. كان يحب الأرض ويحرص عليها مثل حبات عيونه ، فلم يفقدوا خطا واحدا مما تبقى لهم منذ أصبح ايون هو عماد الأسرة . بل لقد استطاع بطريقة أو بأخرى أن يدفع الديون التى كانوا يدينون بها لبنك « سومشانا » بأرماديا خلال عامين أو ثلاث ، وأن يضرم النار فى الاعلانات القضائية الحمراء والخضراء التى كانت تسبب لزنوبيا كل ذلك العذاب المرير .

ووصل الشاب الى نهاية مشواره وقد ثارت خواطره . وتوقف عند حافة حقل البرسيم ، عند الحد الذى يفصله عن قطعة الأرض الضيقة المستطيلة المماثلة التى كان توما بولبوك قد اشتراها من جلانيتاشو قبل عشر سنوات خلت . وبنظرة ظمأى راح ايون يمعن النظر فى أرضه متأملا مفكرا . وخفق قلبه بقوة عندما التقت عيناه بالأرض ، وود لو ركع على ركبتيه واحتضنها . كانت أجمل أراضى الدنيا كلها ، لأنها أرضه . كانت أعواد البرسيم الغضة تنمو فى غزارة وقد تناثر فيها النوار ، وراحت تتمايل فى بطء بفعل نسيم الصباح الرطيب . ولم يستطع ايون أن يكبح

جمـــاح نفســـــه ، فانتزع حزمة من الاوراق وفركها بين راحتيـه فى شوق ٠

جلس ايون على حافة حقله ، وغرس السندان فى الأرض ، ثم وضع حافة المنجل فوقه بعناية وراح يدقه فى بطء وأناة وقد تعلقت عيناه بحافة السلاح اللامعة ٠

وعندما انتهى من مهمته ، نهض واقفا ، وأخرج حجر المسن من جرابه ، ثم غمسه فى سائل بعلبة المسن ، وأخذ يحك حافة السلاح بحجر المسن فى رفق ، وهو يجرى بأصابع يده اليسرى فوق المنجل من حين الى حين ليرى اذا ما كان قد أصبح حادا بما فيه الكفاية٠ثم مسح السلاح بحفنة من أعواد البرسيم ٠٠ ووقعت عيناه فى هذه اللحظة على حقل توما بولبوك حيث كان البرسيم المجزوز قد جمع فى أكوام بدت له منتصبة ساكنة هنا وهناك كأنها ضفادع مذعورة ٠

وبدت الأرض ٠ المصفرة كأنها لغد هائل حلق حديثا ٠٠ وتنهد ايون فى حرقة وعيناه تستقران عليها متمتما :

ــ أرضنا ٠٠ أرضنا المسكينة ! ٠٠

وفكر لحظة من أين يبدأ عمله ، ثم قر قراره على أن يبدأ من نهـاية الحقل القريبة الى القرية ، صاعدا نحو الشرق ، حتى تواجهه الشمس عندما تشرق من خلف تلال فارارا ٠ وأعمل منجله فى أحد الأركان ليخلى مكانا لنفسه يقف فيه ، ثم بدأ يجز البرسيم بعرض الحقل ، حتى يجف بسرعة ، ويجف كل خط منه فى وقت واحد ٠

وعندما وصل الى الطرف الآخر من حقل البرسيم ، توقف ليسن منجله ثانية ٠ وكان عندئذ يواجه القرية الراقدة تحت غلالة رقيقة من الضباب ، وقد راحت ترتعش فى خفة ، مهتزة كأنما تنكمش متملصة من عناق الصباح القارس البرودة ٠ وفى أقصى أطراف القرية من ناحيـــة جيدوفيتسا كان باستطاعته أن يرى منزل أسرته المـــواجه لمنزل مدرس القرية هرديليا ، تفصله عنه الحارة الرئيسية ٠ وكانت الحارة الرئيســية تمتد حتى حانة أفروم ثم تصعد حتى منزل الأب بلكيوج ، ثم تمتد مستقيمة فترة حتى تتسلق التل صاعدة فى اتجاه ساراكوتسا ٠ أما الحارة الخلفية فكانت تبدأ من عند منزل فاسيلى باكيو الجديد ، ثم تدور فى انحنـــاءة واسعة حتى تصل الى الكنيسة ، فتمر أمامها ثم تلتقى بالحارة الرئيســـية

خلف بستان القس مباشرة مارة بأكواخ حى الغجر • وكانت الحارة الضيقة تبدأ من الحارة الخلفية بالقرب من الكنيسة ، وتنسق طريقها بين التلال ثم تتفرع الى فرعين عند بيت ستيفان ايلينا ، فيلف الفرع الأقصر منهما نحو اليسار مارا بثلاثة أو أربعة أكواخ ثم يتحول الى مدق للعربات يتسلق جانب التل المنحدر حتى يختفى وسط الحقول •• أما الفرع الآخر فيمتد مارا بمنازل متناثرة تقل بالتدريج كلما أمعنت فيه ، حتى يصبح جسرا بحذاء بيريول دراكولوى ـ غدير الشيطان ـ عارجا فى طريقه الى غابات بادوريا فولجيراتا التى أحرقتها الصواعق •

وبدت القرية صغيرة كأنها لعبة طفل يمكن امساكها فى قبضة اليد ووضعها فى جراب • وكانت الحقول تمتد الى بعيد ، فراح ايون يحدق فيها باحترام لاحد له كأنه خادم مطيع يقف أمام سيده القوى الذى لا يرحم •

وكانت سفوح التلال المنحدرة تبدأ من الطريق على مشارف القرية، وقد تناثرت فيها مئات من شرائح الأرض المزروعة ، بعضها أصفر اللون ، وبعضها أخضر ، وبعضـــها قد اكتسى باللون الرمادى ، والبعض الآخر تختلط فيه هذه الألوان جميعا ، وقد رصعت فى موضع أو آخر بشـجرة تفاح أو شجرة كمثرى • وكانت الأرض ترتفع فى نعـــومة حتى غابات فارارا التى لم يكن يبدو منها غير خط قرمزى رفيع ، يزداد كثافة وقتامة كلما انحدر نحو جيدوفيتسا ، حتى يصبح التل عاريا وتظهر حقول القمح والذرة •• أما فى الجانب الآخر من بيريول دراكولوى فترتفع قمـــة تل زاهاتا ، وهى أكثر انحدارا وضيقا ، تتناثر فيهـا حقول القنب بكثرة ، وتظللها تماما غابة فولجيراتا التى تمتد حتى «باونيش» و «ساراكوتسا» ، دون أن تقطع الطريق الرئيسى • أما النقطة القرمزية التى تبدو عند الأفق فهى بادوريا سبنزوراتولوى ـأو غابات الرجل المشنوقـ حيث كان الناس ـ فيما يقال ـ يشنقون أثناء الثورة • ولكن هذه الغابة كانت تتبع قرية ساسكوتسا ، بينما كان تل الغرانيق ماجورا كوكوريلور من ممتلـــكات أهل بريباس •• كانت هذه التلال ما تزال ترتدى قلنســوة من الغابات الكثيفة تغطى قمتها ، وان كانت بقية الغابات قد أزيلت فى سائر أجزاء التلال ، وفلحت أرضها وزرعت • وكانت البيوت الواقعـــة على امتداد الحارة الرئيسية تبدأ من سفح ماجورا مباشرة ، تليها المناطق التى طهرت، ممتدة من بيريول دومنى حتى حدود قرية ساراكوتسا ، ثم الى « بادوريا دومنياسكا » ـ غابة الرب ـ التى تنحدر الى شـــواطىء نهر سومش بين جيدوفيتسا وأرماديا ••

كانت الأرض التى قطعت الى آلاف القطع الصغيرة وفقا لأهواء الناس واحتياجاتهم أحياء وأمواتا تبدو تحت قبلة الفجر الحنون حية تتنفس ٠ فقد كانت حقول الذرة والقمح والشعير والقنب ، والبساتين والبيوت والغابات كلها تئز وتهمس وتخشخش ، متحدثة بلغتها الخاصة الخشنة ، مرحبة بفيض النور الذى كان يزداد سطوعا وخصبا وانتصارا ٠ ونفذ صوت الأرض عميقا الى روح الشاب كأنها نداء طاغ لا يمكن مقاومته ٠ وشعر كم هو ضئيل وضعيف كدودة تسحق بالأقدام ، أو كورقة شجرة تذروها الرياح حيث تشاء بلا حول لها ولا قوة ٠ وأطلق آهة عميقة متهيبة وهو يشعر بضآلته أمام ذلك المارد قائلا :

ـ يا الهى العظيم ٠٠ كم هى فسيحة هذه الأرض !

كان العشب الرطب المجزوز يبدو كأنه يتلوى تحت قدميه ٠ ووخزت احدى الوريقات كاحله فوق الصندل مباشرة ، وبدت حزم البرسيم التى اسقطها على الأرض كأنها تنظر اليه مهزومة عديمة الحيلة ، فامتلأ قلبه زهوا ٠٠ وشعر بأن قوته تفوق كل الحدود ، وأن الأصوات الهامسة من حوله ليست الا أنشودة اطراء وخضوع ٠ واتكأ على منجله وملأ صدره ، واعتدلت قامته والتمع فى عينيه وميض انتصار ٠٠ وأحس بأنه قوى ، وأنه يستطيع أن يسيطر على الأرض الممتدة أمامه كلها ٠٠

ولكن الأسى كان ينخر فى قلبه بعمق كأنه آفة من آفات الأرض٠٠ فهو لم يكن يملك من كل هذه الاراضى الشاسعة الا قطعتين أو ثلاث قطع صغيرة ، فى حين كان جسده وروحه يتحرقان شوقا الى الارض ، ولمزيد من الأرض ٠٠

كان فريسة لهذا الحب للأرض منذ طفولته المبكرة ٠٠ كان دائما يحسد الأغنياء وكان ينمى فى نفسه العزم القاطع على أن يمتلك أرضا كثيرة كائنة ما كانت السبل ! ومنذ ذلك الوقت أخذ حبه للأرض ينمو حتى فاق حبه لأمه نفسها ٠٠

وعندما كان صبيا صغيرا فى مدرسة القرية كان أكثر التلاميذ أثرة لدى المدرس ٠ وقد ألح السيد هرديليا مرارا وتكرارا على جلانيتاشو ليرسل ايون الى المدرسة العليا فى أرماديا ، حتى ينتمى الى طبقة السادة٠ وقد وافق جلانيتاشو فى النهاية ، خاصة وأن الأمر كله لم يكن ليكلفه كثيرا ٠٠ فلم يكن هناك سوى الكتب التى يمكن شراءها مستعملة ، والرسوم المدرسية التى تبلغ نحو ثلاثة « زلوتى » ٠ بل لقد ذهب هرديليا

بنفسه الى المسئولين واحدا بعد الآخر حتى يجعلهم يعفونه من هذه الرسوم، على أساس أن الصبى تلميذ مجتهد ٠ ولم يكن ايون بحاجة الى مسكن بالمدينة ، فقد كان باستطاعته أن يسير الى المدرسة كل صباح ، حاملا معه غذاءه ، ويعود الى بيته فى المساء ، فقد كانت المسافة من بريباس الى ارماديا لا تستغرق أكثر من نصف ساعة سيرا على الاقدام ٠٠ ولكن ايون لم يستمر فى المدرسة العليا أكثر من شهرين ، ثم رفض الاستمرار فى دراسته ٠ فلماذا يثقل عقله بكل هذه المعلومات ؟ لقد كان يعلم ما يكفى للوفاء بحاجاته ٠٠ ثم انه كان يفضل أن يحرس البقر فى الحقول الجرداء ، أو يمسك بقبضة المحراث ، أو يحصد ، حتى يكون قريبا من الأرض ٠٠ أما جلانيتاشو ، الذى كان قد قبل ارساله الى المدرسة على مضض ، فقد كان على استعداد للموافقة على عدم مواصلته للتعليم ٠٠ ولم يكن آسفا الا على النقود القليلة التى أنفقها فى شراء الكتب ، فقد كان يفضل انفاقها فى الشراب بدلا من استثمارها فى هذا اللغو الفارغ الذى لا جدوى منه ٠ ولكن ايون لم يهجر الكتب تماما ٠٠ فقد احتفظ بها ، وكان يقضى وقته أثناء العطلات فى مطالعتها مرارا وتكرارا حتى تمزقت صفحاتها الى قصاصات ٠ وكان لاينى يسأل المدرس أن يعيره كتابا أو جريدة قديمة ليستمتع بقراءتها ٠٠

كان ايون يعمل بمنجله فى مهارة بكل ما أوتى من قوة ٠ وراحت صفوف الحشائش والبرسيم المعطر تتهاوى صفا بعد صف ٠ وعندما بزغت الشمس ، قرمزية ناعسة ، كان ايون يحس بألم خفيف فى ظهره وكانت أصابعه تقبض فى تشنج على مقبض المنجل ٠ وكان يرفع قامته عند نهاية كل خط،ويمسح حد المنجل بحزمة من البرسيم الرطب ، ويمر عليه فى خفة بحجر المسن ، ثم يطلق زفرة عميقة ويعود الى العمل من جديد ٠ كان الارهاق يستحثه الى مزيد من العمل، فقد كان العمل حبيبا اليه۔ أيا كانت صعوبته ٠

كانت الشمس تصعد فى السماء بخطوات ثابتة ، ترتشف أشعتها الحارة قطرات الندى من الحقول فتنعش الهواء ٠ وكان الناس على طول الروافد يبدون كالخنافس البيضاء ، وقد أخذوا يكدون فى عزم حتى تؤتى الأرض ثمارها ٠ وكان العرق ينهمر على وجنات الفتى وصدره وظهره ، وبين الحين والحين تسيل قطرة بين حاجبيه ، ثم تسقط لتمتزج بالتربة كأنها تربط الرجل بطين الأرض برباط أخوى وثيق٠ كانت ركبتاه

نؤلمانه ، وكان ظهره يحترق موجعـــا ، وقد تدلت ذراعاه ككتلتين من الرصاص •

وعندما حان موعد الافطار ، توقف ليجفف العرق الذى كان يسيل بغزارة من دمه ، وقد اتقد جسده تماما بفعل حرارة الشمس •• وراح يحدق عبر الوادى ناحية القرية • وفجأة تهلل وجهه سرورا ، فقد كانت أنا تصعد الممر فى بطء حاملة سلة راحت تنقلهـــا من يد لأخرى طوال سيرها • وصاح ايون وقد نسى تعبه وما يعانيه من حرارة الشمس :

ـ مرحى يا أنا العزيزة !

وعلى الرغم من أن الفتاة كانت لا تزال بعيدة عنه، فقد رفعت بصرها ولمحته وأجابته في صوت رفيع كالخيط :

ـ أهلا يا عزيزى ايون !

وخرج ايون ليلاقيها عند التقاء الممر بالحقول • كانت وجنتـــاها متوردتين بفعل الحرارة وقد بللهما العرق • ووضعت سلتها على الأرض قائلة فى صوت ناعم :

ـ اننى احمل بعض الطعام لأبى ، فقـــد خرج مع رجلين ليحش البرسيم على جانب التل •

كان ايون ينظر اليها متأملا وقد راح يقول لنفسه برغمه :

ـ كم هى ضعيفة وعاطلة من الجمال ! كيف يمكن للمرء أن يحبها ؟

وقالت الفتاة وفى صوتها رنة عتاب حزينة ، وقد تعلقت عينـــاها بالأرض :

ـ انك لم تأت البارحة •• لقد انتظرتك الى ما بعد منتصف الليل •

فأجاب ايون :

ـ لقد كنت مضطربا يا عزيزتى أنا ، وأنت تعرفين هذا جيدا •• وقد رأيت بنفسك العار الذى الحقه بى السيد فاسيلى !

ـ ألا تعرف ماذا يكون عليه حاله عندما يسكر ؟

ثم أردفت بعد فترة صمت قصيرة :

ـ ولقد ثأرت لنفسك من جورج •

فصاح ايون وقد التمعت فى عينيه نظرة تهور جعلت أنا ترتجف :

ـ نعم لقد فعلت . ان جورج هذا ليس الا أفعى خبيثة !

ظلا واقفين بضع لحظات دون أن يتكلما أو ينظر أحدهما الى الآخر ـ وأحست الفتاة بارتباك فالتقطت سلتها قائلة :

ـ ينبغي أن أذهب الآن ، فلابد أن أبى ينتظرنى ..

فقال ايون فى بساطة :

ـ حسن ، فلتذهبى اذن .

وانطلقت أنا تصعد الممر الذى يتجه الى قمة التل . وبعد خطوات قليلة أدارت رأسها وقد علت شفتيها ابتسامة حلوة ، لكن ايون عاد يفكر مرة أخرى ، وقد ازداد كآبة :

ـ يا للمسكينة .. كم هى نحيفة وعاطلة من الجمال .

وتعلقت عيناه بها حتى اختفت عند أحد المنحنيات . واجتاحه شعور بالضيق والأسى وهو يراها تترنح كالبوصة العليلة ، وقد بدت له ضعيفة هشة :

ـ ومن أجلها على أن احتمل الاهانات والشتائم !

وقف ساكنا جامدا لحظة ، ثم انتزع نفسه من تأملاته وألقى برأسه الى الوراء كأنه ينفض عن نفسه ذلك الضعف الذى كان يعتصر قلبه ، وتمتم قائلا لنفسه فى عبوس :

ـ اننى أوشك أن أصبح أكثر لجاجة من امرأة عجوز غبية .. ما هذا .. ألا أستطيع أن أخلص نفسى من الفقر ؟ .. ان أنا لا بأس بها ! وسوف أكون مغفلا لو طوحت بحظى الطيب من أجل بضع كلمات ..

كان على وشك أن يعود الى منجله عندما رن من خلفه صوت عذب قائلا :

ـ كسول .. كسول !

واختفت كل الأفكار التى كانت تعذب روحه عندما شاهد فلوريكا تقترب ، بوجهها الوردى الباسم الممتلىء . كانت رشيقة كالاغراء نفسه . وتلعثم مضطربا وهو يقول فى سرور :

ـ كنت أرتاح لحظة .. لقد مرت أنا ابنة فاسيلى باكيو لتوها و ..

وقطع كلامه بخشونة عندما رأى ظلا من الكآبة يظلل عيني الفتاة ٠ وندم على أنه قال ما قال ، فحاول أن يغير موضوع الحديث ليسترضيها٠٠ ولكن فلوريكا لم تدع له فرصة للبدء بالحديث ، بل شرعت على الفور تؤنبه :

ـ نعم لقد رأيتكما ٠٠ طبعا لقد رأيتكما ٠٠ فلست عمياء ٠ انك تجرى وراءها كما يجرى فحل الخيل وراء الفرس ٠٠٠ وانى لأعجب كيف لا تخجل من نفسك ٠

حاول ايون أن يضحك ، ولكنه لم يستطع ، وأجابها فى رقة وهو يحتضنها بعينيه :

ـ انت لا تعرفين ما يجرى فى الدنيا يا فلوريكا ؟ ولكن الله يعلم بخبيئة نفسى ٠٠ صدقينى انك ما زلت سيدة قلبى ٠٠

واغرورقت عينا الفتاة بالدموع وهى تقول له هامسة :

انك لتجعل من نفسك أضحوكة كى تظفر بالزواج منها ٠٠

لم يجب ايون ٠ وأطلق زفرة حارة ٠ كان يحترق وجدا ٠٠ ودون أن ينبس بكلمة احتضنها بين ذراعيه ، وراح يضمها بشـــدة ، ويقبل شفتيها بانفعال وحشى ٠ وقاومت الفتاة ، ولكنها كانت تزداد التصـــاقا بصدره ، وهى تتمتم بين قبلاتها :

ـ دعنى يا ايون ٠٠ سوف يرانا الناس ٠٠ دعنى أذهب ٠٠ الناس ٠٠ سوف يروننا ٠

ـ اذن فهكذا تعمل يا بنى ؟

كانت زنوبيا قد وصلت لتوها حاملة طعامه ، فصرخت فيهما لاهثة بهذه الكلمات وقد اعترت صوتها رنة غضب ٠

وهب الاثنان منفصلين فى الحال ٠ واحتقن وجه فلوريكا خجلا ، ولم تكد تستطيع أن تتمتم ببضع كلمات قبل أن تختفى فى حقول الدريس ورد ايون على أمه محاولا أن يخفى اضطرابه :

ـ وأخيرا حضرت ، وها أنت تصيحين فى وجهى كأنك قد وجدتنى نائما على ظهرى أحدق الى السماء طوال النهار ٠ ألم يكن من الأفضل أن تحضرى مبكرة ، بدلا من هذه الثرثرة ، قبل أن ترتفع الشمس فى كبد السماء ويصبح البرسيم يابسا كالورق ٠٠

- ٣ -

وصلت أنا الى قمة التل لاهثة الأنفاس ٠

كان فاســــيلى باكيو وأجيريه يحصدون بكل ما أوتوا من قوة ، ولا يتبادلون الا كلمة أو كلمتين من حين الى حين ٠

وعندما رأى فاسيلى ابنته أنا قادمة قال متجهما :

ـ اذن فقد حضرت ؟

كان يفضل لو أن الطعام جاء متأخرا بعض الشيء ، كي يظل الرجال يعملون حتى الظهيرة ؛ فقد كان الرجال يكلفونه كثيرا ٠

كان فاسيلى باكيو رجلا مجدا عندما يكون خالى البال ٠ حقا لقد كانت حياته شاقة ومجهدة ، ولكنه كان يدبر أموره دائما حتى يظل فى عداد الريفيين الميسورى الحال ٠ فهو لم يرث عن أبويه شيئا سوى الروح التى تخفق فى جسده ٠ وقد تزوج بفتاة غنية عاطلة من الجمال ، كان يعزها كحبات عينيه ، فقد كانت تمثل بالنسبة له الأرض والمزرعة والماشية ، وباختصار كانت تمثل كل الممتلكات التى انتشلته من حياة الفاقة والعوز التى كان يحياها ٠ وقد شحنت الثروة من حبه للعمل ، وتملكت روحه عاطفة حب الكسب وحب التملك ٠ وكان لا ينى يتخوف من أن يحيق به غضب الله فيطيح بثمرة كده العمر كله ٠ فقد مات له ثلاثة أطفال قبل أن ينجب أنا ٠ ثم ولد له طفلان بعدها ولكنهما بدورهما لم يعيشا طويلا ٠٠ كان فاسيلى باكيو يتحرق شوقا الى مولود ذكر ٠٠ وقد جاءه أخيرا ، ولكنه أصر فى عناد على أن يدخل دنيا الأحزان هذه وساقاه تسبقانه ، بدلا من أن ينزل برأسه ككل الأطفال ، وهكذا لم ينلهم منه سوى المصائب ٠ وقد استخدمت قابلة القرية ، التى كانت أم امرأته فى نفس الوقت ، استخدمت كل ما تعرفه من رقى وتعاويذ وأعشاب دون جدوى ٠ فقد ظلت أنات المرأة وصرخاتها تدوى فى جنبات البيت أسبوعا كاملا ٠ ثم أسرع فاسيلى الى ارماديا ليستدعى الطبيب فليبويو ٠ وعندما رآها الطبيب رسم علامة الصليب ، وبعد أن عنفهم جميعا لعدم استدعائه فى الحال ، أخبرهم أن الأوان قد فات ، حيث بدأت المرأة تتخذ لونا أرجوانيا ، ولا يستطيع اتيان المعجزات الا الله وحده ٠٠ وقال لهم أنه كان عليهم منذ البداية أن ينقلوها الى المستشفى فى بيستريتسا حيث كان يمكن اخراج الطفل بعملية قيصرية ودفع له باكيو « زلوتيا » من الفضة وأوصله الى أرماديا بعربة الدوكار ٠٠

وقبل أن يعود كانت المرأة قد فاضت روحها • وظل الطفل يتحرك داخل الرحم طوال ساعتين ، وعقدت القابلة عزمها على أن تخزه بابرة طويلة حتى لا يدفن حيا ويتحول إلى شبح يعود من العالم الآخر ليؤذى الناس ويدفع بهم الى الحبل •• وعندما دفن فاسيلي باكيو امرأته كان يدفن معها قطعة من نفسه • ومنذ ذاك الوقت فقد حبه للعمل ، كأنه فقد كل رغبة في الحياة •• وكانت أنا هي عزاءه الوحيد ، فقد كانت تشبه أمها • وقد أحبها ، ولكنه كان يكرهها أيضا في نفس الوقت • فقد ماتت امرأته التى كانت عماد حياته بسبب طفل • وحاول أن يغرق أحزانه في الخمر • ولما وجد أن السكر ينسيه كل شيء راح يزداد سكرا يوما بعد يوم • وذوى قلبه ووهن حتى أصبح كقطعة من الجلد المجفف • وأصـــبح ينفق كل ما يكسبه في الشراب ، وازداد عبوسه يوما بعد يوم •• ولم يعد هناك ما يتعلق به سوى أرضه • وكان يشعر بألم ممض لمجرد التفكيرفي أن عليه أن يتنازل عن نصف أرضه كبائنة لأنا عندما تتزوج • وراح يقدح ذهنه ليجد سبيلا يؤدى الى ارجاء تخليه عن أي جزء من أرضه ما دام حيـــا • وفكر في أن جورج ، ابن توما بولبوك ، هو الرجل الوحيـــــد الذى يرحب بالزواج من أنا والانتظار حتى يرث بائنتها بعد وفاته • ولم تعـــارض أنا ذلك صراحة ، ولكن ذلك زاده غيظا • كان يشعر أن ايون عدو حقيقى له • فقد كان ابن جلانيتاشو اليوم في مثل الحال الذى كان هو عليه في شبابه •• كان ايون يسعى ليضع يده على ثروته •• ومن أجل هذا كان يغلى كرها لمجرد رؤياه • وكان يصب هذا الكره في وحشية أكثر على أنا ، لأنها هى التى كانت أقرب الى قلبه ••

ورمقها بنظرة تأنيب من تحت حاجبيه وسألها من وراء كتفه وهو يشحذ منجله :

ــ الى من وقفت تتحدثين عندما كنت تصعدين التل ؟

فأجابته بلا تردد :

ــ الى أيون •

فزمجر فاسيلي باكيو :

ــ هم •• الى ايون •• هذا اذن مافعلت ! لا فائدة من نصـــائحى الأبوية لك • فها أنت تسيرين وفق ما يمليه عليك رأسك العنيــــد •• حسن يا صبية •• افعلى ما شئت ! فهـــا أنذا على الأقل قد عرفت • وما دمت تعتقدين أن هذا صواب ، فسوف أعطيك درسا لن تنسيه •

كان يزداد قسوة كلما استطرد فى حديثه ، وراح يسب ويلعن، ولكنه لم يترك المنجل من يده لحظة ٠٠ بل على العكس من ذلك بدا كأنما يستخدمه فى جد أكثر من ذى قبل ٠ وكان على العاملين أن يتبعاه مكرهين ، فقد كان يسير فى المقدمة ٠ كانت اللعنات كأنما تمده بقوة فى عمله وتجعل العاملين حريصان على اللحاق به ٠

وراحت أنا تخرج أوعية الطعام من السـلة وهى تقف فى ظل شجرة تفاح برية عند نهاية المرج ، وقد أصابتها الكلمات الفظة التى وجهها والدها اليها أمام الرجلين فى صميم قلبها ٠ وتقبلت تهديداته فى هدوء قائلة لنفسها أنها انما تتحمل هذا كله من أجل ايون ٠٠٠ وجلست بجوار السلة وهذه الفكرة تسيطر على ذهنها ، وأدارت بصرها الى أسفل التل ، حيث كان يعمل ٠٠ واستطاعت أن تميزه هناك ، ولكنه لم يكن يبدو وحـده ٠٠ وأحست برعـدة تسرى فى عظامها ٠ وراحت تفتح عينيها وتغلقهما عدة مرات كأنما تبعد غشاوة عن عينيها٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لم يكن هذا سرابا ، فقد كانت تراه فى وضوح تام ٠ كان ايون يحتضن امرأة بين ذراعيه ٠ انه لم يقبل أنا ، ولكن هاهوذا يحيط تلك المرأة الاخرى بذراعيه ٠ وشعرت أنا بكل دمائها تتدفق الى وجنتيها ، وتبينت فلوريكا بوضوح كأنها تنظر اليهما من خلال منظار مقرب ٠ وشعرت بألم حاد ينفذ الى أعماق قلبها ، ولم تستطع أن تحيد بعينيها عنهما ٠٠ كانت تسمع الصدى الخافت لتهديدات والدها تمر بأذنيها كأنها فى حلم :

ـ اننى أفضل أن أمزقك اربا بيـدى على أن أدعك تصـبحين أضحوكة جلانيتاشو هذا ٠٠ فسوف أعرف على الأقل أننى أنا الذى أقتلك ، أنا الذى صنعتك ٠

لم يعد صوته ينفذ الى قلبهـا ، كان قلبها قد تحجر من فرط الحزن ، كانت تحس أنها مخذولة محطمة ٠ وبدا لها أن عناقهمـا لن ينتهى ، وأظلمت الدنيا فى عينيها ٠ وراحت شفتاها الرقيقتان اللتان هربت منهما الدماء ترتعشان وتغمغمان فى ألم مبرح :

ـ انه لا يحبنى ٠٠ انه ما زال لا يحبنى ٠٠ يا الهى ٠٠ يا ربى !٠٠

- ٤ -

كانت القرية كلها على قدم وساق . فقد انتشرت أنباء المشاجرة التى حدثت فى حلبة الرقص ، والعراك الذى وقع فى الحانة ، من بيت الى بيت . وراحت الحكاية تتضخم وتكبر أثناء انتشارها .

ففى الصباح الباكر ذهب توما بولبوك ليوقظ الأب بلكيوج الذى كان لا يزال فى فراشه ، ليشكو له كيف أن ايون أقعد ابنه كسيحا . وغضب القس غضبا شـــديدا ، فقد كان توما واحـدا من أهم أعمدة الكنيسة الأثرياء ، ووعده بأن يندد بابن جلانيتاشو المشاغب من فوق منبر الوعظ ، ويعطيهم درسا فى حسن الســلوك ، وسر توما باجابة القس ، وراح يروى لكل من يلقاه كيف هال الأمر القس وما الذى انتوى فعله ، ثم انطلق الى عمله مع ولده جورج الذى كان سليما معـافى كأن شيئا لم يحدث له ، فيما عدا كدمة أرجوانية فى حجم قبضة اليد كانت على ظهره .

وراحت النساء كلما اجتمعن تضفن تفاصيل جديدة . وأقسمت الكثيرات منهن أنهن كن حاضرات أثناء المشاجرة ، ورأين بأعينهن ماحدث عندما ضرب ايون جورج بالعمود فشج رأسه ، وكيف تنـاثر مخه فوق تراب الطريق . وراحت أخريات تؤكدن أن ابن توما يعانى ســكرات الموت ، وصاحت بعض النسوة العاقلات قائلات انه قد مات منذ الليلة الماضية ، وان توما انما ذهب الى القس ليعد ترتيبات الجنازة ..

أما عائلة هرديليا فلم يكن لهـــا من حديث الا عن أحداث الليلة الماضية المثيرة . فقد غادر تيتو فراشه فى التاسعة ، رغم أنه كان يرفض دائما أن يترك فراشه قبل الظهيرة ، وابتدرهم سائلا :

ـ هل سمعتم عن المعركة التى حدثت بالأمس ؟ .

كانوا جميعا يعرفون . فان هرديليا الذى كان معتادا على الذهاب الى فراشه مع الطيور الداجنة ، كان يستيقظ قبل أن يبزغ النهـــار ويخرج الى الفناء ليتبادل بضع كلمات مع كل عابر سبيل . وهكذا علم بالانبـــاء المثيرة من ماكيدون سيرسيتاشو الذى كان يبحث عن شىء يفعلة فى بيته أيام الاثنين ليتخلص من وخم السكر الذى كان يشعر به من جراء سكرة يوم الأحد .

وقال تيتو فى غموض وهو ينتعل حذاءه :

ـ لقد تصادف أن كنت هناك في ذلك الوقت ·

وقفزت كل من لورا وجيجي ـ صغرى بنـــات الأسرة ـ نحوه وراحتا تسألانه أن يقص عليهما كل ماحدث من البداية حتى النهاية · حتى السيدة هرديليا التى كانت تقف فى الركن بجوار المطبخ أصاخت السمع وهى منهمكة فى اعداد الطعام · ولكن تيتو ظل صامتا كأبى الهول رغم كل الحاحهم عليه · وراح يصيح وهو يرتدى ملابسه فى سرعة عسكرية :

ـ لحظة من فضـــلكم ·· لحظة واحدة ·· ســـوف أذهب لأحضر بعض الطباق ، ثم أخبركم بما حدث ·

كان فخورا كأنما كان هو بطل المعركة ، أو على الأقل ضحيتها · وعلى الرغم من أنه كان فى استطاعته أن يلفق خيطا لا نهاية له من التفاصيل الخيالية التى تبعث الرعب فى القلوب ، الا أن طموحه حمله على الخروج حتى يحصل على تفصيلات أوفى قبل أن يدلى ببيانه · ومن ثم كان تعلله بشراء الطباق · فقد كان أفروم من خير مصادر الانباء التى يعتمد عليها ، وسوف يدلى اليه بكل مالديه من معلومات ·

ولكن الخمار بدا فى كآبة يوم مطير عندما حاول تيتو أن يحصـــل على مالديه من معلومات · كل ماقاله أنه لا يعرف شيئا ، ولم ير أى شىء ·· كان خائفا مما قد يترتب على الحادث من عواقب قد يصيبه منها شىء ·· وقد يغلق حانوته بسببه · وقد يأتى رجال الشرطة ، أو قد يتطور الأمر الى قضية ·· فمن يدرى ؟ ولذا كان السكوت من ذهب · وخصوصا بالنسبة لصاحب محل تجارى ·

وكان من حسن حظ تيتو أن يقابل دوميترو موركاش ، وهو من الزبائن الدائمين للحانة · فقد استقى منه من الأنباء ما يكفى ليقـــدم تقريره فى صورة أكثر تنميقا · وهكذا استطاع أن يدلى متدفقا بتقرير دقيق مفصل عما حدث فى المعركة · وظل يحكى لوالدته وأخواته حتى حان موعد الغذاء ·

وقد أيدت عائلة هرديليا بأكملها موقف ايون بكل جوارحها · فقد قالوا انه فعل عين الصواب عندما أعطى ذلك الجلف جورج علقـــة ساخنة · لماذا يعيرون ايون أو يهينونه وهو فتى لطيف مهذب ؟ ·· ولم يكن حكمهم هذا موضوعيا لا يصدر عن هوى ·· فان المدرس كان قد نظم فى الشتاء الماضى جماعة عمل حتى يساعده الفلاحون فى احضار

الحطب ، ولكن المزارعين الميسورى الحال تخلفوا جميعا بمـــا فيهم توما بولبوك • ومنذ ذلك الوقت وآل هرديليا يضمرون العداء لآل بولبوك ، للأب والابن على الســـواء ، حتى أنه يقـــال ان المدرس قال أمام بعض القرويين ذات يوم :

ـ سوف يقصدون بابى يوما •• توما والآخرون •• وســـأعرف عندئذ كيف أعبر لهم عن شكرى ••

وعندما استنفذ تيتو كل ما يمكن قوله فى موضـــوع المشـــاجرة، أحس برغبة جامحة فى أن ينشر الأنباء فى مجال أوسع • وراح يقلب الفكرة فى ذهنه ، وعند الظهيرة ، بعد أن تناول غذاء شهيا وشرب عدة أقداح من الماء صاح فى حماس :

ـ ســـــوف ترون أى اثارة ستحدثها هذه الأنبـــاء فى أرماديا وجيدوفيتسا •

وترك المائدة قبل الجميع ، وارتدى خير ثيابه فى عناية ، ثم أعمل الفرشاة فى شعره حتى أصبح فى نعـــومة شعر العروس ، وانطلق متمتما فى نغمة من يتصنع الفتور :

ـ سوف أخرج لأتمشى قليلا ، فان السأم يكاد يقتلنى هنا •

وراح يتسكع فى طريقه الى جيدوفيتسا وهو يصفر لحنا ويدير عصاه فى يده •

كان تيتو مفخرة أسرة هرديليا •• فقد كان فى الثالثة والعشرين، طويلا ، يميل الى النحافة ، ذو وجه عريض وعينين زرقاوين لامعتين ، وحاجبين عريضين • لم يكن شاربه غزيرا ، ولذلك فضل أن يحلقه ، مؤكدا أنه انما يتبع فى ذلك « المودة » الانجلو أمريكية •

كان أهل البيت جميعا على استعداد للقسم بأنه لا يوجد فى المنطقة كلها من هو أذكى منه • وقد كان بالفعل تلميذا ممتازا فى المدرسة • وقد بدأ حياته الدراسية تحت اشراف أبيه الذى كان يصنفه بأنه تلميذ بارع • ولكنه عندما انتقل الى المدرسة الثـــانوية فى أرماديا لم تسر أموره على مايرام • فعندما كان فى الصف الثالث أخذ يشـــكو من أن المدرسين يضطهدونه ، فعمل هرديليا على نقله الى المدرسة المجرية فى بيستريتسا قائلا أنه « لا خير فى دراسة اللغة الهنغارية أيضـــا ،فان الانسان فى هذه الأيام لا يستطيع أن يسير أموره الا اذا كان يعرف لغة

الحكام » · ولكن الأمور لم تسر على مايرام بين تيتو وأساتذته في هذه المدرسة أيضا ·. وهكذا عندما أنهى دراسته في الصف السادس وافقت أسرته على انتقاله الى المدرسة الساكسونية ·· وقال المدرس عندئذ : « ان المرء يستطيع أن يطوف بالعالم كله اذا كان يعرف اللغة الألمانية» · ولما كانت رسوم الدراسة مرتفعة ، ولم يكن لدى هرديليا المال الكافي عندما حل شهر سبتمبر ، فقد كان على تيتو أن يكمل دراسة السنتين الأخيرتين في المنزل · وعندما حان موعد الامتحان بعد شـــهور قليلة وجدوا أن تكاليف الامتحان من الخارج لطلبة المنازل أكثر ارتفاعا ، بينما تصادف في نفس الوقت أن كانت ظروف السيد هرديليا أكثر عسرا مما كانت في الخريف · وهكذا طلق تيتو المدرسة الى الأبد بعد مناقشة عاصفة ، خصوصا وأنه كان قد زهد في الانكباب على مراجعة المملة المتعبة · وفي مجلس العائلة الذى انعقد بعد ذلك مباشرة ، تغلب اقتراح الفتيات بأن يصبح شقيقهما كاتبا في احدى القرى · وحزنت السيدة هرديليا حزنا عميقا لهذا القرار ، فقد كانت تحلم دائما بأن ترى تيتو قسا لأبرشية مونور ــ قريتها الأصلية ــ حيث كان الفتى شديد الشبه بها وحيث كان صوته رائعا في الوعظ والخطابة ··

وبمرور الوقت ، عقد تيتو عزمه على أن يلتحق بالدراسات التى تؤهله لوظيفة كاتب القرية ، ولكن شروط قبـول المرشحين كانت قد ازدادت صعوبة ، وأصبحت تتطلب الحصول على شهادة اتمام الدراسة الثـــانوية · وعندئذ اقترح هرديليا أن يلتحق بكلية اعداد المعلمين ، ليأخذ مكانه كمدرس في برزيباس ، حيث يبلغ هرديليا سن الاحالة الى المعاش في الوقت الذى ينتهى فيه تيتو من دراسته · ولكن تيتو لم يكن راغبا في مزاولة مهنة التدريس · بل انه كان يفضل أن يصبح «عتالا» على أن يصبح مدرسا ·· كان رفضـــه قاطعا حتى أن أحدا لم يجرؤ على ذكر موضوع التدريس ثانية · ولكنه من ناحية أخرى كان عليه أن يعمل شيئا ــ أى شيء · فلم يكن يسعه أن يمكث في المنزل طوال الوقت بلا عمل على الاطلاق ، فهو لم يعد بعد طفلا ·· لقد أصبح رجلا·· وليس من المعقول أن يكتفى بالتسكع هنا وهناك ·· فماذا يقول الناس عنه حينئـــذ ؟ ولهذا فان هرديليـــا الذى كان صديقا لـــكاتب قرية سالفا ، استطاع أن يغريه بأن يتخذ من تيتو مساعدا له ، على أن يدفع له ثمن طعامه واقامته ومصروفه اليومى · وهكذا ارتحل تيتو الى هناك حيث أقام ثلاثة شهور ، لم يفعل خلالها شيئا في الواقع ، وبلغ به الضيق مبلغه فعاد الى البيت · لم يحب عمل كاتب القرية ، وكان قراره

فى هذا الشأن نهائيا . ثم أنه حتى لو أحب هذا العمل فلن يكون له فيه مستقبل يذكر مادام لا يحمل شهادة التخرج ، اذ أنه سيظل طوال حياته مساعد كاتب .. مجرد محرر للعقود الرسمية ، مجرد انسـان بائس يسخر منه القرويون . أهذا يليق به ، وهو الرجل الطموح الذى يشعر بقدرته على أن يجعل لاسمه ذكرا فى هذا العالم ؟ ..

كان يمضى وقته فى قراءة الروايات والأشعار .. فقد كان يقرأ كل ما يقع فى يده منذ أن ترك المدرسة . كان يقرأ طوال اليوم ، ثم بدأ يكتب ايضا . وكان فى بداية الأمر يكتب سرا ، ثم أخذ يعلن الأمر تدريجيا حتى أصبح معروفا وشائعا . وقد قرر نهائيا أن يصبح شاعرا منذ ذلك اليوم الرائع الذى نشرت له فيه مجلة « فاميليا » قصيدة من ثلاثة مقاطع ، ولو أنه احتفظ بقراره سرا . كانت شـقيقتاه تعتبرانه عبقريا ، وكان والداه يشاطرانهما هذا الرأى ، ولو أنهما كانا يتساءلان كيف سيستطيع أن يوفر لنفسه المأكل والملبس من قرض الشعر . وفى أرماديا قرأ الشبان ــ والسيدات والآنسات خاصة ــ اسم نجل مدرس بريباس تحت القصيدة المنشورة ، فى دهشة وغيرة . ولم يمض وقت طويل حتى كانت المقاطعة كلها قد نادت به شاعرا . كان تيتو يقرأ ويكتب طوال الليل . وكان يطفىء الأنوار ، ويمكث فى الظلام فى انتظار الالهام ، حتى اذا تشـكلت قصـيدة فى ذهنـه سارع بايقاد المصباح ليخلدها على قصاصة من الورق .. وكان هرديليا يدمدم ساخطا فى بعض الأحيـان بسبب مايستهلكه من وقـود ، ولكن تيتو فى غمرة استغراقه فى تأملاته ، ماكان ليأبه بكل هذه الملاحظات الدنيوية ..

وعندما اقترب تيتو من جيدوفيتسـا أخذ يفكر الى أين يذهب ؟ هل يتوقف فى جيدوفيتسـا أم يواصل سيره الى أرماديا ؟ كان قلبه يناديه أن يذهب اليهما كلتيهما . ففى أرماديا كانت هنـاك الآنسـة لوكريتسيا ، ابنة فالنتين دراجو أستاذ الرياضيات ، وهى فتاة صغيرة حالمة ، ذات شعر داكن ، كان يحبها طوال السنوات الثلاث الماضية . كان حبهما حبا روحيا خالصا ، يقوم على النظرات المختلسة التى تحمل كثيرا من المعانى ، والتنهدات المستمرة ، وتماسك الأيدى بطريقـة تهز المشاعر ، وتبادل بطاقات البريد المصـورة ، وفوق هذا كله بعض التصريحات الخجولة التى كانت تعبر عنهـا الزهور ، وطوابع البريد والألوان .. كان تيتو كلما تصادف أن حضر الى أرماديا ــ وكان يتصادف أن يحضر كل يوم تقريبا فى الآونة الأخيرة ــ يتحايل للقاء لوكريتسيا مصادفة . كانا يتضرجان خجلا كلما التقيا ، ويتمتمان ببضع كلمات عن

الطقس ، وينظر كل منهما فى عينى الآخر ، ثم يظلان صامتين · وكان تيتو يحدث نفسه بأن « الصمت أبلغ من أى كلام » · وفى الحقيقة ، كانت لوكريتسيا أحد الأسباب الرئيسية لاحترافه الشعر ، فقد كانت عيناها الزمرديتين مصدر الهامه ، وكان يتغنى بجمالهما فى القصيدة التى نشرت فى مجلة « فاميليا » ·

وفى جيدوفيتسا أيضا كانت هناك زوجة المدرس لانج · كان المدرس يهوديا ، بينما كانت زوجته هنغارية · وكانا قد حضرا منذ مدة قريبة الى المدرسة الاميريه ، ولم يكن أيا منهما يعرف كلمة واحدة من اللغة الرومانية · وكان اليهود فى قرية جيدوفيتسا قد بدءوا مؤخرا يمارسون مايمكن للمرء أن يسميه الوطنية الجديدة ، وكانت الكلمات القليلة التى يستطيعون النطق بها من اللغة الهنغارية الرسمية تخرج مشوهة على نحو يجعل أكثر المجربين رغبة فى الفهم ، عاجزا عنه · ولهذا فقد كان لانج وامرأته غاية فى السعادة لتعارفهما بتيتو ، فقد كان هو الشخص الوحيد الذى يستطيعان التفاهم معه · وكان الزوج سكيرا يقضى كل لياليه تقريبا فى مشارب الجعة فى جيدوفيتسا أو فى مواخير أرماديا وحاناتها ، تاركا امرته الجميلة اللعوب للوحدة والسأم · وكان بعض الناس يتحدثون عن وجود بعض علاقات غرامية لها فى مارا مورش ، حيث كانا يقيمان قبل أن ينتقلا الى جيدوفيتسا ·· ولهذا السبب ذاته انجذب تيتو اليها وراح يتودد اليها فى الحاح · فهو رغم تنهداته من أجل لو كريتسيا كان يتحرق شوقا الى حب عاطفى حار · ولما كان لا يعرف تماما كيف يغزو قلب امرأة ، فقد خشى أن يبدو غرا أبله فى عينى السيدة الهنغارية ·· فلم يكن قد أحرز من قبل أى نجاح مع فتيات بريباس القرويات على الرغم من أنه قد رنا الى الكثيرات منهن بعين الغرام · لكنه كان يحس على أية حال أن السيدة لانج قد بدأت تميل اليه ، وشجعه هذا على المضى فى طريقه ·

كان قد أوشك على الوصول الى قرية جيدوفيتسا · ووجد حذاءه قد تغطى بتراب الطريق ، فتوقف ومسحه بمنديل قذر كان قد أخذه معه لهذا الغرض · فقد كان يحب أن يبدو أنيقا نظيفا ، وخاصة عندما يتوقع لقاء شخص يحبه · ثم أخرج مرآة من جيبه وأصلح من وضع رباط عنقه ، وسوى شعره ، ونثر بعض العطر على صدره ليزيل رائحة العرق · وبينما كان يصلح من وضع رباط عنقه ، كان قد اتخذ قراره النهائى : أن يبقى فى جيدوفيتسا ·

كانت أسرة لانج تقيم فى منزل الحاخام ، عند مؤخرة فنائه . وكان الداخل الى الردهة الخارجية يجد حجرة على يمينه وأخرى الى يساره . وكان اهتمام تيتو منصبا على الغرفة التى تقع الى اليسار ، فقد كانت هى حجرة النوم .

وطرق باب المدخل ، فلم يجبه أحد . وراح يفكر ويده على المزلاج فى أنه قد لا يكون هناك أحد بالداخل .

وانفتح الباب ، فخطا الى الداخل بلا صوت . كانت الحجرة الخارجية تبدو مظلمة ، وكان الباب الأيمن الذى يقود الى الحجرة التى كانت تستخدم كحجرة للطعام والاستقبال والمكتبة فى آن واحد مفتوحا على مصراعيه . لم يكن بالداخل أحد . وارتجف سرورا لمجرد تفكيره فى أنه قد يجد السيدة لانج فى البيت وحدها . وكانت السيدة لانج غالبا ماترقد بعد الظهر فى سريرها ، حيث تقرأ الروايات الرومانسية ، وتتمطى فى ميوعة كجارية من جوارى الحريم .. وسار متلصصا على أطراف أصابعه الى باب حجرة النوم ، وطرقه برفق . لاجواب .. قال لنفسه : « لابد أنها نائمة » ، وراح طوفان من الآمال والخطط يلهب تفكيره وهو يدق الباب بصوت أعلى .

ودمدم صوت جاف غليظ يغلبه النعاس : « من هناك ؟ » .

فأجاب الشاب وقد خاب أمله اذ عرف صوت الزوج : « انه أنا » .

وقال الصوت من الداخل وقد اكتسب شيئا من الحيوية :

ـ أوه ، أهذا أنت يا تيتو ؟ أدخل يا صديقى العزيز .

ودخل تيتو قانطا . لقد تحطمت كل أحلامه فى لحظة . كان يأمل أن يجد محبوبته وقد أثقل النعاس جفنيها ، لينتهز الفرصة ويقبل عينيها وينسل الى أحلامها ، ويقبل شفتيها وينهل من تأملاتها .. وربما وصل الى ماهو أكثر من ذلك .

وسأل وهو يلقى بنظرة عبر الحجرة : « هل أنت وحدك ؟ » .

فتثاءب المدرس قائلا :

ـ وحدى تماما أيها الشاب العجوز ، فقد ذهبت زوجتى فى نزهة الى أرماديا لتشترى بعض الأشياء .. انك لا تتصور كم أنا متعب أيها الصديق .. فقد لهونا بالأمس كثيرا مع القاضى ، وقسيس رونكو ، والدكتور فيليبويو ، والاستاذ اونكيا وآخرين حضروا متأخرين حتى

أنني لا أذكر جميع من كانوا موجودين · كانت الساعة تقارب السـابعة صباحا عندما تركنا حانة راهوفا وكنا قد طفنـــا قبلها بخمس أو ست حانات اخرى ·· لقد كان هذا فظيعا ! انني لا أكاد أستطيع أن أبقى عيني مفتوحتين ! ·

ازداد تيتو قنوطا وهو يصغي الى حديث لانج · أهذا هو الرجل الذى يمتلك كنزا نفيسا مثل روزيكا ! راح ينظر اليه من أعلى الى أسفل في ازدراء · كان للانج شارب هنغارى طويل ، وأنف غليظ ، وعينـــان حادتان سوداوان ، وشعر أسود مجعد · وعلى الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز الثلاثين فقد كان يبدو بوجهه الخشن المجعد أكبر من سنه بعشر سنوات · وكان تيتو يشعر بخيبة الأمل لدرجة أنه لم يجد فى نفسه رغبة لأن يحكى له قصة المشاجرة ، فقال وهو يمد يده له مودعا :

ـ حسن اذن ، ســأتركك لتستأنف نومك ، ويؤسـفنى انى لم أجد السيدة لانج · أرجو أن تبلغها أطيب تمنياتى ·

فتثاءب لانج ثانية قائلا :

ـ حسن ·· حسن جدا ·· ألا تتناول كأسا من الكونياك ؟

وأجابه تيتو فى لهجة فظة وهو يخطو خارجا :

ـ كلا ·· كلا ·· أشـــكرك ، فأنا فى عجلة من أمرى ، لأنى فى طريقى الى أرماديا ·

فقال المدرس وهو يمد يده الى كأس كان موضوعا على «الكومودينو» المجاور لفراشه ، ويلقى بالبراندى فى حلقه :

ـ كما تشاء يا صديقى العزيز ·

ثم جذب الغطاء فوق رأســه ، وراح يشـخر على الفور كفرس البحر ·

عندما خرج تيتو الى الطريق كان قد غير رأيه · لم يعد لديه مأرب فى الذهاب الى أرماديا · فقد رجح أنه ، بمثـل هذا النحس الذى لازمه منذ البداية ، لن يقابل السيدة لانج ، ولا لوكريتسيا دراجو ، وسوف يجعله هذا منحرف المزاج لمدة أسبوع كامل ·· ولكنه لم يكن يشعر برغبة فى العـودة الى منزله أيضا · ماذا يفعـل اذن ، وماذا كان فى استطاعته أن يفعل ؟

كان يقف أمام مكتب كاتب القرية تماما . وكانت الشمس حارة لافحة تكاد تذيب الجدران نفسها . كان الحر لايطاق . وصعد درجات السلم عـــدوا ليتجاذب أطراف الحديث مع ستوسيل كاتب القرية ، ولكنه لم يجد الا مساعده هورنشتين . وكان الأخير شابا نحيلا ، قصير القامة ، يلبس منظارا طبيا ، ويعاني من تقلص عصبى فى وجهه ، ويبذل جهدا خارقا ليتحدث باللغة الهنغارية . وقال تيتو لنفسه وهو يجلس أمام مكتب الكاتب ويرد على تحيات المساعد فى استسلام ، فقد كان يكرهه رغم أنه لم يسىء اليه :

ــ لا فائدة .. لقد جانبنى الحظ .

هنا على الأقل كان يستطيع أن يقرأ الصحف حتى يحين الغسق وتخف حدة الحرارة اللافحة . كان يحب قراءة الصحف ، شأنه فى ذلك شأن هرديليا العجوز ، ولكنهم لم يعودوا يتلقون الصحف بعد أن عجزوا عن دفع الاشتراك . كانوا يتلقون صحيفة « ترانسلفانيا جازيتا » حتى بضع سنوات خلت . وقد ظل هرديليا يضيق على نفسه حتى فى أبسط ضرورياته حتى يستطيع ســـداد الاشتراك ربع السنوى ، ومن ثم ظل يتلقى الجريدة بانتظام لمدة عام كامل ، غير ملق بالا الى الاخطارات التى تطالبه بدفع المبلغ المستحق ، مهددة بالتوقف عن ارسالها اليه اذا لم يبادر بالسداد . وقد اكتشف تيتو فيما بعد أسلوبا أفضل للحصـــــول على الصحف ، فقد راح يطلب عينات من الصحف الهنغارية ، وكانوا يرسلونها اليه دون مقابل لمدة أسبوع أو أسبوعين ، حتى اذا توقفوا بادر بالكتابة الى صحيفة أخرى مكررا نفس الطريقة . وهكذا استطاعوا الحصول على الصحف مايقرب من عام كامل دون أن يكلفهم الأمر شيئا سوى بطاقة البريد ، حتى اذا استنفدوا كل الصحف ، حاولوا أن يعيدوا اللعبة من جديد دون جدوى ، فان أحدا لم يرد على بطاقاتهم البريدية . وهكذا أصبحوا يضطرون لاقتراض الجريدة من الأب بلكيوج الذى كان يدفع الاشتراك بانتظام لا لشىء الا ليثبت ميوله الرومانية المخلصـــة ، رغم أنه لم يكن يجد الوقت ليقرأ كل ماتحويه الصحف من أكاذيب . وهكذا كان تيتو ، الذى يمر بجيدوفيتسا كل يوم تقريبـــا ، يلتقط الصحيفة من مكتب الكاتب ولكنه كان ينسى أن يوصـــلها الى القس . وكان الكاتب بدوره يتلقى ثلاثا من الصحف الهنغارية ، ولكنه لم يكن يقرأها مطلقا . ولما كان يحتفظ بها ليستخدمها فى اشعال النار ، لم يكن يسع تيتو الا أن يقرأها فى المكتب دون أن يأخذها معه الى البيت .

انهمك تيتو فى القراءة ، وسرعان مانسى كل ماصادفه من فشل. وظل يتمعن فى الصـــحف حتى حل الظلام . وأحس بالانتعاش فأخذ يحكى ـ قبل أن يرحل ـ قصة الأحداث المثيرة التى وقعت فى بريباس ، ساردا اياها لمساعد الكاتب باللغة الهنغارية ، الأمر الذى زاده سرورا .

- ٥ -

تجمع أفراد أسرة هرديليا جميعا عند الغسق فوق السقيفة ، كما هى عادتهم فى أيام الصيف اللطيفة .

وكان هرديليا يقضى وقته أثناء العطلة الصيفية فى تشذيب أشجار البستان الواقع خلف المنزل أحيانا ، أو فى اقتلاع الحشائش البرية المتناثرة هنا وهناك أحيانا أخرى . وكان يستريح بعد الظهر لمدة ساعة أو ساعتين فى حظيرة النحل ، حيث كان طنين النحل الرتيب يهدهده فيستسلم للنعاس . أما السيدة هرديليا فكانت طوال يومها مشغولة فى المطبخ ، اذ لم تكن تسمح لبناتها أن يجربن حظهن فى طهو الطعام . وكانت جيجى تقوم باحضار الماء وغسل الأوانى ، بينما كانت مهمة لورا هى تنظيف المنزل ، اذ كانت آنسة فى سن الزواج ، حريصة على أن ترتب كل شىء فى المنزل بطريقة تستعرض فيها ذوقها الفنى الرفيع . فاذا ما اقترب المساء كانت كل الاعمال المنزلية قد انتهت ، ومن ثم يحين موعد الاستراحة فى السقيفة ، حيث كانت النسوة تثرثرن وتتضاحكن وقد شغلت أيديهن بالحيـــاكة أو التطريز ، بينما كان هرديليا يقلب صـــفحات كتاب وغليونه فى فمـــه . وكان منظر القرية كلها ونصف الحقول من حولها يمتد أمام عيـــونهم كأنه خريطة كبيرة من النحت البارز الملون . وكان الرجال العـــائدون من الحقول أو الذاهبون فى طريقهم الى جيدوفيتسا ، والعربات السائرة فيما بين أرماديا وبيستريتسا تتتـــابع أمام عيونهم ، وتمدهم بموضـــوعات جديدة للحديث لا تنفذ . وعندما يقبل الليل فى النهاية كانت الأم وفتاتيها تبدآن فى انشاد أغان رومانية قديمة بأصواتهن الندية العذبة ، يصاحبهن المدرس من حين الى حين بصوته الجهير .

كانت السيدة هرديليا امرأة شديدة الورع ومغنية جياشة العاطفة. كانت تمضى طوال يومها منهمكة وسط أوانى الطهى ، تقلب هذا وتمسك ذاك ، وهى تدندن بالأغانى والترانيم الدينية . وكانت فى أيام الآحاد ،

عندما لا يتوفر لها الوقت للذهاب الى الكنيسة ، تمكث وحدها فى المنزل وتنشد قداسا كاملا بمفردها · وكانت أيام صباها رائعة · كانت ابنة لفرويين فقيرين ، وقد فقدت أباها فى سن مبكرة ، فكفلها عمها سيميون مونتيانو الذى كان مدرسا سـابقا فى مونور · وكانت تدين بحسن طالعها لعمها هذا · كان مونتيانو مدرسا قديرا ورومانيا مخلصا ، لم يأل جهدا فى تخليص مدينته الصغيرة ـ التي كانت مقرا صيفيا لأسرة من النبـلاء الهنغاريين ـ من التحول الى المجـرية · وقد جول العادة المسيحية البسيطة فى التزيى بزى المجوس الثلاثة فى أعياد الميلاد الى رواية ميلاد حقيقية ، ذات نص ، وملابس ملائمة وموسيقى · ولعبت ماريا دروجان ـ وهذا هو اسـمها قبل الزواج ـ دور كبير الملائكة ، مرتدية ملابس بيضـاء · كانت تبـدو رائعة ، وقد تميزت بحماسها ومهارتها الفنية فى الأداء وهى تحث الرجال الثلاثة العقلاء القادمين من الشرق على تقديم العطايا للأطفال المسيحيين الذين يولدون كل عام ·

ومن حسن حظ ماريا أن مونتيانو لم يقصر جهوده على معالجة هذا التقليد من تقاليد عيد الميلاد · فقد شجعه الاستقبال الحار على تنظيم عروض مسرحيـة منتظمة ، وراح يدرب الشبان والفتيات الموهوبين على تمثيل مسرحيات فاسيلى الكساندرى ، الذى كانت أعماله قد أخذت فى الانتشار فى ترانسلفانيا · وذاع صيت هذه الحفلات التمثيلية فى كل أنحاء اقليم سومش · وجاء النـاس من كل القرى المجاورة ليشهدوا مسرحية رومانية ويستلهموا وحيها · وكان ممثلوا سيميون مونتيانو الهواة يبذلون عصارة روحهم فى أدائهم حتى بهروا الجميع · وكانت ماريا دروجان الشابة الحلوة هى الروح الملهمة للفريق ، ولم تلبث أن نالت اعجاب كل رواد المسرح ، فقد كانت أكثر أفراد الفريق موهبة · كان نجاحهـا فى مسرحية « الحجر فى البيت » وأكثر منه نجاحها فى مسرحية « عيد العنصرة » شيئا لا ينسى · وفى حفل أقيم لها بعد أدائها لمسرحية « عيد العنصرة » شرب كبير شمامسة سويمس ، وهو رجل ذو ثقافة عالية قام برحلات كثيرة ، نخب نبوغها ونصبها « بريمادونا » الهواة ، وسط هتاف الحاضرين جميعا · واغرورقت عينا ماريا بدموع السعادة وان كانت لم تفهم تماما معنى هذا اللقب الذى خلع عليها · وبعد أن انتهى كبير الشـمامسة من خطبته ، قدم للبريمادونا بعض العروض فى كياسة ، ولكن دون جدوى ·

تتذكر زوجة المدرس ذلك العصر الذهبى والدموع فى عينيها ·

كان قد انقضى وقت طويل على تلك الايام ، حتى لكأنها لم تحدث حقا ! في ذلك الوقت تعلمت كل الأغاني التي تتعلمها الفتيات عنها اليوم . لقد كان ذلك منذ زمن بعيد ! فقد انقضت عليه ثلاثون عاما .. فبعد « عيد العنصرة » التقت بزهاريا هرديليا وكان مدرسا من ليشنتسا يبشر بمستقبل باهر .. وتزوجت ، وأنجبت تسعا من الأطفال مات منهم ستة بعد أن أمضت سنوات طويلة تشقى وتكدح في تربيتهم . كانت تكدح كأنها جارية ، وقد تخلت عن كل مرح أو لهو ، وتقدم بها السن ولم يبق من جمالها السابق الا بعض آثار وذكريات . كذلك بقيت لها الأغاني ، التي كانت قد كتبتها في دفتر كبير حتى تحفظها من النسيان . كان عزاؤها الوحيد الآن هو ايمانها المتقد الذي لا يتزعزع بالله ، وسعادتها برؤية أطفالها يكبرون ويشبون عن الطوق ، ويتحفزون لاختيار حظهم من الحياة ..

وانتشرت ظلال المساء طاردة فلول الضوء المنحسر . وراحت سحب الدخان الأزرق تعلو فوق القرية والحقول وتلفها في رداء ضبابي رقيق. وأخذت الأصوات تبدو أكثر وضوحا ، فكان المرء يستطيع سماع أصوات الكلاب وهي تتجاوب نابحة عبر الحقول والمنازل البعيدة ، وهمسات الرجال العائدين من أعمالهم وقد أثاروا الغبار بخطواتهم المتعبة المتثاقلة ، وقرقعة العربات الفارغة التي كانت تسـير في جلبة يصحبها الفلاحون الذين أضناهم التعب والكلاب تتعقب مسارهم بأنوفها في الارض ، وقد ارتفعت ذيولها في الهواء ، وأخذت تشمشم في كل سور وكل حفرة.. حتى اذا ما أدركوا المزار المقام عند مشارف القرية ، كف السائرون عن الكلام ، وخلعوا قبعاتهم ورسموا علامة الصليب على صدورهم ، ثم يلقون بتحية المساء لأسرة هرديليا التي كانت تغني أغاني يحب الفلاحون جميعا سماعها . وكان الاطفال يتوقفون لحظات فوق القنطرة التي تعبر بريول دومني ، حيث يحدقون في الماء المتموج بعض الوقت وقد فغروا أفواههم ، ثم يجرون بكل سرعتهم ليلحقوا بآبائهم ..

كانوا ينشدون الموشح الثالث عندما همست جيجي في غموض :

ــ انظروا ــ ها هو ذا توما وجورج بولبوك !

وأنهت لورا وهرديليا غناءهما وقد تملكهما الفضول لرؤية ضحية معركة الليلة الماضية . أما السيدة هرديليا فلم تشأ أن تخرج عن وقارها لسبب تافه كهذا ، وراحت تنشد الموشح التـالي كله بمفردها . ومع

ذلك ، فعندما توقف توما وولده أمام البوابة وراحا يتحدثان ، غلبها الفضول فخفضت صوتها مهمهمة ببقية الأغنية حتى تسمع ما يقوله أحد أطراف المعركة ٠

كان توما يستطيع أن يتخذ طريقا أقصر من الحقل الى بيته ، ولكنه تعمد أن يسلك الطريق الأطول حتى يستطيع أن يحكى للمدرس القصة كلها ٠ ولم يلبث أن انفعل وراح يثنى على ولده ويسب ايون ، وأنهى حكايته بأن جعل جورج يرفع قميصه ليرى وجهاء القوم الكدمة التى أصيب بها فى ظهره ٠

وفجأة صاحت زنوبيا التى كانت تقف وسط فنائها على الجانب الآخر من الطريق :

ـ استمر فى شتائمك ٠٠ استمر فى شتائمك ٠٠ وأثر غضب الله الذى يسمع ويرى كل شىء ! ٠

وصمت القروى خائفا من انفجار زوجة جلانيتاشو ، دون أن يحير جوابا ٠ وانطلق مستأذنا من آل هرديليا فى عجلة وقد خانته شجاعته٠ وتبعه جورج ، تلاحقهما شتائم زنوبيا ولعناتها حتى غابا عن أنظارها ٠ ثم خرجت الى الطريق وسارت الى القنطرة قائلة :

ـ انه لن يكف عن هذا أبدا ، هذا السكير البائس ! كم أود أن يغرق حتى أرتاح منه ٠ انظروا الى الطريقة التى يطارد بها ولدى ، كأن ايون قد سرق منه كل ثروته على الأقل ٠

وضحك أفراد أسرة المدرس من كل قلوبهم وهم يرون انسحاب توما المشين ، وابتسموا للمرأة قائلين :

ـ ولم لا يا زنوبيا ؟ هل تعتقدين أن الأغنياء يبدون أدنى اهتمام بمتاعب الآخرين ؟ ٠

ـ فليكوهم الله بناره ٠٠ لقد قدمت قلوبهم من حجر ٠ لقد كنت فى الحجرة الخارجية عندما سمعته يتبجح ثائرا ، فلم أستطع أن أحتمل هذا ٠٠ أقسم أننى لم أستطع ٠٠

وراحت تعبر عن مشاعرها فترة ، ثم جرت الى منزلها فجأة ، فقد تذكرت أنها تركت الاناء يئز على النار ولا بد أنه قد غلى أكثر مما يجب ٠

وقال المدرس بعد برهة :

ـ انها لضربة قاصمة ، تلك التى كالها له ايون ٠

فصاحت جيجى وقد بدا عليهـا الاستعداد لاعادة القصـة كلهـا ثانية :

ـ لا عجب فقد ضربه بعمود ٠

واذ ذاك سارعت السيدة هرديليا بترنيم المقاطع الأولى من « هورا جريفتسى » لتسكت الفتاة ٠ ولكنها لم تستطع أن تكمل انشادها حتى النهاية ، اذ لم يلبث الأب بلكيوج وفاسيلى باكيو أن حضرا بعد لحظات ٠ كان القس قد خرج الى الحقول ليشرف على تشذيب أشـجار بستان من أملاك الكنيسة ٠ وكان يشعر بالحر كما كان ظمـآنا الى أقصى حد ، وفى لمح البصر كانت جيجى قد أحضرت له كوبا من الماء ٠

ودار الحديث بالطبع حول مشاجرة الليـلة الماضية التى كانت موضع اثارة للقرية كلها ٠ وكان القس يغلى غضبا ٠

ـ لقد كنت أسمع منذ مدة عن سلوك ابن جلانيتاسو الشـائن ، ولكنى لم أكن أصدق ٠ ولكن فعلته هذه الأخيرة هذه فاقت كل حد ٠ يجب أن نضع حدا لكل هذه العربدة ، والا فسيأتى اليوم الذى نراهم فيه وقد أخذوا يقتلون الناس ! ٠

كان لثورته أثر فى الجميع ، فلم يفه أحد بكلمة ، غير أن جيجى لم تلبث أن قالت بطفولة :

ـ ولكن أحدا لا يعرف تماما من الذى يستحق اللوم ٠

فتساءل بلكيوج فى دهشة :

ـ ماذا تعنين يا آنسة بأن أحدا لا يعرف ؟ هل تعتقدين أن الخطأ ربما كان خطأ جورج ؟

فأجابت الفتاة فى حزم :

ـ نعم أعتقد ذلك ٠

وابتسم الكاهن فى حنق ، فتعرت أسنانه حتى اللثة ٠٠ وأردف فى لهجة تشوبها سخرية خفيفة :

ـ اسمحى لى بأن أقول اننى لا أشاطرك هذا الرأى ٠

وتدخلت السيدة هرديليا ، التى سـاءها أن ترى فاسيلى باكيو بصحبة الأب بلكيوج ، وخاصة بعـد سلوكه المشبـين فى يوم الحفل الراقص ، قائلة وهى تنظر فوق رأس القس مباشرة :

ـ على أية حال فان ايون شاب لطيف • فهو مجتهد ومنتج وحاد الذكاء ، وهو على استعداد دائما لمعاونة الغير • والانسان قد يخطىء من حين لآخر ـ فهذه طبيعة البشر • ولذا ينبغى ألا تتسرع فى الحكم على الناس وادانتهم •

فارتبك القس ، وابتسم ثانية وقد ازداد حنقا ، وقد أعياه البحث عن جواب سريع مناسب •

ومسح فاسيلى باكيو فمه بكم قميصه قائلا :

ـ اذا جاز لى أن أقول كلمة ••• كلمة رجـل بسـيط ، فانى أقول أن •••

فقاطعته زوجة المدرس فى خشونة :

ـ لا يا فاسيلى ، ليس لك أن تقول شيئا •• وعليك أن تحتفظ بآرائك لنفسك ! •• لقد تصادف أن كنت فى المرقص أمس ، مع الاب بلكيوج نفسه ، عندما وصلت ثملا كالخنزير ، وأخذت تتحرش بايون دون أى سبب أو مبرر ! وانى لأعجب كيف يسمح لك الأب بلكيوج بأن تقترب منه ، ولا يتجنبك كما يتجنب الناس الوباء ! •

وابتلع باكيو ريقه ،وراح ينقل بصره حـائرا بين الأب بلكبوج وبين المدرس والفتيات ، ثم غمغم فى ارتباك وهو يحك رأسه :

ـ نعم ••• انك فى هذا محقة •••

كان القس فى هذه الأثناء قد استعاد ثقته بنفسه ، فقال بابتسامة ضايقت السيدة هرديليا :

ـ طبيعى أن فاسيلى ليس قديسا هو الآخر ••• فهو أبعد ما يكون عن ذلك • والرجل حينما يكون ثملا لا يكون رجلا على الاطلاق ، وعلى المرء أن يغفر له ذنوبه •••

فتدخلت جيجى قائلة :

ـ أو لم يكن ايون ثملا هو الآخر ليلة أمس ؟

وعندئذ عنفها هرديليا قائلا :

ـ كفى عن التدخل فى مناقشات الناس

فعلى الرغم من أنه لم يكن يحمل مشاعر ودية للأب بلكيوج ، الا أنه

كان يتحاشى أى نزاع علنى مع القس ، حتى لا يعطى بذلك مثالا سيئا للقرويين ٠

واستطرد بلكيوج ، دون أن يلقى بالا لكلمات الفتاة :

ـ وأكثر من هذا أنه كانت لديه أسباب قوية تدفعه الى أن يلقن ذلك المشاغب درسا ٠

ونطق القروى وقد استعاد شجاعته قائلا :

ـ لقد ظل يحاول استمالة أنا ، على أمل أن أعطيها له ٠

فصاحت زوجة المدرس فى غضب :

ـ ولماذا لا تعطها له ؟ لماذا ؟ ٠٠ هل تعتقد أن فى ذلك أى خطأ ؟ ٠

وغمغم فاسيلى فى صوت مختنق ، وقد التمعت عيناه فى تصميم عنيد :

ـ لا ٠٠ لن أعطيها له ٠٠ حتى ولو ٠٠٠

ـ هكذا أنتم أيها الحمقى الأغبياء الذين نشأتم نشأة فاسدة ! ٠٠ أتعتقد أنك أصبحت الها لمجرد أنك تمتلك بضع قطع من الارض ؟ وبدلا من أن تحتضن شابا تعرف أنه لن يضيع ماتعطيه اياه لا تفكر الا فى ثروتك ٠ أتعتقد أنك ستأخذها معك الى قبرك ٠٠ أغرب عن وجهى ، فانى لا أطيق رؤية أمثالك ٠

كانت السيدة هرديليا تفقد أعصابها دائما بسرعة ، وقد أحست أنهم لو استمروا فى المناقشة فسوف ينتهى بهم الأمر الى المشاجرة ، ولذلك نهضت ودلفت الى الداخل ٠

وقال الأب بلكيوج وقد خيبت أمله اضافات السيدة هرديليا التى اعتبرها موجهة اليه هو أيضا :

ـ ان النساء يملن الى التسرع فى الحكم على الأشياء ٠ ولكن الحياة أكثر تعقيدا بكثير من ذلك ٠ ان كل انسان يعرف متاعبه ويحاول أن يعالجها جهد طاقته ٠

كان ايون اذ ذاك قادما على الطريق فى بطء ، وقد تدلت حزمة من البرسيم الطازج من منجله ٠ وعندما وقع بصر القس عليه اصفر لونه ،

وجاهد كي يتمالك زمام نفسه ، ولكنه ، عندما غمغم الشاب في احترام محييا بتحية المساء ، انفلت لسانه من فرط غضبه :

ـ ينبغي أن تخجل من نفسك يا ايون ، ومما فعلت ! ان هذا لعار عليك ! ٠

توقف ايون مشدوها ، حتى استطاع بعد بضع لحظات أن يجيب بصعوبة :

ـ ولكن لماذا يا أبي ؟

ـ لأنك فاسد ٠٠ مشاغب لا تصلح لشيء ! هكذا أنت ! لقد كان من الممكن أن تكون مثالا يحتذى لكل الشبان الآخرين ، فأنت تعتقد أنك أذكى منهم جميعا ، ولكنك مع ذلك تسمح لنفسك بأن تسلك سلوكا شائنا معيبا الى أقصى حد ٠ ياللعار ؟

واندفع الدم الى وجه ايون ، وأحس أن كل مابعظامه من تعب قد زايله ٠ واختنقت في حلقه لعنة أوشكت شفتيه على النطق بها ، وسار وهو يغمغم في غير اكتراث :

ـ حسن جدا ٠٠٠ عم مساء ! ٠

وفح صوت بلكيوج غاضبا :

ـ أيها الجلف الوقح ! سوف ألقنك درسا لن تنساه بسهولة ! ٠٠٠

وتدخل المدرس محاولا أن يوفق بينهما بقوله :

ـ انك تقسو عليه بعض الشيء يا أبي ٠

ولكن اشفاق المدرس زاد من غضبه فقال لهرديليا :

ـ وأنت تتسامح معه وتعامله في رفق ! ان هذا هو السبب فيما أصبح عليه من صفاقة وعدم احترام لى ! ٠

واندفع بلكيوج خارجا وهو يغلي غضبا دون أن يلقى اليهم بتحية المساء ٠ فقد اعتبر دفاع آل هرديليا عن ايون اهانة شخصية له ٠ ولم يكن هذا عفوا ، فقد كان القس يحس منذ أن حل المدرس بالقرية أن هرديليا انما يحاول جاهدا أن يقوض سلطانه ويحد من نفوذه ٠ وقد تحمل منه عدة اهانات دنيئة حتى لايقول الناس ان اثنين من الرومانيين

المثقفين لم يستطيعا أن يعيشـــا فى قرية واحدة دون أن يختصما أو يتشـــاجرا · وها قد أصبح كل شىء واضحا له ··· لقد أفصحوا عن نياتهم الحقيقية · لقد كانوا يقفون دائما الى جانب من يدينهم · حسن ، اذا كانت الأمور ستسير على هذا النحو ··· هكذا راح بلكيوج يفكر وهو يسرع الخطى ، حتى أن فاســيلى باكيو لم يكد يســتطيع اللحاق به ·· وقال القس لنفسه : « على أية حال فاننى لن أغير آرائى من أجل أحد ! »

كان الغضب يفعم صدره ، حتى أنه لم يسمع باكيو عنـدما حياه تحية المساء مودعا · وعندما بلغ بيته لم يكن يفكر فى ايون على الاطلاق ، بل كان كل سخطه وغضبه ينصب على هرديليا ·

- ٦ -

عندما غادر الأب بلكيوج المكان غمغم المدرس من بين أسنانه متسائلا.

- هل رأيتم كيف انتفش شعره كشعر الخنزير ؟

ولكنه لم يلبث ، بعد أن قلب الأمر على كل وجوهه ، أن أسف على تشاجره مع القس ؛ فقد كان القس رجلا شكسا قادرا على الثأر لنفسه فى الوقت الذى يناسبه من حيث لا يتوقع خصمه · ثم انه كان حتى ذلك الوقت يحصل على عدة مزايا من خلال علاقته ببلكيوج · فقد كانت أسرته تستخدم عربة القس فى الذهاب الى الحفلات الراقصة فى أرماديا ، التى كان عليه أن يحضرها اكراما لخاطر ابنتيه · ثم انه كان يقترض منه بعض النقود أحيانا حتى يتسلم راتبه ، الى جانب أشياء أخرى عديدة ·· فكل انسان لا يستغنى عن الآخرين · وقطع العلاقات جهارا قد يفرق بينهما تماما ، ويقف بينهما كالجدار ·· لذلك قرر أن يحاول اعادة الأمور الى نصابها من جديد · وكان عليه أولا أن يهدىء من غضب زوجته على القس ، ثم عليه بعد ذلك أن يتناسى ماحدث بينهما وأن يســتمر فى محادثة القس كلما التقيا ، وهكذا يستطيع عى الأقل أن يبقى على مظهر الصداقة بينهما ، ولن يستطيع القس حينئذ أن يجهر بأى عمل ضده ، وينتهى كل شىء على ما يرام ··

كانت السيدة هرديليا وبناتها يجهزن العشاء ويعددن المائدة وهن يتحدثن عن الأب بلكيوج ويمزقنه شر ممزق · وأخذن يستمطرن عليــه

اللعنات ، ويسخرن من لحيته الشائكة التى كانت تبدو ــ على حد قولهن ــ كأنها مثبتة بالمسامير ، ومن ردائه الكهنوتى الرث الملوث بالشحم والذى لم يغيره ــ كما يعترف بذلك هو نفسه ــ طوال السنوات السبع الأخيرة ٠ وأخيرا رحن يتنافسن فى البحث عن أنسب لقب سخيف يطلقنه عليه ٠

أخذ المدرس يصغى اليهن فترة ويهز رأسه استنكارا ، ثم صاح بهن فجأة فى تصميم :

ــ عندما تتدخل النســـاء فى أحاديث الرجال فلن يســـتطيع حتى الشيطان نفسه أن يعيد الأمور الى نصابها !

فهجمت ثلاثتهن عليه فى سخط ، ونشبت مناقشة حامية الوطيس لم يكد هرديليا خلالها يستطيع أن يفتح فمه ، حتى اذا ما بلغت المناقشة ذروتها ، دخل تيتو عائدا من جيدوفيتسا ٠

وتساءل تيتو وهو يطوح بقبعته على السرير ويلقى بنفسه متعبا على أحد الكراسى بجوار المائدة المعدة للعشاء :

ــ ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟ اننى أتصبب عرقا كأى حصان ٠٠ فالحرارة خانقة ٠

ونظرا للمكانة التى يتمتع بها تيتو بين أفراد عائلته ، فقد سألوه ــ كدأبهم دائما ــ أن يدلى اليهم برأيه فيما حدث مع بلكيوج ٠ وراح تيتو ينصت فى اهتمام كبير الى حجج الطرفين ، وفى النهاية تبين له أن الجميع كانوا على حق ٠

ــ لقد أحسنتم صنعا بجدع أنفه واذلاله مرة أو مرتين ، فقــد أخذ يزداد اعتزازا بنفسه فى المدة الأخيرة ٠ ومن ناحية أخرى لم يكن يجمل بكم أن تتشاجروا معه ، فليس ذلك لطيفا ، كما أنه ليس مفيدا ٠ فــلا تنسوا أنكم سوف تحتاجون الى عربة القس من أجل الحفل الراقص الذى سيقام فى اكتوبر ! فاذا كنا مازلنا على شقاق معه عندئذ ، كيف نذهب الى الحفل ؟ الا اذا كنتم تنتوون الذهاب الى هناك سيرا على الاقدام ! ٠٠ وسوف يكون منظركم بديعا للغاية وأنتم تتهادون سائرين فى الطريق العام بملابس الرقص والأحذية الفضية ! ٠٠

وضحك تيتو ضحكة قصيرة متعالية ٠ ولكن جيجى ردت عليه قائلة:

ــ وفيم يهمنا ذلك ؟ ســـوف نأخذ عربة كاتب القرية ، وينتهى الأمر ٠

فأجابها تيتو فى حزم :

ـ وهل أنت واثقة أن الكاتب سيدعنا نأخذها ؟ وحتى اذا أعطانا اياها ، فلا تنس أن عربة الكاتب قديمة مهشمة بدون زمبركات • سوف نجعل من أنفسنا أضحوكة اذا ذهبنا الى الحفل الراقص فى أرماديا فى عربة متداعية كعربة الكاتب هذه !

وتقبل الجميع حكم تيتو ، وهكذا أقفل موضوع بلكيوج ••

وبعد العشاء خرج الجميع ثانية الى السقيفة • كان القمر قد أخذ لتوه يبزغ من خلف التلال فى كبرياء وتثاقل ، ناشرا أشعته الفضية فوق القرية ، بينما أخذت النجوم تتألق فى خجل على صفحة السماء الزرقاء الداكنة • وارتفعت أغنيات الأسرة من جديد ، خافتة وقورة فى البداية ، ثم أخذت تعلو وتعلو • وخرج ايون جلانيتاشو عارى الرأس ، واستند الى البوابة مصغيا الى أغانى أفاضل القوم •

وتذكرت لورا ، أثناء فترة من فترات الراحة ما قام به الفتى من عمل باهر فغمغمت سائلة :

ـ خبرنى يا ايون ، بصراحة ، هل تحب أنا ؟

فابتسم ايون متحيرا ، ثم قال فى تردد :

ـ ولم لا ياآنسة •• طبعا أحبها •• ولم لا أحبها ؟

وكانت لورا على وشك أن تضيف أن أنا أقل جمالا من فلوريكا ، ولكنها قلبت الأمر فى ذهنها فأمسكت عن الكلام •

وأضاف هرديليا : انه على حق ، فان أنا فتاة رائعة حقا •• واردفت زوجة المدرس :

ـ من المؤسف أن يكون أبوها مثل هذا الشقى التعس • فأجاب الفتى :

ـ نعم ، هذا صحيح يا سيدتى •• ولكنى لا أعبأ به • اننى لن أتزوجه هو !

ومرت بالطريق عربة فخمة مسرعة ، فهمست جيجى فى صوت حالم :

ـ ترى من يكون هذا ؟

كان السكون قد ساد الجميع · وراحت الضفادع تنق في غدير جيرلا بوبيى عبر الطريق · وكان الكلب يرقد متمددا فى وسط الحارة · وارتفع من القرية صوت لحن مرح يعزف على الفلوت ، طروبا يكاد ضـــوء القمر الفضى يرقص منتشيا على ايقاعه ·· وجذب ايون نفسا عميقا وهو يحتضن الحقول الغافية بنظرة كلها شغف ، وغمغم كأنما يحدث نفسه :

ـ ماذا أستطيع أن افعل ؟ يجب أن أتزوج أنا ! يجب أن أتزوجها !

الفصل الثالث

الحب

- ١ -

كان بلسكيوج قد ترمل منذ السنة الأولى لاشتغاله قسا . وكان يعبد زوجته ، ولذلك فقد تحطم قلبه بفقدها . كان يبدو مريضا ذابلا حتى لتعجب عندما تراه كيف يستطيع أن يظل حيا . وعندما حملوه الى مستشفى كلوج حيث رقد عدة شهور واستأصل الأطباء له احدى كليتيه ، كان الجميع على ثقة من أن نهايته قد حانت . لكنه رغم ضعفه وشحوبه ، ورغم أنه لم يكن يأكل سوى البيض واللبن ، ظل يعيش وكأنه قد قرر أن يعمر حتى يدفن كل القرويين الآخرين . وكان ترمله وعناده سببا في اشتهاره بالقداسة . فقد كان الناس يرتحلون عبر خمس مقاطعات أحيانا ليعترفوا أمامه ويتناولون القربان المقدس من يده . وكان مما يزيد في احترام القرويين له أنه لم يسمع عنه قط أنه سعى وراء امرأة منذ موت زوجته ، رغم أن كهانا آخرين ، أكبر منه سنا في بعض الأحيان ، كانوا يتخذون لهم في بيوتهم عشيقات صغيرات ليدخلوا شيئا من البهجة على حياة الترمل التى يحيونها . أما الأب بلكيوج فقد استخدم « بابا رودوفيكا » لتطهو له طعامه وترتب حجراته ، وكانت امرأة عجوزا اشتهرت بالصلاح والتقوى حتى

أن زوجات المزارعين كن يدعونها دائما لتعجن لهن عجينة خبز القرابين ٠ وبالاضافة الى بابا رودوفيكا اتخذ الأب بلكيوج خادمين من الرجال ليقوما بشئون الماشية والمزرعة ٠

ولكن القس كان ذا مزاج حاد ٠ وكانت أقل معارضة له تضايقه ، بل وتعذبه ٠ وكانت مجرد كلمة أو نظرة عدائيـــة تسمم عقله أياما ، وربما أسابيع كاملة ٠ وكنت اذا أردت أن تطلب منه أن يســـدى اليك معروفا فعليك أن تسأله أن يسيء اليك ٠

وقد جعله تفكيره فى آل هرديليا وفى ايون فى هذه الأيام الأخيرة قلقا لا يكاد يقر له قرار ٠ وقد ظل يتعارك فى فكره مع زوجه المدرس تارة ، ومع ابن جلانيتاشو تارة أخرى ٠ ولو لم يكن آل هرديليا قد وقفوا جهارا الى جانب ايون لكان قـد نسى الامـر كله بالتأكيد ٠ فقد كانت المشاحنات بين الشبان جزءا لا يتجزأ من برامج احتفالات أيام الآحاد أو العطلات عامة ٠ ولكن ما حدث فى هذه الظروف اتخذ طابع التحدى ٠٠ وأحس أن من واجبه أن يثأر لنفسه ٠ وقد ساءه أن المدرس لم يظهر ضيقا بعد ما حدث من صدام بينهما فى ذلك اليوم ، فقد دفعه سلوكه هذا الى اخفاء غضبه هو الآخر ٠ لكنه رغم هذا كان قد قرر أن ينزل عقابه بايون، وشعر بشيء من الراحة لمجرد تفكيره فى أن جزءا من ذلك العقاب سوف يمس المدرس أيضا ، ولو بطريق غير مباشر ٠٠٠

وغندما اجتمع الشبان أمام مشرب الجعة مساء يوم الأربعاء ليتبادلوا الحديث كعادتهم ، أنهى ايون وجورج ما كان بينهما ،٠وصافح كل منهما الآخر ٠ فلم يكن هناك ما يدعو لأن يتخاصم شخصان لطيفان مثلهما من أجل أمر تافه كالمعركة التى حدثت بينهما ٠ وفى اليوم التالى ذهب توما ، بناء على طلب جورج ، الى الأب بلكيوج مرة أخرى ليرجوه الصفح عن ابن جلانيتاشو ٠

وكان هذا فوق ما يحتمل ٠ وفاض غضب القس ٠ لم يكن حتى ذلك الحين قد حزم أمره على نحو قاطع ، اذ أنه لم يسبق له أن شهر بأحد فى الكنيسة مخصصا ، فقد كان دأبه دائما أن يتكلم أو يعظ ، يهدد أو يستهجن سلوك الناس من فوق منبر الوعظ بضمير الغائب وبشكل عام ٠ ولكن وساطة توما لتهدئة الأمور هى التى جعلته يحزم أمره ٠

وهكذا عندما حل يوم الأحد التالى ، وقف الأب بلكيوج مســتندا بمرفقه الى الشمعدان الكبير كعادته كلما ألقى بموعظتــه ، وبعد أن حث

رعايا أبرشيته على المساهمة فى التبرع لبناء الكنيسة الجديدة التى سيجرى انشاؤها فى القريب ، عرج فى حديثه على أولئك الذين أغواهم الشيطان وحفزهم الى اثارة الشغب والنزاع بين القرويين . وبعد فترة صمت قدم ابن جلانيتاشو كمثال للآثم المفسد العاصى . واستدارت العيون كلها ، كأنها تلقت آمرا ، نحو ايون الذى غاض لونه وطأطأ رأسه الى الأرض ، وراح يرتجف خجلا وهو يحس بنظرات القوم تخترقه ، دون أن يجسر على التحرك من مكانه . وراح القس وقد ازدادت حدته يطلق عليه لقب شرير القرية الأكبر ، مشيرا الى الشجار الذى وقع فى حانة أفروم وما سبقه من مشاجرات ، ثم رفع بصره الى سقف الكنيسة الخشبى، متوعدا اياه بغضب الله فى الدنيا والآخرة .

كان وقع قصاص القس على ايون كسياط من نار . فلم يكن يبتلى هكذا ويبكت على رءوس الاشهاد الا اللصوص والمجرمين . وأى جريمة تلك التى ارتكبها ايون ؟ انه لم يسمح للآخرين أن يدوسوه بالنعال ؟ .. انه كافح ليظل رأسه مرفوعا ، ويظل ندا لغيره من الرجال ؟ كانت وجنتاه ، بل كانت روحه ذاتها تحترق خجلا وغضبا .. وأخذ يتحين فرصة لينصرف بهدوء ، حتى اذا ما انهى القس موعظته ، ذهب مباشرة الى بيته حيث أثار مشاجرة مع والده ، ثم اتخذ طريقه الى جيدوفيتسا وقد خرج عن طوره غضبا ، ليزج بنفسه فى حانة « زيمالا » ، حيث ظل يشرب طوال اليوم . لقد قال عنه القس فى الكنيسة أمام الجميع انه آثم وفاسد — حسن ، فليكن كذلك اذن ... وظل يشكو الى كل القرويين الذين كانوا حوله ما حاق به من عار . كانوا جميعا من الفلاحين الذين يعيشون فى القرى المجاورة ويتجمعون فى أيام الآحاد فى جيدوفيتسا ، وهى القرية اليهودية الوحيدة فى المنطقة . فقد كانت تقع عند ملتقى طريقين رئيسيين ، وكان بها مصنع للمشروبات الروحية وحجرة للشراب فى كل بيت . وعندما حان المساء ، كان البراندى قد خدر كل حواسه تماما ، فراح يتباهى بأنه سيتخذ أنا زوجة له مهما حدث ، لا لشىء الا ليرى القس انه اذا كانت المسألة أن يثبت كيانه فسوف يثبت له أنه لا يكترث مطلقا بأى انسان فى العالم . وفى النهاية راح يتشاجر مع شاب من بارفا لم يكن سكرانا ، ومن ثم فقد استطاع أن يضرب ايون ضربا مبرحا .

وفى صباح اليوم التالى ، عندما أفاق من سكره ومن الصدمة التى سببها التشهير العلنى به ، شعر بالأسف لانفاقه ما كان معه من نقود فى جيدوفيتسا ، ولما جأر به من شكوى للغرباء مما جرى له . وراح يفكر فى

أن القس كان على حق ، فقد كان ملوما بالفعل فيمـــا حدث • ماذا كان يريد بالفعل فى الواقع ؟ ••• أن يتزوج فتاة لا يحبها ــ فلا جدوى من التظاهر بعكس ذلك ــ لمجرد أنها غنية ••• واتجه فكره الى فلوريكا • كم هى حلوة ، وجميله ••• وتذكر كيف كان يحبها حتى ذلك اليوم الذى لمعت فيه فى ذهنه فكرة الزواج من أنا ! لا شك أن تودوسيا ، أرملة مكسيم أوبريا ، يسعدها أيما سعادة أن تزوجه فلوريكا ، وسوف ينعمان بالسعادة معا ، وسوف ينجبان أطفالا ، وسوف يكدحان معا وربما يجنيان اكثر مما سيحصل عليه لو تزوج بالفتاة الأخرى •••

وراح يعمل بقلب متفتح ، كأنمــا قر قراره على الزواج من ابنـــة تودوسيا • وعلى الرغم من انه كان منهوك القوى تماما فى المساء ، فقــد شعر بأنه لم يكن أقوى مما هو الآن ولا اكثر ثقة فى قدرته على مجابهة مصاعب الحياة • ومع ذلك فقد ظل يجهد فكره ، مقلبا كافة خططه فى عقله • وظل يردد مرارا وتكرارا أنه مهما اجتهد فى عمله فلن يستطيع حقا أن يجمع ثروة مناسبة • وربما ظل عاملا يكدح طوال عمره فى عبودية من أجل أن يثرى الآخرون ! ان مهارته وذكاءه لا يساويان شروى نقير ما لم يمتلك أرضا ••• بل أرضا كثيرة بقدر ما يستطيع ••• ثم يأتى الأطفال بعد ذلك ؛ فماذا يستطيع أن يطعمهم ، بل وماذا يستطيع أن يترك لهم بعد مماته ؟ انه سوف يترك لهم أقل مما يمتلك ، فهــو على الأقل يمتلك الآن ثلاث قطع صغيرة من الأرض • وسوف يلعنه صغاره مثلما يلعن هو أباه فى لحظات يأسه ، لتبديده ما كان يمتلك من أراض ، ومثلما يلعن أمه لأنها لم تمنعه من ذلك •

كان ايون يسير فى الطريق ناظرا الى الأرض ، لا يجترىء على النظر فى وجوه الناس ، فقد خيل اليه أنه لن ير منهم الا نظرات اشفاق تكدره أو نظرات تأنيب تجعل دمه يغلى غضبا • وقد سمعت زنوبيا ، فى تجوالها هنا وهناك كما تفعل النسوة ، بما يقال ، ونقلت اليه أن الناس يقولون انه من الأفضل أن يترك أنا وشأنها لأنها أكرم منه محتدا بكثير • وكانت هذه الكلمات فى البداية تصيبه فى الصميم وتجعله اكثر عنادا ، ولكنها فيما بعد كانت تثبط آماله وتضعف من عزيمته • وكان فى بعض الأحيان يظن أن جورج هو الذى يروج هذه الاشـــاعات ، حتى انه أخذ يطـوف بالقرية كلها ذات مساء باحثا عنه ليقتله • ولو أنه التقى به فى ذلك الوقت ربما كان قد قتله • ولـــكنه كان يتحـاشى لقاء جورج فى أكثر الأحيان • كان يشعر ازاءه بنوع من التحفظ والتهيب ، وقد خيل اليه

أنه يلمح التماعة سرور خفي في عيني جورج لأن ايون قد حقر بسببه ٠ وكانت كلمات جورج الرقيقة المهذبة تزيده غضبا ٠

وكف ايون عن الذهاب الى بيت أنا في الامسيات كما كان يفعل قبل المشاجرة ٠ ولكنه عندما اكتشف أن جورج بدأ يحوم حولها اضطرم غيظا في غضب مجنون ، وظل يصفق الأبواب ويحدث جلبة شديدة ويسب طوال يومه ؛ وتشاجر في وحشية مع جلانيتاشو وكاد يعطيه علقة ساخنة لأنه أنجبه في برج نحس ٠٠ ثم ذهب بعد ذلك الى حانة أفروم ، حيث ظل جالسا على السقيفة في صمت واكتئاب ، وشرب لترا من الخمر ٠ كان تفكيره في أن أرض فاسيلي باكيو قد تضم الى ممتلكات جورج ، بينما يبقى هو شحاذا ، أسوأ حالا من خادم في مزرعة ، كان مجرد تفكيره في هذا يقلب كيانه ٠

والتقى بأنا مرة أو مرتين ، لكنه لم يتحدث اليها ٠ كان يكتفي بتحيتها كما يحيي أي انسان آخر ٠ كانت ترتسم على شفتيها ابتسامة حزينة آسفة ٠٠ ربما لم تعد هي الأخرى راغبة في الزواج منه ! أو لعل حبها له كان مجرد وهم من أوهامه ؟ كان هذا الاحتمال راجحا ، اذ أن فاسيلي باكيو كان في الفترة الأخيرة يعامله في ود ، الأمر الذي قد يعني أنه لم يعد يخشاه ٠

وفي احدى أمسيات أيام الاحاد كان يقف بالقرب من الحانة مع بعض الشبان حتى حل منتصف الليل ٠ كانت روحه المعنوية عالية ـ بلا أي سبب ٠ كانوا يغنون ، وكان هو يصفر باحدى أوراق الشجر بينما كان الآخرون يتصايحون ويرقصون من حوله ٠ لم يكن ايون يميز من كل ما حوله من أصوات الا صوت جورج الخشن المبحوح كأنه صوت بطة عجوز ٠ وكان يستطيع أن يميز هيكله بوضوح ، وقد راح جسمه الضخم يتأرجح في تثاقل وسط الآخرين منتصبا وسط الظلام الحالك ٠ كان يبدو مثيرا للسخرية حتى أن ايون انفجر ضاحكا ٠٠٠ وعندما انفض الجمع سار جورج متمهلا عبر منزل باكيو ، وألقى بنظره حوله ، ثم أطلق صفارة قصيرة بدت كعلامة استفهام ، وعندما لم يتلق جوابا واصل المسير بخطواته البليدة المضطربة ٠ كان ايون في اعقابه ، فاضطرم قلبه سرورا وتنهد في ارتياح وقرر أن يذهب الى أنا ليشكرها ويرجوها أن تصفح عنه ٠ لكنه مر ببيتها دون أن يتوقف٠ودار حول المنعطف ، وسار مسرعا في الحارة الخلفية ثم دلف متلصصا الى فناء بيت أرملة مكسيم ٠ ونبح كلبا الحراسة الضخمان ، اللذان كانا يبدوان كالعجول ، نباحا

قصيرا ، وعندما تعرفا على ايون أخذا يتمسحان في قدميه · وسار ايون على أطراف أصابعه حتى بلغ النافذة ، وقد أحنى رأسه حتى لا يراه أحد من الداخل ، ثم نقر فى خفة ، كما لو كان شبحا ، ثلاث نقرات قصيرة · وجلس على السقيفة ينتظر · وانطلق أحد الكلبين نحوه ، وأخذ يلحس يديه الصلبتين ، ثم وضع رأسه على ركبتيه · كانت أفكار ايون متشابكة حتى أنه لم يحاول أن يفسرها · لم يكن يدرك الا احساسه بالفرح الطاغى الذى يخفق به قلبه فى زهو الانتصار والتفوق ··· ثم فتح باب المنزل دون صوت ، وبرزت فلوريكا فى ثياب النوم ، وانحدرت نحوه فى خفة كأنها حلم جميل · وهمست فى نعومة دون أن يبدو فى صوتها ما يدل على أنها فوجئت :

ـ أهذا أنت يا ايون ؟

فهمهم ايون : نعم أنا ·

قبعت الفتاة على السقيفة · وجعلها برد الليل القارس ترتجف ، فاستكانت مقتربة من الشاب وهى تغمغم فى رقة :

ـ كنت أشعر أنك قادم · لقد كنت انتظرك ···

وبدا لايون أن ما تقوله ليس الا ادعاء ماكرا · فكيف يمكن أن تعرف أنه قادم وهو نفسه لم يكن يتنبأ بذلك ؟ ومع ذلك فقد ألفى نفسه بعد لحظة يحيط خصرها بساعده ، مقبلا وجنتيها · ودارت رأسه عندما أحس بدفء جسدها · وراح دمه يفور وقد اسكرته النشوة ؛ فاحتضنها بقوة بين ذراعيه وهمس فجأة فى صوت مبحوح ، بدا مختنقا كأن يدا خفية تقبض على حنجرته :

ـ اسمعى قولى هذا يا فلوريكا ، وتذكريه · سوف تصبحين زوجتى ، وليكن ما يكون !

وارتجفت الفتاة سرورا · والتمعت عيناها البراقتان فى ظلام الليل ونفذت نظراتها الى قلبه ·

واحتضنها ايون باحكام بين ذراعيه ، وشعر بنهديها ينسحقان فوق صدره ، وراحت شفتاه تبحثان عن شفتيها ثم كتم أنفاسها بقبلاته ···

- ٢ -

أثار توبيخ ايون فى الكنيسة عاصفة من الغضب على الأب بلكيوج فى بيت آل هرديليا . فحتى المدرس نفسه ، الذى كان وفاقيا ، لم يستطع أن يكف عن أن يردد فى محيط الأسرة قوله :

ـ ويسمون هـذا قسا ؟ ... انه خنزير لا قسيس ! بل وخنزير قذر أيضا !

وصاحت الزوجة من عند النافذة وهى ترى الأب بلكيوج :

ـ ها هو ذا ذو الشعر المنفوش .

كان الأب بلكيوج يسير بعناء فى الطريق ، وقد علقت بعض أعواد القش بلحيته المتشابكة ، وغمره التراب ، وبدا مكتئبا قذرا غارقا فى العرق ، مشعثا كأنه حوذى غير مهندم .

ووجدت الفتيات أن هذا اللقب يناسبه تماما ، حتى أنه منذ ذلك اليوم لم يعد يذكر الا به ، مقترنا بنوبة من الضحك طبعا .

ولقد حاول هرديليا جهد طاقته أن يحول بين القس وبين سماع تحقيرهم له . فقد كان يهدف دائما الى أن يظل على علاقة طيبة بالناس جميعا ، ويحرص على ألا يؤذى مشاعر أى انسان ، حتى يستطيع أن يشق طريقه فى سلام بقدر الامكان فى هـذه الحياة المليئة بالأحزان . كان القدر قد خصه بمتاعب كثيرة حتى أصبح فى حاجة الى الوئام مع الناس جميعا .

كان قد استقر منذ خمسة عشر عاما مضت فى مدرسة بريباس الابتدائية الحكومية . وكان قد حصل على هذه الوظيفة كخدمة استثنائية من المفتش كيرناتونى ، الذى كان يحبه كما لو كان أخا له . فقد كان هرديليا يعمل مدرسا فى مدرسة أهلية فى فلديوارا ، حيث أقام مزرعة للنحل ذاع صيتها فى كل أنحاء المقاطعة . وكان المفتش وزوجته وأطفاله مولعين ايما ولع بعسل النحل النقى . وعلم هرديليا بنقطة الضعف هذه فى كيرناتونى ، فكان كلما ذهب الى بيستريتسا لا ينسى أن يمر على السيدة كيرناتونى ، حرم المفتش ، بعلبة مليئة بأقراص عسل النحل الناصعة البياض . ولهذا فعندما شغرت وظيفة فى بريباس أراد كيرناتونى أن يرد له جميله فسأله فى ود : « هل تحب أن تصبح مدرسا حكوميا ؟ » ولم يكن هرديليا قد حظى من قبل بكل هذا الشرف . ها هو المفتش الذى

يرتعد امامه كل المدرسين يعرض عليه ترقية ! ·· ولكنه لم يستطيع أن يتخذ قرارا على الفور ،فقد كان الأمر صعبا للغاية · فلكى ينال المرء منصبا فى مدرسة حكومية لابد وأن يعرف اللغة الهنغارية ، التى لم يكن يستطيع التحدث بها الا فى تعثر · حقيقة أنه قد أحرز شيئا من التقدم فى استخدامها مؤخرا ، حيث كان عليه أن يسود بعض الالتماسات والعرائض للفلاحين فى فلديوارا — اثر بعض المضايقات التى تعرضوا لها من كاتب البلدة — ولكنه ، رغم هذا كله ، كان يدرك تمام الادراك أن المامه باللغه الهنغارية محدود جدا · وفضلا عن ذلك ، فقد كان انتقاله الى وظيفة حكومية بمثابة تسليم للعدو ، فالرومانى الذى يتعين عليه أن يعلم الأطفال الرومانيين ألا يتحدثوا الا بالهنغارية لا يصبح رومانيا ·· بل هو — ببساطة — مرتد ·· ولكن ، من ناحية أخرى ، هناك حجج لا تقل وجاهة· فالمرتب الذى يدفعه له الأهالى لا يزيد على ربع ما تدفعه الدولة · حقا انه كان يكسب مبلغا لا بأس به من كتابة العرائض للفلاحين ، حيث كان يتقاضى أجرا أقل — ويستغرق وقتا أقصر ، ويكتب بأسلوب أفضل — من كاتب البلدة · ولكن هذا الدخل كان معلقا بخيط واه ، فان قليلا من الجهد من جانب كاتب البلدة كان يعنى توقف هذا الدخل فورا والى الأبد · وفضلا عن ذلك فان الوظيفة فى مدرسة أهلية لا يترتب عليها معاش فى شيخوخته أو زيادة فى مرتبه ، وكلاهما أمر توفره الدولة وقد وعده المفتش بأن يحتسب له سبعة عشر عاما كان قد اشتغلها حتى ذلك الوقت ·· ولقد فكر فى الأمر طويلا ، وتباحث فيه مع زوجته حتى وصل الأمر بهما الى العراك ، فقد كانت تستحثه أن يسرع حتى لا تفوته تلك الفرصة الفريدة لينفض عن نفسه بعض ما يعانيه من فقر ، حتى اذا ما بلغ تردده ووساوسه ذروتهما تلقى خطابا من المفتش كيرناتونى · وهو مازال يحتفظ بهذا الخطاب حتى اليوم كوثيقة ذات قيمة عظمى · وقد جعله هذا الخطاب يحزم أمره · كان المفتش يقول فيه : « عزيزى هرديليا ، أرجو أن يصلنى ردك النهائى خلال ثلاثة أيام ، فانى شديد الرغبة فى تعيينك فى بريباس · تحياتى ·· المخلص : كيرناتونى · »

كانت الحياة فى بريباس فى البداية أشق منها فى فلديوارا · فعندما أنشئت المدرسة الحكومية فى بريباس تعهد المسئولون فى القرية بأن يزودوه بمسكن مناسب وأرض فضاء للحديقة · ووعدت الدولة بأن تبنى فيما بعد مدرسة تحتوى على مسكن مناسب لسكنى المدرس · وفى هذه الأثناء اضطر هرديليا أن يصلح بيتا من بيوت الفلاحين على نفقته الخاصة حتى يحوله الى شىء أكثر لياقة · وعندما رأى الفلاح الماكر أن عشته قد

تحولت الى بيت أنيق ، ألغى عقد الايجار بعد عام واحد وانتقل الى بيته للسكنى فيه • وكان على المدرس أن يتكبد مزيدا من النفقـات فى بيت آخر ، حيث تكررت القصة • ولما وجد هرديليا أن الدولة قد صرفت النظر عن فكرة انشاء مبنى المدرسة الجديد ، اتخذ قرار خطيرا • كان الأهالى قد قدموا قطعة من الأرض من أملاك الكنيسة ليقام عليها بستان المدرسة عند نهاية القرية •• فشرع المدرس فى بناء بيت له على هذه الأرض بتصريح من الأب بلكيوج ، فقد كانا صديقين حميمين فى ذلك الوقت • وقد أكد له القس أن قطعة الأرض هذه ستظل ملكا خاصا لهرديليا كهدية من الأهالى وسلطات الكنيسة مكافأة له على حماسه فى تعليم أطفال بريباس • ولم يخطر بباله قط أن يطلب تأكيدا كتابيا بذلك ، فكلمة الصديق اكثر قداسة من أى قصاصة ورق • ولكنه عندما طلب ذلك فيما بعد بدأ القس يراوغه فقد قال له بابتسامة ملتوية استشعر هرديليا فيها تهديدا مقنعا :

ــ ما زال أمامنا وقت طويل لنفعل ذلك ، أيها الأخ زهاريا •••

ولما بدأت صداقتهما تفتر وتفقد حرارتهـا ، بدأ المدرس يستشعر الخطر يلوح فى الأفق فى تهديد متزايد • وعلى الرغم من كل جهوده لتجنبه، فان الهوة بينه وبين القس كانت تزداد اتساعا يوما بعد يوم • حقا انهما ظلا يتبادلان الحديث ، اذ كان هرديليا يذعن فى وداعة لكل نزوات القس ، ولكن روحاهما كانتا تزدادان تباعدا باستمرار •

كان المدرس يخشى التفكير فى اللحظة التى يتم فيها قطع العلاقات بينهما • وكان كل تفكيره فى هذا الشأن منصبا على البيت • وكان على ثقة من أن بلكيوج سيفعل عندئذ كل ما فى وسعه ليطرده من البيت الذى بناه على نفقته ، والذى يمثل كل ممتلكاته بعد كل هذه السنوات من العناء • ويحدث هذا فى الوقت الذى أصبحت فيه فتاتاه على وشك الزواج ــ بعون الله ــ حيث تتركز بائنتهما وأملهما فى هذا البيت •• اذ أنهما مالم تستندن الى بعض المال ، فسيكون من العسير عليهما أن تجدا من يتزوجهما « فى هذه الأوقات التى سادت فيها المادية » ــ كما تقول لورا بحق ــ أيا كان حظهما من الجمال أو الذكاء •

كانت الأسرة كلها تحس بهذا الخطر ، لذلك فقد تزايدت كراهيتهم للقس باضطراد ، كأنما كانوا مدفوعين الى ذلك بيد القدر • وكلما تزايد سخطهم على موقف القس ، كلما أحسوا بتوقف مصيرهم عليه ، الأمر الذى كان يزيدهم كرها له •• وكانت زوجة المدرس وبناته حينئذ تنهلن عليه لوما وتبكيتا ونواحا مريرا • وكانت السيدة هرديليا خاصة بارعة فى

تصوير المصائب التى قد تتعرض لها الأسرة لو أن « ذا الشعر المنفوش » طردهم من البيت ـ ذلك البيت الذى شيد بالقروش التى انتزعت من أفواه أطفالهم ـ أو لو أن هرديليا انتقل الى رحمه الله يوما وتركهم بلا مأوى ـ خاصة وأنه قد دأب على السعال كل ليلة كالطبلة وقد أخذ عوده يزداد نحولا حتى صار كالكلب السلوقى ٠٠ واذ كانت مخاوفها المشئومة تجد صدى فى نفوس فتياتها ، فقد كن ينفجرن فى بكاء لا ينتهى ، مما كان يحز فى قلب المدرس ، ويثير أعصاب تيتو الذى لم يكن يهبط عليه شيطان الشعر الا فى هذه اللحظات ، فيروح يشكو من أنه لا يستطيع أن « يعمل » بسبب هذا الشغب الفارغ الذى لا معنى له ٠

وفى ذلك الوقت بالذات عنـــدما كانوا غارقين فى بحر من الشك والهموم ، ظهر عريس فى بيت آل هرديليا ٠ ورغم أن هذا كان متوقعا ، فقد أثار شجارا كاد ينتهى بمعركة ٠

كانت لورا قد التقت فى الصيف الماضى ، فى شهر يوليو ، بطالب يدرس اللاهوت ٠ وقد حدث هذا فى حمامات سنجيورز، فى احدى حفلات الرقص الأسبوعية ، حيث كانت قد ذهبت بصحبة تيتو ٠ وأبدى الشاب ، الذى كان يدعى جورج بنتيا ، والذى كانت قد بقيت أمامه سنة كاملة حتى ينصب قسيسا ، ميلا شديدا الى لورا ٠ وقد أخذ يفصـــح شـــيئا فشيئا ، خلال تسع وسبعين رسالة وبطاقة بريدية أرسلها تباعا ، عن الحب الذى كان يضطرم فى قلبه نتيجة لجمالها ولطفها وثقافتها ، بالاضافة الى ميزاتها الأخرى التى اكتشفها منذ رآها لأول وهلة ، والتى استغرقت لكثرتها عاما كاملا من الزمن ، وكل هذا العـــدد من الخطابات ، حتى استطاع أن يحصرها كلها ٠ وقد ترددت لورا بعد أن تسلمت خطاباته الأولى ، هل تجيب عليها أم لا ٠ كان قلبها خاليا فى ذلك الوقت ٠ كان أحد طلاب المدرسة العليا فى أرماديا قد ظل يغازلها قرابة عامين حتى بدأت تهتم به ، ولكنه ترك البلدة بعد حصوله على اجازة الالتحاق بالجامعة مباشرة ، ولم يكتب لها سطرا واحدا منذ ذلك الوقت ، مما حدا بها الى انتزاعه من قلبها ، رغم ماعانته فى ذلك من ألم ٠ وقد ساعدها تيتو على أن تتخلص من مخاوفها ، ونصحها فى حكمة بأن تكتب اليه محاذرة أن ترتبط بأى عهد ٠ ومن ثم فقد أرسلت لورا الى جورج بنتيا طالب اللاهوت عشرين خطابا وثلاثا وعشرين بطاقة بريدية ، انغمست فيها فى مداعبات رومانسية ، دون أن تتعهد له بحبها أو تشير الى ذلك أدنى اشارة ٠ فعلى الرغم من أن لورا كانت فى التاسعة عشرة من عمرها ، الا أن أفكارها عن الحب كانت أفكارا جادة ، ولم تكن تقر بأنها قد وقعت فى حب أى انسان

لمجرد أنها قد تكلمت معه بضع ساعات وحسب • وكانت تقول في صوت سوداوى حزين : « الحب شيء رقيق تكسره الانفعالات المتعجله • » وكانت تتذكر على وجه الخصوص ان بنتيا يقصر عنها بمقدار بوصه او بوصتين ، ولم تكن هي نطيق القصار من الرجال • يضاف الى هذا أنها كانت قد تعرفت خلال الفترة التى كان طالب اللاهوت يمطرها فيها بخطاباته ، بشاب طويل القامة ، مهذب ، متحفظ ووسيم ، هو طالب الطب أوريل اونجريانو • وقد تقابلا لأول مرة في حفل راقص للطلاب في أرماديا ، وقد حضر لزيارتها أربع مرات خلال عطله عيد الميلاد ، كما حضر عشر مرات أخرى خلال عطلة عيد الفصح ، وهو يتردد عليها الآن كل يوم تقريبا خلال العطلة الصيفية • وقد أدت مقابلاتهما المستمرة الى حب كان ثمينا جدا في نظر لورا ، اذ كان أوريل يقنع بمجرد الضغط على يدها في شيء من القوة ثم يضغط اصبعها الثالث ، مما يعنى في شفرة المحبين : « أحبك من صميم قلبى » •

وعندما تبلور في قلب لورا بوضوح حبها لأوريل أونجريانو ، بدأت خطابات بنتيا اللحوحة تضايقها • فقد شعرت أنها تلوث حبها النقى الذى تكنه لطالب الطب • ولكى تثبت له اخلاصها اعترفت له في عيد الفصح بأن بنتيا يضايقها بخطابات حبه • وارتبك أوريل الذى كان يعرف بنتيا منذ كانا معا في المدرسة وأجابها في حيرة :

ـ ان بنتيا شاب لطيف جدا •• شاب لطيف جدا بالفعل •••

وأدركت لورا مدى الجرح الذى أصاب أوريل من جراء اعترافها ، فلم تعد الى ذكر اسم بنتيا ثانية ، وعندما كان أوريل يسألها عنه كانت تجيبه في لامبالاة متناهية حتى يفهم أن قلبها له هو وحده •• والى الأبد ••

ومع هذا لم يوافق الوالدان العجوزان على مشاعر لورا • وحين وجدا أن خطابات طالب اللاهوت تزداد حرارة ، فكرا في الأمر ثم عبرا عن رأيهما بوضوح قائلين ان الرجل الذى يكتب مثـــل هذه الرســـائل المشبوبة العاطفة ، كما يفعل بنتيا ، لابد أن يكون انسانا لطيفا للغاية • وأعجبا به دون أن يرياه ، وتزايد تقديرها له بازدياد العاطفة التى أخذت تتضح في خطاباته للورا •

وكانت زوجة المدرس تردد قائلة وهى تتنهد :

ـ سيكون شيئا طيبا لو تمخض هذا الأمر عن شيء جاد •

وكان المدرس يضيف قائلا وهو يطقطق بلسانه علامة على الرضاء الكامل :

– سيكون من حسن الطالع حقا لو تزوجهـــا مثل هــذا الشاب اللامع ٠

وثارت لورا على آراء الوالدين العجوزين ، وخصوصا لأنهمـــا كانا يعبران بوجه عام عن هذه الآراء بعد تحسر طويل على فقرهمـــا ، وابداء قلقهما على البيت ، وتدبر ظروفهما الحرجة ، وهمومهما التى لا تنتهى وأحوال الزمن ذات الطابع المادى ٠ وعندما كانا يصلان فى تأملهما الى مسألة « الزمن المادى » كانت الفتاة تفقد أعصابها تماما ، حيث أنها كانت تهاجم بأسلحتها ذاتها ٠ وكانت تشرع في البكاء وتطلق اللعنات ، وتغلق على نفسها باب حجرة الاستقبال ٠٠ واذ تريح نفسها بالتفكير فى أنها كانت تعانى فى سبيل أوريل ، كان حبها للفتى يزداد حرارة ٠ أما جيجى التى كانت تحب أختها حب العبادة ، فكانت تمكث لمواجهة والديها ، وتتقدم بكل الحجج التى يمكن ابرازها ضد طالب اللاهوت ، ثم تنهى المناقشة بالانفجار باكية ٠ وعندئذ كانت لورا تدعوها الى غرفتها ، حيث تذرفان الدمع معا لبعض الوقت ، وتسخران من رسائل بنتيا وتسريان عن نفسيهما آخر الأمر بالحديث عن أوريل ٠٠

وكانت رسالة بنتيا الثمانين ، التى وصلت بعد بضعة أيام من تأنيب الأب بلكيوج لايون فى الكنيسة ، موجهة فى هذه المرة الى الوالدين تسألهما يد ابنتهما الجميلة لورا ، وتضيف أنه فى حالة موافقتهما فسوف يسمح كاتبها لنفسه بأن يزورهما ليسمع منهما ومنها الكلمة التى سوف تشيع فى قلبه السعادة ٠ وقد تضمنت الملحوظة الكائنة فى ذيل الخطاب أكثر الفقرات اثارة ، فقد ورد فيها بالنص : « أظن أنه ليس هناك داع للاشارة الى أن كل المسائل المادية تعتبر غير ذات أهمية بالنسبة لى ٠ فقد اختصنى قداسة الأسقف بأبرشية جيدة فى ساتمار ، الأمر الذى يجعلنا فى غير حاجة الى القلق بشأن هموم الحياة اليومية » ٠ وكان هذا يعنى بوضوح وبساطة أن بنتيا على استعداد للزواج من لورا دون بائنة ٠ وصاح هرديلية وقد تملكه الفرح :

– ها هى أخيرا أنباء طيبة فى الحقيقة ٠ انها تستحق أن نشرب كأسا ٠ ماذا تقولين فى ذلك يا زوجتى الصغيرة ؟ ٠

فقالت زوجة المدرس وعينـــاها تغرورقان بالدموع ، بينما كانت تحرك بعصبية طعاما كان يفور على النار :

– عسى أن يكون كل شىء خيرا ، وليبارك الله هذه الساعة ٠

وأحضر المدرس في التو زجاجة فارغة ، وغسلها وانطلق في اعتزاز الى محل أفروم لشراء بعض الخمر وليطلع صاحب المحل بالطبع على الأنباء العظيمة ٠

وبهتت لورا بالخطاب لدرجة أعجزتها عن النطق بكلمة واحدة قبل أن يخرج هرديليا ٠ وعندما استجمعت قواها أخيرا ، خيل اليها فجأة انها ترى صورة أوريل وهى تنهض قبالتها ، وفى عينيه نظرة لائمة حزينة ٠ وصعدت الدموع الى عينيها وانتحبت قائلة :

ـ لن أتزوج ! لا يجب أن يدور بخلدكما أننى أستطيع أن أربط حياتى ب ٠٠

أما جيجى التى كانت تنتظر من لورا أن تبدأ باطلاق النار ، فقد اندفعت فى الحال توضح لأمهما أن هذا الزواج سيكون كارثة محققة ، لان لورا تكره بنتيا ، لانه أقصر قامة منها ٠٠

وحدقت السيدة هرديليا فيهما وقد تملكتها الدهشة ٠ وعندما ألمت بالموقف فى النهاية ، نهضت من مقعدها كأنها نمرة وقالت :

ـ أتظنين أننا سوف نسمح لك بتبديد طالعك السعيد ؟ ٠٠ ان عقلك لا يهتم الا بالمغازلات وسوء الأدب فى الوقت الذى ينبغى عليك فيه أن تفكرى فى الصعاب التى تواجهنا ٠ ان هذا المخلوق الآخر المجنون سوف يتزوج يوما ٠٠٠ فمن أين تتوقعين أن تحصلى على بائنة للزواج ؟

وأجابت جيجى بسرعة :

ـ ليس الجميع مثل بنتيا ، لا يفكرون الا فى البائنة ٠

ـ اننى أعجب لأنكما لا تخجلان من نفسيكما وأنتما ترددان هذه الأكاذيب المتعمدة ٠٠٠ ان العربة التى تستقلانها لم يعد بها الا عجلة واحدة ومع ذلك فأنتما تحلمان بقلاع فى الهواء ٠٠ أتعتقدان أن الناس الشرفاء سوف يبهرون عندما يروكما وقد تكلفتما هذه الأوضاع ؟ ٠٠٠ ان أى فتاة أخرى كانت تقبض على فرصتها هذه بكلتا يديها وتشكر الله الذى منحها اياها ، بينما أنت لا تخرجين من البيت الا لقضاء وقت طيب، ولا شىء فى رأسك سوى نزواتك ٠ عار عليك أيتها الوقحة ! ٠٠

ـ يمكنك أن توجهى الى اللوم ما شئت ، ولكننى لن أتزوجه !

هكذا رددت لورا بلهجة مستسلمة خليقة بشـــهيدة ، الأمر الذى ضاعف من غضب والدتها •

وصرخ تيتو على حين غرة كالمجنون من الحجرة المجاورة ، بينما كان يقدح زناد فكره بحثا عن قافية :

— انكم تفقدوننى صــــوابى بصراخكم • لم أعد قادرا على العمل فى هذا البيت ســـــواء بالنهار أو الليل ••• انكم تحطمون مســـتقبلى بعراككم الدنىء !

وعندما عاد هرديليا من محل أفروم ، الذى هنأه وتعهد باعلان نبأ زواج الآنسة لورا على الملأ ، كان بامكانه أن يسمع الصيحات وهو ما زال فى الشارع •

وصاحت السيدة هرديليا حين رأته قادما :

— انظر •• هذه هى الفتاة التى أعطانا الله اياها ! انظر اليهـــا ، وتهلل وأمتع عينيك بمرآها ! ان السيدة الصغيرة لا ترغب فى الزواج من قس بسيط الشأن ، فهو لا يصلح لها ! السيدة الصغيرة تريد طبيبا أو بارونا ، بل لعلها تريد امبراطورا زوجا لها ! •••

لم تكن لورا قد أقرت بعدم رغبتهـا فى الزواج من قس ، ولكن السيدة هرديليا حدست أفكارها • وكثيرا ما كانت الفتاة تقول لنفسها أن الفرق بين الطبيب والقس عظيم عظم الاختلاف بين السماء والأرض ، فالطبيب هو السماء والقس هو الأرض • لقد كانت هذه الآراء تراودها قبل أن تلتقى بأوريل بوقت طويل ، أما الآن فقد أصبحت هذه الآراء اعتقادها الراسخ •

وكانت الضوضاء من الشـــدة بحيث اضطر تيتو الى الاقلاع عن محاولات قرض الشعر والانصات الى المناقشة التى أخذت تحتد شيئا فشيئا • وكان الوالدان العجوزان يوضحان للفتاتين أن أوريل أونجريانو شخص عديم النفع ، وأنه يتودد الى لورا لمجرد قتل الوقت دون أية نية للزواج منها ؛ وحتى لو كان رجلا كريم النفس ذا نوايا جادة فيما يتعلق بلورا ،فانه لن يستطيع أن يضع هذه النوايا موضع التنفيذ الا بعد مضى خمس سنوات حين ينتهى من دراسته — هذا اذا انتهى منها — وعندئذ سوف يطالب بالبائنة • واذا لم يستطيعوا أن يوفروا له ما يريد ، فسوف يوليها ظهره دون كبير عناء • أما بنتيا فهو رجل ذو عقل سليم ومستقبل

ممتاز وهو شخص مخلص وامين ، وليس دعيا · والاكثر من هذا انه على استعداد للزواج من نورا حتى بلا قميص يستر جسـدها ، وذلك لأنه يحبها حقا · فاذا ترددت لورا وسمحت لهذه الفرصة السعيدة ان تفلت من بين أصابعها ، فسوف تصبح عانسا عجوزا كالاختين بو لو فى ارماديا اللتين تعدتا الخمسين من عمرهما ، ومع ذلك تتطلعان الى أى أبله يتودد اليهما ، وذلك رغم ان لديهما أموالا كثيرة · وبالاضافة الى ذلك فان لورا قد بلغت أنسب سن للزواج · فالفتاة بعد سن العشرين تبدأ فى الذبول وتفقد بريق عينيها · وأى نفع فى أن يكون المرء واسع الاطلاع حسن المظهر لو لم يكن لديه عقلا سليما يدفعه الى اقتناص طالعه السعيد عندما يهبط عليه من السماء ·

وأخذت لورا من ناحية أخرى ، بتأييد عظيم من جيجى ، ترسـم صورة لبنتيا بأكثر اللمسات قسوة ، وتلعن اللحظة التى التقت به فيها ، وراحت تشهق وأعلنت فى حزم أنها تكون مجنونة لو دفنت شبابها مع قزم اشتدت كراهيتها له اذ بلغت به الوقاحة أن يجرؤ على طلب يدها · ورسمت على صدرها علامة الصليب وأقسـمت أنهـا تفضل الموت على الزواج من بنتيا · ان أمامها متسع من الوقت للزواج ، فالفتيات فى هذه الأيام لم يعدن يتزوجن ـ كما كان الحال من قبل ـ فى سن لا تكن فيه قد فتحن عيونهن جيدا · وفضلا عن ذلـك فقد حزمت أمرها على عـدم الزواج كلية ، فهى تكره الرجال · حتى أوريل لم تكن تشعر ازاءه الا بصداقة بريئة ، وهى لا تحلم أبدا بأن تكون زوجته ·

ورفض تيتو أن يتدخل فى الأمر ، شأنه شأن الفيلسوف الحق ، رغم أنه نوشد مرارا أن يدلى برأيه · الا أنه اقترح نوعا من الهـدنة بعد أن انتصف الليل وبدا أن المناقشة لن تصل الى نتيجة ، وقال :

ـ يكفى هذا الليلة · لنذهب الى النوم · لقد تشاجرتم اليـوم بما فيه الكفاية ، دعوا البقية للغد !

واسـتمر الصراع ـ كالسراج الخابى ـ يتذبذب بين الارتفـاع والانخفاض ، ليلتهب ثانية فى اللحظة التالية ، حتى رفع هرديليا قبضته فى وجه جيجى ، وقد تملكه الحنق فجأة ، وصرخ قائلا :

ـ أغربا عن وجهى أيتها الفاجرتان ! اغربا عن وجهى سريعا !

وحال تيتو دون هبوط القبضة المرفوعة ، دافعا شقيقتيه فى رفق الى غرفة الاستقبال حيث كانتا تنامان أثناء الليل ، وطمأنهما مؤكدا لهما

أنهما على صواب ، وأن العجوزين لا يستطيعان فهم تطلعاتهما السامية • ورجع بعد ذلك الى الحجرة قائلا لوالديه بلهجة جدية :

— أنتما على حق ، لا شك فى ذلك • لقد فكرتما فى الأمر بحكمة شديدة • ماذا تتوقعان منهما ؟ انهما صغيرتان وعديمتا الخبرة • انهما حتى لا تدركان عما تتحدثان ! انهما لا تستطيعان أن تدركا معنى الحيـاة فى واقع الأمر •••

- ٣ -

بدأت نذر الجو الـكئيب ، وأخذ الخريف يقرع الأبواب بالحاح • وراحت الحقول تتعرى شيئا فشيئا • وكانت بعض أكوام الدريس والتبن تتناثر هنا وهناك بينما أخذ الفلاحون يسارعون بجمعها فى العربات الى البيوت • أما المحاريث فقد أخـذت بأعدادها المتزايدة تشـق التربة المنهوكة • وبدت الشقوق القاتمة المصـقولة فى الأرض المحروثة كأنها جروح نازفة فى جسم هرم ذابل •

وزحف على نفس ايون بمضى الوقت شـعور بالقلق • لقد كان يكدح ويعمل كانه عزم على أن يصبح غنيا فى غمضة عين وأن يضع حدا لكل همومه ولهذا الحنين لما هو أفضل • وقد اغتم لأن ثمرة جهده لم تكن تبدو للعيان الا بالكاد • فبعد أن كدح كالعبد طوال الصـيف فى خدمة أناس آخرون ، تاركا أرضه ، لم يبلغ مقدار كسبه الا حوالى مائة «زلوتى»• انه لن يستطيع أن يحرز أى تقدم لو استمر على هذا الحال •

وكانت آلامه تستدرج دائما أفكاره المثيره عن أنا وفاسيلى باكيو • وشعر بالهزيمة والعجز ، وكانت مشاعره تشعل باللهيب دمه وتفعم رأسه بخطط وقرارات كل منها يفوق الآخر غرابة • ومع ذلك فلم يجرؤ على الاقتراب من بيت فاسيلى باكيو أو على مخاطبة أنا بكلمة واحدة • وبدلا من ذلك كان يذهب كل مساء تقريبا الى فلوريكا • كانت عيناها الزرقاوان تخففان ما به • ومع ذلك فقد كان يضحك من نفسه اذ وعدها بالزواج • كيف يمكنه الزواج منها وكل بائنتها لا تتعدى خنزيرة ولود وكومة من الخرق القديمة ؟ ان المرء لا يستطيع أن يحيا بالحب وحده •• فالحب ليس الا عاملا مساعدا ، ولابد للأساس من أن يشتمل على عناصر أخرى • وما أن كان يردد هذه الكلمات حتى تهرع أفكاره ثانية الى أنا •

وسمعت زنوبيا بعد فترة قصيرة أن فلوريكا ووالدتها قد أشاعتا في القرية أن ايون قد طلب الزواج من فلوريكا • ولو أن أحدا قد ضربها بعمود على رأسها ، ما كان يمكن آن تشعر بالغضب أكثر مما شعرت لدى سماعها هذا النبأ • وهرعت الى المنزل وقد ابيض وجهها شحوبا ، وصاحت مخاطبة ايون وهي ما تزال على عتبة البوابة :

ـ يبدو أنك تجري وراء الفقر يا ولدي ! ألا تستطيع أن تجد عروسا أخرى في كل أنحاء القرية غير فلوريكا ابنة أرملة مكسيم ؟ لا عجب يا بني •• لا عجب ! ••

وفهم الفتى لتوه واستشاط غضبا ، لا بسبب الاشاعة التي أطلقتها فلوريكا ، ولكن بسبب تعيير زنوبيا له •

ـ ألا يكفيني ما بي حتى تلحي على ب ••

ولم تكف زنوبيا عن تعييره وتأنيبه حتى اندفع ايون صوبها بعد لحظات ، وقد فقد أعصابه ، يبغي ضربها • ونهض جلانيتاشو لنصرة المرأة مهدئا اياه قائلا :

ـ ايون ، كف عن هذا ، اتركها وشأنها !

وتوقف ايون ، وخرجت زنوبيا الى عرض الطريق تنتحب وتصب اللعنات ، بينما استدار ايون الى والده وشرع يوبخه :

ـ لماذا أكلت أرضي وشربتها ، أيها الحطام الهرم ؟

وأجاب جلانيتاشو مكتئبا ، وقد شاعت في عينيه نظرة حزينة :

ـ ماذا يمكنني أن أفعل الآن أيها الرجل ، ماذا أستطيع أن أعطيك وقد نفذ كل ما كان لدي ؟ أعلي أن أعطيك الروح الكائنة في عظامي ؟ تستطيع أن تأخذها اذا شئت !

وصاح ايون في نوبة من الغضب لدى سماعه هذه الكلمات :

ـ كان من الأفضل ألا تنجبني بدلا من أن تجعلني أضحوكة الجميع !

كان الوقت يقترب من المساء ، في نفس ذلك اليوم ، عندما التقى الفتى بأنا وهي تذرع الدرب القديم في اتجاه جيدوفيتسا • كان الطريق خاليا من المارة تماما • وأوقفها ايون وأمسك بيدها ، فانفجرت باكية

وأخذت تؤنبه على هجرانه اياها • وأراد ايون أن يهدىء من روعها ، ولكنه لم يستطع الا أن يغمغم قائلا :

– اهدئى يا أنيوتسا •• لا تقلقى •• سوف نكون معا فى يوم ما ••• معا ••• معا •••

ووقفا معا برهة أخرى دون أن يلفظا بحرف ، ثم مضى كل منهما فى سبيله • ولكن أنا مشت وفى قلبها علامات اليأس ذاتها ، أما ايون فقد انطلق متماسكا ، نشطا • فقد غرست دموع أنا فى قلبه ثقة جديدة • ومضى أكثر خفة وابتهاجا لدرجة شعر معها بالرغبة فى الضحك ، بينما استمر يخاطب نفسه قائلا :

– لست أخشى الآن شيئا •

لم يكن اذ ذاك يعلم ما يجب عليه أن يفعل ، ولكن ثقته بنفسه كانت تنمو فى داخله ، وتغير من واقع كيانه كله •

وفى الحق أنه شعر ، منذ تلك اللحظة ، بأنه رجل مختلف ، أقوى مما كان ، وأكثر جرأة ، وعلى استعداد لمواجهة العالم كله وتحديه • كان مبتهجا ، يطلق النكات ويضحك دون سبب معقول ، واذ خشيت زنوبيا أن يكون قد وقع تحت تأثير سحر ما ، بدأت تفكر فى تجهيز أنواع الرقى المضادة لتخليصه مما به •

وقرر ايون فى اليوم التالى أن يستأنف زيارته لأنا • وبلغه أن جورج ، بعد أن مضت أسابيع طويله كان ايون فيها يتحاشى أنا ، عاد يتودد من جديد الى فاسيلى باكيو • وقرر ايون أن ينتظر فترة أخرى • ومكنته ثقته بنفسه من أن ينتظر فى هدوء • كان يلمح جورج فى عديد من الأمسيات وهو يدخل بيت باكيو ، ولكن المصباح كان يظل مضاء طوال الوقت ، الأمر الذى يعنى أنه يقضى أكثر الوقت فى الحديث مع باكيو لامع الفتاة • وضاعف هذا من أمله • ولم يعد فى عجلة من أمره ، فان أنا تستطيع أن تنتظر مثلما يستطيع هو الانتظار ••

وكثيرا ما كان يمر الى جوار أراضى فاسيلى باكيو ، عن عمد فيما يبدو ، ليتدبر أمرها فى ذهنه ، وكان ينعم النظر ليرى ما اذا كانت محروثة حرثا جيدا ، ويشعر بالغضب عندما يلاحظ أن الأمور لا تجرى كما يجب • كان ينظر الى الأرض كأنها ملك له ، وكان يضع الخطط – بعين صاحب الأرض – بشأن كيفية حرث حقل الدريس هذا ، وكيفية استبدال الحنطة فى ذاك الحقل بالبرسيم ••

وذات يوم موحش خرج ليحرث أحد حقول الذرة التى كان ينوى أن يزرعها قمحا فى الربيع • وكان الوقت متأخرا بالنسبة لعمليه الحرث فى هذا الموسم • ولكنه لم يكن لديه الا بقرة واحدة ، فكان عليه أن ينتظر حتى ينتهى الآخرون من عملهم ، فيمكنه أن يستعير دابة أخرى يعمل بها فى أرضه •

ولم يكن حقل الذرة الا مجرد شريط ضيق من الأرض هو البقية الباقية من حقل كبير باع جلانيتاشو نصفه منذ سنوات الى دوميترو موركاش الذى باعه بدوره الى سيميون لونجو • ولم تكن القطعتان من الأرض تتميزان الواحدة عن الأخرى الا بشق عريض وعميق من خطوط المحراث •

أوقف ايون فريقه قبل أن يشرع فى العمل ، وأخذ يرسل بناظريه الى قطعة سيميون لونجو التى كانت من قبل ملكا لعائلته • كان الحقل مهجورا ليس به أحد •

ـ ماذا لو استعدت خطا واحدا من أرضى !

ومضت الفكرة فجأة فى عقل ايون ، وتوهجت وجنتاه بشوق لا سبيل الى كبته •

وأسرع بدفع المحراث عبر الخط الفاصل ، متوغلا فى أرض جاره ، وبدأ يحدد معالم حدود جديدة • وأز الطمى الأصفر ، وتقلقل فى موجات صقلية من الكتل غير المنتظمة الأشكال • وأحكم ايون قبضته على المحراث، ضاغطا بالسلاح الى غور عميق فى جسم الأرض ، وانزلقت قبعته الى مؤخرة رأسه وابتلت جبهته بحبات العرق وعوامل الاثارة ، واستحث البقرتان بصوت حنون ثابت النبرات ، فأخذتا تجذبان المحراث بكل ما أوتيتا من قوة ، وقد تقوس ظهراهما •

وتنفس ايون الصعداء بعد أن شق حدودا جديدة ، وحرث بضعة خطوط فى أرض سيميون ، مزيلا كل أثر تخلف عن الحدود القديمة • لم يعد الآن يخشى شيئا • كان قلبه يخفق بالفرحة ، فقد اضاف الى ملكيته، وما كان لأحد أن يلاحظ ثلاثة خطوط أو أربعة •

وعندما حان وقت الافطار ، ترك حيواناته ترعى فى الحقول المجاورة ،بينما جلس هو فى هدوء يتناول قليلا من طعام جاء به معه ، راضى النفس مشغول البال بخطوطه الجديدة التى أضافها • واذ أوشك أن ينتهى من تناول طعامه ، لمح سيميون لونجو قادما ليحرث أرضه •

وأجفل ايون • وقال لنفسه ، وابتسامة قلقة تتلاعب على شفتيه :

ــ سوف يلاحظ الأمر •

لاحظ سـيميون فى الحقيقة أن قطعة أرضه قد أصبحت أكثر ضيقا وبدا فى الحال يطلق اللعنات دون أن ينظر نحو ايون ، كأنما لم يدرك وجوده • كذلك تظاهر ايون بأنه لا يسمعه ، ومضى يجمع كسر الخبز فى قطعة القماش بعناية ، ثم أخذ يهزها ناظرا فى داخلها عامدا كأنه مستغرق فى أفكاره لدرجة تحول بينه وبين ملاحظة ما حوله • وما أن تحقق ايون أن سيميون قادم نحوه ، مزمجرا لاعنا وسوطه فى يده ، حتى أخذ يجمع بقية طعامه فى سرعة ، ودفع به الى حافظته ونهض على قدميه •

ونشب العراك فى الحال • وأقسم ايون بكل القديسين أنه لم يحرث خط الحدود الا لأنه لم يستطع تمييزه ، غير أنه لم يحرث الا على نفس خط الحدود تماما • وصب سيميون وابلا من السباب على ايون وهو يشده الى الشقوق الكائنة بين أرضيهما ، وبين له أنه قد تعدى على أرضه عامدا ، مجبرا اياه على قياس عرض الحقول من ناحيته ، صائحا بين كلمة وأخرى :

ــ لقد سرقت نصف أرضى أيها اللص !

كان ايون يدرك أنه لن يستطيع مجاراة سيميون بكلماته ، ومع ذلك أخذ يسبه ، ثم انقض عليه باللكمات حتى يحتفظ بسـيطرته على الموقف •

واقتتلا كائنين من المجانين طوال نصف ساعة ، ومزقا قميصيهما ، وخدش كل منهما وجه الآخر • ولما لم يكن هناك من يوقفهما عن العراك ، لم يتوقفا الا عندما تملكهما التعب حتى عجزا عن القتال • وبعدئذ شرعا فى العمل ، وأخذا يتبادلان السباب واللعنات • وأقسم سيميون لونجو برءوس أولاده على أن يقاضى ايون وألا يركن الى الراحة الا بعد أن يراه فى السجن حتى لو اضطر أن يبيع نعليه فى هذا السبيل ، وأنه سيعلمه ماذا تكلفه سرقة الأرض التى يملكها الناس الشرفاء • ولم يزد ايون على أن بصق باحتقار ، وصاح بأنه لا يأبه بأى شخص ، وأنه لا يخشى أحدا ، حتى ولا الله القوى العظيم نفسه ••

أخذت عائلة هرديليا تناقش الرسالة الثمانين بكل تفصيلاتها على مدى أمسيات عديدة • وأبدى المدرس رغبته فى الرد على بنتيا مباشرة ، بينما أصرت الفتاة على تأجيل الرد الى يوم الاثنين ، حتى لا تحزن فى يوم الأحد عندما تأتى لزيارتها صديقات لها ، وهن بضع فتيات من أرماديا • وكان الانتظار الى يوم الاثنين يعد وقتا طويلا تماما ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه المسألة ذات الأهمية تتطلب ردا سريعا • وما هى العلاقة بين وصول صديقات لورا والرد على رسالة بنتيا ؟ ان الأمر على العكس مما ترى ، فمن واجبها أن تشعر بالفخر لأن لديها مثل هذا الحبيب ذى الشخصية البارزة ، والذى ستتزوجه عما قريب ••• وأحنقت هذه الملاحظة لورا حتى أنها هددت بالقاء نفسها فى البئر ، اذا فاه أى منهم بكلمة واحدة أمام الفتيات عن عرض بنتيا الوقح • واعتبرت السيدة هرديليا تهديدها هذا مفزعا للغاية حتى أنها أخذت تؤنبها لساعات طويلة ، وهى التى لا يجاريها أحد فى ابتكار أكثر التحذيرات الخليقة بالأمومة تنوعا ، وجمعها معا فى عظة واحدة ••

ومع هذا فقد اجتازت لورا يومها بسلام • وحل يوم الأحد الذى طال انتظاره ، بعد عديد من المعارك التى امتلأت بالدموع ، هذا اليوم الذى تعلق به مصيرها ••

وقامت ابنتا هرديليا باستعدادات هائلة • وأخذتا تعملان طوال يوم السبت عملا متواصلا • فقد خبزتا ثلاثة أنواع من الكعك ، وعجنتا « الكوزوناكى » * ،وجعلتا اللبن يغلى حتى يكون فى اليوم التالى أكثر دسما ، ونظفتا البيت وغيرتا من نظام الأثاث فى الحجرة التى تستخدم للنوم والاستقبال • وفى المساء كوت لورا رداءها ورداء جيجى وهى تذرف الدمع الغزير طوال الوقت ، فقد ظل الوالدان يلمحان الى العرض الذى تقدم به بنتيا ، دون أن يظهرا أى رحمة حتى فى ذلك اليوم •

وجاءهم صباح يوم الأحد بفرح عظيم • فقد توقف المطر ، الذى ظل يؤرق بالهم جميعا طوال الأسبوع ، أثناء الليل • وجف الطريق تماما بتأثير ريح قوية ، وعند الظهر بزغت شمس الخريف من خلف السحب ، تبعث الدفء والبهجة •

---

* الكوزوناكى : ارغفة كبيرة الحجم يضاف الى عجينها اللبن والبيض •

وظلت لورا وجيجى فى قمة الانفعال والاثارة الى ما بعد الظهر . وكانتا ترتبان الأشياء فى غرفة الاستقبال حينا ، وفى الحجرتين الآخريين حينا آخر ، وظلت لورا تسأل جيجى بين وقت وآخر باهتمام عميق :

ـ ماذا تظنين يا حبيبتى ؟ ترى هل سيأتى ؟

فكانت جيجى ترد برصانة :

ـ لدى احساس بأنه سيأتى .

وقبلتها لورا عرفانا بالجميل ، لأن سؤالها كان يتعلق بأوريل .

كانت الحفلات تقام كل يوم أحد بشكل دورى فى منازل بنات المثقفين الذين يسكنون القرى المجاورة . وكن جميعا صديقات لبعضهن البعض ، يشكلن مجموعة خاصة ، وكانت هذه التجمعات بالنسبه اليهن ـ بالاضافة الى الحفلات الراقصه فى شهرى اكتوبر وديسمبر التى يقيمها اساتذة وطلبة المدرسة الثانوية فى أرماديا ـ تمثل دائرة الضوء فى حياتهن الاجتماعية . وجرت القاعدة على عدم دعوة الشبان . ومع ذلك فقد كانت المضيفة مفوضة ضمنا فى دعوة الشاب الذى يثابر فى التودد اليها ، ومن ثم فقد كانت توفر لضيوفها جميعا دهشة ممزوجة بالمتعة . وقد أخبرت لورا أوريل ، قبل هذا اليوم بأسبوع أن الحفل القادم سوف يعقد فى منزلها ، وأنها تتوقع حضوره ، ووعد هو بألا يتخلف عن الحضور ولما كانت لم تره منذ ذلك الوقت بسبب المطر ، فقد كانت قلقة خشية أن يكون قد نسى ، الأمر الذى سيثير من جانب الفتيات كل أنواع التعليقات غير اللائقة .

وجلست لورا وجيجى ، فى نحو الساعة الثالثة ، على عتبة الباب تنتظران ضيوفهما . كانت لورا على الأخص ترتجف قلقا بسبب أوريل . وكانت تأمل فى أن يصل قبل الفتيات ، حتى يجدا الوقت الكافى للحديث معا فى هدوء لبضع دقائق . وشعرت بحاجة الى اطلاعه على صفاقة بنتيا وسؤاله النصح ، وسوف يحدد جوابه مصيرها . فكلمة واحدة منه سوف تمنحها القوة على مواجهة كل التجارب والغوايات .

وانقضت ساعة ، وبدأت فتيات أرماديا تظهرن على منحنى « مضيق الشيطان » ، فقد حضرن سيرا على الأقدام كعادتهن ، تضحكن وتثرثرن على الطريق . وجرت لورا وجيجى لاستقبالهن ، وقبلتا كلا منهن بصوت عال ، كما لو كانتا لم تريا أحدا منهن طوال سنوات »

وشبكتا أذرعهما بأذرعهن ، وسار الجيع وهن يتناجين الى فناء الدار • اما هرديليا الذى كان يجلس بين الاشجار يقرا صحيفه قديمة ، فقد جاء اليهن فى نخوة ، ورحب بهن مطلقا فكاهات تقليدية ضحكت لها الفتيات كثيرا • وكانت السيدة هرديليا تجلس فى اشرفة وهى تتمتم بصلوات تقرأها من كتاب دينى مهلهل متسخ احتفظت به منذ أيام عزها • وقبلت الفتيات يدها وقبلت هى وجناتهن دون أن تنهض من مقعدها ، ودون أن تبتسم أو تجيب على اسئلتهن المعتادة ؛ فلم تكن السيدة هرديليا توافق تماما على هذه التجمعات لأنها لم تسمع مطلقا بمثل هذا النوع من المرح فى شبابها ، من ناحية ؛ ولأن المال كان ينفق على التفاهات من ناحية أخرى •

وأخذت الفتيات فى حجرة الاستقبال تتبخترن أمام المرآة المعلقة بين النافذتين ، وكل منهن تعيد ترتيب خصلة شاردة ، أو تزيل من حاجبها ذرة من مسحوق التجميل علقت به ، أو تعيد ربط شريط فى ردائها • وكانت الرحله قد انهكت منهن السيقان ، ولكن أفواههن لم تسترح لحظة واحدة • وأخذن يتحدثن جميعا فى وقت واحد ، يترنمن ويغنين ويضحكن ••• وعندما هدأن بعض الوقت ، تسللت جيجى الى الخارج لتشرف على اعداد القهوة البيضاء وأنواع الكعك طبقا لما اتفقت عليه مع لورا من قبل •

وعلى الأريكة فى ركن الحجرة ، وهى التى تعتبر بمثابة مركز الصدارة فى هذا البيت ، جلست الفيرا ابنة الدكتور فليبويو الذى يعيش فى أرماديا ، وهى التى كانت تعتبر أبرز الشابات بينهن ، كما كانت صديقة لورا الحميمة •

وتساءلت الفيرا بصوت تشوبه رعشة خفيفة :

ـ وأين شاعرنا ؟

فقد كانت تكن لتيتو حبا خفيا ، كما كانت تعانى بشدة من عدم التفاتات تيتو اليها ، وتودده الى لوكريتسيا دراجو بدلا منها •

وأجابت لورا بلهجة آسفة كشفت عن معرفتها بما تعانيه ومشاطرتها احزانها :

ـ انه ليس بالمنزل يا عزيزتى الفيرا ؛ فأنت تعلمين أنه دائب القلق عندما يعمل ، وعندما يهبط عليه الوحى يحتاج الى صمت مطلق ؛ وعندما يتعذر عليه تحقيق الهدوء المنشود يصبح تعسا الى أبعد الحدود • لقد

غادر المنزل لتوه فى اتجاه الطريق القديم ، قائلا أنه قد طرأت له فكرة رائعة لا بد أن يخرجها الى حين الوجود • ولو أنكم قدمتم من هذه الناحية لا لتقيتم به •

فقالت الفيرا وهى تتنهد بحزن :

ـ مما يبعث على الحسرة أننا لم نسلك الطريق القديم ! كان يمكن أن نفاجىء الشاعر وهو يعمل !

وقالت مرجريتا بوبسكو بلهجة تأنيب :

ـ أرأيت ! لقد قلت لك أن هذا أفضل ، ألم أقل لك ؟

كانت مرجريتا ابنة كاتب فى بنك أوروا • كانت فتـــاة سمراء طويلة القامة ، مليحة الوجه ، ذات جسم لدن ، وحاجبين مرســـومين ، ووجه مغمور بالمســاحيق ، وشفتين مخضـــبتين بلون اللهب • وكانت أرماديا كلها تقول أنها متحررة نوعا نتيجة لتبرجها وللملابس الحريرية التى ترتديها •

أما ابنتا مدرس اللغة الرومانية ســـباتارو ، فلم تكونا جميلتين ، وان كانتا غاية فى اللطف والرقة • كانت ايلينا ، وهى كبرى الاثنتين ، صغيرة الحجم كطفل صغير ، ذات شعر أشقر خفيف ذى خصلات • وكانت مكتئبة تعسة على الدوام لأنها كانت ـ كما تدعو نفسها ـ قصيرة مشوهة • أما الكساندرينا ، شقيقتها الصغرى ، فكانت فتاة طويلة القامة نوعا ، ذات شفتين مكتنزتين وأنف كبير ، تأتى بحركات كحركات الصبيان ، وتلتصق بها شهرة الانسانية النهمة •

وعنـــدما عادت جيجى بالصينية المحملة ، قفزت الكســـاندرينا كالنمرة وابتلعت كعكة قائلة بينما امتلأ فمها بالطعام :

ـ اننى أكاد أموت جوعا •

فصاحت بها ايلينا بلهجة مؤنبة : «درينا ، ألا تخجلين من نفسك؟» فقد كانت ايلينا تحب أن تعتبر أكثر الفتيات جدية •

وتدخلت لورا قائلة :

ـ دعيها ياليني ، اذا سمحت ! خذى واحدة أخرى يا ألكساندرينا• يسعدنى أنك تحبين هذا الكعك ! لقد صنعته خصيصا من أجلكن أيتهـا الفتيات !

ولم تلبث الفناجين أن وصلت الى أيديهن ، ورحن يرتشفن القهوة البيضاء ، ويلتهمن الكعك الشـــهى الذى قدمته لورا . ولم يتوقفن عن الثرثرة لحظة واحدة . كانت كل منهن تنافس الأخرى فى رواية حكايات مسلية لتضحك الأخريات . وكانت سيلفيا فارجا هى الوحيدة التى ظلت صامتة ، كأن كلماتها أثمن من أن تبعثر سدى . كانت هذه هى طريقتها المألوفة ، فقد كانت متعالية مزهوة بنفسها ، اذ كان الجميع يعلمون ان لها بائنة كبيرة ...

وجرى الحديث من موضوع الى آخر بسرعة مربكة . فلم تمض بضع دقائق حتى كن قد استعرضن كل حدث هام وقع فى أرماديا منذ التقين آخر مرة . وانتقدن الشـــبان والفتيات اللاتى كن خارج دائرتهن ، وخصصن بالذكر لوكريتسيا دراجو ، فقطعن بأنها لعوب أكثر مما ينبغى وقلن أنها قد فقدت بعضا من شبابها مؤخرا ، وأنهـــا قد كبرت وذبلت بعض الشىء . وأثار عمرها وحده مناقشة طويلة حامية ؛ اذ كانت الفيرا ترى أنها لابد أن تكون قد تجاوزت الثلاثين ، بينما رأت سيلفيا فارجا ــ التى كانت علاقتها بلوكريتســـيا أقل توترا ــ أنهـــا لم تتعد الثانية والعشرين . وقد تعمدت لورا أن تطيل هذه المناقشة حول لوكريتســيا ارضاء لصديقتها الفيرا ...

كانت لورا قلقة طوال الوقت ، اذ أن أوريل لم يصل . ماذا يمكن أن يكون قد جرى له ؟ هل يمكن أن يكون غاضـــبا لأى سبب ؟ وظلت تساؤلات من كل نوع تعذبها . وأخذت تلوم نفسها على ما يمكن أن يكون قد ضايقه أو أحزنه من هفوات أو ايماءات وهمية ، ثم تعود فتنحى عليــه باللوم فى اللحظة التالية لأنه لم يبر بوعده . وأرسلت جيجى الى الحديقة مرات لترى ما اذا كان قد جاء ــ أرسلتها خلسة بالطبع حتى لا يلحظ الضيوف شيئا . وتملكتها رعدة عندما عادت شقيقتها تومىء برأسها فى حذر بأنه لم يأت . وشعرت الفتيات فى النهاية بما تعانيه لورا من قلق، واستغلت الفيرا ما بينهما من ود فسألتها فيما بينهما :

ــ هل دعوت أوريل ؟

فأجابت لورا هامسة والدموع تترقرق فى عينيها :

ــ لقـد دعوته بالطبـــع ... وأتوقع أن يحضر . اننى لا أدرى ما يمكن أن يكون قد حدث .

فردت عليها الفيرا بنظرة تفيض رقة وحنــانا . وأخذت لورا بعد

ذلك بقليل تخرج الى الشرفة بقلب يكاد يكف عن الخفقان ، لـكى تمعن النظر فى طريق جيد وفيتسا الذى سيحضر منه أوريل • أما والدتها التى كان مزاجها يزداد سوءا كل لحظة ، فقد ظلت تلاحقها بالسؤال :

ــ ألن تذهب هاته الفتيات الخليعات الى بيوتهن أبدا ؟

وأخذت الفتيات فى النهاية يتحدثن عن الادب ، الأمر الذى كان يعنى أنهن قد فرغن من كل موضوعات الحديث الرئيسـية • وتطوعت جيجى ، التى كانت تحفظ عن ظهر قلب كل أشعار امنيسكو وكوشبك ، أن تتلو على كل واحدة من الفتيات المقطوعة الشـعرية التى تقدر أنها تتجاوب مع شخصية كل منهن •

تسللت لورا خارجة الى الشرفة مرة أخرى ، بينمـا كانت جيجى ما تزال تثير بأدائها ضحكات صاخبة • وشعرت لورا بالدموع تترقرق فى مآقيها فاستجمعت كل ما لديها من ارادة لكى تحتفظ بالسيطرة على نفسها • واستندت بذراعها على أحد أعمدة الشرفة ، وأراحت رأسها على ذراعها ، وقد غلبتها أفكارها السوداوية • واذ جلست مسـتغرقة فى احلامها ، سمعت فجأة صوتا خجولا ، مترنمـا فى وهن ، يخز قلبها • تطلعت بعينيها الى الحديقة وتملكتها رعشة من فرط ما ألم بها من عواطف • كان أوريل جالسا الى جوار هرديليا على مقعد تحت الأشجار • وفى لمح البصر كانت الفتاة بالقرب منهما •

وصاحت وقد مدت يدها بلهجة دلال وتأنيب :

ــ اذن فقد كنت هنا ونحن لا ندرى شيئا عن ذلك يا سيد أونجريانو لقد كانت الفتيات جميعا فى انتظارك • ان هذا ليس تصرفا لطيفا من جانبك على الاطلاق ، اننى جد غاضبة منك •

ارتبك أوريل ، وهب واقفا على قدميه بحيـاء ، واحمر وجهـه وتلعثم قائلا :

ــ لقد توقفت لحظة لأتحدث الى السيد هرديليا •••

وأجفلت لورا • هل قال له والدها شيئا عن بنيتا ؟ وألقت بنظرة مستفسرة الى هرديليا الذى كان يبتسم بخجل ، ثم الى أوريل الذى كان يزداد ارتباكا فينقل ثقله من ساق الى أخرى ، وقد ارتسمت على وجهـه ابتسامة غريبة مغتصبة • نظرت الى هرديليا مقطبة لحظة ، فقد أيقنت فى النهاية أنه قد أخبره • وواصلت تفكيرها « لا يهمنى اذا كان قد أخبره !

انني سعيدة أنه قد جاء ! سوف أشرح له كل شيء ! » ثم غلفت أوريل بنظرة محبة ، شملت كيانه كله ، وأشارت اليه قائلة :

ـ هيا ، لقد تأخرت بما فيه الكفاية ، والجميع في انتظارك !

كان أوريل أونجريانو ، رسو ابن أحد فلاحي تايكا المزارعين الأغنياء . شابا في نحو الثالثة والعشرين • كان وجهه ناتيء العظام ، وكان خشن الشعر أسوده ، ذو يدين كبيرتين وراحتين مبللتين على الدوام، وعلى الرغم من أنه كان يحاول دائما أن يبدو مهذبا ، الا أن حركاته كانت ثقيلة كأنما يخشى دائما أن يقع في خطأ ما ، وعلى الرغم من أن ملابسه كانت جيدة التفصيل ومن أنواع ممتازة ، فقد كانت تبدو كأنه أخذها من شخص آخر • وكان يقضي أجازاته في أرماديا ، حيث كانت الأمهات الطموحات يفعلن كل ما في وسعهن ليحجزنه لبناتهن عند ما يصبح طبيبا كامل الأهلية •

ورحب الجمع كله به بهرج عظيم ، وأسرعت جيجي لتحضر له القهوة البيضاء التي كانت قد احتجزتها من أجله ، ووضعت عليها كمية مضاعفة من القشدة المخفوقة ، حيث كانت لورا قد لاحظت أنه يفضلها •

وقد جاء الطالب معه بأنباء عظيمة الأهمية في الحقيقة • فقد تأجل حفل أكتوبر الراقص الى منتصف نوفمبر ، حيث كان الموسيقيون مشغولين في حفلات أخرى حتى ذلك الوقت •

ـ لقد أرسلت الدعوات بالبريد • وظللت طوال يومي أكتب العناوين ، مما أخرني عن الحضور •• وأضاف مخاطبا لورا :

ـ وقد فكرت لحظة في أن أحضر دعوتك بنفسي ، ولكنني رأيت أن من الأنسب أن تتلقيها بالبريد •• ان هذا يعطيها طابعا رسميا أكثر ••

ـ كان من الأفضل أن تحضرها معك ، فنعرف على الأقل برنامج الحفل ! •

وراح أوريل ،الذي كان عضوا في «اللجنة» يسرد لهن نقاط البرنامج، الذي رأت الفتيات أنه رائع •. وأخذ طالب الطب يدلل على سمو خلقه بأن يستغل هذه الفرصة لدعوة كل واحدة من الفتيات أن تحجز له رقصة على الأقل • وأثار اقتراحه هرجا • وقالت الفيرا :

ـ انني اقترح أن تكون رقصة الفالس الأولى للورا • اتوافقين ياعزيزتي لورا ؟

وتضرج وجه لورا فرحا قائلة :

ـ اذا كانت هذه هى ارادتكم •

ـ والرقصه الرباعية الثانية أيضا ••

كانت الرقصة الرباعية الثانية هذه هى رقصة العشاق ، ولذلك لم تكد لورا تسمع بذلك حتى غمرها الفرح وأجابت بايماءة مهذبة على انحناءة الطالب العميقة • وراحت الفيرا توزع بالعدل رقصة لكل من الفتيات ، اللاتى احتفظن لها بالرقصة الرباعية الأولى تعبيرا عن امتنانهن بشرط أن تكون لورا ضمن الرباعى فى هذه الرقصة •

وقطعت ايلينا حبل الخطط والتعليقات التى لا تنتهى حول ماسيرتدين، وحول الرقصات والراقصين ، قائلة :

ـ لقد حان وقت الانصراف ، فان الوقت قد تأخر بنا !

ونهض الجميع على الفور •• ورجتهم لورا ، فى غير الحاح ، ألا يتعجلوا الانصراف • كانت كل آمالها تنصب على الطريق القديم ، حيث كانت توقن أنها ستستطيع أن تنفرد بأوريل •

وصاح هورديليا مناديا لورا وجيجى ، اللتين كانتا قد شرعتا تصحبان اصدقاءهما •

ـ لا تذهبا بعيدا ، فسيحل الظلام بعد قليل !

وساروا على الطريق جيدوفيتسا القديم ، وهو الطريق المليء بالمنعطفات والمنحنيات الأثيره لدى المحبين الذين يرغبون فى الوحده • وسارت لورا فى المؤخره مع أوريل ، وحدست الأخريات رغبتها فى الانفراد به ، فأسرعن يسبقنهما على الطريق •

راحا يمشيان معا بخطوات وئيدة ،ويتحدثان فى هذا أو ذاك من الأمور التافهة التى تتخللها من وقت لآخر كلمة تقال على استحياء فتفصح عن مشاعرهما • كان الطالب ينحى باللوم على نفسه لأنه على الرغم من مداومته على مغازلتها ما يقرب من عام كامل ، فانه لم يحاول أن يفوز منها بقبلة واحدة • كان خجله هذا يحط من قدره فى عين نفسه ، فالشخص التافه وحده هو الذى يمكن أن يفتقر الى كبرياء الرجولة على هذا النحو • أما لورا ، فقد كانت من ناحيتها فى حاجة الى دليل على حبه ، يملأ قلبها ، ويلقى الضوء على آمالها المستقبلة ، خصوصا بعد خطاب بنتيا الأخير ••

ورغم هذا لم يكن لدى أى منهما الجرأة على أن يفتح قلبـــه للآخر • كان أوريل يشرح لها الفرق بين القمح الخريفى والقمح الربيعى ، وكانت تستمع اليه وقد أشرق وجهها كله سعادة •

كانت الفتيات الأخريات تسبقنها بحوالى مائة خطوة ، وقد ضـجت المنطقة كلها بأصداء ما يحدثنه من صخب • ثم انعطف الطريق فجأة حتى حجبهما عن بقية الفتيات • واستجمع أوريل شجاعته وراح يفرك يديه مفكرا : « هذه هى اللحظة المناسبة • » وهمست لورا متوقفة وهى لاتكاد تدرى :

ـ ها نحن وحدنا •• وحدنا تماما ! أنظر الى هذا الغروب الرائع ! أنظر كيف يلون السحب ـ كأنه حمام من الدم !

فقال الفتى متلعثما وهو يزداد منها اقترابا :

ـ نعم •• انه رائع •• أليس كذلك ؟

ونظرا لحظة الى الشمس الحمراء ، التى لم يعد يبدو منها الا ما يشبه حاجبا مقطبا • وتعلقت عيناهما بثقة عميقة بهذا الخيط من الضوء كأن سعادتهما كلها ترتبط به • وغلبتها مشاعرها فأسندت رأسها الى كتفه ، وانفرجت شفتاها فى ترقب أليم ، وراح صدرها يعلو ويهبط انفعالا ، وتملك أوريل انفعال مفاجىء ، فمس وجنتيها بشفتيه فى خفة وسرعة ، كأن به خوفا • وتباعدا على الفور كأنما تملكهما الرعب لمجرد تماسهما • ووقفا مرتبكين لحظة ثم شرعا فى المسير ، وهما أكثر تعاسة وأكثر حيرة مما كانا قبلا •

وعند منعطف الطريق قابلا تيتو وقد أحاطت به كل الفتيات • كان تيتو يردد بلهجة انزعاج عظيم :

ـ دعونى وحدى ! أرجوكم دعونى وحـدى ! ان على أن أعمل •• وليس لدى وقت للعبث •

سارت شلة الفتيات ، تاركة تيتو جالســا على صخرة على حافة الخضرة ، وقد رفع عينيه تارة نحو السماء • وتارة أخرى امامه الى غابة دومنياسكا ، وظلت الفتيات تنظرن الى الخلف لترين كيف يؤلف تيتـو أشعاره •

وعندما رآه أوريل تسارعت خطواته ، كأنمـــا أصبح تخلفهما فى

المؤخرة يزعجه ، وانتاب لورا نفس الشعور الخفى بالخجل ، ولكنها أيضا كانت تخشى أن يصلا الى جيدوفيتسا فيتحتم أن يفترقا ، وأن تعود وفى قلبها نفس الشك المعذب • لقد أقامت قبلته بينهما جدارا فاصلا ، بدلا من أن تمنحهما شجاعة وقوة •

وقالت لورا فجأة بينما كانا يقتربان من جيدوفيتسا :

ـ هل عرفت أن بنتيا قد طلب يدى ؟

فأجاب الطالب بصوت خفيض :

ـ لقد أخبرنى السيد هرديليا بذلك •

فصاحت لورا ، وقد راعها شيء يمزق أوتار قلبها بلا رحمة :

ـ أوه ! اذن فقد كنت تعلم بهـــذا طوال الوقت ولم تقل لى كلمة واحدة •

وواصل أوريل كلامه بصوت أكثر انخفاضا وأكثر تلعثما :

ـ ان بنتيا شخص لطيف جدا • شخص لطيف جدا فى الحقيقة ••

كان يود أن يضيف شيئا ، لا أحد يدرى ما هو ، ولـــكنه ارتبك عندما التقت عيناه بعينى لورا فغمغم مكررا قوله : « لطيف جدا ••• جدا ••• » كانت قد سمعت قوله بوضوح ، وأدركت موافقته ، ومع ذلك فقد رفض عقلها أن يصدق • وحملقت فيه باحثة فى عينيه ، أو فى ملامحه عما كانت تتوقع سماعه • ولاح لها شبح خيبة الأمل من كل جانب على نحو لا تخطئه العين • وارتجفت روحها كلها فجأة كأنها قد اقتلعت من جذورها •• وواصلت سيرها ، صامتة ، وقد أثقلتها أفكار أليمة ، ولم تعد قدماها تشعران بالأرض التى تسير عليها • ثم توقفت فجأة ، وسألت لآخر مرة ، بصوت مرتعش :

ـ اذن فأنت توافق •• ؟

فنظر الشاب بعينيه الى الأرض ، وتملكه شعور بالخجل ، وأجاب بلهجة مذنب يعترف بجرمه : « نعم ، أنا أوافق ••• »

ـ ٥ ـ

كان تيتو قد هرب من البيت حتى لا يقابل « الأوزات » اللاتى كن يقتلنه مللا ، فقد كن جميعا مفتونات به بشكل أو آخر ، وكن يعذبنه ليكتب

لهن أشعارا • لقد كان يكذب عندما أخبر شقيقتيه بأنه قد اكتشف فكرة قصيدة • ولكنه لم يكن قد فكر الا فى الذهاب الى أرماديا، ليرى لوكريتسيا ويرسل زفراته وهو جالس الى جوارها • كان كثيرا ما يقول لنفسه أن هذا الحب يتسامى به ، ويحفزه الى محاولات جديدة • وما أن خطرت لوكريتسيا بفكره ، حتى جاءه الالهام بالفعل فتوقف ليشكله فى صـــــورة شعرية يحملها كهدية لا تقدر بثمن الى سيدة قلبه • وظل يعمل فكره دون جدوى فى قصيدته ما يقرب من ساعتين ، فقد ظلت الفـــكرة تعتمل فى روحه وتراوغه ، ولكنها رفضت ان تتشكل على الورق • وتصور عشرات المرات أنه قد أمسك بها ولكنها ما أن كانت تهبط الى سن قلمه حتى تختفى • ودمر وصول « الأوزات » كل ما كان قد تبلور فى ذهنه ، حتى انه لم يعد أمامه الا أن يكف عن المحاولة • وأخذ يهيم على وجهـــه مكتئبا فى اتجاه جيدوفيتسا وقد استقرت نيته على أن يصطحب شقيقتيه أثناء عودتهما الى البيت ، اذا لم يصطحبهما أوريل كما جرت عادته •

وفجأة لاحظ شيئا أبيض مستلقيا بين بعض شجيرات البندق بالقرب من الطريق ، فاختفى غضبه كأنما أزالته رقية ، وفكر ، لابد أنها السيدة لانج ، لأنها هى الشخص الوحيد الذى يجد متعة فى أن يغادر القرية عندما يكون الطقس لطيفا ، حيث تستلقى على معطف قديم من ثياب زوجها ، وتظل لساعات لا حصر لها تقرأ روايات هنغارية مثيرة •

قال تيتو لنفسه بلهجة عاطفية : « آه ، لو أنها هى ، فى هذا الغسق الرقيق ، وفى هذه العزلة المسكرة !! » والتهب خياله وتسارعت خطواته•

لم يكن قد منعه من أن يعلن لها حبه صراحة الا أنه لم تتوفر لديه الفرصة المناسبة ، الأمر الذى أثار سخطه دائما • ولم يتح له خلال الشهور السبعة الأخيرة منذ تعارفا أن يتحدث اليها على انفراد ، وأن يكونا وحدهما تماما ، أكثر من مرتين ، وفى كلتا المرتين لم يكونا يتحادثان الا بعجلة ، دون أن يتاح له الوقت ليفصح عن مكنونات قلبه • فهو لم يجدها وحدها فى بيتها مرة ، ولم يتح له مطلقا أن يرافقها وحدها ولو حتى الى أرماديا• وعلى الرغم من أنها قد قالت أنها كثيرا ما تجوب الحقول وبرفقتها كتاب ، وهذا صحيح اذ أن شقيقتاه قد قابلتاها أكثر من مرة ، الا أنه لم يصادفها مرة واحدة • وقد كدره سوء حظه المتكرر هذا ، وزاده كدرا أن ستبوسيل كاتب القرية قد أخبره أن السيدة لانج تقول لكل من تصادفه أن « تيتــو شاب جد لطيف ومهذب » •

أسرع تيتو الى الأمام ، وأشرق وجهه سعادة ، اذ تحقق عندما اقترب منها أنها حقا السيدة لانج ٠

وقال لها برقة وهو يطبع قبلة طويلة على يدها :

ـ لقد كنت أبحث عنك ٠

فأجابته بخفر :

ـ ولقد كنت انتظرك ٠

كانت روزا لانج سيدة جذابة ، لها وجه طفولى ، وأنف صغير شامخ وعينان فاترتان حالمتان ، وجسد ممتلىء لين الحركة ، وقوام فتاة فى العشرين ٠ وكانت تعتقد أنها أتعس امرأة فى العالم لاضطرارها أن تعيش مع لانج ، الذى كانت تحتقره لأنه يهودى ولأنه سكير ٠

وقد استسلمت لمصيرها ، كبطلات الروايات التى كانت تقرؤها بشغف عظيم ، وتركت حياتها تمضى بلا هدف ، ووجدت عزاءها الوحيد فى الاعتقاد بأن حياتها قد سارت على نحو خاطىء منذ البداية ، عندما تزوجت رجلا غير جدير بها ٠ وكانت تتحرق شوقا الى حب عظيم تثأر به من كل ما كان عليها أن تحتمله من فشل ٠ واذ كانت لم تصادف أى عاطفة عظيمة ، فقد اكتفت بأن تسمح لنفسها أن تمارس ألوانا مختلفة من الحب أكثر تواضعا ، وكثيرا ما كانت تفكر فى تيتو ٠ كانت تجد نزقه شاعريا ، وكان هذا النزق يعيدها الى الأيام الخوالى قبل أن تقابل لانج ٠ كانت تحب أن تراه يلتهمها بعينيه ، وأن تحس برعشة شفتيه عندما يقبل يدها ٠

ظل كل منهما يحدق برهة الى الآخر ، وكانت هى راقدة على جانبها ، متكئة على أحد مرفقيها ، وكان كتابها مفتوحا أمامها ، أما هو فكان واقفا ، وقد أمسك بقبعته فى يده ٠ كان قلقا ، وقد التمعت عواطفه العطشى فى عينيه ٠ كان ضوء النهار المتضائل يداعب وجنتى المرأة ، ويصبغهما بلون قرمزى خفيف ٠

وأشارت روزا الى ركن من المعطف الذى كانت مستلقية عليه قائلة :

ـ هلا جلست هنا ، قريبا منى ؟

فجلس تيتو بعجلة ، وقد غلبه الانفعال ، وغمغم :

ـ انك لا تستطيعين أن تتصورى كم تجعليننى سعيدا !

سألته مبتسمة ، وكلماتها تنســـاب من أطراف شفتيهـا المتلئتين الورديتين ، اللتان تنفرجان عن أسنانها البيضاء الصغيرة المتالقة :

ـ أوه ، أوه ، أتنوى إن تزلزل كياني باعتراف ما ؟ ٠

تعلقت عينا تيتو بشفتيها الجذابتين ، وقال بهمس واهن :

ـ أحبك ٠٠ أحبك ٠

ثم أمسك برأسها بين كفيه بحركة ظافرة مفاجئة ، وقبل شفتيهـا قبلة وحشية طويلة ، كأنه أراد أن يستنزف روحها كلها فى جرعة واحدة٠ أما المرأة فقد أغلقت عينيها ، ورفعت فمها الى فمه ، وقد امتد عنقها الأبيض العارى قليلا الى الأمام ٠ وظلا على هذا الوضع بضع لحظات ، ثم لف تيتو ذراعيه حول خصرها وضمها بشدة الى صدره ٠ ومع ذلك استعادت روزا حواسها بسرعة ، وحررت نفسها برفق من عناقه الحار ، ورتبت شعرها الذى كان قد سقط على كتفيها ، وقالت بلهجة تأنيب رقيق :

ـ انك جسور جدا ، أيها الشاب ! لم أكن أدرى أنك على هذا القدر من الجسارة !

وشعر تيتو بموجة من التهيب تغلف قلبه ، ولكن عواطفه أطلقت لسانه بالحديث :

ـ اننى أحبك بجنون ! فمنـــذ رأيتك لأول مرة حملتك فى نفسى ككنز لا يقدر بثمن ٠ ولكن لم تكن هناك فرصة على الاطلاق لأخبرك ٠ كما أنك لم تريدى مطلقا أن ترى كم أحبك ٠٠

استمعت المرأة اليه لحظة باغتباط ٠ وقد هز اعترافه المسرحى الطائش مشاعرها كأنها قد عادت فتاة ٠ كان باستطاعتها أن تســتمع اليه طوال اليوم ، ولكنها كانت تخشى ألا تستطيع أن تكبح جماحه ٠ وهكذا وقفت، وتحدثت بنفس اللهجة ، التى تفيض بدفء العاطفة ٠

ـ لقد رأيتك وفهمت منذ وقت طويل ٠ ولكن ينبغى أن تكف الآن، وتكون ولدا طيبا ٠٠ كن طيبا ، أتفهمنى ؟ كن طيبا والا فلن أحبك على الاطلاق ٠

وهزت اصبعها منذرة بما يشبه الحزم ، ولكنه أمسك بكلتا يديهـا وغطاهما بقبلاته ٠

وقالت روزا تفاديا لاسترساله :

ـ ينبغى أن أعود الى منزلى الآن ، ان الوقت متأخر ٠

كان الغسق قد حل ٠ وكان الظلام يهبط بسرعة حتى ليستطيع المرء اذا دقق النظر أن يراه يزداد كثافة لحظة بعد أخرى ٠٠ رفع تيتو المعطف عن الأرض ونفضه ، واصطحب السيدة لانج حتى أشرفا على أطراف القرية ٠ وعند فراقهما ، ضغط ذراعها وسألها بهدوء :

ـ ماذا تقولين لو أننى هبطت ذات ليلة لطيفة لزيارتك فى منزلك ؟

فأجابت المرأة ضاحكة :

ـ سيسرنى هذا ٠٠ وسوف أقدم لك قدحا من الشاى ممزوجا بكثير من شراب الروم ، بشرط ألا يكون لزوجى اعتراض على ذلك ٠

فاستطرد تيتو ناظرا بشغف عميق فى عينيها :

ـ ولكن اذا تصادف أن لانج لم يكن بالمنزل ؟

فغمغمت روزا بابتسامة خفر فاتنة :

ـ آه ٠٠ عندئذ سيتعين عليك أن تكون مؤدبا ، والا فسوف أكون غاضبة جدا !

ـ ٦ ـ

عاد تيتو الى بيته راضيا عما فعل فى يومه ، واستخدم فى عودته الطريق الزراعى ، وأسرع خطاه كى يلحق بشقيقتيه ٠ فضلا عن أنه كان جائعا كذئب ٠ وعند سيشمياوا مورتولى ـ بئر الميت ـ قابل ايون الذى كان يسير بخطوات مضطربة عائدا وحده من جيدوفيتسا ، وقد استغرقته أفكاره ٠

ـ ما الخبر يا ايون ، لماذا تجر قدميـــــك هكذا ؟ هل أفرطت فى الشراب ؟ هل حدث شىء على غير ما يرام ؟

فأجاب ايون رافعا قبعته :

ـ « حسن ، يا سيدى تيتو ، اننى أحاول أن أتبـين طريقى خلال متاعبى بقدر ما أستطيع ٠ » وحاول أن يبتسم ، لكنه أخفق ٠

كانت السماء فى صفاء البللور . وكانت بعض النجوم الكبيرة تتألق متوهجة ، محاولة أن تقاوم زحف الظلام الذى يحاول أن يخمد ضياءها دون جدوى ، اذ كانت نجوم أخرى تضىء واحدا تلو الآخر ، كأنها جذوات من النار بعثرتها ريح عاصفة . وانبعث من خلفهما، حيث توجد غابة دمنياسكا صوت كأنه هدير غضب مكبوت ، بينما سرى الطريق الزراعى رماديا ممتدا أمامهما بين حفر مظلمة ، حتى اختفى خلف منعطفات التلال ..

وقال تيتو فجأة :

ـ أرى أنك قد سمعت بهذا الأمر أنت أيضـــا . لقد كنت أتحين فرصة لأخبرك . لقد سمعت به أمس من صديق لى يعمل كاتبا بمحكمة أرماديا .. نعم يا ايون ، انه صحيح ! لقد رفع سيميون لونجو دعوى ضدك مدعيا أنك قد تعديت عليه وأنك قد اقتطعت لا أدرى كم ياردة مربعـــة من حقل الذرة الذى يملكه ..

فقاطعه الفتى قائلا بغير اكتراث :

ـ ليأخذه الشيطان هو وأسرته كلها ! وبصق من بين أسنانه بازدراء فقال تيتو ، وقد أثاره بعض الشىء مالمسه من عدم اهتمام الآخر :

ـ ان ارسالك اياه الى الشيطان لن ينفعك كثيرا يا ايون ، فليس هذا شيئا يمكن أن يقابل بمجرد السخرية ! انه أمر خطير قد ينتهى بك الى السجن ! ربما كان باستطاعتك أن تصل الى اتفاق معه . ولكن هناك القسيس فضلا عن ذلك ، وهو أيضا يسعى الى ايذائك . انه ثائر ضدك ! وهو يقول أنه لن يصفح عنك حتى يراك فى السجن . وهو الذى كتب لسيميون الشكوى وتطوع ليشهد ضدك . لست أدرى لماذا يتحامل عليك.

بصق ايون مرة أخرى ، وجذب قبعته على عينيه وسار دون أن ينطق بكلمة . كان قد سمع هذه الاشاعات أيضا ، ولكنها دخلت من احدى أذنيه لتخرج من الأخرى . كانت هذه تفاهات اذا ما قورنت بما ينهش قلبه . لم يكن نزاعه مع سيميون قد أثار ضجة كبيرة فى القرية ، لأن سيميون كان شخصا كريها ، وكان على استعداد للشجار مع أى انسان . وفضلا عن ذلك فقد كانت مشاجرات الشبان من أجل الأرض شيئا مألوفا حتى لقد كانت أكثر شيوعا من مشاجراتهم فى الحانة . ولم يكثر اللغط فى الحانة حول هذا الموضوع الا بسبب تدخل القسيس .. كانت الثقة التى بعثتها دموع أنا فى نفس ايون قد أثلجت صدره حتى بدا كأنه يسير دائما فوق السحاب ومع ذلك فقد كان يشعر بالحاجة الى قوة دافعة ما تجلو ذهنه

وترشده في خطواته التالية • وكان على استعداد لأن ينتظر هذه القوة في صبر ، كما كان واثقا من أنها سوف تأتيه من مكان ما • واذ كان كلما قدح زناد فكره ليجد مخرجا يصطدم في النهاية بأبواب موصدة •• فقد حاول ألا يفكر فيما لم يكن هناك بد من حدوثه • ولكن الشكوك كانت قد تسللت الى ذهنه وأوشكت أن تصيبه بالجنون •

همهم كأنما وخذته كلمات تيتو في الصميم :

ـ دعهم يفعلون ما يحلو لهم يا سيد تيتو • ان أحدا لم يعد يعنيني الآن •

اعتقد تيتو أن ايون انما يحجم عن أن يقول أي شيء في حق الأب بلكيوج فألح بحرارة أكثر :

ـ ولكن لماذا تتركهم يتصرفون على نحو ما يريدون ؟ أم تراك تخشى القس ؟

ـ انني لا أخشى أحدا ، بل انني لا أخشى الله ذاته ، طالما أن ضميري لا يثقله شيء يا سيد تيتو !

ـ وأنت محق في ذلك ، فليس على وجه الأرض انسان أحد طبعا من بلكيوج ! انه رجل غليظ القلب وهو كالشيطان مكرا • لقد بدأت أشمئز منه منذ رأيته ينتقد شباب القرية ويتدخل في مشاجراتهم •

كان تيتو في الحقيقة ، الى ما قبل ذلك بوقت قليل ، الشخص الوحيد في أسرة هرديليا الذي كان يدافع عن الأب بلكيوج • وقد استمرت صداقتهما ولم يصبها الضرر حتى عندما كانت علاقة والديه بالقسيس متوترة بعض الشيء • وكان القس يأخذ تيتو معه عندما يذهب الى أرماديا أو الى بيستريتسا حيث كانا يتعاطيان الشراب معا ويسبان الهنغاريين ـ فقد كان بلكيوج وطنيا مخلصا ، ولكنه كان يخفي هذه الحقيقة خشية أن يفقد الاعانة المالية التي تمنحها له الحكومة ، والتي لا يستطيع بدونها أن يحيا حياة كريمة • وقد دمر عداؤه الحاد لايون مشاعر تيتو نحوه • فهو من ناحية لم يكن يجد القس منصفا ، بينما كان ينفر دائما من الظلم الا اذا كان هذا الظلم من صنع يديه • ومن ناحية أخرى ، كان يكن لايون من الود مثلما يكن للأب بلكيوج ، وكان معجبا أيما اعجاب بكبرياء الفتى ، وذكائه ، ومثابرته على انجاز ما يريد أن يحققه ، واصراره وعناده ، خصوصا وأنه هو نفسه كان يفتقر الى هذه الصفات وكان يسعده كثيرا أن

تتوافر فى شخصه • بل انه كان قد استقر رأيه على أن يتحدث الى القس بشأن ايون ويخبره الى أى حد يراه غير منصف ، ولكنه لم تتح له أبدا اللحظة المناسبة أو ــ قبل كل شىء ــ الجسارة اللازمة ليفعل هذا • وقد وجد الآن فى صحبة الفتى فرصته للتنفيس عن كل ما كان يود أن يعبر عنه من سخط للقس • ومع ذلك فقد أدهشه وحيره أن يرى موقف ايون، فقد أصغى الفتى الى ما كان تيتو يقوله كأنه كان يتحدث عن شخص آخر• وأخيرا أوقف تيتو موجة حنقه فجأة وسأله بفضول :

ــ يبدو أن لديك متاعب أخرى تقلقك •

توقف ايون عن السير ، وأسند ذراعيه الى صدره ونظر الى تيتو نظرة طويلة فاحصة • واستطاع تيتو أن يرى عينيه تتوهجان فى الظلام كعيون القطط • وأجاب ايون بتثاقل :

ــ متاعب أخرى يا سيد تيتو ؟ نعم ، وأنت على حق •

فقال تيتو بنكد :

ــ أتكون لديك متاعب ولا تخبرنى بها ؟ اننى غاضب منك يا ايون•• اننى غاضب حقا !

أصلح الفتى الفلاح من وضع معطفه فوق كتفيه كأنما كان عاجزا عن أن يقرر ما اذا كان سيتكلم أم لا • أما تيتو من ناحية أخرى ، فقد كان يستحثه بصبر نافذ ، يحفزه الى ذلك فكرة أنه يوشك أن يكتشف سرا عظيما :

ــ هيا ، خبرنى ، ماذا يجول بذهنك ؟

كانا يقفان فى وسط الطريق الزراعى ، تحت « وهاد الشيطان » وكانت هناك عربة تركض بسرعة نحوهما آتيــــة من بريباس ، فأفسحا الطريق ليدعا العربة تمر ، ورفع ايون قبعته محييا راكبى العربة الغرباء• وعندما تلاشت قعقعة العجلات فى النهاية قال ايون بصوت حازم :

ــ يجب أن أتزوج ابنة فاسيلى باكيو يا سيد تيتو ! •

فضحك تيتو ضحكة كئيبة قائلا :

ــ أهذا هو ما يقلقك يا ايون ؟ •• لا تكن أبله !

ــ أقسم بروحى يا سيد تيتو أن هذا الأمر يسبب لى قلقا فظيعا !

ان فاسيلى العجوز لا يريد أن يعطيها لى ، وهو اذا لم يعطها لى بمحض ارادته ، فسوف ألقى به الى جهنم !

ـ اننى فى الحقيقة لا أستطيع أن أفهم ما الذى تراه فى هذه الفتاة ؟ انها شيء ضئيل نحيل عاطل من الجمال • ولو كنت مكانك لما أخذتها حتى لو أعطيت وزنها ذهبا !

ـ نعم ، نعم ، اننى أعرف هذا ، ولكننى بدونها سأظل معدما الى يوم الحشر !

صمت تيتو برهة حاول فيها أن يزن جدية الموقف ، ثم قال :

ـ آه ! فى هذه الحالة أنت على حق ! انه موقف صعب •

انبسطت أسارير ايون اذ استطاع السيد تيتو أن يفهم وجهة نظره، وقال :

ـ أليس كذلك ؟ يسعدنى أن تخبرنى بما ينبغى على أن أفعل ، فأنت رجل من أهل المعرفة !

وفى الحقيقة لم يكن تيتو يستطيع أن يفهم عناد ايون فى رغبته فى الزواج من آنا ، أو عناد فاسيلى باكيو فى رفضه أن يعطيه اياها • كان ينظر اليهما معا باعتبارهما شخصين ريفيين محترمين ، لا فارق بينهما على الاطلاق • لم يكن ايون ثريا ، ولكنه من ناحية أخرى كان يقظا ، وكان مقداما ، وكان هذا فى كثير من الأحوال يضارع الملكية ذاتها • واذ كان دور الناصح يرضى غروره ، فقد بذل جهدا ليفكر فى نصيحة سديدة ترفع من قدره فى نظر الفتى •

فكر تيتو لحظة ، وقال مترددا بعض الشيء كأنه ينتظر أن يرى وقع كلماته على أذنى ايون :

ـ اذا رفض أن يعطيها لك بمحض ارادته ، فعليك أن ترغمه على ذلك !

أجفل الفتى الفلاح • كان بصيصا من الضوء قد التمع فى ذهنه مشيرا بوضوح الى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه • وتنفس بعمق ، كأن حملا ثقيلا على صدره قد انزاح • ورفع عينيه ، فبانت فيهما نظرة منذرة، كأنها نظرة لص ضبط متلبسا • كان يغص بشعور بالرضا حتى أنه لم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة •

وسأله تيتو ، وقد حيره صمته :

ـ أتستطيع ارغامه ؟ ألديك أية وسيلة لذلك ؟

وانفجر ايون بحدة ، بصوت فيه لهجة تهديد واضحة :

ـ نعم أستطيع يا سيد تيتو !

وسارا بعجلة دون أن يتبادلا مزيدا من الحديث حتى بلغا باب منزل المدرس • لم يكن ايون يشعر بحاجته لأن يبدد أنفاسه فى حديث تافه ، فى الوقت الذى اكتشف فيه بوضوح ما عليه أن يفعله • كانت الفكرة الوحيدة التى تنهش قلبه هى المبادرة الى انهاء هذا الأمر ، وتحقيق هدفه• وكان تيتو صامتا ، لم يكن متأكدا ما اذا كانت نصيحته سديدة ، وبخاصة بعد اجابة ايون الحادة التى ما زالت تتردد فى سمعه •

وقال ايون مودعا :

ـ شكرا يا سيد تيتو ، لقد جلوت لى الأمر •

كان المصباح موقدا فى بيت آل هرديليا ، وكان الضوء ينبعث من احدى النوافذ فيغمر الفتى ، الذى اكتسى وجهه بتعبير اصرار ظافر • وشعر تيتو برعشة خوف لدى رؤيته لهذا المنظر • وقال برقة وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة :

ـ كن حذرا ومتعقلا فيما تفعل يا ايون ، واياك أن تتهور !

فأجاب ايون والفرح يشيع فى وجهه حتى ينتهى الى ضحكة بليدة متكلفة :

ـ لا تشغل بالك يا سيد تيتو • فأنا أعرف الآن ما ينبغى أن أفعل !

- ٧ -

دخل تيتو البيت وهو ما زال ذاهلا بعض الشيء لثورة ايون • وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يفهم أى دافع تحرك فجأة على هذا النحو فى نفس ايون ، الا أنه ارتعد اذ تبين أى قوة وحشية أطلقها من عقالها ولكنه لم يلبث ، بعد أن أصبح فى النور وشم رائحة الطعام ، أن نسى ايون وعاودت ذهنه ذكرى روزا لانج واستعاد هدوءه على الفور ، وفرك كفيه • وقال بزهو قصد به أن يعلم الجميع ما يدخره من خطط عظيمة :

ـ ان زوجة لانج شخصية فاتنة ! والتحدث اليها شيء بهيج حقا !

وافقه هرديليا على قوله فى صمت ، اذ كان هو الآخر يرى أن روزا جذابة ، على الرغم من أنه لم يكن يعبر لها عن حبه الا بأن يقص عليهما قصصا لا ذعة بلغة هنغارية بالغة الركاكة ، كانت تثير ضحكها باستمرار. وصاحت السيدة هرديليا بلهجة ساخرة :

ـ انكما تحبان الجرى وراء أى أنثى تصادفكما • اذا كنتما تقولان أن هذه المخلوقة فاتنة ، فلماذا لا تكون الأم هبارد أو أى عجوز هزيلة أخرى فاتنة كذلك ؟ وكيف تقولان عن امرأة أنها فاتنه ، فى حين أنها بكماء حتى أنها لا تستطيع أن تتكلم الرومانية !

كانت السيدة هرديليا تكن ازدراء كبيرا لأى امرأة لم تنجب أطفالا. وقد زادها تحاملا على روزا لانج أن الأخيرة كانت ترغمها اذا ما التقيتا ، على أن تتحدث بالهنغارية ، وتعرب كل مرة عن دهشتها من أن زوجة مدرس من مدرسى الحكومة لا تعرف الهنغارية • ولم تكن السيدة هرديليا تقر بأنها لا تعرف الهنغارية ، حتى لو دفعت حياتها ثمنا ، ولكنها كانت تؤكد بزهو أنها لا تتكلمها أبدا لأنها تكره المجريين ولغتهم كما تكره الشيطان نفسه •.

عادت لورا وجيجى وحدهما الى المنزل ، اذ أن اونجريانو لم يعرض عليهما ، كما جرت عادته ، أن يرافقهما • وبكت لورا بمرارة طول الطريق من جيدوفيتسا الى بريباس دون أن تنبس بكلمة • وحدست جيجى سبب دموع شقيقتها ، فأخذت طوال الطريق تحط من قدر أوريل، وتكتشف فيه من النواقص أكثر مما ذكر العجائز عنه فى أشد حالاتهم سخطا • وخففت شتائمها العاصفة كما خففت متاعب الرحلة بعض ما تعانيه لورا من ألم • وانسحبت لورا الى غرفة الجلوس بمجرد أن وصلت الى المنزل ، حتى لا يلحظ والداها أنها كانت تبكى • كانت دموعها تذرف بحرارة أكثر كلما حاولت جاهدة أن تتحكم فيها • وكانت تشعر كأن بيتا كاملا قد انهار فوقها وأنها لا تستطيع أن تنهض من تحت أنقاضه • وعندما جاءت جيجى تناديها لتناول العشاء ادعت أنها تعانى صداعا • ولو أنها كانت قد اضطرت الى أن تنظر فى عيون الناس ، لماتت خجلا ، وبخاصة لو كانوا قادرين على أن يحدسوا توا سبب ما بها من غم وضيق •

وتذكر هرديليا بعد العشاء خطاب بنتيا مرة أخرى ، ففتح الباب

الذى يقود الى الغرفة التى كانت لورا تمارس فيها حزنها على ما أصابها وسألها وهو واقف بالباب :

ـ حسن · ماذا سنفعل مع ذلك الرجل يا آنسة ؟ ألا ترين ، وأنت المتبحرة فى علم آداب السلوك ، أن الوقت قد حان لكى نعطى الرجل اجابة ما ؟ ·

وأصابها السؤال فى القلب كأنه سكين أغمد فى جرح لم يلتئم ، فانفجرت باكية ، وغمرت وجنتيها الدموع ، بينما همهمت شفتيها باستسلام :

ـ حسن ، اكتب اليه ، ان هذا لا يعنينى على الاطلاق ! ما الذى يمنعك من أن تكتب اليه ؟ ان كل شىء يستوى لدى الآن ··

واندفعت جيجى على الفور لتضيف قائلة :

ـ هل قالت أبدا أنها لا توافق ؟ أتظنها من البلاهة بحيث تتخلى عن عصفور فى يدها من أجل عصفور على الشجرة ؟ أم أنك كنت تتوقع منها ألا تتحدث الى أى انسان آخر لمجرد أن السيد بنتيا قد طلب يدها ؟ هكذا أنتم ، تظلون تبحثون عن شىء تتعاركون من أجله ثم تزعمون أن الآخرين يتعاركون معكم ·

فصاح تيتو ظافرا :

ـ مرحى ، مرحى ! اننى سعيد بأنكم قد عدتم أخيرا الى ما كنت أقول ·· لو أنكم استمعتم الى منذ البداية لكانت لورا الآن عروسا ·

كانت لورا تنشج بقلب كسير · وجرت جيجى اليها لتواسيها بعد أن أغلقت الباب خلفها · وظلتا تنتحبان سويا بعض الوقت ، ثم كفت جيجى عن البكاء وقالت بلهجة ملاطفة :

ـ كفاك هذا يا لورا يا حبيبتى ، كفى بكاء من أجل رجل لا يستحق البكاء ! أيستحق عابث مثله أن تبكى من أجله مخلوقة رقيقة مهذبة مثلك ؟ لقد كان لدى دائما شعور داخلى قاطع بأنه شخص عابث · ولعلك تذكرين أننى قلت لك هذا فى الصيف الماضى فى الحفل الذى أقامته الفيرا ! وفضلا عن هذا فقد أخبرتنى الكساندرينا اليوم أن ابنة قسيس فاراريا تلك الأوزة البلهاء المدعوة فيكا والتى تعرفينها قد سحرته ، وأن هذا الأونجريانو المغفل يتردد عليها طول الوقت · بل أن القسيس ، هذا

السكير العجوز ، قد جعله يقسم في الكنيسة على الكتاب المقدس أنه سوف يتزوج فيكا عندما يحصل على درجته العلمية ! وهكذا ترين بنفسك يا عزيزتي لورا كم هو خسيس لئيم وكيف انه غير جدير بحبك !

وكان العجوزان سعيدان بأن لورا قد أصبحت ، بحمد الله ، ترى الأمور في النهاية في صورتها الحقيقية . وشرعت السيدة هرديليا لفرط تأثرها ، تغسل الأواني وهي تتمتم بصوت خافت بصلاة خاصة بمثل هذه المناسبات السعيدة كانت قد تعلمتها في شبابها . وأخرج هرديليا رسالة بنتيا الثمانين من جيبه وعاود قراءتها للمرة الألف ، بانتباه بالغ، وهز رأسه مفكرا معلنا بذلك الى زوجته وابنه أن كتابة خطاب صحيح ومباشر وجيد الأسلوب كرد مناسب على رسالة بنتيا ليست أمرا سهلا . وجلس الى مكتبه ، وهو مكتب كان قد صنعه بنفسه قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، وأشعل شمعة ، وأسند خطاب بنتيا الى المحبرة ، وارتدى منظارا لم يكن يرتديه الا في أكثر اللحظات خطورة ، اذ أنه كان يرى بدونه رؤية أفضل ، وزم حاجبيه لحظة ليستجمع أفكاره ، ثم بدأ يكتب على رقعة من الورق ، بطريقة تقليدية عتيقة : « ولدنا العزيز الحبيب جورج ! ينبغي أن تعلم أن السطور التي كتبتها كانت مصدر سعادة عظيمة لنا ، اذ كشفت عن نواياك الطيبة وأفكارك الفاضلة . وفضلا عن ذلك ينبغي أن تعلم أن لورا تتوق الى أن تراك في منزلنا بأسرع ما يمكن .. »

الفصل الرابع

الليـــل

- ١ -

بدأ جورج بولبـــوك يتردد على بيت فاســـيلى باكيو كل ليلة تقريبا ، منذ لاحظ أن ايون يتباعد عن أنا أكثر فأكثر • فقد كان جورج يزداد ميلا الى الفتـــاة • كان الهرج الذى أثارته بسبب ايون قد جعلها تبدو أكثر جمالا أعظم قيمة فى عينيه • وكان يعلم أن أنا لن تلين له بسهولة ، ولكنه كان واثقا من أنه سيستطيع أن يتغلب على مقاومتها فى النهاية •

لقد أصبح الأمر كله متوقفا عليها • أو هذا هو ما كان يعتقده على الأقل • فقد كان جلانيتاشو الشاب مثقلا بمشاغله العديدة بما لا يسمح له بوقت ليفكر فى انا • ما الذى يمكن أن يأمله ايون بعد واقعتـــه مع فاسيلى باكيو ، وبعـــد تأنيبه فى الكنيسة ، وبعد معركته مع سيميون لونجو ؟ لا شيء ــ والدليل على هذا أنه قد كف عن زيارة أنا • كمـــا أنه لم يعد يراقصها فى حفلات الرقص • وشاع فى القرية أنه سوف يتزوج فلوريكا بعد صيام عيد الميلاد •

كان طريق جورج خاليا فيما يتعلق بايون •• بشرط أن تذعن أنا•• ولكنها كانت تتحاشاه ، •كانت عيناها حمراوين دائمـــا لطول بكائها فى

السر • وهذا يعنى أن حبهـا لايون لم يمت فى قلبهـا بعد • كان جورج يطيل التأمل والتفكير فى الامر ، ويديره فى ذهنه على كافة الوجوه ، ثم استشـار والدته ، وهى امرأة نحيله ، ذات أنف حاد وعينين صـغيرتين كحبات السبحة ، غائرتين فى محجريهما ، لم تكن ترى فى أى مشـكلة تواجهها الا أنها من فعل السحر والتعاويذ • وهى التى أشارت على جورج أن يذهب الى العراف فى ماجورا لكى يفسد التعويذه التى كانت أنا واقعة تحت تأثيرها • وذهب جورج الى العراف ، الذى تلا تعـاويذه •• دون جدوى • وعندئذ بدأ جورج يفقد أعصابه • كانت مقاومة الفتاة تنال من كبريائه ، فقد كان يعتبر نفسه أفضل فتيان القرية ، وكان يتكدر غايه الكدر اذا ما أنكر عليه أحدهم هذا الامتياز • وكان هـذا أحد أسباب صداماته التى لا تنتهى مع ايون الذى كان يتفوق عليه فى كل مناسبة ، والذى كان كل فتيان القرية تقريبا ينظرون اليه باعتباره زعيما لهم• كان جورج يشعر فى قرارة نفسه أن جلانيتاشو الشاب يمتلك شيئا يضعه فى مستوى أعلى من الآخرين • ولكنه لم يكن يصرح بهذا لأى انسان، ويغضبه أن يذكر له أى انسان هذه الحقيقة • ولماذا يكون ايون خيرا منه على أية حال ؟ فهو يستطيع أن يقرأ ويكتب تماما كما يستطيع جلانيتاشو ، بل انه كان مشتركا فى صـحيفة فوايا بوبورولوى ، وهو ليس أبلة ، وهو قوى متين البنيان ، وهو مع ذلك ليس مشاغبا عربيدا • حقيقة أنه عندما يتهيج يكون قادرا على أن يقتل انسانا ولكنه فى أحواله العادية ذو مزاج هادىء جدا • كان ايون فى الحقيقة أكثر سـخاء ، وأقوى بدنا ، وأكثر دهاء ، ولكنه هو ــ جورج ــ من ناحية أخرى ، كان أكثر ثبـاتا واتزانا وأكثر ضبطا للنفس ، كما ينبغى أن يكون أى رجل لديه ما يفقده • وكان توما بولبوك أغنى مزارع فى بريباس ، بل انه كان أكثر ثراء من الأب بلكيوج نفسه ، وكان جورج ولده الوحيد ؛ كان دؤوبا مثابرا مدبرا أكثر من أى انسان فى المنطقة ، وقد استطاع باجتهاده أن يوفر من المال مايكفى لشراء آخر قطعة من أرض دوميترو موركاش فى الشتاء •

كان فاسيلى باكيو يسر دائما لرؤياه اذا ما حضر لزيارتهم ، وكان يقـدم له مقعدا ، ثم كأسـا من الشراب الذى « أضافت اليه ابنتى من حلاوتها » كما كان يقول • وكان جورج يبتسم ويلقى بنظرة جانبية الى أنا ، التى كانت دائما تجد ما يشغلهـا بالقرب من الموقد ، والتى كانت لا تكاد تجيبه اذا ما تحدث اليها • وفى البداية كان يظن أن حياءها ناتج عن التهيب الذى تصطنعه عادة الفتيات ازاء الشبان ، وبخاصة فى وجود أهليهن ، ولكنه لم يلبث أن تحقق أن أنا لا تريده وأنها ما زالت تحن الى

ايون ، وعلى ذلك غادر بيتها ذات مرة ، وهو يكيل لها اللعنات فيما بينه وبين نفسه ، وقد قر قراره على ألا يكون له بها شأن • ولكن قلبه مع ذلك لم يقبل هذه الفرقة وعاد فى اليوم التالى الى بيت فاسيلى باكيو لكى يعانى من الهم ذاته اذ يراها تتنهد وتبكى من أجل رجل آخر • وقد جعله هذا أكثر اصرارا وعنادا يوما بعد يـــوم • كان برودها يلسعه ، وبدأ يحبها ويتوق اليها على نحـــو متزايد • وأصبح ، وهو الذى لم يكن يريد أن يتزوجها الا لأنها ابنة باكيو ولان والديهما قد قررا أن يكون كل منهما من نصيب الآخر منذ طفولتهما ، أصبح الآن يريدها بوله حتى أنه كان يظنها أكثر الفتيـــات فتنة على ظهر الارض • ولم يجرؤ على أن يبوح لأحد بما يعانيه من آلام ، فقد كان يخجله أن يعلم الناس انه لا يقدر على أن يفوز بعواطفها ، فان هذا يحط من قدره فى نظر الجميع ، بقدر ما يرفع من قدر ايون • بل انه أسف اذ استمع الى نصح والدته وأضاع وقته وجهده فى الذهاب الى العراف • وكان يفضـــل لو أن فاسيلى باكيو كانت لديه فكرة ما عما يجرى فى قلب أنا • ولكن العجوز لم يكن يدرى بأى شىء • وكل ما كان يعرفه هو أن على فتاته أن تتزوج جورج لأنه قد قرر ذلك • وكان يعتقد أن كل ما عليه أن يفعل هو أن يكرم وفادة جورج ، وأن هذا سوف يسهل كل شىء • وكان مما يعذب جورج أنه فى الوقت الذى تضج فيه القرية بالحـــديث عن أنه يطارح أنا الغرام ، فانه يضطر الى قضاء أمسياته منصتا الى قصص فاسيلى عن الحرب فى بوسنيا حيث قام باكيو ، على حد زعمه ، بمآثر من البسالة حتى أن الامبراطور نفسه قد أخذه بين ذراعيه وقبله • وكان من الممكن أن يكون أسعد حالا لو أنه استطاع أن يرتب مع الفتاة أن يقابلها خلسة فى مكان ما ، فان هذا أيضا يمكن أن يكون علامة على حبها • ولكن كل ما كانت أنا تفعله هو أن تتنهد عندما يقسم والدها أن زفافها سيتم فى عيد الميلاد ، حتى لو انفجرت الصفراء فى أحشاء ذلك الوغد جلانيتاشو •

وعاشت أنا منذ رأت ايون وهو يعـــانق فلوريكا ، ومنذ وصلتها اشاعة أنه قد طلب يدها ، فى حالة من الأسى زاد من مرارتها انه كان عليها أن تخفيها فى صدرها • وكانت هادئة ومحبة للعزلة بطبيعتها ، حتى كان يبدو أن حياتها قد كرست للشقاء والمعاناة • وقد كبرت وحيدة ، فلم تعرف حنان وحب الأبوين • وقد تركتها والدتها وهى بعد لم تشب عن الطوق • وكانت تتذكر تدليلها كحلم باهت ، رقيق ، أرق من أى شىء عرفته فى حياتها • كان والدها يحبها ، ولكن حبه كان متقلبا ، يختلف وفقا لمزاجه • لم تكن تسمع منه كلمـات حانية الا لمـــاما ، ولكنها كثيرا

ما عانت من آذاه ، فكان يضربها أحيانا لأسباب تدعو لذلك وفى الأغلب بدون سبب • ولم تكن تستطيع أن تصادق غيرها من الفتيات • كانت روحها تصبو الى حب رقيق عميق • وكانت أى غزارة فى المشاعر تخيفها • وحتى عندما كانت تمرح كان خمار من الكآبة ينسدل على مرحها كأنه ظل له ، ثم اكتشفت فجأة فى ايون جلانيتاشو كل ما كان قلبها يصبو اليه • لقد شعرت عندما تبادلا الحديث لأول مرة ، وكان هذا منذ بضعة شهور ، أن نفسها لم تعد ملكا لها ، ومنذ ذلك الوقت أحست بأنها لن تستطيع أن تعيش بدونه • فقد كان هــذا الرجل الوحيد الذى كانت كلماته تلمس قلبها بهذه الربتات المرتعشة التى أضناها الشوق اليها • ولم تتحدث الى والدها عن حبها ، كما أنها لم تخفه عنه ، فقد كان هذا الحب يحوطها ولم تكن تستطيع أن تتخلى عنه حتى فى مماتها • ولم تكن تهـديدات والدها أو سبابه تخيفها ، كما لم تنجح عودة جورج فى حملها على الرجوع فى قرارها • وظلت تنســج فى ذهنها خططا للقاء ايون ، لتتوسل اليه ، وتستعطفه ، راكعة على ركبتيها ، حتى لا يعرض عنها • لم تكن تستطيع أن تدرك مغزى سلوكه ، فقــد كانت تعرفه متزنا عطوفا • كان قلبها ينزف بسبب جفائه واعراضه • وكانت تقول لنفسها أحيانا انه انمــا يهجرها لأنه لم يعد يحبها •• وكانت فى تلك اللحظات تفقـد كل أمل ويمتلىء ذهنها بفكرة الموت • وقد أخذت الافكار القاتمة تنتابها أكثر فأكثر منذ اليوم الذى قابلت فيه ايون على الطريق القديم فلم يجد ما يقوله لها ولم يأخذها بين ذراعيه ، على الرغم من أن أحدا لم يكن على مقربة منهما • وعندما كانت تذهب الى السوق الاسبوعى فى أرماديا فى أيام الخميس ، حاملة البيض والدواجن والجبن ومنتجات الالبان ، وتمر خلف جيدوفيتسا فى ساعات الفجر المبكرة على الطريق المجاور لنهر سومش ، كانت تتوقف عند حاجز النهر وتحدق بامعان فى دوامة المياه العميقة التى كانت تبدو كأنها تناديها • وما الذى يمكن أن تأمله فى الحياة اذا كان الرجل الذى تحبه قد هجرها ؟ وأحاطتها أصداء الامواج التى تتدافع وتصخب وتزبد ، بضجيجها الذى كاد يفقدها السمع ، وأخمد كل آمالها وأصابها دوار • وشعرت بأنها لو انحنت قليلا فانها سوف تنزلق الى هاوية الموت ، حيث تختفى كل آلامها فى لحظة ••

ومع ذلك ، فقد كانت تشعر ، حتى فى أقسى حالات المعاناة ، ببارقة من الأمل تخفق فى مكان خبىء فى نفسها ، وهو أمل كان يثلج صدرها بالاعتقاد بأنها لم تفقد كل شىء • وهذه البارقة من الأمل ، التى لا تفارق انسانا حتى يلفظ آخر أنفاسه ، والتى تظل تلتمع فى عينيه الساكنتين

حتى عندما يكف القلب عن الخفقان ويهدأ الجسد الى الابد ، هذا الامل كان يعطيها هي أيضا القدرة على الانتظار والاستمرار ٠٠

وخرجت أنا ذات ليلة الى الفناء كما اعتادت أن تفعل دون جدوى منذ لم يعد ايون يحوم حول المكان ٠ كانت عيناها مبللتين بالدموع ، وكان قلبها مثقلا ٠ كان جورج قــد انصرف ، وأطفأ والدها الانوار وأوى الى فراشه ٠ وكانت فى قلب أنا تلك البارقة الاخيرة من الامل أن ربما ، من يدرى ؟

كانت ليلة حالكة موحشة كئيبة خانقة من ليــالى الخريف ، وكان ضباب كالرصاص يجتاح قمم التلال التى تحوط قرية بريباس ، ثم يرتفع صاعدا فى دوامات تبدو قاتمة لحظة ثم تبدو أقل قتامة لحظة أخرى كأنها تنين يتقــدم بوحشـــية ليلتهم فى جرعة واحدة القرية التى كانت تغفو بسكون فى قلب الوادى ٠ وكانت الاشـــجار فى الحــديقة ترتعد وتئن بأصوات واهنة شاكية ٠

أحكمت أنا وضع الشال على صدرها ، وخطت حافية القدمين ، بخفة صوب الباب ، كانت ترتعد من البرد ومن خــوف مجهول كان ينفذ الى عظامها ٠ وفتحت الباب بحذر حتى لا تحدث صوتا ، وتأهبت للخروج الى الطريق ٠ ولكنها تجمدت فى مكانها فجأة ، وقد تسمرت أقدامها فى الارض رعبا ٠ كان هناك شبح أسود يستند الى عمود الباب الطويل ٠ ومضت لحظة لم تكن لدى أنا قوة حتى لمجرد أن تفتح فمها ٠ ثم استعادت جأشها، وسألت فى همس :

ـ من هناك ؟

وأجابها صوت عميق قائلا :

ـ أنا ٠

وسرى الصوت فى الظلام بأجنحة غير مرئية ٠

تمتمت أنا وقد انبعثت السعادة فى نفسها : « ايون ؟ » وتعلقت به وظلت تردد من خلال دموعها : « ايون ، ايون ! »

وجاء صوت ايون مرة أخرى ، بلهجة لوم مرتعشة :

ـ انتظرت حتى ينصرف جورج ٠ كم من مرة انتظرتك هنا يا أنا ، فى الوقت الذى كنت ٠٠٠

وتوقف فجأة كأن سكينا قد وخزه فى حنجرته ·

قالت الفتاة مستعطفة وهى تشد كم سترته :

ـ ادخل يا ايون · ثم تذكرت أن والدها سوف يوقظ القرية كلها اذا اكتشف أنها قد أدخلت ايون الى بيته ، فأضافت بصوت أكثر توسلا : أو أدخل على الاقل الى الفناء ·· على السقيفة ·· تعال !

لم يدخــل ايون ·· كان هــذا هو كل ما أراد ، أن تراه وأن تعرف بشكل قاطع أنه لم يهجرها ، كانت هــذه هى خطته ليرغم باكيو على أن يعطيه اياها · لم يكن من الممكن أن ينجح الا اذا تقــدم بحذر · فان أى تعجل كان من الممكن أن يحطم خطته ·· كانت خطة ارغامه واضــحة فى ذهنه بشرط أن يحتفظ بعقله صافيا ، كانت أى عجلة تعنى تنفيذ خطته بسرعة أقل · فالانسان لا يستطيع أن يكسب أبدا بغير مهارة ودهاء ·

ألقى لها تحية المساء قصيرة مفاجئة واختفى فى الظلام ، قبل أن تجد أنا وقتا لترد تحيته · كانت ما تزال تسمع وقع أقدامه وهو يتهادى فى مشية ثقيلة على الطريق الموحل ، وظل صدى وقع أقدامه يذوى بالتدريج حتى اختفى تماما · وهمهمت الفتاة باسمه ، كأنه صلاة ، فى الوحدة التى تلفها :

ـ ايون ! ايون !

ومع ذلك فقد كان فى قلبها شعور عميق بالسعادة · لقد عاد اليها ، وهذا يعنى أنه يحبها !·· ولعلها لم تحلم فى حياتها أحلاما أعذب من تلك التى رأتها فى تلك الليلة ·

وفى اليوم التالى لم تعد أنا هى نفس الفتاة · توردت وجنتاها بالفرح والأمل · وأصبحت خطواتها أكثر خفة ، وأصبحت تؤدى عملها وهى أكثر ابتهاجا ، وشعرت بحافز غريب أن يرى العالم كله أنها سعيدة ·

سر جورج عندما لاحظ فى المساء التــالى هذا التغيير فى مزاجها ، واعتقد أنها رضخت فى النهاية · ولم تعد أنا تتنهد ، ولم تعد تبكى · ومع ذلك فقد كانت تبدو بالغة القلق ، كأنها تتقلب على سرير من الشوك ، كأنهــا تنتظر منه أن يأتى بحركة ما ·· ومع ذلك عندما فكر جورج فى الامر مرة أخرى ، قدر أنه لا بد أن يكون فى الامر شيئا آخر · وخطرت بذهنه فكرة بعد أن تأمل بعمق أكثر ·· « ايون ! »

وناضل ليتخلص من هذه الفكرة ولكن دون جدوى • فقد ظل الاسم يتردد فى أذنه كأنه ضربات المطارق : «ايون !•• ايون !•• ايون !»

- ٢ -

هز ايون كتفيه بلا مبالاة عندما أحضر الخفير اليه فى اليوم التالى خطاب استدعائه للحضور الى المحكمة ، وسأل عن موعد الجلسة ، اذ لم يستطع أن يقرأ الخطاب بالهنغارية ، وأبلغ زنوبيا بالتاريخ لتكتبه خلف دعامة الباب حتى لا ينساه • ولم يتوقف أكثر من لحظة ليفكر : « اذن فالامر صحيح ؟ » ثم لم يعد يفكر فى سيميون لونجو ، تماما كما لم يشغل باله من قبل • وفى المساء ذهب الى بيت أنا • واستمر منذ ذلك الوقت يذهب كل ليلة •

أما جلانيتاشو الاب فقد ارتاع عندما رأى خطاب الاستدعاء وظل يلح عليه أن يجرى الى بيت المدرس ليسأله النصح فيما ينبغى أن يفعل• فقد كان هرديليا مشهورا بمعارفه القانونية ، التى تفوق معارف أى محام ، تماما كما كان يعتبر قادرا على أن يخلع ضرسا بأسرع وأقل ايلاما من أى جراح • كان ايون يذهب اليه فى الماضى ليسأله النصح فى كل صغيرة من شئونه ، أو على الاقل ليناقش هذه الامور مع السيد تيتو ، لماذا اذن لا يذهب الآن والأمر يتعلق بقضية ، وكل انسان يعلم أنه لا مجال للهذر مع القضاة ! ولكن كلمات العجوز لم تترك أى أثر فى ذهن ايون •

كان فكره مشغولا بأنا طوال الوقت • لم يكن يريد أن يسمع شيئا حتى يرغم فاسيلى باكيو على أن يعطيه أنا لتصبح زوجته ، ويعطيه معهـا كل ما يملك من أرض •

كانت القضية يوم الخميس ، واذ كان هذا هو يوم السوق فى ارماديا ، فقد ذهب ايون مع والديه ، اللذين أخذا معهما جوالين من الذرة ليبيعاهما ، اذ كان العمدة قد شرع يطوف بالقرية ، مصطحبا الكاتب المساعد ، ليستولى على ممتلكات القوم ، ضمانا للضرائب التى فات موعد استحقاقها •

كانت شمس الخريف تبتسم فى السماء كأنها شيخ عجوز يبتسم لأحفاده ، وتغلف الحقول بضوء ذهبى ناعم ، ليس فيه من الحرارة أكثر مما يجعل الانسان يشعر بالارتياح • وبدت الارض الخدرة ، تحت لمسات

أشعة الشمس الرقيقة كأنها تتنفس بحرية أكثر ، وأخذت الاشجار تنشر أوراقها الذابلة بمزيد من القناعة ٠ وكركرت الارض تحت وطأة سيل المركبات والعربات التى كانت تتسابق لتصل الى السوق بسرعة ٠ وكان أهل برىباس ، اللذين اعتادوا الذهاب سيرا على الاقدام وقد حملوا أجولتهم ومزاودهم على ظهورهم ، يسيرون صائحين ، فتتردد أصداء أصواتهم فى الغابات وأخاديد الارض ٠٠ وفى جيدوفيتسا كان أصحاب الحانات « يعمدون » ما لديهم من مشروبات ، ويضيفون اليها من الماء ما يزيد من كميتها ، استعدادا للرجال الذين سيتوقفون بعد الظهر ، عند عودتهم من السوق ، ليشربوا كأسا تعبيرا عن امتنانهم من أجل ما باعوا أو اشتروا٠

تبدأ مدينة أرماديا على بعد بضع مئات من الخطوات من القنطرة المقامة على نهر سومش ٠ وهى مدينة ريفية شاردة ، تنتشر مبانيها على شواطىء النهر وتمتد حتى سفح التلال التى تصعد بضع منازل فوق منحدراتها ، وتتألق مبانى الكنيسة ذات البرجين ومعاهد التعليم الرومانية بكبرياء من بعيد ٠ وهاتان البنايتان هما أهم مشاهد أرماديا بل والمقاطعة بأسرها ٠ ولا تحتوى هذه البلدة الصغيرة على أكثر من أربعة أو خمسة شوارع تتجه كلها الى ميدان كبير أمام الكنيسة حيث يقام السوق ٠

سار جلانيتاشو ، ومعه زنوبيا وايون على الطريق الممتد بحذاء نهر سومش ، وهو أقصر الطرق ، وينتهى بالقرب من المدرسة الابتدائية الرومانية فى شارع المدارس ٠ وتوقف ايون عندما وصلوا أمام المحكمة ، التى تواجه الكنيسة الكاثوليكية القديمة ، وتخلى عن جوالى الذرة الى ظهر والدته ، واتفقوا على أن يلتقوا فى السوق فيما بعد ٠ وواصل العجوزان طريقهما ، بينما توقف ولدهما على الرصيف المبلط الناعم ، ونفض معطفه ليزيل الشعيرات التى علقت به من الجوالات الصوفية ٠

كانت المحكمة تحتل مبنى كبيرا ، كئيبا ، أصفر من طابع واحد ، نوافذه مزودة بقضبان حديدية ٠ وكانت هناك « دكتان » أمام المحكمة ، بالقرب من الباب ، حيث كان المتقاضون ينتظرون دورهم ، لأن الكتبة المثقلين بالعمل كانوا يرفضون أن يسمحوا لهم بالانتظار فى الدهليز أو فى غرفة الانتظار ٠

وصل ايون مبكرا جدا ٠ وكان عليه أن ينتظر بالخارج ، مع غيره من الفلاحين من أبناء القرى المجاورة الذين جاءوا لنفس ما جاء من أجله ، حتى الساعة التاسعة ، موعد بدء العمل فى دار العدالة ٠ وتذكر سيميون لونجو ، فتلفت باحثا عنه ، ولكنه لم يكن موجودا ٠

وأخيرا توقفت عربة الاب بلكيوج أمام المدخل الكبير ، عندما بدأ حاجب هنغارى ذو وجه أحمر وشارب مدهون مبروم ، ينادى المتقاضين ، وكان سيميون يجلس منتصب القامة على مقعد الحوذى بجوار السائق .

وقال ايون بازدراء : « هم ! لقد أحضره القسيس بعربته » .

هبط بلكيوج من العربة ببطء ، وأخبر السائق أن ينتظر حيث اعتاد الانتظار فى أوليتساكوموريلور - شارع الكنز - ثم دخل المحكمة ليتحاشى النساء اللاتى تجمعن حوله ليقبلن يده . وبقى سيميون على الرصيف ، مرتبكا بعض الشىء ، وأخذ يختلس النظرات الى ايون الذى كان جالسا على « الدكة » ، يتحدث الى رجل مسن من فاراريا . وبدا لفترة أن وصول سيميون قد قطع حديث القوم . ولكن فلاحة ذات صوت عال كانت تجلس على برميل فارغ بالقرب من البوابة حطمت الصمت وسألته دون مواربة :

- ألديك مشكلة ما هنا ، أنت أيضا ؟

فنظر سيميون الى ايون وأجاب بشىء من الارتباك :

- طبعا لدى مشكلة ، وأنا هنا من أجلها ، ومن ليست لديه مشاكل؟

وساد الصمت مرة أخرى ، فلم ينبس أحدهم بكلمة . ثم عاود الجميع ثرثرتهم بالتدريج ، وبدأ سيميون يحكى كل ما حدث له ، بينما أخذ ايون ينكر بحرارة كل كلمة يقولها . واشترك جميع الحاضرين فى المناقشة، بعضهم يؤيد طرفا ، والبعض يؤيد الطرف الآخر . وزادتهم المناقشة تقاربا، ولم يعد سيميون يطالب الا بشريحة الأرض التى كان الفتى الآخر ينكر حقه فيها ؛ أما ما حدث من تهجم ، فقد أخذ كل حقه بيده .وأخذا فى النهاية بنصيحة الرجل المسن القادم من فاراريا ، الذى نصح بأن يعيد ايون ماقيمته خطان من خطوط المحراث ويسحب سيميون شكواه . وأبلغا الحاجب بأنهما قد تصالحا وسألاه أن يسمح لهما بأن يبلغا الأب بلكيوج بأنهما قد وصلا الى اتفاق وصرفا النظر عن الالتجاء الى المحكمة . وربت الحاجب على كتفيهما وأشار اليهما أن يتبعاه ، فدلفا الى الدهليز . كانت مكاتب الشهر العقارى تمتد ذات اليمين وذات اليسار . وتسارعت دقات قلب ايون . هذا هو المكان الذى سيأتى اليه مع أنا وفاسيلى باكيو لينقل ملكية أرضه كلها باسمه .... ثم ارتقوا بضع درجات قديمة متآكلة ، ووجدوا الأب بلكيوج فى غرفة الانتظار ، حيث كان يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، وقد أمسك بقبعته فى يده ، وبدا وجهه أشد شحوبا من

المعتاد • وأشار الحاجب الى الفلاحين وقال وقد ارتسمت على وجهه ضحكة رضى متكلفة :

ــ لقد تصالحا •• ولم تعد هناك ضرورة للمحاكمة •••

وقف القس بسرعة وكأن صوت الحاجب قد أفزعه • وعندما رأى سيميون مع ايون اتضحت الحقيقة أمامه ، فاشتعل غضبا • لقد تدخل فى مشاحنتهم تلك فى لحظة من لحظات حقده البالغ ، نكاية فى أسرة هرديليا، متصورا أنه اذا وجه ضربته الى جلانيتا شو الصغير ، فانها سوف تصيب عائلة هرديليا أيضا • وهذا ما دفعه الى كتابة الشكوى لسيميون ، متطوعا أن يدلى بشهادته أيضا ، بما له من سلطة الكاهن • وعندما خفت حدة غضبه بعد بضعة أيام ، أحس بالأسف لدخوله فى هذا الأمر أصلا • فليس من اللائق ــ فى اعتقاده ــ أن يسىء كاهن الى نفر من رعاياه ، فيجرجر الناس أمام قضاة مجريين • بل كان يسعده لو أنهم استطاعوا أن يصلوا الى اتفاق دون حاجة الى اللجوء الى المحكمة ، ولكن دون أن يحط من مكانته أيضـا على أى نحو ، لأنه كان مستمرا فى استمطار اللعنات على ايون • واذ لم يتمكن الجانبان المتنازعان من الوصول الى اتفـاق ، فقد جاء الأب بلكيوج الى أرماديا فى هذه الظروف على كره منـه ، وهو كبير الأمل فى أن يجد طريقة لحفظ ماء وجهه • وظل فى حجرة الانتظار ، يراجع خطبة عصماء يناشد فيها القاضى أن يعفو عن الجانى ، اذا وعد الأخير بالتوبة وبأن يصـلح من نفسه فى المستقبل •••• وفى هذه اللحظة بالذات ، دخل الحاجب معلنا أنهما قد وصلا الى اتفاق ، فقضى على خططه ، وأحس بأن الفلاحين قد اتفقا على السخرية منه •

وصرخ القس فى سيميون غاضبا :

ــ أغرب عن وجهى ، أيها الوغد ! أتكبدنى كل هذه المشقة حتى تجعل منى موضع سخرية الناس ! اننى أعرف أمثالك ! وسوف ألقنك درسا أنت أيضا ، أيها النذل !

فجثا سيميون على ركبتيه ، وهمهم بصـوت ناعم ، خفيض بحيث لا يسمعه القس ، ولكنه عال بحيث يستطيع أن يقول انه قد أجاب :

ــ انك أنت الذى أتيت بى الى هنا أيها الأب • ولست أنا •

وتجمع بعض الفلاحين الذين كانوا ينتظرون دورهم فى أحد الأركان، وهم فزعون • وتمتمت امرأة عجوز لم تستطع أن تكبت مشاعرها :

ـ أتسمون هذا قسا ! بدلا من أن يصلح بين الناس ، يجعل منهم أعداء ...

جزع ايون لغضب الكاهن ، وصعد سؤال الى ذهنه : « لماذا يقف ضدى ؟ » وتوجس شرا ، ثم عبر الى النافذة التى تطل على البناء مكتئبا . واستند الى الجدار وهو يحملق حوله ، يغمره احساس متزايد بفقدان الوعى . ولف الغرفة سكون عميق ، لايقطعه سوى وقع أقدام القس ، الذى عاود السير جيئة وذهابا ، وهو أشد عصبية مما كان ، ناظرا بين الحين والحين الى سيميون لونجو بنظرات كالخناجر . وعندما توقف الأب بلكيوج تعبا ، كان المرء يستطيع أن يسمع صوت أسئلة حادة ، قادما من قاعة المحكمة ، يلقيها بلغة رومانية ركيكة صوت خشن قوى ، وتتبعها اجابات ضعيفة خائفة .

وسيطر على ايون ـ شيئا فشيئا ـ احساس غريب بالقلق والخوف. كان يحس بالنذير يحوم حوله ، ولم يستطع أن يدرأه عنه . وتعجب ، لماذا بالله لم يفكر فى هذا الأمر حتى هذه اللحظة ؟ لماذا لم يصل الى اتفاق من قبل ، عندما كان من اليسير جدا أن يصل اليه ؟ وأحس بالأسف لأنه على الأقل لم يسأل المدرس أن يلقنه كيف يجيب وماذا يقول . واستدار على عقبيه لينظر الى الفناء . كان ضيقا مرصوفا بالأحجار ، ومحاطا بسور عال من الخشب . وخلفه بناء منخفض ، رمادى اللون ، بائس المنظر ، تغطى نوافذه قضبان حديدية سميكة .. وأجفل ايون خوفا . انه السجن ... وأحس برعدة تسرى باردة فى ظهره . وكان ثلاثة من الفلاحين يقطعون الأخشاب فى الفناء تحت رقابة حارس فى حلة رسمية مشعثة ،وبندقيته على كتفه . كان الفلاحون يدفعون المنشار ويجذبونه فى تكاسل ، بينما أخذ الحارس يرقبهم بعين ساهرة ، وهو يعدل من وضع بندقيته على كتفه من وقت لآخر فى تباه وبراعة .

وفكر الفتى مليا ... « اذن فهذا هو المآل ... »

وأدخلهم الى القاعة حاجب آخر ، وهو رجل طاعن فى السن يرتدى نظارة . وكان يجلس وسط المنصة الرئيسية ، وقد أدار ظهره الى النافذة التى تطل على الشارع ، رجل غليظ القوام ، له عينان غاضبتان ، ورأس تكاد تخفى صلعته بعض خصلات شعر طويلة ، وأمامه على المنصة صليب معدنى . واتخذ بلكيوج مجلسه برزانة الى اليسار بقرب الجدار . وعند المنصة الأخرى كان رجل شاحب الوجه ، نحيف القسمات ، له شارب أحمر

كالآجر وشعر مصفف بعناية ، يتصفح بعض الأوراق فى كومة من الوثائق. لم يلبث أن أخرج بعضها ووضعها على منصة القاضى فى كلفة ٠ وكان الجو كله يعطى احساسا بالقهر والعداء ، مما جعل الفلاحين ينظران سريعا الى بعضهما البعض فى فزع ، وكأنهما يستعدان للهرب ٠

وفجأة ، بدأ استجواب القاضى بصبر نافد :

ـ ما اسمك ؟ ما سنك ؟ ٠٠٠

وأحس ايون فى وضوح بالخطر المحدق به ٠ لقد انتهى كل شىء الآن ولامفر ٠ وأجاب سيميون دون أن ينظر الى الأب بلكيوج ، مضيفا أنهما قد توصلا الى اتفاق ، وأنه يسحب دعواه ٠ فأحس ايون ببارقة أمل لم تلبث أن خبت على الفور ٠ فقبل أن ينتهي سيميون من كلماته ، قفز القاضى من مكانه ، وأخذ يزأر قائلا :

ـ اذن ، لماذا جئتما هنا أيها الأوغاد ، لتضيعا وقتى ؟ سوف ألقى بكما فى السجن ، سوف ٠٠٠

وعند هذا ، قام الأب بلكيوج من مقعده ، وتقدم نحوه ، ثم قال فى تهيب :

ـ معذرة يا سيدى ، لو سمحت ٠٠٠ مجرد كلمتين ٠٠٠

واستشاط القاضى غضبا ٠ وبدأ يوبخ الكاهن أيضا ، لأنه لم يشرح لهذين الثورين أن هذه محكمة ، ينشغل فيها الناس ولا يستطيعون اضاعة وقتهم فى التوافه ٠٠٠ واحمر وجه القس وقال بعض كلمات باللغة المجرية فرغم أنه كان يعرف المجرية جيدا ، الا انه كان يكره استعمالها فى حديثه، وبخاصة أمام السلطات ٠ كان يريد أن يبين للعالم كله أن الرومانيين لم يتخلوا عن حقوقهم ، ولن يتخلوا عنها ٠ وقد اندهش القاضى ٠٠ الذى كان يعرفه جيـدا ـ أن يسـمعه يتكلم الهنغارية ، فهدأت ثورته ٠ واذن له بالجلوس ، وجذب كرسيه الى وضـع أقرب واستمع اليه بانتباه كبير ٠ وتحدث بلكيوج فى اسهاب ٠ فقد كانت مكانته واحترامه أمام الفلاحين فى خطر ، ولكى ينقذ سطوته كان الموقف يستحق من جانبه تضحية مؤقتة بالمبادىء ٠

ولم يفهم كل من ايون وسيميون شيئا مما يقال ؛ وكان القاضى يلقى اليهما بنظرة خاطفة من حين الى حين ، جعلتهما يفهمان أن الحديث يدور

عنهمـا ، وأن الموقف ليس على مايرام • وعندما انتهى القسيس ، وقف القاضي ثانية وخاطب ايون على الفور في حدة قائلا :

ـ اذن فأنت موضع رعب لهذه القرية ، أيها الكلب التعس ! حسن سوف نعلمك ، سنشفيك من جنونك ، تأكد من هذا ! ••• اننا سنضعك في السجن أسبوعين ، كي نهدىء أعصابك ، وننتزع ولعك بالشجار مع الناس ! أنت أيها النذل الذى لا يصلح لشيء !

وشحب وجه ايون ، ثم اندفع الدم الى وجهه ، وأعلن وهو يرفع رأسه ، وعيناه تتطايران شررا :

ـ عفوا ، يا صاحب الفخامة ، ان الأمر ليس كذلك ••• فأنا لم أتعد على أحد ••• يا صاحب الفخامة •••

ـ اخرس ، أيها المارق ! ••• اخرس والا وضعتك في الأصفاد فورا! والآن •• اخرج من أمامى ! أغرب عن وجهى ! •••

وترنح ايون خارجا ، دون أن يلتفت ليرى الأب بلكيوج وهو يصافح القاضي الذى كان يبتسم له في ود •

- ٣ -

بينما كان هرديليا يمتع نفسه بدفء الظهيرة مستسلما للنعاس في حظيرة النحل ، بعد ظهر يوم الخميس نفسه ، وبينما كانت زوجته وبناته تنظفن الفاصوليا لاعدادها لوجبة المساء وتتحدثن عن بنتيـا فتعربن عن دهشتهن لعدم وصول أى أخبار منه رغم انقضاء عشرة أيام على ارسال ردهم اليه •• توقفت عربة أمام المنزل ، وأخذت الخيول تصلصل بأجراسها ، بينما ارتفع صوت حاد من العربة صائحا :

ـ أيها المعلم ! يا سيد هرديليا !

فاندفعت جيجى الى الخارج حين تعرفت على الصوت ، صائحة :

ـ هذه حبيبة بابا !!

كانت امرأة سكسونية مسنة متوردة الوجنتين ، بشوشة على الدوام ، تجلس فوق العربة • وكانت تقود عربتها الى أرماديا في يوم الخميس من كل أسبوع ، طوال أربعين عاما مضت ، حيث كانت تذهب الى السوق وقد

ملأت عربتها بالخبز لتبيعه • وكان هرديليا يعرفها منذ كان طالبا ، وكان الجميع يحبونها ويلقبونها بـ « حبيبة بابا » اذ كانت كلما تقدمت بهـا السن ، تكثر من جدالها مع المدرس حول ذكريات شبابهما •

وصاحت المرأة السكسونية بعينين باسمتين :

ـ هل تتفضلين بالمجيء الى هنا يا آنســة لتأخذى الخطاب الذى أرسله لكم السيد بالان موظف البريد معى ! ان الخيول قلقة بعض الشىء، ومن الصعب أن أهبط من مكانى •

جرت جيجى الى العربة وهى تتحرق فضولا • وأمسكت «حبيبة بابا» بالخطاب فى يدها وسألت بهذر بلهجتها السكسونية البطيئة :

ـ أليس السيد هرديليا بالمنزل ؟

تمتمت جيجى وعيناها مثبتتان على الخطاب ، الذى كان رسـاله تلغرافية فى الواقع •

ـ ان والدى نائم يا عزيزتى

ثم أسرعت تلهث عائدة الى المنزل ، وأضافت عندمـا وصلت الى المدخل : « شكرا لك يا عزيزتى ! »

فقالت المرأة السكسونية لنفسها وهى تداعب بسوطهـا أرداف الخيل ، التى تحركت على الفور بخطوات منتظمة : « العفو ، العفو ! »

أحدثت البرقية هرجا عظيما فى البيت كله • فقد كانت السـيدة هرديليا تظن أن أية رسالة تلغرافية نذير بسوء • لم تكن قد تسلمت منذ تزوجت سوى برقيتين ، وكانت كلتاهما تحتويان على أخبار سيئة : إعلنت الأولى فى كلمات ثلاث باردة وفاة أحب شقيقاتها اليها ، وقد توفيت فى المستشفى بمدينة كلوج اثر عملية جراحية ـ أما الثانية فقد حملت اليها أنباء عن مرض شقيقها الوحيد ، وعندما وصلته فى مونور ، وجدته مسجى فى نعشه • لهذه الأسباب كانت ثلاثتهن تحملقن الى قصاصة الورق بفزع، متسائلات من أين وماذا يمكن أن يكون محتواها • وقد ذهب بهن الخيال الى أكثر الأخبار شؤما ، وتخوفن من فض البرقية •

وأخيرا صاحت جيجى قائلة :

ـ سأفضها وليكن ما يكون

وما ان رأت نص البرقية حتى انفجرت قائلة فى جذل :

ـ انها من بنتيا ! ... انه آت ... وأضافت وهى تعبر لجرة راقصة وهى تلوح بالورقة فى الهواء « لقد عرفت أنها لا بد أن تكون منه، ولكنى لم أشأ أن أخبركم حتى تكون المفاجأة أعظم !

وقالت لورا بصوت مرتعش ، وقد أفاقت مما تملكها من خوف :

ـ «دعينى أراها أنا أيضا » ثم أضافت بصوت أكثر عنفا ، اذ لم تكف جيجى عن الهرج « أعطنيها أيتها المجنونة ، لا تعذبينى أكثر من هذا ! »

وقرأت لورا بصوت رزين متئد : « سعيد بشكل لا يوصف ، سأصل السبت ـ جورج . »

ثم قرأت زوجة المدرس البرقية أيضا ، ودموع الفرح تترقرق فى عينيها ، واكتشفت تذييلا مكتوبا بالقلم الرصاص فى أحد أركان الورقة: « تهانى القلبية ـ بالان . »

غمغمت السيدة هرديليا قائلة :

ـ انظروا ، ان بالان المسكين يهنئنا !

ثم انفجرت فى البكاء . كان بالان ، وهو من أصدقاء هرديليا ، الموظف الرومانى الوحيد فى مكتب بريد أرماديا . ولما كان يعرف أن بنتية قد طلب يد لورا ، لم يستطع عندما وقعت البرقية فى يده أن يمنع نفسه من أن يكون أول من يهنىء آل هرديليا .

وقالت جيجى وهى تدقق النظر فى الورقة مرة أخرى :

ـ كم هو لطيف بالان المسكين . من يدرى متى كانت ستصلنا لولاه ؛ هؤلاء اليهود الذين يعملون فى مكتب البريد يؤخرون الخطابات دائما أياما ... وكم كان لطيفا منه أن يرسل الرسالة مع « حبيبة بابا » بالذات .

واستخفها السرور مرة أخرى فجرت الى والدها لكى تبلغه بالنبأ العظيم . وأخذت تطرق باب المنحل بقبضتيها ، وتدق بعنف وتصيح :

ـ أبى ، أبى ! ان بنتيا سيحضر ! انه آت !

وتوقفت فجأة ، ثم راحت تجرى بأقصى سرعتها الى المنزل ، صارخة مولولة ، ملوحة بيديها فى غيظ ، اذ كانت بحركاتها بالقرب من خلية النحل قد استثارت عداء نحلة ، فطارت نحوها ـ والنحل سريع التهيج قبيل بياته الشتوى ـ ولدغتها فى ركن فمها تماما .

جرت السيدة هرديليا ولورا تهدئانها وقد أفزعهما صراخها فظهر هرديليا عند مدخل حظيرة النحل ، والنعاس ما زال فى عينيه ، وغمغم قائلا :

ـ ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟ لماذا تصرخ الفتاة على هذا النحو ؟

شرعت جيجى تبكى ، بعد أن انقضت صدمة الألم والخوف الأولى ، اذ خشيت أن يتورم مكان اللدغة ويعوقها عن الذهاب الى الحفل الراقص الذى سيقام يوم الأحد التالى • ولكن هرديليا لم يلبث أن هدأها ، مؤكدا لها أن اللدغة ستزول قبل يوم الأحد وأنها لن تترك أثرا ، حتى أنها يمكن أن تنتخب ملكة للرقص •

وشرع المدرس يفحص البرقية ، واضعا نظارته على أنفه ، وهو لايكاد يستطيع أن يخفى سعادته • وصرح فى النهاية قائلا :

ـ حسن ، حسن جدا ••• ليأت • وســـوف نستقبله استقبالا مناسبا !

وطوى الرسالة بعناية ودسها فى جيبه ، حتى يستطيع أن يريها لكل معارفه ويتباهى بما فيها •

انقضى عصر ذلك اليوم فى مناقشـــة شاملة لكل المشـــاكل المتعلقة بوصول الخطيب • أين يمكن لبنتيا أن يقيم ؟ كان هذا أمرا بالغ الخطورة • لم يكن من الممكن أن يستضيفوه اذ كان عددهم كبيرا ولم يكن لديهم سوى ثلاث غرف صغيرة • وحتى لو كان لديهم متسع ، فليس من المناسب أن يمضى الخطيب الليل هو وعروسه تحت سقف واحد • وعلى ذلك سيتعين عليه أن يقيم فى أرماديا • وهو بالطبع يستطيع أن يتناول وجباته معهم ، بل ويستطيع أيضا أن يمضى اليوم كله عندهم ، حتى يزداد معرفة بلورا • وكان من الواضح أن هذا يعنى كثيرا من النفقات • حسن ، وفيم يهم ذلك؟ ان الفتاة لا تتزوج سوى مرة واحدة ••• ويمكنهم بالطبع أن يذبحوا بضع دجاجات • وينبغى أن يــكون لديهم أيضــا شيئا من لحم البقر ، ولو أن أسعاره قد ارتفعت مؤخرا • على أى الأحوال ينبغى أن يقدموا فى كل وجبة شيئا من اللحم • أما الكعك ، فتلك مهمة الفتيات ، وقد كانت لورا أكثر من أســتاذة فى هذا المجال •••• ومن الأفضـــل أن يعرفوا فى أى وقت سيصل يوم السبت ؟ هل سيأتى فى الصباح أم بعد الظهر ؟ ربما استطاعوا أن يجدوا اشارة الى ذلك فى البرقية ؟ كلا ، لا اشارة • كان ينبغى أن يوضح ذلك، حتى يعرفوا كيف يعدون الغذاء ••• أما يوم الأحد فسيذهبون

سويا بالطبع الى الحفل الراقص • ومن يدرى ، ربما كان قد اختار هذا اليوم عامدا حتى يذهب مع لورا الى الحفل ليزهو أمام الجميع بعروسه المقبلة الجميلة • وتضرجت لورا حتى أذنيها وهي تفكر ماذا ستقول الفتيات عندما يعرفن أنها أصبحت مخطوبة • ان عددا لا بأس به منهن سيحسدها بالطبع ومن المرجح أن أهل أرماديا قد علموا بالأمر ، لأن والدها لابد أن يكون قد أذاع النبأ على أوسع نطاق •

وصاحت جيجى التى كانت كل أفكارها تدور حول الحفل الراقص ، والتى كانت تمسك بمنديل مبلل بالماء البارد وتضغطه على خدها :

ـ انه قادم يوم السبت من أجل الحفل بالتأكيد ! لقد حدست هذا على الفور ! وهذا حسن ! فسنجد على الأقل شخصا واحدا نضمن أن يراقصنا! اننى سأرقص طول الليل حتى يبلى حذائى ويتمزق اربا ! لو أن هذه اللدغة الفظيعة لا تتورم ! •

وأسفوا لأن تيتو لم يكن بالمنزل حتى يدلى اليهم بآرائه القيمة حول الطريقة التى ينبغى أن يستقبلوا بها بنتيا ، فقد كان تيتو فى الفترة الأخيرة يقضى وقته فى جيدوفيتسا أكثر مما يقضيه فى المنزل •

اتفقوا كخطوة أولى على أن يذهب هرديليا مع جيجى فى الصباح الباكر من اليوم التالى لشراء كل مايحتاجون • وتعين على المدرس أن يسحب جزءا من مرتبه مقدما ليواجه النفقات الاضافية ، ثم أن يتحدث الى سترول القصاب ، الذى كانوا يشترون منه اللحم على الحساب ، حتى يكون واثقا أنهم لن يحرجوا لعدم وجود لحم فى هذه الأيام •

وعندما وصل تيتو فى وقت العشاء كالمعتاد صاح مرة أخرى :

ـ يا لها من سيدة فاتنة ، السيدة لانج •

وكان هذا يعنى أنه قد قابلها ، وأنه راض جدا عن نفسه ، ثم فحص البرقية بعد ذلك وعليه سيماء من كان يتوقع وصولها ، وأقر ما أعدوه من خطط لاستقبال بنتيا بعد أن أبدى بعض التحفظات الطفيفة ، وأبدى فى نفس الوقت ملحوظة أو اثنتين عن روزيكا ، نطق بهما وعيناه تلتمعان كأنه يوشك على أن يخبر كل انسان أنه موضع حب أكثر النساء جاذبية ، وأنه سيصبح خلال يوم أو يومين بطلا لقصة عاطفية مثيرة •

وعندما أوشكوا على الانتهاء من عشائهم سمعوا طرقة خفيفة على الباب • وقال هرديليا :

ـ من ذا الذى يمكن أن يأتى فى مثل هذه الســـاعة من الليل ؟
وأضاف بصوت عال « تفضل ! »

دلف جلانيتاشو الى الغرفة كأن أحدا يجرى فى أعقابه • واندفع يحكى ، وكلماته تتعثر من آن الى آخر ، قصة ما حدث لايون فى المحكمة فى صباح ذلك اليوم ، وتوسل الى هرديليا أن يخبره بما ينبغى أن يفعل لينقذ ابنه من السجن • كان لهذه الأنباء عليهم وقع الصاعقة ؟ وأصـــبح المنزل كله على الفور فى غاية من السخط • ولكن أين ايون ؟ ولماذا لم يأت؟ لكن الرجل المسن لم يعرف بماذا يجيب • كان ايون خجلا لأنه لم يأت قبل القضية كما نصحه أبوه ، ولو أنه جاء لكان هذا هو التصرف الحكيم ، وربما كان قد جنبه ما حدث • ويبدو أن شيئا قد حدث لايون ، يبدو أن شيئا يشغل باله باستمرار •••• وأخيرا طلبت الأسره كلها أن يأتى ايون •

وعاد جلانيتا شو بعد ذلك بقليل ومعه ايون وزنوبيا • وروى الشاب كل الوقائع بالتفصيل • وكانت زنوبيا تقطع حديث ابنها باستمرار وهى تسب القس وسيميون والقاضى بملء فمها •

وصاحت السيدة هرديليا وهى تغلى غضبا :

ـ الخنازير !

استفهم ايون بقلق ، بعد فترة صمت سادها شعور بالاشفاق عليه:

ـ ماذا أفعل يا سيدى ؟

ـ سأكتب شكوى أوجهها الى وزير العدل نفسه ، لكى يعلم أولو الأمر كيف يتصرف الموظفون هنا ازاء الشعب • نعم يا ايون سأكتبها لك ! ولكن ينبغى أن تنتظر الى أن يصل الحكم أولا ، خلال بضعة أيام ، لنرى ما يقولون فيه •

وأخذت زنوبيا ترسم علامة الصليب ، المرة تلو المرة ، تعبيرا عن شكرها • وركعت على ركبتيها وسجدت فى ورع عشر مرات ـ مما أثار اشفاق الجميع • وانصرف ثلاثتهم بعد ذلك ، داعين للسيد هرديليا الذى أنقذهم من محنتهم الكريهة •

وقال المدرس عندما أصـــبحوا وحدهم : « كان بامكانى أن أكتب الشكوى فى الحال ولكنكم ستحتاجون الى عربة بلكيوج من أجل حفـــل الرقص ••• »

فغمغم تيتو :

ــ لقد تصرفت بمهارة بالغة · وارتسمت على شفتيه ابتســـــامة سعيدة ، اذ تذكر روزيكا ···

- ٤ -

وصل بنتيا فى مساء يوم ممطر ، فى عربة صفراء صغيرة ، تجرها مهرتان صغيرتان خفيفان سريعتان ·

ورأت جيجى العربة عن بعد ، وكانت قد أمضت سحابة يومها خارج المنزل ، وتعلقت عيناها بالطريق ، فحدست أنه لا بد أن يكون بنتيا ، رغم أنها لم تكن قد رأته من قبل ، وصاحت منبهة بصوت منفعل :

ــ انه آت ··· أسرعوا ··· أسرعوا !

وظهرت الأسرة كلها فى مدخل الباب الخارجى ، وهمس هرديليا الى لورا أن تتحرك خطوة الى الأمام حتى يرى القادم أنها كانت فى انتظاره ، وأنها كانت مشوقة الى لقائه · ورفع بنتيا قبعته تحت المظلة التى كانت تتلقى عنه قطرات المطر التى تحدث صوتا مستمرا ، وانحنى لهم بالتحية، وارتسمت على وجهه ابتســـــامة ظافرة · وقالت السيدة هرديليا بصوت خفيض :

ــ انظروا كم هو شاب وسيم !

فتضرج وجه لورا حمرة · وتوقفت العربة فى الطريق أمام المنزل ·

وصاح هرديليا :

ــ تيتو ، اذهب وافتح الباب !

اندفع تيتو الى الأمام ، عارى الرأس ، وتحركت العربة الى الفناء ، حيث هبط منها بنتيا وتقدم صوب السقيفة ، رافعا مظلته الى أعلى بينما كان يحاول أن يتفادى الوحل ·

وصاح الجميع كأنهم جوقة :

ــ مرحبا بك فى بيتنا !

فأجاب بنتيا وهو يدخل الشرفة :

ـ شكرا لحسن استقبالكم أيها الطيبون ! شكرا لاستقبالكم ! ولوح بمظلته فوق سياج الشرفة قائلا : لقد ابتلت ملابسى • لقد ظلت تمطر طول الطريق من ليشنتسا دون أن تتوقف لحظة واحـــدة • اننى مسرور أن أكون بينكم •

عانقه هرديليا ، وطبع قبلة على كل من وجنتيه • ولم يكن هذا معتادا الا فيما بين الأقارب • ولثم بنتيا يد السيدة هرديليا بينما تصنعت هى مظهرا باردا ، رغبة منها فى أن تتحكم فى مشاعرها وتخفى انفعالهـــا العميق • وقالت :

ـ طاب يومك ياسيدى !

ومدت لورا يدها اليه برشاقة، وارتسمت علىوجهها ابتسامة خفر أرادت بها أنتستحوذ على مشاعره بعمق أكبر • وأراد هو أن يوجه اليها بضع كلمات عذبة ، ولكنه اذ لم يجرؤ على أن يناديها باسمهـــا كما كان يفعل فى خطاباته ، اكتفى بأن طبع على يدها قبلة أطول ، ثم استدار الى جيجى لكى يخفى ارتباكه ، وقال لها بشهامة :

ـ لقـــد حدثتنى شقيقتك عنك كثيرا حتى أننى عرفتك بمجرد أن رأيتك •••

ساعد تيتو سائق المركبة فى أن يجرد الخيول من سروجها •ونصحه بأن يغطى العربة ببساط ، اذ لم يكن لديهم حظيرة أو سقيفة لها ، وأن بوسعه أن يأخذ الفرسين الى الاسطبل حيث يجد بعض الدريس ، فاذا احتاج قدرا أكبر أن يطلبوا بعضا منه من جيرانهم ، اذ كان انتـــاج الدريس فى ذلك العام جيدا ••• وكانت ملابسه هو أيضا قد ابتلت بالمطر تماما ولكن هذا لم يمنعه من أن يصافح بنتيا بحرارة عندما وصـــل الى الشرفة حيث كانوا جميعا ما زالوا يتلكأون •

ـ ظننتأنك لن تأتى فى مثل هذا الطقس القـــارس ! ••• ولكن ما الذى يوقفكم فى هذا المكان المبتل ؟ لندخل ! اخلع معطفك ياجورج ، واترك مظلتك هنا ، ان المياه تهطل كالسيل ! •

ورافقوه الى غرفة الاستقبال ، وأمطروه بأسئلة لا حد لها :

ـ متى شرعت فى رحلتك ، وأين توقفت ، وماذا حدث فى الطريق؟ وبينما انهالت أسئلتهم عليه بسرعة لا يكاد يستطيع ملاحقتها ، كانوا

جميعا يحدقون فيه ، ويزنونه بفضول لم يحاولوا حتى أن يخفوه • كان بنتيا شابا وسيما فى نحو الخامسة والعشرين، ذا عينين سوداوين حادتين صغيرتين ، وشارب أنيق أسود اللون ، وكان شعره الخشن الممشط الى أعلى مقصوصا بحيث يبدو كفرشاة • كانت حركاته المرحة وسـترته الطويلة أكثر مما ينبغى ، والتى تكشف عن صديرى يقفله صف من الأزرار التى ترتفع حتى ياقته البيضاء المنشاة التى تغلف رقبته القصيرة ، لا توحى بشىء كهنوتى بشكل خاص سواء فى ملبسه أو فى حديثه •

شعر بنتيا بأن الأسرة كلها تمعن النظر اليه ، وعلى الرغم من أنه شعر بأنه مرتبك بعض الشىء ، الا أنه واصل حديثه دون توقف ، باحثا عن أغرب الكلمات ليعبر بها عن نفسه• وكان من وقت لآخر يلقى بنظرة الى لورا التى كانت تجلس بالقرب منه ، وتتأمله دون أن تنبس ويتضرج وجهها احمرارا كلما التقت عيناها بنظرات والديها الظافرة •

كان حديث بنتيا فى الأساس عن والديه اللذين كان يرتبط بهما ارتباطا عميقا • كان والده قسيسا فى أبرشية ليشنتسا، وهى مدينة صغيرة فى حجم أرماديا ، كانت تجمع أقواما من مختلف الأمم ، ومن ثم كانت تفتقر الى الجو الرومانى الذى كان سائدا هنا • وتذكر هرديليا أنه هو نفسه قد ذهب الى ليشنتسا ذات مرة ، منذ ثمانية عشر عاما ، ليحضر اجتماعا للمدرسين ، وقد اصطحب معه تيتو الذى لم يكد يبلغ الخامسة بعد فى ذلك الوقت • بل وتذكر أيضا أنه قد تعرف الى والد جورج الذى القى خطابا ذا روح عالية فى حفل الوداع •• وذكر بنتيا أيضا أن لديه عددا كبيرا من الأشقاء والشقيقات ، وكلهم فى الغالب مستقرون فى ديارهم التى تنتشر فى طول البلاد الرومانية وعرضها • وأضاف أن دوره قد حان ليستقر ويقيم لنفسه بيتا سعيدا •• وحين بلغ حديثه هذه الكلمات القى نظرة أكثر جرأة الى لورا ، التى كادت تسقط بسبب ارتباكها ، والتى قامت بعجلة وتعللت بالبحث عن شىء ما على المنضدة بجوار المرآة ، حيث أخذت تصفف شعرها حول صدغيها •

وتدخل هرديليا مرة أخرى ، فاركا يديه بصوت مسموع :

ـ حسن أيتها الفتيات ، ما رأيكن فى أن نقدم لجورج شيئا يشعره بقليل من الدفء ؟ اننى أستطيع أن أرى أن المطر والبرد قد أفقداه الحيوية •أعتقد يابنى أنه سيروقك أن تتناول بعضا من شراب « شنابس » فهو ، كما تعلم ، مشروب رومانى جيد •

خرجت الفتاتان بخفة من الغرفة ، وقد سرهما أن تتاح لهما الفرصة

لتتبـــادلا انطباعاتهما بسرعة • وسألت لورا بقلب واجف ، وهي تصف الأقداح والشراب الساخن المحلى على الصينية :

ـ حسن يا جيجى ، ما قولك ؟ كيف وجدته ؟

فأجابت جيجى بجدية :

ـ انه لطيف جـدا فى الحقيقـة • بشرفى يا لـــورا انه ألطف من أونجريانو ألف مرة • اننى فى الحقيقة لا أستطيع أن أفهم لم لم تحبيــــه منذ البــــداية ؟ ألا ترين كم هو أنيق ، وليس كغيره من طلاب اللاهوت الذين يذرعون الشوارع متأبطين مظلاتهم طوال الوقت • بل انه لا يبدو كطالب لاهوت ، انك يمكن أن تحسبيه مهندسا !

فأشرق وجه لورا وسألت بالحاح .

ـ أتظنين هذا حقا ؟ أليس قصيرا جدا ؟ •

فصاحت جيجى ، وهى ترسم علامة الصليب على صدرها :

ـ قصير ؟ انه طولك أنت بالضبط • ومــع ذلك ، فهــل ينبغى أن يكون طويلا نحيـــلا مثل أونجريانو الذى كان فى طول الصـــــارى ؟ وفضـــلا عن ذلك ، أرأيت كم هى جميلة عربتــــه ؟ انك تستطيعين على الفور أن تدركى أنهم أناس محترمون ، يعيشون فى سعة !

ـ لكننى ما زلت أعتقد أنه قصير بعض الشىء •

ضربت لورا على هذا الوتر مؤملة أن تسمع كل ما يمكن من ثناء ، وأن يتكرر هذا الثناء حتى تقتنع تماما وتنتزع كل الشكوك الطفيفـــة التى ما زالت تقلق روحها من آن لآخر •

وقررت جيجى بحماس :

ـ لا تكونى مضحكة ! ستكونان زوجين فاتنين !

لم يشرب بنتيا الا قليلا ، حتى لا يظن أحد أنه سكير • ومع ذلك انفلت لسانه بشكل متزايد • كان ثرثارا من ذلك النوع من الرجال الذين يحبون أن يتكلموا وأن يسمعوا أنفسهم • وهكذا ، ما ان أنس الى ما حوله ونفض عن نفسه ما به من خجل ، حتى عاود الحديث عن أقربائه ، وعن أصدقائهم ومعارفهم ، وعن نفسه ، وعن حياته فى المدرسة ، وفى معهد اللاهوت ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة عن لورا • وقد اعتبر الجميع ســلوكه

هذا صائبا ، اذ كان هذا أمرا جديا ، لايمكن طرقه الا بحرص كبير وفى الوقت المناسب •

وعندما كف بنتيا عن الكلام ، تحدثت الفتاتان عن الحفل الراقص الذى سيجرى فى الليلة التالية ، وكانت لديهما فرصة لتقتلا هذا الموضوع بحثا قبل أن يحل موعد العشاء • وكان جورج فى الحقيقة قد جاء فى ذلك اليوم عامدا حتى لا تفوته متعة أرماديا الذائعة الصيت هذه • ولم ترض أى من الفتاتين بحال أن تخبره بما سوف ترتديه من ملابس حتى لا تخففا من وقع المفاجأة التى ستصيبه عندما يراهما فى الغد •• وعرض بنتيـــا بشهامة أن يوصلهما بعربته ، وكان هرديليا يوشك أن يوافق ، سعيدا بأن يتخلص من متاعب الحصـــول لهما على عربة من القرية ، ولكن لـــورا رفضت رفضا قاطعا : اذ ماذا يمكن أن يقول أهل أرماديا ؟ وفضلا عن هذا لم يكن يسعهم أن يذهبوا جميعا فى عربة واحدة ، اذ ينبغى أن يرافقهم تيتو على الأقل ، علاوة على ما ستأخذانه معهما من صناديق تحتوى على ملابسهما ، فلم تكونا تستطيعان أن تذهبا بفساتين الرقص حتى لا تتغضن وتتســـخ • وأخيرا فانهما قد اتفقتـــا مع الفيرا فليبويو على أن تذهبا الى منزلها حيث يتسنى لهما أن تغيرا ملابسهما • ولم يكن لديها اعتراض على أن يصطحبهما بنتيا من بيت فليبويو بحيث يصلون معا الى الحفل •

ولما لم يكن الشاب قد ذكر بعد أين ينوى أن يمضى ليلته ، فقـــد انتهز تيتو فرصة ، ليبعد عن ذهنه فكرة أنه يمكن أن يمضى الليلة فى بيتهم ، فنصحه ، بتوجيه من السيدة هرديليا أن يبحث عن مســـكن فى أرماديا عند شخص يدعى أوجستين ، وهو سائق عربة نقل طيب ، يقطن منزلا جميلا ، ولن يتقاضى منه أجرا على مبيته اذا ما ذكر له أنه موفد اليه من قبل آل هرديليا • وشعر بنتيا ، الذى لم يكن هذا الموضوع قد شغل باله ، بارتباك بعض الشىء ، وسأل تيتو أن يصطحبه الى هناك ، ووعده بأن يعيده الى بيته بعربته • ولم يسع تيتو الا أن يجيبه الى طلبه بسرور بالغ ، خاصة أنه كان يأمل أن يحالفه الحظ فيقابل روزا لانج مصادفة •

وعندما جاء العشاء ، لم يأكل بنتيا الا قليلا ، وأكلت لورا أقل مما اعتادت ، رغم الأطباق الشـــهية التى قدمتها جيجى ، التى ضـــايقها بل وأخجلها ، أن يعرض هؤلاء الذين تجشمت من أجلهم كل هذه المشقة عن طهوها •

كان الوقت متأخرا حينما قرر الشاب فى النهاية أن يغادر المكان • ولو كان الأمر بيده لما غادره على الاطلاق ، بل كان قد استمر فى الحديث

طول الليل .. وأضاء هرديليا له الطريق ، بينما صاحت الفتيات عدة مرات تذكرنه أنهن تنتظرنه فى موعد الغداء فى اليوم التالى . وأنه لا ينبغى أن يتخلف ، خصوصا وأن الأمطار قد توقفت ، وأن السماء قد هدأت ، وأنه من المحتمل أن يكون الغد يوما رائعا .

وظلت الفتاتان ، اللتان تنامان فى سرير واحد بغرفة الاستقبال ، تتحادثان وتضعان الخطط الى ما بعد منتصف الليل ، وكانت لورا تذرف قليلا من الدموع من وقت الى آخر ، وعندما تذكرت الرقصة الثانية والفالس الأول انفجرت فى البكاء . ومع ذلك كانت جيجى تثنى على بنتيا باقتناع كبير ، مؤكدة أن له من الصفات ما يؤهله ليكون زوجا مثاليا ، وظلت تسرب فى مدائحها غمزات ساخرة من أونجريانو وتسخر من حركاته الهزلية ، ويديه المبللتان دائما ، وغروره السخيف . وكانت تسعد حقا كلما نجحت فى أن تضحك لورا .

ومع ذلك لم تحلم لورا طوال تلك الليلة الا بأوريل ، الذى كان يبدو لها كأنما يحبها بجنون ويريد أن يقتل نفسه بسبب بنتيا ، ورقصت مع أوريل الرقصة الثانية فى حلمها ، وهى فى حالة من السعادة الخالصة ، تحسدها كل من حولها من الفتيات ، بينما جلس بنتيا عابسا فى أحد الأركان ، كأنه شبح ثقيل الظل ..

- ٥ -

عندما دقت الأجراس يوم الأحد معلنة انتهاء القداس ، وبعد أن غادر القوم الكنيسة ، أسرع تيتو الى الأب بلكيوج ليسأله أن يعيره العربة فى تلك الليلة . ولكنه شعر بقليل من عدم الارتياح وهو يدلف الى فناء الدار . لم يكن قد قابل بلكيوج منذ مدة طويلة ، اذ كان يمضى كل وقته جريا وراء روزا لانج . وقد عرف فضلا عن ذلك أن القسيس عندما يمر ببيت هرديليا يدير رأسه الى الناحية الأخرى حتى لا يتعين عليه أن يحييهم ، وأنه قد تظاهر ، عندما قابل هرديليا فى أرماديا منذ أيام ، بأنه لم يره . واذ كان الخلاف بين القس والمدرس لم يكن أكبر مما كان فى هذه الأيام ، فقد خشى تيتو أن يمتد غضب القسيس اليه أيضا .

كان بلكيوج قد وصل توا الى منزله ، وتبعه بعض أعضاء مجلس الكنيسة ، الذين كانوا يرقبونه وهو يتناول طعامه وقد سال لعابهم ، وينتظرون أن يفرغ منه حتى يستأنفوا المناقشة حول اقامة مبنى الكنيسة

الجديد • كان القس فى خير حالاته وقد رحب بتيتو بسيل من عبارات الود :

ـ مرحبا بالشاعر ! لم أرك منذ دهور ! لقد انقضى منـــذ كنت هنـــا من الوقت ما كان كافيا لتتهدم مدخنتى • حسن ، هل جد جديد فى أرض ربات الشعر ؟ أية ريح طيبة دفعتك الى ؟

كان الشعر أحد الأشياء التى يحبها الأب بلكيوج ، اذ كان يذكره بالماضى البعيد ، عندما كان هو أيضا ، قبل أن يلتحق بمعهد اللاهوت ، يقرض الشعر ملتمسا عزاء لنفسه التى أرقهـا حب فتـــاة ذات عينين زرقاوين رقيقتين •

قال تيتو وقد أدهشه ذلك اللقاء الحار :

ـ أود أن أتحدث اليك يا أبت •

قال ذلك بلهجة توحى بأنه يريد حديثا خاصا ، دون شهود • فصرف بلكيوج مستشاريه قائلا :

ـ يمكنكم أن تنصرفوا الآن ، اذ ليس لدى وقت! ويمكنكم أن تعودوا بعد الظهر ، عند صلاة الغروب ! •

وعندما صارا وحدهما ، صب القس خمرا ناولها لتيتو قائلا وهو يفرغ كأسه فى جوفه :

ـ نخب صحتك الجيدة ياتيتو ، وعسى أن أراك شاعرا عظيما مثل كوشبك !

كان تيتو قد فكر فى أن يطرق الموضوع الذى جاء من أجله بالتدريج ، ولكنه اذ رأى من القس كل هذا الود ، وجد نفسه يقول ببلادة :

ـ هل نستطيع أن نستعير عربتك هذه الليلة ؟ أنت تعلم أن حفلا راقصا سيقام الليلة • وبما أنه من المحتمل ألا تذهب ، فى حين أننا ••

كان تيتو يتوقع ، نظرا لمزاج القسيس الطيب ، أن يقاطعه بقوله المعتاد « حسن ، وهو كذلك » ولذلك لم يلبث الشاب أن توقف وارتبك، وحملق فى القس ، الذى جلس صامتا مكتئبا لا ينطق بكلمة ، بنظرة حائرة •• وساد صمت ثقيل وأخذ القسيس يدير شوكة فى يده ، وقد ثبت عينيه على طبق فارغ ، ثم شرع يقول بلهجة بطيئة مكتئبة :

ـ سأدعك تأخذها بالطبـــع ، ولكن لأجلك أنت ٠٠ لاســتعمالك الشخصى ، أتفهم ما أعنى ؟ ٠٠ واذا كنت تريدها لوالديك فاننى أفضــل أن أراها تحترق على أن أعطيها لهما ٠ تلك هى الحقيقة ! اننى أقول لك بصراحة اننى لن أعطيها لهما ٠ أنت شاب ذكى وستفهم ما أعنى دون حاجة الى أن أضع النقط فوق الحروف ٠ لقد كنت فى غاية السرور عندما جاء والدك الى هنا ، كما تذكر ، ولقد فعلت كل ما استطعت لمساعدته ٠ لم أتوقع مطلقا أن يصبح خصما لى ، ولا أقول عدوا ٠ انه لا ينبغى أن يظن أننى أبله ٠ لقد لاحظت منذ بعض الوقت أنه يحاول أن يقوض سلطتى ، ولكننى لم أقل شيئا ٠ ولكن هناك حد لكل شىء ٠٠ كل شىء ٠٠ وعندما فتحت عينى على الحقيقة هالنى ما رأيت ٠٠

وظل القس يحـــدق فى طبقـــه ، لم يكن جسورا الا فى عــلاقاته بالفلاحين ٠ أما مع الآخرين فقد كان يخجل أن يواجههم بأقوال غير سارة ٠ وأحس تيتو كأنه يقف على الشوك ، واعتبر كلمات القس ظالمة ومهينة ٠ وفكر لحظة فى أن يقذفه ببعض عبارات جارحة ويضع حدا لهذا الموقف ٠ ولكن هذا كان يعنى عدم الحصول على عربة فى تلك الليلة ٠ وقال فى النهاية عندما توقف بلكيوج عن الحديث :

ـ لا تكن حساسا هكذا يا أبى تجاه كل شىء صغير ٠

فأجاب القس بصوت مختلف ، كأنه قد استنفذ ما أراده من عتاب :

ـ ولكن للأسف ليس لدى حوذى ! ٠٠ فان الرجل الذى يعمل عندى سيرحل غدا فى الصباح الباكر الى الطاحونة فى دوميتريتسا ٠ ان الطواحين المائية فى جيدوفيتسا تطحن دقيقا خشنا ، فضلا عن ارتفاع أسعارها ، ولكن الطاحونه البخارية فى دوميتريتسا تنتج دقيقا ناعما كالذهب ٠

فقال تيتو :

ـ حسن ، سأسوق الجياد بنفسى ٠

كان يفكر فى أن يستخدم ايون جلانيتاشو ليسوق العربة ، وكان من الطبيعى أن يخفى هذه الحقيقة عن القس ٠

ـ ولكن احذر أن تقلب هذه الجيـــاد العـــربة ، فهى قوية خفيفة الحركة ٠٠ الى اللقاء ، أرجو لك وقتا طيبا !

مر تيتو فى طريق عودته بمنزل ايون ليخبره بأنه سيأخذه ليسوق العربة فى تلك الليلة ٠ وكان قد أعد ثروة من التفاصيل ليزين بها قصة

مقابلته للقسيس ، ولكنه لم يستطع أن يروى حكايته المثيرة ، اذ كان بنتيا قد وصل فى تلك الأثناء ٠

وبعد العشاء ، كان كل شيء قد أعد بحيث يتاح للورا أن تترك وحدها مع بنتيا ، حتى يتاح لكل منهما أن يفتح قلبه للآخر ٠٠ وظلا وحدهما حوالى ساعة ، لم يتحدثا عن الحب ، بل ظلا يثرثران بعيدا عن الموضوع ، وتخللت حديثهما فترات طويلة من الصمت ، وكانت وجوههما تتضرج احمرارا كالأطفال اذا ماتلاقت نظراتهما المختلسة ٠٠ كان كل منهما يعتقد أن الآخر ينبغى أن يبدأ ٠ ووجدا عزاءهما فى النهاية فى فكرة أن تكاشفهما سيكون أيسر كثيرا فى تلك الليلة ، فى الحفل الراقص ، فى خضم الزحام ، وصخب الموسيقى ٠

ودبر هرديليا وسيلة لينتحى ببنتيا جانبا ليتحدث اليه حديثا جديا ، كأنما أدرك أن الشابين قد أضاعا وقتهما دون جدوى ٠ ولم يزد حديثه عن بضع دقائق ، ولكنها كانت كافية أن يقول له كل ماينبغى أن يقوله والد صريح الى شاب شريف جاء يخطب ابنته ٠ وعندما أعلن بصراحة أنه لن يستطيع أن يعطى ابنته بائنة ما ، تضرج وجه الشاب ارتباكا ، وعنـــدما أضاف العجوز أنه سيقدم على أية حال جهازا للفتاة بالاضـافة الى كل ما يحتاجه بيتهما ، اعترض بنتيا قائلا انه لن يحتاج حتى الى خيط واحد ، وأن لورا هى أثمن كنز فى العالم ، وأنه يأمل أن يحضر والداه معه فى حفل خطوبته ، وأنه واثق أنهما سوف يحبان لورا بقدر مايحبها ٠

وأنهى هرديليا حديثه بنفس مطمئنة قائلا ، وهو يربت على ظهر الفتى :.

ـ لقد رأيت أن من واجبى أن أطلعك على حقيقة الحال منذ البداية ، حتى لا يحدث أى سوء تفاهم مستقبلا ٠

ورحل بنتيا قبيل المساء الى مسكنه فى أرماديا لكى يتيح للفتاتين وقتا للاستعداد للحفل ٠٠

امتلأت عربة القسيس بالصناديق واللفافات وحقائب السفر كأنهم يعدون لرحلة لسيبيريا ٠ وتعين على تيتو أن يصعد الى مقعد السائق بجوار ايون ، أما الفتاتان فلم يكن من السهل تبينهما بين أكداس الأمتعـــة ٠ وأعطى هرديليا بعض النقود لتيتو لأى نفقات طارئة ، مكررا له النصح ألا يبعثرها ، وأن يقتصد فى انفاقها لأنه لا يدرى الى متى ستطول اقامة

بنتيا وكل قرش له قيمته ، وعندما يدفع ثمن تذكرة الدخول ينبغى أن يدفع خمسين قطعة فضية ــ ولا يزيد ــ فوق المبلغ المطلوب ، حمـــاية لشرف العائلة ، حتى يذكر اسمها فى صحيفة جازيتا ترانسلفانياى كأسرة « محسنة » ، وألا ينغمس فى الشراب أو يسرف فى العربدة تحت أى ظرف من الظروف ..

وتمتمت السيدة هرديليا والدموع تترقرق فى عينيها ، عندما شرعت العربة فى الرحيل :

ــ وفقكم الله يا وألادى ! .

وتذكرت لورا عندما أصبحوا على أبواب أرماديا أنهـــا قد نسيت مروحتها ، فتوقفوا ليتداولوا فى الأمر . وأوشكوا أن يقرروا العودة ، فقد كانت المروحة ذات قيمة عظيمة ، اذ أنها كانت تحمل توقيعات مختلفة من حفلات سابقة ، وكانت تعتبر لذلك تذكارا حقيقا . ولكن تيتو نصحها بأن تستعير مروحة من الفيرا . ووافقت لورا على ذلك ، مدفوعة بفكرة أن العودة ستكون فألا سيئا ، ولكنها ظلت تردد أن هذا الحادث النكد قد أفسد عليها ليلتها كلها .

أمضت الفيرا والفتاتان أكثر من ســاعتين فى الاستعداد للحفل ، وساعدهن فى ذلك خادمتان تحت اشراف السيدة فليبويو نفسها ، وهى سيدة سمراء مفرطة فى البدانة ، فى وجهها آثار مرض الجدرى ، وقلبها دافىء كقلب الرغيف الطازج . وفى النهاية كن جميعا جميلات كالدمى .

وقالت السيدة فليبويو وهى تحتويهن بنظرتها الحانية ، بينمـا كن يزلن المساحيق العالقة بحواجبهن :

ــ أراهن أنكن ستصبحن ملكات الحفل أيتها الفتيات .

كان تيتو قد غـــادر منزله بكامل هنــدامه ، فى زى من طراز قديم نوعا ، وصديرى ضيق ، ورباط عنق أبيض منشى ، وقفازا أبيض تظهر أطرافه من جيبه لتعلن عن وجوده . ولما كان الانتظار قد أصابه بالملل فقد طلب الى الخادم أن يكوى سرواله الذى تغضن أثناء ركوبه العربة ، بينما أخذ يطلى حذاءه حتى صار يلمع كالمرآة .

كانت الفتيات كالحوريات عندما جاء بنتيا ليأخذهن الى الحفل . وقد قوبل ، بالتكريم اللازم ، وهنأته السيدة فليبويو بحظه السعيد الذى جعله يجد فتاة جميلة حلوة الشمائل مثل لورا ، بينما همست الفيرا التى سرها مظهره قائلة للفتيات :

ـ ياله من شاب وسيم !

وحل تيتو مشكلة العربات ، فاقترح أن تذهب الفتيات مع السيدة فليبويو فى عربة الأب بلكيوج ، بينما يذهب هو مع بنتيـــــا فى عربة الأخير ، بحيث يصلوا جميعا فى نفس الوقت الى المدرسة التى سيقام الحفل فى صالة ألعابها ·

أضاء مدخل المدرسة الرئيسى صفان من الفوانيس ، ووقف جيش كامل من « المضيفين » على طول الدرجات الحجرية ليرحبوا بالضيوف ، وقد حمـــل كل منهم شارة مثلثة الألوان على صـــدر سترته · وقد هرع عشرة من هؤلاء المضيفين الى العربة يمدون أيديهم الى الفتيات ليساعدوهن على الهبوط ·

وارتفعت أصوات الفتيات اللائى أحاط بهن « المضيفون » من كل جانب :

ـ هل تأخرنا ؟ ·· كلا ، نعم ، عفوا ·· هـــل بدأت ؟ منذ بضع لحظات ·· منذ وقت طويل ؟ هذا رائع ·· يالأسف !

كان بنتيا يسير خلف الفتيات ، مصافحا معارفه ، بينما تخلف تيتو ليصدر تعليماته الى الحوذيين · وقد خص ايون ، الذى لم يكن سيعطيه شيئا جزاء أتعابه ، بأن طلب اليه أن يحضر بعد قليل ليشاهد الحفل وليكون فى متناول يديه ساعة الرحيل · وربما قدم له فى النهاية زجاجة من البيرة ، اذا لم تكن أثمانها مرتفعة ، لأن السائقين يطلبون فى مثل هذه المناسبات أجورا فاحشة حقا · ونصحه بأن يمر فى هذه الأثناء من حديقة المدرسة لينتظر عند الباب الخلفى ، حيث يستطيع أن يرى مايجرى داخل صالة الألعاب ·

كان تيتو يعرف « المضيفين » جميعا ، فهم من الشباب الذين اختيروا من بين المدرسين ، وطلاب الجامعة الذين تصادف وجودهم فى المدينة ، فضلا عن بعض طلاب الصفوف العليا بالمدرسة · وكان أوريل أونجريانو أيضا واحدا منهم ، وقد توارى فى أحد الأركان خجلا عندما مرت الفتيات· وانتظر بنتيا والفتيات والسيدة فليبويو فى الاستراحة التى أقيمت الى جوار حلبة الرقص ، حتى يلحق بهم تيتو · وكان روماشكو، مدرس الرسم العجوز الضئيل ، يجلس الى منضـــدة بالقرب من البـــاب ليقوم بمهمة الصراف ·· فذهب تيتو مباشرة الى السيد روماشكو الذى غمغم مبتسما بعد أن صافحه :

— لقد دفع ثمن التذاكر ٠٠ ان السيدة بنتيا ٠٠

واعترض تيتو بالطبع ، كاجراء شكلى قائلا :

— حسن يا جورج ، فى الحقيقة ما كان ينبغى أن تفعل هذا ، حسن اذن يا سيدى الأستاذ ، هاك ريال منى !

— كتبرع ؟ ٠

فأجاب تيتو بزهو :

— نعم !

فرد المدرس الصراف قائلا :

— لك أحر آيات شكرى ٠

وكتب اسم تيتو فى مذكرة خاصة كان قد حبر سطورها بألوان مختلفة ٠

كان الملعب الكبير قد تحول الى صالة للاحتفالات ، زينت بجدائل من فروع أشجار الصنوبر ٠ وقد ظل جميع تلاميذ المدرسة أسبوعا كاملا يعملون بعد الظهر فى اعداد هذه الزينات ٠ وأقيمت فى أحد جوانب القاعة منصة استخدمت فى بنائها مناضد التلاميذ التى صفت الواحدة منها فوق الأخرى ، وأقيمت أجنحة المنصة باستخدام سجاجيد وأبسطة زاهية الألوان، بينما شغلت بقية القاعة بعدة صفوف من المقاعد التى جمعت من عدة مساكن فى المدينة ، بشرط أن تعاد الى أصحابها فور انتهاء الاحتفال ٠ وخصصت المقاعد للسيدات والآنسات وحدهن ، اذ ظل السادة باستثناء بعض كبار السن ، وقوفا الى جانب الجدران ، وقد تعهدوا بأن يرددوا هتافات الاستحسان التى ستنبعث من الطرف الآخر للقاعة ، حيث اصطف طلاب السنوات النهائية لكى يعربوا عن اعجابهم وحماسهم للعرض ٠

اصطحب « المضيفون » الفتيات الى مقاعدهن فى الصف الأمامى ، وقد احتجزت لهن أفضل المقاعد من أجل ابتساماتهن الرقيقة ٠ وبقى تيتو وبنتيا فى مكان بالقرب من الباب ٠

وكان العرض قد بدأ بالفعل ٠٠ كان هناك تلميذ نحيل يشبه الأعشاب البرية يسرد حكاية عن الغجر ، وكان يأتى بحركات غريبة بوجهه طوال الوقت ، ويندفع فى طول المنصة وعرضها ، ويغير صوته باستمرار ، فيثير قهقهات صاخبة فى مؤخرة القاعة وابتسامات حذرة بين مقاعد الصفوف الأمامية ٠

كان البرنامج غنيـا ومتنوعا ، فقـد أعقب ذلك عشر منولوجات واسكتشات وقصائد ، قوبلت برضا واستحسان قومي مناسب · وتلا ذلك كلمة ألقاها أستاذ الأدب ، وتخللها ، وبخاصة فى جزئها الثانى ، تثاؤب متكرر ـ وان لم يكن قـد أحسن اخفاؤه ـ من جـانب جمهور المستمعين · ومع ذلك فقد كوفيء المحاضر بعاصفة من التصفيق المرح ، الذى يمكن تفسيره بعبارة « شكرا لله ، لقد انتهى » ·

تنفس الجمهور الصعداء · وامتلأ البوفيه فى لمح البصر بالحاضرين، الذين تركوا القاعة ليتيحوا للتلاميذ أن يحولوا المسرح الى قاعة للرقص ، بأن يصفوا المقاعد الى جوار الجدران ، ويرشوا الارض بالماء ، وينثروا مسحوقا خشنا يمنع الارضية من أن تكون زلقة أكثر مما ينبغي حتى لا تكسر سيقان راقص متحمس ·

وكان تيتو قد عني بأن يحجز لهم أفضل منضـدة فى البوفيه · وتجمعت كل الفتيات اللائى يحضرن الحفلات الاسبوعية حول المنضدة التى كانت السيدة فليبويو تتزعمها · وتجمع حولهن « المضيفون » وغيرهم من الشبان البارزين · وكان بنتيا هو أبرز شخصية فى الجماعة ، وكان تيتو يقدمه الى كل قادم قائلا بزهو :

ـ هذا هو من سيصبح صهرى !

كانت أرماديا كلها فى الواقع تعرف أن ابنة هرديليا سوف تتزوج ، بل ان القرى المجاورة كانت تعرف ذلك أيضا · كان المدرس قد تباهى بذلك فى احدى حانات جريفيتسا فسرى النبأ كما تسرى النار فى الهشيم ، وظلت الفتيات بشكل خاص ، اللائى تملكهن الفضـول لرؤية الشخص الذى سيصبح زوجا لصديقتهن ، تختلسن النظر الى بنتيـا · وأسرعن جميعا هامسات فى أذن لورا :

ـ انه شاب لطيف جدا !

ثم بدأت الثرثرة المعتادة · وأخذ الجميع يعلقون على العرض ويثنون على القائمين به ، ثم بحث كل عن شريك فى رقصات الكادريل والرومانا · وانتظروا بصبر ـ نافذ أن يبدأ الرقص ·

انتقل تيتو ، بعد أن انتهى من تكريم من يجلسون الى مائدته ، الى مائدة أخرى ، حيث كانت لوكريتسيا دراجو تجلس مع والديها ، وهما عملاقان ، كل منهما فى استدارة برميل · كان سـتيفان أوبريا مدرس

الأدب الشاب ، الذى كان يحاضر منذ وهلة ، وأحد طلاب القانون ، يلازمان الفتاة فى انتظار الرقص ، وينحنيان ويتملقانها بعبارات ثناء معسولة • حيا تيتو العجوزين بلهـجة ألفة ومودة ، واتخذ لنفسه مقعـدا بجوار لوكريتسيا ، وقبل يدها دون أن ينسى أن يضغطها برفق ، كما ينبغى لرجل له حقوق معترف بها • وتضرجت الفتاة بينما شحب وجه المعجبين لرؤية هذه الجرأة من جانب الشـاعر ، اذ كانا قـد ظلا واقفين أمام منضدتها ربع ساعة •

وقالت لوكريتسيا برقة ، وقد ثبتت عينيها على المحاضر الخجول :

ـ هلا جلستما أيها السيدان !

وأخذ الشابان يتراشقان باللمزات والتلميحات السـاخرة ، الأمر الذى ضاقت به السيدة دراجو التى كانت تخشى أى مناقشة لاتستطيع أن تسيغها • كان كل من أوبريا وتيتو يضمر حقدا دفينا تجاه الآخر ، على الرغم مما بينهما من صداقة ، اذ كان الاستاذ يتعالى على شعر تيتو ، بينما كان الأخير يصيح على رءوس الاشهاد أن أوبريا لا يعرف عن الادب أكثر مما يعرف الحارس الليلى فى بريباس • بدأ تيتو بمهاجمة محاضرة الأستاذ ، بقصد التقليل من شأنه فى عينى لوكريتسيا • ولكن المعركة لم تنته عند هذا الحد ، اذ ابتسم الجميع عندما قلد تيتو حركات منافسه الخرقاء ، ولكن أحدا منهم لم يبد أى كلمة موافقة على انتقادات تيتو • ثم أخذ الشاعر يسخر من ملابس المحاضر ، وحالفه التوفيق هذه المرة اذ انفجروا جميعا فى ضحك عاصف اشـترك فيه أوبريا نفسـه ليخفى ارتباكه • كان الاستاذ ينفرد فى كل قاعة الرقص بارتداء « الردنجوت » ، وكان قد أمر باعداد ملابسه هذه خصيصا لهذه المناسبة ، وكان فى قرارة نفسه فخورا بهـذا الزى ، وكان يشـعر بتفوقه على الآخرين من هذه الناحية • كان بعض السادة الآخرين يرتدون « الصديرى » ، وكان البعض الآخر يرتدون سترات رسمية سوداء (الفراك) وكان أكثرهم يرتدون سترات سوداء قصيرة ، بل وكان بعضهم يرتدى ملابس فاتحة ومريحة • وعلى الرغم من انتصار تيتو ، الا أن لوكريتسيا ووالديها لم يكفوا لحظة عن أن يخصوا الاستاذ باهتمام خـاص اذ كان فى نظرهم زوجا مثاليا لابنتهم ، خصوصا وأنها ظلت تتردد على الحفلات الراقصة بضع سنوات دون جدوى ، وكان تيتو قد لاحظ بالفعل محاولات لوكريتسيا أن تأسر أوبريا منذ العام الماضى ، ولكن هذا لم يكن يزعجه • فهو فى المقام الأول لم يكن يعتبر نفسه من الخطاب الجادين • ولم تكن لوكريتسـيا فى نظره

أكثر من فتاة جميلة ، يستطيع أن يتحدث اليها وأن يتدرب على اعلان الحب معها ، ويستطيع فى النهاية أن يختلس منها قبلة بريئة • ولو لم تكن لوكريتسيا ، لكانت هناك فتاة أخرى ، ذات طابع رومانسى حزين ، لتلهمه أشعار الحب الروحى • وقد فقدت لوكريتسيا المكان الأول فى قلبه خصوصا بعد أن انتعشت آماله فى أن يكسب حبا أكثر مادية ، هو حب روزا لانج • أما السبب فى أنه لم يتخل عنها نهائيا ، فهو اغاظة أوبريا •

وانهمك المحاضر فى مناقشة مع دراجو حول مرتبات المدرسين التى لم يكن من المنتظر أن تزيد زيادة طارئة ، فمال تيتو نحو لوكريتسيا وسألها هامسا :

ـ هل حجزت لى رقصة الكادريل الثانية ؟

ـ أوه ، هل تذكرت لتوك أن تطلبها ؟ لقد وعدت بها شخصا منذ وقت طويل !

ـ أحقا فعلت ذلك ؟ لم أكن أعتقد أنه من الضرورى أن أذكرك • أنت تعرفين جيدا أننى فى خدمتك دائما • حسن ، ليس هذا مهما • ومن هو الرجل السعيد ، اذا لم أكن متطفلا ؟

فغمغمت الفتاة وهى تشير الى أوبريا :

ـ هو •

وقال تيتو عابسا :

ـ هم ، وهو كذلك • اذن فأنت تفضلينه • سأتذكر ذلك • وما رأيك فى الكادريل الأول ؟

ـ بكل سرور •

تمتم تيتو من بين أسنانه ، ونهض عن مقعده ببطء ، ومظهره يدل على استياء غامض ، ثم سار مبتعدا • وانكمش قلب لوكريتسيا • كانت قد كذبت عليه ، وخشيت أن تفتضح كذبتها • كانت قد رفضت أن تعطى رقصة الكادريل الثانية لتيتو بقصد أن تعطيها لأوبريا ، الذى كان أكثر خجلا من أن يطلبها • واضطربت بضع لحظات ، ثم سألته فجأة :

ـ قل لى ياسيد أوبريا ، ألديك من يرقص الكادريل الثانية فى مواجهتك ؟

فقال الاستاذ مترددا :

ــ ليس من الصعب أن أجد من يرقص فى مواجهتى ، ولكنى لم أجد شريكة لى فى الرقصة يا آنسة لوكريتسيا ٠

وصرحت لوكريتسيا وهى تنظر الى الأرض تحفظا واغراء :

ــ كذلك الحال معى ٠

وهكذا تقرر الأمر ٠ فقد طلب أن تشرفه بالرقصة ، ورحبت هى بأن تمنحه هذا الشرف ٠٠

اختلطت جلبة الأصوات بصليل الأقداح ، ورائحة العرق برائحة الشراب وشذى العطور الرخيصة ، والحرارة المتزايدة أبدا التى كانت تلون خدود الفتيات والتى كانت تضطرهن الى التوارى خلف ستار يابانى لينشرن المساحيق كى يزلن لمعان الدهون على أنوفهن ٠ ولم يلبث كل هذا أن غرق فى الأنغام الحارة لرقصة سريعة انبعثت من أوتار الفرقة الغجرية التى تعزف فى القاعة التى أصبحت صالة للرقص ٠ وأرهفت الموسيقى مزاج الشبان والشابات فأخذت أقدامهم تختلج فى قلق ٠

وارتفعت صيحة : « جوجى ! جوجى ! » فتلقفتها الأفواه كأنها تنهيدة ارتياح ٠

كان « جوجى » هو اسم عازف الكمان فى بيستريتسا الذى كانت فرقته من العازفين الغجر أشهر فرقة موسيقية فى المنطقة ، وكانوا قد استخدموه ليزيدوا الحفل بهاء ورونقا ، ولم يكن تأجيل الحفل حتى ذلك الوقت الا بسبب انشغاله ٠

واصطف الراقصون أزواجا فى حلبـــة الرقص ، واتخذت الأمهات أماكنهن على المقاعد التى صفت الى جوار الجدران لتتابعن الرقص وتبدين أمارات الاعجاب ٠ وامتلأ الجـــو بالموســيقى ، وارتعشت الشـــموع فى الشمعدان الذى تدلى من وسط السقف ، وتساقطت منها قطرات الشمع ، فاضطرت الراقصين الى تجنب منطقة الخطر ٠

ورقصت لورا مع بنتيا الذى لم يكن راقصا ماهرا ، والذى تكررت أخطاؤه على نحو أربك لورا ، وذكرها ببراعة أوريل وقدرته فى الرقص دون خطأ ٠ كان بنتيا يعتذر كلما تعثر ، ويضغط يدها برفق ، وكانت الفتاة تجيبه بابتسامة ملائكية مستسلمة ثم تدير رأسها فى أعقاب أزواج

الراقصين • وكانت جميع الآنسات تقريبا بما فيهن لورا ، ترتدين أزياء قومية رومانية ، مما أضفى على الحفل طابعا أكثر بهجة وحبورا •

أما تيتو فلم تعد به رغبة أن يدخل قاعة الرقص ، فقد كان موضوع رقصة الكادريل الثانية يثير حفيظته ، وقد جلس ، لكي ينسى ما به من كدر ، يسامر ماداراسي حارس الغابة ، حول زجاجة من النبيذ • وكان مداراسي هنغاريا معتدلا في تفكيره ، ولم يكن أي احتفال روماني يفوته ، كما أنه كان يجيد الحديث باللغة الرومانية ، بل وقراءتها • وكان معجبا بمواهب تيتو الشعرية ، وكثيرا ماكان يستمتع بالتحدث اليه في شئون الأدب ، ويذكي متعة الحديث بكئوس الشراب البهيجة ، اذ كان الهنغاري ذواقة للنبيذ ، وكان يردد قولا مأثورا أن الخمر والأدب صنوان لا يفترقان • وبعد برهة قصيرة توقف فاسيلي شيتسو رئيس المقاطعة ، أمام منضدتهما • لم يكن فاسيلي شيتسو ، رغم كونه رومانيا ، يحضر هذه الحفلات الا كممثل للسلطات ، ليتأكد من أن هذه الاجتماعات لا تدبر ، تحت ستار الحفلات الراقصة ، مظاهرات غير وطنية أو أعمالا تحريرية ضد هنغاريا • ولم يكن يتكلم كثيرا ، وكانت نظراته كئيبة دائما ، كأنه يعاني باستمرار من ألم في أسنانه • وكان الرومانيون يحتقرونه ، وان يكن هذا في السر فقط ، وكانوا يلقبونه « الخائن » •

كانت بهجة الراقصين تتعاظم باستمرار • وقد انسحب بعض الراقصين الأكثر حرارة ، والذين لم يلبثوا أن تصببوا عرقا ، الى غرفة خلفية ليبردوا أجسادهم ويغيروا ياقاتهم • أما الفتيات ، فقد كن كما لو كانت لهن سبع أرواح ، فلم يصبهن الكلل من الرقص وازدادت ابتساماتهن اغراء وفتنة •

كانت لورا تدرك أن كل الأنظار تتجه اليها ، ومن ثم فقد ظلت ترقص طوال المساء تقريبا مع بنتيا • وقد سمحت برقصة واحدة ، لا أكثر ، لعدد من المدرسين والطلاب ، الذين راعت في اختيارهم ألا يكونوا قد توددوا اليها من قبل ، وظلت تسترق النظر الى بنتيا طول الوقت ، لتوحي بأنهم جميعا ، فيما عداه ، يثقلون عليها حتى الموت • وعندما وجدت نفسها في آخر تشكيلات الكادريل وجها لوجه أمام أوريل اونجريانو حيته بايماءة فاترة ، وأخفت مشاعرها بمهارة • وربما كان أوريل قد تعمد اثارة مشاعرها ، فقد رقص مع جيجي أكثر مما اعتاد • ولم يتحرك بنتيا بالطبع خطوة واحدة بعيدا عن لورا ، وعندما كانت تراقص أي شخص آخر لم تكن عيناه تفارقانها • ولكنه لم يجرؤ على أن يخاطبها باسمها

مجردا الا فى رقصة الكادريل الثانية ، حيث قال لها بلسانه ما كان يكتبه لها فى خطاباته : انه يحبها أكثر مما أحب أى انسان امرأة من قبل ، وأنه مصمم على أن يجعلها أسعد انسانة على وجه الأرض • واستمعت لورا اليه، وتأثرت مشاعرها بعمق ، فلم تكن قد استمعت الى اعتراف بالحب على هذا النحو المباشر • ولكنهـا لم تلبث أن اسـتعادت قدرتهـا على الحديث ، واستطاعا بعد مناقشة مستفيضة أن يتفقا على تحديد موعد للخطوبة فى الشهر التالى ، حيث يستطيع والدى جورج أن يحضرا أيضا ••

اتقدت قريحة تيتو فى النهاية بفعل الخمر وفكرة الانتقام لنفسه من الفتاة البلهاء التى جرحت كبرياءه بعمق ، فنهض عن المنضدة واختلط بجموع الراقصين • وقد فضل ، بدلا من أن يرقص ، أن يتتبع خطوات لوكريتسيا ، وأن يهمس فى أذنيها بفقرات من الشعر ، تتضمن تلميحات قاسية عن تدللها وعدم وفائها ، وفعل كل مافى وسعه ليعكر عليها صفو متعتها العاطفية القصيرة مع أوبريا • وكانت الفتـاة تجيب فى كثير من الأحيان بابتسامة مشرقة ، ومع ذلك فقد تمتمت مرتين قائلة : « من يدرى ؟ » وأرفقت عبارتها بكركرة ضحكة عفوية ونفور متعمد •

وجاءت الاستراحة الطويلة بعـد منتصف الليل بنحو ساعتين • وتدفق الجمع الى البوفيه مرة أخرى • وامتلأت المنضدة بالطعام والشراب• وأخذ الراقصون يلطفون مابهم من حمى بالهجوم على براميل البيرة • وعنى جوجى بألا يسكب الراقصون ما بيدهم من أقداح ، فراحت أحدث الأغانى وأكثرها عاطفية تنساب الى القلوب الخافقة • وبدا قوسه كأنما أصابه مس من السحر • كان ينتقل من منضدة الى أخرى وهو يعزف موسيقاه ، يصلصل قدحا هنا ويشرب قدحا آخر هناك ، ويلقى الى الفتيات بنظرات والهة ، بفضل ماله من امتياز كشخص يألفونه ويحبونه جميعا •

وعندئذ فقط تذكر تيتو ايون ، ووجده عند باب الحديقة ، وقد أشرق وجهه سرور واعجابا ، فأحضر له زجاجة من البيرة وقطعة من اللحم البارد • وسأله بعجلة ، اذ كان حريصا على ألا تنقطع مضايقته للوكريتسيا بقوله :

ــ حسن يا ايون ، ماقولك ؟

فقال ايون وقد التمعت عيناه :

ــ آه ، ولكنها رائعة ، تلك الحفلات التى تقيمونها يا سيد تيتو : ؟ •

وأتاح الفالس الأول بعد الاستراحة ترضية كبيرة لتيتو • فقد نسى

الاستاذ أوبريا وهو يرقص مع لوكريتسيا أمر الشمعدان الكبير ومر بمنطقة الخطر • وانهال وابل من الشمع الساخن على ظهر العاشقين • وضحك الجميع لهذا الحادث ، وأسرع تيتو يهمس فى أذن الآنسة الغادرة :

ـ أترين ؟ هذا هو عقاب الله على الكادريل الثانية !

وظهرت أضواء الفجر خلال نوافذ القاعة ، ولكن لم تبد أى امارات على أن الحفل قد أوشك على الانتهاء • ولم يكن الشبان يقنعون بل كانوا يستعيدون كل رقصة بضجة كبيرة ، وقد أصروا بعناد على أن يمنعوا الفتيات من العودة الى منازلهن •

تدثر ايون بمعطفه ، ووقف خلف باب الحديقة ، محملقا بانتباه فيما يأتيه السادة من لهو • لم يكن يشعر بالبرد أو الرغبة فى النعاس • فالموائد الممتلئة ، والموسيقى ، وجمال الفتيات ، والضحك ، وحتى عرق الراقصين ، كل هذا كان يثير قلبه المضطرم • كانت رؤية هذه الوجوه المبتهجة تدفعه الى الاعتقاد أن هؤلاء الناس لابد أنهم جميعا يعيشون حياة سعيدة خالية من الهموم • وكان فى قرارة نفسه يحسدهم ، عندما يتذكر آلامه ومتاعبه • وغمغم لنفسه فى غمرة ندمه :

ـ انهم يحيون حياة سعيدة ، هؤلاء السادة !

لو أنه كان قد استمر فى دراسته ، لأصبح واحدا من هؤلاء الراقصين ، سعيدا بلا متاعب ، خاليا من هذا الضجر الذى ينفذ الى عظامه ! لو كان قد استمع الى نصيحة هرديليا •• ولكن ندمه لم يستمر أكثر من لحظة • وحلق قلبه نحو بيته مرة أخرى ، وداعب خياله الارض التى لا تعنى حياته كلها شيئا بدونها :

ـ كل هذا لا يساوى بصلة جمدها الصقيع •

هكذا قرر فى النهاية ، وعيناه مازالتا تعكسان مزاح السادة ولهوهم ، ولكنهما لا تريان شيئا سوى التربة الخشنة التى تغريه كأنها فلاحة جميلة قوية يدغدغ عناقها عظامه ذاتها ••

ـ ٦ ـ

اجتذب ايون أنظار الجميع ، وشعر القرويون جميعا بالأسف من أجله عندما علموا بما جرى له فى المحكمة • وأنحى بعضهم باللوم على بلكيوج واختصه بالسباب ، وعنف الآخرون سيميون لونجو ، الذى دافع

عن نفسه بكل ما استطاع من قوة ، مكررا أنه ليس ملوما ، ولكنه لم يجرؤ على أن يذكر كلمة واحدة عن خطوط الارض التى كانت سبب النزاع • وكان فاسيلى باكيو هو الرجل الوحيد فى القرية الذى يستطيع ، عندما يكون مخمورا ، أن يقول : « هذا هو الذى كان يجـــرى وراء صغيرتى أنا » • ولكنه كان عندما يفيق يأخذ بدوره جانب ايون ، وعندما قابله ذات يوم على الطريق تحدث اليه بلهجة عطف قائلا :

ــ لا تبتئس يابنى ، السجن للرجال وليس للشياطين !

وأيا كان الأمــر فان الحــكم قد قـــوض كل خططه ، وزعزع ثقته بنفسه • فقد شعر بأنه اذا ظل فى الســـجن ، بعيدا عن أنا ، أسبوعين كاملين ، فانه سوف يفقدها ، والأسوأ من هذا ، انه سيفقد أرضها التى كان قد بدأ يعتبرها ملكا له • وقد خالجه شعور داخلى غريب بأن فاسيلى باكيو سينتهز فرصة غيابه فيأتى بجورج الى بيته • وكان هذا يعنى خيبة كل آماله وبقائه فقيرا شقيا كما كان من قبل ، مقضيا عليه الى الأبد أن يعنى بأرض ليست ملكا له •

وظل قلقه يزداد كلما مرت الأيام دون أن يصـــله الاعلام القضائى بالحكم • وخيل اليه أن هذا التأخير ربما كان يعنى حكما أقسى • فاذا كانت بضع كلمات من القسيس قد أدت الى حبسه أسبوعين ، أفلا يمكن أن يتوقع مصيبة أعظم ؟ ومع ذلك لم يكن ضغينة للقس أو حتى للقاضى • وشعر بأن هذا انما هو نقمة حظه العاثر • والشىء الوحيد الذى كان مصدر رضى له فى هذه المحنة هو أنه قد فاز بخطوط الأرض من سيميون نهائيا •

وظل يذهب الى أنا كل ليلة ، وظلت مخاوفه من أن يفقدها تتزايد • وبدأت رقة الفتاة ــ التى كان يشك فى أنها مجرد تصنع ــ تقلقه • وجعله ترددها فى السماح له بدخول منزلها ورفضها أن تقضى الليل معه فى الجرن أو فى مخزن الدريس ، يشك فى اخلاصها • وعندما كان يخبرها ذات ليلة بمتاعبه ، توسلت اليه ، والدموع فى مقلتيها ، أن يهدأ بالا ، وأن من الخير له أن يبقى فى السجن من أن يغضب السلطات القائمة • وهاج ايون وقد أصيب فى الصميم • وتأكد أن نواح الفتاة لم يكن الا لخداعه ، وانها انما تريد أن تخدعه • ولم يقل شيئا ، ولكنه صمم على أن يناضل ويضمد ، وليكن مايكون •

وما أن وصل الاعلام القضائى ، حتى جرى ايون به الى هرديليا • وقال باكتئاب :

ـ أرجو أن تقول لى يا سيدى ما ينبغى أن أفعل ، لا تتخل عنى ، فان هذا الأمر الفظيع يقتلنى !

فأجاب المدرس فى خليط من الجد والهزل ، وقد أدرك مأزق ايون ومبلغ قلقه :

ـ لا تكن أبله يا ايون فأنت رجل على أى حال ، ولست مجرد شيء لا قيمة له !

فغمغم الفتى وهو يهز رأسه :

ـ أنت لا تعلم ما أعلمه يا سيدى ، لو كنت تعلم لقلت مثلما أقول !

قرأ هرديليا الورقة كلها بصوت غير مسموع ، ثم قرأها مرة أخرى كأنه لم يدرك كل ما تعنيه ٠

وهمهم وهو يرفع عينيه الى الشاب :

ـ هم ! رأيى أن من الأفضل يا ايون أن تتخلى عن الموضوع كله وأن تقنع بالحكم الذى حكم عليك به ! وعلى أية حال ماذا سيحدث اذا أمضيت أسبوعين فى السجن ؟ ٠٠ والا فقد تتطور الأمور الى ما هو أسوأ !

لم يعد المدرس يميل الى التدخل الى أبعد من هذا الحد ٠ ولو أنه اتبع نداء قلبه ، لذهب مع ايون الى الامبراطور نفسه ٠ وكان فى هذه الاثناء قد قلب الأمر على كافة وجوهه وتبين أن كل سيف سلاح ذو حدين فالقاضى يقيم العدالة وفق نزواته وأهوائه ، وهو يعتبر نفسه عالما بالطبيعة البشرية ويفسر القوانين بما يتلاءم مع ارادته السمحة ٠ كان مما يسعد هرديليا أن يتاح له أن يدق مفاصله ، وبخاصة أن هذا الهنغارى كان دائما يتصرف ازاءه بغطرسة ، بل وبازدراء أحيانا ٠ ولكن هرديليا كان يعلم من ناحية أخرى أن القاضى حقود محب للانتقام ، وهكذا استطاع أن يكبح دوافعه ، فان القاضى اذا اكتشف أن هرديليا هو الذى كتب الشكوى ، فلن يهدأ له بال حتى يسحقه ، وفضلا عن ذلك فان هذا أيضا يعنى ادخال بلكيوج فى ذلك الموضوع اللعين ٠ ولو وضع فى اعتباره مسلك القس تجاهه فى الفترة الأخيرة ، فانه سيكون محقا بالتأكيد لو أنه ضربه ليلقنه درسا ٠ ولكن ماذا سيجنى عندئذ من الشقاق العلنى مع القس ؟

وحاول أن يوضح للشاب كل المخاطر التي ينطوى عليها الموقف • ولكن نصائحه المسالمة جعلت ايون أكثر عنادا ، فقد ظل الأخير يكرر ، وهو يدق على صدره طول الوقت :

ـ انني سأتحمل المسئولية ! انني أفضل أن أشنق على أن أدعهم يدوسونني بنعالهم ويعاملونني كأنني قذارة تحت أقدامهم !

وأضعف اصرار الشاب من مقاومة المدرس ، وظلا يتحاجان طوال المساء • وكان هرديليا كلما ازداد ترددا ، ازداد ايون عنادا واصرارا ، كأن حياته نفسها متوقفة على هذا الاصرار •

وظلت السيدة هرديليا والفتيات ، اللائى كن يشاركن المدرس كل وساوسه ، يحرضن ايون على أن يتخلى عن الأمر ، أو على الأقل ، أن يذهب الى كاتب القرية ليكتب له الشكوى • وفى النهاية أدلى تيتو برأيه أيضا :

ـ وأنا أيضا أعتقد أن من الأفضل أن تترك الأمر كله كما هو لأنك لن تستطيع ، أيا كان ما تفعله ، أن تتخلص من الذهاب الى السجن هذا شيء مؤكد كالانجيل • ولكن اذا كان مصرا على أن يتصرف كما يحلو له ، حسن اذن ، لماذا لا تكتب له الشكوى ؟ أعتقد أنك تستطيع أن تفعل ذلك بأمان كامل ، ولتدع لورا تنسخها حتى لا يتعرف أحد على خطك ، وتنتهى من هذا الأمر ! هذا هو أبسط الحلول !

وتبنى الجميع هذا الرأى ورضخ هرديليا قائلا :

ـ حقا ، ومن ذا الذى سيتعرف على خط لورا ؟

وجلس هرديليا وكتب شكوى مفصلة مثيرة للعواطف ، عن قاض وقسيس اتفقا فيما بينهما على أن يضطهدا ويسيئا الى فلاح برىء مسكين وعندما قرأ الورقة لايون باللغة الرومانية ، تأثر الجميع تأثرا عميقا • وجعل هرديليا لورا تكتب العنوان أيضا على ظرف كبير : « وزير العدل » وقال المدرس بصوت تشوبه رعشة :

ـ ها هو يا ايون ! سجله غدا صباحا من مكتب بريد أرماديا ولنأمل فى أن تكون نتيجته خيرا !

كان ايون مبهور الأنفاس لفرط سروره • ووضع ثلاث قطع من النقود على المنضدة ورفض أن يغادر المنزل الا اذا قبلها هرديليا •

وصاح الشاب وهو يقبل يد المدرس :

ـ لا تستطيع أن تتصور أى معروف كبير أسديته الى ٠

وقال تيتو بعد أن رحل ايون :

ـ لقد أحسنت بكتابة الشـــكوى له ٠ وعلى أية حال ، لماذا يهزأ هؤلاء الحمير بالفتى المسكين ؟

- ٧ -

كان النهار يوشك على المغيب بعد ذلك بأسبوعين ، عندما توقفت عربة صغيرة أمـــــام بيت المدرس ، وكان يستقلها ماداراسى الحطاب ، وشيتسو رئيس المقاطعة ، وكبير جباة الضرائب فى أرماديا ٠ كانوا فى رحلة لصيد الأرانب البرية فى ضـــواحى بريبـــاس ، ورغم أنهم ملأوا المنطقة عدوا طوال اليوم الا أنهم لم يطلقوا عيارا ناريا واحدا ٠ وعادوا بأعصاب ثائرة ، مشعثى الثياب من أثر البرد والرطوبة ، وراح كلبان من كلاب الصيد يرتعشان الى جوار العربة ، وأذناهما تتدليان بلا نظام ، لا يلتفتان الى كلب المدرس الذى يقوم بحراسة القطيع ، وهو يعوى من داخل الفناء واضعا مخلبيه الأماميين على السور ، غاضبا لأن أحدا لا يكترث بوجوده ٠ كان الصيادون التعساء قد قرروا أن يتوقفوا عند حانة نيومان فى جيدوفيتسا لكى يرفعوا من معنوياتهم ، ولكى يتجنبوا الدخول الى المدينة الصغيرة بحقائبهم خاوية من الصيد فى وضح النهار ، وحتى يزيلوا ما أصاب أطرافهم من تجمد نتيجة للبرد ببعض أقداح النبيذ الساخن ويشبعوا جوعهم قبل أن يصلوا الى بيوتهم ٠

ولعلمهم يقينا بأنهم سيواصلون الحديث عن الصيد ، فى لوم مرير لو ظلوا وحدهم ، فانهم قرروا أن يدعوا كلا من هرديليا وتيتو لاصطحابهم نظرا لما بينهم من أواصر الصداقة ٠ وكان المدرس سعيدا بأن يخرج معهم على سبيل التغيير ، ولكنه لم يجرؤ على التحرك دون موافقـــة السيدة هرديليا ، التى كانت تعتبر ذهاب رجل مسن له متاعبه لمجالسة السكارى فى أرماديا والعربدة معهم أمرا غير لائق ٠ أما تيتو فيستطيع أن يفعل ما يحلو له ، لأنه شاب بلا مسئوليات ٠٠ وكان على ما داراسى أن يترجل ويستعمل كل طاقته فى الاقناع كى يجعلهـــا تلين ، بشرط ـ وقد كرر

ذلك بحماس ـ أن يعـــودوا ـ كائنة ما كانت الظروف ـ قبل موعـــد العشاء ٠

ووجدوا فى حانة نيومان جمعا كبيرا سعيدا ، يتألف من مايريانو أستاذ اللغة اليونانية ، وهو سكير دائم ، له رأس صلعاء ولحية كثــة شهباء ، والأب بلكيوج ، والأستاذ سباتارو وهو والد الفتاتين اللتــان تصادقان بنات هرديليا ، وفليبويو الطبيب ، وبول داميان المحامى ، ثم كاهن فاراريا وهو أكبر عربيد فى كافة أنحاء وادى سومش والذى ظل يشرب الخمر هناك منــذ ظهر اليوم الســابق ٠ ولم تكن لديه أى نيــة للرحيل ٠

وعرف تيتو أن ذلك يعنى سكرا لن ينتهى قبـل صباح اليـــوم التالى ٠ وقفزت الى ذهنه فجأة صورة السيدة لانج ، وأخذ قلبه يدق فى عنف شديد ٠ عليه أن يحضر لانج ليشارك تلك الثلة ، فاذا نجح كانت السعادة من نصيبه ، اذ أن لانج عندما يشم رائحة الشراب ، لا تستطيع ستة ثيران أن تسحبه بعيدا ، خاصة اذا كان الشراب مجــانا ٠ واستقر رأيه بسرعة على أن يذهب لدعوته ، فان لانج مسل فى حفلات الشراب ولن يعترض أحد على مجيئه ٠

وهكذا تسلل تيتو خارجا بينما انهمك الآخرون فى المناقشـــة فى انتظار اعداد النبيذ الساخن دون أن يرتدى معطفه حتى لا يظنون أنه خرج ولن يعود ٠

واندفع داخل بيت آل لانج ، حيث كان الاثنان جالسين يفكران كيف يقتلان الوقت ٠ وكان الزوج يجلس فى كرسيه المريح والنـــوم يداعب جفنيه ، بينما جلست روزا فى مواجهة المدفأة ، تحملق ســـاهمة فى ألسنة اللهب المتراقصة فوقفت المرأة بسرعة وقد توردت وجنتاهـا بفعل الحرارة ورحبت به فى حيوية ونشاط :

ـ كم هو جميل منك أن تأتى وتنقذنا من هذا الســأم القاتل !

وعندما سمع لانج عن الغرض من الزيارة قفز فى مرح قائلا :

ـ هذا هو ما أسميه صديقى الحقيقى ، لا ينسى أبدا أترابه !

ثم انطلق من فوره يمسك بقبعته ومعطفه استعدادا للرحيل ٠

وتبادل تيتو نظرة مع روزا ، التى بدأت تتبرم شاكية من أنهــا تخاف الوحدة ، وانهما لا ينبغى أن يخرجا ، وانها ستحضر لهما بعض الشاى ٠٠ ولكن لانج لم يستمع الى هذا كله ٠

وحاول تيتو أن يهدىء من روزا ، ولكن لانج قال له موبخا :

ـ هيا يا صديقى العجوز ، لا تبال بهذا الهراء النسائى !

واذ تباطأ تيتو ، فقد سبقه لانج مبتعدا • واذ ذاك قبل تيتــــو يد روزا ضاغطا اياها على شفتيه وقال فى همهمة خشنة :

ـ هل يضايقك أن آتى لرؤيتك بعد قليل ؟

فلم تجب المرأة • ولكن عينيها التمعتا بالرغبة •••

استقبل لانج ـ وهو السكير المشــــهور ـ بعاصـــــفة من المرح • واتخذ مجلسه الى جانب جابى الضرائب حتى يتجاذبا أطراف الحديث باللغة الهنغارية •

والتف الآخرون فى هذه الاثناء حول زوجة صاحب الحانة ، وهى شابة مكتنزة طروب ، وهم يمطرونها بالمجاملات والمديح ، وهى تســتمع اليهم وقد راحت توزع ابتساماتها ذات اليمين وذات اليسار دون ما كلل ردا على هذا الشرف الذى يضفونه عليها • أما صاحب الحانة فقد أغلق عينيه وأذنيه ، فهذا من طبيعة عمله ولم يكن يذهب الا مرة من حين الى حين الى الحجرة الخلفية حيث كان الســـادة يقيمون حفلهم ، حتى يطمئن الى أن كل شىء على ما يرام • ولم يلبث بعد فترة ، على أية حال ، أن أطل برأسه وأومأ لزوجته مناديا ، قائلا لزبائنه بصوت معسول :

ـ معذرة يا سادة ، فان النبيذ يغلى وأنا فى حاجة الى زوجتى ••

وعندما خرجت السيدة ، أخذ كاهن فاراريا يهمهم بترانيم دينية، ممــا أغضب الاب بلكيوج جدا ، لأنه لم يكن يطيــق مثل هذه السخرية بالمقدسات من جانب قس • فقامت بينهما مناقشة حامية ، لم تنته الا عندما دخلت زوجة صاحب الحانة ثانية ومعها طبق كبير من لحم الخنزير المسلوق ، وصاحب الحانة ، حاملا وعاء ضخما من النبيذ الساخن •

ورفعت الكئوس الفارغة وبقايا اللحوم فى غمضة عين ، غــير أن الكاهن لم يرض بأن يفارق زجاجته من النبيذ الاحمر ، حتى اضــطر الدكتور فليبويو أن ينتزعها عنوة من بين يديه •

كانت الوليمة فاخرة •• وبعد أن أشبعوا نهمهم ، أخذوا يفرغون كئوس الشراب فى سرعة أكبر ، وانطلقت الألسن بحرية أكثر • وسار حفلهم السعيد فى مرح متزايد ، ومر الوقت كأنه خاطر سريع • وعندما

تذكر هرديليا وعده بأن يكون فى بيته دون تأخير قبل موعد العشاء كان الليل قد تقدم ، والقى نظرة متسائلة نحو تيتو ، الذى رد عليه بابتسامة من يحس بالذنب •

وراح العجوز يعزى نفسه ، وهو يحتسى نبيذه فى تكاسل قائلا : « لقد تأخر الوقت كثيرا على أية حـــال ، ولا فائدة فى أن يزعج المرء نفسه ! »

وفجأة انفجر الأستاذ سباتارو ، وهو رجل ضئيل الحجم ذو لحيـــة شقراء ، ينشد بحماس طال كبته نشيد «هبوا أيها الرومانيون البواسل» فشحب وجه شيتسو رئيس المقاطعة وعض على شفتيه • وعندما رأى أن الآخرين جميعا يرددون نشيد الأستاذ ، هب واقفا ، وأوقف الغناء قائلا :

ــ اننى لا أستطيع أن أسمح لكم بالانغماس فى السياسة هنا أيضا أيها السادة !

فوقف سباتارو وكأنه قد لدغ ، والتمع فى عينيه بريق الغضــب والخمر وصاح عاليا :

ــ وأنا يا سيدى ، لا أسمح لك بأن تتوقح معنا ! فلسنا فى محكمتك العليا التى تعاقب المارقين ، أتفهم هذا ؟ هناك تســـتطيع أن تصرخ وتتوعد كما يحلو لك ، ولكن ليس هنا ، بين قوم شرفاء ! وفضلا عن ذلك ، اذا كان غناؤنا لايروقك ، فالباب أمامك !

فصرخ رئيس المقاطعة فى غضب :

ــ أيها الأستاذ ، أرجو ألا تنسى الى من توجه حديثك ! •

ــ الى مرتد ، وأنا أعرف هذا جيدا ! لقد كنت تلميذى فى المدرسة، ولكن هذا يخجلنى ، لأنك تفتقر الى دماثة الخلق أكثر من حذائى هذا !

قام شيتسو وهو يغلى بالغضب كى يغادر المكان ، فســـارع بعض المهدئين وعلى رأسهم هرديليا كى يمنعوه من الخروج بينما استمر سباتارو يزأر فى انتصار :

ــ دعوه الى الشيطان ! اننا لا نريد خوارج مرتدين بيننا !

وبقى رئيس المقاطعة ــ بالطبع ــ وأخذ يدمدم فى احتقار :

ــ من حسن حظه انه سكران ، والا ••••

فقال مادراسى الحطاب فى هدوء وصبر الى شيتسو :

ـ ولماذا لا يغنون ـ يا صديقى العزيز ـ اذا أرادوا ؟ أعتقد أنك تبالغ فى الأمر أكثر مما ينبغى .

فقال شيتسو فى غيظ :

ـ لا أستطيع أن أسمح باثارة التعصب فى أى مكان ! ان ضميرى لا يسمح لى ، فهذه اثارة عامة !

فتمتم الحطاب :

ـ هراء ! اللعنة على اثارتك ! هل ستنهار الامبراطورية بسبب أغنية ؟ آسف لأنى لا أعرف هذه الأغنية ، والا كنت أغنيها أنا نفسى !

فزأر سباتارو :

ـ أتسمع هذا ! عار عليك ، فهو مجرى ، وأنت تصعر خدك وتدعى أنك رومانى ! يا للعار ! .. سيدى اسمح لى أن أقبلك ! فانك شخص نبيل صادق رقيق ! ثم اندفع نحو مادراسى وطبع على وجنتيه قبلتين بصوت عال . ثم أضاف : اننا لنعرف جيدا أن الخوارج هم الملومون على اضطهادنا .. الخوارج والانذال والمارقين !! .

وأخذت المشاجرة تحتد وتعلو ، بحيث لم يعد يبدو أن لها نهاية ، مما أسعد لانج الذى أحس بأن الحفل فى هذه الظروف ، سيستمر حتى مطلع الفجر . وكان تيتو صامتا ، وقد عيل صبرا ، وجلس ينتظر لحظة مناسبة ليسترق طريقه الى الخارج . أما سباتارو فقد قرر أن يبين لشيتسو أنه هو وكافة الرجال من الصفوة أمثاله ، هم مجموعة من الأوغاد اللئام وأخذ يكشف عما يعانيه الرومانيون من جور وبؤس تحت حكم المجر .

وتدخل بلكيوج فى لهجة جادة حزينة قائلا :

ـ اننا أشد بؤسا من العبيد فى العصور الغابرة !

أما داميان المحامى ، وهو رجل أمرد فى منتصف العمر ، له عينان واسعتان زرقاوان داكنتان ، فقد عبر عن تقديره لسباتارو ، وهو يحدث مادراسى الحطاب ، الذى ظل يومىء برأسه موافقا ، فى ايماءات معبرة مناسبة . وكان داميان يلتفت من وقت لآخر نحو جابى الضرائب ، محاولا أن يوضح له الموقف بدوره باللغة الهنغارية ، ولكنه كان كلما أراد جابى الضرائب أن يعارضه ، يعود الى مادراسى ليحدثه بالرومانية .

ـ وكان رئيس القاطعة الذى لم يكن يجيد المناقشة يجيب على بيانات الأستاذ بابتسامة متعالية قائلا :

ـ انها مجرد ادعاءات مختلقة ! ··· وأريد حججا جدية ، لا دعاية جوفاء حول القومية !

وأحس مايريانو ـ الذى أصبح ثملا فى وقت قصير جدا ـ أن من واجبه أن يناقض جميع الحاضرين · فرفض اتهامات سباتارو فى تباه · ثم أنكر فى حرقة تأكيدات رئيس المقاطعة ، مجهدا نفسه أن يبين للفريقين أن ما يسمى بالمطالب القومية الرومانية ليس الا نتاجا للخيال الشوفينى المجرى · ونظرا لأن الآخرين لم يدعوا مايريانو ينهى حديثـــه المشـــحون بالغضب ، فقد احتقن وجهه حتى جذور شعره ، وغلى دمه ورفع عينيــه الى السقف فى ضيق ·

وزأر سباتارو أخيرا قائلا :

ـ اننا نريد الحرية والاستقلال أيها السادة ! نريد أن نتحد مع اخواننا فى كل مكان !

وأخذ داميان يبين لجابى الضرائب ، بوقائع منتقاة من تاريخ جميع الأمم أن رغبـــة المرء فى الاتحاد باخوانه فى الدم ، هى نداء طبيعى ، لا تستطيع القوة البشرية أن توقف حركتها واندفاعها · ووقف ماداراسى فجأة وقد أشعل الخمر رأسه ، ثم صاح :

ـ اننى أوافق تماما ، أيها السادة ! فالاخوة هم الاخوة ! ولتنتصر العدالة !

وقام شيتسوثانية كى يرحل ، وقد نفذ صبره · وارتدى معطفــه ببطء وسار نحو الباب وهو يدمدم بغضب بصوت غير مسموع ، متوقعا أن يقفز أحدهم ليمنعه من الخروج · وعندما لم يفكر أحد فى اســتدعائه ثانية ، عاد من تلقاء نفسه ، بشغف أكبر ، لأنه كان قد فكر لتوه فى رد ساحق ، وقال بصوت كالنباح ، وهو يخلع معطفه ويجلس فى مقعده من جديد :

ـ لو لم تكن هناك حرية فى هذه البلاد ، هل كنتم تستطيعون أن تتحدثوا بهذا الشكل ، وفى وجودى أيضا ؟

فصرخ كل من سباتارو وداميان ، بل وحتى الدكتور فليبويو الذى لم يكن ينبس بكلمة عندما يشرب ، قائلين فى نفس الوقت ·

– اخرس ، ايها المرتد !

وهنا تدخل مايريانو ، معلنا فى جزالة أنه لا يسمح لأحد أن يرهب شيتسو ، مضيفا الى ذلك أنه – كمواطن شريف – لا يريد أن يسمع تلك التهوسات الشوفينية • أما كاهن فاراريا الذى كان قد ثمل تماما ، وأسند رأسه الى المنضدة ، فظل يتمتم قائلا :

–لا أريد شيئا •• لا شيء •• تسقط ! •• لا أريد !

وكان هرديليا – بابتسامة خجلة على شفتيه – يتحدث بهدوء الى جابى الضرائب ، معبرا عن عدم موافقته على حديث سباتارو ، رغم أنه كان فى دخيلة نفسه معجبا بالشجاعة التى يواجه الاستاذ بهـا رئيس المقاطعة والمجريين •

وكان جابى الضرائب ويسانده لانج يشرح لهرديليا بعـديد من الحجج ، انه لا يوجد مكان فى العالم يسعد فيه الرومانيون أكثر من المجر• وكان المدرس يستمع وعلى وجهه نفس الابتسامة المتحرجة ، خشية أن يصبح هو أيضا هدفا لفصاحة سباتارو •

وعند منتصف الليل تماما ، رفض الأب بلكيوج أن يشرب مزيدا قائلا أن عليه أن يتلو القداس فى الكنيسة فى اليوم التالى ، وأنه يحتاج ، طبقا للطقوس الكنسية ، الى استجماع طاقاته الجسـدية والروحيـة • وأثار هذا عاصفة من الاعتراض ، وازدرد قسيس فاراريا لتوه كأسا مليئا بالنبيذ كمثال يحتذى ، مضيفا أن موقف بلكيوج هو ضرب من الجمود الذى لا يليق بالعصر الحديث الذى يعيشون فيه •

ثم هدأت العاصفة نتيجة لذلك التساؤل المفاجىء الذى ألقى به ماداراسى :

– ولكن أين شاعرنا ؟

لم يكن أحدا منهم قد لاحظ غياب تيتـو قبل هذه اللحظـة • وأخبرتهم زوجة صاحب الحانة – عندما استدعوها – أن الشاب قد تسلل خارجا منذ أكثر من ساعتين • وسرت رعدة فى عظام هرديليا ، فقد خشى أن يكون تيتو قد عاد الى البيت ، وعندما تخيل المشهد الذى ستلقاه به زوجته عند عودته ، فكر فى أن يتسلل خارجا بدوره فى أقرب وقت ممكن• وأجاب لانج على الخطاب ، وهو يغمز بعينه موحيا بفهمه للطبيعة البشرية :

ـ حسن ، انه شاب حار الدماء ! من يعرف بين ذراعي من يستريح شاعرنا الآن !

واشتعلت جذوة المرح ثانية بقوة أعظم وهم أكثر ترنحا وسكرا ...

- ٨ -

كان تيتو قد جلس معهم وهو على أحر من الجمر . كان فريسة لانفعالات شبيهة بالأحاسيس التي تشمل المرء عشية يوم امتحان عسير . وظل يكرر كلمة «أخيرا» ، وبدت كل لحظة من التأخير وكأنها خسارة لا تعوض . لم يكن قد شرب الا ما يكفي لبث الشجاعة في نفسه . وتركزت أفكاره حول كيف ومتى يتسلل دون أن يلحظه أحد . أما سيدة المكان ـ التي كانت متعاطفة معه لما يوليها دائما من ثناء ـ فقد قدمت له يد المساعدة وحملت معطفه خلسة خارج الحجرة التي كان الرجال يشربون فيها .

وتملكه الفزع للحظة قبل أن يصل الى الطريق ؛ ماذا لو انفرط عقد الحفل بسبب المناقشة ، ووجد نفسه وجها لوجه مع لانج ؟ ولكن الريح النشطة التي تهب من نهر سومش أذهبت همومه ، وبعثت في روحه صورة تلك الحجرة الصغيرة المريحة ، التي يضيئها وجه متألق للمرأة التي يصبو اليها .

وكانت القرية تنام في ظلام دامس عميق . فيما عدا نافذة في بيت لانج كانت توحي بوجود ضوء خافت ينبعث خلال الستائر المسدلة .

واقترب تيتو بخطوات في خفة القط . لم يكن باب الردهة مغلقا ، وسحب نفسا عميقا من سيجارته المشتعلة كي تساعده على أن يتحسس طريقه في يسر أكبر نحو الحجرة القائمة الى الشمال ، وحتى لا يتعثر بشيء في الظلام . وكان حريصا أن يدير المفتاح مرتين في هدوء شديد ليغلق الباب الأمامي . ثم فتح باب حجرة النوم في خفة كأنه لص واسترق طريقه على أطراف أصابعه داخل الحجرة .

وكان على النضد الصغير الى جانب السرير مصباح له مظلة من الورق الأحمر ، يشتعل خافتا ، ويصدر عنه ضوء خفيض . وكانت مظلة المصباح مائلة قليلا ، وكأنها قبعة على رأس سكير ، تركز معظم الضوء على السرير ، فتعطيه مظهرا ورديا فخما . وعلى السرير كانت روزا

لانج ، وقد أدارت ظهرها للباب ، تغفو قليلا بشكل يعطى المرء احساسا بأن النوم قد دهمها فى لحظة من لحظات الانتظار السعيد • وكان شعرها مبعثرا على الوسادة الناعمة ، فيما عدا بضع خصلات استقرت على ظهرها الممتلىء الناصع البياض • وقد انزلق كتفى قميصها حتى وسطها ، وارتفع ذيل الرداء فوق فخذيها المستديرين • وكان ذراعها الأيسر ملقى الى جانبها فى تكاسل ، وأناملها الرقيقة مستقرة عند حافة الفراش • وكانت احدى ساقيها العاريتين النافرتين مغطاة حتى الركبة ، بينما انثنت الأخرى قليلا والقيت فوق ثنيات الغطاء •

وحملق تيتو مبهورا فى جسد المرأة ، واستقرت عيناه على ردفيها اللذان بديا كأنهما يستحثانه على أن يمسك بهما • ولم يعرف ماذا يفعل• فقد كان الجسد العارى معروضا أمامه بكل ما فيه من اغراء ، يكاد يذهب منه العقل • كان العرى يدعوه ويستحثه ، ويخيفه فى نفس الوقت • وخلع معطفه وهو لا يكاد يدرى • وأحس بالدم يغلى فى عروقه • وكان قلبه يدق فى صدره بعنف كمطرقة كريهة ، حتى أنه كان يخشى أن توقظ الضجة المنبعثة من قلبه روزا من نومها • كان سعيدا لأنه وجدها نائمة ، ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه أنه كان من الأفضل أن يجدها مستيقظة وفى كامل ثيابها •

وكادت حرارة الغرفة تكتم أنفاسه •• وسار على أطراف أصابعه الى الفراش ، ثم مال وألصق شفتيه برقبة المرأة الناعمة ، بين ضفائرها التى ينبعث منها عبير عاطر ، فاهتز جسدها برفق تحت شفتيه المرتعشتين أما تيتو فقد أشعل اتصاله بجسدها كل حواسه فجأة • ولم يعد يرى سوى لحمها الوردى الفاتن • وأخذ يتحسس ذراعى المرأة وأردافها وساقيها فى حرقة واندفاع ، بينما راحت شفتيه تقبلها فى نهم • وبدأت روزا تستيقظ فى تكاسل ، وكأنها تعتبر قبلاته أمرا مفروغا منه• واستدارت اليه فى رفق وعيناها نصف مغلقتين وهمست فى محبة :

ـ هل أتيت يا حبيبى ؟ ••• اننى متيمة بك ••• اننى •••

وأغلق تيتو شفتيها سريعا بشفتيه ، ثم أمطر وجنتيها بالقبلات ، بينما راحت هى تضع ذراعيها المشوقتين حول عنقه • وكان الفتى يقبلها بلا انقطاع ، وهو يتأتىء بكلمات متقطعة • كان كأنه فى حلم • ولم يكن يستطيع أن يتبين عينيها الناعستين ، وشفتيها الحمراوين النديتين وهما

تبحثان دائما عن فمه فى تعطش لا يرتوى • واستدار جسد روزا متعلقا بتيتو ، الذى أحس بحرارته ، فاحتضنها بين ذراعيه وأخذ يعتصرها بعنف حتى يكاد يكسر منها العظام • وكان ثدييها الممتلئين بحلمتيهما الورديتين تشتعلان على صدره ، وكانت المرأة تتلوى وتئن خلال العناق الحار ، وعيناها مغلقتان •

ثم قفز تيتو من الفراش ، وقد تملكه الخجل ، وهو لا يجرؤ على النظر الى روزا التى كانت لا تزال راقدة على ظهرها فى سكون وقد ارتخت ذراعاها ، وراح صدرها يعلو ويهبط فى سرعة • وبدت الحجرة كأنما قد غمرها ضوء النهار ، وجعله تألقها خائفا وجلا • وفكر أن المرأة لا بد أن تعتبره جلفا سيىء التربية حتى يصعد الى فراشها منتعلا نعليه • ومن ثم تذكر لانج ، وتصاعدت أمام ناظريه مناظر مروعة ، يظهر فيها الزوج المخدوع متخفيا فى ثباب فارس من عصور البطولة يثأر لشرفه • وتقدم ليأخذ معطفه ، وقد قرر أن يعود الى الحانة حتى يتجنب أى أحداث قد تقع• فتعجبت روزا من موقفه ، ونهضت بسرعة قائلة له بصوت حلو ملؤه العتاب :

ـ ماذا ، يا حبيبى ؟ هل تريد أن تذهب ؟ هل سئمتنى سريعا ؟

فتمتم تيتو دون أن يجرؤ على النظر الى عينيها :

ـ اننى أخشى أن يترك لانج الحانه •

ـ انك طفل يا حبيبى ! ان لانج لا يحلم بالعودة الى البيت قبل ظهر الغد • انه لا يترك حفلا للشراب من أجل أى شىء فى العالم ، وعلى الأخص من أجل زوجته المسكينة • لك أن تتأكد من هذا •••• وحتى اذا حدث المستحيل ، وجاء فعلا ، سيكون فاقد الوعى تماما من فرط سكره • وعندئذ سننتقل نحن الاثنان الى الحجرة الأخرى ، على الأريكة ، ونتركه هنا يغط فى نومه كالوحش •••• وسيكون لديك متسع من الوقت للرحيل عند الفجر •

كانت المرأة تتكلم بانفعال طفولى ، فقد أشعل حياء تيتو رغبتها • فقد كان هذا الشاب الغر الذى بهرته عاطفته ، شيئا طريفا بالنسبة لها • ولما كان تيتو صامتا ، وأكثر اضطرابا من ذى قبل ، فقد رفعت روزا نفسها على ركبتيها ودعته ملاطفة فى صوت حلو ، وقد مدت له ذراعيها العاريتين :

ـ تعال ، يا حبيبى الحلو ، تعال وقبلنى !

وحملق تيتو فيها من بين رموشه · كانت ثنيات جسدها تبرز خلال قميصها الشفاف أكثر اغراء واثارة للرغبة · وأزاحت عواطفه المشبوبة كافة أحاسيسه المترددة فى لحظة · وفى خطوتين أمسك بها بين ذراعيه وألقى بها على الفراش · وانسابت روزا من بين ذراعيه ، وبعد لحظة كانت مختبئة تحت الغطاء فيما عدا أنفها الذى ظل خارجه ، ثم أخرجت طرف لسانها مداعبة ، وقالت له فى استفزاز :

ـ اما أن تخلع ملابسك ، واما لن تنال ·· شيئا !

وومضت فى ذهن الشاب لحظة فكرة أن ملابسه الداخلية ليست مناسبة تماما لمغامرة عاطفية ، ولكن الدماء كانت تغلى فى عروقه ····

واستسلما للنعاس فى وقت متأخر وكل منهما فى ذراعى الآخر ··· ولكن طرقة حادة على النافذة أيقظتهما · وهب تيتو مرتاعا ، موقنا ان ساعة الحساب قد حانت · وخلال دقيقة واحدة ، كان قد اتخذ قرارات لا حصر لها وتخلى عنها : ماذا يقول أو يفعل ، كيف يدافع عن نفسه ، وما اذا كان سيهرب أو يختبىء ··· وأوشك أن يقفز من الفراش ، ولكن روزا أوقفته بهدوء ، وهى تضغط على فمه بيدها لتمنعه من الاجابة ، وهمست :

ـ دعك فى مكانك ! ··· لا تتحرك ! ··· لا تخف !

وأحس تيتو ، رغم كلماتها ، برعدة باردة تسرى فى ظهره · وأصبح الطرق على النافذة أكثر عنفا وأشد تهديدا · وأجاب صوت روزا ، وهى تتصنع الضيق ! ·

ـ من هناك ؟

فتمتم لانج من الخارج ، بصوت أجش من كثرة الشراب :

ـ انه أنا ·· أنا ياعزيزتى · انى آسف ! روزيكا ياعزيزتى ، اننا ذاهبون الى أرماديا ، اتسمعين ؟ العصبة كلها ··· وغدا صباحا اذا لم أعد ، حاولى أن تصرفى الأولاد ، اتسمعيننى ؟ طاب مساؤك ياروزيكا ! اتمنى لك أحلاما سعيدة !

ثم سمعت خطوات الزوج المترنحة وهى تبتعد ·

وألقى تيتو نظرة سريعة الى الساعة التى فوق النضد الصغير · كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف · فالتصقت المرأة به ، وقبلته بشغف ورغبة وهى تقول :

ــ ما زالت أمامنا ساعة أو اثنتين قبل آن ترحل · ولكن لا نوم بعد ذلك ··· أليس كذلك أيها الفتى المشاغب ؟

- ٩ -

فى اللحظة التى سلم فيها ايون التماسه الى مكتب بريد أرماديا ، غمره احساس بالراحة ، وكأنه قد هرب من كافة متاعبه وآلامه · كان يذهب فى المساء الى أنا ، ويتحين فرصة كى ينفذ الخطة التى سيطرت عليه كالحمى ، وملأت روحه بالأحلام والآمال ·

وكان يعرف جيدا أن جورج لم يكف عن زيارة فاسيلى باكيو · وكثيرا ما اضطر أن ينتظر حتى يخرج جورج ، ويأوى باكيو الى فراشه ويطفىء النور ، قبل أن تتمكن أنا من الخروج للقائه · كان واثقا من نجاحه فى النهاية حتى أنه لم يعد يحفل بأى انسان أو أى شىء ··· بشرط أن تجىء اللحظة المناسبة ·

وكانت روح أنا ترفل فى سعادة لا حدود لها · فقد نسيت كل الآلام والشكوك التى سببها لها ايون فى الماضى · كان كل ما تراه الآن هو أنه يأتى بانتظام ، وأنها تنتظره بحب يتزايد أبدا · كانت زيارات الشاب دليلا على حبه الذى ظل يكبته حتى اشتعل بصفاء أكثر · وملأها زهوا وفخارا · كان ينتابها القلق حالما يرخى الليل سدوله ، وكان قلبها يحس طوال الوقت بوجوده فى مكان ما خارج الدار ، ساكنا ، مواظبا ، مختبئا خلف كومة من الدريس ، أو تحت أحد الأسوار ، أو فى حفرة ، بينما هى تطهو وجبة العشاء أو تنظم البيت وترتبه · وكانت تحس بالاشفاق من أجله ، فينهمر الدمع من عينيها · وقد أخفت سعادتها عن أبيها تحت غلالة من البسمات والمرح المتزن ، وعندما كان جورج يأتى كانت تلقاه بشجاعة كعدو لم تعد تخشاه · بل انها كانت تحدق مباشرة فى عينيه المتسائلتين فتحيره وتخيب آماله · وبدا رضاؤها الداخلى كأنما قد أيقظ فيها الحكمة وسعة الحيلة التى تتسم بها المرأة فى كافة العصور · فاذا ما أحبت راحت تدرأ أى خطر قد يحدق بحبها ·

واستطاع جورج بمضى الوقت أن يفهم فى وضوح أكثر أن ايون يسد عليه طريقه وجعله هذا أكثر اصرارا وعنادا ، فقرر أن يفاجئهما معا متصورا أن هذا سيضع حدا لمقابلاتهما ، بل سيكون درسا لهما أيضا • فكان كلما غادر فناء فاسيلى باكيو يجوس بناظريه فيما حوله مؤملا أن يكتشفه • واذ كان هذا الترقب يزيده ألما ، قرر أن يضع حدا لهذا كله ، وبأى ثمن ••• وفى الأسبوع التالى ، وبعد أن تظاهر بأنه قد انعطف الى الحارة الخلفية ، زحف متلصصا ، ثم مكث فى مكانه ينتظر • وعندئذ رأى ايون يدلف الى الفناء •

لم يدم احساسه بالرضى عن نفسه لصدق حدسه أكثر من لحظة • فان خداع أنا آلمه كأنه سوط • وكان أول ما خطر بباله أن يتخلى عنها فلا يصبح له شأن بها • ولكن هذه الفكرة لم تلبث أن اختنقت برغبته — تلك الرغبة التى ملكت عليه روحه — فى أن يبقى الى جانب الفتاة دون أن يفقد الأمل • وبدأ يتردد على بيت باليو فى أوقات أكثر تقاربا من ذى قبل ، وفى الأيام التى لم يكن يزورهم فيها ، كان يحوم حول البيت وهو يرقب وصول الفتى الآخر ، ويحملق بناظريه ليراهما يتعانقان ويتبادلان القبلات ، ويحنق لعجزه عن تبين كلماتهما •

وكان ايون ، على أية حال ، قليل الكلام • وكان يأمل أن يشعل بصمته حبا أعظم فى قلب أنا ، ويجعلها تصبو اليه أكثر مما تفعل • كان يريدها أن تدعوه أكثر فأكثر نحو البيت • كان قد تقدم من الطريق الى البوابة ، ثم الى الفناء ، ثم الى السقيفة ••• وكانت الخطوة التالية أن تدعوه الى داخل المنزل • واعتبرت الفتاة هذا التقدم انتصارا لها عليه • فقد كانت تحس برغبة جامحة تزداد حدة كل ليلة ، فى أن تنسى كل شىء بين ذراعى فتاها • بل كانت تتطلع الى اعطائه أعظم دليل على حبها ، فكانت تهمس فى بعض الاحيان بصوت فيه خجل العذارى :

— لماذا لا تدخل يا ايون ؟

فيسكتها الفتى بنفس تعليقه معاتبا :

— وماذا عن أبيك ؟

وأخيرا أخذ عيد رأس السنة يقترب • كان الشتاء القاسى يناضل حتى يجثم على الأرض ، ولكنه بدا أنه لم يكن قد استجمع بعد كل قواه • كانت الريح تقذف بندف الثلج التي تهطل فى تكاسل وتذوب قبل أن تصل الى الأرض ، متجمعة فى برك من الطين • ومع ذلك ، كان ايون

يأتي كل ليلة دون انقطاع ٠ وذات ليلة ، بينما كانت حبيبات البرد تحرك أشباح الظلام ، جاء ايون مبكرا ٠ كان البيت مسربلا بالظلام ، كأنه ثور أسود نائم ٠ فدخل الى الفناء وجلس عند السقيفة ، وتملكه احساس بأنه أشد ضيقا واكثر تصميما من أي وقت مضى ٠ وجلس ينتظر دون خطة محددة في ذهنه ٠ كان قلبه يدق في عنف متوجسا ٠ وكان السكون حوله شاملا حتى أن الفتى كان يستطيع أن يسمع صوت ندف الثلج وهي تتساقط في الوحل ، أو يصطدم بعضها ببعض في الهواء ، كأنها رفرفة أجنحة قصيرة ٠ وانفتح باب الحجرة الخارجية بصوت حاد بعد انتظار طويل ، وانزلقت أنا بسرعة في ثنايا معطفه وهي تقول له في لهجة رجاء رقيقة :

ـ يجب أن تدخل الليلة يا ايون ! لن أتركك حتى تدخل ٠٠ ان أبي ينام في سريره ، وقد عاد الى البيت ثملا من جيدوفيتسا ٠ ان غطيطه يرتفع الآن بما يكفي لزلزلة الجدران ٠

وطواها ايون بساعده وهو يتحسس ثدييها اللذان لم يكن يغطيهما سوى قميص نومها ، ثم قام دون كلمة وتبعها الى الداخل ٠ وتوقفا في الردهة حتى أغلقت الفتاة الباب بالمزلاج ، ثم أمسكت بيده لتقوده الى الداخل ٠

وبدت الحجرة أشد اظلاما ، فلم يكن يستطيع أن يتبين غير نوافدها التي بدت كأنها ثقوب رمادية ٠ وعرف ايون الحجرة ، فقد سمع غطيط باكيو المرتفع المنبعث من فراشه ٠ كان غطيطه قريبا وعاليا حتى أنه لم يكد يصدق أنه نائم حقا ٠ وسرت رعدة باردة في قلبه ٠ فقد تحقق أن العجوز اذا استيقظ وأحس بوجوده فانه لن يتورع عن أن يحطم جمجمته بالفأس التي خيل اليه أنه يرى بريقها يلتمع مهددا تحت الفراش ٠

وتوقفا بضع لحظات بلا حراك ، وهما ينصتان الى غطيط الرجل ، وكانا يستطيعان سماع قلبيهما يدقان على نحو مؤلم من أثر التوتر ٠ وانقلب الغطيط فجأة الى سعال عميق ٠ وتقلب فاسيلي باكيو كأنما يحاول أن ينهض ، فتحول ايون الى لوح من الثلج ٠ وأمسكت الفتاة بيده في فزع ، وتقلب العجوز قليلا ثم استلقى على ظهره ثانية وبدأ غطيطه يرتفع ثانية أشد عنفا من ذي قبل ٠

كانت أنا تنام فوق الموقد ، خلف المدخنة ، على فراش من الحشايا والأغطية والوسائد والمفروشات التي تكومت في غير نظام ٠ وقد راحت

بعض كتل الخشب الخضراء تئز أزيزا خافتا فى الموقد تحت طبقة كثيفة من الرماد • وشبت الفتاة على أطراف أصابعهـا لتهمس فى أذن الفتى وقد تشبثت بيده قائلة :

ـ اترك معطفك على الرف • ولا تصدر أى صوت ، والا قتلنا نحن الاثنين •

وطقطقت عظام ايون وهو يصعد الى فراشها •

واخذها بين ذراعيه ، بينمـــا أخذت ترتعش كانها محمومة • ثم بدأت أنا تهمس اليه أن يتصرف على نحو لائق ، وأخذت تبكى وتتوسل اليه أن يتوقف • واستمع ايون اليها فى هدوء ، وقد أصاخ السمع نحو فاسيلى باكيو الذى كان فراشه يمتد بالقرب من رأسيهما • وخشى ايون أن توقظ باكيو بهمساتها فأغلق فمها بقبلة •

ثم رفع قميصها بحركة مفاجئة كاشفا جســدها حتى وسطهـا • كانت ساقاها دافئتين ، ملتصقتين • وألقت بذراعيها حول عنقه ، تعتصره بقوة غير متوقعة ، كأنها تريد أن تخنقه ، وشهقت فى أذنه قائلة بصوت فيه من النواح اكثر مما فيه من المقاومة :

ـ ايونيكا ، ماذا تريد أن تفعل ؟ ••• ماذا تفعل ؟ كلا •• كلا ••

وانفجرت فى البكاء والشهقات ، وهى تتمتم طول الوقت بكلمات متوسلة ، بينما راح ايون يهدىء من روعها بالقبلات هامسا :

ـ هس ••• هس •

وظلت أنات الفتاة تتابع وتكثر فى يأس ، حتى انتهت بصرخـة قصيرة مكتومة • وتملكها الرعب فأنشبت أسنانها بعمق فى شفتيه وراح جسدها يتلوى فى ألم •

واخترقت صرخة الفتاة ظلام البيت كأنها سهم مرق الى أذن فاسيلى باكيو ، الذى استيقظ ــ رغم سكره ــ وأصاخ بأذنيه ، واذ بلغت ذهنه المشوش تنهدات مختنقة بالدموع تمتم متسائلا فى حيرة :

ـ ماذا تفعلان أنتما الاثنان هناك ؟

جمد ذلك الصوت الاجش الدماء فى عروق الحبيبين • فأمسكت أنا أنفاسها بسرعة وهى لا تكاد تعى بين ذراعى ايون •

ومرت دقيقة على تلك الحال • وظل باكيو راقدا يصغي وهـــو بين اليقظة والنوم • ثم تحسست يده الصوان القائم عند رأس فراشه ، كأنما يبحث عن بعض الثقاب • وبدا أن عقله الذى أثمله الشراب قـد أخذ يشك فى غموض فيما يجرى فوق الموقد ، وندت عنه حركة للحظة كأنما سينهض ليرى ما يجرى ويحول دونه • وفى اللحظة التالية التمعت فى ذهنه فكرة أنه لا بد أن يكون جورج ، وأنه يستطيع أن يدعهمـــا وشأنهما • وعند هذا الخاطر ارتمى ثانية فى نوم أكثر هدوءا ، وهـــو يهمهم بغباء الى أن غالبه النعاس قائلا :

ـ آه •• ماذا •• بحق الجحيم •• العار •• خنازير •

كان الحبيبان يخشيان أن ينبسا بحرف • ورقدا متعانقين بلا حراك وكأنهما قد صارا جسدا واحدا الى الأبد • ولكن قبلاتهما لم تلبث أن عادت من جديد لتغرق فى صوت الغطيط المتصاعد من الفراش •

ونزل ايون من فوق الموقد عندما صاحت الديكة للمرة الثانية • وصحبته أنـا الى البـــوابة • كانت البرودة تبدو أكثر حدة ، والظلام أشد كآبة •

وتمتمت الفتاة بين أسنانها المصطكة ، فجاء صوتها الواضح البطىء فى سكون الليل كأنه صياح :

ـ كم أنا خائفة الآن ! افرض اننى أصبحت حبلى !

فعض الشاب على شفتيه حتى يمنع نفسه من أن يصرخ عاليا من فرط فرحه • وربت ذقنها بخفة ، ثم خطى بسرعة تاركا اياها واقفـة عند البوابة •

وسقطت ندف الثلج برفق وتكاسل ، مستقرة فى هدوء على شعره وكتفيه ووجنتيه • وأحس بها أيضا وهى تذوب على ذراعيه كأنها قبلات باردة تنذر بالسوء • وعندما لم يعد وقع خطوات ايون مسموعـــا ، رأت أنا رجلا يخرج فجأة من حفرة على الجانب المقابل من الطريق ، ويتجه مباشرة نحوها •

وجرت الفتاة داخلة الى البيت فى فزع وهى تشهق قائلة :

ـ جورج •• جورج !

وانبعث من البوابة وهى تصفقها صوت حاد كأنه رجع سلاح قاتل أطلق لتوه •

كان جورج قد اختبأ فى الحفرة منذ حل الليل ، وقد رأى ايون وهو يدخل الى البيت وانتظره حتى خرج ثانية . وقد سمع كلمات أنا فى وضوح كأنها كانت تكلمه هو . وارتعد جسده اشمئزازا وأحس بفراغ فى قلبه يعذبه . ورغم أن قدميه كانتا ثقيلتين كالرصـــاص ، فلم يكد يحس بهما وهو يجرهما جرا . ثم توقف فى منتصف الطريق كأن روحه قد فارقته ، وتسمرت قدماه الى الأرض ، وحملق فى الكوخ الذى كان يسحقه حمل الظلام الثقيل . وتوقف ذاهلا بلا حراك ، كأنه عمود من الحجر . وتسللت الرطوبة الى عظامه شيئا فشيئا ، حتى أعادته الى صوابه فبصق بقوة فى ازدراء ، ثم صاح بلهجة ارتياح عميق :

ـ الخنزيرة ! ...

الفصل الخامس

العـــار

- ١ -

طوال الأسبوع السابق على عيد رأس السنة ، كانت القرية تردد صدى صيحات حادة يائسة كل صباح . فقد كانت الخنازير المسمنة تحول الى سجق ولحم مملح ، لتسد رمق النـــاس الذين رقت أجسادهم خلال أيام الصـــوم التى بدت بلا نهاية . وبدا الفلاحون أكثر شوقا الى أيام العيد كلمـــا اقتربت . وأخذوا يلعقون شفاههم لمجرد التفكير فى تلك الولائم التقليدية التى طال انتظارهم لها . ولم يكن فى القرية الا شخصان لم يؤديا فريضة الصوم هما ، الكاهن .. والمدرس ، أما الأب بلكيوج فلم يصم لأن معدته كانت رقيقة جدا ، وأما هرديليا فلأنه لم يكن يكترث فى كثير أو قليل بتلك الحمـــاقات الكهنوتية ...

وكان ايون فى السنوات الماضية يحس فى هذا الموسم ، بتعاسة بالغة عند سماعه لأصوات صراخ الخنازير الحاد . كان مما يبعث الغضب فى نفسه أن يرى أن الوحيدين فى القرية اللذين لا يستطيعان الحفـــاظ على هذا التقليد هما جلانيتاشو والغجر . بل ان بعض الغجـــر كانوا

يستطيعون أحيانا أن يفعلوا ما يفعل غيرهم ، فيذبحون خنزيرا صغيرا ان لم يكن أكثر • وعندئذ كان ايون يلعن الاقدار التى كتبت عليه أن يكون موضع الخزى فى القرية ، رغم أن جلانيتاشو وهو الخبير الوحيد فى ذبح الخنازير ،كان يحصل على أجره عينا وهكذا يوفر السجق لاحتفالات عيد الميلاد • ولكن الفتى كان الآن محتفظا بهدوء نفسه • وبدا وجهه الناتىء العظام مزدهرا • بل انه فى احدى الأمسيات ، عندما بدأت زنوبيا مراثيها ، قاطعها بكلمات مواسية قائلا :

ـ لا تبك • فما أسرع أن نحصل على ما نحتاج •

اعتاد هرديليا أن يضحى بخنزيرين كل عام ، لأنه كان مولعا بالسجق وأطباق لحم الخنزير من ناحيه ، ولأنه من ناحية أخرى كان يضطر أن يشترى دهن الخنزير من المدينة ، وهذا يعنى تكاليف باهظة لا تحتملها ميزانية مهنته • وكان لذبح الخنازير أهمية خاصة فى هذه السنة بمناسبة خطوبة لورا التى كانت توشك أن تعلن فى شهر يناير على الأكثر ، وسوف تلعب الأطعمة المصنوعة من لحم الخنزير دورا أساسيا فى تلك الاحتفالات ، خاصة وأن والدى بنتيا سيحضران أيضا ، وأن عائلة هرديليا كانت حريصة على أن تبدو بمظهر لائق •

وكان المدرس قد اشترى خنازيره فى نهاية فصل الصيف ، وغذاها بالذرة حتى اكتنزت بالشحم ، حتى كادت لا تستطيع الحركة داخل حظيرتها ، فكان ذبحها انقاذا لها من موت محقق ، مختنقة بشحمها ذاته ، على حد قول جلانيتاشو الذى فحصها قبيل اللحظة المميته بيومين أو ثلاثة •

وحضر كبير الجزارين فى الساعات الأولى من الفجر ، يصحبه ايون وزنوبيا • وكان آل هرديليا جميعا قد استيقظوا ، ولكن الفتاتين كانتا مختبئتين فى حجرة الاستقبال ، وقد دفنتا رأسيهما فى الوسائد ، ووضعتا أصابعهما فى آذانهما ، حتى لا تسمعن صيحات الحيوانات وهى تلقى مصيرها المحتوم ، خشية أن تصبن بالاغماء اشفاقا عليها •

وسن جلانيتاشو سكينه بعناية فائقة ، موزعا الأدوار على مرافقيه •• فكان على ايون أن يمسك الخنزير من أذنيه ، ويلقى به على أحد جانبيه ويثبت رأسه على الأرض ؛ وكان على هرديليا وتيتو أن يمنعا حركة ساقيه الخلفيتين ، أما زنوبيا فعليها أن تقبض على ساقيه الأماميتين ، وتقوم

زوجة المدرس بتلقى الدم فى وعاء من الصـــفيح ٠ ومع ذلك ، فلم تسر العملية وفق هوى الجزار تماما ٠ فعندما سمعت الخنازير صوت ســن السكاكين ، بدأت تزوم فى غضب كأنهـــا قد أحست بالخطر المحدق ٠ وعبثا فتح المدرس باب الحظيرة ، فلم تكن هناك قوة تستطيع أن تحمل الخنازير على الخروج ٠ فكان على ايون أن يمسك أحدها من أذنيه ويسحبه خارجا بجهد جهيد ٠ وكانت السيدة هرديليا أرق قلبا من أن تستطيع أن تمسك بالوعاء فى وضعه الصحيح ، فانسكب من الدم أكثره ، محدثا بقعة حمراء كبيرة فوق الجليد المتساقط لتوه ، وازداد صـــياح الخنزير خشونة ، ثم تحول الى حشرجة طويلة أخذت تذوى باضطراد حتى أحس القوم المسكون به أن جسده قد تيبس ٠ ومسح جلانيتاشو ســـكينه ويديه الملطختين بالدماء فى شعر الحيوان الذبيح ، بينما كانت زنوبيـــا تتحسس ظهره ، ثم أعلنت أن الدسم يزيد فى سمكه على سبعة قراريط٠ وكان الخنزير الآخر فى هذه الاثناء ينفخ بمنخريه فى وحشية ، وكان فى حالة من الرعب البالغ وما أن فتح ايون مزلاج الحظيرة ، حتى مرق الخنزير خارجا ، بأقصى سرعة سمح بها دهنه السمين ، فى محاولة يائسة للهرب من الموت ٠ وهكذا أجبرت سكين جلانيتاشو على أن تقتله عنـد البوابة المؤدية الى الطريق ٠

وسلخت الذبيحتان وقطعتا فى الفناء ٠ وكانوا قد اقترضوا بعض الحطب من ماكيدون سيرسيتاشو فأحرق شعر الخنزيرين فى نفس الوقت وكان اللهب يتراقص فى مرح ، بينما حرك جلانيتاشو الحطب المشـتعل حول جثتى الضحيتين ٠ ووقف الآخرون حول النار يدفئون أيديهم ، ويقدرون قيمة الخنزيرين ، وهم يتبادلون النكات بين الفينة والفينة ، ويشربون من زجاجـــة كبيرة بعـــض المشروبات الكحولية ٠ ولم تلبث الآنستان أن نزلتا أيضا الى الفناء ، وعبرتا عن اشـفاقهما على الحيوانين المسكينين ، ثم أخذتا نصيبهما من الآذان المشوية والتهمتاه على الفـور ، كما كانت عادتهما منذ الطفولة ٠

ثم بدأت المهمة الصعبة : شق الخنزير الى نصفين ، ثم تقطيـــع اللحم والشرائح ، وغسل الأمعاء ، واعداد السجق ٠٠ وانشغلوا جميعا طوال اليوم ، وبقى عليهم أن يصهروا الدهن بالاضافة الى بعض العمليات الأقل أهمية التى تركت الى اليوم التالى ٠ ومع ذلك وجدت زوجة المدرس متسعا من الوقت لتطهو ــ وهى تفصل اللحم عن الدسم ــ قطعة من شحم الخنزير المسبك ، بالاضافة الى طبق من « الماماليجا » ــ وهى نوع من ثريد

الذرة والقمح المجروش ــ على جانب من النار ، مما أرضى تماما ذوق السيد هرديليا الذى أثقلت معدته بالمشروبات الروحية ٠وعلى الرغم من الحاح المدرس ، فقد رفضت عائلة جلانيتاشو رفضا قاطعا أن تتذوق هذا الطبق الشهى ٠ وشرحت زنوبيا أسباب الرفض وهى تزدرد لعابهـــا قائلة :

ــ لقد حافظنا على صيامنا كل هذه الاسابيع ٠٠ ولا ينبغى أن ندنى أنفسنا الآن ، بينما لم يبق سوى أيام قليلة على الاحتفال بعيـــد الميلاد المقدس ٠ ولسنا أطفالا ، ولن نموت اذا لم نأكل من هذا الطبق الشهى ٠

وفى المساء ، بعد أن خرج جلانيتاشو وزنوبيا وغلب هرديليـــا النعاس على مقعده وهو فى كامل ملابسه ، بينما كانت السيدة هرديليا فى غرفة الاستقبال مع بناتها ترسمن الخطط ، أخذ ايون يحكي لتيتو ــ وقد فكت الخمر عقدة لسانه ــ عن أحواله مع أنا ٠ واستمع السيد الصغير الى القصة فى رضى بالغ ، وظل يطلب التفاصيل حتى حمل الآخر على أن يقسم له فى النهاية أنه قد قال له كل ما عنده كاملا غير منقوص ٠

وتساءل تيتو وعيناه تلتمعان فضولا :

ــ هل تظن حقا أنها حبلى ؟

فأجاب الآخر قائلا :

ــ لتكن مشيئة الله يا سيد تيتو ٠ وحتى اذا لم تكن قد حملت بعد ، فهنالك متسع من الوقت لتصبح كذلك ! وابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن لثته الحمراء ، وأكسبت وجهه تعبيرا شيطانيا شريرا ، حتى خشيه تيتو وتمتم بلهجة لوم وتعنيف ٠

ــ يا لك من شيطان يا ايون ٠٠ انك شيطان فعلا !

- ٢ -

ووصل خطاب والدى بنتيا فى ليلة عيد الميـــلاد ، محددا تاريخ الخطوبة فى يوم الأحد الثانى بعد عيد الغطاس ٠ لهذا فان فترة عيد الميلاد كانت بالنسبة لآل هرديليا أكثر مرحا فى تلك السنة عن كل ما سبقها من أعياد ٠ فاحتجز المدرس كميات أكبر من الخمر ، وحجزت الســـيدة هرديليا بعض « الكازوناكى » الذى كان فى لون الذهب ، وصنعت لورا

وجيجى ثلاثة أنواع من الكعك ، تكفى لتبقى حتى ثالث أيام عيد الميلاد حيث يتجمع أصدقاؤهم ثانية فى بريباس · كما ملأوا وعاءين كبيرين من الفخار « بالسارمالى » * ووضعوهما على موقد هادىء ··· باختصار كان كل شىء يتم كما يجب أن يكون فى أى بيت رومانى أصيل فى أيام عيد الميلاد ، معدا للترحيب بجماعات المنشدين أو الضيوف الذين قد يحضرون للزيارة ·

وكان أول من حضر هو ايون ، فغنى ترنيمة لطيفة تحت النافذة المضاءة ، ثم غنى غيرها فى الداخل ، حيث نفحوه كأسا من الشراب وبضع قطع من العملة كما جرت العادة · وبينما كان جلانيتاشو الابن فى الداخل بدأت ثلة من الفتيات تغنى عند الباب ترنيمة « ليروى دوامنى » · ودعاهن هرديليا الى الدخول ، ولكنهن هربن فى خجل ، خصوصا عندما سمعن أن ايون فى الداخل أيضا · وظل المغنون يتوافدون جماعة بعد أخرى طوال الأمسية ، فحركوا مشاعر السيدة هرديليا حتى أعماق قلبها ، فقد ذكرتها هذه الايام المقدسة بشبابها واستثارت الدموع الى مقلتيها ·

ثم وصل آل لانج أيضا ، فى ساعة متأخرة من المساء ، تلبية لدعوة تيتو ، تحدوهم الرغبة لرؤية الاحتفال بليلة عيد الميلاد لدى العائلات الرومانية · والحقيقة أن تيتو ــ بلا هدف آخر فى ذهنه سوى شوقه الى عشيقته ــ قد دعاهما الى بيته ليكون فى صحبتها ، بينما رحب لانج بقبول الدعوة فورا ، متوقعا أنه سيكون هناك الكثير من الشراب دون مقابل ، وقد أقلق وصول هذين الضيفين راحة السيدة هرديليا وهدوءها النفسى ، فقد ضايقها أن يحضر تيتو أسرة من اليهود الى بيتها ليدنسا احتفال عيد الميلاد المقدس · وتكبد ابنها مشاقا كبيرة لكى يشرح لها أن لانج ــ رغم أنه يهودى ــ الا أن أسرته لا تتبع العقيدة اليهودية ، لأنهما لا يراعيان شريعة موسى ، أو أى شريعة أخرى · ثم اقترح تيتو أن يصحبهما فى رحلة قصيرة ــ كى يريح أمه ــ حتى يسمعا كيف تضج القرية كلها بترانيم المغنين الشبان · وكان لانج قد استقر الى جوار زجاجة من الشراب ، فلم يتحمس كثيرا للخروج ، وهكذا سعد العاشق المقدام بالخروج وحيدا مع روزا · وتجولا ساعة فى أكثر المناطق اظلاما ، دون أن يحسا بالبرودة ، أو أن يقلقهما هطول الجليد المتساقط ·

---

* السارمالى : اكلة تقليدية من أوراق الكرنب المحشوة باللحم بالخالص ، تسوى فى آنية من الفخار بعد لفها جيدا بشبكة من السلك الرقيع ·

لم تستعد زوجة المدرس مرحها الا بعد منتصف الليل ، عندمـــا وصلت جوقه من تلاميذ المدرسة العليا فى أرماديا لترتل ثلاث ترانيـم مهداة الى « والدى أكثر فتيات المقاطعة سحرا وفتنة » ، كما اعلن أحد الطلاب – وكان معجبا بجيجى سرا – فى خطبـــة مؤثرة ، وهـــو يرفع كأسه ٠

ولم يلبث الجميع أن وصلوا الى حال من السعادة والانطلاق ، حتى أنهم نسوا خلافاتهم مع الاب بلكيوج ، وساروا جميعا ليفاجئوا القس بأغنية قديمة من الترانيم التى تعلمتها السيدة هرديليا فى طفولتها ، لم يكن أحد قد سمعها فى هذه الانحاء من قبل ٠ واغتبط القس – الذى كان يلعب الورق مع بعض أعيان الفلاحين – حين رأى هـــؤلاء المغنين البارزين على غير انتظار ، ورحب بهم بحماس نادر ، وأحضر لهم دمجانة من النبيذ ، ثم رفض أن يتركهم يذهبون قبل الصـــباح ، بل انه فى النهاية أخذ يداعب روزا لانج بطريقة لبقة ، مما أثار حفيظة تيتو الذى اصفر وجهه غيرة ٠

ومرت أيام عيد الميلاد سريعة كلمحة فكر ، واقترب موعد حفـــل خطوبة لورا ٠ ونظرا لضيق الوقت ، انهمك الجميع فى جعل كل شيء لائقا بقدر الامكان من أجل العريس ووالديه ٠ وكان على الخطيبة أن تنتهى من اعداد ثوبها الجديد – وهو ثوب بسيط جدا ، ولكنه مناسب لهـــا تماما – كى تلقى به حمويها المنتظرين ٠ أما جيجى ، فقد جددت أحد أثوابها القديمة ، حتى لا تبدو وكأنها سندريللا ٠ حتى السيدة هرديليـا وافقت على أن تصنع لها فتاتيها ثوبا جديدا ، رغم أنها كانت تعادى بشدة كل أشكال الترف والنعيم ، وتصر على أن ترتدى ملابسها المحفوظة بعناية منذ عشر سنوات ٠٠ والتى كانت ترتديها فى زهو واعتزاز ٠ أمـــا هرديليا الذى كان أكثرهم سعادة ، فقد كان يسرع كل يوم الى أرماديا لينتهى من شراء حاجياته ، ويحكى لكل من يريد أن يسمع ، كيف أن ابنته سعيدة الحظ ، ويسرف فى مديح بنتيا ولورا وغيرهما ٠ وكان تيتو هـو الوحيد الذى لا يهتم بأى شيء سوى أن يتبع روزا لانج طوال اليوم ، مما دعا الناس فى جيدوفيتسا وأرماديا الى الهمس بأن هناك شيئا مريبا بين ابن معلم بريباس وزوجة المدرس الجديد فى جيدوفيتسا ٠

واستأنفت عائلة هرديليا مناقشاتها المعتادة فى الأمسيات ، هادئة حينا ، وعنيفة أحيانا أخرى ٠ وكان بنتيا بالطبع هو موضوع الحـديث الذى كان يتعلق هذه المرة ببائنة لورا ٠ حقا أن جورج لم يطلب نقودا أو

بائنة من أى نوع ، حتى أن هرديليا كان يتفاخر فى كل مكان بأن « الرجل يريد لورا ·· لورا وحدها ! » ولكن الفتيات كن يؤكدن من ناحيه اخرى ان استبعاد البائنة لا يعنى اهمال جهاز العروس ، وأن هذا الجهـــاز لا يشمل ملابس العروس فحسب ولكن يتضمن ما يلزم لاقامة بيت جديد ايضا ، فليس من اللائق أن يقوم العريس بكل شيء ، حتى المقعد الذى ستجلس عليه فى بيتها · وفضلا عن ذلك فقد جرت العادة أن يقوم والد العروس بالتكاليف البسيطة اللازمة لتسجيل الزواج · وظل العجوزان يرددان أنه من الخطر الاسراف فى الترف من أى نوع ، عند اقامة بيت جديد ، وأنه يكفيهم ما ينفقون فى حفلى الخطوبة والزفاف ، وأنه ينبغى ألا ينسوا أن هناك فتاة أخرى فى سن الزواج ·· وكان لحجج الفتـاتين المبللة بالدموع أثرها العميق فى اقناع هرديليا الذى حصل على قرض برهن مرتبه يبلغ ألفا وخمسمائة « زلوتى » من بنك سومشانا ، بضمان ستوسيل ، كاتب المدينة ، حتى يفى بمطالب لورا ·

واحتفلوا بالخطوبة دون ضجة ، ودون مدعوين · فلم يدع سوى الفيرا فليبويو ، وابنتى سباتارو كاستتناء بوصفهن أقرب صديقات لورا اليها · وفيما عدا هؤلاء ، لم يدع أى فرد غير أفراد العائلة ، رغم اصرار تيتو على دعوة آل لانج أيضا ·

وصل جورج مع والديه بعد الظهر · وكان بنتيا العـجوز ذا مظهر مهيب · كان طويلا ، عريض المنكبين ، ورغم اقترابه من السبعين الا أنه كان يقف معتدلا كشجرة الصنوبر · وكانت وجنتاه المتوردتان تتألقان فى بهاء فوق شاربه الأبيض الناصع الذى امتزج بلحيته الكثة التى تعطى احساسا بالأبوة · وفى عينيه الهادئتين الزرقاوين ، تزاوجت السماحة مع ومضات من قوة الارادة والحزم · وكان شعره الاشهب الطويل المشعث أشبه بتاج من الجليد ينحدر قليلا على حاجبه المرتفع المجعد بعض الشيء · كان كاهنا من المدرسة القديمة ، دءوبا يقظا مستعدا دائما أن يقـوم الخراف الضالة بين رعيته ، وبدت زوجته الى جواره كأنها طفلة مسكينة مهملة · كانت قصيرة القامة ، لا ترتفع الى أكثر من صدر زوجها العجوز ، وقـد تجعدت بشرتها بآلاف الخطوط الدقيقة ، وبدت عيناها العسليتان خائفتان أبدا ، وقد مشطت شعرها الذى لا لون له جيدا الى الخلف · كانت الآلام تخزها فى كل مكان من جسدها ، ولذلك لم تكن تكف عن الشكوى بصوت مرتعش خائف ، ناظرة من حين الى حين الى سيدها كأنها تريد دائما أن تلتمس منه أن يأذن لها بكلمة أو كلمتين ·

وعند ظهر يوم الأحد المحدد للخطوبة ، جاءت والدة هرديليا مصادفة دون أن يدعوها أحد • كانت فلاحة محنية الظهر ، لها وجـــه بشوش مشرب بالحمرة ، وعينان حادتان خبيثتـــان • وكانت قد ســارت طوال الطريق من زاجرا الى بريباس ، حتى لا تدفع عشرة « كريتزرات » اجرا لعربة تسير فى هذا الانجاه ، حاملة حقائبها وأكياسهــا على ظهرها . وقد ملأتها بما اتيح لهـــا فى بيتهـا من أطايب لتســـعد بهـــا أحفادها •
وعندما سمعت أن لورا ستتزوج قبلتها مرارا وهى تبكى من صـــميم فؤادها ، اشفاقا على حفيدتها المسكينة لانها تبدأ متاعبها فى الحياة فى تلك السن المبكرة ، ثم تذكرت « رجلها العجوز » الذى مات منذ ثلاث ســنوات مضت ، عندما سقط من فوق بيدر الدريس على سلاح المحراث الحديدى . فكسر عموده الفقرى ، والذى اعتاد ــ طيب الله ثراه ــ أن يضربها كل يوم ، حتى أنها كثيرا ما فكرت فى أن تفر هاربة فى العالم الفسيح ، وذكرت كم كانت تخشاه ، وتضرعت الى الله ألا تحيا لورا مع زوج مثله ، لأن حياتها عندئذ ستكون حياة بؤس وعذاب •• وضحكت لورا لمخاوف جدتها ، بينما ضاقت السيدة هرديليا بهذه الحماقات • فلم تكن ، عـلى وجه العموم ، تكن ودا كثيرا لحماتها ، لأن الأخيرة كانت كلما نشبت مناقشة فى البيت ، تأخذ جانب المدرس ، بل انها كانت تحثه على الشراب قائلة ان « الرجل لا يحيا الا مرة واحدة » •• وكانت جيجى هى الشخصية الوحيدة فى الأسرة التى تحتفظ بعلاقات ودية مع جدتهـا ، ومن ثم فقد راحت تقص عليها ثانية كيف أصبح زهاريا سيدا مرموقا ، بعد أن هرب من البيت دون أن يحمل معه سوى قليل من البرقوق المجفف ليســـد به رمقه ، وكيف أنه التحق بالمدرسة العليا فى أرماديا بارادته وحدها •
وعندما وصل الضيوف ، انسحبت العجوز الى المطبخ ، فقد كانت تحس بالألفـــة أكثر مع سائق عربة بنتيا ومع زنوبيـــا التى جاءت لتمد يد المساعدة الى السيدة هرديليا •

وتطوع الأب بلكيوج ليقوم بمراسم تبـــادل خاتمى الخطوبة وتلاوة الصلاة المعتادة فى مثل هذه المناسبات • ورغم الابتسامة الفرحة التى ارتسمت على شفتى السيدة هرديليا فى هـــذه اللحظات الجليلة فقـــد انسابت الدموع على وجنتيها حارة غزيرة • وكان المدرس أيضا متـــأثرا بعمق حتى أنه تجرع كأسا فى عجلة ليمنع عينيه من أن تفيضا بالدموع • أما تيتو فكان هو الوحيد فى البيت الذى بدا مكتئبا وقد سلبت روزيكا عقله تماما •

وظل جورج بنتيا طوال الوقت يحيط خطيبتـــه بنظرات ملؤها الهيام . وعندما تبادلا القبلات ـ بعد تبادل خاتمي الخطوبة ـ تخضبت وجنتاهما حتى منبت شعرهما ، مما أضحك الجميع منهما .

وانتهت مراسم الخطوبة باحتفال عظيم . فألقى الأب بلكيوج كلمة مؤثرة ، متمنيا للعروسين حياة سعيدة مديدة عامرة بالأطفال . ورد جورج بالتعبير عن تقديره وحبه ، فسارع القس بتحويل هذا الحب الى لورا . وتبدلت اللهجة الوقورة شيئا فشيئا حتى حل محلهـــا المرح التقليدى المألوف فى مثل هذه المناسبات . وراح جورج يذرع الحجرة فى ذلك الجو الدافىء بالعاطفة ويداه خلف ظهره وعيناه تلتمعان ، وهو يبسط أمامهم خططه للمستقبل ، والرسالة المقدسة التى دعى الى حملها الى تلك القرية التى تقع على مشارف المنطقة الرومانية ، حيث تبلغ المخاطر أقصى مداها ، وحيث تكون واجبات الكاهن أكثر اقتضاء للجهد وعمله أكثر مشقة .. وروى لهم كيف أن الرومانيين فى فيرياج ، وهى قرية فى ساتمار حيث سيعين كاهنا ، لا يتكلمون الرومانية ، حتى انهم يضــــطرون لاستعمال اللغة الهنغارية عندما يقولون أنهم رومانيون .. فرسالته اذن هى أن يرجع الخراف الضالة الى صفوف القطيع ، وأن ينشر اللغة الرومانية ، وأن يغذى مشاعر العزة القومية فى صفوف المنـــافقين . فهل هنـــاك رسالة أكثر نبلا لمثقف واع بواجبه ؟ ان المهمة جسيمة ، وما كان ليجرؤ على التصدى لها دون شريكة لحياته مثل لورا ، التى تعتبر رومانية متحمسة غيورة . انهما سيعملان معا باخلاص أعظم وثقة أكمل فى انتصارهما فى النهاية .. وبدا وهو يتكلم ، وقد تضرج وجهه انفعالا ، كأنه ازداد ضخامة وطولا . حتى لورا ـ التى كانت تحمل فى أعماق قلبها المخاوف من أن زوج المستقبل هذا قصير أكثر مما ينبغي ـ تضاءلت الى جواره ورأتـه الآن أضخم وأعظم كفارس حقيقى يغزو أرواح البشر .

وكان بنتيا العجوز متحفظا فى البداية ، منهمكا فى جدال لاهوتى مع الأب بلكيوج حتى يستطيع فى فسحة من الوقت أن يدرس زوج ابنـــه المستقبلة وبقية أفراد أسرة هرديليـــا . وكانت نظراته تلتقى أحيانا بنظرات جورج الذى بدا وكأنه يقول « والآن ، ينبغى أن تعترف بأنهم أناس طيبون .. أليس كذلك ؟ » وأخذ يندمج فى الجمع بدوره بمرور الوقت ، وعندما تطرقت المناقشة فى النهاية الى أبنائه ، شارك فيها بكل قواه . كانت السيدة بروفيرا بنتيا ، زوجة الكاهن ، هى التى أثارت هذا الموضوع ، فقد شعرت بمودة نحو السيدة هرديليا وأخذت تشكو

لها من أنها قد تقدم بها السن وذبلت على نحو ما تراه بعد أن أنجبت ثلاثة عشر طفلا · وأبدت زوجة المدرس تعاطفها الكامل ، ثم أخذت تتباهى هى أيضا بأنها قد ولدت تسعة أطفال ، ولكن رحمة الله شاءت ألا تترك لها سوى ثلاثا هم الموجودون فى ذلك الحفل ·

فتدخل بنتيا العجوز ضاحكا فى سعادة وقد أغمض عينيه ، قائلا :

ــ لا يؤسفنى الا أنه لم يكن هناك طفل آخر ليكمل الدستة ! واستطرد فى مرح ، وهو ينظر الى كل من الحاضرين بدوره ، كأنما يتوقع كلا منهم أن يشاركه سعادته : « ولقد بذلنا كل ما فى وسعنا فى الحقيقة وكنا نهدف الى أن نتجاوز الدستة ، ولكن ضاعت جهودنا سدى ·

وعندما التقت عيناه بنظرة بلكيوج التى صحبتها بسمة متسامحة، تذكر أنه لا يليق بقس أن ينغمس فى ثرثرة فارغة ، فانقلب حديثه جادا على الفور وأضاف وهو يمشط لحيته : « أحد عشر وليدا ما زالوا يعيشون، وقد طوى القبر اثنين·· الرب أعطى ، والرب أخذ ! تبارك اسم الرب » ·

أشاعت هذه الكلمات الاخيرة شيئا من البرودة فى الجو العام ، فجذب هرديليا مقعده الى جوار الاب بنتيا ، فى محاولة لاحياء الحفل ثانية ــ وقال له فى مرح :

ــ يالك من بطل يا صهرى العزيز بنتيا ·· ها ! ها !

فصدمت كلمة صهرى أذن بنتيا العجوز ، ولكن شهيته الى الحديث والثرثرة المنزلية كانت قد فتحت ، فاستمر دون أن يعير هرديليا التفاتا :

ــ « أحد عشر منهم على قيد الحياة ·· من رحمة الرب ·· وقد كبروا جميعا ، وصاروا أصحاء أقوياء بعون الله ·· وهذا ، الموجود هنا ، هو التاسع » · قال هذا وهو يشير الى جورج الذى اعتاد على مباهاة الرجل العجوز ولم يكن يستحبها ، والذى كان يتحدث الى لورا بصوت خفيض ، واستطرد العجوز :

ــ اننا لا نكاد نعرف عدد أحفادنا ·· دعونا نحسبهم ·· ثلاثة عند الكسندرو ، وثلاثة لبروفيرا ، فيصبحون ستة ، وستيفان لديه أربعة ، ولودوفيكا اثنان ، أى أنهم اثنا عشر ، أليس كذلك ؟ هذه هى الدستة الأولى !

ثم أخذ يحرك يديه في اشارات كتلك التي اعتادهـــا وهو يلقى بمواعظه من فوق منبر الكنيسة ، موجها اليهم نظرة متسلطة أوقفت كل مقاطعة ، بينما راح يقدم قائمه بجميع اطفاله ، مبررا لكل منهم ما يناسبه من كلمات المديح • كان الكسندرو ، وهو اكبرهم سنا ، مدرسا بالمرحلة الثانوية فى رومانيا بالمدرسة العليا بمدينة جورجيو ، وهو متزوج هناك من ابنة أحد وكلاء الاراضى الأثرياء ، يتسم بدماثة الخلق ويمتاز بقدراته العظيمة ، رغم أنه يحمل اسما يونانيا • نعم ان الكسندرو يعيش عيشة راضية ، وقد حصل على ضيعة تبلغ عدة مئات من الأفدنة كبائنة لزواجه وهو يأمل أن يرقى قريبا ناظرا للمدرسة ، وهى وظيفة يستحقها تماما باعتباره باحثا أصيلا • أما الابن الثانى ستيفان فقـــد اغترب عنهم الى حد ما • اذ تزوج بفتاة ألمانية من بوزن كان قد قابلها فى برلين أثنـــاء دراسته بمدرسة الصناعات هناك • ولم يكن هناك ما يمكن أن يؤخـذ عليها ، فهى من أصل طيب ، وتعمل الآن مدرسة باحدى المدارس العليا للطالبات ، بينمـــا يعمـــل ستيفان مهندســـا بمصـــانع سكودا ، ولهما أربعة أطفال صغار ، كل منهم ألطف من الآخر ! والشىء الوحيـــد المؤسف هو أن الزوجة الالمانية لا تعرف كلمة رومانية واحدة ، وكذلك أطفالها ، لسوء الحظ • وهم يأتون فى فصل الصيف من كل عام لقضاء أسبوع فى ليشمنتسا ، فى حين أن الكساندرو لم يحضر لزيارة والديه خلال السنوات العشر الأخيرة • ويلى ستيفان فى العمر — من البنين — ليفيو ، الذى وصل الى رتبة النقيب ، وهو ضابط من ضباط هيئـــة الاركان فى حامية الجيش بمدينة جراتز ، رغم أنه لم يتجاوز الثانيـــة والثلاثين ، ويأمل أن ينقل قريبا الى سيبيو حتى يصبح قريبا من موطنه • وهو ضابط ممتاز ينتظره مستقبل زاهر • وقد نال اجازته من الاكاديمية العسكرية وكان أول دفعته ، وفى الخريف الماضى اجتــاز امتحان الترقية الى رتب الضباط العظام بامتياز •• لم يكن له سوى عيب واحد : أنه يخشى الزواج • « اننى لا أعرف بمن يقتدى فى هذا ، فان آل بنتيـــا جميعا ذوو قلوب رقيقة ودماء حارة • ربما ورث هذا عن زوجتى ، فهى لم تنظر أبدا الى رجل آخر طوال حياتها ، رغم أنها كانت كالزهرة فى جمالها عندما كانت شابة ••• » وهناك أيضا طبيب فى العائلة ، هـــو فيرجيل ، الذى استقر فى سيبيو وأنشأ فيها عيادة يحسده عليها حتى الأطباء الاجانب أنفسهم • واذ كان رومانيا أصيلا ، تحدوه الرغبة فى بذل أى شىء من أجل القضية القومية ، فقد أصبح موضع تقدير عظيم فى الدوائر الســـياسية القيــادية الرومانية ، وليس من المســـتبعد أن

ينتخب ذات يوم عضوا فى البرلمان في بودابست ٠٠ أما أكثرهم هدوءا واتزانا فهو ايونيل الذى يعمل محاسبا فى أحد البنوك الكبرى فى كيرناوتسى ، وهو رجل حريص مجتهد ومحاسب بارع ينتظره مستقبل باهر ، كان يصبح مليونيرا أو على الأقل مديرا لأحد البنوك ٠٠ ثم يليهم جورج ، وهو ولد عظيم أيضا ، وبخاصة منذ أن كرس حياته للكهنوت ٠ وعندما يغلق العجوز عينيه الى الأبد ، سيتولى جورج من بعده شئون رعيته في ليشننتسا٠٠ ثم هناك ولدان آخران هما ماركو وفاسيلى ٠وأولهما قومى متطرف ، وقد كان فى العام السابق قائدا لاضراب الطلبة الرومانيين فى بودابست ، احتجاجا على محاولة أحد اساتذتهم أن يمنعهم من الحديث بالرومانية ٠ أما فاسيلى فسينتهى من دراسته بالمدرسة العليا فى بلاج هذا العام ٠٠٠ ثم جاء دور البنات ٠ كانت أولاهن قد رشمت باسم بروفيرا مثل والدتها ، وقد تزوجت بعيدا فى بيسارابيا بالقرب من تشيتشيناو ٠ وزوجها أحد ملاك الأراضى من بيسارابيا كانت قد التقت به فى جورجيو ، حيث كانت تقيم مع شقيقها الكسندرو ٠ « وذات يوم جميل تلقينا رسالة تقول : « والدى العزيزين ، لقد وجدت سعادتى ، لقد خطبت الى ٠٠٠ » ومالذة العيش الا فى التنقل ! أما الابنة الثانية لودوفيكا فقد تزوجت محاميا ، اسمه فيكتور جروتزيا ، فى مدينة كلوج وأنجبت طفلا وطفلة صغيرة ٠ وأخيرا هناك أصغرهم يوجينيا ، وهى ذات جمال نادر وزوجة جوجو يونسكو عضو البرلمان فى رومانيا ٠ وقد أثارت ـ كما قيل لنا ـ ضجة كبرى فى صالونات بوخارست ، والكل سعيد بها ٠ صحيح أنها ما تزال صغيرة جدا ، فهى أقل من جورج ببضع سنوات ، ولكنها قد مضى على زفافها ثلاث سنوات كاملة ٠ »

واغرورقت عينا زوجة الكاهن لهذا العرض لأطفالها الأحباء ، فقد كانوا مبعثرين فى هذا العالم الواسع ، ولم تعد تسعد برؤياهم جميعا وقد التأم شملهم مرة ثانية ، وها هى الآن ضعيفة مثقلة بحمل السنين ، وقد تموت فى أى لحظة دون أن يتحقق لها هذا الحلم ٠ ولكن بنتيا أوقف سيل شكواها باشارة سامية من يده ، قائلا :

ـ اسكتى ، أيتها العجوز ، تحملى واصبرى ! ما هى الا فترة يسيرة حتى نحتفل بمشيئة الله بالعيد الذهبى لزواجنا ٠٠٠ وعندئذ سنجمعهم جميعا من كل أركان الأرض مع كافة أطفالهم « وستتحقق امنيتك حينئذ » ٠

واستمر العجوز فى حديثه حتى أن هرديليا لم يتمكن بغير مشقة

أن يحادثه على انفراد ، ذاكرا له بعض الكلمات الجادة المناسبة للظروف ، معلنا أن لورا لا تمتلك بائنة ، ولكنها تملك قلبا شجاعا عوضا عنها ... ولكن بنتيا قاطعه في سخط قائلا :

– انني بوجه عام لا أتدخل فى زيجات أبنائى ، ومن يبنى عشا هو الذى يقيم فيه ، وكل انسان ينبغى ان يتعلم كيف يعنى بشئون نفسه ．

لم يرض المدرس تماما عن اجابة صهره ، ولكنه تلقاها بابتسامة كأنها فكاهة لطيفة ．

ثم اتفقوا على ان يحدد بنتيا موعد الزفاف ، وأن يخطر هرديليا به بالبريد بمجرد ان يبلغ جميع أقاربه ． واتفقا فى هذه الاثناء على نقطة واحدة : أن يقام حفل الزفاف فى أرماديا ، كى يولوا الحدث ما له من جلال ．

ورحلت عائلة بنتيا فى ساعة متأخرة من الليل قاصدة ليشنتسا ، فقد استقل افرادها عربتهم الخاصه ． وما أن غادروا القريه ، حتى انطلق الرجل العجوز يحاضر جورج قائلا انه قد تسرع كثيرا فى قراره ، مضيفا أنه لا يستطيع ان يمتدح ما راه ، وأن جورج يدخل فى عائله من المعورين الذين حاولوا اخفاء فقرهم بالتباهى والقول المعسول ، وانه ينبغى ان يعيد النظر فى الأمر قبل فوات الاوان ... واغتاظ جورج من ابيه لما قال فى حق هؤلاء الناس الطيبين الذين سيصبحون أصهاره عما قريب ． وأضاف أنه لن يتخلى عن لورا مقابل جميع كنوز الأرض ، ولعل الرجل العجوز كان يفضل له أن يتزوج من فتاة دميمة غنية سيئة السلوك ، فضايقه أن تأتيه زوج ابنه دونما بائنة ． ولم تجد أى محاولة لاسكاته خاصة بعد أن تمت الخطوبة رسميا ． وقال ان أباه يحسن صنعا اذا تكلم عن أشياء أخرى بدلا من تصيد الأخطاء لعروسه ． ولم يلبث العجوز أن استسلم أخيرا وقد غلبه النعاس والارهاق ، فترسم خطى زوجته ، التى أغفت فى سكون مستسلمة لهدهدة العربة ، فاتحة فاها وقد اغرورقت عيناها بالدموع ．

أما فى بيت هرديليا ． فلم تطفأ الأنوار حتى الصباح ． كانت الأسرة كلها فى حالة من الانفعال والفرح الشديد ． فهم لم يتبينوا قبل الآن كم كان حظ لورا سعيدا ． وراح المدرس يكرر فى زهو قائمة أقارب جورج ، سائلا لورا كل مرة ما اذا كان مصيبا أم مخطئا فى اصرارة على ان تتعقل وتطرد ماكان عالقا برأسها من أوهام ؟ وارتسمت على

وجه العروس ابتسامة سعيدة كأنها قناع • ووعدت شقيقتها أن تصحبها معها الى المجتمع الراقى ، فمن يدرى أين يمكن أن يجد الانسان ـ خصوصا اذا كان فتاة صغيرة ـ حظا فى الحياة • فهى أيضا لم يكن يمكن أن تنتسب اليوم الى مثل هذه الأسرة البارزة العظيمة لو لم تذهب مصادفة الى حفل فى سينجيورز ذات ليلة سعيدة • وطفرت الدموع من عينى السيدة هرديليا ، وقد غلبها الانفعال وزمت شفتيها لتمنع نفسها من الاجهاش بالبكاء ، ولم تستطع أن تنبس بكلمة ، بينما راحت جيجى تجرى الى لورا كل دقيقة كى تمطرها بالقبلات ••• أما تيتو فلم يشارك فى هذا السرور العام ، فقد كان مستغرقا فى صياغة قصيدة فى حبه العارم •

قال هرديليا محاولا ايقاظه من غفوته :

ـ ان هناء لورا قد يصبح حظا لك أيضا ياتيتو !

وأجاب الفتى مؤكدا :

ـ هراء ! اننى أملك حظى ومصيرى !

فاستطرد المدرس قائلا :

ـ نعم ، نعم ، بالطبع ! ولكننى أعتقد بعد أن أصبح لنا أقارب على هذه الدرجة من الأهمية فى العالم ، أنه سيكون من الأيسر عليك أن تعبر الحدود الى رومانيا ، مثلما فعل كوشبك * ، وتشرع فى عملك بجدية أكثر •

فتمتم تيتو باقتضاب ، وهو يتوق الى تغيير الموضوع :

أمامنا وقت طويل لهذا !

استاء هرديليا ، وأنبه لتبديده وقته فى التفاهات بدلا من البحث عن مستقبله ، فان المرء يجب أن يعمل لينجح فى حياته ويصنع لنفسه اسما وشهرة •• وعندما أحس تيتو أن المناقشة تزداد حدة ، خلع ملابسه وذهب الى الفراش ، وقد فت فى عضده أن أباه أيضا لا يأبه بآماله العظام ؛ ومن ثم فقد قرر أن يقابل روزيكا فى اليوم التالى دون توان ، فان روزيكا هى المخلوق الوحيد فى العالم الذى يفهمه حق الفهم •

وكانت السيدة هرديليا وحدها هى التى تحس بالقلق ، وتبكى

* جورج كوشبك : شاعر رومانى عظيم من مواليد ترانسلفانيا (١٨٦٦ ـ ١٩١٨)•

لورا العزيزة المسكينة ، لانهـا ستترك بيتهـا لتعيش بين أناس غرباء ، بدلا من أن تتزوج شابا غنيا فى هذه المنطقة أو حتى فى بريبياس نفسها ٠

- ٣ -

انتشرت فى نهاية صيام الشتاء اشاعة فى القرية بأن أنا ، ابنة فاسيلى باكيو ، حبلى ٠ لم يكن أحدا يعرف أصل هذا الخبر ، وقد رفض الكثيرون تصديقه ٠ ورغم هذا فقد انتقل الخبر من بيت الى بيت همسا ، بلا ضجيج كأنه لص ٠ وتمعنت النسوة فى هذا الخبر ، ورحن ينسجن حوله ٠ وعندما كانت أنا تعبر الطريق كانت عيون لا حصر لها ترقبها خلسة من خلف الأسوار ومن كل النوافذ ، وتقيس وسطها ، وتقدر محيط بطنها ، وتتأمل مشيتها ، ثم تقول الأكثر خبرة منهن للأكثر بساطة :

ــ ألا ترين كيف تمشى لتخفى خطيئتها ، وكيف تربط الشريط حول وسطها بحيث يبدو واسعا كأنه حزام عريض ؟

وكانت النسوة الأكثر خلاعة أول من تناقل الخبر واشاعة فى كل مكان ، شأنهن فى ذلك شأن من لا يريحه أن يرى القذى فى عين جاره ٠

كانت أنا منذ تلك الليلة تعيسة فى الحقيقة ، فى رعب من أن يحدث هذا ٠ وقد أدهشها أن جورج لم يقل شيئا ، رغم أنها كانت على يقين من أنه يعلم كل شىء ٠ كانت تتوقع كل لحظة أن تفتضح خطيئتها ، وكان انتظارها القلق أشد ايلاما لنفسها من وعيها بخطئها ٠ ورغم أن جورج لم يغير سلوكه ازاءها على أى نحو ، فانه لم يطأ عتبة باكيو منذ ذلك اليوم ٠ ولم يستطع فاسيلى باكيو أن يفهم سببا لامتناع جورج عن زيارته ، فتحدث الى ابنته فى ذلك ذات مساء ، لعله يجد مبررا لهذا التغير فى سلوكه ٠ واضطربت الفتاة وشحب وجهها وبدأت تتأتىء فى رعب ، مما أثار فى ذهن أبيها الذكرى الغامضة الغائمة لذلك اليوم ٠٠ فأشرق وجهه ٠ واستنتج السبب ٠ وبعد عدة ليال ، أحس بأنا تغادر البيت خلسة ، ولا تعود لمدة ساعتين أو ثلاثة ، رغم برودة الجو ، فاستعاد راحة باله تماما ٠ لقد أصبح كل شىء واضحا جليا ٠ كان باكيو راضيا تماما ٠ وأحس بسرور لمسلك الفتاة ــ فقد يعود عليه ببعض

الكسب ـ لأن جورج فى مثل هــذه الظروف سيضطر الى الزواج منها دون ابطاء وهكذا يتخلص هو من كل مايقلقه . فقد تصور ان الفتى انما يقابلها سرا ، ولن يلبث أن ياتى اليه طالبا يدها . وهو لذلك كان أعظم ودا نحوه عندما قابله ، وأومأ له بطرف عينه كأنما يسر له أنه يعلم بما يجرى ولا يعترض عليه ، بل انه كان يعامله كأنما أصبح بالفعل زوجا لابنته ، وأدى هذا كله بجورج الى بلبلة كاملة ..

أما الفتاة ، فكانت تنتظر حلول الليل بصبر نافذ . وبدت أيام الشتاء القصيرة بلا نهاية بالنســـبة لها . حتى اذا ما تلاشى الغسق فى الليل ، زادت أعصابها توترا ، وتغير لونها لكل كلمة من أبيها ، وراحت تختلق المعاذير للخروج الى الفناء لترى ان كان ايون قد وصل ، ويضطرب قلبها خوفا الا يعود . ولم تعد تضيع لحظة فى اعداد فراش أبيها ، حتى ترى العجوز وقد نام فى سلام . فتطفىء الأنوار . وكان الفتى يجىء بلا تخلف ، عند منتصف الليل كعادته ، ويحدث صفيرا مسموعا عند البوابة حتى تعلم بوصوله . .ولكنه لم يدخل البيت ثانية على الاطلاق . كانت أنا قد أعدت فى اليوم التالى لتلك الليلة أريكة لينة فى كومة من الأعشاب فى حديقة الفاكهة ثم انتقلا بعد أسـبوع الى الدور العلوى من الحظيرة حيث أصبحا أكثر أمنا من أى أخطار .

وتأكدت أنا خلال أيام عيد الميلاد أنها حبلى ، فهمست الى ايون ، وهى تعانقه بحرقة ، وتبثه كلمات حب رقيقة ، قائلة ان حياتها منذ تلك اللحظة تعتمد كليــة على ارادته وحدها ، ولم يحر الفتى جوابا ، ولــكنه كف بعد ذلك عن الحضور فى كل ليلة .

كانت الفتاة تتقلب فى فراشها على الموقد دون أن يواتيها النوم ، وتنتظره فى ترقب وقلق ، وتصيخ بأذنيها لتسمع صرير البوابة ، وترتعش أعصابها تحت وطأة التوتر ، فلا تستطيع أن تغلق عينيها قبل الصباح . وكانت تبحث هى نفسها فى اليوم التالى عن معاذير لغيابه ، حتى اذا ما جاء بعد عدة ليال من الألم والعذاب ، لم تكن تجرؤ أن تقول له كلمة عتاب واحدة ، خشية أن يكف عن الحضور نهائيا . كانت تحس أنها لعبة فى يديه ، ومع ذلك لم تخطر لها فكرة لومه على بال . بل انها كانت تخاطب نفسها بأنه لا ذنب ولا عتاب فى الحب ، فقــد خلق كل منهما للآخر ، وما حدث هو المكتوب فى لوح القدر . ولكنها مع ذلك كانت خجلة من نفسها ، تتجنب الناس ، ولا تكاد تجرؤ أن تغادر فناء منزلها . كان وهج النهار يحرق وجنتيها . وكانت تســـير وعيناها مثبتتـــان الى

الأرض عندما تضطر الى الخروج الى الطريق حتى تتجنب استفزهما بنظرات الناس . كانت تتخيل ان عارها يعلن عن نفسه من كافة سطوح المنازل . وكانت تتساءل وقد أمسك الرعب بتلابيبها : كيف يمكن لهذه المحنة ان تنتهي ؟ لماذا لم يحاول ايون ثانيه ان يطلب يدها ، حتى ينقذها من هذا القلق الذى يمزقها ؟ وخطر لها أن تعترف بكل شيء لوالدها ، فربما يرق قلبه لها - هذا اذا لم يقتلها .. أم ترى أن ايون يترك الوقت يمر عن عمد حتى تصبح مضغه فى أفواه القرويين وهم يشيرون اليها بأصابع السخرية والازدراء ؟ كان مجرد التفكير فى أن ايون يمكن أن يتلاعب بحبها وآلامها يملؤها فزعا أكثر مما يثيره غضب أبيها ..

وانقطع الفتى أسبوعا كاملا ، وحتى عندما جاء ، رفض أن يصعد معها الى غرفه الحظيرة . وذكرها بأن فاسيلى باكيو قد خرج ذات ليلة ليقدم العلف للماشية ، وأنه كاد أن يكتشفهما . ولم تجرؤ الفتاة أن تلح عليه ، ولكنها طلبت اليه بصوت مرتعش بالدموع ، أن يتردد عليها فى فترات أقصر ، كما اعتاد أن يفعل من قبل ، وأنه ينبغى أن يفعل شيئا .. أى شيء يراه صوابا - لأنها لن تلبث أن تعجز عن اخفاء حملها . فهمهم ايون بكلمات غير مسموعة ، ثم انقطع ولم يعد ثانية منذ تلك الليلة .

وانقضى أسبوع ، ثم أسبوع ثان . ثم خمسة أسابيع .. وسمعت الفتاة أن ايون قد ذهب مع بعض الرجال الآخرين الى جبال بيرجاو لقطع الأخشاب . وتحققت أنها قد ضاعت تماما ، وان الله وحده هو الذى يستطيع مساعدتها من الآن فصاعدا . وأخذت تشهق بمرارة وكأنها تحتاج الى كل دموع العالم حتى تغرق ما بها من آسى . واكتسى وجهها شحوبا وبقعا سمراء فى لون الرماد .. لم يعد فى الامكان اخفاء خطيئتها، واقترب يوم الحساب .

وانتهت أيام الصوم ، وبدأ فاسيلى باكيو يحس بشيء من الحسرة ، لأن جورج لم يأت ليطلب يد ابنته . هل كان الفتى يهدف الى الاساءة الى أنا ثم يتركها لتصبح موضع سخرية القرية ؟ اذا كان هذا هو الوضع .. اذن... ولكنه لم يجسر على تصور ما يمكن أن يحدث ، لأن دمه سوف يغلى وسيفقد عقله تماما . وكم قرر أن يذهب للقاء توما ليحدثه حيث رجل لرجل ، ولكنه كان ينكص على عقبيه كل مرة مبتعدا عن بوابته ، وهو يحس بوجهه يحترق خزيا وعارا . كيف يمكنه أن يذهب اليهم عارضا ابنته كأنه شحاذ ؟ وفكر أن يذهب الى حانة أفروم ليشرب حتى الثمالة ، ثم يزمجر فى قاع زجاجة الشراب غاضبا ثائرا يسب جورج ويتوعده .

لم يعد سوى خمسة أيام أو ست على بدء الصوم الكبير . وبدأت أنا تحس بالدوار والغثيان فى بعض الاحيان . وكان المرء يستطيع أن يرى بطنها منتفخة تحت ميدعتهاوأدرك فاسيلى باكيو عذابها ، وأحس بالاسى من أجلها . كان يخشى أن تموت ابنته ، ولم يكن يستطيع أن يستدعى الطبيب فليبويو من أرماديا ، فهو يأخذ أجرا مرتفعا ، ولا يكلف نفسه عناء مجرد النظر الى المريض قبل أن يحس بالنقود فى راحته ، ومن ثم فقد استدعى فيروانا وهى أستاذة فى الرقى والتعاويذ ، وقابلة ذات سمعة حسنة فى كافة القرى المجاورة . وتبادلت الام فيروانا ذات الوجه المتغضن والعقل النشيط كلمتين فى همس مع أنا ، ثم تحسست بطنها فى رفق ، ثم قالت للفلاح مباشرة :

ـ ليساعدها الله على أن تحتفظ بصحتها حتى تضع المولود ، وسيدهشنى ألا يكون ذكرا يا فاسيلى !

وانهارت الفتاة أمام الموقد ، متكورة كانها كلب مذنب ، وطاطات رأسها الى الأرض ، متوقعة أن يقتلها . ولكن فاسيلى باكيو لم ينبس . وجلس طوال المساء ، مسندا مرفقه على ركن المنضدة ، وعيناه مثبتتان تحملقان فى لا شيء ، وهو يتنهد تنهدات عميقة من حين الى حين كرجل يتوجع فى مرضه .

- ٤ -

كان جيتسا بوب ، الكاتب الرومانى الوحيد فى محكمة أرماديا ، أحد المعجبين القدامى بالسيدة هرديليا ، منذ كانا يمثلان المسرحيات معا فى مونور . وقد جلس مع هرديليا يوما يحتسيان زجاجة من البيرة ، فقد كانا صديقين منذ الطفولة ، فراح يحكى له أن هناك ضجة كبيرة فى المحكمة بشأن تحقيق سيجرى هناك بأمر من وزير العدل ، فى أعقاب شكوى مقدمة من شخص من بريباس يدعى ايون بوب جلانيتاشو . وأن القاضى ، الذى غضب غضبا شديدا لهذا ، يتوقع أن تصل اللجنة فى أى لحظة لبحث المسألة وكتابة تقرير عنها . وأن الجميع يتساءلون من الذى يمكن أن يكون قد لعب تلك الخدعة الخبيثة ضد القاضى .

وأنهى الكاتب حديثه قائلا بابتسامة :

ـ ليتك رأيت وجه رئيس المحكمة يا عزيزى زهاريا ! ان ما يثيره

ليس خوفه من العواقب ، لأن هؤلاء الموظفين الكبار كافة هم عصبة واحدة فهم كما يقول المثل : «الكلب لا يعض اذن أخيه» • ولكن ما يثيره هو المهانة التى يشعر بها اذ تلقى هذه الصفعة علنا • بل لعله كان يفضل أن يصفع على وجهه فى ميدان عام على أن يحدث مثل ما حدث • ولكنه قطع على نفسه عهدا ألا يترك حجرا فوق حجر حتى يجد من حرض الفلاح على أن يرسل بشكواه ، وعلى من حررها له ، وقال أنه لن يستريح قبل أن يزج بهم جميعا فى السجن •

أحس هرديليا بانقباض لهذا الخبر ، ولتهديد القاضى بشكل خاص • وفكر لحظه ، وقد تملكه الرعب ، ان يعترف لكاتب المحكمة بأنه هو الذى كتب الشكوى وان يسأله النصح كيف يدافع عن نفسه فيما لو افتضح الأمر ؟ ولكنه صرف النظر عن هذا على الفور • فرغم أن جيتسابوب كان صديقا مخلصا له ، الا أنه ربما أفلتت منه كلمة مصادفة، فيسبب له متاعب جمة • ولم يلبث بعد لحظة أن تذكر أنه قد اتخذ كل الاحتياطات ، فأحس بموجة من الزهو والرضى تملأ صدره ، كأنما تقول له : « انظر ماذا استطعت أن تفعل يا زهاريا هرديليا ؟! أنظر أى قوة تكمن فيك ؟ دع أى رجل يتحداك •• وسيرى ! » وعلى ذلك أخذ يضحك هو أيضا ، وفرك يديه سائلا كاتب المحكمة ، وهو ينظر اليه بطرف عينيه :

ــ انها بصراحة لن تضره ! انها ستعلمه بعض التواضع ، وهذا مفيد له لأنه مغرور متعال كأنه شقيق القديس بطرس !

وما أن عاد الى بيته ، حتى استدعى ايون وأحاطه علما بما سمع ، ولم ينس أن يذكره بلهجة جادة ، أنه أيا كانت الطريقة التى ستستجوبه بها اللجنة ، فعليه أن يعلن بصوت عال وبلا تحفظ أن الذى كتب له الشكوى سيد فاضل من بيستريتسا لا يعرف اسمه • ورسم الفتى علامة الصليب على صدره ، وقطع على نفسه عهدا بأن يفعل ما طلب اليه ، واذ ذاك أعلن هرديليا فى رزانة وعظمة أن ساعة العدالة قد دقت • كان فى قرارة نفسه يتصور أنه يثأر من غبن وجور • وشاركت لورا وجيجى والدهما فى زهوه فى اعجاب صامت ، خاصة وأن القاضى لم يكن يتنازل بتحيتهما اذا ما التقيا به ، رغم أنه كان يعرفهما جيدا • وأضافت زوجة المدرس أنها كانت تفضل أن ترى الأب بلكيوج وقد ألقى به فى السجن ، فهى لم تكن تحتمله مهما حاول الزلفى لها • فقد كانت اذا أخرجت أحدا من قلبها فانها تخرجه نهائيا وبلا عودة •

وقال هرديليا بلهجة العليم الواثق :

ـ ليتـــأكد ايون تماما ، يا زوجتي ، بان القس الموقر لن يذهب بفعلته سالما غانما ، فانه سرعان ما سيأكل نصيبه من التواضع ، وبملعقة كبيرة أيضا !

لم تعش عائلة هرديليا أبدا مثل هذا الزهو الذى أحست به خلال هذه الايام · كان المستقبل يشرق بلون وردى ، وأينما تطلعوا ابتسم الأمل فى وجوههم ·

وقد تغيرت لورا ــ منذ خطوبتها ــ تغيرا كبيرا ·· كانت دائما فتاة جادة ، ولكن وقارها الآن أصبح أكثر ملاءمة · ورغم أنها كانت تختلف مع أمها فى الماضى فى كل شيء تقريبا ، الا أنهما أصبحتا الآن تتحدثان كصديقتين · ولم تعد لورا تكف عن ســـؤال أمها عن طريقة اعداد طعام معين ، أو كيف يفصل سروال الرجل وكيف تحفظ المخللات · فقد عقدت العزم على أن تكون زوجة مثالية ، وأن تثبت لبنتيا أنها ــ رغم عجزها عن البائنة ــ تمتلك العديد من الخلال الثمينة تتفوق بها على أى آنسة أخرى فى ترانسلفانيا كلها · كما عقدت العزم أيضا أن تحب جورج حبا جما ، وأن تعوضه عن ترفعه عن الأغراض الماديـة فى زواجه بها الذى يعتبر زهرة نادرة فى هذا العالم المادى ، فضلا عن كونه شهادة بامتيازها · ولكنها عندما حاولت أن تتصور كيف تظهر له حبها ، أحست بأنها فى متاهة بلا حــدود · ولم يكن ذلك لأنهــا تهتم بأوريل أونجريانو ، فان خسته وجبنه قد جعلاها تسأمه تماما · كانت تحس بذلك خاصة ، منذ سمعت حماها المقبل وهو يتلو قائمة أقاربها البارزين الذين سيرحبــون بها بكل تأكيد ترحيبا صادقا · ومع ذلك فقد أخذت تتساءل فى دخيلتها، أليس هذا التغير المفاجىء دليلا على أنانيتها ونفعيتها ؟

لقد أحبت أوريل على أية حال · وتذكرت كيف كان قلبها يخفق وهى تتوقع زياراته ، وكيف أن كل كلمة من كلماته قد انطبعت بعمق فى روحها ، واهتزاز مشاعرها عندما كانا يرقصان معا فى الحفلات · ودارت رأسها لهذه الذكريات ! اذا لم يكن هذا هو الحب ، فما هو الحب اذن ؟ ·· حقــا ، انه قد تصرف بشــكل مشين بعد ذلك ، عندما لم يثر لسماعه أن بنتيــا قد تقدم للزواج منهــا ، وهذا يعنى أن حبهــا لم يكن بالنسبة له الا لعبة عديمة القيمة ، أو مجرد تضييع للوقت · ولكن ربمــا كانت هى أيضا تستحق اللوم ، لأن اهتمامها به كان ضربا من التدريب على الحب والغرام · ·ثم ماذا عن بنتيا ؟ وتضرج وجهها لذكرى قبلته فى

يوم الخطوبة ، وأصابعه تضغط على يدها ، وكلمات الحب التى كان يهمس بها فى حماس خجول · ولكن هذا كله لم يثر فى نفسها الا احساسا عميقا وأليما بالخجل ·· كانت حتى بضعة اسابيع مضت مقتنعة تماما بأن الحب شيء شاعرى ، خيالى ، اثيرى ، شيء يطفو على أغانى الغزل ·· وزفرات وأحلام يخفيها ضوء القمر · وكانت تتصور أن الرجل الذى سيحبها حقا ، سوف يحملها بعيدا فى ليلة بلا نجوم · وهاهى الآن فى عشية زفافها أو تكاد ، ومع ذلك لم يشرد ذهنها فى خضم من الاشعار ، بل راحت أفكارها تدور حول الطهى وادارة المنزل ، دونما شعر · وبين هذا كله تكمن رغبة غامضة فى أن ترى جورج عطوفا ، أنيقا ، محترما ·· وعندما كانت تعد جهاز عرسها ، كانت يداها تسقطان فوق ساقيها ، وعيناها تحملقان فى الفضاء كأنها تنتظر جوابا لا يمكن أن يأتيها من أى مكان · وكان بنتيا يكتب اليها كل يوم ، وكانت تستقبل خطاباته باحساس بالاكراه والقسر يزداد يوما بعد يوم · كانت تخشى اللحظة التى ينكشف فيها ما يعذبها من أوهام ·

وأصبحت لورا تشعر بأنها فى حاجة الى شخص تعترف له ، بحيث يكون قادرا على أن يفهم متاعب قلبها ويهدىء من روعها · ولم تكن أمها الشخص الذى يمكن أن يحتمل هواجسها بأى حال · فكيف اذا كانت هى التى تعتبر نفسها شهيدة الحياة الزوجيه ، لم تدع الأفكار الخاطئه تعبر ذهنها طوال حياتها ، فكيف تستطيع ابنتها لورا ان تحمل مثل هذه الافكار ، وهى التى وجدت رجلا بارزا عظيما ، لا يماثل ما كان عليه زهاريا هرديليا فى شبابه · ان هذا لزيغ بين ·· ولم تكن جيجى أيضا تستطيع أن تسبر أغوار نفسها ، فهى أكثر طفولة من أن تدرك هذه الأمور الجادة · وقد حاولت لورا فعلا أن تناقش معها بعض الأمور ، ولكن اجاباتها الساذجة المهوشه لم تستطع أن تبدد شكوكها · ولم تكن تجرؤ على كشف دخيلة قلبها لأى من صديقاتها أيا كانت صلتها وثيقة بها · كان تيتو هو الوحيد الذى يستطيع أن يريحها ، ولكنه يبدو أنه لايبالى بسعادتها · فهو لم يحاول مرة واحدة أن يهدىء من هواجسها ، طوال هذا الوقت الذى يتحدد فيه مصيرها ·· كان يعيش فى عالم خاص به ، يبدو غريبا عن آمالها ·

كان تيتو فى الحقيقة أسير عواطفه ، حتى أنه لم يعد يحيا الا من أجل روزا لانج · فقد ملكت المرأة عليه كل فكره وحواسه بعد أن التقيا مرتين أو ثلاثا · وأصبحت شغله الشاغل ليل نهار ، تقلق نفسه ، وتعذب روحه ، ثم تسعده · ولم تعد بقية العالم موجودة بالنسبة له

ولم يعد يمر يوم دون أن يذهب الى جيدوفيتسا بل انه كان على استعداد ان يقلب السماء والارض ليرى منها لمحة ، ليظفر بابتسامه مليته بالمعانى الخبيثه ، او نظرة رقيقه نهدىء من صبابته حتى تحين اللحظة التاليه ليحتويها بين ذراعيه . لم يعد يهتم بشىء سوى روزا ، حتى كتبه ، أصبح يراها فى كل جمله وبين كل سطر . يراها هى وحدها فتواجهه بفتنتها وتوقظ حواسه وتشعل رغبته .. ويظل ساعات طوال يشحذ ذهنه لينسج بيتا من الشعر أو تشبيها على الاقل لكى يخلدها .. اما السيدة لانج ، وقد أرضت غرورها باشعالها مثل هذه العواطف الجياشه فى قلب الشاب النقى ، فكانت ترد عليه دائما بالجديد من اشكال الدلال والغزل ، وكثيرا ما رتبت بمالها من سعة الحيله الغريزيه فرصا للقائه وعناقه . واضفت عليها العاطفه جمالا وحيويه متجددين . وكانت تقاوم نفسها بشدة حتى تسيطر على عواطفها ، وحتى لا تفقد اتزانها تماما . ولكن تعقل المرأة أثار غيرة تيتو الى درجه الحمى . كان كلما نظرت الى أى شخص آخر ، أو كلما تبادلت كلمه مع غيره يتألم ، بل انه ما لبث ، بعد فترة ، أن بدأ يحس بغصه لمجرد تصوره ان روزا تعيش مع لانج تحت سقف واحد ، وتقاسمه الفراش ذاته . وعنت له فكرة أن ينتزعها من زوجها ويتخذ منها زوجة له . وفى احدى لحظات الوصال ، أخبرها بعزمه هذا ، فشكرته بعاصفة من القبلات . ولكنهما مالبثا أن أدركا سريعا أنها لن تستطيع أن تحيا يوما واحدا بعيدا عن لانج ، ما دام تيتو لا يمتلك دخلا خاصا به . وهنا وعدها تيتو بأن يصحبها معه الى رومانيا ، عندما يرحل اليها . أما فى الوقت الحالى فقد تخلى عن خطته المغامرة فى الالقاء بنفسه فى خضم المجهول .

واتفقا أخيرا ، بعد فترة من عدم الاستقرار ، على اللقاء فى بيتها فى الأساس ، عندما يكون لانج فى المدرسة . وسرعان ما اعتاد تيتو على هذا ، فلم يعد يخشى أن يضبطه الزوج . بل ذهب الى أبعد من هذا ، فأعد اجابة مروعة ، قرر أن يقولها له اذا اقتضى الأمر : « سيدى ، ان كلا منا يحب الآخر ، ونحن نكرهك ! ولك أن تفعل ما يحلو لك ! »

واعتبر هذه الكلمات وقورة وبطولية أيضا . ولكنه لسوء حظه لم يضطر الى استخدامها . فقد كان لانج أكثر غفلة من الأزواج الآخرين ولم يحلم أبدا بالتشكك فيهما . وكثيرا ما كان يحضر خلال « الفسحة » المدرسية ليأخذ جرعة من الشراب يشحذ بها قدراته على التدريس ، فيجد تيتو يجلس منفردا بروزا . ولم يكن ذلك يدهشه أو يغضبه ، بل كان يقول له بهدوء كامل :

ـ هل أنت هنا يا صديقي العجوز ؟ هذا جميل منك أن تسلي زوجتي بين حين وآخر · فأنا أكاد أهملها · حسن ، واننى على أية حال ، أتقدم فى السن ·· هل لك فى شىء من الشراب ؟

وكف تيتو عن الذهاب الى أرماديا أيضا ، فمنذ حفلة الرقص لم يتحدث الى لوكريتسيا دراجو أكثر من مرتين · فهو مادام يستطيع أن يحتضن روزيكا بين ذراعيه ، لم يعد يحس بالحاجة الى مجرد الغزل البرىء · ولم تعد «السمراء ذات العيون الزمردية» كما أسماها ذات مرة فى شعره مصدر الهام لمزيد من الشعر · وأصبح يعتبرها غريرة مغرورة لا تخلو من نفاق ·· ولم يعد يحس فضلا عن ذلك بحاجته أن يحكى لأحد كيف غزا قلب روزا ، فان العاطفة الصادقة ترتبط ارتباطا وثيقا بالتحفظ والحيطة ·

وتشجع هرديليا عندما وجد احدى ابنتيه قد وجدت حظها فى الحياة باتباعها لنصحه الحكيم ، فبدأ يقدح ذهنه لتأمين مستقبل ابنه · وهكذا ، لم يضيع فرصة كى يذكر تيتو بأن الظروف قاسية ، وبأن على الرجل أن يشق طريقه فى الحياة ، وأن السنين تمر بسرعة الرياح ، وأن من لا يعمل لن يجد ما يعتمد عليه فى شيخوخته ، وأخيرا انه من الخير له أن يفكر فى مستقبله · وكان تيتو يغضب ، اذ كان يدرك أن أية خطوة لتأمين مستقبله تعنى انفصاله عن روزيكا · وكان من ناحية أخرى يعلم أنه لن يستطيع أن يحيا حياته الخاملة هذه الى الابد ، فيجيب بحدة :

ـ هل قلت اننى لا أريد ذلك ؟ ابحث لى عن عمل ، أى عمل ، وأنا على استعداد أن أذهب اليه ! اذا كنت لا تقدر مواهبى ، فاننى على استعداد أن أعمل كناسا فى الشوارع ، حتى تتخلص منى وتوقف هذا اللف والدوران حول نفس الموضوع طوال اليوم ، قائلا اننى لا أزيد عن أن أكون عالة عليك ! ·

وكانت انفجاراته الغاضبة تزعج كل من فى البيت، فتنبرى الفتيات للدفاع عنه ، وتومىء السيدة هرديليا لزوجها غاضبة ـ وقد رق قلبها للفتى ـ أن يتركه لحاله · ويضطرب المدرس ، ويهرش خلف أذنه ثم يحاول تهدئة الموقف ، فيزيد الطين بلة ·

وبدأت زيارات تيتو الكثيرة للسيدة لانج تثير انتباه سكان جيدوفيتسا من اليهود · وأخذت بنات كاهان العوانس ذوات الطباع الحادة ـ وهن جارات لانج ولم يكن لديهن ما يشغلهن ـ تكرسن جهودهن

للتجسس على زيارات تيتو ، فتنظرن الى الساعة عند مجيئه وعند رحيله. ولما كانت روزا متعالية ، تنظر اليهن شامخة الانف ، فقد رحن يروجن أن هنالك شيئا غامضا بين زوجة لانج المجرية وابن مدرس مدرسة بريباس. وهكذا كثرت الأعين التى تراقب تيتو فى كل خطواته ، وانتشر الخبر بأن روزيكا تخدع زوجها ، حتى وصل الى أرماديا ، فأثار لغطا بين المدرسين هناك ، وأخيرا وصـل الى آذان هرديليا • ولم يكن العجوز يعترض على مثل هذه التسلية ، ولكنه عندما ربط بين عصبية تيتو وعدم اكتراثه وبين هذه الشائعة ، خشى أن ينتهى الامر الى فضيحة تهدد مستقبل الشاب • وعلى هذا فقد بذل كل جهد ليجد له عملا فى أى مكان بأسرع ما يمكن ، حتى ولو وظيفة مساعد كاتب باحدى المدن ، لينتزعه من هذا الحب الخطر، خصوصا وأن الخبر قد نمى ، عن طريق آخر، الى علم الفتيات والى السيدة هرديليا ، التى ظلت تلعن المرأة الفاجرة التى لا تخجل من اللعب بعقل صبى غرير •

ولهذا فقد فرحت الاسرة أيما فرح عنـدما أعلن المدرس ذات مساء أنه قد التقى فى أرماديا بكاتب قرية جارجالاو الذى كان يبحث عن مساعد كفء ويسعده أن يوظف تيتو بمرتب جيد جدا • فشحب وجه تيتو وهو يقدر المسافة بين جيدوفيتسا وبين منفاه الجديد ثم قال بصـوت خافت : « جارجالاو ؟ »

فأجاب العجوز ، وقد فهم مايجول بخاطره :

ــ جارجالاو ••• انهـا ليست بعيدة ، فهى القرية السابعة بعد أرماديا ••• وكاتبها انسان رقيق الحاشية • وستستطيع أن تدخر بعض المال ، فلن تتكبد نفقات من أى نوع ، وتستطيع بهـذه النقود أن تذهب فيما بعد أينما يروق لك • انك لن تذهب لتدفن نفسك فى جارجالاو • وانما هى وظيفة مؤقتة •

كان هرديليا يتحدث برقة ، حتى أن تيتو لم يجد مبررا للغضب • ولكنه أراد أن يناقش الموقف أولا مع روزيكا ولذلك لم يحر جوابا شافيا ، بل قال :

ــ حسن جدا ! سأفكر فى الامر يوما أو يومين ، فأمامنا متسع من الوقت ، وليست المسألة حياة أو موت •

كانت روزا لانج تعلم بأن الناس يثرثرون حولهما ، ولذلك نصحته

بأن يذهب ، بعــــد أن حملته على أن يقسم أن يكون أمينا مخلصا ، وأن يأتى لزيارتها كلما أمكنه · ووعدت هى أيضــــا بالذهاب لرؤيته ، لأنها لم تعد تستطيع أن تعيش بغير حبه ، ولكن عليها أن تحذر كل الحذر ، اذ أن هناك عديد من الناس على استعداد لتمزيق قلبها اربا ·

فى يوم الخميس التالى ، تقــابل هرديليــــا ثانية مع فريدمان فى أرماديا ، فعرفه بأن تيتو على استعداد لأن يذهب الى مكتبه فى الاسبوع المقبل · ثم التقى المدرس مصادفة بالقاضى أمام المدرسة العليــا فى نحو الظهيرة ، وكان القاضى قد غادر مكتبه لتوه ، فحيــاه هرديليا باحترام ، لكنه لاحظ فى نفس الوقت أن الرجل المجرى قـــد قطب جبينه ولم يرد تحيته على أى نحو · ثم ناداه القاضى ، بعد أن سار بضع خطوات ، وسأله فجأة وفى عينيه نظرة حادة فاحصة :

ــ قل لى ، ياسيد هرديليا ، هل كتبت شــكوى ضدى الى الوزارة لأحد الفلاحين فى بريباس ؟

فتردد المدرس لحظة ، ثم أجاب متلعثما ، وهو لا يكاد يجد الجواب باللغة الهنغارية :

ــ أنا ! أوه ! كيف يمكن أن تتصور هــذا ؟ أنا الذى ··· أحترم القانون ·· فتمتم القاضى باحتقار ، مديرا ظهره اليه :

ــ حسن جدا ·

غرس هذا اللقاء شوكة فى قلب هرديليا · اذن فالقاضى يشك فيه، أو لعله يعرف يقينا أنه هو الذى كتب الالتماس ؟·· وظل طوال طريقه الى البيت يقلب فى ذهنه كافة احتمالات هذه المقــابلة التعسة · كيف عرف المجرى بالحقيقة ؟ أم ترى أن لسانه هو نفسه قد زل بكلمة كشفت عنه ؟ ولم يكن هـــذا الاحتمال مستبعدا ، فهو معتــــاد فعــلا على الثرثرة بين أصدقائه · والاكثر من هذا ، أنه كان من الغباء بحيث اعتقد أنه قد وجه ضربة قاضية الى القاضى ، قد تؤدى الى فصله من عمله أو ربما الى الالقاء به فى السجن ·· فاذا انجلت الحقيقة ، وتبين أنه هو محرر الشكوى ، فان القاضى يستطيع أن ينفذ وعيده · وتردد صدى الكلمات التى قالها له كاتب المحكمة قبل أيام فى أذنه أكثر رهبة وترويعا ·

وفى البيت ، كان خطاب بنتيا قد وصل لتوه ، محددا يوم الأحد الاول بعد عيد الفصح موعدا للزفاف · وحاول هرديليا أن يسعد ويبتهج

كما ابتهج الآخرون . ولكن قلبه كان مثقلا حزينا ، فاختلق مبررا ليذهب الى بيت جلانيتاشو حتى يذكر ايون بأنه اذا أفشى كلمة واحدة فان هذا سيعنى كارثة لهمـا معا ٠ وبدا الشاب غير مكترث فى اجابته ، رغم أنه أقسم ثانية أنه لن يخون المدرس الذى كان دائم العطف عليه ، حتى ولو دفع حياته ثمنا ٠ ولكن قسم ايون لم يهدىء من روعه ٠ فقد استطاع أن يرى بوضوح من سلوك ايون ما يحدق به من خطر ٠

وامتلأت روحه بتوجسات مؤلمة ، ولكنه لم يجرؤ على الحديث مع أسرته عنها ٠ فلماذا يقلق سعادتهم ؟ ربما كان خوفه هو الذى يحمله على المبالغة فى تقدير الخطر ، وربما كان ضميره المثقـل بالذنب هو الذى يخدعه ٠٠ وانبلجت بارقة من الامل فى قلبه ، لتصارع وساوسه الشريرة فى شجاعة ٠

- ٥ -

ظل فاسيلى باكيو يتقلب ويتلوى فىفراشه طوال الليل ، كأنه يرقد على فحم ساخن ، كانت الأم فيروانا العجوز قد أثارت فى ذهنه كل الافكار المخيفة التى ترفض أن تهدأ ٠ وأطفأ المصباح فجـأة ، وكأن الضوء قد أخجله ٠ انه يستطيع أن يئن كما يحلو له فى الظلام ٠ كان يحس بالحشية صـلبة كالحديد ، فأخذ يرتب كتلة القش تحت ملاءته ، كرجل مريض أدركه الملل لطول رقاده فى الفراش ٠ وكانت أنا أيضا ترقد فى مكانها فوق الموقد ، مثلما رقدت فى تلك الليلة التى سحق فيها ايون جسدها بين ذراعيه ، وقد احتبست أنفاسها ، وأصغت الى أبيها فى نومه، متوقعة كلما ندت عنه حركة أن يمسك بهـا من ساقها أويسحبها من فراشهـا ، ثم يطؤها بقدميه حتى يمزقها اربا ٠٠

نامت الفتاة قليلا قرب الفجر ٠ وعندما استيقظت فزعة كان فجر الشتاء الابيض قد حل بالبيت ، وكان العجوز قد خرج ٠ كان الخوف فى قلبها عارما مثل ما بها من ندم ٠ فلو أنه قد ضربها على الاقل ، لانتهىهذا الترقب القلق الذى هو أشد عناء من الالم ذاته ، ولكانت دموعها وولولتها قد خففت من عذابها ٠٠ ولكن هذا الانتظار كان يجثم علىقلبها ثقيلا كحجر الطاحون ، ويزداد ثقلا كأنما يحاول انتزاع اجابة على سؤال : ماذا ينوى أبوها أن يفعل ؟ كانت متأكدة منـذ فترة طويلة أن أباها يعلم مـع من

ارتكبت خطيئتها ، وكانت تعجب لم لا يقول شيئا · وكانت تعتقد أحيانا أنه ينتظر عن عمد حتى يعود ايون من الجبال · ولكن الفتى عاد ثانية ، وما زال فاسيلي باكيو صامتا حزينا في غرفته ·

كانت أنا خلال اليومين الماضيين تغسل وتغلي ملابسها القذرة في الحجرة الخارجية ، أما اليوم فهي تنوى أن تزيل الصابون منها في مياه جيرلا بوبيي - غدير القس - الذى يمر خلف المنزل عند نهاية الحديقة ، فلبست نعليها وشمرت قميصها وميدعتها ، وأخذت الفأس تحت ابطها وخرجت تحطم الجليد ، وتختار مكانا مناسبا للغسيل · كان الجليد في الحديقة يبتسم في مرح ، لامعا يخطف البصر ، نقيا كطلعة العذراء · وخشيت أنا أن تخطو عليه بنعلها الثقيل ، فتلوث تلك الطبقة الرقيقة من الجليد التى تئن متوجعة تحت خطواتها · وقطعت ثقبا مستديرا بضربات قليلة من فأسها في الثلج المغطى بندف جليد كثيفة في سمك قبضة يد ، فانفجرت المياه خارجة في فقاعات غاضبة كأنها كانت تكافح لتحرر نفسها من ضغط غطائها الثلجي ، وأغرقت الجليد من حولها ولوثته بلا رحمة · ثم ذهبت الفتاة وعادت تحمل تحت ذراعها سلة مليئة بالملابس المبللة ، وفوقها مطرقة وكرسى للغسيل ، وفي يدها الاخرى كانت تحمل وعاء به ماء ساخن حتى تدفىء به أصابعها المتجمدة عندما يقهرها الصقيع ·

رتبت الفتاة عملها بحيث تذهب الى داخل البيت عدة مرات بأكوام من الملابس النظيفة بعد اعتصار الماء منها ، لتستبين اذا ما كان العجوز قد عاد · وأعملت مطرقتها المفلطحة في الملابس وهي مفرودة على الكرسى العريض ذى الارجل القصيرة حتى تزيل ماء الغلي المشبع بالقاذورات ، ثم غمستها في الغدير وعاودت ضربها بالمطرقة ·· وظلت تكرر هذه العملية حتى أصبحت الملابس نظيفة بيضاء كالثلج ، ثم عصرتها جيدا ، ونفضتها ثم ألقتها جانبا ·· وعض الصقيع لحمها وعظامها ، واستنفد الارهاق طاقتها ، ولكنها لم تكن تحس بشيء · وبردت المياه الساخنة في الاناء وقد نسيتها · كان رأسها يدور وقد شغله نفس السؤال المحموم : «ماذا سيفعل ؟» وأخذ السؤال يلف مخها وبدا أنه يزداد تعقيدا وصعوبة: «ماذا سيفعل أبى ؟ وماذا سيفعل ايون ؟ وماذا سيفعل الناس ؟

وبات اعتقادها بأن باكيو قد ذهب ليبحث عن ايون يسيطر على عقلها · وظلت تحدس طول الوقت ، فتارة ترى أن الامور ستسير سيرا حسنا ، وطورا تظن أنها ستسير الى أسوأ ·· وبين الحين والحين تتوقف ، دون وعى منها ، وقد ناءت بحملها الذى يجثم على قلبها · وتحوم نظراتها

الساهمة فوق المياه التى تموج تحت قدميها فتهدهدها أحيانا كأنها كلمات حب هامسة ، وتفزعها أحيـــانا أخرى كأنها عدو منتقم • ولم تعد فكرة الانتحار تجد طريقها الى روحها • بل انها عندما تذكرت كيف تاقت الى الموت ذات مرة فى الصيف الماضى ، وهى تسير على شاطىء نهر سومش ، اندهشت لحماقتها ، وعدلت من قامتها بسرعة ، واستنشقت الهواء طويلا .ثم ربتت على بطنها المستديرة بأيد حمراء شققها الجليد ، وكأنها مستغرقة فى حلم •

كان فاسيلى باكيو قد خرج فى الساعات الاولى من الصباح ، بعد عذاب ليلة طويلة من التردد والتفكير • لم يكن قد اعتاد على عملية التفكير المرهقة ، ولذلك كان عقله يغـلى بلا توقف كأنه وعاء مملوء ترك بلا غطاء فوق نار حارقة • وأثقل قلبه احساس ساحق بالعــار ، ليس لان الفتاة حبلى ، ولكن لان جورج لم يأت ليأخذها •• بعد أن دنسها • هذا الاحساس جعل الدماء تغلى فى عروقه • وفكر أنه ما دام الفتى قد تقاعس عما ينبغى أن يفعله رجل شريف • فعليه هو ـ باكيو ـ أن يذهب بنفسه ليصل الى اتفاق مع توما ، قبل أن تضع أنا مولودها وتجلب العار المروع لهم جميعا• ولكن لماذا لم يأت جورج كرجل كريم الخلق ؟ من يدرى ، ربما لم يستطع أن يصل الى اتفاق مع أبيه البخيل بشأن البائنه•••ولكن ، لماذا لم يحضر لزيارته على الأقل ويتحدث معه فى الامر ؟ ان بيته ليس فى آخر الدنيا! ولكن اذا فرض أن جورج ليس والد الطفل؟ كانت هذه الفكرة تجد طريقها الى ذهنه أحيـانا ، فتمزق روحه • واذ ذاك كان يتقلب فى سريره ويئن كشيطان مريد ، ويلعن من بين أسنانه ، مستعدا أن يقبض على رقبة أنا حتى ينتزع منها نفيـا قاطعا ، ثم يهـدىء من روعه ، ويبعد هـذا الوهم المجنون من عقله ، مؤكدا لنفسه أن جورج لا بد أن يقوم بواجبه • وحاول باكيو ـ حتى يطمئن نفسه تمـــاما ـ أن يسـترجع بعض التفاصيل فى تصرفات الشاب ، منذ الوقت الذى وعده وعدا لارجعة فيه بأن يعطيه أنا، ودعاه «زوج ابنته» • وحاول جاهدا أن يجمع أشتات ذكريات تلك الليلة• وبدا له على الرغم من أنه كان ثملا بالشراب ، أنه قد سـمع أنات الفتاة مختلطة بأنفاس مختنقة أكثر خشونة ، فلا بد أن ما حدث قد وقع فى ذلك الوقت •• واكتملت فى ذهنه فكرة أن همسات خشنة قد وصلت الى اذنيه فى تلك الليلة ، وأنها لا يمكن الا أن تكون همسات جورج ، وسهل هذا من مهمته وهدأ من عذاب قلبه •

لم يساوره أى احساس ضد أنا ، خلال تلك الافكار والصراع الحاد•

فهو لم يكن يستطيع أن يلومها على شيء • فقـــد كانت رقيقة خانعة ، لا يستطيع فعلا أن يلومها • كان يضايقه في الحقيقة أنها كانت من الغباء بحيث استسلمت لجورج قبل أن يطلب الزواج منها • ولكنه كان متأكدا أنها انما أسلمت نفسها على أساس اعتقاد راسخ بأنها تتصرف وفق رغبة أبيها ، فقد كان دائم الالحاح فى حديثه اليها عن ابن توما • كيف يمكنه أن يعيب عليها تصرفها ، وهي بلا أى خبرة فى الحياة ؟ ألم تفكر مرة فى الزواج من ايون جلانيتاشو ، لولا تدخله الحازم لقطع هذه العلاقة ؟

وقرر فى النهاية أن يمر ببيت توما فى الصباح التالى لأنه لا بد أن يعمل شيئا ، ثم يلقى بكلمة دون اكتراث ، ليتعرف على ما بذهنه وذهن ولده •

ذهب باكيو الى بيت توما عند الفجر حتى يضمن وجوده • وفكر وهو خارج من فنائه أنه يجب أن يتخلى عن كل تحفظ ، ويسأله صراحة عن حقيقة مقاصده ، ولكنه ما أن دار حول منعطف الحارة الخلفية واقترب من بيت توما ، حتى ذبل حماسه تدريجيا ، وتملك نفسه احســـاس بالعار الممتزج بالكبرياء •

وتمتم عندما رأى البيت الحجرى المرتفع فوق السقوف المحيطة به قائلا : « هل ينبغى أن أتوســـل الى توما وولده أن يأخذا ابنتى ؟ اننى أفضل لو قطع لسانى قبل أن أفعل ! اننى لست نكرة •• لقد كنت عمدة لهذه القرية ، وأحمد الله أننى لا أتسول خبزى اليومى •• »

ومر بالبيت دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات، واكتفى بأن استرق نظرة من طرف عينه ، تكفى لكى يرى البوابة العالية بأعمدتهـــا المزدانة بنقوش الازهار ، والتى تطل من فوقها أبراج الحمـــام ، ومخزن الحبوب الممتلىء بالذرة وكأنه بيت رجل غنى • وفى الحظـــيرة لمح قطيعـــا كاملا من الأغنام ، بعضها يلعق كتلة ضخمة من الملح ، وبعضها الآخر يمضغ علفه ، ثم يزفر حلقات بيضاء من البخار حول أنفه • ثم رأى البيت نفسه بسقفه المغطى بالقرميد ، ونوافذه الفخمة المزينة باطارات عريضة زرقاء داكنة ، وخمـــائل الزهور الرقيقة المعلقة حول الشرفة ، وباب الحجرة الخارجية مفتوحا ، يكشف عن مدفأة موقدة النـــيران ، والى جانبها امرأة ورجل ــ يبـــدو أنه جورج ــ يتمشى • ثم رأى الحديقة ، فسيحة كأنها بستان ، وبها كثير من الاشـجار وأكوام من الدريس والحطب ، وكومة عالية من الاخشاب المقطوعة،فقال فاسيلى باكيو لنفسه وكأنه قد اكتشف لتوه كم كان توما ميسور الحال : « انهم أناس أغنياء بلا شك ! »

وتذكر بعض شرائح الارض الصغيرة التى يمتلكها ، والتى يزرعها بالقمح الخريفى ، وهى تمتد بعد الطريق الذى يؤدى الى الغابات • وكان قد سمع أن هذه المزروعات قــد اقتلعتها الزحافات التى تحضر خشب الوقود من الغابة • وقد انتوى منذ بعض الوقت أن يذهب ليســتطلع الأمر ، فأسرع الخطى ، ولم يلبث أن خرج من القــرية ، ناســيا ، وقد استغرقه التفكير فى ممتلكاته ، انه قد عقد العزم على الذهاب الى بيت توما • ووجد الارض تالفة ، وقد غطتها ملاءة كثيفة من الجليد •• واذ كان قد ذهب بعيدا الى هذا الحد ، وأصبحت الغابة قريبة منه ، فقد ذهب فى جولة خلالها ، تحــدوه فكرة أن يجمع من خشب الوقود ملء بعض الزحافات قبل أن يبدأ الجليد فى الذوبان ، فلا يحتاج الى الخشب حتى الشتاء القادم • وأخذ يتمشى ليختار الاشجار الصــالحة للقطع ، فتذكر كومة الخشب فى حديقة توما ، وهنا تذكر قراره الذى خرج من منزله لينفذه ، وغضب من نفسه لجبنه وتخاذله ، ثم أسرع عائدا الى القرية • وهمهــم بغضب متزايد : « هل ينبغى أن أخجل لانهم قوم لا يخجلون ؟ حسنا •• اذا كان الامر كذلك ، فانى أستطيع أن أتسلح ببعض الصفاقة أيضا ! »

وكان جورج يسقى الماشية ، وقد راح عمــود البئر يصدر صريرا عاليا ، بينما يرتفع الدلو الثقيل •

دخل فاسيلى باكيو الى الفناء ، وصفق البوابة خلفه ، وعندما اقترب من الفتى ، قال بصوت حاد :

ـ أهكذا ياجورج تعــاملنى ! أهذا جزائى لتقــديرى الكبير لك ، ومعاملتك بالصداقة والحسنى ! أتدير لنا ظهرك الآن هاربا بعد أن جلبت العار على أسرتى ؟

ورفع جورج الدلو بهدوء شديد ثم أفرغه فوق طبقة الثلج السميكة فى قاع حوض المياه الى جوار البئر • ونزلت المياه بقوة عظيمة ، مبللة أفــواه وأنوف الحيــوانات التى كانت تشرب فى سكون ، فأخافتها حتى رفعت رءوسها لحظة كأنها قد تلقت بذلك أمرا •

تساءل الفتى وقد أدار رأسه ممسكا بالدلو الفارغ بين يديه :

ـ ماذا تقول أيها العم فاسيلى ؟

واستفزته لهجة جورج الباردة اللامبالية • ولكنه أمسك نفسه عن

سبه ، ووقفت الكلمات بين أسنانه ، ثم واصل قوله معـــاتبا فى تحفظ لا يخطىء :

ـ يخيل الى ياولدى أنك لست شخصا كريم الخلق · أتسمعنى ؟

فتساءل جورج فى غير انزعاج :

ـ ولماذا هذا القول ؟

ـ لأنك لا تتصرف كما يليق بك ، هذا هو السبب ! لأنك غررت بابنتى ، وتركتها وقد علت بطنها حتى ذقنها ، والآن تتظاهر بأنك لم تعد تعرفها ·· هل تسمى هذا سلوكا لائقا عادلا ··· هل ؟

ـ أنا ؟

ـ أنت طبعا ، ومن غيرك !

فألقى الفتى بالدلو جانبا ، ومسح يديه فى سرواله ، ثم تقـــدم نحو فاسيلى بخطوات ثقيلة ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق، ابتسامة صفعت وجه باكيو كالسوط · ونظر مباشرة فى عينيه ، ثم قال فى صوت هادىء ، رمى به الى أن يمحو كل شك فى ذهنه :

ـ حسن ، دعنى أقول لك أنك مخطىء أيها العم فاسيلى ، فأنا غير مسئول عن هذا ! كلا ، صدقنى ! واستطيع أن أقسم على الصليب أننى لم ألمسها قط ·· لقد أحببت أنا كثيرا ، وكنت أذهب الى بيتك وأفعل كل ما أستطيع حتى يتحقق ما فيه صالحنا جميعا ، فاذا كانت الامور قد سارت على نحو مغاير ، فليس هذا الخطأ من جانبى ، يا سيد فاسيلى · لقد تنحيت جانبا عندما رأيت رجلا آخر يخرج من بيتك فى الليل ، وبعد أن سمعت ما سمعت ·

وأدرك فاسيلى باكيو الحقيقة على الفور ، وأحس بها وكأنها عصـا غليظة تدق رأسه · واندفعت الدماء الى عينيه ، وبدأ الفناء يموج ويتأرجح أمامه فى شدة وعنف ، وأخذت الارض تدور فى دوامة كأنها زلزال ، وظل يستمع لحظة الى شكايات الفتى وعتابه ثم الى مواساته ·· ولكنه لم يكن يفهم شيئا مما يقال · ورأى والدة جورج تتقدم نحوهما كأنه فى حلم ، وراحت تتكلم فى اسهاب بصوتها النائح الأسيف ، وتعتصر يديها ، ثم ترسم علامة الصليب على صدرها وترفع عينيها الى السماء ·· ولكن شيئا لم يصل الى ذهنه المغلق · كانت الفكرة الوحيدة التى انغرست فى

عقله أن جورج بريء ، وأصبح الآن يتلوى غاضبا كأنه وحش مفترس وقع في شرك ٠

وعاد الى بيته دون أن يدرى كيف عاد ، داهلا ، كأن عقله في تيه ٠ وكان يترنح بشكل أسوأ مما لو كان قد عاقر الخمر ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة ٠ وبدا له الطريق بلا نهاية ، وهو لا يستطيع الانتظار حتى يصل الى البيت ، فيحطم رأسه على الجدار لكى يهدىء العذاب الذى يعتصر روحه بلا توقف ٠

عندما فتح البـــاب ، كانت آنا راجعة من الغدير بسلتها المحملة بالملابس المغسولة ، فأحس فاسيلى برعدة عنيفة تهز كيانه عند رؤيتها ٠ وما هى الا لحظة ، حتى برقت فى عينيه صورة ايون جلانيتاشو واضحة، صورة المنتصر الذى ينظر بازدراء الى بطن أنا ٠ واختفت الفتاة فى اللحظة التالية ، تاركة فى عينيه صورة بطنها المنتفخة تحت ردائهـــا الفلاحى المزركش ، بطنها الضخمة المذنبة ، المتمردة ، الاستفزازية ، التى يطل منها العار متعاليا متحديا ٠

ما أن لمحت أنا وجه أبيها حتى وقفت فى مكانها كالجثة الهامدة ، وقد تملكها الرعب من نظرته المحدقة الباردة ، الوحشية ، التى نفذت الى قلبها كالخنجر ٠ ونفذت طعنة الفزع الى قلبها تمزقه بضراوة وعنف ، فأخذت تولول فى يأس بصوت مرتعش حاد :

ـ لا تقتلنى يا أبى ! لا تقتلنى ! لا تقتلنى !

وسقطت السلة من بين يديها ، فتبعثرت الملابس البيضاء فـوق الجليد وتهدلت يداها فوق بطنها البارزة كالدرع ، بينما استمرت صرخاتها تعلو وتتوسل ، وتزداد ضعفا وخشونة ٠

ووقف فاسيلى باكيو ساكنا كحيوان مفترس شل فريسته بنظرة قاتلة ، ولكنه ينتظر ليزيد من تعطشه للدماء قبل أن يجهز عليها ٠ كان يمتع عينيه بيأسها ، ويستمع الى صرخاتها الفزعة التى تغذى غضـــبه كأنها تقريع خصم يستفزه ٠٠ وأخيرا سار نحوها فى استرخاء ، بخطوات ثقيلة بطيئة ، ثم أمسك بشعرها فى شراسة وألقى بها على الارض ٠ وأخذ يضربها بقبضتيه ، فى رأسها وضلوعها وبطنها ، ضربة تلو أخرى بسرعة البرق ، وهو يلهث ويزمجر قائلا :

ـ أيتها العاهرة ! أيتها العاهرة ! ٠٠ سأقتلك ! ٠٠ أيتها القـذرة المتبجحة ٠٠ أتريدين جلانيتاشو ؟ ٠٠ هذا هو ٠٠ يا داعرة ! ٠

وارتفعت صرخات أنا ، فى ألم ويأس متزايدين :

ـ اغفر لى يا أبى ! لا تقتلنى ، يا أبى !

كانت صرخاتها كلما زادت تأثيرا فى القلب واثارة للشفقة ، تزيد هياجه وثورته ، وارتفع زئيره عنيفا قاسيا وكأنه يريد أن يغرق صوتها وظلت صرخات الفتاة ترتفع دون انقطاع ، وتزداد عمقا كأنها تخرج من بطنها ٠ ولمحت عيناه الدمويتان اللتان يتطاير منهما شرر الغضب، بطنهـا المنتفخة ثانية ، فبدأ يركلها فى بطنها على الفور ، وهو يزمجر فى ارتياح وكأن كل ضربة كانت ترطب الحمى فى روحه ٠ وحاولت يداها المتشابكتان بالغريزة ، أن تدفع ركلاته القاسية ، التى كانت تهدد ثمرة خطيئتها ٠٠ ولكن حذاءه الثقيل ظل يضرب ، ويسحق لحمها الذى جمده الصقيع ، ويكسر عظامها أو يكاد ٠

وحلقت صيحات الفتاة كطيور خائفة فى سماء القرية ليصـل نداؤها الى كل أذن ، ويتردد صداها فوق التلال الباردة ٠٠ وظل باكيو يضربها بلا انقطاع ، وكأنه غير قادر أن يشبع جوعه ٠ وحاول أن يخنق صرخاتها ، فغرس رأسها فى الجليد الذى اكتسى على الفور بلون قرمزى بما نزف من فمها وأنفها من دماء ، بينما كان صدرها يعلو ويهبط ويطلق أنينا خافتا ٠

وجلبت الصرخات المجلجلة فى فناء فاسيلى باكيو ، القرية كلها الى بيته ٠ فوصلت النسوة من الجيران بسرعة لاهثة ، ثم توقفن فزعـات عند البوابة ، فلم يجرؤن الا على الصياح بصوت متوسل :

ـ اتركها ، أيها العم فاسيلى ٠ انك تقتلها ٠٠ آه ، يارب ! لقد توقفت أنفاسها ! ٠٠ يا الهى ، لقد قتلها ! النجدة ، أيها الرجال الطيبون انه يقتلها ! ٠٠ يارب ! ٠

وكان أفروم أول من وصل من الرجال ، فجرى مباشرة الى الفنـاء اذ كان قد تعلم الشجاعة فى المعارك التى لا تحصى التى جرت فى حانته ـ واندفع نحو فاسيلى قائلا :

ـ كفى يا رجل ! ٠٠ ألا تسمع ؟ ٠٠ كفى ٠٠ كفاك هذا !

كان باكيو قد كف عن سماع أى شىء ممـــا يدور حوله . وعندما تعلق أفروم بذراع فاسيلى الذى كان يكيل به الضربات ، قذف به بعيدا لأنه ريشة ، وأخذ يوجه ضرباته بعنف متزايد الى الفتاة ، التى رقدت بلا حراك ، والتصق وجهها بالأرض ، وظلت يداها تمسكان ببطنها ، وندت عنها فى فترات متباعدة أنات طويلة عميقة ·

ونشرت النســوة والاطفال اللاتى شــاهدن ما حدث أو سمعن به الخبر فى القرية وعيونهن تحملق فى فزع قائلات :

ــ ان فاسيلى يضرب أنا منذ ساعة ، ويبدو أنه يريد قتلها !

وجاء بعض الرجال من الجيران ، بتحريض من زوجاتهم ، وحاولوا تهدئته دون أن يجرؤوا على الاندفاع نحوه والتعلق بذراعه ، كما فعل أفروم ، لأن كل رجل سيد نفسه فى داره ، مهما فعل ، وليس للغرباء أن يتدخلوا · وأحس فاسيلى بالضيق من هذا الجمع اللاهث ، وأراد أن يتخلص من ذلك الصياح الدائم الذى لا يخفت ، فجر الفتاة الى داخـــل البيت ، وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة ، ثم أغلق الباب ، واســتمر يضربها بحماس أكثر · وارتفعت صيحاتها مختنقة ضعيفة مرة أخرى ·

ــ لا تقتلنى ! اغفر لى ·· يا أبى ! ··

وأخذ الناس الذين تجمعوا فى الفناء وعلى الطريق يرسمون عـلامة الصليب ، ويهزون رءوسهم ، بينما ظلت امرأة عجوز تعتصر يديهـــا وتقول لهم جميعا :

ــ لقد جن فاسيلى ، أيها الرجال الطيبـــون ، ولن يتوقف حتى يقتلها !

وعندما رأت فلوريكا ابنه أرملة ماكسيم أوبريا ــ التى كانت احدى المشاهدات الأول للمشهد ــ أن أحدا لا يستطيع أن ينقذ أنا من قبضـــة أبيها ، جرت الى بيت المدرس ورجته أن يأتى فورا ليمنع فاسيلى باكيو ، الذى يتصرف بوحشية ولا يستمع لأحد · فهب هرديليا واقفـا لتوه ، وارتدى قبعته ، ثم جرى الى بيت باكيو ، مؤكدا أنه مهما فقد صوابه ، سيخجل ألا يطيعه هو ــ هرديليا ــ عندما يأمره بالتوقف ، ولكن فلوريكا اضطرت أن تبقى لتحكى ما حدث بالتفصيل · وراحت الآنستان والسيدة هرديليا تستنزلن على السكير ما يستحق من لعنات ، وقد اغضـــبتهن قسوته ، ثم خرجت جيجى الى الشرفة ، ولم تلبث أن تبعتها لورا ثم زوجة

المدرس ، كي تسمعن صيحات أنا ، ولكن دون جدوى ، فلم يكن شيء منها يصل الى هذا البعد ٠

كانت الحارة تعج بالحركة ٠ وتجمع الناس في حلقات ، يتكلمون ويشيرون الى مكان الحادث ، وهم مبهورون أو مشفقون ٠٠ وفي فناء جلانيتاشو ، كان ايون يقف عاري الرأس منتصبا كالعمود ، وقد أصاخ بأذنيه نحو القرية ، وتورد وجهه الناتيء العظام باحساس لا يخفي بالرضى ٠ وبدت زنوبيا عند البوابة كأنها تبحث عن أحد تتبادل معه كلمة ، وتتسقط بعض الأخبار ٠

وصاحت جيجي من الشرفة ، بصوت يرتعش اشفاقا :

ـ ايون ، هل سمعت بما فعله فاسيلي باكيو ؟

فأجاب الشاب وهو يهز كتفيه في غير اكتراث :

ـ طبعا ، سمعت ٠

وتمتمت لورا في رعب :

ـ انه لشيء مفزع !

فقال ايون ، وقد ظللت وجهه ابتسامة خبيثة :

ـ تستأهل ! يستطيع أن يضربها حتى يعجنها عجنا ، فهي تستحق ذلك ٠

فانفجرت السيدة هرديليا غاضبة :

ـ الا تخجل لقولك هذا ، أيها الحيوان الشرس ! أتسيئون الى الفتيات وتجلبون لهن العار ، ثم تسخرون من آلامهن ٠٠ أيها الوحش !

فهز ايون كتفيه ، وكأن كلمات السيدة قد دخلت من احدى أذنيه لتخرج من الأخرى ٠وعندما سمع صوت المدرس عائدا ، يتحدث بصوت عال الى ماكيدون سيرسيتاشو ، هرول سريعا الى الحجرة الخارجية ٠

ولم تستطع زنوبيا أن تكبح زمام فضولها ، فتساءلت :

ـ ماذا حدث يا سيدي ؟ بالله ماذا جرى ؟

فأجاب هرديليا غاضبا :

ـ الأفضل أن تسألى ابنك هذا ، فهو يعرف عن هذا الأمر أكثر مما نعرف • واستطرد المدرس شارحا لعائلته التى نفذ صبرها ، وهو يصعد الدرج الى الشرفة : « عندما وصلت ، كان الضرب قد توقف ، وكانت الفتاة أقرب الى الموت منها الى الحياة •• مسكينة •• لقد رأيتها • ان حالها يمس شغاف القلب فقد تسربلت بالدماء ، وقد تسلخ جسمها كله من الضرب • فليسا عدها الله •• هذه المسكينة •• ! لقد هدأ فاسيلى قليلا • وقد وبخته ، ولكن ما الفائدة ؟ انه يقول أن ايون جلانيتاشو ترك الفتاة حبلى منذ خمسة شهور مضت ، وهو يضربها لهذا السبب •

- ٦ -

جلس فاسيلى باكيو فى صباح اليوم التالى الى منضدة فى الحانة ، وظل يشرب وحيدا ، مكتئبا ، صامتا ، الى ما بعد الظهر • وبين الحين والحين كان يهوى بقبضته على المنضدة بقوة حتى أن أفروم كان يقفز من مكانه خلف الحاجز ، ليلقى نظرة سريعة ، ليرى ما اذا كان قد حطم زجاجة أو كوبا • ثم دفع باكيو حسابه كاملا ، وذهب الى البيت ، وألقى بنفسه ثانية على أنا ، التى امتلأ جسدها بالكدمات الزرقاء والسوداء ، وظل يضربها حتى انتزعها الجيران من بين يديه •

وبدا فى اليوم الثالث أكثر هدوءا • وعند الظهر أمسك بيد أنا وحدثها بصوت هادىء ، وان بدت فى عينيه نفس النظرة الثلجية الغريبة التى أفزعت قلبها منذ يومين :

ـ والآن ، يا عزيزتى ، اسمعى الى ما أريد أن أقوله لك : أنا رجل عجوز ، وقد تذوقت كافة متاعب الدنيا • انهـا مرة واحدة لم تطيعى قولى وها أنت ترين ما جلبه هذا عليك •• ماذا تستطيعين الآن عمله ؟ لقد أخطأت ، وتستطيعين ادراك هذا بنفسك ، ولكن من ذا الذى لم يرتكب أبدا أى خطأ ؟ تلك هى طبيعة البشر • ولكن الاخطاء يجب أن تصحح ، والا ذهبنا جميعا الى الجحيم •• والآن ، لقد فكرت فى الأمر مليا ، وقلبت كل شىء فى ذهنى مرارا وتكرارا ، واننى لأعلم ما هى الحياة •• انك ترين أن أحدا لن يتزوج منك ، بعد أن أصبحت بطنك عند رقبتك •

وتوقف فاسيلى باكيو وهو يصر على أسنانه • ولكنه لم يشأ أن

يتركه لغضبه العنان ، فابتلع ريقه ، ومد رقبته ، ثم واصل حديثـه فى بطء أكثر ، وبصوت أكثر نعومة :

ـ انك أنت التى زللت يا عزيزتى ، وعليك أنت أن تعالجى هذا ٠٠ وهذا أمر فى الدرجة الأولى من الأهمية ! هل أنا مصيب أم مخطىء ؟ أعتقد أنى مصيب ٠٠ وقد فكرت لذلك فى أن تذهبى الى جلانيتاشـــو بنفسك ، لأنك أنت التى اخترته ولم تستمعى الى ، ثم ترتبى الأمر معه ٠٠ هذا هو التصرف الوحيد الصائب يا عزيزتى ! ٠٠ وهكذا تقررا أنتما الاثنان الأمر على نحو ما يرضيكما ، فليس هناك ما يدعو الى تدخلى ٠٠ هذا هو ما قر قرارى عليه يا عزيزتى ٠

فتلعثمت أنا قائلة وقد اتسعت عيناها الدامعتان خوفا :

ـ سمعا وطاعة يا أبى ، سأذهب اذن كما تقول ٠

فقال باكيو وحدة طبعه تكاد تعاوده مرة أخرى :

ـ حسن ، اذهبى اذن يا عزيزتى ٠

واتجهت أنا على الفور نحو دار جلانيتاشو ، بقلب مثقل وجسـد متهالك ٠ كان ذهنها خاليا ساهما ، وقد نضبت منه الأفكار كأنه قطعة من الاسفنج الجاف ٠ لم يكن لديها أمل ، ولكنها لم تكن يائسة ٠ وحملتها خطواتها الى الأمام ، كأنها كلب مطرود أوصدت دونه الأبواب ٠ وأسرعت خوفا من نظرات العجوز التى بدت كأنما تنذرها بموت محدق ٠

ووجدت نفسها فى بيت جلانيتاشو دون أن تدرى ما اذا كانت قد قابلت أحدا فى الطريق،أو اذا كان الجو صحوا أم أن السماء ملبدة بالغيوم٠ ورأت ايون فى البيت جالسا الى المنضدة ، وفى يده مطواة يقطع بها بصلة حمراء كبيرة ٠ وعلى المنضدة رأت رغيفا طازجا من الذرة ، وشريحة كبيرة من اللحم وقليل من الملح الناعم فى قطعة من القماش ٠ وكان جلانيتاشو يغفو أمام المدفأة ، وقد تدلى غليونه من طرف فمه ، واستقرت يداه فى حجره ، بينما راحت زنوبيا تقلب بعض جمرات مشـتعلة تحت قدر ذى ثلاث قوائم ٠

وجلست الفتاة على مقعد دون أن يدعوها أحد ، وقدميها ترتعشان كأنهما بلا عظام ، وهى تحملق بعينين دامعتين نحو ايون ، الذى أخذ قطعة من اللحم ، كأنه لم يلحظها ، ووضعها على شريحة كبيرة من الخبز ، ثم القى بها فى فمه ٠ ثم غمس البصل فى اللحم وأخذ يمضغه فى تلذذ كبير ٠

وظلت أنا ساكنة ، لا تدرى ماذا ينتظرها ، مندهشة لعدم اكتراثه غير المفهوم ، فى وقت تحترق فيه روحها ألما لا لشىء الا لأنها أحبته أكثر من أى شىء آخر فى هذا العالم ٠

وخيم السكون على الحجرة ، لا يقطعه سوى صوت مضغ الفتى ، الذى بدا فى أذنى أنا مليئا بالسخرية ٠ وأيقظها صوت زنوبيا الحاد فجأة من سباتها قائلا فى تعجب :

ـ اذن فقد جئت أخيرا لترينا يا أنا !

ورغم أن الفتاة لم تكن تعرف كيف تجيب ، فقد سمعت صوتها الحزين الخائف يقول :

ـ لقد جئت يا سيدتى زنوبيا ٠٠ جئت من أجل ايون ٠٠٠

خيم الصمت ثانية على الغرفة ، ثم ارتفع صوت أسنان ايون وهو يقضم البصلة ، ورفعت الفتاة عينيها اليه منزعجة ، بينما واصل فكيه المضغ فى بطء ، فبدا جلد وجهه مشدودا ومجعدا على التوالى ٠

ومرت لحظات عديدة على هذا الحال ، وتلون وجه الفتى وهو يزدرد طعامه ، ثم قال فى بطء دون أن ينظر اليها :

ـ ما هى أوامرك يا أنا ، ماذا تريدين منى ؟

ـ لقد أرسلنى أبى لكى ٠٠٠

ولم تستطع أن تواصل حديثها ، فان برودة سؤاله قد حبست صوتها ٠ وترقرقت الدموع فى عينيها اللتين ارتخت نظرتهما فاستقرت على بطنها المنتفخ ، الذى راح يعلو ويهبط مع شهقة تحاول كبتها ، وكأنه يعاتبه ٠ ونظر ايون اليها مقدرا حجم بطنها بنظرة انتصار فى عينيه ٠ وتلاعبت ابتسامة كبرياء على شفتيه وهو يمسح المطواة فى سرواله بعناية ، ثم قال لها :

ـ اذا كان أبوك قد أرسلك ، فهو مخطىء فى هذا ٠ هيا اذهبى اليه ! قولى له هذا ! ليس هناك شىء أتفق عليه معك ، ولكنى أعتقد انه يمكن مناقشة الأمر معه والوصول الى اتفاق ، كما يحدث بين الناس المحترمين ٠٠ كيف يمكن الوصول الى أى اتفاق دون مساومة ؟ من ذا الذى رأى فى حياته عقدا بلا ثمن ؟ هل يمكن أن نعامل كالكلاب ؟ بالطبع لا ٠ عليك أن تخبرى السيد فاسيلى بما قلته بالضبط ، حتى يعرف ٠٠٠

ورغم أن الفتاة كانت تود أن تضيف كلمة ، أن تصرخ وتتوسل اليه ، أن تجثو على ركبتيها وتتضرع اليه ، الا أنها وجدت نفسها بعد لحظة فى الطريق سائرة نحو البيت فى كلل ، وهى لا تكاد تستطيع أن تلتقط أنفاسها ٠

وبدت وكأنها لم تسمع كلمات ايون ، ولا نصيحة زنوبيا التى حاولت أن تعلمها كيف تتحايل على أبيها كى ترده الى جادة الصواب ٠٠ كل ما كانت تحس به هو حرارة متزايدة فى بطنها ، وسرعة فى نبضات قلبها من حين الى حين تملأ نفسها سعادة وتنسيها كل ما تعانيه ٠

وعندما وقفت أمام أبيها ، والتقت بعينيه الصغيرتين اللتين ينبعث منهما بريق أصفر وقد اكتسى بياضهما بعروق حمراء دقيقة ملتهبة ، وأطلتا بنظرة نافذة لاتخفى معانيها ، تملكها الرعب ثانية ، وتاه عقلها فلم تستطيع الا أن تتأتئ بكلمات غير متماسكة ٠ ورغم أن فاسيلى باكيو لم يستطع أن يفهم ما قالت ، الا أنه استنتج ما تعنى ، فألقى بنفسه عليها وهو يزمجر قائلا :

ـ اللص ٠٠ الوغد ! ٠٠ اذن فهو يريدنى أن أذهب اليه ، ويريدنى أن أطلب منه فضلا ؟

وألقى بها الى الأرض ، وأخذ يركلها بقدميه حتى سال الدم من وجهها ، وهو يعوى دون توقف ويقسم أنه يفضل أن يراها ميتة أو أن يحرق بيته أو أن تدركه صاعقة أو أى شىء الا أن يذهب بنفسه الى جلانيتاشو ٠٠٠

ومنذ ذلك الحين ، لم يمر يوم دون أن يضربها حتى تخور قواه ٠ واعتاد الجيران على جؤاره كما اعتادوا على أنينها ، فلم يعودوا يهبون لنجدتها ، خاصة وأن باكيو كان يضربها داخل المنزل ، والباب مغلق بالمزلاج ، حتى لا يزعجه أحد ٠ وتحولت الفتاة الى طيف خائر من هذا الضرب المستمر ، فلم تعد قادرة على الوقوف على قدميها ٠ واستمرت بطنها تنتفخ وتنتفخ ، وكأنها تتعمد الكيد لفاسيلى ٠

والتقى فاسيلى باكيو مع ايون مصادفة ، بعد حوالى ثلاثة أسابيع ، فى الطريق أمام بيت الكاهن ٠ وقد بهت كل منهما عندما التقيا وجها لوجه ٠ ولكن الفتى حاول أن يواصل السير فى طريقه دون توقف ٠ فلم يستطع فاسيلى باكيو أن يسيطر على نفسه ، فصاح وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة قائلا :

– ايون ، لماذا تمر بى وكأنك لا تعرفنى ؟ أليس لديك ذرة من خجل ؟

فتوقف ايون قائلا بلهجة تحد باردة :

– ولماذا أخجل ؟

– لماذا ! ألا تعرف أن ابنتى تحمل طفلا منك ؟

– اننى لا أريد أن أعرف شيئا !

– لا تريد ؟

– كلا ، لا أريد !

فزمجر فاسيلى وهو يصر على أسنانه :

– حسن اذن ، لعلك لا تندم على ذلك يا ايون ، هذا كل ما فى الأمر !

فأجاب الفتى بشجاعة متزايدة :

– ولماذا أندم ؟ بل لعلك أنت نفسك الذى ستندم !

– أتريد أن تقول انك لا تريدها ؟ كذا ؟

فأنهى ايون الحديث ، وهو يستأنف سيره فى خيلاء ، شامخا بأنفه، قائلا :

– اننى لا أريدها يا سيدى فاسيلى ! عندما طلبتها ، لم توافق على اعطائها لى ·· أما الآن فانى لم أعد أريدها !

وهمهم فاسيلى باكيو بقسم مروع من بين أسنانه ، وهو يضم قبضتيه · وعادت الدنيا تترنح أمامه كأنها توشك أن تتحول الى كومة من التراب · تماما كما حدث ذات يوم فى فناء توما بولبوك عندما أحس بروحه تتمزق اربا · وهرول الى بيته بأسرع ما حملته قدماه ، وما كاد يصل حتى ألقى بنفسه ، دون أن ينطق بكلمة ، على أنا فى هياج وحنق أشد جنونا وقسوة من ذى قبل · وسقطت الفتاة الى الأرض تحت سيل ضرباته وهى تصرخ فى يأس :

– لا تقتلنى يا أبى ! ·· لا تقتلنى ! لا تقتلنى ! ···

الفصل السادس
الزفــاف

- ١ -

رحب فريدمان كاتب العقود فى قرية جارجالاو ترحيبا حارا بتيتو ، وكان فريدمــــان يهـــــوديا مثل غالبيـــــة الكتبة فى قرى « ترانسلفانيا » • لقد أراد أن يبرهن لهرديليا الصغير ـ وكان قد سمع أنه شاعر ـ أن الشعر يهزه ، وزاد من رغبته هذه انه ينتمى الى الجيل القديم من كتبة القرى والمدن الذين لم ينالوا تعليما عاليا • واستطاع أن يرتب حجرة لنوم تيتو فى مكتب العمدة فى الحجرة المخصصة لاجراء عقود الزواج المدنية ، حيث لا يقلقه أحد ، وحيث يستطيع أن يعمل فى هدوء في وقت فراغه بعد ساعات العمل ، عندما يأتيه الوحى •

وقال فريدمان لتيتو وهو يغمز له بعينه :

ـ ان الشعراء فى حاجة الى الوحدة والحب • ثم قهقه ضـــاحكا ، وأضاف قائلا : « ولكنك هنا عليك أن تقنع بربات الشعر الريفيات • »

وكان تيتو يتناول طعامه مع عائلة فريدمان ، التى كانت تتكون من زوجته اليهودية التي كرست حياتها له ، وهي امرأة بدينة قذرة ، امتلأت

وجنتاها بالنمش ، وابنته وهى فتاة صغيرة فى الخامسة عشرة من عمرها ، وقد وقعت فى حب تيتو من النظرة الاولى وداعبها الأمل فى أن يهدى لها تيتو بعضا من اشعاره ، وأخيرا ابنه وهو طالب فى كلية الحقوق فى العشرين من عمره كان يدرس فى بيته ولا يذهب الى كلوج الا ليؤدى الامتحان ...

ومع هذا لم يكن تيتو سعيدا فى هذا المكان ، وكان فى أعمق أعماقه يلعن اللحظة التى وافق فيها على أن يغادر بيته ويفترق عن روزا . لقد ترك هذا الفراق جرحا عميقا فى قلبه وأفسد كل متع الحياة بالنسبة له . وحاول أن يجد عزاءا فى ذهابه كل خميس الى أرماديا مع فريدمان، فيتظاهر أنه يريد أن يرى والديه ولكنه كان ينطلق من هناك الى جيدوفيتسا ليأخذ السيدة لانج بالأحضان . ولو مر أسبوع دون أن يرى روزا لكان بالنسبة له زمنا بلا نهاية .. كان تيتو يعانى من أسى دفين فى قلبه لأنه لم يودع روزا الوداع اللائق عند رحيله . لقد اضطر الاثنان أن يفترقا كأنهما غريبين دون أحضان ملتهبة أو دموع تجلب الراحة لأنه تصادف أن كان لانج يقضى وقته متسكعا فى البيت فى يوم رحيل تيتو. ولم يستطع تيتو أن يحمل معه الى هذه القرية البعيدة ــ التى كانت أكثر كآبة من السجن بالنسبة له ــ الا ذكريات أيديهما المرتعشة أثناء المصافحة، ونظراتها الغارقة فى أسى حزين .. وبالطبع كان كاتب العقود مسئولا عن كل هذه المعاناة . فلو أنه لم يلتق بهرديليا فى ذلك اليوم مصادفة لما أجبر تيتو على أن يترك روزا .. ومن أجل هذا كان تيتو يعتبر فريدمان وكل عائلته ألد أعدائه ، وكان يكرههم بكل ما استطاعت عواطفه فى هذه الظروف .

لقد تملك تيتو حب لا نهاية له لكل المجريين واليهود منذ أن أحب روزيكا ، لأنها امرأة مجرية تزوجت يهوديا . وعبر عن حبه لهم بسروره الشديد عندما يتكلم باللغة الهنغارية . وعندما كان يصل الى قرية كل سكانها من المجريين لا يسمع فيها ولا يتكلم الا اللغة الهنغارية ، كان يتخيل أنه فى حضرة روزا وبذلك يرتاح قليلا وتهدأ بعض أشواقه . ولكن الفلاحين الذين كانوا يأتون الى مكتب العمدة كانوا يتكلمون أساسا باللغة الرومانية لأنها أسهل بالنسبة لهم من ناحية ولأن كاتب العقود لم يكن يعرف من اللغة الرسمية الا بقدر مايقتضيه عمله الرسمى ، أما فى البيت فكان يتحدث باللغة « الييدشيه » أو الرومانية لأن زوجته ــ رغم كل محاولاتها ــ لم تستطع أن تتعلم كلمة مجرية واحدة . أما الطالب

ابن كاتب العقود فكان هو الوحيد الذى يتظاهر بعدم معرفته اللغة الرومانية ، ولكن تيتو كان يتجنب صحبته وينفر منه بسبب ما أضفاه الطالب على نفسه من جو الاستعلاء لكونه طالبا فى الجامعة .

ورغم أن تيتو كان يائسا ، كسير القلب ، الا أنه انهمك جادا فى نصيبه الوفير من العمل الذى حدده له فريدمان . واذ كان فريدمان لا يعرف على وجه الدقة كم من الوقت سيمكثه الشاعر معه فقد فكر أن يستفيد كل الاستفادة من كفاءة الشاب ليرتب له كتبه وأوراقه ويصرف له أموره التى تخلفت وتراكمت خلال الأشهر الماضية . ورغم أن العمل كان مملا بالنسبة لتيتو لما فيه من مصطلحات وصيغ جامدة ، الا أنه لم يأل جهدا فى انجازه انتظارا ليوم الخميس حيث يتاح له أن يرى روزا ثانية . بل لقد كان ينتابه احساس بالزهو عندما يفكر فى أنه يضحى بنفسه بكتابة « قوائم الماشية » أو يحصى « قوائم الضرائب » وغيرها من الأوراق العادية ، بدلا من أن يحلق فى السماوات العلى ويخلق الشعر المجنح .

وجاء يوم الخميس حاملا معه خيبة أمل مريرة . فقد أخبره الكاتب أنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يأخذه معه الى أرماديا لأنه مطلوب ليقوم بجولة فى القرى ليعجل بجمع الضرائب ويحجز على ممتلكات المتخلفين عن الدفع ، وقد هدده مأمور الضرائب بتغريمه اذا لم يدفعوا المتأخرات خلال الثلاثة أيام التالية ، وهى ما عليهم من ضرائب النصف الماضى من السنة على الأقل .

لم يستطع تيتو أن يتذكر فى حياته كلها يوما أكثر كآبة من هذا اليوم . لقد غلت دماؤه غضبا ، وأخذ يلعن حظه عندما رأى فريدمان يتجه الى أرماديا بينما فرض عليه هو أن يبقى . وأوشك أن يشتبك بالأيدى مع ابن فريدمان الذى جاء لزيارته ليناقشه فى السياسة ويساعده فى تضييع الوقت . وعندما عاود تيتو التفكير فى الأمر أدرك أن فريدمان لم يلعب هذه اللعبة الخسيسة الا بتحريض من هرديليا بهدف أن يبعده عن روزا . فما كان من تيتو الا أن راح ينتقم لنفسه ، فظل طوال يومه فى المحكمة ، وألقى بسجلات الحارس القضائى فى أحد الأركان ، وأخذ يسطر رسالة طويلة لا نهاية لها الى روزا ، رسالة تشتعل حبا وتبللها الدموع ، وقرر أن يرسلها مع رسول يستأجره خصيصا حتى ولو دفع له كل مرتبه الشهرى .

وعندما أعاد قراءة رسالته في اليوم التالى وجدها حافلة بالمبالغات والتهاويل فمزقها · واستعاد بعض هدوئه وهو يتطلع الى يوم الخميس التالى ، فهو اذا كان قد استطاع أن يتحمل فراقها أسبوعا فأنه يستطيع أن يحتمله أياما أخر · ولعل هذا الفراق الطويل يزيد من سعادة اللقاء · وأبلغه الكاتب عند عودته أنه رأى هرديليا وجيجى فى أرماديا ، وهما يبعثان له بتحياتهما ، وارتاح الكاتب أيضا لأن تيتو لم ينفذ أوامر الحجز على الفلاحين اذ أن مأمور الضرائب سمح بمهلة لدفع الضرائب ·

وحدث نفس الشيء فى يوم الخميس التالى أيضا ، ولكن تيتو بدا أقل استياء من الأسبوع السابق · فقد تعرف براعى الكنيسة « الكالفينية » ، وهو رجل قصير نحيل ذو شارب أشيب ، أما زوجته فكانت امرأة عفية طويلة القامة كأنها جندى من جنود الدرك · كان القس وزوجته قد تخاصما مع الكاتب ولم يعد الجو صافيا بينهما وبينه ، فكان تيتو يقضى أمسياته معهما نكاية فى فريدمان · وكان هذا يثلج صدره ويعينه على نسيان ثورة غضبه ·

وتعين عليه فى النهاية أن يقوم بجولته على القرويين لجباية الضرائب مصطحبا فى ذلك رجال حرس القرية · وكانت هذه أول فرصة تتاح له ليحتك بالقرية وأهلها بشكل مباشر · واذ ذاك أنحى على نفسه باللوم والتأنيب متسائلا : « كم كنت أعمى ! أين كان قلبى طيلة هذا الوقت ؟

كانت جارجالاو تبلغ ضعف قرية بريباس حجما ، وتقع على الشاطىء الأيسر لنهر سومش على سهل منبسط ومستو كأنه سطح منضدة · وفى وسط القرية ارتفع مبنى الكنيسة المجرية الجديدة وقد أطل فى استعلاء ، تعلو هامة برجه دوارة ريح بيضاء ، والى جوار الكنيسة قام مبنى المدرسة الأميرية ذو الطابقين والسقف القرميدى الاحمر ، فبدا كعشيقة بلا قلب قاسية متغطرسة · وحول هذين البنائين ارتفعت بيوت أنيقة حسنة البناء ، مشيدة بالحجر تحيط بها أفنية فسيحة ، ومبانى خارجية مترفة · وعلى أطراف القرية انتشرت أكواخ فقيرة بائسة كالمتسولين الجياع ، مسقوفة بقش أسود ، واختبأت الكنيسة الرومانية فى حياء فى ركن من الأركان وهى عبارة عن مبنى خشبى متداع ، له برج مخروطى من الخشب المتآكل ·

واذ كانت أغلب الضرائب المتأخرة واجبة التحصيل من سكان هذه الأطراف ، فقد بدأ تيتو مهمته ـ وفقا لاقتراح فريدمان ـ من هذه الأكواخ

الكسيحة حيث تعرضت له كلاب حراسة ذات شعر أشعث ، نابحــة في وجهه في عداء كأنما استشعرت سوء القصد في زيارته • وكان كلما انتقل من منزل الى آخر ، سابرا أغوار ماتحتويه من بؤس ، غلبه احساس هائل بهزة زلزلت كيانه حتى الأعماق ، وخاصة كلما تذكر المباني الفخمة القائمة في وسط القرية وملحقاتها •

وقال لنفسه في النهاية وهو يدلف الى أحد الأكواخ المتهدمة وقد أحنى رأسه حتى لا يصطدم بحافة السقف المنخفض : « هانحن نعيش هنا نحن الفقراء المغلوبين على أمرنا » •

واستقبلته امرأة عجوز عجفاء ، محنية الظهر ، يغطى رأسها شال كبير • وأسرعت تمسح الدكة الخشبية بمئزرها حتى لا تتســخ ملابس الشاب اذا أراد الجلوس • وكان الخوف يلمع في عينيهــا كلما اختلست نظرة الى تيتو أو الى الحارسين الواقفين بباب الحجرة الخارجية •

وتمتمت العجوز في صوت حزين :

ـ معذرة ياسيدى الشاب • فبيتنا فقير لا يليق باستقبالك ، فنحن لا نملك سوى البؤس والمتاعب في حياتنا ، فليتولنا الله برحمته •

نظر تيتو اليها نظرة طويلة وانتابه احساس قديم بالخزى ممزوجا باشمئزاز ، فاقشعر بدنه وبدت المرأة العجوز أمامه كأنها شبح من البؤس والفاقة ينهض وسط أحـــلامه • وود لو استطاع أن يخفف عنها بكلمة اشفاق ، ولكنه لم يجرؤ أن يفتح فمه ، فدفن أنفه في سجلاته حيث وجد اسمها وأمامه مايزيد على مائتى ريال • وعندما سمعت المرأة هذا الرقم ، شهقت مرتاعة وظلت فاغرة فمها بضع دقائق ، ثم انفجرت تبكى وتصرخ في يأس ، عندما وصلت الحقيقة الى ادراكها :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل ياسيدى الشـــاب ؟ مائتان ! فليساعدنى الرب ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟

وجاءت دموعها ممزوجة بكرب شـــديد حتى أحس تيتو بغصة في حلقه • ونظر الى الحارسين الواقفين بباب الغرفة الأخرى في حيرة ، كانا يهرشان رأسيهما تحت شمس الربيع الدافقة • وأصابه الضوء الساطع برعشة سرت في جسده وأحس بها تغمر روحه وتتغلغل في أعمق سراديبها ، حيث تحولت الى احساس بالتعاطف أخذ ينمو شيئا فشيئا حتى ملك عليه نفسه • وأخذ يتساءل : « من أنا ؟ وماذا أفعل هنا ؟ » بينما كانت أصداء ولولة العجوز تتردد في أذنيه كأنها صدى نداء بعيد •

وسمع تيتو نفسه يضيخ بها في لهجة جافة بدت غريبة عليه حتى لم يكد يستطيع أن يميزها :

ـ «والآن يجب أن تدفعي أيتها السيدة ، واذا لم تدفعي سأحجز على حاجياتك وأبيعها كلها عن آخرها » وتعجب في نفسه ، كيف استطاع أن ينطق بهذه الكلمات ٠

وأجابته المرأة :

ـ أنا لا أملك شيئا ياسيدى الشاب ، سوى روحي التي تجرى في عظامي ! لا شيء سواها ! ٠٠ تستطيع أن تأخذ روحي ، خذها ! لقد ذهب ابني الى الجيش طوال العامين الماضيين ، وبقيت قطعة الارض التي تركها الله لنا دون أن يفلحها أحد ، وضاعت هباء حتى أدمت قلبي ٠ لم يعد لى شيء سوى روحي ٠٠ فلتنتزع روحي ياسيدى الشاب اذا شئت !

واندفع سؤال من قلب تيتو فجأة كأنه شعلة انطلقت من نار خمدت منذ زمن طويل ، وأخذ هذا السؤال يعذبه : « لماذا أنتزع روحها ؟ لماذا ؟ لماذا أكون أنا الذى ينتزع روحها ؟ »

ووقف جامدا فترة طويلة دون أن يتحرك أو ينطق بكلمة ، ولم يجرؤ أن يرفع عينيه لينظر الى العجوز التي استمرت تبكي وتتمخط في ضجيج ، وترسم علامة الصليب وتسأل الله أن يكون شهيدا على ماتقول ٠ وخجل تيتو أن يظهر ضعفه أمام الحراس ولكنه مع هذا لم يستجمع قواه ليسيطر على مشاعره ٠ وفجأة جمع أشتات نفسه ، وفحص السجلات مرة أخرى ثم هز رأسه مزمجرا :

ـ ربما كانت الكشوف خاطئة اذن ؟ ماذا بحق السماء ؟ هل هذا ممكن ؟ ٠٠ ربما كان هناك خطأ ما ٠٠ !

وتعلق على الفور بكلمة خطأ كما يتعلق الغريق بقشة ٠ وغادر المنزل غاضبا ، وخلفه الحارسان اللذان تبعـــاه دون أدنى مبـالاة وهما يهزان رأسيهما مثل دابتين من دواب الحمل ٠ وذهب من فوره الى مكتب العمدة وقال لكاتب القرية ثائرا أن الأرقام في سجلات الضرائب لابد أن تكون خاطئة ٠ وضحك فريدمان من طرف أنفه وأجابه قائلا أنه متأكد من دقة حساباته لأنه أعدها بنفسه ونسخها ابنه وهو رياضي من الدرجة الأولى ، ولكن اذا أراد تيتو أن يتأكد بنفسه فهو حر في أن يراجع كل البنود ٠ ولكن فريدمان نصحه أن من الأفضل أن يستأنف أعمال الحجز ولا يضيع وقته ٠

كان تيتو يدرك تماما أنه لا توجد أخطاء فى الحسابات وكل ما كان يبحث عنه هو مبرر يغنيه عن الاستمرار فى جولاته فى أطراف القرية ٠ وأحس بالضعة وتفاهة الشأن ، وامتزجت بدمائه مرارة متزايدة ، وترسب فى أعماقه شعور بالاحتقار والاشمئزاز من نفسه ٠

وجلس ، وهو يصارع هذا الاحساس ليدرأه عن نفسه ، الى مكتب مغطى بأكوام من الورق وبدأ بصورة آلية يجمع ويطرح ، ويخلط أرقاما بأرقام ، ويحاول أن يبحث عن البيانات الخاصة بالاسم الواحد فى خمس أو ست مجموعات من الورق ٠ وكانت صورة المرأة العجوز ووجهها الذى خطته التجاعيد وشوهته الدموع محفورة أمام عينيه ، وبدا كأنه يراها أمامه فى كل صفحة ٠ كان يراها تنتفض أمامه على الورق فى عتـــاب ٠ ورنت كلماتها فى أذنيه كأنها اتهام : « فلتنتزع روحى أيضا ٠٠ يا سيدى الشاب ! » ٠

ونفذ صبره بعد فترة من المحاولة فقفز بعيدا عن مكتبه فى حالة أقرب الى اليأس ٠ وبدأ يذرع المكتب ذهابا وايابا ، وهو يجاهد ليطرد شبح المرأة العجوز الذى ظل يراود مخيلته ٠ وحاول أن يهرب فلجأ الى صورة روزيكا وأحضانها الدافئة وهمساتها العذبة ، ولكن دون جدوى ، فقد كان خياله يعود دائما الى المرأة العجوز وكوخها المتداعى ، فيرى وجهها الذى شـوهه الألم ويضطر أن يسمع شكاياتها اللائمة ٠ بل أنه أحس بمزيد من الخجل لأنه فى مثل هذه اللحظات مازال قادرا على التفكير فى روزا لانج ، وانتابه احساس بالنفور من المرأة التى أعمته طيلة هذه الفترة الطويلة بعواطفها الفاجرة وأضلته الطريق ٠

وأصبح تيتو وحيدا فى المبنى كله ٠ فقد راح الحارسان يتباريان فى الغطيط بصوت عال وهما نائمان على الدكك الخشبية فى غرفة الانتظار ٠ وكان الربيع يبتسم من خلال النوافذ المفتوحة كصبية صغيرة وقعت فى الحب ٠ كانت أقدام الفتى فى غدوه ورواحه البطىء حينا والسريع حينا ، تثير الغبار من الارض المتآكلة ، حتى تطاير مترنحا كسحابة ذهبية فى حضن الشمس ، وفجأة توقف تيتو أمام النافذة وعقد ذراعيه خلف ظهره ، وكأن الحياة الجديدة التى تفجرت فى قوة خارج جدران المبنى قد جذبته اليها ٠ ورأى المدرسة المجرية وقد شمخ بنيانها على الجانب الآخر من الطريق وتألق فى أشعة الشمس الذهبية ٠ وكانت هناك مجموعات من الاطفال تلعب فى حبور وتصرخ فى فرح ويطارد بعضها بعضا فى الفناء المبلط الكبير ، تحت أعين مدرس شاحب الوجه ذى عينين كبيرتين تبدوان من بعيد كأنهما نظارة ٠ وكان ضجيج مرحهم اذ يبلغ مكتب العمدة يرق حتى

يصبح مجرد طنين رقراق دافيء ، لا يتخلله الا صرخات قصيرة مرحة من حين الى حين · وبدأ تيتو يستعيد معنوياته ولكنه رأى المدرس الشاحب فجأة وقد انتفخت أوداجه واحمر وجهه كديك رومى ، وأخذ يلوح بيده غاضبا لمجموعة من الأطفال كانت تقف فى جانب من الفناء ، ووقف الاطفال وقد تجمدوا من الخوف وتحرك المدرس نحوهم صائحا مهددا باصبعه · ومال تيتو على حافة النافذة ، ورغم ضجيج الأصوات المرحة فقد سمع كلمات المدرس واضحة فى نبرة غاضبة :

– لا تتكلموا الا باللغة الهنغارية ! الهنغارية ! والهنغارية وحدها !

وفى لحظة واحدة اجتاحت تيتو قلبا وقالبا موجة من الحقد المرير على هذا المدرس · وأحس برغبة عارمة فى أن يندفع نحوه ويعيد الى حلقه ماتفوه به من كلمات التهديد ·· وفى هذه اللحظة رن جرس ، وفى دقيقة واحدة مات الضجيج وأصبح الفناء خاليا · وفاض على مبنى المدرسة وحده ضوء الشمس ، فبدا أكثر شموخا واستعلاء ورضى ، مثل وحش مفترس يلعق شفتيه فى بطء بعد أن أجهز على فريسته · لم يكن قد أدرك من قبل أن شيئا لا حياة فيه يمكن أن يثير غضب الانسان وسخطه · أما الآن فقد أحس أن المبنى ذو السقف الأحمر بنوافذه الكبيرة اللامعة يعبر عن ازدرائه له ويهينه عبر الطريق · وتملكه لذلك احساس بالغضب مرة أخرى ، مذكرا اياه من جديد بالمرأة العجوز الفزعة وقد هدها ماتعانيه ، وقال لنفسه : « اننى أضطر لتمزيق قلب هذه المخلوقة التعسة حتى يستطيع هذا الرجل أن يصرخ فى زهو أكبر « الهنغارية وحدها ! » ·

ورفع عينيه فيما وراء مبنى المدرسة حتى بلغتا السـماء الصافية الزرقاء النقية ، كأنها قناع يحجب الفراغ اللانهائى · وارتسمت القرية كلها فى ذهنه كأنها خريطة ضخمة ، واقتاده خياله فى البداية الى البنايات الفخمة الرائعة والبيوت التى تلائم السادة الذين واتاهم الحظ ، ثم الى الحدائق والأفنية الفسيحة حيث يلتقى المرء بالفلاحين المجريين الثرثارين ، بسراويلهم الواسعة كأنها تنورة ، وشواربهم المبرومة وأصواتهم العالية الصاخبة ·· ثم انطلق خياله فى سرعة كروح من أرواح الجان الى الأكواخ المتواضعة فى أطراف القرية ، بين الفلاحين الذين أثقلهم الفقر ، وتخلى عنهم الله والناس ، المرهقون المنهكون الذين استهلكهم البؤس والاجهاد · ولكن تيتو هتف وقد أشرق وجهه ابتهاجا وتفاؤلا « ولكن المستقبل لنا ! انهم قلعة يحاصرها جيش من الحفاة · عبثا يتحدوننا بمبانى مدارسهم الشاهقة ، وعبثا يصيح الديك من أعلى برج كنيستهم ·· سوف نتقدم فى غير هوادة ، ان جيوشنا تتقدم دون توقف · ان جدرانهم المزينة تتهاوى

وتسقط عندما تواجهها أنفاس هؤلاء الناس المضللين : ان السادة يرتعدون أمام عبيدهم ! عبيد ! نحن عبيد !! ليكن الماضى لهم ، أما المستقبل فلنا نحن ! » •

ورنت فى صدره هزة من رضاء • وطرد اعتداده بنفسه وثقته فى المستقبل كل عذاباته وأحزانه • وتذكر كيف مر منذ عشر سنوات بقرية ساسكوتسا فى طريقه الى بيستريتسا فلم يجد بها سوى رومانى واحد هو راعى البقر الذى كان يسكن فى كوخ من الطين عند نهاية القرية ، بينما أصبح نصف سكان القرية الان من الرومانيين رغم أنهم بلا كنيسة أو مدرسة • وتعجب تيتو فى زهو وسعادة بانتمائه الى جنس مقهور ، فهناك « يتغلب العبيد على السادة الآخرين شيئا فشيئا • فهم مقهورون ولكنهم ممتلئون بالحياة » •

وعندما دعى للغداء بعد ذلك بوقت قصير ، وصل وهو فى حالة من الفرح الشديد حتى أنه أدخل السرور على كل أفراد عائلة فريدمان الذين كانوا حزانى لأنهم فقدوا أوزة كانت السيدة فريدمان تعنى بها وتتولى تسمينها بنفسها • وبعد الغداء استغرق تيتو فى مناقشة حامية الوطيس مع فريدمان وابنه حول الرومانيين • وحـــاول الابن الطالب أن يتكلم بالهنغارية طول الوقت فلم يكن تيتو يرد عليه الا بالرومانية كأنه نسى اللغة الأخرى فجأة نسيانا تاما ، أو كأنه يخشى أن يفقد السيطرة على لغته الأصلية اذا نطق بكلمة واحدة بلغة أجنبية • كان كاتب القرية وابنه يؤكدان بشدة أن سياسة السكان الرومانيين فى ترانسلفانيا خاطئة من أساسها ، لأنها تنبع من احساس بالعداء نحو الحكام الشرعيين للبلاد وأنها لذلك لا يمكن أن تؤدى الا الى الفشل • وراح تيتو ينتقد فى حماس متزايد ، محاولة السلطات المجرية لابادة شعب بكامله عن طريق تجريده من جنسيته ، رغم أنه شعب غنى بتقاليده فى البطولة والمعاناة طيلة قرن من الزمان • وأوضح أن الرومانيين ليس أمامهم من خيار فى وجه اتجاهات الحكام الاجرامية الا أن يحاربوا من أجل حياتهم حتى النهاية المرة •

وقاطعه فريدمان الأب فى النهـــاية وقد استعد ليوجه له ضربة ساحقة :

– معذرة ، لحظة من فضلك ، اننى على ثقة من أن تعصبك القومى سيقودك ان آجلا أو عاجلا الى أن تفعل مثلما فعل شهداؤك الآخرون من قبلك فتترك البلاد وتهرب الى رومانيا • ان التعصب القومى هو الذى يساعد المثقفين على استغلال الثقة التى منحها لهم بسطاء الناس •• اننى أؤكد لك أنه لا يمكن أن تناقضنى فى هذه النقطة •

وندت آهة عن تيتو وهو يقول شامخا برأسه :

ـ غاية ما أود هو أن أستطيع الهروب الى رومانيا أنا أيضا ٠

فقال فريدمان ساخرا :

ـ هون عليك ، فسيأتي سريعا ذلك الوقت الذى تهرب فيه ، وسيسرنى عندما أقابلك أن أجدك وقد حصلت على معرفة أدق برومانيا ! سأكون مسرورا للغاية ! سترى أى حرية وأى سعادة هناك ، أنت الذى لا تكف هنا عن الشكوى والاحتجاج ٠٠ لعلك ترسل لى رسالة من هناك ! ترى هل ستفعل ؟ أتعدنى بذلك ؟

فصاح تيتو وقد تضرج انفعالا :

ـ بالتأكيد ! وعلى أية حال لن يكون الوضع أسوأ مما نحن عليه هنا ٠

وأبدى فريدمان دهشته ، وقد ضايقه أن خصمه مازال مصرا على رأيه :

ـ لن يكون أسوأ ؟ أهذا هو ماتعتقده ؟ أتعرف أنه فى بلدك رومانيا هذا لا يأمن انسان على نفسه وليس هناك استقرار لأى شىء ؟ فلو أن لون عينيك لم يعجب الحكام لكان نصيبك الطرد فى اليوم التالى ٠٠ هناك لا توجد قوانين أو ادارة سليمة ، الوضع هناك يختلف عن الوضع عندنا ، فى بلدنا المبارك هذا الذى ينال من ألسنتكم الكثير ٠ لا ياسيدى ، ان ارادة الحكام وحدها هى القانون المسلط على رقاب الملايين من العبيد البؤساء٠٠ لا تكلمنى عن رومانيا ياعزيزى ، فأنا أعرفها خيرا مما تعرف ! لقد قضيت ثلاث سنوات هناك عندما كنت شابا يافعا ، ولكنى لن أنسى ماتعرضت له هناك ، لن أنساه حتى الممات ٠

ورد تيتو وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة ، أثارت حنق فريدمان بدرجة أكبر مما لو كان قد صرخ بكلماته بأعلى صوته :

ـ سواء أكان الوضع هناك سيئا أو طيبا ، فانا أعلم أن كل شىء هناك رومانى ولا شىء هناك ليس رومانيا ؛ هناك على الأقل لا يستطيع مرتد مغرور أن يجبرك على أن تتكلم أو تحس كأنك غريب فى بلدك !

وقال الطالب باللغة الهنغارية وفى لهجة أرادها أن تكون مرحة :

ـ أنت أكثر تعصبا مما كنت أتصور ! ليس من المصادفة أن تكون شاعرا رومانيا !

أحس تيتو فى نهاية المناقشة بزهو كأنه قائد خرج مظفرا من معركة. وأحس برضاء عن نفسه لأنه كان شجاعا فى اعلان مشاعره الحقيقية بصراحة وكأنه ألقى بها فى وجه أكثر رجال محاكم التفتيش دموية وقسوة .

وعندما حل المساء ، قرر تيتو فجأة أن يزور الكاهن الرومانى بدلا من أن يذهب كالمعتاد الى قس الكنيسة الكالفينية ليتسامر مع زوجته عن سلوك فريدمان الوقح . وأحس تيتو بالخجل من نفسه لأنه رغم أنه أمضى فى هذه القرية مايقــرب من شهر ورغم تعــــارفه بكل المزارعين المجريين الأغنياء ، لم يتنازل الى مجرد رؤية راعى هذا القطيع البائس المسكين .

وكان بيت الكاهن يقع فى حارة خلفية عند أطراف القرية بالقرب من الكنيسة الصغيرة . ولم يجد تيتو فى البيت الا زوجة الكاهن ، وهى فلاحة هدها الارهاق ، وبناته الثلاث وهن فتيات متواضعات ، بالغات الخجل ، بطيئات الفهم بعض الشىء . وسعدن جميعا لرؤيته وأسرعن يدعونه الى الحجرة الأمامية وهى حجرة مزينة بأكلمة بسيطة وزخارف على الجدران، ومنضدة فى منتصف الحجرة مغطاة بمفرش أبيض ، يرقد عليه الكتاب المقدس مكسوا بالجلد بين صليبين أحدهما صغير من الفضة والثانى كبير من الخشب .

وبدت أحاديث المرأة الصريحة ، ووجل الفتيات وخجلهن ، جذابة للغاية وهى التى كانت كفيلة بأن تحمله على الضحك فى أى وقت آخر وتساءل تيتو بعد أن استهلكت الفتيات عبارات المجاملة التقليدية ، ولم يجدن مايمكن قوله فلزمن الصمت :

ـ ومتى سيأتى الكاهن المبجل ؟

وأجابت كبرى الفتيات بسرعة ، وهى فتاة نحيلة عجفاء ذات يدين حمراوين :

ـ انه فى الكنيسة يجرى مراسم زواج . فقد جاء بعض المجريين منذ قليل وطلبوا منه أن يجرى لهم هذه المراسم . هذه هى العادة هنا ، انهم يتزوجون أولا فى كنيستهم ثم يأتون بعد ذلك الى والدنا ، وهم يقولون أن طقوسنا أكثر قداسة ؟

فقال تيتو بصورة آلية :

ـ انها أقدس ..

وحضر الكاهن بعد قليل • كان رجلا عجوزا ، يرتدى ملابس قذرة ، لحيته غير مشذبة ، وعيناه رحيمتان كأنه نبى • كان وجهه ينم عن كبرياء ورضى • وقد صافح تيتو وأجلسه الى المائدة وطلب من الفتيات أن يحضرن كأسا من النبيذ • وعندما أصبحا وحيدين قال لتيتو فى لهجة عتاب أخوية رقيقة :

ـ اننى سعيد يابنى لأنك جئت لزيارتنا نحن أيضا •• هذا شىء سليم ، لأن من تجمع بينهم نفس اللغة ونفس العقيدة ينبغى أن يترابطوا ويحب بعضهم بعضا • ولهذا أدهشنى وآلمنى أنك كنت تتجنبنا طوال هذه الفترة •

وأحنى تيتو رأسه كأنه ينتظر بركة الكاهن ، كالخاطىء التائب الذى يؤرقه الندم ، وتمتم فى صوت خفيض :

ـ سامحنى ياأبى !

- ٢ -

وانتشرت فى أنحاء القرية اشاعة ، ثم أنباء تقول بأن ايون رفض أن يتزوج أنا ، رغم أنه لم ينكر أنها حملت منه • وكانت زنوبيا عاملا مهما فى نشر هذه الاشاعة • وقال البعض أنه لن يتزوجها لأنه لم يصل الى اتفاق مع فاسيلى باكيو حول بائنة العروس ، وقال آخرون أن ايون ، فيما يعلمون ، رفض أن يناقش الأمر أصلا مع والد الفتاة • وأنه قد تعمد اهانتها لا لسبب الا لينتقم من أبيها لأنه رفض أن يعطيه ابنته بمحض ارادته ، بل انه سخر منه فى حلبة الرقص أمام الناس جميعا • واعتبرت عائلة هرديليا مسلك ايون لونا من اللؤم المنحط • وكان الضرب الذى ينهال على أنا كل يوم وتتحمله بسببه ، يستثير دموع ومشاعر الاشفاق على الفتاة التى اعتبرت ضحية ابن جلانيتاشو الفظ ، رغم أن ابنة فاسيلى لم تكن فيما مضى موضع تقدير خاص من أسرة المدرس • وكانت بنات هرديليا تنفجرن باكيات وتلعن ايون كلما أتاهن صوت باكيو يضرب أنا ، بينما كانت زوجة المدرس التى تشاركهن مشاعرهن لا تملك الا أن تذهب الى الشرفة وتصيح فى آل جلانيتاشو بصوت عال :

ـ ألا تخجلون من أنفسكم !

ورغم أن هرديليا حاول أن يخفى مشاعره الا أنه كان ثائرا أيضا مثل

آل بيته • فقد كان رجلا عاطفيا ، يكره العنف ، ويقض مضجعه الندم اذا اضطر أحيانا الى ضرب صبى فى مدرسته عقابا له على اثم أتاه • وحاولت لورا مرارا أن تبين لايون أن مسلكه غير جدير به ، ولكن ايون الذى بدا أنه قد جن تماما ، لم يكن يجيب بكلمة ، بل كان يكتفى بأن يفتح شدقيه ضاحكا ككلب مسعور •

وعاودت الأسرة حديثها عن جلانيتاشو الصغير ذات مساء ، فتمتم هرديليا وهو يهز رأسه قائلا :

ـ لم أر فى حياتى لعبة أقـــذر من هذه الخدعة ، لقد بدأت أحس بالأسف لأنى لم أدعه يدخل السجن ، فقد كان من الممكن أن يرده الى صوابه ، ذلك الثور ••

وكان ايون ، فى الحقيقة ، فى حالة ذهنية غريبة ، فلم يكن يعرف ماذا يريد أو ما الذى يهدف اليه فعلا • فمنذ اليوم الذى تحدى فيه فاسيلى باكيو ، أدرك أن كل انسان من حوله قد انقلب ضده ، ورغم هذا الشعور بالعداء العام له ، كان يحس أنه أكثر سعادة من أى وقت مضى • وكانت تنتابه فترات من المرح ، فيلقى بالنكات الى كل من يصادفه فى طريقه ، وكان فى لحظات أخرى يثور ، ويأخذ فى السباب دون سبب معقول ، ويتحرش بكل من يصادفه ، متأهبا للانقضاض عليه لدى أى بادرة أو رد ، والويل لمن كان يذكر أمامه اسم أنا ، فقد كان يثور كالثور الهائج ، وبلغ به الأمر فى النهاية أن كان يعتبر كل من ينطق باسمها أو اسم فاسيلى فى وجوده عدوه اللدود • وفى أحد أيام الأحد ، ضرب والده ضربا مبرحا بينما كان القداس منعقدا فى الكنيسة ـ لأنه نصحه ، أو ألمح اليه بطرف خفى ، أن من الأفضل له أن يصل الى اتفاق مع فاسيلى باكيو ، اذ كان قد سمع أن فاسيلى يسعده جدا أن يعطيه ابنته ويعطيه بائنة مناسبة أيضا •

وكان ايون يدرك فى بعض الأحيـــان أنه يتصرف كالأبله ، وأنه يستطيع بدلا من هذه المراوغة الفاشلة أن يناقش الأمر ويقوم بمساومة شريفة • ولكنه فى هذه الأحيان كان يتذكر عناد فاسيلى باكيو وتراوده فكرة أن باكيو قد يرجع عن رأيه ، ويترك أنا تضع مولودها ، وتظل فى بيته مع الطفل حتى يأتى رجل آخر ليطلب يدها • فهناك فتيات أخريات أنجبن أطفالا دونما زواج ، ثم تزوجن فى النهاية ، واذا كان مثل هذا قد حدث من قبـــل فأحرى به أن يتكرر مع ابنة مزارع غنى مثل فاسيلى باكيو •• ولكن هذه الأفكار جعلته أكثر عنادا ، وكان يقول لنفسه راضيا : « خير لى أن أظل معدما بائسا من أن أذل نفسى أمامه » •

وكان في أحيان أخرى يود لو انفجر صائحا في وجه العالم كله أن خطته قد حققت أغراضها ، وأنه يستطيع اذا شاء أن يحصل على الارض وكل شيء يريده ، لأن كل هذا وقف على ارادته وحدها • وملأ احساسه بالترقب كيانه بسرور لم يستشعره من قبل • كانت حقيقة أنه يستطيع في يسر أن يضع حــــدا لكل لبس ، تجعله يتردد كأنما يخشى أن تبرز مشاكل أخرى مجهولة ، أكبر من مشاكله السابقة ، بمجرد أن يصل الى غرضه الذى تاق اليه بكل طاقة انفعاله •

واستدعى ايون خلال هذه الفترة ذات يوم على وجه السرعة ليمثل أمام محكمة أرماديا • وانطلق الى هناك على الفور دون أى اعتبار ودون نصيحة من أحد ، بنفس شعور اللامبالاه الذى ذهب به الى المحكمة لأول مرة في قضية سيميون لونجو • لم يكن يعبأ بما يمكن أن يحل به • لقد نجحت خطته واقتربت سعادته ، وليس عليه سوى أن يمد يده ليجنى ثمار تعبه •

واستجوبه سيد بدين قوى البنية ، لا يعرفه من قبل ، يرتدى نظارة سوداء ووجهه مستدير كالقمر ، عمن كتب له شكواه ضد القاضى • فأجاب ايون على الفور دون أدنى تردد أن هرديليا هو الذى كتب هذه الشكوى له •• ولم يدرك الا بعد أن انتهى كل شيء ، بعد أن رأى الأب بلكيوج يجلس في جانب الى جوار القاضى الذى تهيج غضبا ، لم يدرك الا في هذه اللحظة أنه قــد تسرع في اجـــابته أكثر مما يجب ، وتذكر أنه أقسم للمدرس أكثر من مرة ألا يخونه في أى ظرف من الظروف • وحاول لهذا أن يصلح مافعل فأضاف أنه قد ألح على هردبليا وتوسل اليه جاثيا على ركبتيه حتى رضخ المدرس لارادته • وكان السيد المجهول قد كف عن الاصغاء اليه ، وانشغل باملاء شيء باللغة الهنغارية الى سيد آخر كان جالسا أمام مكتب ، يكتب بأقصى سرعة • ثم سأله السيد الغريب ، الذى كان يتكلم الرومانية بطريقة رديئة ، بعد وهلة قصيرة ، ما اذا كان قد أعاد التفكير فيما فعل ، وعندما أجاب ايون بالايجاب أخبره السيد المجهول أن شكواه محض افتراء وكذب وأن عقوبته نتيجة لذلك قد تكون شهران لا أسبوعان ، بل انها قد تزيد ••• ولم يجب ايون وبدا على وجهه تعبير بعدم المبالاة • ثم اقتاده الحاجب الى خارج القاعة •

وتذكر الشاب مرة أخرى عندما خرج الى الشارع أنه ماكان ينبغى أن يذكر اسم هرديليا • ثم أخذ يفكر وهو يسير في الشارع أن السجون على أية حال قد صنعت للرجال ، وأنه يستوى أن يمكث الانسان فيها

أسبوعا أو شهرا • ثم اختفى الموضوع كله فى فيض الأفكار المتعلقة بأنا وفاسيلى باكيو وأرضهم التى ستصبح أرضه فى يوم من الأيام •

ولما كان ايون قد قلل من تردده على بيت هرديليا عما كان يفعل فى الماضى ، ولم يكن يذكر شيئا عن مشكلته مع أنا ، فان عائلة المدرس لم تعرف الا بطريق الصدفة ، وبعد أسبوعين من الواقعة ، أن ابن جلانيتاشو قد رفض الاستماع الى فاسيلى باكيو عندما حاول الأخير أن يستشف مقاصده بالنسبة للفتاة التى أســاء الى سمعتها • ولم تجد الآنستان والسيدة عناء فى اقناع هرديليا بأن من واجبه باعتباره مدرسا ورجل علم أن يتدخل باسداء النصح ، وبالتقريع اذا لزم الأمر ، الى « هذا الوغد الذى لم يعد يخاف الله أو الناس » واستدعى المدرس ايون على الفور وقد أحس بأهمية دوره • وأجاب ايون أنه سيحضر حالما يضع بعض العلف فى مزود « دومانا » •

وتمتم هرديليا الذى كان قلقا فى انتظار عودة ابنه : « من المؤسف الا يكون تيتو هنا ، فقد لاحظت أن له تأثير كبير على هذا الشاب المجنون•• ولكن تيتو المسكين غارق فى العمل فى جارجالاو ! نعم ، ان كسب العيش يحتاج الى عمل شاق وكثير من الجهد والعرق فى هذه الايام ! » •

وجاء ايون ، وماكاد يسمع الكلمات الأولى من هرديليا حتى اقشعر بدنه واحمر وجهه وبدا عليه الغضب ، وبعد ذلك بدقائق صرخ فى وجه هرديليا دون أدنى احساس بالخجل :

ـ لماذا بحق الشيطان لا تتركنى لحالى ؟ اننى لست طفلا ، أنا أعرف ما أنا صــانع وأعرف كيف أتصرف ! •• لا •• حقا ! لا أريدها أيها المدرس ، انى لا أريدها • انى أكلمك بصراحة ، لا أســتطيع أن أتحمل رؤيتها ، ان أنا لا تختلف فى شىء عندى عن ساحرة شمطاء عجوز • اننى أكرهها ، لا أريدها ، حتى لو أعطانى العم فاسيلى كل الارض فيما وراء حدود بريباس •• هل أنا المسئول اذا كانت بطنها تصل الى ذقنها ؟ هل أنا المسئول ؟ هذه هى ارادتها ، ولو لم تكن هى التى أرادته ماكان هذا قد جرى •• على أية حال ، لم أكن أنا الذى سألتها ، والله يعرف ••

وقف هرديليا مشدوها ، وجرت الفتيات الى حجرة الجلوس حتى لا يسمعن هذه الكلمات الشريرة • وكانت السيدة هرديليا هى الوحيدة التى احتفظت بهدوئها • كانت تغلى غضبا ولكنها كانت ماتزال تحاول أن تحتفظ بوقارها وأجابت :

ـ ألا تحس بالخجل أيها الشـــاب وأنت تحـكى لنـا نحن الناس المحترمون مثل هذه الأمور ؟ هل هذه كلمات رجل عاقل ؟ ان أحط الغجر لا يجرؤن أن يتصرفوا أو يتكلموا كما تفعل أنت ! أخلاق كريمة بالطبع.. اعتقدنا أنك أكثر شرفا وأكثر ثباتا من الفتيان الآخرين ، ولكنى الآن أرى أن الجميع قد تخلوا عنك .. كم هو صحيح المثل الشائع الذى يقول أن المرء لا يستطيع أن يصنع كيسا حريريا من أذن الخنزير !

وتدخل هرديليا محاولا أن يلطف الموقف ، وقد نسى قراره الذى اتخذه منذ البداية فى حسم عندما واجهه عناد الشاب :

ـ اتركيه ياعزيزتى . لا تكونى قاسية جدا . انه مازال صغيرا ولا يعرف مايقول . وحاول أن يهدئه ، مذكرا اياه أنه طالما كان يسمع نصائحه كانت أموره تسير على خير وجه ، وأشار بوجه خاص الى موضوع سيميون لونجو ، الذى كان من الممكن أن يؤدى به الى السجن حيث تتحطم عظامه ، لولا الشكوى التى كتبها باسمه وأنقذته .

ولم يكد المدرس يســـتطيع أن ينهى جملته . كانت لهجة التأنيب الرقيقة تكاد تخنق ايون ، الذى لم يستطع أن يغالب شعوره بالخجل من نفسه . ومع ذلك لم تكن لديه رغبة فى الاستسلام . وصاح اذ تذكر السيد المجهول فى المحكمة :

ـ انها لنصيحة رائعة أيها السيد المدرس ، بالغة الروعة . كان خيرا لى ألا تزودنى بنصحك . ليتك تركتنى أقضى أسبوعين فى السجن فى أمان ، بدلا من الشهرين أو ربما السنتين اللتان أتوقعهما الآن ! لقد عرفت كيف تجرى الأمور ، ولست أبله بالقدر الذى تعتقد .

فقال هرديليا مرتاعا لوقاحة الشاب :

ـ هذا اذن هو عرفانك بالجميل يابنى ؟ بعد أن توسلت الى ليلة بكاملها أنت وأهلك حتى لا أتخلى عنك ، تجرؤ الآن على أن تلومنى على ماصنعت من أجلك ! يبدو أنك قد نسيت أن الشكوى التى كتبتها لك قد أنقذتك من السجن ! .

ـ أنقذتنى ؟ هل أنقذتنى حقا ؟ من الخير لك أن تعترف باستغلالك لجهلى على نحو لم أكن أظن أنك قادر عليه ، لأنك لاتستطيع أن تنكر أنى تصرفت دائما بطريقة لائقة نحوك ، وليس هناك من تصرف أفضل منى . ولكن لندع الماضى لحاله . ومن الآن فصـــاعدا أنا أعرف ما أصنع ومالا أصنع ، وسأسير بما يمليه على عقلى على سبيل التغيير .. والآن عم مساء.

وترك المكان فى سرعة ، وصفق الباب خلفه ، وظل يغمغم بكلمات غير مسموعة أو مفهومة حتى بلغ المنزل •

وصعقت وقاحة ايون السيدة هرديليا نفسها ، التى لم تستطع أن تستعيد صوتها الا بعد فترة من الوقت ، فقالت :

ــ لقد جن هذا الرجل تماما •

وأمنت الفتاتان على وجهة نظر الأم ، وكانتا قد عاودتا الظهور ، ولكنهما لم تعرفا كيف تعبران عن غضبهما •

ولم تخف حالة الذهول التى اجتاحت منزل هرديليا حتى فترة متأخرة من الليل • انهم لم يسمعوا طوال حياتهم مثل هذه الوقاحة من فلاح •• وزاد من غضبهم أن ايون هو الذى أبدى استهانته بهم ونكرانه للجميل • ولأنهم أحبوه جميعا فى الماضى فهم الآن يتنافسون فى تعنيفه • لقد اعتبرته العائلة فيما مضى كأنه أحد أفرادها ، باعتباره أكثر تهذيبا ويقظة من سائر فتيان الفلاحين الآخرين • وكان هرديليا فخورا بأن ايون كان تلميذا له ، وكان يثنى عليه فى كل مكان • حقا ، لقد كان ايون نفسه مستعدا لتقديم أية مساعدة فى أى وقت ، ولم يرفض مطلقا أن يذهب الى جيدوفيتسا وأرماديا اذا ماطلب اليه ذلك ، أو أن يقطع بعض الأخشاب للمطبخ •• وخلال أمسيات الشتاء الطويلة عندما كانت رتابة الحياة فى القرية تبعث الملل القاتل فى سكانها ، وعندما كان هذا الملل يدفع القرويين الى النوم مبكرا كالدجاج ، كان جلانيتاشو الصغير يقضى ساعاته مع عائلة هرديليا يسمع الحكايات أو يحكيها أو يغنى أو يلعب الورق •• حتى السيدة هرديليا التى لم تكن تخفى مطلقا احتقارها للأغبياء ، وهو اللفظ الذى كانت تطلقه على الفلاحين ، كانت تتكلم مع ايون كأنه ند لها ، وخاصة لأن ايون كان دائما مؤدبا ومحترما • وهاهو الآن ايون هذا ، تبلغ به الوقاحة حد الصراخ فى وجه المدرس وتهديده !

وقالت جيجى فى لهجة مشاكسة :

ــ لو أن تيتو كان هنا فأنا واثقة أنه كان سيصفعه على وجهه •

وكان هرديليا قلقا أكثر منه غاضبا لكلام ايون • فقد صدمته ملاحظة ايون عن الشكوى الموجهة ضد القاضى بصورة خاصة •• كان الشك ينهش قلبه كالشوكة • هل يمكن أن يكون هذا الأبله قد كشف عفوا عن شخصية كاتب الشكوى ؟ •• لم يكن قد رأى جيتسا بوب كاتب المحكمة منذ بعض الوقت • ولكنه كان يحس أن لجنة التحقيق لابد أن تكون قد

وصلت الى أرماديا وأن يكون ايون قد استدعى أيضا الى هناك • وفى هذه الحالة ليس أمامه الا الكارثة •

وقالت لورا التى أضافت تشاؤما الى جديتها منذ خطوبتها :

ـ بل اننا قد نقع فى المشـــاكل نحن أنفســنا بسبب شكوى هذا المنحوس •

فقالت السيدة هرديليا وهى تداعب فمها وأنفها بيدها :

ـ ينبغى ألا تنتابنا الدهشة على الاطلاق ، فلابد أن يتوقع المرء من الأمور أسوأها من أمثال هذا الأبله •

وقال هرديليا :

ـ هراء ! فالشيطان ليس أسود اللون كما يصورونه • قد يكون ايون عابثا مستهترا ولكنه ليس وغدا سافلا ! مامن أحد يعلم مايعانيه من متاعب ، وعندما تصيب المتاعب انسانا فهو يقول أكثر مما يعنى !

ورغم أن قلبه كان معذبا بالمخاوف وتوقع الكارثة ، فقد حاول أن يبتسم ويلقى النكات ويقنع العائلة أنه ليس هناك مايدعو للخوف •••

ونامت بنات المدرس وزوجته نوما عميقا كمـا ينـــام الاطفال بعد الاستحمام بعد ليلة حافلة بالتوتر والغضب • أما هرديليا فلم يجد راحة فى نومه وأخذ يتقلب طوال الليل • وظلت عيناه المذعورتان مفتوحتان ، وحاول دون جدوى أن يبدد الرؤى التى خيمت على ذهنه كأنهـا كابوس فى الظلام •••

ـ ٣ ـ

كان الأب بلكيوج الذى ورد اســـمه كمتهم مع القاضى فى عريضة اتهام ايون قد استدعى ليمثل أمام اللجنة التى يرأسها المدعى العام لمحكمة بيستريتسا ليدلى بمعلوماته حول الموضوع • وأجاب على كل الأسئلة بابتسامة ورعة ، مدركا أنه لا لوم عليه ، فهو طاهر الذيل كزهرة برية بيضاء • وكان حريصا ألا يبدى أى علامة على استيائه من أى انسان ، رغم أن قلبه كان يفيض بالسخط على ايون الذى تجاسر على ارسال هذه الشكوى ضده • وكانت مهمته بسيطة للغاية ، فلم يكن عليه سوى أن يكرر البيان الذى أعلنه فى القضية مبرزا أن بلانيتاشو الصغير عنصر خطير على النظام العام فى قرية بريباس ، وانه يحتاج ، بالفعل ، لصالح المجتمع ، الى هزة تعيده الى صوابه ، واختتم كلامه بقوله :

ـ لست محاميا ، ولهذا لا أستطيع أن أتكلم الا كرجل عادى • ورغم هذا فقد قدرت ومازلت أقدر اليـــوم أن رئيس المحكمة لم يكن قاسيا بالدرجة الكافية مع هذا المنحرف ••• وأفضل دليـــل على أن التهديد بالعقوبة فشل فى احـــداث الأثر المطلوب على المعتدى هو أن صاحب الشكوى أصبح بطلا لفضيحة لا مثيل لها فى القرية ، فضلا عن أن الشكوى نفسها ليست الا جريمة قذف وقحة ••

وعندما عرف الكاهن من شفتى ايون أن هرديليا هو صاحب الشكوى استشاط غضبا وراح يفكر : « هذه هى أعلى درجة من النفاق ! فهذا الرجل يأتى الى بيتى فرحا مهللا ويدعونى الى حفل خطوبة ابنته ، ثم بعد ذلك يجرجرنى أمام المحكمة ! لقد أصبحت الامور واضحة •

وأصبح الآن جليا أن المدرس عدو له ، ولهذا اعتبر نفسه فى حل من أن يرد له ضرباته ، بل وأكثر من هذا أن يوجهها فى وقت لا يتوقعها هرديليا فيه • وقرر مع نفسه : « اذا كانت المسألة أن يؤذى المرء جيرانه، فسوف أريه اذن كم هى سهلة هذه المهمة ! »

وكلما تعمق اقتناع الكاهن بأن هرديليا هو المجرم الأساسى كلما وجد ظروفا مخففة فى صالح ايون وكلما أحس أن ايون ليس الا ضحية مؤامرات المدرس • وأحس بالأسى من أجله وندم على أنه قد شهد ضـــد هذا الفتى المسكين • واستمر يقلب قضية ايون فى رأسه ويفكر فى شأنه بعطف متزايد • لماذا قسى عليـــه بلا رحمة الى هذه الدرجة ؟ واذ درس المسألة دراسة أدق ، اضطر أن يعترف بأنه قد أخطأ عندما حرض سيميون على أن يشكو ايون • نعم ، نعم ، لقد تسرع أكثر مما يجب ، لأن ايون كان على حق فى النهاية • ولذلك يجب عليه أن يحاول اصلاح خطئه وأن يفعل شيئا ليساعد هذا المسكين السىء الحظ • ولما كان مطلعـــا تماما على كل تفاصيل النزاع بين ايون وفاسيلى باكيو ، فقد انتوى أن يجمع بينهما ، فيقنع ايون بأن يتزوج من أنا • ويقنع باكيو بأن يقبل ما يقترحه ايون بشأن البائنة • فهو اذا نجح فى هذه المهمة ، انما يبدد سحابة العار التى خيمت على القرية بسببهما • حقا لم تكن أنا أول أو آخر فتـــاة ارتكبت خطيئة ، فهناك عديد من القرى فى وادى سومش شهدت زيجـات كثيرة كانت العرائس فيها تذهبن الى العرس وفى يدهن طفل • أما فى بريباس فلم يعد هناك أطفال يولدون بغير زواج منذ أصبح راعيا للقرية • حقا لقد اخطأت الفتاة وعليها يقع اللوم ، ولكن ليس من حق انسان أن يقتل آخر لأنه وقع فى خطأ • ان مثل هذه القسوة عمل غير انسانى • وقد انتشرت

قصة الضرب الذى يلحق بها كل يوم ويسبب لها كدمات سوداء وزرقاء فى القرى المجاورة ٠٠

وأخذ الكاهن يعيد النظر فى خطته بعض الوقت ، فلم يكن يريد أن يتسرع مرة أخرى ، حتى لا يلوم نفسه فيما بعد ٠ وبمرور الوقت بدت له الخطة أكثر دقة وروعة ٠ وأيقن أن هرديليا سوف يغيض لونه غيظا عندما يعرف أنه حتى ايون جلانيتاشو ، الاداة التعسة لمؤامراته ، قد ذهب الى القس ليجد ملاذا لروحه ٠ بل وأكثر من هذا سيكسب ثقة فاسيلى باكيو، علاوة على العرفان بالجميل من قبل ايون ٠ لقد أنهك فاسيلى حتى صار كالشبح بسبب ما لحق بابنته من عار ، وسيسعده أن تتزوج حتى من ايون جلانيتاشو ، رغم أنه كان يدق صدره ويقسم أمام الله أنه لن يسمح بزواجها من ايون مهما كانت الأحوال ٠ وأحس بلكيوج بوخزة من ضميره لدى تذكره لهذا ، فقد أسهم هو أيضا فى اثارة باكيو ضد ايون محذرا اياه من أن يدمر سعادة الفتاة باعطائها لوغد سكير ٠ وفى النهاية أمل الكاهن فى أن يساعد هذا الصلح أيضا فى عملية بناء الكنيسة الجديدة ، فقد كانت أعز أمانيه أن يرى مزارا مقدسا من الأحجار يصعد فى شموخ وهيبة، بدلا من الكنيسة القديمة التى أبلاها الزمن فأصبحت غير جديرة به وبالقرية ٠ لقد كان يجمع طيلة السنوات العشر الماضية قرشا بعد قرش، فى حماس متزايد ، مساهما من جانبه بكل دخل الكنيسة تقريبا ، ويقتصد ما أمكنه ذلك حتى يرى حلمه وقد تحقق ٠ وقد بدأت حملة بناء الكنيسة بقائمة تبرعات ، دار بها على كل قرى ترانسلفانيا اثنان من أبرز المزارعين، هما توما بولبوك وستيفان هوتنوج ، وقد تزودا بتصريح من المطران ٠ ولما كان المبلغ اللازم كبيرا فقد حاول بلكيوج أن يحمس الفلاحين ويدعوهم الى تقديم تبرعات لبناء الكنيسة فى كل مناسبة ، وخاصة فى حفلات الزواج والتعميد والجنائز ٠٠ ومن سوء الحظ أن المصلين كانوا أكثر عزوفا عن تقديم أموال للكنيسة من الراعى نفسه ، ولذلك لم تبدأ المحادثات مع مشاهير المهندسين فى بيستريتسا الا فى هذه الأيام بعد مرور سنوات طويلة ، ولم يتأكد بعد ما اذا كانت الأموال التى تم جمعها ستكفى ٠٠٠ وكان بلكيوج فى أحلام يقظته الورعة يرى الكنيسة الجديدة تحلق فى السماء فى ظفر ، معلنة للعالم كله عن المحاولات المجيدة لأحد كهان الله المتواضعين ٠ ورأى فى أحلامه أيضا كنيسته القديمة الصغيرة ، على ما بها من تواضع وبساطة ، وقد انتقلت الى قرية ساسكوتسا ، حيث زاد عدد السكان الرومانيين ، الذين لا يجدون مكانا يصلون فيه فى قريتهم ،

فيأتون فى أيام الأحاد الى بريباس ليحضروا الصلاة ٠٠ فليعطه الله القوة ليستمر فى عمله ، ويبعث النور والهداية فى أرواح الناس ٠

وطلب من العمدة فى يوم الأحد التالى ، قبل صلاة الصباح ، أن يدعو فاسيلى باكيو ليأتى اليه بعد الظهر ومعه أنا ، كما طلب الى خفير القرية أن يحضر ايون ومعه جلانيتاشو وزنوبيا ٠ لم يرد لأى من الجماعتين أن يعرفوا لماذا أرسل فى طلبهم ، أو أنه دعا الآخرين للحضور ٠ وفكر بلكيوج وهو يعقد يديه ثم يفكهما فى عصبية : « ان كل طرف منهما ثائر ضد الآخر ، حتى أنهم قد يرفضون الحضور ، على حين أنهم اذا التقوا وجها لوجه فى بيتى فمن المستحيل الا يصلوا الى اتفاق ! » ٠

وكان فاسيلى باكيو وابنته أول الحاضرين ٠ وكان فاسيلى منتشيا بعض الشيء ، اذ كان قد شرب زجاجة صغيرة من البراندى قبل أن يبلغه العمدة رسالة الكاهن ، وكانت أنا منتفخة العينين من كثرة البكاء ، تحاول دون جدوى أن تخفى بطنها المنتفخ فى تحد ٠ وطلب القس الى الرجل أن يجلس ، بينما بقيت الفتاة واقفة بجوار الباب ، وقد ثبتت عيناها فى الأرض ٠

وبدأ بلكيوج حديثه قبل أن يجد باكيو فرصة لالتقاط أنفاسه ، فقال له أنه من الخطأ أن يضرب ابنته بلا رحمة ، وأن القرية كلها أصبحت تحتقره لهذا العمل ، وأضاف أن المرء يجب ألا يفقد عقله حتى عندما تواجهه المصائب ، ورغم أن آنا قد أخطأت ، فمن الممكن اصلاح الأخطاء متى توفر حسن النية ، وأن العناد هو مصدر كل الشرور ، وأن ايون ليس غجريا متشردا ، ولكنه شاب مجتهد ذكى ، ورغم أنه لا يمتلك ثروة ، فهو أجدر من كثيرين بأن يكون زوجا لابنته ٠٠٠ وانفجرت أنا باكية بينما أجاب فاسيلى باكيو وفى صوته مرارة وأسى :

ـ ان هذا يسعدنى كثيرا يا أبى ! ألم أحاول بكل الطرق الوصول الى هذه النتيجة ؟ لقد توسلت اليه ، أنا الرجل العجوز ٠٠ ولكنه لم يحاول حتى أن يصغى الى ٠ لقد رفض أن يتزوجها وهو لايستمع الى صوت العقل ٠ لقد أساء اليها ، وهو الآن يعذبنا ٠٠ لقد فعلت كل ما أستطيع ، فماذا أستطيع أن أفعل بعد ذلك ؟ أنت رجل طاهر وعادل وحكيم ٠ قل لى ماذا أفعل وأنا مستعد لتنفيذ ما تقول ٠

وجرى الكاهن بأصابعه فى شعره وقد سرته اجابة الفلاح ، وتهيأ لاسداء النصح للرجل بألا يكون بخيلا مقترا ، لأن ما سيقدمه لهما سيكون

في صالح ابنته لا في صالح الغرباء ، ولكنه ســمع وقع أقدام في غرفة الانتظار الملحقة ، وتلاها صوت طرقة خفيفة على الباب • وقال الكاهن في سعادة على الفور :

ـ أدخل •

وفتح جلانيتاشو الباب في وداعة واحترام ، ثم دخل وخلع قبعته المصنوعة من الفرو ووضعها الى جوار الموقد ، بينما دخلت زنوبيا وايون في شجاعة أكبر وألقيا بالتحية • وأبدى ثلاثتهم دهشة عظيمة عندما رأوا باكيو وأنا رغم أنهم كانوا قد حدسوا ، مثل الآخرين ، سبب دعوتهم • وصافح بلكيوج كلا من جلانيتاشو وايون ناظرا الى فاسيلي باكيو بما يفيد تقديره الكبير للشاب • ثم قال لايون في صوت رقيق مغلفا لومه في صيغة السؤال :

ـ لقد سمعت، ، رغم أني لا أستطيع أن أصدق ، أنك لا تريد أن تتزوج من هذه الفتاة المسكينة ، رغم أنك تعرف بأن الخطأ خطؤك وأنك تتخلى عن واجبك كمسيحي ••• ان هذا ليس سلوكا لائقــا يا ايون ! فالفتاة ليست قبيحة ، وليست فقيرة ، وليست بلا أصل • هل أنا محق فيما أقول ؟ •• وأنت شاب شريف وقادر وذكي •• كيف حدث كل هذا اذن ؟

وأجاب جلانيتاشو بدلا من الشاب وقد راح يحك أذنه ، وثبت عينيه على فاسيلي باكيو :

ـ كيف هذا يا أبي ، الولد يرغب في الزواج • ثم أضاف بعد لحظة « انه بالطبع يرغب في ذلك • » وتوقف مرة أخرى كأنه لم يجرؤ أن يكمل جملته ، بينما طأطأ ايون رأسه بايماءة قصد بها أن تعني أنه يريد بالفعل أن يتزوج الفتاة •

وأعقب ذلك صمت طويل ثم بدأ فاسيلي وايون وجلانيتاشو يتكلمون جميعا فجأة في نفس الوقت • وأوقف الكاهن فيض الكلمات بأن رفع يده، وقال لهم في صوت عطوف وابتسامة ورعة مهدئة على شفتيه :

ـ من أجل هذا أرسلت في طلبكم ! ان الأمر الآن بين أيديكم للوصول الى اتفاق كأناس شرفاء • ان العراك لا يصلح الا بين الغجر •

وجلس بلكيوج الى المنضدة في هدوء ، ورفع عينيه ناظرا اليهم في انتظار أن تبدأ بينهم المساومات ، واستمرت الابتسامة الطيبة على وجهه•

ووقف الرجال ينظرون اليه فى ارتباك ، كأنما رأوا فيه ملاذهم الوحيد. وظلت زنوبيا تتنهد وتنظر الى السـقف ، وهى تريد بذلك أن تعبر عن احساسها بكل جدية هذه اللحظة . بينما قبعت أنا فى ركن وقد انهكها الخجل ، وكتمت نشيجها ، وحاولت أن تبدو أقل ما تكون فضـولا ، وأن تخفى بطنها بذراعيها المعقودتين ، وبين الحين والحين تنسكب من عينيها دمعة ساخنة .. وكان صوت دقات المنبه المنبعثة من فوق الصوان ، حادا مسموعا بوضوح . واختفى بضع لحظات غارقا فى ضجيج عربة كانت تمر فى الطريق .. ثم رن صوت فاسيلى الجاف الخشن فجأة على غير انتظار ، فبدد السكون الذى ران على الغرفة كأنه روح العداوة البكماء ، فأدار الجميع رؤوسهم نحوه كأنهم خائفون ، قال فاسيلى :

ـ لا اعتراض لدى على الاطلاق يا أبى . انى أهبه ابنتى .. ها هى ذى ! ليأخذها وليباركهما الله !

كسرت كلماته حالة الترقب الثقيل . وتململ ايون فى مقعده وسعل سعالا جافا قصيرا ، وثبت عينيه على ساقى الكاهن اللتين امتدتا تحت المائدة وبدا نعلاه وقد راحت قطرات ماء متسخة تسيل فوقهما من قطعة من الوحل علقت بحافتيهما ، وأخيرا قال ايون بهدوء :

ـ وأنا أيضا ليس لدى اعتراض ، فليعاقبنى الله اذا كنت أعترض. كل ما فى الأمر أنى أريد أن أعرف ما الذى سأحصل عليه وماذا سيعطينى .. هل أنا محق يا أبى أم لا ؟

كانا كلاهما يتحدثان الى الكاهن ، فلا ينظر أحدهما الى الآخر . واذ كانت أنا لا يلحظها أحد ، فان أحدا لم ير قبس الضوء الذى أشرق فى عينيها وراح يطارد ما فيهما من رعب مع كل كلمة تفـاهم كانت تقرب الرجال بعضهم الى بعض .

وأضاف باكيو فى صوت أكثر حسما ، ونظرته مثبتة على بلكيوج :

ـ يستطيع أن يأخذ الفتاة الآن . وعندما أموت سـيأخذون كل ثروتى . من المؤكد أنى لن آخذ شيئا معى الى العالم الآخر . ولـكننى لا أستطيع أن أعيش مفلسا ما دمت حيا ، حتى أتسول فى شيخوختى .

فهب ايون واقفا وأجاب فى حماس :

ـ وماذا أفعل بالفتاة أيها العم فاسيلى ؟ قل لى ماذا أفعل بها ؟ هل

لدى ثروة مثل ثروتك ، وهل لدى أرض مثل أرضك ؟ أم ترى هل تريد أن نؤجر أنفسنا لخدمة الآخرين حتى لا نموت جوعا ؟

فصاح فاسيلى باكيو :

ـ أعمل وأنت تكون ثروة !

ـ أهذا ما تعتقده ؟ .. ألم أكن أعمل حتى هذا الوقت ؟ ألم أنهك نفسى حتى آخر رمق طيلة حياتى كلها ؟ الله يعلم أنى لم أكن أضيع وقتى هباء ! فماذا جنيت مقابل كل هذا الجهد والعمل ؟ اننى عار تماما من كل شيء مثل اصبعى هذا .. وها أنت تريدنى أن أطعم ابنتك أيضا ! ألا يكفينى أن أطعم هذين الاثنين ؟ وأشار الى أبيه وأمه اللذين أومآ بنظرة قانطـــة كسيرة ، حتى يرق لهما قلب فاسيلى ويعينا ابنهما على مساومته .

ـ لتفهم جيدا أننى لن أعطيك قشـــــة واحدة مادمت حيا ! لنكن واضحين فى هذا الموضوع . لن أعطى قرشا واحدا ولا شبرا واحدا من الأرض . أفضل أن أقتلها وأدفنها على أن أعطيك شيئا ، فسوف أعرف عندئذ على الأقل أننى قتلتها لأنها لم تصن شرفها ولم تعمل بنصحى . وهذا هو رأيى النهائى !

فأجاب ايون وهو يدير قبعته فى يده :

ـ اذا كان هذا هو رأيك فلماذا تكبدنا مشقة الحضور وازعاج الكاهن الموقر . وتململ فى جلسته كأنه يريد النهوض ثم كف كمن عاود التفكير قبل أن يكمل حركته .

خشى بلكيوج أن تحبط خطته ، وود لو استطاع أن يتدخل لتهدئة الجو ، ولكنه لم يعرف كيف يستطيع . وتنحنح علامة على أنه يريد أن يقول شيئا . ومرة أخرى خيمت سحابة من الصمت على الحجرة ، لا يداخلهـــا الا صرير المقاعد الذى ينم عن توتر الجالسين .. وقبل أن يجد الـــكاهن فرصة للكلام ، كان فاسيلى باكيو قد انفجر ثانية قائلا :

ـ اذا كنت قد فكرت أن تعبث بابنتى لتجردنى من أرضى ، فقد خاب صنيعك . فلست بالرجل الذى تجوز عليه هذه اللعبة .. لا يا بنى ! لا ، حقا .. أنا أعرف أنك تود ذلك .. ولـــكنى .. لست الرجل الذى يمكن أن تستغفله . لا يا ايون .. لا . فالله والسيدة العذراء المقدســـة لا يرضيان عن هذا !

وانطلق ايون وزنوبيا وجلانيتاشو على الفور فى احتجاجات غاضبة، وأغرقوا توسلات الكاهن بأن يحتفظوا بهدوئهم • الآن فقط ذاب الجليد، واحتدمت المناقشة التى استمرت نحو ساعات ثلاث ، تقرب بينهم حينا ، ويوشكون على العراك والتضارب حينا آخر ، ثم لا يلبثون أن يهدءوا بعد لحظة أخرى • وظلت أنا وحدها لا تنطق بكلمة ، تتنهد طوال الوقت كأنها سجين يحاكم وينتظر الحكم •

ووافق فاسيلى فى النهـــاية على أن يعطيهم خمس قطع من الأرض وزوج من الثيران ، على أن تسجل الأرض باسم أنا • وأصر ايون على أن يصبح مالكا لكل شيء ، زاعما أن باكيو لم يعد قادرا على أن يرعى أرضه ، فقد تقدمت به السن • وأكد أنه فى مقابل تنازل فاســـيلى عن أملاكه سيتولى أمره ويقوم برعايته ويخضع دائما لكل توجيهاته •

وعندما وصلت المناقشـــة الى هذا الحد هب بلكيوج منتصرا • كان البدء فى المساومة صعبا • أما الآن فقد شعر أنهم سيصلون الى اتفاق فى النهاية ، مهما طال وقت المشادة بينهم • وكان الوقت قد تأخر ، ولم يصلوا الى اتفاق بعد ، وبدأ الارهاق ينتابه من هذه المناقشة ، وعلى ذلك ادن لهم فى الانصراف ليستكملوا مساوماتهم فى البيت ، ثم صافح الرجال وقال لهم باسما :

— حسن ، لنأمل أن تأتى العواقب سليمة ، وعند الزفاف لا تنسوا الله فى السماء وكنيسته على الأرض •

واستمرت المشادة بين الطرفين بحماس أشد أثناء الطريق • وراح كل منهم يهدد الآخرين ويتوعدهم • وكانوا يتوقفون فى منتصف الطريق، ويلوحون بأيديهم ، ويهمس بعضهم فى أذن البعض ، ولكن لم يحدث أى تقدم • وعندما وصلوا الى بيت فاسيلى باكيو ، كان كلا الطرفين يرغب فى التنازل بعض الشيء حتى ينتهوا الى اتفاق ، ولكن كل طرف عاود التفكير وأمل فى أن تأجيل المناقشة قد يحقق له مزيدا من الكسب • وكانت أنا وحدها هى التى ترغب فى حسم الأمور دون ابطاء • وظلت ترتعش وتنظر فى ضراعة الى أبيها حينا ، والى ايون حينا آخر ، وخشيت أن يفترقوا دون أن يحسموا مصيرها ، ويضعوا حدا لعذابها • ولكن أباها وايون افترقا وكل منهما يقسم أنه قد قدم آخر ما عنده من تنازلات ، وأن على الآخر أن يرضى بها ، والا فلن يلتقيا ثانية ••

وكان فاسيلى باكيو يكاد يختنق اجهادا ، وحتى يخفف عن نفسه ، تصيد خطأ وقعت فيه أنا وأخذ يضربها حتى سال الدم من أنفها وفمها ••

وظلت الأفكار السوداء تؤرقه وتعذبه طوال ليله واليوم التالى • لقد فهم الآن بوضوح أن الأمر كما خمنه تماما منذ أن سمع أن ايون يجرى وراء ابنته ، ويحاول أن يدير رأسها : « خلاصة القول هى أنه يريد أن يضع يديه على أرضى ! » وظهرت قطرات من العرق البارد على جبهته عندما فكر أنه سيضطر فى النهاية الى التسليم ويعيش على ما قد يتفضل به ذلك المعدم عليه •• وراح يعتصر تفكيره ليجد مخرجا ينقذه من براثن هذا اللص ، وكان عزاؤه الوحيد أنه قد يصل الى حيلة يخدع بها ايون • ولم يستطع رغم كل محاولاته أن يصل الى أقل فكرة تنقذه • فكر أن يهدد ايون بأنه سيجعل أنا تضع مولودها وألا يسمح لها بالزواج مطلقا • ولـكنه أحس أن هذا التهديد غير مقنع ، وأنه هو نفسه لا يصدقه ؛ فكيف يعقل أن يصدقه ايون ؟ ان مثل هذا التهديد كفيل بأن يجعله أكثر ضراوة •

أما ايون فكان مرحا راضيا • وكان واثقـــا من أن فاسيلى باكيو سيمنحه فى النهاية كل ممتلكاته ، حتى أنه أخذ يرسم علامة الصليب على صدره ويشكر الله أن ساعده على بلوغ مأربه • وفى الساعات الأولى من فجر اليوم التالى قام ايون بجولة فى الحقول ليتفقد أرض حميه المقبـــل ويحدق فيها عن كثب ، فقد أصبح يعتبرها ملكا له • وعند الظهر تعارك مع والده الذى حاول أن ينصحه بألا يتشدد الى هذه الدرجة ، وأجاب الشاب أباه بازدراء :

ـ خير لك أن تعمل أنت بدلا من أن تعلمنى ماذا أصنع • انك أسوأ من متطفل يأكل نعمة الله دون أن يقدم شيئا !

وفى المساء ذهب ايون الى بيت فاسيلى باكيو مصطحبا معه أمه ، وفلوريا زوجة ماكيدون سرسيتاشو وحماة العمدة ، وكانت متخصصة فى اعداد الزيجات ومسألة البائنة • وكان فاسيلى من جانبه يتوقع حضـــور ايون ، بل انه قد دعا فيروانا ، وزوجة المغنى سيميون بورتونوى لتساعداه على صد الهجوم • وأعدت أنا دنا من البراندى ، لأن قطرة من الخمر تفك عقدة اللسان وتلين القلب • وبدأت المناقشة مرة أخرى من البداية بحماس وحمية أشد ، وكان كل طرف يأمل أن يخدع الطرف الآخر قدر الامكان• وقامت النساء بالنصيب الأوفر من الكلام ، يثرثرن مثل الغجريات ويقدمن الســـباب والاساءات كبديل عن البراهين والحجج ، يشتمن ايون وأنا وجلانيتاشو وباكيو وكل اقربائهم المعروفين وغير المعروفين •• وبدلا من أن تقرب المناقشة بين الأطراف المتنازعة ، سارت الأمور الى أسوأ ، وعندما افترقوا كانوا قد قرروا أن يقطعوا كل مناقشة فى المستقبل ، وان كان

هذا لم يمنعهم — بطبيعة الحال — من أن يتقابلوا ثانية بعد بضعة أيام ، ويتعاركوا مرة أخرى دون أى نتيجة ٠

واستمرت هذه المشاحنات حتى الصوم الكبير ، وكان هذا يعنى أن الزفاف لن يتم على أية حال الا بعد عيد الفصح ، وعلى هذا تشبث فاسيلى باكيو بموقفه فى عناد أكبر حتى يكسب وقتا يبحث فيه عن خطة يخدع بها زوج ابنته ٠ ولم يكن ايون بدوره متعجلا ، وقد ضحك ملء شدقيه عندما حاول فاسيلى أن يخيفه بقوله أنه لن يزوجه أنا ٠٠٠

وذات يوم لطيف قبل عيد الفصح باسبوعين توصلوا الى اتفاق خلال نصف ساعة ، مما حدا بايون أن يعجب ، ماذا أصاب فاسيلى حتى جعله يتساهل على هذا النحو ٠ فقد وافق على أن يعطيه كل أرضه وبيته كبائنه، بشرط واحد هو أن يتم تسجيل هذه الممتلكات بعد الزفاف باسم ايون وأنا ٠ وفى هذه الحالة ستنتقل أنا بعد الزواج الى بيت جلانيتاشو ومعها قطيع من الثيران ، وحصان ، وبقرة ، وعجل ، وخنزيرة ولود ومعها سبع خنازير صغيرة ، وعربة جديدة وأشياء نثرية أخرى مما تحضره العروس أو الزوجة عادة ٠ وفى نفس هذا اليوم ذهبا سويا الى كاتب القرية ، لانهاء الاتفاق من الناحية الشكلية ، ثم ذهبا الى الكاهن ليعلن عن الزواج فى الكنيسة ، حتى يتم الاحتفال بالزفاف يوم الأحد الثانى بعد عيد الفصح ٠

ومنذ تلك اللحظة عاش فاسيلى باكيو فى حالة من التوتر ، كأنه هو نفسه العريس ٠ وكان يفرك يديه طوال يومه عاجزا عن أن يخفى قلقه ٠ وخشى أن ينزلق لسانه بكلمة فى سكره تفتضح بها خططه ، فكف عن الذهاب الى حانة أفروم ولكنه كان يشرب فى بيته أكثر وأكثر ٠ كان الوقت بالنسبة له يمر فى بطء شديد ، وتملك قلبه خوف متزايد من أن يتسبب انسان أو شىء ما فى احباط خططه ٠

- ٤ -

أحس تيتو كأنه رجل جديد بعد زيارته للكاهن الرومانى ، فأصبح أهدأ عقلا وأنقى روحا ، وأخذ يفكر طويلا فى حياته السابقة ووجدها جدباء مشينة ٠ وأحس كأنه قد تجول فى العالم وعيناه مغلقتان لايرى شيئا، وبدا له الآن أن سروره بالتكلم باللغة الهنغارية شىء بالغ السخف ٠ ثم ماقيمة

كتابته الشعر اذا ما كانت روحه خاملة جامدة ؟ وما فائدة أن يقرأ كل شيء يقع في يده ، ويحشو عقله بأفكار الآخرين ، اذا كان لا يسمع أو يرى ما يحدث حوله ؟ لماذا يؤلف المسرحيات والمآسي من أجل المجد وحده ، بينما تتكشف امام عينيه مأساة أمة بأسرها ، وهي أكثر اثارة للروح في صمتها من أي عمل من أعمال الخيال ؟ وكان يقول لنفسه في زهو في لحظات النشوة : « ان واجبي أن أعيش في غمار هذه الأمة منكودة الحظ ، لأخفف آلامها وأعبر عن أحزانها ، وأمنحها مساندتي ! »

كان تيتو يتقلب في ساعات المساء على الأريكة التي كانت بمثابة سرير له ، ويتاخر في اضاءة المصباح ، ويكون في عقله خططا للمستقبل، عشرات من الخطط ، وكل منها أكثر بطولة من الأخرى • وكان يتصور نفسه أحيانا وفي يده شعلة ، يسير على رأس جمع من الفلاحين ، يقودهم في معاركهم من أجل الحرية ، وكان احيانا أخرى يرى نفسه وقد راح يتجول من قرية الى أخرى ، يواسي هذا الشعب المنكود الحظ ، يعلم الناس أن يعيشوا حياة أفضل ، ويشعل في قلوبهم شعلة الأمل في مستقبل أفضل، أو يقود فصيلة من الجنود ، والعلم الروماني المثلث الألوان يخفق في الهواء فوق هامته •• وكان يصور لنفسه العذابات التي سيتحملها في شجاعة من أجل أمته ، واكثر من مرة كان يحلم بأنه في سجن مظلم ، مقيدا بالأغلال ولكنه سعيد راضي البال ، مدرك أن استشهاده سيحقق النصر النهائي لشعبه •• وكانت هذه الأحلام الذهبية تملأ قلبه بنشوة رائعة الى أقصى حد •••

وكان أثناء النهار يضحك من الأوهام التي تبعث النشوة في نفسه، كما يضحك من هذيان الحمى وكان يقول لنفسه أنه يجدر به أن يفعل شيئا ملموسا بدلا من أحلام اليقظة • ان كل خططه وقراراته لا تساوي خردلة ، ما لم يضعها موضع التطبيق • وأحس برغبة في أن يبدأ على الفور، وسخط على نفسه لأنه لم يكن يدري ماذا يصنع • أحس تحت أجنحة روحه أن عبئا ثقيلا يثقل قدميه • وأسعده أن راح يفكر في قطع كل علاقاته بكل المجريين ، وألا يتحدث من الآن فصاعدا سوى اللغة الرومانية • وشعر بكراهية شديدة للوظيفة التي يقوم بها ، اذ كان عليه أن يكتب الأوراق الرسمية باللغة الهنغارية •

ولم ينس روزا لانج رغم هذا كله ، بل فكر أيضا أين يضعها داخل هذا الاطار الجديد لحياته دون أن يؤثر هذا في أحلامه • وأخجله أن يذكر أنه قد أعلن لها عن حبه باللغة الهنغارية ، وأن حبه الأول كان لامرأة

مجرية · وكان يعزى نفسه بقوله أن روزا قد تكون يهودية مثل زوجها ، وفى هـذه الحالة ليس هناك ما يعيبه على هـذا الحب ، لأن اليهـود ليست لديهم مشاعر قومية · واذ كانت قد مرت أسابيع كثيرة منذ أن افترقا ، لم يعد يصبو اليها بنفس حنينه القديم ، ومع ذلك كان واثقا من أنه عندما يراها ثانية سيحبها بهوس أكثر · ولهذا قرر أن حبه لها لا يتعارض مع خططه ، وان كراهيته للقاهرين لا تشمل نساءهم أيضا · وأقسم ، حتى يرضى ضميره تماما ، أن يعلمها اللغة الرومانية ·

أما وقد خط تيتو لنفسه ـ كما تصور ـ خطا جديدا فى السلوك، فقد أصبح فريدمان موثق العقود شيئا غير ذى بال بالنسبة له · كان ينظر اليه فيما بينه وبين نفسه باحتقار شديد ، ولا يرى فيه سوى كومة من اللحم · ولم يكن يأسف الا لأن الكاتب لم يكن واعيا بهذا التغير الذى طرأ عليه · فلو أنه لاحظه لأنبه على ذلك بالتأكيد ، الأمر الذى كان يرضى تيتو غاية الرضى · ولكنه استمتع بدلا من ذلك برد الفعل الذى أصاب الطالب العنيد ، الذى تهيج غضبا عندما امتنع تيتو عن التحدث باللغة الهنغارية، وأطلق عليه لقب « المتعصب » و « مثير الفتن » ·

وندم تيتو ندما شديدا لأنه لم يحاول حتى ذلك الوقت أن يتعلم ـ ولو من الكتب ـ شيئا أكثر عن رومانيـــا ، البلد الذى كانت أجنحة الخيال تحلق به اليه باستمرار · وأتعسه أنه لم يستطع أن يحصل على بعض الصور والبطاقات البريدية على الأقل من « جنة رومانيـــا » كما اسماها فى احدى مناقشاته مع الكاتب · وكان يعتبر أى مدرس رومانى مجرما ، اذا لم يأخذ موقفا ضد اضطهاد الحكومة المجرية ، واذا لم يعلم تلاميذه أن يتنسموا هواء بلادهم الحقيقية ·

ولما كان فريدمان قد سافر فى أنحاء رومانيا ، وقضى هنـاك بضع سنوات ، فقد ظل تيتو يناقشه ليعرف منه حقيقة الحياة فى تلك البلاد ، متجنبا أن يعترف أنه هو نفسه لا يعرف رومانيا جيدا على الخريطة · وكان يحس بألم شديد عندما كان فريدمان يحكى قصصه لأن فريدمان لم يكن يمل الحديث عن فقر الفلاحين الرومانيين المدقع ، مقـــارنا اياهم بالملاك الكبار ، أصحاب الاقطاعيات الكثيرة التى لا يستطيعون أن يحصوها ، ثم يقارن بين القرى البائسة الأشد قذارة من مستعمرات العبيد والمدن التى سممها الترف والفجور ، وتمتد مقارناته الى العمال الزراعيين الغارقين فى الجهل والمثقفين اللذين يخجلون من الحديث باللغة الرومانيـــة ويتباهـون بالحديث بالفرنسية ، والمتأنقين المتحذلقين الذين لا يطيعون قوانين الله أو

قوانين البشر ٠٠ وكان تيتو يقول لفريدمان دائما ، محـــاولا أن يوقف فيض اساءاته لرومانيا :

ـ أنت ترى رومانيا بعيون المجريين ٠

ـ هذا هو ما تعتقده ٠ اذا قدر لك أن تذهب الى هناك فسوف تذكر كلماتي وسترى بنفسك أني لم أبالغ قط ٠أنتم المتعصبون هنا لاتستطيعون أن تتخيلوا ما عليه رومانيا حقا ، ولو كان الأمر بيدى لأرسلتكم جميعا الى هناك على نفقة الدولة لتعيشوا هناك سنة على الأقل فى فردوسكم ٠ وأنا متأكد أنكم ستشفون من أحاسيسكم القومية الى الأبد ٠ صدقني يا عزيزى ، ان الناس هناك لا يريدون حتى أن يسمعوا عنكم ٠

ويهب تيتو واقفا ، صائحا فى دهشة :

ـ كفى ! كفى !

ـ انهم لا يريدون أن يســـمعوا عنـــكم يا صديقى بل ان أغلبهم يكرهونكم لأنهم قد ضاقوا باستشهادكم !٠٠ ان أهالى ترانسلفانيا يحملون اسما مميزا لهم هناك ٠ فأنت عندما تقول لرومانى : « يا أخى » يجيبك قائلا : أيها المجرى القذر !

كان تيتو بالطبع يرفض أن يصدق كلمة من أحاديث الكاتب الكئيبة ويتخيل كل شيء بعكس ما قال تماما ٠ واذا تصادف أن أبدى فريدمان ملاحظة طيبة أحس تيتو بالزهو ، كأن هذا المديح موجه له شخصيا ٠

وتزايد احســـاس تيتو ـ بمرور الأيام ـ بأن هذه القرية المجرية ليست المكان الصالح له ، وتفاقم احساسه هذا اذ كان مضطرا لأداء عمل غير محمود ، موجه فى الأساس ضد الفقراء والمقهورين ٠ ولم يغب فقدانه للحماس عن عين الكاتب ٠ ودعاه فريدمان ، بعد عدد من الأدلة التى تدينه بالاهمال والكسل ، أن يخفف اهتمامه بالسياسة وأن يبدى اهتماما أكبر بعمله ، والا اضطر أن يبحث عن مساعد آخر أكثر اجتهادا ٠

وقبيل عيد الفصح مباشرة ، طلب فريدمان من تيتو فى حماس أن يبدأ عمليات الحجز على أملاك ممولى الضرائب الذين تأخرت عليهم الديون٠ وأضاف أنه قد تعرض للوم شديد ، رغم أنه موظف قديم صاحب ضمير، نتيجة لتعطيل تيتو للعمل ٠ وبدأ تيتو يعمل ، كسير النفس ، خائر العزيمة، فطاف بالقرية طوال اليوم وعاد فى المساء بعربة محملة بالمنقولات المحجوزة، وقد أخذت كلها من مجريين ٠ وعندما أدرك فريدمان ما فعله تيتو ، احتقن وجهه وثار غضبا ، وصرخ فى وجهه وهو لايكاد يتمالك نفسه :

ـ أتريد أن تجر على المتاعب بمؤامراتك السياسية ··· لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحو ، انى آسف ··· هنا يجب أن نفترق !

فأجاب تيتو مبتسما فى تواضع ووقار :

ـ على أية حال فان ضميرى مرتاح !

وفى تلك الليلة حسب فريدمان مستحقات تيتو ، واعطاه ماله وقدره خمسة وأربعون ريالا · وبعد ذلك بيومين ، كان فريدمان فى طريقه الى أرماديا لينجز بعض أعماله ، اذ كان اليوم يوم الخميس ، فاصطحب تيتو الى حانة راهوفا حيث كان قد أتى به منذ بضعة أسابيع ·

ـ ٥ ـ

ما أن انتهت الصـــــلاة حتى أسرع ماكيدون سيرسيتاشو ليحمل لهرديليا أنباء أن القس يحاول أن يصلح بين ايون وبين فاسيلى باكيو ، وأنه قد استدعاهم الى بيته بعد ظهر ذلك اليوم حتى يواجه أحدهمـــا بالآخر · ولم يعلق هرديليا بأى شىء ، ولكنه أحس بالمرارة فى قلبه · فقد أثاره سلوك بلكيوج · هل كان الكاهن يحاول أن يكسب ايون الى صفه لمجرد أن يغيظه ؟ أم ترى أنه يكافىء الشاب على عمل دنىء ارتكبه فعلا فى حق ولى نعمته ؟ ·· وتذكر كلمات التأنيب التى سمعها من ايون، وأدرك بوضوح مصدر هذا النكران للجميل : انه بلكيوج ··· « اذن فقد استطاع الكاهن أن يداهنه ويستدرجه حتى يهجرنى ويغدر بى ·· أمن الممكن أن ينحدر مثقف الى هذا الدرك المنحط ! انه يتـــواطأ مع فلاح ضدى ··· »

كان المدرس فى الحقيقة يدرك بما يشبه اليقين أن خطرا شـــديدا يتهدده بسبب تلك الشـكوى المنكودة التى كتبها ، منذ ذلك اليوم الذى استوقفه فيه القاضى أمام مبنى المدرسة ، ومنذ غضبة ايون الوقحة على وجه الخصوص · ولعن فى سره تلك الساعة التى أشفق فيها على ذلك الشاب الخائن المنكود · وكان المدرس يعلق آماله على التحقيق الذى ذكره جيتسا بوب · فلو تبين أن القاضى مذنب على أى نحو ، نجا هرديليا · ولكن هذا البصيص من الأمل كان ضعيفا على أية حال ، حتى أنه خشى أن يكون مجرد وهم · لهذا فقد هرع الى أرماديا بعد أن أهانه ايون ، وهناك عرف من جيتسا بوب أن التحقيق قد تم وأثبت عدم تحيز القاضى ، وأكد

الحكم الذى أصدره تماما • وأدرك المدرس أنه يســـتطيع أن يتوقع أن يحدث له أى شىء • ولم يستطع المسجل أن يقدم له أى تفصيلات أخرى ، لأن التحقيق كان سريا حتى لا يؤثر فى هيبة المحكمة • وكل ما استطاع أن يعرفه هو أن بلكيوج وايون وسيميون لونجو كانوا أول من استدعوا للتحقيق •• ولما كان أيا منهم لم يفه له بكلمة عما حدث فمن الواضح أن عليه أن يتوقع سوء المصير • ولو أنه أراد حقا أن يعرف ما حدث ، فربما استطاع ايون أن يخبره بكل شىء بصراحة • ولكن هرديليا كان يفضل فى أعماقه ألا يعرف الحقيقة فقد كان الأمل ما زال يداعبه فى أن يمر كل شىء على ما يرام فى النهاية • كان الفضول يدفعه الى أن يعرف ولكن خوفه كان يكبحه • وكان يفضل أن يغلق عينيه ، فاذا كانت الضربة لا يمكن تجنبها فليؤجل وقوعها على الأقل • فالشر لا يتأخر أبدا •• وبدلا من أن يبحث عن الحقيقة من مصادرها ، حيث كان يســـتطيع أن يجد الاجابة ، فضل أن يذهب الى أرماديا مرات متعددة ليسأل جيتسا بوب ويعـــاود السؤال ، رغم أنه كان يعرف تماما أنه لا يمكن أن يحصل منه على شىء محدد •

وبينما كان فى طريقه الى أرماديا فى أصيل ذات يوم ، فى احدى زياراته الفاشلة الى جيتسا بوب ، ناداه ستوسيل ، كاتب قرية جيدوفيتسا من نافذة مكتبه ، وقدم له اعلانا قضائيا وصله منذ ثلاثة أيام ، ولم يجد فرصة ليرسله • وشحب وجه هرديليا ، وقال لنفسه موقنا بأن هذا الاعلان له علاقة بالتحقيق مع القاضى : « لقد وصلت الأمور الى نهايتها ! »

وصعق عندما وجد أنه أمام مشكلة جديدة • فقد رفعت دعوى ضده لأنه قد تأخر فى دفع مبلغ كبير لشركة بيرنشتين فى بيستريتسا ، التى كان قد اشترى منها بالتقسيط منـــذ ثلاث ســـنوت أثاثا لحجرة الجلوس • كانت قيمة كل قسط عشرون ريالا شهريا • ولم يكن هرديليا قد أراد أن يثقل مرتبه بمثل هذه الديون التى لافائدة منها ، وخاصة أن مبالغ كبيرة كانت تقتطع من مرتبه سدادا لقروض والتزامات أعطت دائنيه الحق فى أن يحصلوها من مكتب الضرائب مبـــاشرة • وكان قد قال لآل بيته أنهم اذا كانوا قد استطاعوا أن يستغنوا طوال هـــذه السنوات عن حجرة للجلوس فمن الممكن أن يستمروا على هذا الوضع حتى يدفع الجزء الأكبر مما عليه من دين • ولكن الفتاتين أصرتا وظلتا تلحان عليه حتى اضطر أن يعترف فى النهاية أنهما على حق ، وأنهما فى حاجة الى حجرة لائقة حيث تستطيعان استقبال خطابهما فى المستقبل • وظل يدفع الأقساط بانتظام طوال عامين، اذ كانت لورا تحرص على سداد الأقساط خشية أن تفقد حجرة الجلوس ،

فلم تكن تسمح بأن يتأخر السداد أكثر من قسطين أو ثلاثة ، وكانت عندئذ تذهب بنفسها وتدفع النقود في مكتب البريد • ولكن لورا كفت منذ بدأت ترتيبات الزفاف بكل ما فيها من حماس وانشـــغال ، عن متـــابعه هذا الامر • وقال العجـوز لنفسه ، وقد تراكمت عليه نفقات متعددة ملحة ، أن اليهودى يستطيع أن يصبر قليلا • وظل يهمل الرســائل التى ازدادت لهجتها تهديدا شهرا بعد شهر ، وكان يخفيها عن بناته حتى يتجنب أى مشاحنات عائلية • وعندما تراكم عددلابأس به من الأقساط الشهرية ، وجد مبررا فى أنه لم يكن ليستطيع أن يدفع مثل هذا المبلغ الكبير على أية حال ، وأنه سيدفعه بعد زفاف لورا ، عندما يخف ما عليه من أعباء ونفقات •• والآن نفذ صبر الشركه ، وأخذت تطالب بسداد كل الأقساط المتأخرة والأقساط المستقبلة وفقا لنصوص العقد ، وتبلغ جميعها أكثر من ثلاثمائة ريال • وأخذ هرديليا يتمتم وعلى شفتيه ابتســـامة يائسة • « ثلاثمائة ريال ! والآن ، قبل الزفاف بأيام ! »

وظل يفكر طوال الطريق الى بيته فى بلواه الجديدة • كان واضحا أنه لن يستطيع الآن أن يدفع مثل هذا المبلغ • ان كل ما يستطيعه هو أن يحاول كسب الوقت الى ما بعد الزفاف • ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ أولا يجب ألا يطلع أحدا فى البيت على اعلان المحكمة ، أو يذكر شيئا عن القضية حتى يتجنب أى مناقشة وأى دموع وبكاء وهلع من جانب العائلة • عليه أن يسوى الأمور بنفسه فى هدوء ودون ضجيج أو قلق • ولكن موعد القضية لسوء الحظ تحدد بتاريخ قبل عيد الفصح ، وقد سبب هذا خوفا لدى هرديليا • ولكنه طالما كان عاجزا عن الدفع ولا يملك أن يدفع عن نفسه بأى حجة سوى الفقر ، فلم يكن هناك فى الحقيقة من سبب لأن يذهب الى المحكمة ، فان هذا يعنى أن يقابل القاضى ثانية ويثير المشكلة الأخرى من جديد • ووجد أنه من الأفضل أن يدع الأمور على ما هى عليه، فقرر ألا يذهب الى المحكمة • فليصدروا حكما ضده ، فان مطلبهم ليس بالشىء الذى يمكن تأجيله • ولكنه يستطيع بعد ذلك أن يصل الى اتفاق مع محامى الشركة ، ربمـــا بالاتفاق على دفع تكاليف الدعوى واستئناف سداد الأقساط • وفى هـــذه الأثناء تكون عطلة عيد الفصح قد انتهت ، وانتهى معها زفاف لورا ، وعندئذ تصبح الأمور أكثر يسراً ••••

وذهب الى بيته بقلب مطمئن كأنه قد كسب لتوه رهانا • ورغم أن اعلان المحكمة كان يؤرقه كأنه يحرق ثقبا فى جيبه ، فقد لف ذراعه حول خصر زوجته وراح يدور بها مداعبا فى الحجرة مرات عديدة ، وأخذ يقبلها

بحرارة في وجنتيها مما جعل الفتيات تضحكن واثار السيد هرديليا التى انتزعت نفسها منه ، وبدأت تؤنبه قائلة :

ـ « هل جننت ؟ ينبغي أن تخجل من نفسك أيها العجوز الأحمق » اذ تتصرف على النحو أمام فتيات يرينك ويحكمن عليك ! »

ان المصائب لا تأتى فرادى · ففى اليوم السابق على موعد القضية، وقرب المساء ، فتح الباب فجأة ودخل تيتو ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وقد عاد بانبريد من جيدوفيتسا · لم يكن أحد من أهل البيت يتوقع مجيئه ، بل كانوا يتكلمون عن كيف أن الشـــاب قد ضحى بشبابه فى وظيفة لاتتلاءم أبدا مع مطامح شاعر · وكان تيتو يحمل معه خطابا دوريا يعلن احالة كيرناتونى ، مفتش التعليم وحامى هرديليا الى المعـاش ، وأن هورفات ، المفتش المساعد سيقوم بمهـــام منصبه حتى يتم تعيين خلف له · وفكر هرديليا باكتئاب : « يبدو أن كل المصائب الممكنة قد انهالت على دفعة واحدة ! »

قال تيتو كل ما يستطيع ليسيء الى شخصية « يهودى جارجالاو » الذى حاول أن يستغله فى قهر السكان الرومانيين فى تلك القرية ، وأعلن أنه سعيد بأنه قد خرج سالما من وكر الخوارج والمرتدين ، حيث كان عليه فى كل خطوة أن يتحمل الاهانات الموجهة الى أقدس عواطفه · وحبذت السيدة هرديليا والفتيات تصرفه لأنه لم يستمر فى خدمة مرتد وقح · أما المدرس فلم ير فى هذا الموضوع الا أن الشاب قد طرد من وظيفته ، وأصبح مرة أخرى بلا عمل ، الأمر الذى يعنى عبئا آخر فوق رأسه الذى انهكته المتاعب والمخاوف ، فى وقت تراكمت عليه الهموم حتى فاضت بها نفسه · وكان شر ما ضايقه الأنباء الخاصـة باحالة كيرناتونى العجوز الى المعاش ، فقد كان هذا نذير شؤم لمستقبله فى مهنة التدريس · وكان كيرناتونى رجلا طيبـا يغض طرفه عن أشـياء معينـة فى مناســبات متعـددة · أما هورفات الذى سيخلفه فقد كان مجريا عنيفا كالكلب المسعور لايتورع عن الحاق الأذى بالآخرين ، وكان دائم السخط لأن أطفال بريباس لايتكلمون اللغة الهنغارية ·

ولم ينم هرديليا الا فى الساعات الأخيرة من الليل · فقد هاجمته هموم كجيش من الأرواح المخيفة ، تكتم أنفاسه وتعذبه · وبدا له نوم الآخرين العميق كأنما يزيد من متاعبه هو · كم هو عسير أن يحمـــل الانسان متاعبه وحده ، محروما من عزاء مشاركة الآخرين له فى آلامه ، فهم بعيدون على قربهم لأنهم لا يفهمون شيئا · ولم يبد له عبء الحياة ثقيلا ، ولم يبد له المستقبل كئيبا كما بدا هذه المرة ···

وانطلق فى الصباح التالى الى أرماديا ، لاليحضر المحاكمة ، بل ليحوم حول المكان ، ليعرف على الاقل ما يحاك ضده ٠ ورافقه تيتو حتى جيدوفتسيا ، حيث توقف ليحيى بعض اصدقائه ومعارفه الذين لم يرهم منذ ما يقرب من شهرين ٠

وتواعدا على اللقاء فى حانة راهوفا فى موعد الغداء ٠ وراح المدرس يذرع شوارع أرماديا فى قلق ، فذهب الى بنك سومشانا ، ثم زار دكتور فليبويو بضع لحظات حيث كان مفروضا أن يصبح كفيلا للورا فى حفل زفافها ، ليتحدث معه فى بعض التفاصيل ٠ واذ لم يسعد الحظ تيتو بأن يجد روزا لانج فى بيتها ، ذهب هو أيضا الى أرماديا ٠ وراودته فكرة مشئومة أن يذهب الى لوكريتسيا دراجو ، حيث استقبل استقبالا فاترا ٠ فقد أصبح أوبريا ، المدرس بالمدرسة العليا ، هو الآن الخطيب المفضل ٠ وتجول تيتو فى المدينة فترة قصيرة ، وقد ضايقه موقف لوكريتسيا منه ، وعند الظهر اتجه الى الحانة فلم يكن لديه ما يصنعه ؛ وهناك وجد أباه يجلس وحيداً وأمامه كوب من البيرة وقد بدا عليه الاكتئاب ٠ وبدأ الشاب يحكى له عن متاعبه فى جارجالاو ، فى عبارات خطابية بليغة ، وعن مستقبله وخططه ، وما تكشف له من خطر مجرى ٠ وظل هرديليا صامتا فى يأس بعض الوقت ، ثم قاطعه فى لهجة تأنيب ، عندما استرسل تيتو فى عباراته الخطابية التى لاتنتهى ، قائلا :

ـ يبدو يابنى أنك تعيش فى جنة المغفلين ! ٠٠٠ تجرى وراء المستحيلات متجاهلا الواقع الذى يغللنا ويتحفز لينقض على رءوسنا !

واستمر تيتو ينظر اليه لحظه ثم استمر يلوح فى حركات مهيبة ، دون أن يلحظ المرارة التى تنطوى عليها كلمات العجوز :

ـ « انك ياأبى لم تستطع أبدا أن تدرك معنى الحماس من أجل مثل عليا كريمة ٠ » ثم اضاف مفكرا فيما بينه وبين نفسه : « لاغرابة فى أن يقول بعض الناس فى ارماديا أن أبى أقرب الى المرتد ٠ يبدو أنهم على حق فيما أرى ! »

وأجاب هرديليا فى لهجة التأنيب نفسها :

ـ انك لاتفهم مشاكلنا رغم أنك قد أصبحت الآن رجلا ناضجا ٠ وكان ينبغى أن تساعدنا بعض الشىء على الأقل ٠

فصاح تيتو فى صوت جهير :

ـ ما قيمة متاعبنا البسيطة اذا ما قورنت بالآمال العظيمة التى تتطلع اليها أمتنا ! ان الرجل الذى يضع مصالحه الخاصة فوق الصالح العام ياأبى لا يستحق أن يسمى رومانيا ٠

وابتسم المدرس فى حزن ، وبينما استمر الشاب يستعرض أفكاره الوطنية ، راح يتذكر كيف كان هو أيضـا مثله فى شبابه ، حتى أخذت مسئوليات الحياة بتلابيبه ، وكان عليه أن يصارع ليشق له طريقـا فى الحيـاة • لقد كانت اليقظة كئيبة بالفعـل • فسرعان ما تحطمت أماله كأنها أضغاث أحلام ، وحل محلها صراعه اليومى المرير من أجل الحياة • وتمتم الأب فى رقة كأنما يحدث نفسـه ، أو يستعيد ذكريات ماضيـه البعيد :

ـ كم تكون الحياة جميلة لو أنها كانت تضـاهى أحلامنا ، ولو كان الانسان يستطيع أن يعيش على أحلامه !

كانت الحانة خالية الا من بعض المدرسين الذين استطاعوا أن يخرجوا مبكرين من المدرسة العليا ، واثنين أو ثلاثة من كتاب بنك سومشانا • وقد سألوا هرديليا جميعا عن موعد زفاف الآنسة لورا ، وكان كل منهم يخاطبه باعتباره حماه ، وأخذوا يمطرونه بوابل من التهانى الصاخبة • وبذل هرديليا قصارى جهده فى أن يجيب بلهجة فرحة ، بينمـا راح يفكر : « كم كان يمكن أن يملأ هذا نفسى سـعادة ، ولكن هأنذا غارق فى طوفان من المصائب ! من الواضح أن هذا هو حظى الذى كتب لى فى لوح القدر • لعله قد قدر لى ألا استمتع فى حياتى بسرور صاف ! »

وفجـأة ظهر القاضى عند عتبة الباب ، يصـحبه محامى مجرى من بيستريتسا ، هو محامى شركة بيرنشتين • وأجفل هرديليا عندما رآه ، وشحب وجهه حتى صار كالشمع ، ثم دق المنضدة دون وعى بالكأس الفارغ متمتما :

ـ أيها الساقى ، الى بكشف الحساب من فضلك !

وقال تيتو وقد أدهشه أن والده يستعد لمغادرة المكان فى الوقت الذى بدأ فيه علية القوم فى المدينة يتوافدون :

ـ فيم العجلة يا والدى ؟ لاتخرج الآن ، ما الفكرة وراء خروجك ؟ ليس هناك حريق فى المكان يدعوك الى هذه العجلة •

وألقى القاضى بنظرة فى الحجـرة فلاحظ هرديليا ، وعقد جبينه ضيقا ، بينما كان المدرس يرقبه بطرف عينه • وجلس القاضى الى مائدة قريبة ، أمام المدرس مباشرة ، وواصل مناقشته مع المحامى الذى كان مستغرقا فى شرح بعض الأمور فلم يلحظ أحدا ممن حوله • ولم يجرؤ هرديليا على أن يرفع عينيه ولكنه أحس بنظرات القاضى تنفذ خلاله كأنها مثقاب • ولم يستطع هرديليا أن يتحمل هذه النظرات طويلا ، فاستجمع

شجاعته ونظر الى العينين العدائيتين ثم أحنى رأسه على سبيل التحية • ولم يجب القاضى بل استمر ينظر اليه بنفس النظرة الباردة •

كان تيتو يجلس متوترا ، وقد راح يحاضر والده فى صوت خفيض حول المثل الأعلى للأمة وندائها العاتى ••• ورنت كلماته فى اذن العجوز كأنها طنين ثقيل •

وضع القاضى يده بخفة ، بعد ذلك بدقائق قليلة ، على ذراع المحامى ثم تكلم فجأة مخاطبا هرديليا فى صوت لين عميق :

ــ أنت تعلم يا سيد هرديليا أنى أعرف كل شىء ، كل شىء ! كل شىء على الاطلاق !

وسأل المدرس المرتاع فى ارتباك :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ لا داعى للتظاهر ! لقد حدست منذ البداية أن هذه الفعلة لا بد أن تكون من صنعك •• وأنا الآن أعلم عن يقين أنى كنت محقا فى شكوكى •• ان هذا بالطبع أمر قليل الاهمية • لقد كرمتك بصداقتى بينما كنت أنت تشهر بى فى الوزارة ، وتبذل كل ما فى وسعك لتدمر مستقبلى • ولكن هذا لا يهمنى أدنى اهتمام •• ولكن مالا أستطيع أن أفهمه ، هو لماذا كنت جبانا الى هذا الحد ، حتى أنك كذبت على عندما سألتك ذات يوم عن هذا الموضوع ؟ كان ينبغى أن تكون من الشجاعة بحيث تعترف بما صنعت !

وتلعثم هرديليا قائلا :

ــ يا سيادة القاضى ، يجب أن تعرف أن •• أن •• أن •• هناك بالطبع تفسير حقيقى •• وكما ترى •• فانى فى اخلاص أتوسل اليك••

وفكر هرديليا فى تواضع شديد أن يجذب مقعده الى مائدة القاضى ليطلب صفحه ، ولكن لسانه كاد يتوقف خوفا من نظرة قاسية بدت فى عينى خصمه ، كأنما أراد أن يشويه بنيران حقده •

وأجاب القاضى بابتسامة باهتة ، وهو يلمس ذراع المحامى مرة أخرى ليعاود حديثه :

ــ لا ، لا ، لا تزعج نفسك • سنستمع الى تفسيراتك فى المحكمة•• أنت لا تتوقع أن نبقى عليك ، لانك لم تبق على بدورك •• أليس كذلك ؟

وأنصت تيتو في دهشة لملاحظات القاضي الخبيثة ، وتملكه احساس بالعار لما بدا على أبيـه من ذلة ورعب هائل · وسأل أكثر من مرة وهو يخذبه من كمه :

ـ ما الخبر ؟ ماذا حدث ؟ ولكنه لم يلق جوابا · فقد وقف العجوز يحملق في القاضي مؤملا أن تتلاقى عيناهما مرة أخرى ، فيتوسل اليه ، ويفصح عن كل ما بنفسه من عذاب ويأس ، فربما يحصل على عفوه · ولكن القاضي كان قد كف عن أن يعيره أدنى التفات ، كأن هرديليا لميعد موجودا بالنسبة له · والتفت المحامي بعد لحظة قائـلا للمدرس بسرعة وبلهجة رجال الاعمال :

ـ أأنت هنا يا سيد هرديليا ! لم ألاحظ أنك هنا ·· كنت أود أن أقول لك كلمة ·· لماذا لم تحضر جلسة القضية اليوم ؟

وصاغ المدرس اجابة في عقله ، ولكن المحامي كان قـد استأنف حديثه مع القاضي في لهجة أكثر انفعالا ، قبـل أن يفتح هرديليا فمه بكلمة ·

وانتاب هرديليا انهاك شديد ، واظلمت الدنيا في عينيه ، وأحس كأن اعصارا حمله وراح يدور به ، وحاول أن يتخلص منه دون جدوى · وسمع سؤال تيتو الحـائر القلق « ما الخبر ؟ ما الخبر ؟ » وكأنه في غيبوبة · واختلط السؤال بكلمات المحـامي التي غرقت في الضجيج ، يقطعها بين الحين والحين صوت القاضي المألوف ، المخيف · وترنحت رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، وبدا وجهه صورة لليأس ، واحترقت عيناه بالسؤال : « ماذا تريدون مني ؟ ماذا تريدون ؟ » واستمر الاعصار يدور ويدوى في عقله بلا رحمة ··

وبعد فترة طويلة توقف طنين دفاع المحامي ، واختفى القاضي ، وبدا أن العالم قد عاوده الهدوء وواصل سيره المعتاد · وأخذت أشعة شمس الربيع تتدفق داخل الحجرة ، التي عبق جوها برائحة الطعام والشراب ، خلال النوافذ الكبيرة ، فأضاءت قلبه · كانت المناضد كلها قد شغلت · واختلطت أجزاء من أحاديث مع رنين ضـحكات صاخبة في جو الغرفة الدافىء ، واختلط هذا كله بصرخات الجوع وقرقعة السكاكين والشوك وصحاف الطعام ·· وجلس المحامي المجري الى منضدة مع هرديليا بجوار تيتو ، وبدا عليه تعبير من اللامبالاة ، حاول أن يكسبه لونا من التعاطف والاهتمام ، وقال :

ـ ان القاضى غاضب جدا ٠٠ ستتعب معه كثيرا ، فهو انسان حقود غضوب ولن يصفح عنك !

وحاول كل من هرديليا وتيتو أن يقول شيئا ، ولكن المحامى الضيق الوقت لم يعطهما فرصة ، واستمر على الفور فى صوت مختلف :

ـ بالمناسبة ، لماذا لم تحضر القضية ؟ لقـــد اخطأت خطأ كبيرا اذ لم تحضر ! خطأ كبير فعلا ٠ كان من الممكن أن نصل الى اتفاق بتكاليف أقل ٠ ولكننى الآن أعرض عليك ، لكى أبين لك أننى لست رجلا بلا قلب، وأنى لا أمتنع عن تسوية المسألة على أسس شريفة وودية ، رغم أن الاعلان القضائى فى حقيبتى ، انى مستعد أن ٠٠٠

كان عرضه يتضمن الحجز على الأثاث ، وتحديد موعد لبيعه بالمزادـ وكل هذا اجراء شكلى بالطبع ـ لتضمن شركة برنشنين انهـــا لن تخسر مالها من حقوق ، وفى المزاد ســـيكون هو ـ المحـامى ـ المزايد الوحيد فيشترى الأثاث بالنيابة عن الشركة بثمن يعـــادل المبلغ الذى يدين به هرديليا ، دون أن ينقل من البيت قطعة من الاثاث ، ثم يوقع المدرس على صك جديد بالمبلغ كله بما فى ذلك أتعاب المحاماة ، ومصاريف الدعوى والمزاد ٠ ثم استطرد المحامى :

ـ سأريك كم أنا طيب القلب ٠ هيا ، فلنحدد تاريخ الحجز ، وليكن ذلك يوم الخميس بعد عيد الفصح ، عنــدئذ سيكون فى استطاعتك أن تقضى الاجازة دون قلق ٠ سأحضر الى أرماديا يوم الخميس على أية حال لأعمال أخرى ، وبذلك سأوفر عليك تكاليف الانتقال ٠ ويمكن أن نحدد سويا تاريخ البيع ٠ لقد أنهينا كل شىء ! هيا ، فلنتصافح ٠ كنت أود أن أبقى معك ، ولكنى مرتبط بمزاد اليوم فى الساعة الخامسة بعد الظهر فى بيستريتسا ولا بد أن أحضره ٠٠ موعدنا اذن يوم الخميس بعد عيد الفصح فى نحو الساعة التاسعة صباحا ٠٠ لا داعى لان تزعج نفسك فى أى شىء من ناحيتى ٠ آه لو أن ذلك الغول الذى يعمل قاضيا كان مجاملا مثلى ! الى اللقـــاء اذن يوم الخميس ! أهذا ابنك ؟ انى سعيدة بلقائك ! وداعا ! ٠٠٠

ولم يجد هرديليا فرصة لينطق بكلمة ٠ وهو فى الواقع لم يكن لديه ما يقول ، فقد كان تحت رحمة المحامى الذى يستطيع لو أراد أن يجلب له العار فى ليلة زفاف ابنته ذاتها بأن يبيع كل ما له من أثاث فى مزاد علنى فى الميدان العام ، مصحوبا بدق الطبول ٠

وقال تيتو وقد لاحظ ما عليه أباه من يأس ، وفهم الآن سبب متاعبه :

ـ ان الاقتراح الذى قدمه هذا المجرى اقتراح طيب ، ويبدو أنه شخص لطيف ٠٠ ما اسمه يا أبى ؟

فسأل هرديليا :

ـ ألا تعرف لندفاى ؟

ثم تمتم فى لهجة تنم عن خوف طفولى :

ـ حجز ٠٠ مزاد ! ٠٠ مزاد ! يا الهى ! ماذا ستقول أمك ؟ وماذا ستقول لورا ؟

وتساءل الشاب فى حدة :

ـ ماذا تعنى بماذا ستقولان ؟ هل تجرؤان على قول أىشىء ؟ أليست كل متاعبك هذه من أجلهما ؟٠٠ أم أنك تعتقد أنهما بلغتا من السخف حدا لا تفهمان معه هذه الحقيقة ؟ أنا مندهش لأنك تفكر فيهما على هذا النحو ٠٠ فيم تهمك المصادرة الشكلية والمزاد الشكلى فى نهاية الامر ؟ لقد قال لك أكثر من مرة أن هذه مجرد شكليات ٠٠

وتخفف الاب أثناء عودتهما من جزء من أثقاله ، فروى لتيتو عن المآل الذى انتهت اليه شكوى ايون ، وأضاف أن ايون نفسه لا بد هو الذى خانه ٠

وقال تيتو فى انفعال متعاظم ، فقد كان فى هذا الامر يعتبر أباه ضحية حبه لفلاح رومانى :

ـ ياله من منكود ! ينبغى ألا تأبه بهذه الامور يا أبى ! ينبغى أن تفخر بأنك انما تعانى لأنك دافعت عن رومانى ، حتى ولو تبين أن ذلك الرومانى وغد دنىء ٠٠ ان ما فعلته عمل رائع !

وتنهد العجوز وقد أحس ببعض الارتياح ، الا أن كلمات «التشهير» و «المحكمة» التى كانت قد وردت على لسان القاضى كانت ما تزال تعذبه ، وقال لابنه :

ـ هذا شىء حسن ، ولكن يبدو أنك لا تدرك أى عواقب خطيرة قد يتمخض عنها هذا الامر !

فقال الشاب الذى أسف انه لم يكن فى مكان أبيه حتى يستطيع أن يتباهى بتضحياته من أجل القضية القومية :

ـ كلما زادت هذه العواقب خطورة زاد قدرك فى أعين الناس !

وما أن سمعت السيدة هرديليا وابنتيها بموضوع الحجز والمزاد ، حتى بدأن فى الصراخ والعويل ، فان هذه الفضيحة التى لا توصف تعنى نهاية سعادة لورا ، لان بنتيا اذا عرف بها سيدير ظهره لها بالتأكيد الى الأبد •• وعبرت الفتاتان عن اقتناعهما بهذا الاحتمال الخطير ، بأن امتنعتا عن الاستمرار فى اعداد جهاز لورا ، فتركتا فى ماكينة الحياكة ملاءة سرير كانت جاهزة تماما ، مزينة بثقوب مطرزة وأشرطة مزركشة ، وقد نقشت الحروف الاولى من اسمى العروسين على أحد أركانها • وبذل تيتو قصارى جهده طوال فترة ما بعد الظهر والمساء ليبين لهما أنه من الغباء ألا يفهمن وألا يردن أن يفهمن أن كل ما سيحدث هو مجرد شكليات • لم تصغ النساء لأى من حججه ، ولكن الشىء الوحيد الذى هدأ من ثائرة لورا فى النهاية هو أنها لن تكون فى هذا المنزل عندما يأتون بطبولهم لتوقيع الحجز واجراء المزاد ، وما يصحب ذلك من فضيحة على الملأ ويدنسون حجرة جلوسها التى كانت مرتع أحلامها كفتاة يافعة • ولم يجرؤ هرديليا أو تيتو بطبيعة الحال أن يقول شيئا فى هذا الجو عن تهديدات القاضى ، رغم أن الشاب كان قد تباهى قبل ذلك بأنه سيشرح لهن كل شىء من البداية للنهاية •

تشجع المدرس وأصبح يحس ببعض الارتياح بعد أن وجد من يشاطره المخاوف التى كانت تثقل قلبه • وكان أول ما عليه أن يهتم به هو عمله فى المدرسة ، فقد كان من المحتمل أن يأتى المفتش المساعد ، الذى سيعمل جاهدا ولا شك ليثبت حماسه للعمل ، بأمل أن يعين مفتشا بعد أن تقاعد كيرناتونى • وانتظم هرديليا فى عمله بفصوله ، وفى اعداده لدورسه ، حتى يكون مستعدا لأى طارى • وقد أفاده هذا الجهد المركز ، اذ أزاح همومه بعض الشىء •

توقفت عربة فخمة أمام مبنى المدرسة فى آخر يوم قبل عيد الفصح ، ولم يكن بداخلها سوى هورفات نائب المفتش ، الذى جاء عامدا فى هذا الوقت ليقوم بزيارة مفاجئة • وظل فى الفصل نحو ساعتين ، يسأل عن كل شىء ، ويختبر كل طفل • لم يكن يتكلم الا باللغة الهنغارية ، وكان يقطب كلما أخفق طفل فى فهم ما يقول ، ثم قال لهرديليا فى حزم ، بينما كان يوقع على جدول الحصص وسجلات المدرسة :

– خير لك أن تعطى المدرسة وقتا أكبر وأن تعنى بعملك بصورة أكثر جدية • انى أنصحك بشدة أن تنفذ ما أقول ، اذا أردت أن تتحاشى الصدام بيننا •

ورحلت العربة بسرعة ، اذ كان السيد هورفات يريد أن يفتش المدارس الاخرى في جيدوفيتسا وأرماديا أيضا في نفس اليوم •

وما أن اختفت العربة عن الانظار حتى أمسك هرديليا بقبعته في يده ، ورسم علامة الصليب على صدره ، وتمتم في يأس :

ـ يالك من انسان منكود ! لم أشاهد في حياتي شخصا كريها مثلك •

وتنهد ، ثم صرف الاطفال واتجه الى منزله ، محنى الرأس ، وهو يفكر في حزن : « هذا جزائي على ثلاثين سنة من الكد والعناء ! لست بحاجة الا الى خمس سنوات أخرى •• خمس سنوات فقط ، فليساعدني الله ! وبعد ذلك فليأخذ الشيطان كل المفتشين في العالم •• فاني أستطيع بالمعاش أن أعيش حياة لائقة مع زوجتي العجوز ويكون الاطفال بمشيئة الله في ذلك الوقت قد استقروا كل في بيته •

وضع هرديليا كل ثقته في العناية الالهية ، واتجه بروحه في شجاعة متجددة الى الله ، بعد أن ألمت به المتاعب والآلام وتشبثت به كما تتشبث العلقة بفراء الاغنام ، وهو الذى لم يكن يكف من قبل عن السخرية من زوجه لأنها تتمتم بالصلاة طوال يومها •

وهبط عليهم ايون في المساء ، بعد أن تناولوا طعام العشاء ، وقد فاض وجهه بشرا • وكان هرديليا يحكي بالتفصيل عن زيارة نائب المفتش• دهشت عائلة المدرس لوقاحته • كان تيتو قد حكى لشقيقاته ، ثم لوالدته بالتدريج عن خيانة ايون لهرديليا وعن العواقب الوخيمة التى قد تترتب على ذلك • وكانت هذه الحقيقة ، بالاضافة الى سلوك الشاب خلال الشهور القليلة الماضية ، قد جعلته موضع احتقارهم أكثر من أى شخص آخر في القرية كلها • وهكذا انهالت عليه السيدة هرديليا ، دون أن ترد تحيته وقد أخذت ترتعد غضبا واشتعلت عيناها غيظا :

ـ يالك من وقح أيها الوغد ، أما زلت تجسر على أن تدخل بيتنا بعد ما أتيت من تصرف شائن نحو المدرس •

ولكن ايون أجاب في هدوء ورقة ، دون أن يحس أدنى أحساس بالخجل ووجهه ما يزال يحمل تعبير الرضاء عن نفسه :

ـ عفوا أيتها السيدة هرديليا ! سامحيني •• من فضلك ••

وصرخت السيدة هرديليا :

ـ أتتوقع أن نسامحك الآن بعد أن أسأت الينا عامدا ؟ لقد ساعدناك وقدمنا لك كل شيء بأكثر مما تستحق ، وكان امتنانك أن كافأتنا بالخيانة مثل يهوذا !

وأجاب الشاب في لهجة حارة طيبة :

لننس الماضي ، فقد انتهى · لقد انتهى تماما ·· ان ما تحملته واجتزته شيء لا يعرفه الا الله ·· لقد أخطأت » وأستطيع الآن أن أرى خطئي ، ولكن ··

فأجابه المدرس الذى كان أرق قلبا من الآخرين ، وبدأ يلين بالفعل:
ـ نعم · ولكن خطأك قد يؤدى بي الى السجن ، وقد أفقد ثمرة ثلاثين عاما من العمل !

ياسيدي ! اني على استعداد لأن أبقى في السجن بقدر ما يريدون ، سنة ، أو عشر سنوات ، ولكنهم لن يمسوا شعرة من رأسك ! صدقني هذه
ـ سوف ترى أني سأصلح كل ما ارتكبت من خطأ · لا تخش شيئا المرة ! لأني الآن رجل سعيد ياسيدي ! فأنا الآن أملك أرضا وكل شيء ·· كل ما أريده الآن هو أن يبقيني الله في صحة جيدة !

وتذكر هرديليا أن اتفاق ايون مع فاسيلي لم يتم الا بعد وساطة الأب بكليوج ، فتمتم في لهجة أكثر برودا :
ـ أنالك الله ما تريد !

ونظر الشاب حوله الى كل فرد من أفراد الاسرة كأنما يطلب منهم عونا ، ولكنهم ظلوا جميعا صامتين وقد علت وجوههم الكآبة · واضطر أن يبدأ الكلام من جديد بعد فترة من الصمت المربك :

ـ ان ما دعاني الى زيارتكما أيها السيد والسيدة هرديليا هو ·· أن أقول لكما أني لن أتحرك من هذا المكان حتى تعداني بأن تكونا كفيلي في العرس !

واحتجت العائلة كلها في صوت واحد ، رغم أنهم جميعا قد تأثروا الى الاعماق بمطلب هذا الوغد · كان تيتو حتى هذه اللحظة يتظاهر بأنه يقرأ ، حتى لا يضطر الى أن ينظر الى الخائن ، ولكنه رفع أنفه الآن قليلا، ونظر اليه فأدهشه أن يرى أي تغير قد اعترى وجه الرجل · كان يبدو أكثر بهاء وأمضى عزما ، وكانت وجنتاه أكثر اشراقا وأقل تجعدا بينما التمعت عيناه ببريق الزهو والانتصار ·

وأخذ هرديليا يجادل فترة طويلة ، فلم يكن راغبـــا فى أن يسلم بمطلب ايون • ان مهمة الكفيل تقتضى نفقات باهظة وهو الآن لايستطيعها بسبب ما عليه من نفقات هائلة نتيجة لزفاف ابنته • لماذا لا يطلب من الكاهن أن يكون كفيـــله •• ولكن ايون أقسم أنه يفضل أن يتخلى عن الموضوع برمته على أن يختار كفيلين آخرين ، وأكد له أيضا أنه لن يتكبد أى نفقات • وأخذ ايون يلح بحرارة حتى اضطر المدرس فى النهاية أن يقبل قائلا :

ـ حسن يا ايون ، حسن •• نحن نوافق •• ســنقوم بهذا العمل أيضا كما قمنا بأعمال أخرى لك فى الماضى رغم ما يبدو من نكرانك للجميل •• ولكن من يدرى ، ربما كان حظنا معك أفضل فى المستقبل !

وقبل ايون يد هرديليا ثم يد السيدة هرديليا قبل أن يستأذن فى الخروج ، مما جعل السيدة هرديليا تقول فى رقة :

ـ ان هذا الولد وغد بالتأكيد ولكن قلبه طيب • انه فتى مسكين !

- ٦ -

بحث تيتو عن روزا ولكنه أخفق فى العثور عليها كما حدث من قبل• وكان الفارق الوحيد هذه المرة أن قلقه لم يكن عظيما • كان يحس باحساس غريب فى قلبه يمنعه أن يخرج على مألوفه للبحث عنهـــا • بل انه كان يفضل أن يكون لانج ، أو أى شخص آخر ، فى البيت عندما يلتقيا ، حتى يتجنب الانفراد بها خلال اللحظات الأولى من لقائهما •

وفى اليـــوم التالى لزيارة نائب المفتش ، رحل تيتو الى جيدوفيتسا مرة أخرى وطرق الباب الذى طالما خفق قلبه أمامه فى ترقب ســعيد • ووجد روزا وحدها وقد تدثرت برداء قذر من البفتة ، وتهدل شــــعرها مشعثا ، وكانت تبكى • وأخذ يفكر فى ضيق شديد وهو يقبل يدها :

ـ أيمكن أن تكون هذه هى المرأة التى أحببتها هذا الحب الجارف منذ أقل من شهرين ؟

ووقف مرتبكا بضع لحظات ، بينما أجهشت المرأة فى مرارة أعظم ، كأنها تحاول بانفجارها حزنا أمامه ، أن تستثير لديه عطفا أعمق • ولكن كلّ ما استطاع تيتو أن يراه هو الفم المتجهم الذى كان يقبله فيما مضى ، وأخذ يسائل نفسه فى حيرة :

ـ كم كنت أراها جميلة عندئذ !

وقالت له السيدة لانج فى فيض من الدموع أنها أكثر النساء تعاسة في العالم ، لأنها فقدت كل شىء وأصبحت مفلسة ، بالاضافة الى أشياء أخرى ٠ فقد جاء هورفات نائب المفتش بالأمس فى زيارة مفاجئة ، وعند تفتيشه المدرسة لم يجد لانج ، الذى كان نائما كلوح من الخشب فى البيت حيث كان قد وصل فى الصباح بعد سهرة شراب وسكر فى أرماديا ٠ وأرسل المفتش فى طلبه وانتظر نحو الساعة حتى ايقظته وأقنعته بأن يرتدى ملابسه ويذهب الى عمله ٠ وعندما رآه نائب المفتش ، أدرك على الفور أنه ثمل ومنعه من دخول الفصل ، وطرده ٠ وأعلن أن على لانج أن يعتبر نفسه موقوفا عن عمله وأن يعتبر نفسه محظوظا اذا لم يقترح هورفات على الوزارة استبعاده من جميع وظائف التدريس فى كل المدارس ٠

وصرخت روزا وهى تعتصر يديها :

ـ ماذا نصنع الآن ؟ أين نذهب ؟ ولانج ٠٠ المسكين ، لا يمكنك أن تتصور كم هو نبيل طيب ! انه لم يقل كلمة واحدة ولم يشك الى أحد ، ولكننى استطيع أن أدرك مدى معاناته ٠٠ أوه يا الهى ، يا الهى ! قل لى بصراحة يا سيد تيتو ، هل تعتقد أن هذا من العدل فى شىء ؟

لقد خاطبته قائلة : « يا سيد ! » وأحس تيتو أن هذا يلائمه تماما ٠ وأحس بالسعادة لأن الأمور سارت على هذا النحو ٠ وتفوه ببعض كلمات التشجيع المألوفة بينما كان يفكر اثناء الكلام : « لقد ماتت امرأة ! لقد خبا حب فى قلبى ٠٠ هل كان حبا بالفعل ؟ لو أنه كان حبا حقيقيا لآلمنى موته ٠ كلا ، لم يكن هذا حبا بأى حال ٠٠ انه مجرد وميض لا أكثر ٠٠ اننى لم أكن أحبها ، وهى أيضا لم تكن تحبنى ، ومع ذلك كنت أحتضنتها بين ذراعى ، وقد أقسم كل منا على الاخلاص للآخر ، وكذب كل منا على الآخر ٠٠ شىء سخيف ! سخيف ! ٠٠ سخيف ! »

وود لو ألقى بهذه الكلمة فى وجهها عزاء لنفسه ٠ كان وصول لانج انقاذا له من وضع يحمل له من بواعث القلق أكثر مما يحمل من دواعى الحزن ٠ كان لانج ثملا وظل يبتسم كأنه فيلسوف اكتشف سر السعادة فى الحياة ٠

وأخذ لانج يثرثر :

ـ هل عرفت ما فعل هذا الحمار معى ؟ ها ! ها ! ها ! انه يعتقد أنه هزمنى ! ٠٠ هو يهزمنى أنا ؟ انه أبله ! ٠٠ لص ، وغد ، منحط ٠٠ ولكن هذا يكفيه ! انه لا يستحق شرف أن أسبه ! هل بقيت قطرة من البراندى يا روزيكا ؟ اعطنى كأسا ! حسن يا تيتو ! أهلا بك ! ليحيا الضحايا وليسقط المستبدون !

وعندما وصل تيتو الى بيته وروى ما أصاب لانج ، قالت السيدة هرديليا فى ازدراء :

ـ فليرحم الله هذا البائس المسكين ٠ أما هذه المرأة فهى امرأة منحلة ٠٠ انها لم تستطع حتى أن تحافظ على علاقتها بالصبى الذى يعمل بمكتب الكاتب ٠٠ اننى أحس بالغثيان عندما أذكرها ٠٠ !

واحمر وجه تيتو كأن أحدا قد صفعه على وجهه وهو يقول لنفسه : « وهكذا بينما كنت أحافظ على ذكراها فى قلبى وأحلامى ، كانت هى ٠٠»

- ٧ -

رحلت السيدة هرديليا وابنتيهـا الى أرماديا يوم أن جاء لندفاى المحامى لتوقيع الحجز على ممتلكاتهم ، ليتجنبن رؤية هذا المشهد المذل ولينهين مع السيدة فليبويو آخر تفاصيل حفل زفاف لورا ، وليحضرن من المطبعة أيضا بطاقات الدعوة المطبوعة على ورق مصقول ، حتى يمكن ارسالها الى المدعوين فى الوقت المناسب ٠ وضج تيتو بالضحك فى المساء عندما عدن منهكات تعبات من أرماديا ، فان الاجراءات القانونية لم تستغرق أكثر من دقائق معدودة ٠

وتملكت الأسرة كلها حالة من التوتر بسبب الاعداد للزفاف ٠ وأعدت لورا بنفسها فستان عرسها ، الذى كان رائعا ٠ وعندما جربته لآخر مرة قبل أن تعلقه فى صوان الملابس فى انتظار اليوم المشهود ، صفقت الاسرة كلها اعجابا بما أصبحت عليه من جمال فى هذا الفستان ٠

وكانت حجرة الجلوس ممتلئة بالملابس الداخليـة التى تنبعث من أقمشتها الجديدة رائحة النشاء وانتشرت المعاطف والملبوسـات فى كل ركن منأركان الغرفة وعلى كل قطعة من أثاثها ٠

وجاء جورج بنتيا قبل موعد الزفاف بثـلاثة أيام ، حيث أقام فى فندق بأرماديا ، ولكنه كان يمكث فى بريباس حيث يظل الى جوار لورا من

الصباح حتى يجن الليل • وكان الانفعال والتأثر العميق يغلبهما عندما يتحدثان فى جذل ممتزج بالتهيب عن الاحتفالات المرتقبة التى ستعطيهما الحق فى النهاية فى ألا يخفيا حبهما عن أى انسان •

كانت لورا قد خفت وزنا بعض الشيء ، وكان هذا يناسبها تماما ، خصوصا وقد تندت عيناها على الدوام وومض فيهما بريق أشواق غامضة• وبدا أن شكوكها القديمة قد زايلتها ، فأحست بالسعادة لأن تجد بنتيا الى جوارها • وخفق قلبها كأن أحدا هدهده فى خفة • وكانت تقول لنفسها فى رقة : « كم أعزه ! انه حبيبى المسكين ! كيف كنت لا أحتمله فيما مضى ! كم كنت غبية عندئذ ! »

كانت جيجى تقول للورا أنها تحسدها ، ولاحظت أن هذه العبارة تسرها فراحت ترددها على مسامعها باستمرار •

وسألتها لورا :

ـ أتعنين ما تقولين حقا يا جيجى ؟ أتعتقدين حقا أنى سأكون سعيدة ؟

ـ فقالت جيجى :

ـ كم أتمنى أن أكون فى مكانك !

ولم تكن جيجى صادقة فى هذا ، فلم تكن فى أعماقها تفهم كيف يمكن لفتاة جميلة ونادرة مثل لورا أن تتزوج قزما لا يعرف حتى كيف يرقص •

وكان بنتيا يعنى بها كل العناية ، فكان يحضر لها كل يوم شيئا ؛ وكان يأتيها بالشيكولاته على الأخص لأنها كانت تتقاسمها معه ، بعد أن تقضم كل قطعة منها بأسنانها ، فتحمل العريس الولهان على أن يقسم أنه لم يتذوق فى حياته شيئا أحلى مذاقا •

وجاء جورج عشية الزفاف ومعه هدايا بهرتهم جميعا • فقد أحضر خاتما مرصعا بجوهرة تحوطها دائرة من المرجان تبدو كرءوس دبابيس مشتعلة ، وقرطا ذهبيا مرصعا بالماس ، وعقدا من البلاتين ، وصليبا صغيرا من الذهب على كل طرف من أطرافه نجمة من الزمرد •

وصاح المدرس عندما رأى هذه الكنوز المتلألئة قائلا للورا ، التى أذهلتها المفاجأة فجمدت فى مكانها •

ـ « قبليه ! » ثم أخذ بيدها ودفعها نحو خطيبها مستحثا اياها فى حماس :

ـ قبليه يا لورا ، ألا تسمعين ؟ ·· قبليه !

وفى صبيحة يوم الزفاف وصل والدا جورج ومعهما شقيقاه الصغيران ، ماركو وفاسيلى · أما سائر الأشقاء فقد نأت بهم الديار ولم يستطيعوا الحضور فاكتفوا بارسال برقيات التهنئة التى سارع بالان الكاتب بمكتب بريد أرماديا بارسالها الى بريباس مع رسول خاص · وأعجب أشقاء العريس الصغار بلورا على الفور وتوددوا الى جيجى التى وجدتهم ألطف من جورج بكثير ·

وفى حضور والدى العريس الذين لم يحضرا خاليا الوفاض الطبع ، قدم هرديليا طاقم قهوة لطيف وبسيط المظهر الى العروسين بالنيابة عن « كبار العائلة » · كما قدم تيتو الى جورج فى نفس الوقت علبة سجائر من جلد التمساح اشتراها من ماله الخاص ، قائلا وهو يربت ذراع شقيقته لورا :

ـ انى أقدم لك شيئا لن يقدمه لك أحد ، لأن الجميع يفكرون فى العروس وحدها ·· ولكن أنا أفكر فى العريس ، لأنى أحبه أكثر مما أحبها ·

وانفجرت جيجى باكية عندما أدركت أنها هى الوحيدة التى لم تستطع أن تقدم لهما شيئا ، ولم تتوقف عن البكاء الا عندما قال لها ماركو المعجب الجديد بها وشقيق زوج أختها ، انها تستطيع أن تمنحها أثمن الهدايا وأقيمها ، بأن تمنح كلا منهما قبلة ، وأضاف على سبيل الفكاهة أنها اذا كانت تخجل من ذلك فيمكنها أن تقبل العروس قبلتين ، مع التنبيه مشددا على العروس بأن تنقل قبلتها الى العريس ·

وفى جيدوفيتسا استقبل ستوسيل ، كاتب المدينة وموثق العقود بها ، هذا الجمع المرموق بما يليق به من احترام ، وتلى اجراءات عقد الزواج المدنى باهتمام أكبر من المعتاد · وفى النهاية ألقى خطبة قصيرة أعرب فيها عن سعادته بأن يكون له شرف الجمع بين قلبين مفعمين بالحياة والأمل وربطهما برباط من القانون ·

ولما كان حفل الزفاف يوم الأحد ، فقد ازدحمت كنيسة أرماديا ذات البرجين بالناس الذين لم يكفوا عن الثناء على لورا لجمالها ورشاقتها ، وعلى مظهر جورج اللطيف · وأحدث ثوب العروس هرجا بين السيدات وأثار حماس المتذوقات المتأنقات منهن · وحضرت الحفل جميع صديقات لورا دون

استثناء ، تصحبهن أمهاتهن اللائى كن ينظرن الى العروس فى حسد ، ولكن الفيرا فليبويو ولنيكا سباتارو ، اشبينتى العروس ، كانتا أكثر الحاضرات تأثرا وانفعالا ٠

وبارك الزواج ستة من القساوسة من بينهم بلكيوج الذى كان هرديليا قد دعاه عامدا حتى لا يلحظ أهل ارماديا ما بينهما من نزاع ٠ وكانت ترانيم تلاميذ المدرسة أكثر اثارة للمشاعر من أى وقت مضى ٠ وعندما سأل القس العروسين سؤاله الخطير أجاب العريس مزهوا بصوت قوى ترددت أصداؤه فى جنبات الكنيسة ، بينما أجابت العروس بالايجاب بصوت رقيق فى خفر ، كأنما خجلت من أن يسمعها الناس ٠ ولم تستطع السيدة هرديليا فى هذه اللحظة أن تكبح جماح عواطفها فانفجرت باكية ، مما أثر فى نفس كل انسان واثار الدموع فى عينى لورا مؤكدا المثل الشائع انه ما من عروس لا تبكى يوم زفافها ٠

وأقيم حفل الزفاف فى حانة راهوفا ، فى القاعة الكبيرة بالطابق الأول ، التى كان صاحب المطعم قد زينها بأكاليل من الزهور ومصابيح لطيفة ، وتجمع فيها كل وجهاء أرماديا والمنطقة المجاورة لها ٠ وتأخرت العروس قليلا لتغير ملابسها برداء بنى أنيق للسفر ، وارتدت قبعة صغيرة رقيقة فوق رأسها ، اذ تقرر أن يرحل العروسان الى أبرشية جورج بعد الحفل مباشرة ، حيث يمكثان هناك أسبوعا على الأقل ٠ وأمطرهم الحاضرون بتهانيهم الحارة ، وتمنى الرجال منهم للعروس أن تنجب ذرية كبيرة ، مما جعل لورا تتضرج خجلا ٠ ولم يكد أى من العروسين يقرب طعاما أو شرابا عندما جلس جمع المدعوين الى المائدة ، بينما ساعدت الموسيقى التى كان يعزفها جوجى عازف بيستريتسا على أن تزيد عواطفهما جيشانا ٠

ولم يلبث جورج أن همس بشىء فى أذن لورا فقام الاثنان من مكانهما ، وصحبتهما الفرقة الموسيقية ، عازفة لحن الزفاف حتى بلغا الطريق ، وهناك كانت أرشق عربة فى أرماديا تنتظرهما لتقلهما الى بيستريتسا ، حيث يستأنفان رحلتهما بالقطار ٠

وقبلت السيدة هرديليا ابنتها لورا ، واحتضنتها طويلا بين ذراعيها وأغرقت كل منهما الأخرى فى فيض من الدموع ٠ واذ كانت جيجى قد بكت مرارا أثناء النهار فقد حاولت الآن أن تقبل شقيقتها دون أن تجهش بالبكاء ، رغم ما كانت تعانيه فى قلبها من ألم ٠ واستمر الوداع نحو ربع ساعة ، فودع هرديليا ابنته وأعقبه تيتو ثم عائلة بنتيا ، كل بدوره ،

ثم ودعت عائلة هرديليا جورج وودع جورج أبويه واخوته ·· بينما كان الموسيقيون الغجر يعزفون لحن الزفاف طول الوقت ، بينما كان الضيوف يطلون على العروسين من النوافذ فى فضول محمل بالمشاعر الرقيقة ، ووقف جمع من عابرى السبيل فى الشارع يحملقون فى دهشه وينصتون الى الموسيقى ·

واستقل العروسان العربة فى النهاية ، وأعمل الحوذى سوطه فى الجياد ، وخفقت المناديل الكثيرة فى الهواء ، وفاضت مزيد من الدموع ، وتطايرت كلمات الوداع : « نتمنى لكما حظا سعيدا ! ·· رحلة سعيدة !·· لا تنسيا الكتابة الينا من كل مكان تقفان فيه ! ·· لا تنسوا ·· وداعا !··

وانطلقت العربة خببا على الطريق · وظل منديل أبيض صغير يخفق بلا توقف من داخل العربة مثل جناح طائر مذعور ، ثم ابتلع الطريق العربة والمنديل ·· وعاد الأقارب الى ضيوفهم ·· وبدأت الانخاب وتلاها الضحك والنكات ، ثم انطلق الموسيقيون فجأة فى لحن فالس رقيق منساب ، سحر ايقاعه كل الشبان ·· وفاض قلب هرديليا بمشاعر رقيقة وراح يتحرك ذهابا وجيئة فى أرجاء المكان فى زهو ، يشرب نخبا مع هذا ، ويبتسم لذاك ، محاولا أن يشيع السعادة والحبور فى كل انسان · كان فى الحقيقة فى هذا اليوم أسعد رجل على ظهر الارض · فمن يدرى ماذا يأتى به الغد ؟ ان المتاعب والمشاكل لا تنتهى ، لكن السعادة شىء مقلقل لا يستقر·

فى هذه الاثناء كانت العربة تقطع الطريق فى عجلة ، حاملة العروسين مارة بجيدوفيتسا فى طريقها الى بريباس · وجلست لورا تحملق أمامها فى ذهول ودهشة ، دون أن تجرؤ على النظر الى « زوجها » · وتملك قلبها شعور غير مفهوم بالحزن اذ كانت تعبر البساتين والوديان الصغيرة والحقول والغابات والتلال ، وتخلفها وراءها ·· كل مراتع الصبا والشباب التى أحبتها بعمق ، والتى تتركها الآن ربما الى الأبد · وبدت المشاهد الريفية المتموجة كلها كأنما تودعها فى صمت وداع الصديق ·· وبدا جورج بالنسبة لها غريبا أكثر من أى وقت مضى ، وتعجبت كيف قبلت أن ترحل الى عالم غريب مجهول ، مع رجل غريب عنها ، وتترك وراءها عالما أحبها وأحبته · والتمع فى خاطرها سؤال مخيف :

ـ من يكون هذا الغريب ؟

أوقفت لورا العربة أمام منزلها فى بريباس · وترجلت وسارت بضع خطوات فى الفناء ، وأخذت تتأمل الجدران البيضاء ونوافذها المنكمشة

والسقف الذى دعم هنا وهناك بلوح جديد من الخشب • وأطالت النظر اليها فى شغف كأنها تحاول أن تحمل فى نور عينيها صورة بيتها القديم• وأقعى الكلب يتمسح بأقدامها ويلعق أطراف حذائها ، وقد أدرك بطريقة مبهمة أن سيدته سترحل الى مكان بعيد ، هذه السيدة التى لم تنس أبدا أن تلقى اليه بشريحة من الطعام • وربتت لورا ظهره وفى عينيها الدموع وهمست له كأنه صديق :

ـ وداعا يا هكتور ، وداعا •• انى راحلة الآن ••

وانطلقت العربة ثانية • وبعد دقائق لم يعد البيت ظاهرا • ووقف الفلاحون على عتبات بيوتهم يحملقون فى السيدة الصغيرة الراحلة لا يدرى أحد الى أين ، وخلعوا قبعاتهم تحية لها وتمتموا بتمنياتهم الطيبة التى لم تستطع أن تسمعها •• وعندما وصلت العربة الى قمة التل ، حيث يهبط الطريق نحو ساسكوتسا ، استدارت لورا لتلقى بنظرة أخيرة على قريتها المبعثرة بين التلال ، وقد غلفها قناع رقيق من الدخان الأزرق الرمادى • ثم نظرت مرة أخرى محدقة فيما أمامها •• وكان الطريق الأبيض المتعرج يتلوى تحت أقدام الجياد •

وطفحت عينا لورا بالدموع ، وأحست بقلبها ثقيلا حتى ودت لو استطاعت أن تصرخ فى طلب النجدة ، أو تقفز من العربة التى تنتزعهـــا من عالم شبابها ، ولكنها أحست فجأة بخصرها وقد أحيط بذراع يحميها• وأضفت عليها هذه اللمسة هدوءا • وأشعرتها بالصحبة فيما يحيط بها من وحدة كئيبة • ونظرت الى جورج واستطاعت أن ترى فى عينيه حبـــه الدافىء الذى اكتسح فى لحظة كل ما تبقى فى قلبها من شكوك ومخاوف • وازدهرت على شفتيها ابتسامة بينما راحت قطرات الندى العالقة بأهدابها تسيل على وجنتيها المتضرجتين •

وهمس جورج وهو يشد على خصرها بذراعه :

ـ اننى أحبك !

وخفق قلبها لهذه الكلمات • وأخلدت الى كتفه وقد أدركت أن كلمته انما تفتح أمامها عالما جديدا ، مفعما بالحب ، ربما كان عالما أفضل من ذلك الذى خلفته وراءها • وتمتمت شفتاها مجيبة فى ثقة :

ـ وأنا أحبك !

- ٨ -

تملكت ايون حالة من النشوة العذبة والثقة المفرطة بالنفس منذ أن وعده فاسيلى باكيو ، أمام شهود ، بأن يعطيه كل شيء • واستغرقته نفسه فلم يعد يفكر فى شيء سوى أرضه ، وخططه لزيادة غلتها ، وشريحة الغابة التى سيقطع أشجارها ، حتى أنه لم يعد يلقى بالا الى فاسيلى أو الى أنا كأنه ليس ثمة علاقة بينها وبين البائنة •• ولم يكن يتذكر وجودها الا اذا ما ذكر أحدهم اسمها أمامه ، واذ ذاك كان جبينه يقطب قليلا •

أما أنا فلم تكن تفكر الا فى ايون • لقد نسيت مالحق بها من عار ، وما تعرضت له من ضرب وعذاب وأذى • ولم تشغل بالها مناورات أو خطط وظل قلبها الولهان ينتظر تحقق حلمها كأنه الخلاص ، بينما كانت شفتاها تتمتمان باسمه بنفس الترقب والشغف كما كان يحدث فى الليالى السعيدة الماضية •

واستمرت احتفالات الزفاف ثلاثة أيام ، كما جرت العادة فى هذه الأنحاء • واستقل الموكب كله العربات يوم السبت قاصدا قاعة مجلس المدينة فى جيدوفيتسا • وكان الراكبون فى المقدمة يطلقون مسدساتهم فى الهواء ، بينما جلس الموسيقيون فى العربة الأمامية يعزفون على آلات الكمان حتى كلت أصـــابعهم ، دون أن يســمع مما يعزفون سوى صوت آلة الكونترباص الأجش الرتيب • وتلت هذه عربة العروســين واشبينات العروس ، ثم عربة صغيرة أخرى تحمل الكفيلين وقد بدا عيلهمـــا سيماء الوقار الذى يتلاءم مع جلال المناسبة ، ثم عربة لوالدى العريس وبعض وجوه القرية ، وكانت زنوبيا أكثرهم صخبا ، وسارت فى المؤخرة عربات تحمل الشبان والشابات وتضج بالضحك والضجيج •

وأدرك ايون الآن فقط أن عليه أن يتسلم أنا مع ما سيتسلمه من أرض ، وأنه بدونها ما كان لينال هذه الثروة أبدا • لم يكن قد تكلم معها كلمة واحدة طوال شهور سابقة • وبدت له شخصا غريبا فما كان يستطيع أن يصدق أنها تحمل فى أحشائها جنينا ينتمى اليه •• وراح ينظر اليهـا ويعجب كيف استطاع أن يقبل وأن يحتضن مثل هذه الفتاة العجفاء ، ذات العينين الغائرتين من فرط ما ذرفتا من دموع ، والخدود الذابلة الجافة التى تشوهها بثور باهتة • وبدت أنا فى زينتها وثوب عرســها أكثر سماجة وقبحا مما تبدو عادة • وكانت ركبتاه تلامسان ركبتى فلوريكا

التى كانت أنا قد اختارتهـــا مع مارجريتا ، ابنـة كوزما كيوكاناش ، كاشبينتين لها . كانت فلوريكا بوجنتيها الموردتين وشـــفتيها الحمراوين المتلثتين وعينيهـا الزرقاوين الصـافيتين كالســماء فى ليلة صـــيف نموذجا للصحة والبهجة التى حاولت أن تخفيها دون جدوى . وتذكر ايون كيف كان يضمها بين ذراعيه فى الخريف الماضى وقبل ذلك أيضا ، وكيف كان يهتم بها ويعزها ، وكيف وعدها بالزواج منها . وأحس بالخجل لأنه يتزوج الآن فتاة أخرى . ولم يستطع أن يحول عينيه عن فلوريكا ، فأخذ يضحك فى بلاهة . واضطربت الفتاة تحت نظراته الثابتة وظلت تتكلم دون انقطاع بسرعة كبيرة كأنها تتكلم بدافع الخوف . كانت تتكلم حينا مع العروس التى كانت تذرف دموع السعادة ، وتتكلم حينا آخر مع مارجريتا التى كانت حزينة صامتة كشأنها دائما كلما تزوجت فتاة فى القرية ؛ والتى كانت تقول دائما لنفسها فى مثل هذه الحالات أن هذا العريس كان من نصيبها لو أن الفتاة الأخرى لم تخطفه منها .

قيد الكاتب اسمى العروسين فى الســجل ، ثم تلى باللغة الهنغارية الفقرات القانونية الخاصة بالزواج ، ثم ألقى نظرة الى بطن العروس وابتسم قائلا بلهجة غير رسمية :

ـ يبدو أنكما تعجلتما الأمور بعض الشىء . على كل حال هذا لا يهم . أتمنى لكما حظا سعيدا !

وضحك ايون كما ضحك الآخرون من قلوبهم ، ولكنه توقف فجأة عندما بدا له أن الكاتب يحاول أن يسخر من قبح أنا . وتلفت حوله بسرعة نحو فلوريكا التى كانت تنظر الى الأرض ، وقد راحت تحاول أن تمنع نفسها من أن تنفجر ضاحكة فى شماتة . والتمعت فى ذهن ايون فكرة مفاجئة وهو يهبط الدرج خارجا من دار القضاء ، بينما كانت أصــــداء الطلقات المنبعثة من الفناء تتردد فى مرح : « ماذا لو أنى أخذت فلوريكا الآن وهربت بها الى العـــالم الفسيح وخلصت نفسى الى الأبد من هذه المخلوقة القبيحة ؟

وبنفس السرعة مرت بخاطره صورة الأرض ، وأضاف بازدراء : « وأظل معدما طوال عمرى .. من أجل فتاة ! ان الله سيصب على لعناته بالتأكيد لو فعلت » .

وقام بلكيوج بأداء المراسم الدينية على خير ما تكون جمالا وجدية كما لو كان العروسان من طبقة السادة ، فقد كان يطمع فى هدية كبيرة

من أجل بناء الكنيسة الجديدة ، رغم أن اختيار السيد والسيدة هرديليا ككفيلن للعريس أضعف لديه هذا الأمل ٠ وخيل لايون أن القس نظر بدوره الى أنا نظرة احتقار ، فأحس مرة أخرى بحبه لفلوريكا يتحرك بين جوانبه ٠

وأقيمت وليمة الزفاف فى بيت العروس ٠ وكانت بضعة دنان من الخمر المطيبة كافية لأن توجد جوا مرحا بين الضيوف ٠ وانطلقت التمنيات وصيحات المرح هنا وهناك واختلطت فى جو المكان الذى عبق بروائح ثقيله ٠ وكان فاسيلى باكيو أول من أدركه الثمل ، سعيدا بأن خطته قد نجحت وأخذ يصيح بزوج ابنته مرارا وتكرارا فى صوت غريب وعيناه تلتمعان فى خبث :

ـ لا تخف يا بنى ، سأعطيك كثيرا من الأرض ٠٠ كثيرا جدا فى الحقيقة ! لك أن تتأكد من هذا ! ٠٠

أما ماكيدون سيرسيتاشو الذى كان منظم الحفل ، فلم يكن يتكلم الا شعرا ، كما يليق بمهمته ٠ وكان يطعم كلماته أحيانا بأوامره العسكرية التى لا تقدر بثمن ٠ وفى الداخل ظل الراقصون يمارسون رقصهم فى ردهة البيت وفنائه حتى تصببوا عرقا ، بينما كان العازفون يشربون الخمر ليغالبوا ما أصابهم من اعياء ، وكانت رئيسة الطهاة ، وهى والدة فلوريكا، تجوس بين المناضد المحملة بالطعام ، وقد أمسكت بملعقة كبيرة فى يدها، وعقدت ذيل ردائها فوق ركبتيها ، تمتدح كل ما صنعت يداها من طعام ، ثم تصيح بصوت عال لتتفوق على زنوبيا التى كانت فخورة بمكانتها كأم للعريس ، فشربت كل ما اعترض سبيلها من خمر حتى ثملت الى أقصى حد ٠ وحضر كفيلا العريس الى مأدبة الزفاف يصحبهما تيتو وجيجى وتكلما باستفاضة عن لورا مع الشخصيات البارزة التى تجمعت حولهما ، ولم ينسيا مع ذلك أن يشربا نخب العروس والعريس ويقولا لكل انسان ان العروسين متوافقان تماما وانهما سيكونان سعيدين معا كل السعادة ٠

وعند منتصف الليل توقع الجميع أن ترقص العروس رقصة هدايا الزفاف ٠ ولكن هذه الرقصة كانت أكثر من أن تستطيع أنا أداءها بسبب الحمل فرقصت اشبينتها الأولى فلوريكا نيابة عنها ٠ ودار بها العريس بقوة عدة دورات ثم ألقى بعملة فضية فى الوعاء المزخرف بالزهور ٠ وأخرج هرديليا ورقة مالية من فئة العشرين ريالا ولكنه كلف تيتو أن يرقص بدلا عنه ٠ وتلاه الضيوف كل بدوره ، وقدم كل منهم هدية

تتناسب مع مشاعره نحو العروسين وما لديه من مال ٠٠ وجلست أنا فى هذه الاثناء على أريكتها تستشعر الخجل لأنها لم تستطع أن ترقص بنفسها رقصة الزفاف ، وأحست بشىء من الغيرة لأن ايون احتضن فلوريكا بقوة أكثر من الآخرين ، ولكنها كانت تشعر باحساس عذب بالقناعة ، وتحلق فى سماوات من سعادة لانهائية ، كأنها نالت ما يكافئها على كل ما عانته٠

وانتهت رقصة العروس ، وبدأ بريسياج يعزف لحن رقصة السومشانا الصاخبة ٠ واشترك الشباب والشيوخ فى هذه الرقصة ٠ ورقص ايون مع فلوريكا مرة أخرى ، ولم يلبثا أن وجدا نفسيهما فى غمرة الضجيج بالقرب من الباب ، حيث كان الضوء خافتا ٠ ولم ينبس أى منهما بكلمة ، ولم تجرؤ الفتاة على النظر فى عينيه ٠ كان يضمها الى صدره فى عنف وقد تملكته حمى الانفعال ، وضغطت أصابعه على ردفيهـــا المستديرين المتلئين ، ونسى أنا تماما فتخيل أن فلوريكا هى عروسه ٠٠ وهمس فجأة فى أذنيها بصوت أجش وعينان متوقدتان :

ـ أنت يا فلوريكا الانسانة الوحيدة فى العالم التى أحبها حقا ! أتسمعيننى ؟

وضمها الى صدره فى حرقة وهو يجز على أسنانه ، حتى تراجعت الفتاة فى خوف وتلفتت حولها فى خجل وارتباك ٠

وتنبهت أنا فجأة فى نفس اللحظة كأنما لدغها ثعبان ٠ وأحست بأحلام سعادتها تتبعثر وكأن عاصفة قد اجتاحتها وأعادتها الى حياة البؤس القديمة٠٠وأجهشت فجأة بالدموع المريرة عسى أن تعينها على طرد مخاوفها الشريرة ٠٠ ولكن من ذا الذى يعير اهتماما الى دموع عروس ؟ ٠٠ وعندما عاد ايون بعد ذلك وجلس الى جوارها قال لها فى قسوة :

ـ لماذا تبكين هكذا ؟ أنت لست مسوقة الى المشنقة ؛ أليس كذلك ؟

وتمتمت أنا فى صوت حزين :

ـ انها قسمتى ، ونصيبى !

وتساءل ايون فى صوت خفيض وقد كف عن الاهتمام ببكائها وراح ينظر فى نهم الى الوعاء الذى جمعت فيه النقود ، بينما كان الكفيل يعاود عدها خشية الخطأ :

ـ ترى كم من المال قد جمع ؟

وفى اليوم الثالث انتقلت الوليمة الى بيت العريس حيث انتقلت العروس يصحبها صندوق بائنتها ، يتبعها قطيع كبير من الماشية والدواجن لم يكد فناء بيت جلانيتاشو يتسع له ٠

كان فاسيلى باكيو فى قمة مرحه كأنه قد تخلص فى النهاية من هم عظيم ٠ وظل ينظر فى ازدراء نحو ايون الذى انتفش كالطـاووس وكان يتبختر فى زهو المنتصر ٠ وقال فاسيلى لنفسه برضاء متزايد :

ــ انتظر قليلا أيها الفتى ، فلن تلبث أن تعرف من هو فاسيلى باكيو فى الحقيقة !

الجزء الثانى

صوت الحب

الفصل السابع

فاسيلى

- ١ -



هرديليا بينما كان يحصى حسابات الزفاف قائلا : « ان زواج الابنة يكاد يكون كالحـــريق تدميرا ! فلنأمل أن تكون عاقلة وسعيدة ! »

وكان المنزل بدون لورا يبدو مهجورا • وظل الجميع يتحدثون عنها دون انقطاع • وكانوا يحزرون أين بلغت فى رحلتها ، وماذا يمكن أن تكون فاعلة • وكانت السيدة هرديليا وجيجى تذرفان الدمع كلما صادفتا شيئا صغيرا مما خلفت لورا وراءها •

واستأنفت الحياة مجراها المعتاد فى اليوم التالى ، غير عابئة بأفراح الانسان أو أحزانه • وجاء خطاب مسجل من لندفاى وكيل الدعاوى معلنا تاريخ البيع بالمزاد ، وهو البيع الذى كانت السيدة هرديليا تخشاه رغم أن تيتو قد أوضح لها أنه مجرد اجراء شكلى • وظل المدرس ، الذى لم يكن فى الخفاء أقل قلقا من زوجته لهذا الأمر ، والذى كان بحاجة الى كلمة تشجيع تبعث فى نفسه الطمأنينة وتهدىء من مخاوفه ، يتحين فرصة ليخبر بلكيوج بكل مايعانيه من متاعب • وأخيرا وجد الفرصة المنشودة •

فعلى الرغم من البرودة الملحوظة التى كانت تشيع بينهما ، الا أن كلا منهما كان يتظاهر بأنه لا يلحظها ، وكان هرديليا يامل باعترافه هذا أن يلين قلب القس وأن يمهد الطريق الى صلح حقيقى ، مدفوعا الى ذلك بخوفه المتزايد من أن يخدعه القس فيما يتعلق ببيته • وأعرب بلكيوج فى ابتداية عن دهشته ، ثم عن عطفه ، وعيناه تلتمعان بشكل غريب • وأضاف أنه سوف يحضر المزاد ليقدم معونته اذا استوجب الأمر ذلك • كان المدرس سعيدا بأنه قد طيب خاطر القسيس ، فقد يدفعه هذا فى النهاية الى أن يكتب حجة نقل ملكية قطعة الارض التى وعد بها هرديليا منذ سنوات ، عندما شرع المدرس باطمئنان فى بناء منزله • ولم يجرؤ أن يبوح لزوجته بما فعل • فقد كان نفورها من الأب الخبيث ذى الشعر المنفوش نفورا لا يتزعزع • ولم يلبث الهرج الذى صاحب زفاف ايون أن أسدل ستارا من النسيان لبعض الوقت على همومه اليومية •

ووصل المحامى فى صباح يوم الجمعة المحدد ، ولكنه لم يمكث سوى لحظة ليبلغ المدرس بأن لديه عملا عاجلا فى أرماديا ، وأنه سوف يحضر الاجراءات أثناء عودته فى الظهيرة •

وأصبح هرديليا مضطرا أن يبلغ أسرته بطريقة ملتوية أن بلكيوج أيضا سوف يحضر المزاد ، وأن القس على استعداد أن يشترك فى المزايدة اذا دعى الأمر • وشعرت زوجة المدرس على الفور بأن هناك خدعة ما فى هذا الموقف ، وقالت وقلبها يهبط الى قدميها :

ــ سوف ترى أيها الرجل أن هذا الخنزير يخفى شيئا فى جعبته • تذكر قولى هـذا ، فاننى عندما أحس بهذا الشـعور تجاه شـخص ما ، تستطيع أن تتأكد أنه وحش حقيقى !

وارتبك المدرس وغمغم معترضا بصوت واهن :

ــ أنه ليس مسـتهترا الى هذا الحد ؛ وفضـلا عن ذلك فانه قسيس وسيشينه أن •••

وزادت كلماته من مخاوف زوجته التى كانت قد فكرت فى الذهاب مع جيجى الى القرية لتستأجر امرأتين لعزق الأرض وامرأة ثالثة لتغسل المفروشات ، فعاودت التفكير فى الأمر وقررت البقاء فى المنزل :

ــ من الخير أن أبقى هنا أنا أيضا • فأنت من ضعف الارادة بحيث تستطيع أن تغمض عينيك عن أى لعبة غادرة قد يلعبونها عليك •

وكان بلكيوج قد رأى عربة المحامى مارة فأسرع على الفور الى بيت هرديليا ، ولكنه مع ذلك وصل متأخرا • واذ كان لا يدرى بما حدث فقد

دخل المنزل ووجهه يتألق بشرا · وشرح هرديليـــا الموقف له بارتباك عظيم ، وكان يرقب زوجته طوال الوقت بنظرة جانبية بينما كانت تجلس فى مقعدها متجهمة دون أن تجيب حتى على توددات القسيس · وخرج المدرس الى الشرفة ليتجنب الصدام ، وجلس يسامر الأب بلكيوج حتى يعود المحامى المجرى · كان يوما رائعا من أيام الربيع ، وكان الهواء يعبق برائحة الزهور البرية العذبة ، بينما كانت السماء تبدو كمرآة مسحورة · وعلى الجانب الآخر كانت هناك لوحة معدنية تحمل صورة المسيح المصلوب ، وكانت عيناه تغضان الطرف كما لو كان آسفا أن يكون وجوده لا يتفق مع الرغبة العارمة فى الحياة التى كانت تنطق بها كل خلية من خلايا الطبيعة التى عاودت يقظتها ·

وظل القس يفكر فى أنه من الأفضل أن يرحل ، ولكنه مع ذلك ظل جالسا كأنه ملتصق بمقعده · وعلى الرغم من أنهما استمرا يتحادثان الا أن رنة حديثهما كانت من البرودة حتى أن أيا منهما لم يكن يجرؤ على النظر الى عينى الآخر · وبدأ بلكيوج يتحدث عن لورا وعن أسرة بنتيا لكى يذيب جليد الحديث ، فقد كان هرديليا يجد متعة فى التباهى بأقاربه الجدد ·

ــ لابد أنك قد عرفت بنتيا العجوز منذ زمن بعيد ، فقد كنت أنت نفسك مدرسا فى ليشنتسا منذ سنوات ، أليس كذلك ؟

وأجاب هرديليا بابتهاج طال انتظاره :

ــ ليس هذا صحيحا تماما أيها الأخ ايون · فأنت تعلم أن هناك عديدا من البلاد فى هــذا العالم تحمل اسم ليشنتسا · وقد كانت قريتى هــذه كفرا مهجورا فى أطراف وادى ديوجو ، فى حين أن ليشنتسا التى يعيش فيها صهرى مدينة وأى مدينة ·

وفى هذه الأثناء كانت السيدة هرديليا وجيجى تجلسان فى غرفة الجلوس حيث كانتا تصبان السباب واللعنات بحماس على بلكيوج ، بينما كانتا تنتظران عودة تيتو من أرماديا ، التى أسرع اليها فى الصباح الباكر ليقترض بعض النقود من مكتب محصل الضرائب بضمان مرتب المدرس ، اذ لم يكن فى البيت كله أى نقود على الاطلاق ·

ووصل المحامى بأسرع مما كان متوقعا ، مصطحبا معه كاتب المحكمة العجوز ، الذى كان منزعجا لأقصى حد لفكرة أنه سيتعين عليه أن يعود الى أرماديا سائرا على قدميه بعد انتهاء الاجراءات · وارتقى المجرى درجات الشرفة بابتهاج ، مبتدئا خطبته منذ كان فى الطريق العام :

ـ لقد كنت محظوظا فى كل مكان ٠٠ وأنهيت عمـــلى بأسرع مما توقعت ٠ وأتعشم أن أعود الى بيتى فى بيستريتسا فى موعد الغذاء ٠ ان زوجتى دقيقة جدا فى مواعيد الوجبات ويسعدها أن نتمكن من تناول طعامنا سويا ٠ ان هذه طريقة سهلة جدا لاسعاد امرأة ، أليس كذلك ؟

وخرجت جيجى والسيدة هرديليـــا من غرفة الجلوس بمجرد أن سمعتا صوت لندفاى ٠ وحياهما المحامى ببعض عبارات المجاملة باحترام بالغ ، ولكن زوجة المدرس أحجمت عن الاجابة على هذه المجاملات التى ألقيت باللغة الهنغارية ، والتزمت الصمت وتجهمت ملامحها ، حتى أسرع زوجها قائلا : « ان زوجتى لاتعرف الهنغارية ٠٠ » حتى لا يستاء المحامى من تصرفها ٠

ـ ماذا ؟ لا تقل هذا ؟ ومع ذلك فان صحافتكم لا تكف عن الصياح بأنكم مقهورون ، وأنكم تتعرضون للارهاب وتحولون الى مجريين ٠ ان هذا جد مثير للاهتمام ! ٠٠ أتعتقد أنهم فى ألمانيا أو فى فرنسا يتسامحون مع مدرس لا تتكلم زوجته لغة البلاد الرسمية ؟ اننى أؤكد لك أننى لا أعتب عليك شخصيا ، ان السياسة لا تثير اهتمامى ٠ لقد كان هذا أقرب الى أن يكون ردا على أحد زملائى الرومانيين ، كان يشكو لى منذ وقت قليل ، فى أرماديا من أن أعمال القهر وسوء معاملة الرومانيين المساكين قد بدأت من جديد ، وأن هذا قد اقترن هذه المرة بالانتخابات البرلمانية المقبلة ٠٠ ها ! ٠٠ ها ! ٠٠ ان هذا غريب فى الحقيقة !

كانت كلماته تنساب بسرعة ، وكانت عيناه ترمقان ماحولهما كعينى الصقر حتى لا يهمل عمله ٠

وشعر بلكيـوج أنه هو أيضا هـــدف لملحوظة المحـــامى ، فأجاب بالرومانية وقد انتفخت أوداجه غضبا :

ـ ان الظروف فى ألمانيا وفى البلدان الأجنبية الأخرى مختلفة تماما ياسيدى ٠ فنحن هنا فى بلادنا ، ونحن هنا كأمة مجردون من حقوقنا ، نرزح تحت وطأة ماعلينا من ضرائب والتزامات ٠٠

وتساءل لندفاى بدهشة وقد ساءه أن الآخر قد أجابه بالرومانية :

ـ « من هذا السيد ؟ وماذا قال ؟ » وأضاف على الرغم من أنه كان قد فهم تماما : « ماذا قال ؟ » ٠

حاول هرديليا أن يغير موضوع الحديث خوفا من أن تفسد المناقشة الجو وأن يتحمل هو مايترتب على ذلك من نتائج ، فقاد لندفاى الى أول

غرفة حيث كان الأثاث القديم البالى يتكون من سريرين يقومان الى جانب الحائط ، ومائدة للطعام ، وأريكة خشبية ٠

وقال المحامى دون أن يتوقف :

ـ « لا شيء هنا ذو قيمة تذكر ، أليس كذلك ؟ » وانتقل الى غرفة طويلة ضيقة تطل احدى نوافذها على الحارة ٠ بينما تطل نافذتها الأخرى على الحديقة ٠ وأضاف صائحا « هكذا اذن ، دعنا نبدأ هنا ! ٠٠ هل أنت على استعداد ياسيدى ؟ » كانت كلماته الأخيرة موجهة الى الكاتب الذى جلس باكتئاب الى مكتب هرديليا وأخرج من حافظته التى أبلاها الزمن حزمة من الأوراق ٠

بين الأثاثات المصادرة ، كانت هناك منضدة مطلية باللاكيه ذات قوائم منقوشة ، يغطيها مفرش مثلث الألوان ، كانت السيدة هرديليا قد طرزته بنفسها عندما كانت فتاة شابة ، كما كان هناك سرير لطيف يماثل السرير القائم فى غرفة الجلوس والذى كانت الفتاتان تستخدمانه ٠

وكان وكيل الدعاوى يختلس نظرات مرتابة الى بلكيوج الذى كان يبتسم بوداعة ، والذى كانت نظرة السيدة هرديليا غير الودية الموجهة اليه من الغرفة المجـــاورة تفزعه بعض الشيء ، بينما كان الكاتب يعد أوراقه ٠

وتساءل لندفاى فجأة بسخرية :

ـ مزايد ، أهو مزايد ؟ ٠

وغمغم القسيس قائلا :

ـ وصديق آ

وهمهم المحامى قائلا بازدراء :

ـ « طبعا ، صديق يشترى كل ماتصل اليه يداه من أصدقائه فى شدتهم » ثم التفت مرة أخرى الى الكاتب قائلا : « حســـنا ، هل أنت مستعد ؟ »

وغمغم الموظف بلهجة متسائلة قائلا :

ـ نعم ياسيدى ٠ بماذا نبدأ ٠٠

ـ « المنضدة والسرير » قالها هرديليا بصوت مبحوح بعض الشيء بينما ثبت عينيه على لندفاى ينتظر موافقته ٠

وقرأ الكاتب من أوراقه بصوت أكثر وضوحا :

ـ منضدة واحدة من خشب الجوز ، ثلاثة وعشرون ريالا !

وأجاب المحامى مشيرا الى الكاتب أن يكتب :

ـ أربعة وعشرون !

وسار بلكيوج الى المنضدة ، وازاح غطاءها ، وطرقها طرقا خفيفا ثم صاح معلنا :

ـ ستة وعشرون !

صوبت اليه نظرات كالخناجر من كل جانب ، بينما همست السيدة هرديليا فى الغرفة المجاورة ببضع كلمات بصوت غير مسموع ، وقد اكتسى وجهها بلون قرمزى . وصاح لندفاى بعد أن تردد لحظة :

ـ ثلاثون !

ـ اثنان وثلاثون ! قالها القس وقد تسمرت عيناه على المنضدة .

وانفجر المحامى قائلا فى غيظ :

ـ الدفع نقدا ، أتفهم هذا ؟

فأجاب بلكيوج وهو يخرج حافظته من ثنايا ردائه الكهنوتى :

ـ نعم ، بالطبع .

وهز لندفاى كتفيه قائلا :

ـ سأكف أنا اذن عن المزايدة ! ونظر الى هرديليا ، الذى اكتسى وجهه المتحير المرتاع بتقطيبة مريرة ، نظرة حائرة .

وبقى القسيس حتى النهاية ، كأنما هو تهديد يلوح فى الأفق ، وظل يتحسس كل قطعة من قطع الأثاث ويطرقها بأصابعه ، ولكنه مع ذلك لم يتدخل مرة أخرى . وعندما انتهت العملية كلها طلب المحامى الى هرديليا أن يوقع الفواتير ودفع للكاتب ما يستحق من أتعاب .

وقال المحامى وهو يستأذن فى الانصراف :

ـ اننى على ثقة يا سيد هرديليا الآن على الأقل من أنك ستكون أكثر مواظبة فى سداد الأقساط . ان تكبد كل هذه النفقات شىء مؤسف ، ولو أننى فى الواقع قد فزت بنصيب الأسد .. حسن اذن ، أستودعكم الله ! ثم أضاف قائلا للسيدة هرديليا ، ضاحكا : « استودعك الله يا سيدتى ، اننى آسف لأننى لا أعرف الرومانية ! »

فأجابت السيدة هرديليا وهى تلقى بنظرة غيظ الى بلكيوج :

ـ خير للانسان ألا يعرف الرومانية من أن يضع مشاعره فى غير موضعها .

وتساءل وكيل الدعاوى وهو يسير خارجا من الغرفة :

ـ ماذا قالت ؟ ماذا قالت ؟ ولكنه مع ذلك لم ينتظر ليسمع ترجمة ما قالته ٠

وقال القس للمدرس بهدوء عند عتبة المنزل وهو ينصرف مودعا :

ـ وعلى هذا فسأحضر فى الغد اذن لآخذ منضدتى يا زهاريا ٠

وتلعثم هرديليا وهو يجيب :

ـ لتأخذ ماذا ؟ ٠٠ المنضدة ؟ ٠٠ آه ، أجل ، بالطبع !

ـ لقد لاحظت أن هذا الأمر قد أطاش صواب السيدة هرديليا ، ولكن حقا ما باليد حيلة ٠ وفى الحقيقة لقد كنت محتاجا الى منضدة بهذا الحجم تماما ! حسن اذن ، الى اللقاء يازهاريا ٠

واذ خرج بلكيوج الى الطريق ، صافحت عينيه صورة المسيح الذى بدا وهو مصلوب على الصليب كأنما يتلوى ألما بشكل مثير للرثاء ٠ ورسم بلكيوج علامة الصليب وسار بخطواته المتزنة المعتادة ، وقد ثبت عينيه الى الأرض كما اعتاد دائما ، وشعر قلبه بارتياح عميق لأنه قد استطاع أخيرا أن يعطى آل هرديليا درسا شاملا يستحقونه ٠٠

وبدأ المدرس يشعر الآن فقط بكل نذر الفتنة التى أخذت تتجمع ، وعلى أية حال ، فقد أحجم عن أن يذكر أن بلكيوج ينتوى بالفعل أن يأخذ المنضدة ٠ وكان يعتقد فضلا عن ذلك ، أن القس انما يحاول أن يبث الفزع فى نفسه ؛ وكان يقول لنفسه أنه لا يمكن أن يعنى هذا حقا ، فانه أمر لا يمكن أن يقبله العقل ٠

ومع ذلك فان الأب بلكيوج جاء يطرق الباب فى اليوم التالى ، بينما كان هرديليا فى المدرسة ، وكان تيتو ما يزال فى سريره ٠ وفتحت السيدة هرديليا الباب ورأت القس وقد وقف خلفه غجرى عجوز ملتح يمسك بقبعته فى يده ٠

وغمغم بلكيوج مشيرا الى الغجرى :

ـ لقد جئت من أجل المنضدة !

فتمتمت السيدة هرديليا بارتباك :

ـ آه ، نعم ٠٠٠ فى الحقيقة ٠٠ تفضل بالدخول !

وبدأت السيدة تخلى أدراج المنضدة ، وهى لاتكاد تنتبه الى حركاتها٠

كانت يداها ترتعدان ، وكان عقلها يبدو مخدرا ٠٠ ولكنها اسـتعادت حواسها فجأة وهى تعيد الدرج الفارغ الى مكانه ، وتنبهت مما اعتراها من ذهول ، وسألت بلكيوج :

ـ ماذا تنوى أن تفعل بالمنضدة ؟

ورد القسيس ، الذى كان مستندا الى اطار الباب ، بابتسامة صريحة وأجاب بهدوء :

ـ هذا هو ما اتفقت عليه مع زهاريا ٠

ترنحت السيدة هرديليا ٠ وأعقب ذلك فترة صمت قصيرة ٠ ورفع بلكيوج أنظاره وعندما رأى زوجة المدرس تتحرك نحوه والشرر يتطـاير من عينيها اختفت ابتسامته على الفور ٠

وصاحت السيدة هرديليا فجأة :

ـ وهكذا فأنت تعنى أن تقول أنك قد جئت لتسرق القليل الذى تبقى فى بيتى ! أخرج أيها اللص ، والا فسأكسر عنقك ! اذهب ، أيهـا الحيوان !٠٠٠ ينبغى أن تخجل من نفسك ! أتسمى نفسك قسا أيهـــا الوحش !٠٠ اذهب من هنا ٠٠ أخرج !٠٠

كانت السيدة هرديليا تصيح كأنما أصابها مس من الجنون ، وكانت تتلفت حولها باحثة عن شىء تحطم به جمجمة الرجل الذى جاء ليسرق متاعها٠ وانسحب بلكيوج مذعورا دون أن ينبس بكلمة ٠ وفى تلك اللحظة وقعت أنظار المرأة على المكنسة فانتزعتها واندفعت خارجة الى السقيفة حيث كان الغجرى واقفا يحملق بارتباك ، واذ لم يكن القس فى متناولها فقد انهالت بالمكنسة على ظهر الغجرى صارخة :

ـ أخرجوا من هنا ! ٠.٠ أخرجوا ، أيها الأوغاد !

واندفع الغجرى خارجا من البوابة ، بينما استمرت السيدة هرديليا فى الصياح وهى تهز مكنستها متوعدة القس الذى كان يتقهقر مسرعا ٠

ـ آه ، أيها الأحمق ! لأعلمنك الأدب حتى ولو كان أبوك لم يعلمك اياه ! أيها الخنزير ! أيها الخنزير !

سمعت زنوبيا التى تعيش فى المنزل المقابل على الناصية الاخرى من الطريق صوت العراك ، فخرجت على أعتاب بابها مستفسرة :

ـ ماذا حدث يا سيدتى ؟ ما شأنك بالقسيس ؟

فصاحت زوجة المدرس وعيناها ما زالتا تشتعلان غضبا ، ولو أن غضبها كان قد هدأ بعض الشيء :

ـ ليأخذه الشيطان ، هذا اللص !

- ٢ -

كان قلب ايون بعد أسبوعين من الزفاف ما يزال ممتلئا بالزهو والرضى . كان يشعر بأنه أسعد انسان فى العالم ، وكان يتباحث كل مساء مع جلانيتاشو وزنوبيا وأنا حول ما ينبغى أن يشتروه بالنقود التى جمعت فى حفل الزفاف . أيشترون عجلا صغيرا ؟ انها فكرة نيرة ، فانهم فى هذه الحالة ، بفضل « العجلة » الفطيم التى أحضرتها أنا ضمن بائنتها، يمكنهم خلال عامين أو ثلاثة أن يصبح لديهم قطيع ظريف من الثيران .. وكان ايون يتوق الى أقصى حد الى شراء حصان آخر أيضا ، اذا توافر لديه المال .. كما أنه يحب أيضا أن يحتفظ ببعض المال فى حزامه ، ليكون فى متناوله ليشترى به أى قطعة أرض جيدة قد تلوح له ، فيوسع بذلك رقعة مزرعته وأراضيه .. كانت هذه النصائح تسره ، فقد كانت ترفع من مقامه ، خاصة أن الجميع كانوا يوافقون على كل ما يشير به ويتملقونه كأنه أحد ملاك الأرض الكبار .

واتخذ ايون موقفا جديدا تجاه الفلاحين ايذانا منه بأهمية وضعه الجديد كمزارع غنى . فأصبح الآن يسير فى الدرب بخطوات أكثر اتزانا ، وأصبحت لهجته فى أحاديثه مع المزارعين الآخرين أكثر ثقلا ، أما موضوع الحديث فكان يتحول على الدوام الى الارض والملكية . بل لقد كان يشعر أن سمات المنازل والحدائق نفسها قد اختلفت ، وانها أصبحت تبدو أكثر خضوعا .

وبدت الطبيعة كأنها قد ارتدت أبهى ثيابها لكى تحتفل بانتصاره . كان الربيع قد استقر فى الحقول كأبهى ما يكون . وكانت البراعم قد نبتت على الأشجار ، وظهرت الخضرة فى ألوان تزداد اشراقا يوما بعد يوم ، كأنها عباءة سحرية سقطت على التربة العارية السوداء الشاحبة العتيقة ، واكتست الغابات بالأوراق اليانعة ، وكانت رائحة الأرض اللاذعة المسكرة المنعشة تعبق الجو كأنها أنفاس مارد استيقظ لتوه سليما معافى بعد رقاد عميق ـ كان كل شيء يبعث السرور فى نفس الانسان ، ويجدد شبابه وفرحته بالحياة . وكانت المحاريث تقرقع فى الدروب كل

صباح ، وتصعد منحدرات الصلصال وتظل طوال يومها تشق أرض الحقول ، التى جمدها برد الشتاء • وكانت قطعان الأبقار تبحث هنا وهناك عن باكورة الأعشاب النابتة ويسيل لعابها عندما تمضغها بلذة •

وكثيرا ما كان ايون يذهب الى الحقول ليستمتع بمرأى أرضه • كان منخريه ينتفخان اذ يستنشق أنفاس الربيع ، وكانت عيناه تهيمان بشوق على خطوط الأرض المتألقة بينما يغمغم بقناعة لا تخلو من زهو :

ـ والآن أصبح لدينا أرض أيضا ، أرض كثيرة ، والحمد لله • كل ما احتاجه الآن هو الصحة لكى أفلحها !

لم يكن يتعجل بدء الحرث والبذر لموسم الربيع •• كان قد قدر أنه على أى الأحوال لن يستطيع أن يفلح كل شرائح الأرض بنفسه ، وسيتعين عليه أن يستأجر بعض الرجال ليساعدوه ، وهؤلاء سيكونون أقل أجرا فى نهاية موسم العمل • واذ كان لا يزال أمامه أسبوع أو أسبوعان آخران ، فقد فكر أن يسوى أموره مع حميه وأن يسجل حجج الأرض باسمه كما اتفقا من قبل •• وأخبر أنا أنهما سوف يذهبان معا مساء يوم السبت الى بيت فاسيلى باكيو ليحددا موعدا يوم الاحد • كانت المرأة توافق مقدما على كل ما يقول ، فلم تكن تحاول أن تفهم كل خططه • كانت سعيدة بأنها تستطيع أن تعيش الى جوار الرجل الذى تحبه ، ولم يكن ثمة ما ينهش قلبها سوى تلك الذكرى التى تطاردها ، ذكرى ايون وهو يحتضن فلوريكا فى حفل الزفاف ، ولكنها لم تكن تجرؤ على أن تصرح بمخاوفها حتى لنفسها •

كان ايون يعجب اذ يراها مطيعة ووديعة أكثر مما ينبغى ، كيف يمكن أن تتصرف على هذا النحو ، وكان يشعر بأنه لا يستطيع أن يحتملها حتى الى القدر الذى كان قبلا • وكان اذا ما أقبل الليل وأويا الى فراشهما ، يشعر بجسده يتصلب الى جوار جسدها ، وكانت كلمات الحب التى تهمس بها تثير سخطه بقدر ما يثيره تنفسها المجهد الثقيل بسبب الحمل • لكنه مع ذلك كان صبورا معها ، ولم يكن يعاملها بجفاء على الاطلاق ، اذ كان يقدر أنه مدين لها بنجاته من الفقر • ومع ذلك فقد كانت ذكرى فلوريكا كثيرا ما تعاوده ، فيخفق قلبه وتتسارع دقاته •

وذهبوا جميعا يوم الخميس الى السوق فى أرماديا ليشتروا «العجل» الصغير ، وأمضى ايون يوم الجمعة فى أعمال اضافية فى المنزل ، لمجرد قضاء الوقت •

واستقبلهم فاسيلى باكيو بغير مبالاه ؛ فقد كان يعرف ماجاء ايون من أجله جيدا · وتركه يتكلم حتى ذكر ايون كلمة التسجيل فهب واقفا كأنما لدغته حشرة ، وبصق ثم صاح :

ـ اذن فأنت تريد أن تتركنى مفلسا يا بنى ؟

فسأله ايون وقد اتسعت حدقتاه كأنهما طبقان ، وبدا كأن أحدا قد ضربه فيما بين عينيه :

ـ ماذا تعنى بقولك مفلسا يا أبتاه ؟ ألم يكن هذا هو ما اتفقنا عليه ؟

ـ كان هذا هو اتفاقنا بالتأكيد ؛ ماذا كان يمكننى أن أفعل فى ذلك الوقت الا أن أوافقك عندما كانت رقبتى بين يديك · ولكن ألا ترى أن هذا الاتفاق مجحف ؟ ماذا يبقى لى ، وبماذا اعيش اذا ما أعطيتك كل قطع الأرض والبيتين ؟ أم تراك تريدنى أن أعمل فى خدمة رجل آخر فى شيخوختى ؟

فأجاب ايون بصوت متلعثم مختنق :

ـ كلا على الاطلاق ، انك ستعيش معنا دون أن تعمل ؛ أو حتى أن تشغل بالك · انك سوف تريح عظامك المسنة وحسب ـ فقد شقيت بما فيه الكفاية ، هذا هو ما اتفقنا عليه ، أليس كذلك ؟

نهض باكيو من مقعده ، وتجلت فى عينيه نظرة ساخرة خبيثة وصاح مرة أخرى :

ـ اذن فعلى أن أكون خادما لك ، أليس كذلك ؟ أهذا هو ما تريده ؟

ـ ولماذا تكون خادما ؟

فصاح فاسيلى باكيو بلهجة قاطعة :

ـ أسمع يا ايون · اننى أعرف جيدا أن عصفورا فى اليد خير من عشرة على الشجرة ! انى لا أقول أننى لن أعطيك الأرض · اننى ساعطيها لك على أى الاحوال ، بعد موتى ، وعندئذ تستطيع أن تفعل بها ما تشاء · اننى لن آخذ ثروتى معى الى قبرى ، ولن أتركها لأحد آخر ·· ولكننى لن أسجل أى من ممتلكاتى باسمك ما دمت حيا ! وهذا قرار نهائى !

فقال أيون وقد أصابه الهلع :

ـ ماذا تعنى ؟ لا شىء ؟ لا شىء على الاطلاق ؟

ـ لا شيء على الاطلاق يا بنى ، ألا تسمعنى جيـــدا ؟ ومع ذلك فسأترك لك أن تختار خمس قطع من الارض ، أى خمس قطع تعجبك ، حتى لا يقول قائل أنك تطعم ابنتى أو أننى قد أعطيتهـــا لك دون شيء يسترها ، رغم أننى ، وأرجو أن تضع هذا فى اعتبارك ، لم أكن أنا الذى أعطيتها لك ، ولكنك أنت الذى أخرجتها عن جادة الصواب ، وتستطيع أن تعمل محراثك فى هذه القطع الخمس منذ صباح الغد اذا أردت • خذ هذه القطع وافلحها ، فهى لك • أما عن نقل ملكيتها اليك بحجة مكتوبة فهذا مستحيل • دعها باسمى ، فان هذا لن يجعلها أقل قيمة ، كما أنها لن تبكى طلبا للطعام • اننى لن أمنعك من أن تستخدمها كمـــا كنت تتباهى بأنك ستفعل معى •• تخير ما يعجبك ! خمس قطع ! •• ان لدى ثلاثة حقول من القمح الخريفى ، تستطيع أن تأخذها بما عليها من زرع، حتى هــذا لن يهمنى • أو أى حقول أخـرى • أى شيء يعجبك •• خمس قطع ! عندئذ لن يستطيع أحد أن يقول أن ابنة فاسيلى باكيو لم تكن أفضل حالا عندما تزوجت ، من أى فتاة نورية ••

فأجاب ايون بلهجة مهددة ، وقد صار أكثر هدوءا :

ـ حسن يا أبتاه ، اذا كان هذا هو تقديرك للأمر ، ســـوف نرى ما يقوله أناس آخرون !

ـ حسن ، سوف نرى •• ولم لا ؟ ولكننى أود أن أعرف ما سيقوله الناس عنى ، اذا ما قضيت سنوات عمرى الأخيرة تحت رحمتك ! ••• وعلى أية حال ، من ذا الذى يستطيع أن يرغمنى على أن أعطيك ثروتى اذا لم أكن أريد ذلك ، أو من ذا الذى يستطيع أن يطردنى من أرضى ؟ •• آه ، يا بنى ! لقد كنت تظن أنك ستطوينى حول اصبعك ، أليس كذلك ؟ حسن ، يا صديقى الشاب الصغير ، تستطيع أن ترى الآن أنك مخطئ !

فقال ايون بارتباك ، وهو يهز كتفيه :

ـ حسن يا أبت ، حسن ! •• أرجو لك حظا طيبا !

فصاح باكيو بازدراء :

ـ أرجو لك حظا طيبا يا بنى ، أرجو لك حظا طيبا ! •• وهذه هى كلمتى الأخيرة • خمس قطع من الارض ، أتسمعنى ؟ هذا هو دورى ، لقد شويتنى بما فيه الكفاية •••

خرج ايون ، وتبعتـــه أنا التى لم تكن قد نطقت بكلمة واحدة ، والتى لم يكن أى من الخصمين قد تنبه الى وجودهـــا ولو للحظة واحدة · وسار الزوج بخطوات متثاقلة وخيم عليه صمت عميق ، حتى أن المرأة لم تجرؤ على أن تقترب منه ·

- ٣ -

كانت روزا لانج قد تركت أثرا من المرارة فى نفس تيتو · وعلى الرغم من أنه بذل قصارى جهده أن يخفيها أو أن يخمدها ، الا أنه شعر بأنها تشيع فى نفسه بصورة متزايدة ، كما ينتشر الماء فى تربة رملية· لم يكن يستطيع أن يفهم كيف يمكن لحب ملتهب كحبهما أن يصل الى مثل هذه النهاية المفجعة المفاجئة · كانت « مغامرته » هذه ــ كما أصبح يسميها الآن بكبرياء الشاب الذى بدأ يتحول الى رجل ذى ماض ــ قد نزعت ، فيما يبدو ، غشاوة عن عينيه ، ووجدت لمحة من حقائق الحياة الفجة طريقها الى قلبه الذى كان عامرا بالاحلام الوردية · وشيئا فشيئا أصبح يشعر بالضجر والسأم من الحياة ، كأنها أصبحت عبئا أثقل من أن يستطيع حمله · وبدا العالم كأنه قد تجرد من أى فتنة او معنى · واصبح التساؤل : « ماذا أكون ·· والام ستصير حياتى ؟ » يجول بخاطره بشكل أكثر الحاحا ·

وارتفعت أمام عينيه لوحة عريضة ، نسيجها من علامات الاستفهام، كجواب على تساؤله ، وكلها أسئلة لا تجد جوابا فى نفسه سوى فراغ مؤلم ·

كان يدرك تماما أنه لن يستطيع أن يعيش دون أن يكون له هدف محدد فى الحياة ، وقد روعه عجزه عن أن يجد فى أى شىء مما حوله سندا يستند اليه · كان ينظر وراءه فلا يستطيع أن يرى شيئا ، ويعود فينظر أمامه ، فلا يصافح عينيه سوى نفس الفراغ البارد المخيف ·

وفى المساء ، عندما كان يأوى الى فراشه فى غرفة الجلوس ، التى انتقل اليها بعد زفاف لورا ، اذ كانت جيجى تخشى أن تنام فى الغرفـة بمفردها ، كان يردد لنفسه بيأس : « أهذا هو كل ما تدخره الحياة من أجلى ؟ ·· ما هو غرضى فى الحياة ؟ »

كان يظل طوال يومه يجوب شوارع أرماديا وجيدوفيتســـا فى محاولة أن يدفع الضجر والتبرم عن نفسه · ومع ذلك فقد كانت الأسئلة

المعـــذبة تتبعه أنى ذهب ، بنفس الالحاح ، وبنفس التعطش الى جواب ٠ واصبح كل شيء يبدو له مجرد عبث طفولى اذا ما قورن بهذه المشكلات كل شيء حتى اشعاره ، ومظهره الرومانسى ، وحبه المشوب بالغيرة وحماسه الوطنى ٠ ففوق هذا كله كان يرتفع السؤال المضنى :

« من أين جئت والى أين أسير ؟ »

ولكى يجد جوابا لما يبحث عنه قرر أن يقرأ ، ليتعلم ويكتشف فى الكتب ما لم يستطع أن يجده بنفسه ٠ « ان عقلى مشـــوش ٠٠٠ فلا شيء غير التشوش يطرح أسئلة مؤلمة كهذه ٠

وغاص فى بطون الكتب بضعة أسابيع ٠ كان والده يقتنى مجموعة صغيرة من الكتب كان قد اشتراها منذ سنوات ، وكانت من بينها بضـــع كتب شاردة فى العلوم واللاهوت والتربية ٠ وقد ألقى تيتو بنفسه فى هذه الكتب بشغف زاد منه أنه لم يكن يوليها اهتماما حتى ذلك الوقت ٠ وجمع كتبا أخرى من أصـــدقائه فى أرماديا ، أى كتاب كان يصـــل الى يديه ٠٠ وكان يلتهم هذه الكتب بتعطش انسان مريض يبحث عن دواء لمرض غير معروف ، ولكنه لم يلبث أن اكتشف أن التشـــوش الذى يعانيه كان يتفاقم باضطراد ، بدلا من أن يصبح أكثر تنظيما ٠ وكان عزاؤه الوحيد الذى وجده فى غصة آلامه ، هو اقتناعه بأنه أول انسان قدر له أن يعانى عذاب هذه الأفكار ٠

وتملكه فى النهاية شعور غريب بالعقم ٠ واجتاح قلبه اسف غير محدود : « لماذا لا تكون روزا هنا ، حتى ولو كان على أن أقتسمها مع مساعد ستوسيل الكاتب ؟

وبدا عند ذلك أن ذهنه قد توقف ، أو أنه غرق فى مجرى مياه عذبة تنطلق منها هذه الاجابات المخلصة كأنها ألسنة صغيرة من الذهب ٠ « فيم يعنينى ــ على أية حال ــ من أين جئت ، أو ماذا يأتى به الغد ؟ ــ أنه لمن الجنون أن تنكد نفسك بأسئلة لا نهاية لها ٠٠ فحيث تقودك الحياة ينبغى أن تذهب ، وتفعل ما يطلب اليك ! ولا يحاول أن يوقف التيار بجذعه ، أو أن يحوله عن مجراه ، أو أن يتحدى تلك الارادة العظمى التى هى ارادة واحدة وارادة ملايين فى نفس الوقت الا مجنون ٠ انها ارادة عمياء ، وهى مع ذلك تستهدف غرضا محددا ، يجلهه عقل الانسان التافه ٠٠٠ ان الارادة العظمى هى نفسى ، وهى أيضا بقرة ايون أو كلبنا ، وهى الدودة التى تزحف

تحت نعل حذائى لكى تسحق ، أو الحجر الذى تضربه قدمى على الطريق ؛ انها كل شىء كائن فى هذا العالم ، انها السماء وأى شىء قد يكون خلف هذه السماء وتلك النجوم ، وخلف هذا الذى خلفها والممتد أبدا الى أبدية غير محدودة . كل هذا يشكل جزءا من هذا الارادة .. ماذا اذن ؟ ان الحياة وحدها هى التى تعرف ما تريده ، أو ربما كان افتراضى أنها تعرفه ناتج عن أنها هى أيضا لا تدرى .. وأيا كان ماتقود اليه فهو الطريق الصحيح بالتأكيد لأنها تتحرك بصلابة الى الامام عبر الاخاديد والجبال ، الى الأمام دائما ! ان الذى يسقط من عربة الحياة يضيع .. الى الأمام ، الى الأمام ، الى الأمام!»

واستبد به الطرب لاكتشافه كأنه قد وجد حجر الفيلسوف . وابتسم اذ تذكر تعاسته المعذبة . لقد أصبح يرى بوضوح من آين نبعت هذه التعاسة .. « كل هذا الألم كان ببساطة لأن روزا لانج قد رحلت، والأهم من هذا ، لأنها كانت تجد عزاءها فى غيابى فى أى شخص تصادفه ! من أجل هذا اعتقدت ان حياتى قد فقدت معناها ! »

وكتب فى نفس الليلة قصيدة شعر أنها أجمل قصيدة كتبها على الاطلاق . وامتلأ قلبه بحب جديد للحياة . ولم تعد الحياة التافهة فى أرماديا تضجره . كان يجد اهتماما وسعادة فى كل شىء ، كأنه انسان ابل من مرض طويل وخطير .

وأصبح الآن يتبادل نظرات الغزل مع « الأوزات » اللاتى عرفهن فيما سبق . وعاد مرة أخرى يتحدث بحماس عن الرومانيين المضطهدين وعن خططه الرائعة .. وكان يردد باستمرار بلهجة متعالية ــ كأنها حكم لا يقبل النقض :

ــ لو لم يكن هناك مجهول لما كان للحياة سحرها وفتنتها !

وفى هذه الأثناء ، فى نفس الوقت تقريبا ، كان حادث غير عادى قد وقع فى أرماديا ، اذ توفى ايون كيوكان عضو البرلمان عن هذه الدائرة . وقد كان كيوكان طوال سنوات عديدة مديرا لمدارس الليسيه الرومانية ، وكان على وفاق مع المجريين ، اذ قبل فكرة ادخال اللغة الهنغارية من الباب الخلفى فى مناهج الدراسة ، وقد كافأته الحكومة على هذه الخدمة بمقعد فى البرلمان . وعلى الرغم من أنه كان ينتخب دائما كمرشح مستقل،الا أنه كان أحد أولئك المستقلين الذين كانوا أوفى المؤيدين لكل حكومة . وفضلا عن ذلك فقد ساعده « استقلاله » فى الوصول الى

كرسى الأدب الرومانى بجـــامعة بودابست والاحتفـــاظ بتمثيله لدائرة أرماديا فى البرلمان حتى أسلم آخر أنفاسه ٠

كان شخصا صموتا عابسا لم يؤثر فى مجرى الامور ولم يسبب أى متاعب فى أى الاجواء فى العاصمة المجرية ٠ وقد روى بعض الخبثاء قصة تفصيلية عن المرة الوحيدة التى تكلم فيها كيوكان خلال خمســـة عشر عاما قضاها فى البرلمان ٠ كان بابان من أبواب القاعة قد تركا مفتـوحين فصاح بانفعال قائلا : « اغلقوا الباب من فضلكم أيها السادة ، ان تيـار الهواء فظيع ! » وقد انتزعت هذه الخطبة العصماء ، فيما يقال ، تصفيقا حماسيا من كل أعضاء المجلس ٠ واذ كانت زوجته قد توفيت قبل ذلك ببضع سنوات ، ولم يكن له غيرها من الأقارب سوى شقيقين فلاحين كانا قد توفيا بدورهما منذ بضع سنوات ، فقد أوصى بأن تقسم ثروته كلها بالتساوى بين ليسيه أرماديا وجمعية أسترا الثقافية فى سيبيو ٠

وكانت هناك معركة مخيفة بين اثنين من المرشحين لملء مقعد كيوكان الشــاغر فى البرلمان ، هما فيكتور جروفشورو ، وهو محـــام يتمتع بقدر كبير من الاحترام فى أرماديا ويسانده كل المواطنين الرومانيين ، وبللابك رجل البنوك وهو ينتمى الى احدى الأقليات القومية فى بودابست، ذو ميول وعادات مجرية ، يحكى عنه أنه على استعداد ان ينفق مائة الف ريال فى معركته الانتخابية ، فضلا عن أنه يستطيع ـ بحكم كونه مرشح الحكومة ـ أن يعتمد على المساعدة الفعالة التى تقدمها له فى حذر السلطات العليا والدنيا على السواء ٠

كانت حمى المعركة تزداد كل يوم فى أرماديا ٠ وكانت التـــدابير تتخذ والمناظرات تنظم فى مشرب راهـــوفا دون توقف ٠ وخصـــص جروفشورو كل وقته وطاقته لهذه المعركة ، التى كان يسانده فيهـــا كل مثقفى البـلاد الذين تعهدوا بالدعاية له والترويج لانتخابه ٠ وكان نجاحه مضمونا اذا استطاعوا أن يكسبوا له أصوات السكان اليهـــود فى جيدوفيتسا ، واذا قام جميع القساوسة والمدرسين بواجبهم بالطبع ٠

ألقى تيتو ، الذى كان قد شفى من دائه فى ذلك الوقت ، بنفســه كلها فى المعركة ٠ وكان يمضى وقته من الصباح حتى المساء فى أرماديا ، وقد انتابه هياج محموم ، حيث كان يمارس المناقشـــة والاثارة ، دون أن يريح نفسه لحظة واحدة ٠ وأدهشه ذات يوم وملأه زهوا أن تقـــدم فيكتور جروفشورو منه فى مشرب البيرة ، مادا اليه يده قائلا :

ـ أود أن أسألك معروفا يا شاعرى العزيز ! ٠٠ انه شيء هـــائل بالنسبة لقضيتنا ٠ ولو أنه بالنسبة لك أمر بسيط للغاية ٠

واستخف تيتو الفرح والسعادة فقد كان مشرب البيرة غاصـــا بالقوم الذين تطلعوا اليه كما لو كان بطلا ، وأجاب بحماس :

ـ انني تحت أمرك يا سيدى النائب ! تستطيع أن تســـألنى أى شيء ! انني على استعداد لأن أقـــدم حياتى سعيدا راضيا لأجـــل القضية !

فقال المرشح وهو يعانق تيتو بحرارة :

ـ مرحى ! ها هو رجل حقيقة ! ولكنني لن أستطيع أن أخبرك هنا بما أريد ٠ ينبغى أن تشرفنى وتسعدنى بالحضور الى مسكنى ٠ أخبرنى بسرعة اذن ، متى ؟ انك لا تستطيع أن تتصور كيف أن كل دقيقة من وقتى مشغولة ٠

اتخذ تيتو مظهرا جادا ، وتملكته مشاعر راهب حدث ، يطلع لأول مرة على أسرار الآلهة ، وأجاب قائلا :

ـ الآن فورا ٠٠ أو بعد الغداء مباشرة ٠٠ أهذا يناسبك ؟

ـ حسن جدا اذن ! ليكن بعد ظهر اليوم يا شاعرى العزيز ٠

كان جروفشورو مقتنعا ، شأنه فى ذلك شان جميع أنصـــاره ، ان قومه سوف يتحررون ويتخلصون الى الأبد من جميع متاعبهم ، بمجرد أن يدخل هو مجلس النواب القائم على ضفاف الدانوب ٠ وقد أعلن فى بداية حملته الانتخابية :

ـ « اذا انتخبت فسوف نستطيع جميعا أن نتنفس هواء رومانيـــا حقيقيا ! » وقد أصبحت عبارته هذه أحد شعارات المعركة ٠

وصل تيتو فى الساعة المحددة ٠ كانت عيناه تلتمعان اعجابا ، واستمع الى قول المحامى حتى النهاية ، مقاطعا اياه من حين الى حين بكلمة موافقة ، وكان يضيف دائما عبارة « يا سيدى النائب » التى كان المرشح يطرب لها كثيرا ٠

وتنهد جروفشورو ونظر اليه نظرة متسائلة أصبحت فجأة نظرة كئيبة ، وأتم حديثه قائلا :

ـ اننا بحاجة الى أصوات يهود جيدوفيتسا يا شـاعرى العزيز ، أليس كذلك ؟ اننا بدونهم سنضيع !

ورفض الشاب أن يلجأ الى مثل هذه المناورات الانتهازية قائلا ان النجاح ينبغى أن يكون انتصارا خالصا للرومـانيين وقاصرا عليهم ، لا تشوبه أى مساعدة أجنبية • وأضاف قائلا :

ـ اننا سوف نخلى القرى من الرجال ، ونحضرهم جميعا الى صناديق الانتخاب فردا فردا ، لكى نثبت للعالم كله ارادتنا ونفوذنا !

فأجاب المحامى الذى لم يكن يفقد احساسـه بالواقع ، حتى فى دوامة أحلامه القومية ، قائلا :

ـ هذا كله حسن جدا ولكن الاشخاص الذين لهم حق التصويت فى قرانا قليلون ، فى حين أن اليهود يتمتعون جميعا بهذا الحق !

ثم استطرد مكملا فكرته :

ـ « ولكى نحصل على أصوات الناخبين فى جيدوفيتسا ، فاننا نحتاج الى مساعدة هرديليا ، فان اليهود جميعا يحبونه • اذا لم يمانع هرديليـا فى أن يشرع فى بعض العمل الدعائى بين اليهود ، فمن المحال أن نخسر الانتخابات ! » وأضاف جرفشورو بسرعة ، كأنما توقع بعض الاعتراضات من جانب تيتو :

ـ اننى أعرف بالطبع وضع والدك الدقيق ، فهو كواحد من مدرسى الدولة عليه بطبيعة الحال أن يعوى مع الذئاب ، كما يقولون فى الامثال ولكنه بما له من قدرات يستطيع أن يتصرف بفطنة •• فما قولك أيها الشاعر ؟ وبفطنة شديدة ••• !

فصاح تيتو بلهجة لا تخلو من حنق :

ـ كلا يا سيدى النائب ، بل جهارا • ففى مثل هذا الأمر لا يمكن أن تكون هناك تحفظات أو تنازلات • ان والدى رومانى قبـل أن يكون مدرسا !

ـ نعم ، هو رومانى بطبيعة الحال •• لا شك فى هذا ! •• ولكن هناك عقبات معينة أستطيع أن أتبينها تماما •• وهى عقبات يمكن التغلب عليها مع ذلك اذا ساد جو من الوئام ، انها تحتاج الى فطنة وحذر شديد • ان الفطنة وحسن التقدير فى مثل هذه الظروف ذات أهمـية عظمى • فالحكومة تعتمد على اليهود وهى على ثقة من أنها تستطيع أن تتصرف فيهم

دون أدنى ريب · ومن هنا فان علينا أن نتصرف بغاية من الحرص ، فأى خطأ قد يترتب عليه معارضه من جـانب دوائر اخرى · ان الامر أكثر بساطه بالطبع فى بريباس ، فنحن هناك بين قومنا · ان بلديوج يقوم بدوره ، وسوف تمد له يد المساعدة اذا اقتضى الامر ، كما أن والدك لن يعارضنا بالتأكيد ·· أما فى جيدوفيتسا فان الوضع متقلب ، وشديد الصعوبة ·· فى الحقيقة ···

كان تيتو يستغرق عادة نصف ساعة فى السير من أرمـاديا الى بريباس · أما فى هذه المرة فقد وصل الى بيته فى أقل من ربع ساعة · فقد جرى بأنفاس مبهورة لكى يبلغ أباه بأسرع ما يمكنه بأنباء الشرف العظيم الذى يدخره له قادة الحركة الوطنية · كان وجهه يتورد انفعالا وارهاقا ، وقد فاجأهم جميعا بقوله صائحا ، وهو ما زال على عتبـة الباب :

ـ تستطيع الآن يا والدى أن تبين للعالم كله أنك رومانى مخلص !

وكان هرديليا فى قرارة نفسه سعيدا كما يسعد الطفل ، بفكرة أن تستطيع أرماديا أن ترسل الى بودابست نائبا رومانيا ·· رومانيـا حقيقيا مخلصا ، لا رومانيا خائنا مرتدا مثل كيوكان ، رغم انه ينبغى أن يعترف أن كيوكان ، رحمه الله ، كان يسدى اليه بعض الخدمات البسيطة من حين الى حين · ومع ذلك فقد كان حريصا فى التعبير عن مشاعره ، خشية أن يشى أحدهم بأمره ·· ثم تذكر لسبب ما بينما كان تيتو أشد ما يكون حرارة فى عرض فكرته ، زيارة المفتش المساعد الاخيرة وتهديداته المقنعة ·

وقالت السيدة هرديليا بجدية وفى صوتها رنة ازدراء خفيفة :

ـ أعتقد أن خير ما تفعله هو ألا يكون له علاقة بهذا كله على الاطلاق· انه رجل عجوز وينبغى أن يلتفت الى شئونه الخاصة وأن يبتعد عن هؤلاء المجانين · أتعتقد أن جروفشورو سـوف يفعل أى شىء حقا ؟ اننا نعلم ما يساويه كلامه · واذا اعترض المجريون على نشاط والدك ووجد نفسه واهنا ، بلا عمل ، هل تعتقد أن جروفشورو سوف ينقذه ؟

فهب تيتو واقفا ، وقد أثارت هذه الانانية سخطه :

ـ اذن فأنت تعنين أن تقولى ان روح الانسان لم تعد ملكا له ، وان الهنغاريين قد وضعوها فى سجن مقفل ، لمجرد مرتب تافه ؟ ان هذا جبن

يبلغ حد خيانة القضية الوطنية ؛ ان هذا يعنى أنه يصم نفسه بالمروق من تلقاء ذاته ! هل نعيش هنا مع مجريين أم مع رومانيين ؟ وهل نجرؤ على أن ننظر فى وجوه الناس اذا لم نفعل شيئا ولو بهذا القدر الضئيل من أجل القضية الرومانية ؟

وكانت جيجى تشـــارك شقيقها رأيه من كل قلبها ، يحفزها الى ذلك تقديرها أن هذا الموقف قد يعنى ألا تجد من يشاركها الرقص فى الحفلات ، بل وربما لن تجد خطابا فى المستقبل ·

وقالت السيدة هرديليا بنكد :

ـ خير لك يا بنى أن تبحث لنفسك عن عمل فى مكان ما ، بدلا من مطاردتك لهاته الاوزات البرية ؛ لقد أصبحت كبيرا كالجبل ، وتســتطيع أن تلمس بنفسك ما نعانيه من متاعب ·

فغمغم الشاب متبرما :

ـ كل ما تقدرين عليه هو الشكوى من المتاعب والأوقات العصيبة !

وصاحت زوجة المدرس غاضبة :

ـ نعم ، لأن لدى عقـــلا ، وهذا هو ما ينقصك ! فأنت لا تريد أن تصبح مساعدا لموثق العقود ، ولا تريد أن تصبح مدرسا ، ولكنك تعرف كيف تسأل عن طعامك ! من السهولة بمكان أن يكون المرء سيدا مهذبا ! يجب أن تفعل شيئا يا بنى ، لأنك اذا ظللت على هذا الكسل ، فسوف تجد أن العالم كله سيضحك منك !

وظل هورديليا وحده لا يتكلم · وأخذ يحدق بنظرة فارغة الى فردة حذائه ، وقد استند بمرفقه الى ركن المنضدة ، وأراح رأسه على راحـــة يده · وكان ضوء المصباح المدلى من سقف الغرفة يسقط على قمة رأسه وعلى شعره الابيض الفضى · كان يود طول الوقت أن يتنهد ولكنه كبح جماح نفسه · وبينما كانت السيدة هرديليـــا تؤنب تيتو ، راح يتابع بعينى عقله أحداث حياته فيراها سلسلة من الاهانات ، والآمال الضائعة على الدوام ، والمخاوف التى لا ترحم · انها حياة سخرت منه على الدوام ، وفرضت عليه أن يرضخ لها باستمرار ، ومنعته من أن يصغى الى نداء روحه · انها حياة ملأت قلبه بمرارة تنخره فى نهم ·· وترقرقت قطرتان

من الدموع فى عينيه الوديعتين ، الناظرتين الى الأرض ، أسفا على حياة ضاعت فى جهود سيزيف ·

وأرسل زفرة فى النهاية خلال فترة صمت قصيرة ، قائلا :

ـ أوه ! ان الحياة شاقة ، والله يعلم كم هى شاقة !

- ٤ -

لم تكن خدعة فاسيلى باكيو الخبيثة متوقعة حتى أن ايون ذهب الى فراشه فى تلك الليلة دون كلمة ، ونام نوما عميقا كأن شيئا لم يحدث · ومع ذلك فقد تذكر كلمات حميه فى صباح يوم الأحد بينما كان يسير فى الفناء ويتطلع الى الحقول ، واعترته رجفة خوف اذ مرت بذهنه فكرة أن كل جهوده قد ضاعت سدى ، طالما أنه ما يزال بلا أرض ··· وجلس على عتبـــة البـــاب ، وتملكه شعور من الغضب الممزوج بالخوف والحيرة واليأس ··· وفكر فى أنه كان ينبغى أن يضرب باكيو حتى يوشك على الموت ، لكى يعلمه كيف يحترم كلمته · ولكنه اذ عاود التفكير مرة أخرى قدر أن الغضب أو العنف لن يحققا شيئا فى مثل هـــذه الظروف · لقد كان اللوم يقع عليه هو وحده ، لأنه فقد عقله فى غمرة الفرح وتزوج قبل أن يرى الأوراق تسلم فى مكتب الشهر العقارى ·

وعندما عادت زنوبيا من الكنيسة ووجدته ما يزال جالسا بقنوط على عتبة الباب ، تملكها الشـــك فى أن شيئا سيئا قد حدث ، فقالت تستحثه على الكلام :

ـ لماذا تجلس مقطبا هكذا ، وترتدى ملابس العمل أيضا ؟ اذهب وابحث عن بعض الرجال فى القرية ؛ بعد يوم أو يومين لن يكون هنـــاك أحد غيرك لم يحرث أرضه !

فأجاب ايون باكتئاب :

ـ وما شأنك أنت بهذا ؟ يعلم الله أنك لم تعطنى أرضا · ان كل ما أعطيتنى اياه هو الفقر والمتاعب !

والتمعت عينا زنوبيا الماكرتين الوقحتين ، وقالت :

ـ لم نكن بحاجة الى أن نعطيك شيئا ، فقد أخذت من حميك ما فيه الكفاية ·

فغمغم الرجل محزونا :

ـ طبعا أخذت · ألا ترين كل ما أعطاه لى ؟ ألا ترين ظهرى مقوسا تحت وطأة أثقاله ؟

لم تتركه زنوبيا وشأنه حتى عرفت كل شيء ؛ فراحت عندئذ تكيل السباب وازدادت حدة عندما ظهرت أنا ، التى أزعجها صياحها ، فى فناء البيت · وبينما كانت الحماة تسب زوجة ابنها بعنف متزايد ، تسلل بصيص من الأمل الى قلب ايون : سوف يصلح خطأه عن طريق أنا · لم يكن يعرف بعد كيف يشرع فى هذا ، ولكنه شعر أنها هى وحدها التى تستطيع أن تساعده ·

وصرخت زنوبيا بأعلى صوتها :

ـ انك محظوظ يابنى اذ اتيتنا بعروس تفتقر الى الجمال والمال !·

فصاح ايون بها فجأة :

ـ اسكتى ، أيتها العجوز الشمطاء ، اسكتى ! لا تتدخلى فيما لايعنيك ! انك تدسين أنفك فى كل شيء ، كذبابة فى كومة من الروث · انك على استعدادداثما أن تكتشفى أخطاء الآخرين ، ولكنك تنسين أننى انما تركت بلا أرض بسببك ! لماذا تلقين اللوم عليها ؟ انه ليس خطؤها ! لماذا تصرخين فى وجهها اذن ؟ اخرجى من هنا والا ألقيت بك الى جهنم ، أقول لك اخرجى !

حولت أنا عينيها الى زوجها وفيهما ولاء ساذج كولاء كلب تعرض للتعنيف ، وتدفقت الدموع الى مآقيها اذ تبينت كيف أنها لم تكن منصفة له ؛ نقد شكت فى أنه على علاقة بفلوريكا ، بينما كان هو كريما معها ، وكان من الحب والا عزاز لها حتى أنه تشاجر مع أمه من أجلها · وانسابت دموعها ـ دافئة مهدئة ـ على وجنتيها ؛ ومع ذلك فقد كان وجهها يتألق بالسعادة التى بلغت ذروتها عندما تقدم ايون نحوها وقال لها برفق :

ـ كفاك بكاء يا أنا ··· انظرى فى عينى ولا تزعجى نفسك بأى أحد آخر !

وأخبرها ايون ، وهما فى فراشهما فى تلك الليلة ، بكل متاعبه ، وأضاف أنها هى الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يحمل فاسيلى برفق على أن يتصرف معهما بأمانة ويعطيهما ما كان قد وعدبه فى وجود شهود

كثيرين • وشعرت المرأة بزهو لثقة زوجها بها ، ومع ذلك ، فعندما تذكرت كيف كان والدها يضربها ، لم يعد لديها أمل كبير فى أن تلين قلبه • ولكن عندما أوضح لها زوجها كيف يمكنها أن تخاطب والدها فى هـذا الأمر ، استطاع أن يكسبها الى صفه بفضل ثقته بنفسه ، فوعدت بأن تذهب فى اليوم التالى ، وبأنها على ثقة من أنها لن تعود خاوية الوفاض •

وخرجت أنا بالفعل عند مطلع النهار • وتضاعفت ثقتها عندما قابلت زوجة ماكيدون سيرسيتاشو فى الدرب وهى تحمل جرة مملوءة بالماء — فقد كان هذا فألا طيباً •

كان فاسيلى باكيو قد فرغ لتوه من وضع النير على ثيرانه ، واستعد للخروج الى الحقـل ليحرث أرضـه • وما أن رأى ابنته حتى سـألها على الفور :

— ماذا حدث ؟ هل طردك ؟

فأجابت المرأة بدهشة :

— « ولماذا يطردنى يا أبى ؟ » وشرحت له أسـباب مجيئها اليه ، متبعة تعليمات ايون بأمانة •

وحملق باكيو فيها لحظة بعينين جاحظتين ، ثم ألقى بنفسه عليـها كثور هائج أمام رقعة حمراء ، وأسكتها بوابل من اللطمات ، صارخا :

— اذن فقد اتفقتما كلاكما على أن تسرقانى وتتركانى مفلسـا ؟ ••• انتظرى أيتها العاهرة حتى أدبغ جلدك !

جرت أنا مبتعدة قبل أن يستدير الرجل ليلتقط السوط ليجلدها ، وكانت من السرعة بحيث لم تجد وقتا لتبكى ألما ، رغم أن وجنتها اليسرى كانت لا تزال تحمل علامة حمراء من أثر لطمات والدها ، ورغم أن خيطا من الدم كان يتقاطر من أنفها • ولم تستطع أن تتمالك حواسها تماما الا عندما صارت قيد خطوات من منزلها ، وعندئذ سألت نفسها : « ماذا حدث فى الحقيقة ؟ كان الله فى عونى ! »

كان ايون ينتظرها فى الفناء بقلب مفعم بالقلق • ورآها من بعيد تعدو بخطوات متعجلة وتمسح أنفها بكم قميصها •

وقالت لاهثة كأنما تسأله أن ينتقم لها :

— لقد ضربنى يا ايون قبل أن أجد وقتا لأقول أى شىء ! انظر ، اننى غارقة فى الدماء من جراء ضرباته !

شعر الزوج فجأة بثقل فظيع يضغط على مؤخرة عنقه · وحدق في أنا بعينين باردتين فارغتين ، كأن شبحا شريرا قد خرج أمامه من باطن الأرض · كان جلد وجهه متوترا حتى يكاد يتمزق ، بينما كانت عروق صدغه نافرة كعلقة ممتلئة · وصاح به عقله المفزوع أن كل ما أصابه من بلاء انما يرجع الى هذه المرأة ذات الشفة العليا الملوثة بالدماء ، والنظرة الذليلة المثيرة للسخط · وارتعدت أطرافه على غير ارادة منه ، وراحت أظافره تحفر بعمق فى الجلد السميك الخشن فى راحة يده · وخطرت له فكرة « ان هذه المخلوقة تتحالف مع والدها ليخدعانى فيما هو حق لى ! » ووخزته هذه الفكرة بحدة كأن هراوة قد أصابته فى مؤخرة رأسه ·

ولم يملك ايون نفسه من الهياج ، فرفع يده وهوى بها فى عنف على خدها الأيمن ، ثم لطمها بظاهر يده بسرعة على خدها الأيسر · وأطلق الألم صرخة حادة ثاقبة من فم المرأة حتى استطاع ايون أن يسمع مصاريع النوافذ ترتج فى اطاراتها · ولطمها مرة أخرى على عينيها المروعتين ، اللتين كانتا ما تزالان تحملان وميضا من الرقة رغم نظرات الهلع التى كانت تنظر بها اليه · وهوت أنا الى الأرض ، وراح نصفها العلوى يهتز مترنحا ، ليهدىء ما بها من ألم وكرب ·

وانتحبت أنا قائلة :

ـ أتضربنى أنت أيضا يا ايون ؟ هل خلا قلبك من الرحمة أنت أيضا ؟

خف ما ألم بايون من حمى الغضب ، فبصق على زوجته ودخل بيته ، اذ رأى زوجة ماكيدون تجرى مسرعة عبر الشارع ، بينما خرج شخص ما فيما يبدو الى شرفة بيت هرديليا ليرى ما حدث ·

وتأوهت أنا فاهتزت بطنها الكبيرة كأنها تؤنبها · كان منديلها قد انحسر عن رأسها ، فبدا شعرها مشعثا وجاش صدرها بالبكاء·وأحست فى قرارة نفسها أن أحلام السعادة قد تبخرت ليحل محلها شعور بالوحشة تجسد فى سؤال واحد : « ماذا فعلت يا الهى حتى تعاقبنى بكل هذه المرارة ؟ »

وجلست زوجة ماكيدون سيرسيتاشو الى جوارها ، وأصلحت من وضع المنديل على رأسها ، وربتت خديها المبللين بالدموع وحاولت أن تخفف عنها قائلة بلهجة عطوفة حانية :

ـ كفاك هذا يا طفلتى ! كفى بكاء · كفى ! يجب أن تتحملى كل

شيء في صمت ، لانها ارادة الله أن تقاسي النساء ما تقاسين • اسكتي ، كفى ! اسكتي !

كان صوتها عطوفا ورقيقا حتى أنه أراح قلب أنا بعض الشيء • واذ ذاك دفنت وجهها في حجر المرأة ، وشرعت تبكي وهي أكثر ارتياحا وهدوءا ، وظلت تغمغم طوال الوقت بالكلمات التي نطقت بها في حفل زفافها :

ـ انها قسمتي ، ونصيبي !

- ٥ -

أصر تيتو على ألا يضيع دقيقة واحدة ، حتى يستطيع أن يكسب والده الى صفه ، وهكذا شرع يزور البيوت واحدا بعد الآخر ويشجع الفلاحين ، سواء أكانوا ممن لهم حق التصويت أم لا ، على أن يحضروا الاجتماع الذي سيعقد في أرماديا ، والذي سيشرح فيه فيكتورجروفشورو برنامجه • واذ كان يوم الاقتراع قريبا ، فقد كانت جماعات من رجال الشرطة تطوف في دوريات بالقرى لتقطع الطريق على أي متاعب أو أي اثارة ضد الدولة • ولكن تيتو لم يأبه بهذه الدوريات على الاطلاق ، بل انه كان في الحقيقة يرحب بالصدام معها ، أو حتى بأن يقبض عليه ، متصورا أن هذا سوف يكشف للعالم كله عن همجية الحكم المجري ،وهكذا يساهم بفعالية أكبر في انتصار المرشح الروماني • كان يتحدث الى الفلاحين عن نير الهنغاريين ، وعن أجدادهم • وكان مع ذلك يواجه بجواب واحد لا يتغير :

ـ نعم يا سيدي ، قد تكون على حق •• ولكننا لا نملك أرضا والضرائب عديدة وثقيلة •

وكان عدم قدرتهم على الفهم يثير سخطه في البداية • ومع ذلك فقد تبين بعد شيء من الوقت أنهم كانوا على حق ، فكان يقول : « هذا صحيح تماما ، انهم يتحملون أعباء ثقيلة في حياتهم اليومية وأنا مع ذلك أضايقهم بعباراتي الطنانة ! لو كنت أستطيع فقط أن أقول لهم كلمة توقظ موات الامل في نفوسهم ، ولكن ما نريده بالفعل ليس واضحا لي أنا نفسي في الحقيقة ! »

كان لديه شعور مبهم بما يود أن يحققه ، ولكن أهواءه لم تكن تتفق

مع ما يراه الجيل الأكبر سنا · لقد كان يحلم ، هو وعدد من الطلاب والمدرسين الشبان ، باتحاد عاجل لجميع الرومانيين · وهم لم يتوقفوا ليفكروا ما اذا كان هذا ممكنا · كانت انظارهم المبهورة تتجه الى رومانيا ، حيث كانوا يترقبون خلاصهم · ولكن أغلب القادة المعترف بقيادتهم بما فيهم جروفشورو نفسه كانوا يرون رأيا مختلفا · فقد كانوا يرون أن هذه الأفكار محملة بالأخطار ، وأن مثل هذه الكلمات الفارغة ، التى لا تصلح الا للدردشة فى المقاهى ، قد تعرض المعركة كلها للمخاطر · وكان جروفشورو قد قال له :

ـ يجب ألا ننتهج الا الوسائل المشروعة ! فلن يمكننا أن نصل الى نتائج راسخة الا بالطرق القانونية ! ان السياسة الجادة لا تقوم على المغامرات الطائشة ، ولا يمكن أن تقوم الا على أساس من الواقع ! ··· وما من أحد يستطيع أن يتنبأ بما يخبئه لنا المستقبل فى طياته ·· اننا نستطيع أن نحمل الآمال فى نفوسنا ، ولكن الاحلام لا مكان لها فى الصراع السياسى ·

وظل تيتو حائرا بعض الوقت فيما ينبغى أن يعتقد أو يفعل ، ولم يستطع أن ينتزع نفسه من هذه الحالة الذهنية المشوشة الا بعد جهود مضنية · وعاود جولاته بين الفلاحين مرة أخرى ، وحدثهم ، رغم الحظر الذى فرضه الرجال الأكبر سنا ، عن « اخوتنا » وعن « الحكم الرومانى » الذى لن يلبث أن يصبح حقيقة واقعة · واعترته هزة فرح عندما رفع ستيفان هوتنوج ـ وهو فلاح ميسور الحال من بريبياس ـ حزامه على كرشه البارز ، وأجاب معبرا عن رأى الجميع بدلا من أن يكرر نواحه المعتاد :

ـ عسى الله أن يسمع قولك يا سيد تيتو !

وفكر تيتو راضيا : « ان الانتهازية والجبن يقتلان كل المطامح السامية ، وأشباه المثل العليا لا تستطيع أن تلهم الرجال الى النضال ، وما من أحد يستطيع أن يفهمها » ·

ومع ذلك ، فقد ظلت جهود تيتو كلها غير مثمرة ، أذ أنه ما أن أعلن عن الاجتماع رسميا ، حتى سارع مدير الأمن الى حظره بناء على تقرير من شيتسو رئيس المقاطعة ، الذى كان يخشى أن يؤدى هذا الاجتماع الى الاخلال بالأمن ·

عاد تيتو مكتئبا من أرماديا ، حاملا معه هذا النبأ ، فى نفس الوقت

الذى تلقى فيه هرديليا العجوز اعلانا لحضور دعوى القذف التى أقامها القاضى ضده · وكان القاضى المجرى فى تلك الأثناء قد انتقل من أرماديا الى مدينة صغيرة فى المجر لأنه ـ على حد قوله عند رحيله ـ لم يستطع أن يتأقلم مع الجو غير الوطنى فى هذا المكان · ومع ذلك فقد كان مركز هرديليا حرجا لأن وكيل النيابة تبين أن القاضى كان محقا فى دعواه ، وتبناها بحكم مركزه ، الأمر الذى يعنى استمرار الدعوى حتى لو تنازل المدعى عنها ·

استدعى هرديليا ايون ، الذى كان بدوره قد تلقى اعلانا بالجلسة ، ليناقشه فى كيفية تفادى الضربة التى تهددهما · وكان ايون منهكا بسبب متاعبه مع حميه ، ولم يكن يبالى على الاطلاق بالدعوى التى كانت تقض مضجع المدرس ، بل ظل يكرر الحديث عما وقع له ، ويشكو من أنه قد خدع ·

وقال المدرس وقد غلبه القلق بعد أن ذهب ايون :

ـ سوف ترى أن هذا الشقى سيتسبب فى دخولى السجن · انه سوف يصيبنا جميعا بكارثة ! تذكر قولى هذا ! ان ايون سيكون سبب خرابنا ·· انه يتعارك مع فاسيلى باكيو بسبب بضع قطع تافهة من الارض ولا يهتم ولو قليلا بالورطة التى أوقعنى فيها !

رأى تيتو أباه العجوز على هذه الدرجة من الرعب ، ورغبة منه فى أن يغير موضوع الحديث ، انتهز الفرصة ليروى بصورة هزلية كيف قابل بلكيوج فى أرماديا فى ذلك اليوم ، وأن الأخير قد قال له أنه مستاء جدا وأنه لن يدع اهانات السيدة هرديليا تمر دون جزاء ، وأنه سيقدمها الى المحكمة لتحاسب عليها ·· ثم تبين له أن نتيجة قصته كانت على العكس تماما مما كان يتوقعه ، وأدت الى مناقشة استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل ، فقد صاح المدرس بمرارة :

ـ هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير · سيتعين على أن أمثل أمام المحكمة نيابة عنها أيضا ، كان متاعبى وحدها لا تكفينى · لماذا لم تتركى هذا الرجل وشأنه ، بدلا من أن تثيرى متاعب جديدة ؟

واستشاطت السيدة هرديليا غضبا على الفور ، وراحت تتهم زوجها بأنه ضعيف الشخصية يسمح لأى انسان متوسط الذكاء بأن يطأه بقدمه ، وأعلنت بشكل قاطع أنها تفضل أن تدفع أى غرامة أو حتى أن تسجن ، على أن تتحمل وقاحة هذا الخنزير ·

ومع ذلك فقد جاء اليوم التالى ببارقة من الأمل فى شكل خطاب من

هورفات المفتش المساعد ، يناشده باعتباره زميلا أن يستخدم كل ماله من نفوذ لانتخاب الوطنى النموذجي بك • وقد ختم المفتش المساعد خطابه قائلا : « اننى على ثقة من وطنيتك التى برهنت عليها دواما ، وتستطيع أن تتأكد أن جهودك سوف تكون موضع التقدير المناسب • » وكانت الجملة الأخيرة بشكل خاص مشجعة ، مليئة بالوعود ، فصاح هرديليا بشجاعة متجددة :

ـ هذا المفتش المساعد رجل ظريف ! ان الانسان لا ينبغى أن يحكم على الأمور بظواهرها ! •• هذا هو الرجل الذى يناسب ذوقى ! ••• برافو ! حسن جدا !

وكتب على الفور أسماء القرويين الذين يتمتعون بالحقوق المدنية من أهل بريبياس ، وهم فى جملتهم أحد عشر شخصا ، وشرد ذهنه لمدة طويلة وهو يفكر فيما لديه من فرص للتأثير عليهم فى التصويت • ثم فرك يديه بثقة قائلا :

ـ ان الله يرسل معونته كما ترى من حيث لا يتوقعها الانسان !

استبد بتيتو السخط والغضب عندما علم بخطة والده وصاح مرة بعد أخرى : « خيانة » و « عار » • ولكن هرديليا ظل ثابتا لا يهتز له جفن ، وقال بزهو وهو يلقى بالخطاب الى ابنه :

ـ اننى لن أخاطر بأن أتسول لقمة عيشى فى شيخوختى من أجل ترهاتك • هل رأيت مايقوله المفتش المساعد ؟ •• اقرأه بعناية ! خذ !

رفض الشاب أن يقرأ أى شيء وأقسم أن يقاتل بكل قوته ضد هذه الخيانة التى لا نظير لها • وأسف هرديليا أن يكون ابنه أكثر اهتماما بشئون الغرباء الذين لن يجنى من ورائهم شيئا ، من اهتمامه بمصير والده الذى يتوقف على مسالمة العظماء ذوى الحول والطول •

ـ ألا تدرك أننى اذا فعلت مايطلبه هورفات فانه يمكن أن يكون ذا نفع عظيم لى ؟ ألم تر اعلان الجلسة الذى تلقيته أمس ؟ ألا تعلم أن القاضى اللعين يطاردنى ؟ ان كلمة من المفتش المساعد فى المحكمة قد تعنى الكثير بالنسبة لى • انه اذا قال لكبير القضـــاة : « أنت ترى ياصديقى العجوز أن هرديليا رجلى ، أو بمعنى آخر انه رجلنا » فهل تعتقد أن القاضى سوف يجرؤ على أن يقول كلمة أخرى ؟ هكذا تجرى الأمور فى هذا العـــالم ، يابنى •• هل تدرك هذه الحقيقة ، أم أنك لا تدركها ؟

فأجاب تيتو وقد زاده هياجا أنه لم يكن فى قرارة نفسه يستطيع أن ينكر حكمة الخطة التى وضعها والده :

ـ اننى لا أريد أن أدرك شيئا !

فصاح به المدرس بكدر شديد :

ـ حسن اذن ، ينبغى أن تخجل من نفسك ، ان لك من العمر مايسمح لك بأن تفهم الى هذا الحد ! ينبغى أن تخجل أيها الحمار الصغير .

- ٦ -

فى مساء اليوم نفسه الذى ضرب ايون فيه أنا لأول مرة ، وصل دوميترو موركاش ، وهو أحد أقارب زنوبيا الأبعدين ، الى منزلهم . وقد جر نفسه بجهد الى أعتاب البيت وسألهم أن يؤوه حتى يتولاه الله برحمته . كان مزاج زنوبيا معتدلا لأن ابنها قد عنف زوجته كما ينبغى ، فاستقبلته دون غضب ، وألزمت نفسها بأن تجرى له اختبارا عاجلا .

ـ ماذا جرى أيها العم دوميترو ؟ لم لا تقيم مع باراشيفا ، لقد كنت سعيدا معها تماما ، أليس كذلك ؟

فغمغم موركاش وهو يقعى أمام المدفأة :

ـ وهل تعتقدين أن أى انسان يهرب اذا كان فى حال طيب ؟

كان عجوزا تجاوز الستين ، ضامرا نحيلا حتى ليكاد يسقط اذا نفخ فيه انسان . وكان فمه يكاد يخلو من الأسنان ، ولا يكاد يستطيع الكلام ، وانما كان يغمغم فيتناثر لعابه على كل شىء . كان فى شبابه رجلا وسيما ، وكان فضلا عن ذلك ميسور الحال ، حتى لقد كانت الفتيات تطاردنه . ومع ذلك ، فقد كان يفضل أن يطير كالنحلة من زهرة الى أخرى، بدلا من أن يتزوج ويستقر . وكم من زوجة ضربهازوجهابسببه، فما كان أحدهم يجرؤ على أن يضربه أو أن يتحرش به . فقد كان فى قوة الذئب وخفته . وكان يهتم بركوب عربته أكثر مما يهتم بفلاحة أرضه . وكانت عربته هذه هى التى انتهت به الى هذا الحال ، اذ هاجمته عصابة من الغجر المشردين ذات ليلة وهو عائد من ديج الى بيته ، وسرقوا خيوله بعد أن أشبعوه ضربا الى حد ألزمه فراشه نحوا من عامين ووجد نفسه أعرج فى النهاية . وقد التهم مرضه الجزء الأكبر من ثروته . واذ لم يبق له سوى كوخه وحديقته ، تزوج باراشيفا ، وهى أرملة

شابة كانت قد وضعت عينيها على منزله ، اذ قدرت أنه لن يعيش أكثر من سنوات معدودات ، ومع ذلك فقد رفض دوميترو باصرار أن يموت ، وظل رغم كساحه يعيش اثنين وعشرين عاماً ، حتى اعتادت باراشيفا على نقائصه وعلله • وقد سارت حياتهما معا على مايرام ، رغم كل شيء ، حتى باع دوميترو البيت والحديقة منذ بضعة شهور الى أفروم دون علم باراشيفا • ولم تجد محاولاته لارضائها باعطائها مائة « زلوتى » من الفضة ، فقد كانت واثقة بأنه قد حصل على مبلغ أكبر وأخفاه عنها أو أعطاه لشخص ما ليحفظه له • واذ كانت أيام دوميترو فى هـذا العالم محدودة ، فانه سوف يترك نقوده فى يدى شخص غريب ، بينما يتركها مفلسة ، وهى التى رعته طوال سنوات لا يدركها الحصر • كان التفكير فى هذا يثير جنونها • وعندما رفض أفروم بدوره أن يخبرها بالمبلغ الذى دفعه بالفعل ، راحت باراشيفا تسب العجوز ، ثم أخذت تضربه ، وأخيرا طردته من البيت حتى لا تراه مرة أخرى •

روى الرجل العجوز كل ما فعلته باراشيفا معه ، دون أن يسيء اليها بكلمة ، بل انه كان يشعر بالأسف لاضطراره الى أن يتركها وربما يموت فى بيت غريب • وقالت زنوبيا تواسيه :

ـ لقد عشت بما فيه الكفاية على أية حال •

كان ايون صامتا ، وقد غرق فى الكآبة التى اعترته طوال النهار منذ ضرب أنا • وكان يلقى بنظرة عدائية من حين الى حين نحو القادم الجديد ، ولم يكن يرى فيه الا حيوانا أكولا هبط عليه من السماء ، سيتعين عليه اطعامه • كان يأمل أن يعود دوميترو الى بيته خلال يوم أو يومين ، فقد كان يعرف أنه لا يستطيع أن يعيش بغير باراشيفا ، فهى المرأة الوحيدة التى أحبها حقا ، فيما يقال ، والتى استطاعت لهذا السبب أن تطويه حول خنصرها • كان ايون مكتئبا بسبب موضوع الارض ، حتى انه كان يشعر بأن كل شيء وكل انسان حوله ، لا يساوى مليما زائفا • وأحس بدمائه تغلى عندما رأى أنا منهمكة فى اعداد العشاء حول الموقد ـ بقدر ماتسمح لها بطنها المتكورة ـ فقد كان يزداد اقتناعا كل لحظة بأنها قد تحالفت مع فاسيلى باكيو على أن يسلباه ماهو حق له •

وظل بضـعة أيام متبرما لا يدرى ماذا يفعل • ثم خطر له فجـأة أن يقابل هرديليا فابتهج كأنه قد وجد حلا بالفعل للمأزق الذى وقع فيه • وبرزت صورة هرديليا أمام عينيه مشرقة بالأمل • وبحث عنه على الفور واذ وجده فى المدرسة ناداه خارجها • وكان هرديليا غاضبا منه

فأنبه على عقوقه وجحوده ، وأضاف أن تبلد ايون الاجرامى يهدد مركزه وشرفه كمدرس · واستمع ايون اليه بصبر نافذ ، تماما كما فعل قبل ذلك ببضعة أيام عندما حاول المدرس أن يصل معه الى خطة موحدة لمواجهة دعوى القذف · ولكن ايون ماكان ليحس بهموم الآخرين ! ولم يكن يعنيه الا المتاعب التى اكتنفته وظلت تنهشه وتعذبه ، وما ان استطاع أن يهدىء هرديليا بوعوده ، حتى شرع فى العويل والنشيج كطفل عاجز ، مرددا المرة تلو المرة بلهجة تزداد توسلا والحاحا باضطراد :

ـ علمنى ماذا أفعل ، يا أبى فى العماد ، لأننى اما أن أرتكب جريمة قتل وأدخل السجن أو أن أشنق نفسى !

وحملق ايون فى عينى المدرس وهو يستمع بنهم الى اجابته ، وان لم يعلق منها بذهنه بوضوح سوى قوله :

ـ لا تعل هما يا بنى فى العماد ، فان ما وعدك به سيتحتم عليه أن يعطيك اياه ··· تعالى الى بيتى يوم الأحد مع أنا وسأدعو فاسيلى أيضا ، وستناقشون الأمر وتصلون الى اتفاق بالتأكيد ، فلتهدأ اذن ولتصبر !

ومضت الأيام حتى يوم الأحد بسرعة كأنها ساعات · وألقى الأمل أضواء وردية على كل أفكاره · وعاد يشعر من جديد بأنه مالك قطع الارض ، ولم يكد يستطيع أن يمنع نفسه من أن يخرج الى الارض ليفلحها ·

وبعد أن حدد كل من الطرفين مطالبه على نحو مايرضيه ، أشار هرديليا ، الذى كان مولعا بالحلول الوسط ، على فاسيلى باكيو أن ينقل ملكية نصف الأرض فورا باسم ايون ، وأن يتعهد كتابة أن يوصى بالنصف الآخر له بعد وفاته · ولم يرض أى منهما بمشورة المدرس · وانهارت كل آمال ايون عندما سمع كلماته · فلو أنه كان ينتوى أن يتخلى عن بعض مطالبه ، لما كانت به حاجة الى مشورة أبيه فى العماد · فلم تكن به حاجة الى النصائح ، انما كان يريد الارض ، كل الارض ·· وتملكه غضب وحشى من هرديليا الذى يحاول أن يجرده من حقه بدلا من أن يساعده ·· وأعلن فاسيلى بوقار وعيناه تلتمعان فى خبث أنه لن يتراجع عن وعده ، وأنه راغب فى أن يعطيهما أى خمس قطع يختارانها · ومع ذلك فقد كان مقتنعا فى قرارة نفسه أن هرديليا متواطىء مع ايون على أن يسرقا ثروته · واذ كان أى الخصمين لا يجرؤ على أن يتشاجر مع المدرس ، فقد أخذا يتبادلان السباب ، ولم يلبثا أن

تخليا عن كل أدبهما ، وراح كل منهما يلكم الآخر بوحشية فى رأسه ، وأخذا يزومان كدبين مفترسين وقعـــا فى فخ ٠٠ ووجد هرديليا وتيتو صعوبة كبيرة فى اخراجهما من البيت ٠ أما السيدة هرديليا ، التى كانت حانقة بشكل يفوق الوصف لسلوكهما المشين اذ تجاسرا على العراك فى منزلها ، فقد أخذت تصيح بهما وتنهرهما ، بينما راحت جيجى المذعورة تصرخ صراخا متصلا ٠ وجلست أنا ذاهلة يائسة على مقعد خلف الباب ، فوبختها السيدة هرديليا وطردتها ٠

واستمر فاسيلى وايون فى عراكهما فى الشرفة فترة قصيرة ، ولكم كل منهما الآخر فى ضلوعه حتى بلغا مدخل البيت ، ولكنهما أوقفا عراكهما عندما بلغـا الطريق وأخذا يصـــلحان من ثيابهما ، ويسبان كل منهما الآخر بلهجة أكثر هدوءا ٠ وعندما شرعا يتجهان نحو القرية، ظهرت أنا فى مدخل بيت المدرس وقد غلبها الخزى والرعب ، كأنها تجسيد لكل المصائب المشئومة ٠ ورآها كل منهما فى نفس اللحظة فازداد غضبهما حدة ولوح كل منهما بقبضـــته والتمعت عيونهمـــا الدموية بنظـرات كالخناجر ـ وعندما بلغ ايون منزله دخله هائجا ، وقد أخذ خيط رفيع من الزبد يترقرق بين شفتيه ٠

ـ ليأخذك الشيطان وليأخذ ابنتك معك ، أيها الوغد العجوز !

وحاولت أنا أن تدخل هى أيضا ، ولكن ايون انقض عليها كالنسر ، وعيناه تتأججان بالشرر ، بينما أخرج سكينة من حزامه صائحا بصوت مبحوح :

ـ أخرجى من هنا أيتها القذرة ! أخرجى والا مزقتك اربا ! اذا تجاسرت على أن تدخلى فناء بيتى مرة أخرى فسوف أمزق أحشاءك ! أيتها اللصة ! ٠٠٠ أيها اللصوص والنهابون ، لقد سرقتمونى ، وها أنتم تضيفون الأهانات الى ما الحقتم بى من أضرار !

وأرادت المرأة أن ترفع ذراعيها اليه ضارعة ، ولكنها كبحت نفسها عندما رأت على وجهه تعبيرا مخيفا ، أنذرها بأن ايون لن يتورع عن قتلها فى التو واللحظة ٠ وترددت لحظة ثم تبعت والدها ، الذى كان يتوقف كلما سار خطوتين أو ثلاث ويستدير لكى يقذف زوج ابنته ببعض السباب، ثم يعاود المسير ليتوقف مرة أخرى ٠٠٠٠ وعندما رآها فاسيلى آتية وراءه صب كل غضبه عليها ، ورفع كلتا قبضتيه نحوها مهددا ، مكشرا عن أسنانه كوحش برى ، صائحا :

ـ اياك تجرؤى على المجىء الى بيتى ، أيتها العاهـرة ، والا كسرت

كل عظمة فى جسدك · لقد أردت صعلوكا ، وهاك صعلوكك ! ··· ها هو ذا ! انظرى اليه ، لترى كم يبدو لطيفا ! ··· هذا هو ما تستحقينه تماما ! هذا جزاؤك ! هذا جزاؤك ! هذا جزاؤك !

وأسرع بخطواته ، صائحا طوال الوقت « هذا جزاؤك » عاجزا عن أن يجد سبابا أكثر اذلالا ····

وبقيت أنا فى وسط الطريق ، لا تدرى فى أى اتجاه تسير · كان ايون ما يزال يكيل السباب واللعنات فى فناء بيته ، بينما كان فاسيلى باكيو يصيح بأعلى ما يستطيع ، وهو يسير مبتعدا ، كى تسمعه القرية كلها · وخرج الجيران الى الطريق يحدقون فيه · كان بعضهم ينظر فى حيرة ، والبعض الآخر ينظر ضاحكا ، ولكنهم كانوا جميعا يرقبون العرض فى حماس ··· ووقفت المرأة تحدق فيما حولها دون ما حراك ، وقد تهدل ذراعاها ، وزاغت عيناها وتقلصت روحها يأسا ، لا تدرى ماذا تفعل بعد هذا · وتساءلت فى عجب : « أين أذهب الآن ؟ » ولم يسعفها عقلها بغير اجابات مظلمة ، اجابات كانت من الظلمة بحيث ربطتها بالأرض ، واستنزفت آخر قطرة من ارادتها وأغرتها بأن تضع حدا لكل هذه الآلام ، بعد أن لم يعد لها من هدف فى الحياة ·

وكانت فلوريا ، زوجة ماكيدون ، هى التى جاءت لنجدتها مرة أخرى ، فأخذت بيدها ، وقادتها الى منزلها وظلت تشجعها وتواسيها حتى جاء المساء فأرقدتها على أريكة خلف الموقد ، وسال دمعها اشفاقا عليها قائلة :

ـ يا للفتاة المسكينة ! يا للصغيرة المسكينة !

وتبينت أنا لأول مرة ، أثناء الليل ، الهوة التى تتردى فيها حياتها · وهبطت فكرة الموت على روحها كنجدة سعيدة · كانت هذه الفكرة تحمل اليها شعورا مهدئا ، حتى أنها أخذت تعجب فى النهاية كم يبدو الموت مغريا مسالما كأنه مرفأ يلجأ اليه الانسان اذ لا يجد فى نفسه مكانا للأمل ··· أو الألم · وفجأة أحست بشىء يتحرك فى أحشائها حركة أيقظتها من هذيانها ، فصاحت وقد نسيت كل متاعبها :

ـ انه يتحرك ، هذا الحيوان الصغير !

ولم تعد تحس الا بواجبها فى أن تعيش ، لأن كائنا جديدا بداخلها كان يطرق أبواب الحياة ·

- ٧ -

هدأ ايون فى اليوم التالى ٠ وشعر بالأسف لأنه جعل من نفسه مثارا للسخرية وتشاجر مع حميه فى بيت المدرس ، رغم أنه كان مقتنعا بأن هرديليا قد انتقل الى صف أعدائه ٠ وعبر الطريق الى منزل ماكيدون سيرسيتاشو وعاد بأنا الى بيته ، ولكنه لم يعر أدنى التفات لنصيحة فلوريا التى طلبت منه أن يكون أكثر رقة مع المرأة المسكينة التى سيحين وقتها بين يوم وآخر والتى لا يستطيع أحد أن يحدس ماذا يمكن أن يقع لها لو أن كل امرىء أخذ يؤنبها ولا يعبأ بمشاعرها ٠

وسرعان ما تولاه اليأس من جديد ٠ وشعر فى رأسه بألم هائل لايرحم ، بدا وكأنه يريد أن يهشم جمجمته ٠ ولم تكف شفتاه عن الهمس دون انقطاع :

ـ ليس هذا بالطريق الصحيح ٠٠٠٠ ليس هذا بالطريق الصحيح ٠٠٠

وكان فى تلك الأيام يذهب الى حانة فى جيدوفيتسا ويظل يشرب حتى الثمالة ، ثم يعود الى منزله وهو أكثر اكتئابا ٠

وبعد مضى أسبوع ساده طقس كئيب ممطر فرض عليه البقاء فى بيته أكثر الوقت ، أشرق صباح يوم بهيج دافىء وهادىء ومشمس لايتسنى للمرء أن يلقاه الا فى المناطق الجبلية ابان أواخر فصل الربيع ٠ وعندما خرج ايون الى ساحة المنزل ، توقفت فجأة مأخوذا ، واستنشق فى نهم ، ودون وعى ، ما كان يشيع فى الجو من عبير الحشائش الرطبة الفواحة ٠ ورأى الأرض تمتد أمامه وتلتمع فى ردائها الأخضر الخفيف وقد نثرت فوقه يد خفيه قطرات الندى البراقة ، كأن كل شىء قد اغتسل طوال الليل بمياه مسحورة ٠ وأيقظه هذا المشهد من سبات عميق ، وأفعم رأسه فى التو بسيل من الأفكار ٠٠٠ واختط طريقه الى بيت الأب بلكيوج وهو فى حالة نفسية أفضل ، مدفوعا بموجة عارمة من الثقة بالنفس ٠ فقد كان الكاهن هو الشخص الوحيد القادر على توجيهه فى الطريق الصحيح ، تماما كما أسدى اليه العون فى المرة السابقة ٠ ولكن هذه «المرة السابقة» بدت وكأنها بعيدة بعدا شاسعا وكأنما انصرمت منذ يوم زفافه أعوام لا حصر لها وليس مجرد خمسة أسابيع ٠

وكان بلكيوج يقف فى مدخل داره يرقب سائق عربته الفلاح الذى

يداعب النوم جفنيه ، والذى تلطخت ملابسه بالروث ، وهو يسقى الجياد ٠
وقال القس حين رآه يدلف من البوابة وقبعته فى يده :

ـ أهلا بك يا ايون ، كيف حالك ؟

وأجاب ايون محاولا أن يبتسم وان لم يزد على أن كشف عن أسنانه الصفراء مثل كلب عاجز يجأر :

ـ ليس على أفضل حال يا أبتاه ٠

ـ « أجل ، لقد سمعت بكل شيء ٠ حسنا ياولدى ، ماذا تتوقع ؟ لا عجب فى أن يعاقبك الله اذا نسيته ! » وقطب بلكيوج حاجبيه وهو يدخل الى المنزل ووراءه ايون ٠

كان « الله » بالنسبة لكاهن بريبناس يعنى بناء الكنيسة الجديدة ٠ وكان الأب بلكيوج يشعر بأن يد الله تدخلت فى هذا الصراع الناشب بين ايون وحميه ، لأن كلاهما لم يتنازل ويقدم أبسط العطايا لبيت الله ٠

وكان القس يتلمس وجود العناية الالهية فى كل مكان ٠ فقد كانت متاعب هرديليا مع القاضى بمثابة العقاب الواجب والعاجل الذى أنزلته السماء به جزاء ما أعده من خطط ضد رجل الله ٠ وكان فى انتظار علامة من علامات الغضب الالهى ضد السيدة هرديليا التى أساءت اليه ، وقصاص أكثر قسوة من هرديليا الذى كان يحاول ــ كما سمع فى اليوم السابق ــ أن ينتزع منه عددا من الناخبين لصالح المرشح المجرى ، رغم أن المدرس كان يعلم تمام العلم أن الكاهن يسعى لجمع كتلة صلبة من الناس ، وان تكن قليلة ، لتقف فى صف المرشح الرومانى ٠ وكان التعويض الوحيد الذى وجده ازاء كل ما منى به من خيبة أمل وحزن هو قراره بالشروع فى بناء الكنيسة الجديدة فى ذلك الصيف ٠ فقد اتفق مع مهندس معمارى فى بيسترتيسا ، استطاع أن يضع تصميما على غاية من الجمال ٠ وقد آن أن يصل المهندس لوضع أساس البناء باستخدام المواد التى تم جمعها ٠ وسوف تقام الجدران قبل الخريف القادم ٠ وســـوف يتم تكريس مكان العبادة الجديد بكل ما يستحقه من جلال فى مثل هذه الأيام من العـام القادم ٠ وكان بلكيوج قد تدبر بالفعل برنامج يوم التكريس ، وكان قلبه المضطرب يخفق بالفرحة ٠ ولكن متاعبه لم تكن قد انتهت بعد لأن المال اللازم لتشييد البناء لم يكن قد جمع كله ٠ لهذا السبب كان يأمـل أن يفتح ايون كيس نقوده آخر الأمر ، وهذا هو ما جعله يسعى لكسب تأييد

بما يبديه من نيـة طيبة نحوه · وغمغـم وهو يجلس ويضرب ركبتيـه براحتيه ، ناظرا في عيني ايون مباشرة :

ـ حسن يا ايون ، خبرني بما يشغل بالك ·

أما ايون الذي كان يقف قبالته بعينين منكسرتين ، فقد راح يدلي في صوت أجش خفيض باعتراف طويل ظل الكاهن ينصت اليه بانتباه دون أن يقاطعه · وعندما انتهي ايون من حديثه نهض بلكيوج واقفا ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا عدة مرات ، لاحت منه في احداها نظرة مندهشة الى حجرة نومه الصـــغيرة حيث كان الفراش ما زال على حالة من الفوضى ، وأخيرا توقف بجانب المنضـدة مرتكزا الى حافتهـا ويداه معقودتان خلف ظهـره ، ثم قال وعيناه مثبتتـان على زاوية من سـقف الحجرة ·

ـ في الحقيقة أنني لست أدرى ماذا أقول ! ··· من الصعب أن أقدم أية نصيحة ··· صـعب جدا في الواقع ··· لا يستطيع الا محام أن يشير عليك بما يجب عمله بالضبط · ولكن الشجار والقتال ، على أية حال ، لم يفض بأحد منذ الأزل الى أي اقرار سليم للأمور · لقد منح الله القضاة مهمة تطبيق العدالة في هذه الدنيا ···· أنا أيضا كما تعلم كانت لي حادثة مع السيدة هرديليا ، فقد صرخت في وجهي كأنها غجرية · فهل لجأت الى العنف ؟ ···· لا يصح لامرىء أن يسعى لتطبيق العدالة بنفسه ···· انني لم أجب عليـها بـكلمة ولم أفقد أعصابي ···· فالعـدالة من حقوق الله · لقد رفعت دعوى في محكمة أرماديا ، ولو كان من الحق والعدل بالنسبة لي أن توجه لي الاهانة دون ما مبرر ، فسوف أظل مهانا ····فافعل أفضل ما يتراءى لك ، فكل ما أستطيع قوله هو أنه يستحيل أن تكون القبضات المضمومة سبيلا الى تحقيق العدل · استشر محاميا واسأله النصيحة ، وافعل بما يقول · أما أنا فلا حول لي ولا قوة ····

وشعر ايون بالرضى ، فقد كان القس على حق ··· فليدع الأمر للقانون · وعندما عاد الى بيته نادى أنا وتحدث اليها بصوت رقيق :

ـ تعرفين يا أنا أنه يجب عليك الذهاب الى منزل والدك · فأنا لا أستطيع أن أبقيك هنا بعد الآن · أنت تعلمين كم أنا فقير ، ونحن لا نكاد نستطيع أن نقيم أودنا ···· أما والدك فلديه المال الوفير ··· لقد احتال علي ، وليس هذا بالأمر المهم ، فالله في السماء يرى ويحكم بالعدل · ولكنني لا بد أن أعنى بأموري · ولن أجلس بالطبع متشاغلا بأصابعي · لك أن تتأكدى من هذا ، ويمكنك أن تخبريه بذلك !

وأتبع هذا القول بأن نهض واقتادها من يدها صوب البـــوابة ، وأغلقها من خلفها ·

وألقت أنا نظرة الى الوراء ، ولكن ايون لم يدر رأسه أبدا ·

وتنهدت المرأة قائلة وعيناها تسبحان فى الدموع ـ :

ـ انه على حق ··· كلهم على حق ، أما أنا فليس لى مكان فى هذه الدنيا ····

الفصل الثامن

الطفل

- ١ -

تزايدت المشاجرات بين هرديليا وولده كلما أقترب يوم انتخاب عضو البرلمان ، كأن كل متاعبهما وأفكارهما ، بل ومصيرهما نفسه قد ارتبط بانتصار المرشح الرومانى أو المجرى . وكان العجوز الذى أفزعته دعوى القاضى ضده حتى الأعماق يميل الى الاعتقاد ، الذى يزداد رسوخا شيئا فشيئا ، بأنه سوف يخرج من ورطته سليما لو أنه ساهم فى انجاح مرشح الحكومة . وراوده أمل خفى فى أن يطلب من راعييه ، مساعد المفتش وعضو البرلمان ، عشية المحاكمة أن يقولا كلمة طيبة فى حقه أمام القاضى . وراوده الظن بأن القاضى اذ يجد لديه مثل هذين الراعيين من أهل النفوذ والسلطان ، لا بد أن يلين ، ولا بد للمحكمة أن تكف عن مقاضاته ... واذ كان تيتو يضحك من آماله معبرا عن شكه فيها ، فقد ظل هرديليا يردد قائلا باقتناع :

— من يضحك أخيرا يضحك كثيرا يا ولدى .

ورغم أن زوجة المدرس لم تكن تحمل ودا خاصا للمجرمين ، فقد كانت تعتقد اعتقادا راسخا بأن الانسان يجب ، رغم كل شىء ، أن يعنى

بأموره الخاصة . والحق انها لم تلق بالا هى أو جيجى الى الصخب والهراء اللذين اقترنا بعملية الانتخابات . فقد كان بالهم أكثر انشغالا بأنهما لم تتلقيا حتى الان أى خطاب من لورا ، باستثناء بعض البطاقات البريدية المصورة ، رغم أنه قد مضى على زفافها ما يقرب من شهرين . وراحتا تتصوران شتى التصورات ، وتبحثان عن تفسيرات تقصدان من ورائها تهدئه ما بهما من قلق ، وان لم تؤد فى الواقع الا الى مضاعفة أحزانهما .

أما تيتو ، فقد كان حماسه يؤرق باله ويعذبه . كان يتوق أن يرى جروفشورو منتصرا ، حتى أن مجرد التفكير فى احتمال الفشل كان يؤلمه . وكاد يكره أباه نفسه ، خاصة أنه كان يضع مصالحه الشخصية فوق كل ما عداها . وكان الشاب يصيح فى يأس وهو يصر بأسنانه ويشد شعره :

- اذا لم تكن نريدنا أن نقدم أى تضحية على الاطلاق ، فكيف يمكنك أن تحلم بأنك سوف تنتصر فى يوم ما ؟

وقد أدت به هذه الأنانية التى كان يواجهها ، فى الحق ، فى كل مكان ، الى ان يعتزم التفكير فى الرحيل الى مكان بعيد ، الى الدنيا الواسعة، وليس الى مكان معين على وجه التحديد . فقد كان مقتنعا بأنه سيجد الناس فى أى مكان آخر أكثر شغفا بالتضحية بأنفسهم فى سبيل فكرة ما . ورغم أن تيتو ظل يردد أن العمل هو أساس النجاح ، الا أنه استمر يضيع وقته فى أرماديا متنقلا بين حانتى راهوفا وجريفيتسا ، حيث كان مع عدد من الشبان المتحمسين ، يسكرون بتأثير كلمات مشبوبة العاطفة ويحلمون ، ويرسمون الخطط الجريئة ، ويتخذون القرارات الطموحة بشأن مصير شعبهم . وكانوا يبالغون فى أهمية كسب المعركة الانتخابية وهو أمر لم يكونوا يسمحون بالتشكك فيه مطلقا . وبدا لهم أن انتخاب جروفشورو سوف يصبغ أوروبا كلها ، وليست بلادهم وحدها ، بصبغة ثورية .

وتصوروا بالفعل تلك الخطب الساحقة التى يمكن لجروفشورو أن يذهل بها البرلمان ، وتخيلوا بوضوح تلك اللحظة التى ستنهض فيها ترانسلفانيا فجأة على قدميها وتندفع الى أحضان رومانيا ، كأنها طفل ضل الطريق طويلا الى أبويه ثم عثر عليه فى النهاية ؛ تلك اللحظة التى سيحتل فيها شعب طال اضطهاده لقرون عدة مكانه المشروع بين الأمم ، على نحو ما يليق بسلالة الأسلاف الأجلاء لسادة الدنيا ....

وفى المساء ، بعد مثل هذه الانطلاقات على متن الحماس المجنح ،

كان تيتو حين يدلف الى الجو المشحون بالحقائق المقبضة الذى يلف منزله ، يشعر أنه يهبط من ذروة سامقة ويتلوى عاجزا فى هوة بلا قرار · ويظل يكرر لنفسه بعد أن يتشاجر مع والده الذى كان يرفض مجرد الاستماع الى حججه :

ـ يجب أن أرحل ، سوف أختنق ان لم أفعل ·

وعثر على وظيفة مساعد كاتب فى لوشكا ،رغم كراهيته لهذه المهنة · وأعلن فى احدى الأمسيات ، قبيل حلول موعد الانتخابات ، وبعد نقاش عاصف ، أنه سوف يسافر بمجرد اعلان نتائج الانتخاب ، فقد سئم الحياة فى هذا المكان ، تلك الحياة التى تفتقر تماما الى المثل العليا ، والملوثة بأدران اهتمامات الحياة اليومية الكئيبة · وكان يعنى باعلان عزمه هذا أن ينتقم لنفسه من أبيه ،ولكن الأب تهلل لهذا الخبر ، وهنأه على أنه أصبح يأخذ الحياة مأخذ الجد ·

وهبطت على قرية بريباس فى عشية يوم الانتخابات فصيلة من جنود الهونفيد ، أرسلت لمعاونة قوات الشرطة فى حفظ النظام فى المقاطعة · فقال تيتو لهرديليا وهو يشير الى الجنود الذين كانوا يجرون أقدامهم فى كلل :

ـ هذا هو ما تدافعون عنه يا أبطال الحذر ! انكم تقارعون الحجة بالسونكى !

وأخيرا حل اليوم العظيم ، واشرقت الشمس فى سماء صافية زرقاء· وأخذت أرماديا تموج كأنها خلية نحل على وشك الانطلاق · كان كل انسان يجيش انفعالا · وتدفقت على الطريق من الشمال والجنوب جماعات من الفلاحين ، وعلى رأس كل منها كاهن أو مدرس ، بعضهم مترجلون يغطيهم الغبار والعرق ، والبعض الآخر يستقل العربات ، وكلهم يصيحون متهللين طوال الوقت : « عاش ·· عاش ·· عاش ! » ·

وانتظمت صفوف من رجال الشرطة على الطريق الذى يبدأ من الكنيسة ذات البرجين ، ويخترق الميدان الذى يقام به السوق ، حتى يصل الى قاعة المدينة حيث أقيم مركز الاقتراع · وقد ثبت رجال الشرطة « السناكى » فى بنادقهم ، ورفرف ريش الديكة الذى يزين قبعاتهم فى الهواء ، وأخذوا يصيحون فى الجموع من خلفهم ، ويشهرون البنادق فى وجوههم قائلين : « الى الوراء ، ارجعوا الى الوراء ! » وفى وسط الميدان ، بالقرب من الصليب المحاط بالسياج ، كان جمع من تلاميذ الصفوف

العليا فى المدرسة الثانوية ، تحت قيادة بعض شباب المدرسين والطلبة الشجعان ، ينشدون « هبوا ٠٠ أيها الرومانيون البواسل » ، ويقطعون النشيد بين الحين والحين ليهتفوا بصوت واحد : « عاش ممثلنا فيكتور جروفشورو ! ووصل الجمع الى صف الجنود ، وراح من كان منهم فى المقدمة يحيون الناخبين الرومانيين ويهزأون باليهود والمجريين ، الذين كانوا يتقاطرون على المدينة ٠ ووقف تيتو خلف شرطى ضخم متين البنيان ، ذى شارب كبير يلمع بالطيوب ٠ كان وجهه محتقنا بفعل الحماس، وصوته متحشرجا بفعل الغناء والصياح ٠ واحتشد الميدان كله بجموع من الفلاحين الذين لا يتمتعون بحق الانتخاب والذين حضروا خصيصا ليتظاهروا ، وظلوا يزأرون قائلين : « مرحى ٠٠ عاش ، عاش » أو « يا للعار ! » ٠

وجاء الأب بلكيوج فى وقت مبكر ، وبصحبته نحو عشرين رجلا من بريباس ٠

وأمام الكنيسة وقف أحد ضباط الشرطة يبعد الرجال الذين لم يكونوا يحملون بطاقات الانتخاب خلف صف الجنود ،الأمر الذى حدا بالقس وهو يختال مع ستة من الرجال فى طريقه صوب مركز الاقتراع الى أن يلقى للجمع الذى كان يحييه بابتسامة حزينة تشيع فيها المرارة ٠ وصاح تيتو بصوت ملتهب النبرات :

ـ « مرحى يا بلكيوج » ٠

فأجاب الكاهن بحزن وقد هزه المديح :

ـ اننى لست مسئولا عن عدم وجود عدد أكبر ، كما تعلم !

كانت الشمس ساخنة ، وأخذ القيظ يشتد شيئا فشيئا ٠ وأحس الناس بالارهاق لوقوفهم بلا حراك ؟ وتصبب منهم العرق ونفذ صبرهم فاندفعوا صوب صفوف الجنود لا لسبب يعرفونه ؛ وراح الجنود يسبونهم ويهينونهم ، ويضربونهم بمقابض بنادقهم ٠

واتجه جروفشورو عند الظهر تقريبا بصحبة بعض الأصدقاء الى مبنى الكنيسة حتى يراه الجمع ٠ واشتعل الحماس كاللهب المندلع من نار خابية صب عليها شىء من الزيت ٠ واختلطت الأناشيد بالهتافات وصيحات التحية فى صخب مجنون ٠ وزحفت الجموع الى الأمام على صفوف الجنود حتى تتهيأ لها عن قرب نظرة الى بطلها ٠ وأخذت الجماهير تصيح: « عاش فيكتور جروفشورو ! عاش ! يسقط الخونة ! » واستماتت الجنود للمحافظة على مواقعهم ، وأخذوا يلوحون ببنادقهم لمقاومة المد الزاحف ٠ واستشاط أحد الجنود غضبا لأن الناس لم يعبأوا به ، فدفع «بالسونكى»

وسط الجمع ، وأصاب فلاحا عجوزا كان يجاهد للفكاك من ضغط الجموع، وارتفع صراخه فجأة • وزأرت الجماهير وهى تضغط على صف الجنود بعنف متزايد :

ـ يا للعار ! يسقط الجنود !

وصرخ الجنود فى الرجال الذين اخترقوا الصفوف ، وهم يضربونهم بمؤخرات بنادقهم :

ـ الى الوراء ! ارجعوا الى الوراء !

أما جروفشورو ،الذى رأى الجندى توا وهو يطعن الرجل بالسونكى، فقد اندفع الى الفلاح الجريح واحتضنه بقوة ، بينما أخذ الجمع يزأر فى حماس ، وتساءل بعض الناس : « ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟ • » ولم يلبث جروفشورو أن عاد الى وسط الطريق ، وخلع قبعته ،ومسح العرق عن جبهته وشرع يقول فى صوت قاصف كالرعد :

ـ أيها المواطنون ! لقد سفك دم برىء ! ان الارهاب •••

ولم يستطع أن يتم عبارته ، فقد تقدم منه ضابط من ضباط الشرطة ، وأوقفه بسرعة وأخبره بأنه غير مسموح له باثارة الجماهير • وجادل جروفشورو برهة وهو يلوح بيديه احتجاجا ، بينما أخذ أتباعه يساندونه بصيحات قاصفة :

ـ يعيش ممثلنا ، يعيش ! يعيش !

وصل هرديليا الى السوق فى هذه اللحظة ، وفى أعقابه خمسة من الناخبين • كانت عيناه تنظران بقلق ذات اليمين وذات اليسار ، رغم الابتسامة الخجلة التى كانت تشيع فى وجهه • وصاح بعض الناس قائلين: « مرحى » ، ولكن صوتا غليظا انطلق على الفور هاتفا : « يا للعار ! ليسقط الخونة ! » ولم يلبث الجمع كله أن ارتفعت أصواته بصيحات الاستنكار ، بينما كانت القبضات المطبقة تبدو من بين « السناكى » اللامعة مهددة متوعدة • وتملك هرديليا الخوف ، وشعر بركبتيه ترتجفان ، ولكن الابتسامة ظلت مرتسمة على شفتيه • وشرعت مجموعة التلاميد ترتل نشيدا جنائزيا ، بأصوات حادة ساخرة ، بينما أخذ آخرون يرددون صيحات : « العار لكم » •

واختبأ تيتو خلف ظهر رجل الشرطة ، وقد تملكه شعور بالاشفاق على أبيه فراح ينظر اليه مهموما • وبدا وجه هرديليا الذى علته السنون قبل الأوان ، شاحبا حتى لا يكاد المرء يتبين شاربه الأشهب الصغير •

وارتفعت عشرات من الأصوات من حول تيتو صائحة : « خائن ! ... يا للعار ! .. يسقط الخائن ! » وأضنى تيتو الانفعال ، فرفع يديه فى الهواء ، كأنما يريد أن يدرأ عن والده هذا السيل من السباب القاسى .

وتحول جروفشورو ، الذى كان لا يزال يجادل الضابط ، الى هرديليا عندما لمحه ، وخاطبه قائلا فى غضب :

ـ اننى آسف يا سيد هرديليا أن تكون أنت الذى ...

وجمد المدرس فى مكانه كأنه جثة هامدة ، ولم يستطع أن ينبس بكلمة . ولكن الضابط تدخل صائحا وهو يقف بينهما :

ـ « سيدى ! اننى أطلب منك ألا ترهب الناخبين ! ولن أسمح بأى ضغط على أحد هنا ! » ثم أضاف مخاطبا هرديليا : « تفضلوا أنتم يا سادة ، تحركوا ! » .

فصاح جروفشورو فى حدة مواصلا مناقشته مع الضابط :

ـ اننى احتج على هذا التعدى الجديد على القانون !

وعند قاعة المدينة صافح شيتسو ، رئيس المقاطعة ، هرديليا ، ثم قدمه الى رجل قصير مكتنز ، يرتدى نظارة ذات اطار ذهبى ، وله شارب أصفر مشعث ، قائلا :

ـ هذا أيها السيد المرشح أحد أصدقائنا . اسمح لى أن أقدم ..

فلمس المرشح يد المدرس وهو يكرر بشكل آلى قوله :

ـ اننى سعيد جدا بلقائك ، وسأكون دائما تحت أمرك .. دائما ..

تلقى هرديليا التحية وهو يتنفس الصعداء ، ثم سار الى مكتب موثق العقود ، حيث كان رئيس اللجنة يجلس الى منضدة طويلة ، وهومستشار فى محكمة بيستريتسا ، نحيل الجسم ، ذو أنف رفيع جدا ، وعينان ضيقتان حقودتان ، ويمسك بقلم فى يده . كان المدرس يعرفه جيدا . وقد جلس الى جواره قاضيان آخران بنفس المحكمة ، يسجلان الأصوات على بطاقات مطبوعة . وكانت الحجرة مليئة برجال وقفوا يرقبون الناخبين بنظرات متوجسة متفحصة .

سار هرديليا الى المنضدة وقبعته فى يده وعلى وجهه ابتسامة . ونظر المستشار ـ رئيس لجنة الانتخاب ـ اليه نظرة متسائلة . فقال المدرس وهو يتكىء بيديه على حافة المنضدة ، وينظر فى ثبات الى عينى القاضى كأنما قصد أن يناشده أن يتذكر ويحميه عندما يمثل أمام المحكمة :

ـ اننى أعطى صوتى الى السيد بك !

وقيد كاتب الاقتراع اسـمه ، بينما أعلن الرئيس فى لا مبالاة وسـأم :

ـ الذى يليه ، من فضلك !

فخطا المدرس جانبا كى يفسح المكان لمرافقيه • وتمتم مخاطبا المستشار ـ الذى بدا وكأنه لا يسمعه ، وقد راح يحك خلف أذنه بقلمه ، وتسمرت عيناه على الكتبة الذين يسجلون أسماء الناخبين ـ قائلا :

ـ وهؤلاء أيضا من بريباس !

وفى الساعة السـادسة ، أعلنت اللجنة انتخاب النائب بللابك بأغلبية خمسة أصوات • •

أعلنت النتيجة على الحشـد المنهك فى الخـارج ، فرد على ذلك بصيحات الاستنكار وبسيل من الأغانى والأناشيد الوطنية • ولم تلبث ساحة السوق أن خلت ، بينما امتلأت الحانات من ناحية أخرى بالرواد حتى ساعة متأخرة من الليل ، واختلطت فيها أصداء تعليقات حادة ، وتهديدات ، وعبارات تهنئة • • •

وعندما عاد هرديليا الى بيته روى بابتهاج كيف صـافحه النائب ووعده بالمساعدة فى أى ظرف ، وكيـف ابتسم له القـاضى وهو يقطب حاجبيه كيما يحفظ اسمه جيدا فى ذهنه • ثم قال فى زهو :

ـ ليس هناك ما يدعونى الى القلق بعد هـذا بشـأن الدعوى ، وأستطيع من الآن فصاعدا أن أنام ملء جفونى ! ثم أضاف فى ظفر مخاطبا تيتو : « انك ترى قيمة أن تحسن معاملة الناس ! » فتنهد الشاب فى سأم قائلا :

ـ نعم لقد رأيت • • رأيت جيدا !

ولكن كلمات هرديليا ونظرته أعادت الى ذهن الشاب تلك الصيحات التى انطلقت فى الميدان عندما مر هرديليا ، وماكسـا وجهه عندئذ من شحوب ، وذلك الاحساس الغامر بالاشفاق الذى تملك تيتو والذى مازال يعتمل فى قلبه • وأحس بالحزن والكآبة ، كأن آخر آماله فى الحياة قد ضاعت • وراح يفكر : « كم هى صغيرة تلك الأشياء التى تقرر مصـير المرء ومثله العليا ! خمسة أصوات ! أصوات أبى التى ألقى بها على هذا النحو لتيسر له الأمور فى الدعوى المقامة عليه ! لو لم تكن هـذه الدعوى

اللعينة ، لانتصرت قضيتنا ٠٠ وليت هذه الدعوى بعد هذا تنتهى على خير ! هذا هو ما يقرر مصير أمة : مجرد حبة من الرمال ٠٠ ولكن المثل الأعلى لا يمكن أن ينهار ! ان المثل الأعلى هو روح الانسان » ٠

وانتهز تيتو فرصة وجود كاتب قرية لوشكا ، الذى كان قد جاء الى أرماديا من أجل الاقتراع ، فرحل معه فى اليوم التالى ٠ وقال تينو لنفسه وهو يستأذن أهله مودعا : « اننى اذا ظللت هنا أكثر من هـذا، فلن ألبث أن أغرق فى الوحل ! » ٠

- ٢ -

همست أنا بصوت واهن لا تكاد هى نفسها تسـمعه ، وقد أطل الرعب من عينيها خشية أن يعاود فاسيلى ضربها حتى الموت :

ــ لقد طردنى من بيته يا أبى ٠٠٠

كان فاسيلى باكيو قد انتهى لتوه من تناول وجبة الغذاء ، فأجفل عندما رآها بوجنتيها الشاحبتين الغائرتين وبطنهـا المنتفخ ٠ وتنـاول رشفة أخرى من اللبن ، ومضغ لقمة من خبز الذرة ، ثم نظر الى أنا طويلا وقد امتلأ فمه بالطعام ، ثم قال :

ــ حسن ، يمكنك أن تمكثى هنا ، فالمكان فسيح ٠ اننى ذاهب الى زاهاتا ، فان بعض رجالى يحصدون هناك ٠ وعليك أن ترعى البيت فى غيابى ٠٠٠

كان يتكلم بلهجة رقيقة ، حتى أن المرأة لم تكد تصدق أذنيها ٠ ولم تجرؤ على الجلوس ، وظلت فى دهشة وعجب حتى رأته ينطلق فعـلا بعربته ٠

أيقن باكيو أن ايون سوف يطرد أنا ، ولكنه لم يكترث بهذا ، وقال لنفسه انه لا ضير فى أن تعود الفتاة الى بيته ٠ فلم يكن هناك ما يمنع من أن تفعل هذا ما دامت قد تزوجت ٠ وكان يفضل هذا الحل على أن يرضخ لذلك الوغد ، ويتخلى له عن أرضه ، فان الزوج سـيضطر أن يأتى ليأخذها فى النهاية قانعا بما يستطيع أن يحصل عليه ، فليس له خير فى ذلك على أية حال ٠٠ انها مسألة قدرة على الصمود ، ومن يصمد لفترة أطول هو الذى سيخرج ظافرا ٠ أما عن نفسه فانه يستطيع أن ينتظر الى الأبد ، فليس لديه ما يفقده بالانتظار ٠٠٠

وبدت أنا كالكلب ذلة وتواضعا ۰ ولم تجرؤ على أن تفوه بكلمة أمام العجوز ، ولكن عيناها الغائرتان في محجريهما ، والحمراوان دائمـا بفعل الدموع ، كانتا في بعض الأحايين ترتفعان الى وجه أبيها في ضراعة ورجاء ۰ وبدت أيامها بلا نهاية في انتظار الرجل الذى يصبو اليه قلبها بأشواق زاد منها كل ماعانته من أجله من مرارة ۰

وذهب ايون ، يوم طرد أنا من البيت ، الى أرماديا ليقابل فيكتور جروفشـــورو ، فقد سـمع أنه محام بارع يفضـل معظم المحامين في بيستريتسا ۰ وكان المحامى مشغولا بالانتخابات في ذلك الحين الى أقصى حد ۰ وعندما عرف أن ايون لا يتمتع بحق الانتخاب ، أراد أن يؤجـل مقابلته الى موعد آخر ۰ ولكن ايون رفض باصرار أن يغادر مكتبه قبل أن يخبره بكل تفاصيل مشكلته ۰ واستشعر جروفشورو أنها قد تكون قضية مجزية فسأله :

ـ هل لديك أى شهود ؟

فأجاب ايون :

ـ « نعم يا سيدى ، لدى شهود بالطبع ۰ هناك ۰۰ » وأخذ الفلاح يسرد في سرعة قائمة بأسماء الشـهود الذين حضروا ماتم بينهمـا من مساومة ، وهؤلاء الذين سمعوا ما قطعه باكيو على نفسه من وعود ۰

ووعد المحامى بأن يحصل له على الأرض كلها ، ولكنه طلب نصف أتعابه مقدما ۰ وعندما أعطاه ايون ما طلب نقدا وعدا ، أغلق جروفشورو على النقود خزانته ، ثم نصحه بأن يعيد أنا ثانية الى بيته حتى لا يستطيع فاسيلى باكيو أن يقول ان ايون قد طردها من منزله ، ولكن بشرط ألا يبدو من سلوكه أنه يحتاج اليها خدمة لأغراضه ۰

ورسم ايون علامة الصليب على صدره ، فقد كان راضيا ۰ فما كان المحامى يتقاضى منه نقودا لو لم يكن واثقا من كسب القضية ۰ أما أنا فانها سوف تعود بالتأكيد من تلقاء نفسها ۰۰ ولكن القلق بدأ يساوره من أن تتعرض دعواه للأخطار عندما مر أسبوعان دون أن تعود ۰

وغاص قلب فاسيلى باكيو بين ضلوعه عندما عرف أن ايون قد أقام دعوى ضده أمام القضاء ۰ فقد كان بطبعه يخشى الدعاوى القانونية ۰ لم يكن قد تعرض لمثل هذا من قبل ، ولكنه رأى كثيرا من الدعاوى التى ابتلعت أموال الناس وأملاكهم دون أن تفيد أحدا ۰ ۰ وبدأت صلابته

تهتز • وافترض أن الأمور سارت على غير ما يهـــوى وفقد كل شيء • فالمحامون هم أكثر الناس مراوغة ودهاء • وهم يستطيعون أن يرسلوك الى السجن حتى ولو كان الحق فى جانبك • وفكر أنه قد يكون من الأسلم ان يدع هذا الوغد يأخذ نصف الأرض وكوخه القديم ، فينتقص بذلك من همومه هم • وظل ينظر شذرا الى أنا ، وكان يسعده كثيرا أن يجد أى عذر كى يعيدها الى ذلك الفاسد الذى لا نفع فيه ، والذى اختارته بنفسها ولم يعد من الممكن ابعاده عن طريقها •

وقرر فاسيلى باكيو فى يوم الأحد الثالث أن يشرب حتى الثمالة حتى يستطيع أن يطردها • كانت الحانة مزدحمة بعد الظهر كالمعتـاد • وقام أفروم بتقديم البراندى بنشاط وحيوية أكثر مما تعود ، رغم ٠٠ كان مكتئبا نتيجة لصفقة غير موفقة مع كاتب القرية • ولم يكد فاسيلى باكيو يحس بشيء من النشوة حتى انتقل توما بولبوك الى منضدته ، مرحا راضيا ، اذ كان قد أرسى لتوه أساس بيت من الحجر يبنيه لولده جورج ، حيث كان قد قرر أن يزوجه فى الشتاء القادم • وتطرق بهما الحديث الى شتى الأمور ، حتى راح باكيو يبثه شكواه من سوء حظه فى زواج ابنته • وأضاف أنها تقيم الآن فى بيته كأنها بلا زوج ٠٠ وهز توما رأسه ثم سأله مهدئاً :

ـ لماذا لاتسوى هذا الأمر يافاسيلى ؟ ان الناس لا يستطيعون أن يستمروا فى مشاحنات على الدوام •

فأجاب باكيو وهو يدق بكأسه على المنضدة :

ـ انه ليس من الرجال الذين يمكن الوصول معهم الى اتفاق •

ثم راح يخبره بكل ما كان عليه أن يحتمله من زوج ابنته ، وكيف أن الأخير يعمل على انتزاع أرضه وثروته ، حتى تركه متســولا يستجدى قوت يومه •

ودخل ايون فى هذه اللحظة • لقد جاء الى الحانة عامدا حتى يقابل حماه ، مؤملا أن يصل معه الى اتفاق ـ اذا أمكنه ـ كى يسترد زوجته • ومع ذلك فقد جلس الى منضدة أخرى ، ونادى صاحب الحانة قائلا :

ـ أيها السيد ! أعطنى شيئا من الشراب !

والتفت توما خلفه بسرعة ، قبل أن يعود أفروم بالبراندى ، وصاح به :

ـ مرحى يا ايون ، أهلا بك . تعال هنا ! تفضل ، ان أحدا لن يعضك !

سار ايون الى منضدتهما متثاقلا ؛ وبدا له صوته غريبا عندما حيا حماه ، كأن شخصا آخر هو الذى يتكلم :

ـ أرجو لك حظا سعيدا يا حماى ...

فانفجر فاسيلى باكيو فى لهجة جمعت بين السخرية والعنف قائلا .

ـ ماذا تعنى بقولك يا حماى ؟ أنا الذى يجب أن أناديك بهذا اللقب ، فان زوجتك تقضى فى بيتى أكثر مما تبقى فى بيتك .

فأجاب ايون وهو ينثنى كالمهرج :

ـ وهل هذا خطئى ؟

وقال توما وهو ينظر اليهما الواحد تلو الآخر :

ـ أعتقد أنه يجب عليكما أن تسويا هذا الأمر كأناس مهذبين ، يجب عليكما بالفعل أن تضعا حدا لهذه المهازل ! حقا ! اجلس ياايون هنا .

وجلس ايون ، بعد أن وضع على الأريكة منديلا منقوشا بزهور مطرزة ، حتى لا تتسخ ملابسه . ولم يضع توما وقتا ، فأدخلهما فى مساومات مباشرة . كان من الممكن فى أى وقت آخر أن يفقدا أعصابهما ويبدآن فى السباب ، ويصيحان حتى تبح منهما الأصوات ، ولكنهما كانا هادئين متزنين ، يتداولان فى صفاء كأنهما تاجران محنكان يعرف كل منهما مايريد . وانتهى فاسيلى الى أن عرض أن يمنح ايون وزوجه نصف أراضيه ، وبيته الآخر ، قائلا انه يمكن لهما أن يأخذاها فورا ، ويسجلاها عندما يشاءان ، ويضعان بذلك حدا للخلاف . لكن ايون أجاب بأنه يفضل أن يسوى الأمر فى المحكمة ، طالما أن العجوز يرفض أن يعطيه ماوعده اياه عندما أخذ الفتاة . وأضاف أن أنا تستطيع على أية حال أن تعود عندما تشاء ، فما له عليها اعتراض .. وأخذ توما يستحثهما على الوصول الى حل وسط ، وأرغمهما على أن يتصافحا . وتمتم ايون بعينين لامعتين :

ـ ليكن ما قلت ، على أن تستمر القضية .. اننى أوافق حاليا على اقتراحك ، ولكن المحكمة سوف تمنحنى كافة حقوقى . فاذا أعطيتنى ماقلت لتوك بمحض ارادتك ، ستكون مهمة المحكمة أيسر فى اعطائى ماتبقى من حقى .

لم يرحب فاسيلى باكيو بالاستمرار فى القضية ، بل لقد تملكه

الغضب لمجرد الاشارة اليها • ولكن توما أجبره ثانية على مصافحة ايون ، وهو يقول بلهجة وديعة :

ـ ليكن مايقول • انه مايزال صغيرا بلا خبرة ! ليكن •• فمازال أمامنا وقت طويل حتى تعرض القضية أمام المحكمة ، ومن يدرى ماذا تخبئه لنا المقادير !

وظلوا يشربون نخب الاتفاق حتى حل المساء ، حيث أخذ ايون بيد أنا وسار بها الى البيت • واستطاع أن يخفى رضاءه رغم أنه كان ثملا • كان قلبه سعيدا لما أذاب من جليد •

وجاءه فاسيلى باكيو فى الصباح كما اتفقا من قبل ، وذهبا معا الى جيدوفيتسا حيث توجها الى مكتب كاتب القرية ، ليعدا أوراق نقل ملكية الارض وتسجيلها • وقال ايون على سبيل التهديد :

ـ ولكن أرجوك ياسيدى أن تكتب أن القضية مستمرة !

وأوشك فاسيلى باكيو أن يرد ، ولكن ايون هب واقفا وهو يقول :

ـ يجب أن آخذ الارض كلها يا حماى ، كما تعلم • كل الارض ! ••

- ٣ -

أصبح بيت هرديليا بعد أن رحل تيتو أكثر هدوءا • وكان المدرس يشير فى زهو بين الحين والحين الى ماحققه من أمجاد فى الانتخابات ، ولكن السيدة هرديليا وجيجى كانتا أكثر اهتماما بالتفكير فى لورا ، فكانت زوجة المدرس تخلو الى نفسها فى حجرة الاستقبال بمجرد أن تنتهى من أعمالها المنزلية ، وتبحث عن العزاء والسلوى فى تلاوة الصلاة بصوت مرتفع ، فى كتاب قديم مهلهل كانت قد أخذته كهدية منذ سنوات بعيدة من عمها سيميون مونتيانو •

وذات مساء ، عندما شرعوا يجلسون الى مائدة العشاء ، بدأ هيكتور ينبح فى الفناء ، وأطلقت البوابة الصغيرة صريرا طويلا ، ثم سمعوا صوت خطوات ثقيلة على السقيفة ، تبعتها دقة على الباب • وقفزت جيجى من مكانها صائحة وهى تصفق بيديها بانفعال : « خطاب من لورا ! » بينما صاح هرديليا : « أدخل ! » •

وكان الطارق فى واقع الأمر هو كوزما كيوكاناش ، خفير القرية ، الذى أحضر البريد معه من جيدوفيتسا • وكان البريد يتضمن خطابا الى

هرديليا ، وبطاقتان أو ثلاث تحمل عناوين بعض الفلاحين الذين يقضى أبناؤهم مدة الخدمة فى الجيش ، بالاضـــافة الى بعض الصحف للأب بلكيوج • وقرأ المدرس العناوين ، ثم أعطى الخطاب الى جيجى ، وأراد أن يحتفظ بصحف القس ، فارتبك الخفير وتلعثم قائلا :

ــ لا أستطيع ياسيدى ، بشرفى لا أستطيع • لقد أمرنى الأب الموقر ألا أدعك تأخذ أيا من صحفه ، والا ندد بى علنا فى الكنيسة •

فقال هرديليا وقد زاد فضولا :

ــ لا عليك ياكوزما ، لتكن مشيئته ! اجلس واسترح لحظة ريثما أتصفحها لأرى مايقولون •

كان بلكيوج قد قطع كل علاقاته بهرديليا منذ الانتخابات ، فلم يعد أى منهما يحادث الآخر ، ولم يعودا يقضيان بعض الوقت معا أثناء النهار ، بل كانا يتصرفان ازاء بعضهما البعض كأنهما غريبان تماما • وقاطعه الكثيرون من سكان أرماديا أيضا ، وخاصة فيكتور جروفشورو ، الذى كان يقول للجميــع أن « ذلك الخائن فى بريبــاس » هــو المســئول عن ارسال مجرى الى البرلمان نائبا عن دائرة رومانية •

أخذ هرديليا يتصفح الصحف ، بينما حاولت زوجته أن تقرأ خطاب لورا ، وأخذت جيجى فى نفس الوقت تحــاول فى صــبر نافذ أن تتابع سطور الخطاب المكتوبة بخط لورا الدقيق ذى الزوايا الحادة • وكانتا من الانفعال بحيث لم تستطيعا فهم أى شىء منه • فقال هرديليا ، بعد أن روى ظمأه الى الاخبار وصرف كوزما :

« أعطنيه ! » فصاحت جيجى :

ــ حسن ، اقرأه لنا بصوت عال من فضلك !

وضع المدرس نظارته على عينيه ، ونهض واقفا ، وأمسك بالخطاب قريبا من المصباح الذى تدلى من دعــــامة فى السقف ، وأخذ يقرأ ببطء ووضوح ، فى وقار مستحب ، وصوته يتهدج قليلا فى بعض المواضع :

« أحبائى الأعزاء ! لن يدهشنى أن تكونوا قد ظننتم أن شيئا قــد أصابنا ، لأننا لم نكتب اليكم خطابا واحدا منذ افترقنا ، بعيون ملؤها الدموع ، أمام مشرب راهوفا • أنا نفسى أعجب كيف استطعت أن أكون مهملة قاسية الى هذا الحد ، لأن حبى لكم لم يفتر ، وان تكن مشاعرى الآن قد أصبحت موزعة • ولكنكم اذا وضعتم أنفسكم فى مكاننا ، سوف

تفهمون وتغفرون • وأعتقد أنكم قد تلقيتم كافة البطاقات البريدية التى أرسلناها اليكم من كل مكان ذهبنا اليه • وقد ارجأت الكتابة حتى تم لنا الاستقرار في عشنا الصغير الجميل ، حتى أستطيع أن أصف لكم تفاصيل حياتنا الجديدة • وها أنا فى النهاية أجد الوقت كى أكتب اليكم •

« انكم لا تتصورون كم كان قلبى ثقيلا حزينا عندما بدأت رحلتنا • كان قلبى يدمى ، ولكننى لم أستطع حتى أن أبكى ، خشية أن يسىء جورج تفسير دموعى •• ومع ذلك فان الرحلة من أرماديا الى هنا ستظل ذكرى سعيدة لا تنسى • لقد كان جورج عطوفا حانيا ، فلم يلبث أسفى أن زايلنى • ولم يكسب جورج حبى وحسب ، بل لقد اكتسب ثقتى الكاملة أيضا •

« وقد مكثنا يومين فى بيستريتسا ، لأنى كنت متوعكة قليلا ، ولم يوافق جورج أن نسافر بالقطار وأنا على هذا الحال • اننى لا أجد الكلمات التى تصور لكم كيف كان جورج نبيلا رقيقا معى (وما كنت لأكتب هذا المديح ، لو لم أكن واثقة أنه لن يسمع به • لأنه اذا عرف ما أكتب عنه قد يتملكه الغرور ، وقد يستغل هذه الاعترافات •• هذا العزيز الغالى !

« وفى مساء اليوم التالى تحسنت حالى ، فارتديت ردائى الأزرق السماوى الذى — كما يقول جورج — يناسبنى بشكل مدهش ، ثم تناولنا عشاءنا فى جيفربيفيرين • وأمضينا وقتا رائعا • كانت هناك ثلة من العسكريين ، وحشد كبير من الوجهاء • وكان جورج فاتنا مرحا • وقد أحسست ببعض الحرج لأنه ظل يقبل يدى عبر المنضدة ، رغم أنى أعلم جيدا أنه من حقنا الآن أن يحب أحدنا الآخر دون كتمان — على حد قول جورج •• كانت أمسية رائعة ، كلفتنا مايقرب من عشرين ريالا ، فقد كانت النقود تتسرب كالماء بين يدى جورج • وظل يقول ان المرء لا يعيش سوى شهر عسل واحد فى حياته • أما من جانبى ، فقد كنت أخشى أن نفلس قبل أن نصل الى فيرياج ونجعـــل من أنفسنا أضحوكة للناس جميعا •

« وتركنا بيستريتسا يوم الأربعاء ، وقررنا ألا نتوقف فى أى مكان حتى نصل الى ساتمار • ومع ذلك فقد قطعنا رحلتنا فى ديج حيث أمضينا هناك يوما وليلة • فقد أراد جورج ، الذى كان سعيدا للغاية ، أن يعرفنى بكافة المدن التى مررنا بها ، حتى تكون لنا ذكريات مشتركة فى كل هذه الأماكن • وتوقفنا فى جيرلا يوما ، وزرنا الأسقفية حيث قابلنا نيافة

الأسقف نفسه ، الذى كان ودودا جدا معنا ومنحنا بركته • وقد أحببت كلوج كثيرا ، فهى مدينة لطيفة ، ولكن كان من الغريب ألا اسمع فيها كلمه رومانية واحدة • ونزلنا فى ضيافة شقيقة جورج ، وهى متزوجة من محام بارز هو فيكتور جروزيا • ولعلكم تذكرون أن والد جورج قد حدثكم عن لودوفيكا فى حفل خطوبتنا • وذهبنا أيضا الى المسرح المجرى، حيث شاهدنا ملهاة لا أذكر اسمها ، فاننى لم أستمتع بها كثيرا ، لأنى أولا لم أستطع أن أفهم كل ماكانوا يقولونه على المسرح ، ثم ـ وهذا هو الاهم ـ لأنها كانت ليلتنا الثالثة فى كلوج ، وقد اعترف جورج بأن تلك المدينة لم تكن فى طريقنا على الاطلاق ، وأنه قد أتى بى اليها لا لشىء الا ليسعدنى ويسليني • وقد بكيت وأنبته لأنه خدعنى ، وخاصة لأنه أنفق مبلغا كبيرا من المال ـ اننى لا أجرؤ أن أخبركم بالمبلغ حتى لا تنزعجوا • وهذا هو السبب فى أنى لم أستطع أن أضحك من الملهاة المجرية • ويقول جورج أنى لم أضحك لأن المسرحية كانت ضعيفة ، وربما كان على حق فى قوله هذا •

« وهكذا سافرنا عائدين الى ديج حيث أمضينا ليلة هناك ، ثم اتجهنا شمالا الى ساتمار • وفى الحقيقة ، اننا لم نغادر قطارنا الا فى ساتمار ، حيث كانت حقائبى وأمتعتى ، وبعض أمتعة جورج أيضا فى انتظارنا منذ مدة • ولكننا أرحنا أرجلنا لفترة قصيرة فى المدينة من عناء الجلوس فى القطار ، ثم استأنفنا رحلتنا مباشرة الى فيرياج بالعربات التى كان كاتب المدينة قد أرسلها ، اذ كان جورج قد أبرق من ديج معلنا وصولنا •

« وتتمثل مشاهد الطبيعة هنا فى سهل واحد فسيح ، تغطيه حقول من القمح لا تدرك العين نهايتها تمتد على مدى البصر ، ناعمة كراحة اليد• وكانت الشمس حارقة لا ترحم ، والعربة تثير سحبا من الغبار تظل عالقة فى الهواء كأنها تكسل عن الهبوط الى الارض •• انها من زاوية معينة منطقة جميلة حقا ، ولكنها لا تقارن بتلال بزيباس وجبالها الزرقاء الرائعة •

« ان فيرياج ليست قرية رومانية الا اسما • ويزعم الناس هنا أنهم رومانيون ، ولكنهم يقولون هذا بالهنغارية ، فهم لا يعرفون لغة غيرها • ان قلب المرء ليأسى حين يسمعهم • وهم على وجه العموم قوم مجـــدون وكرماء ، وهم مسيحيون طيبون • لا عجب اذن أن يكون هؤلاء القوم المساكين قد نسوا لغتهم القومية !

« وتقع فيرياج على مشارف المنطقة التى يقطنها الرومانيون • وفيما

وراءها لا يوجد سوى المجـــريون ، بسراويلهم البيضاء الواسعة كأنها قمصان فتيات فلاحينا ، وغطاء رأسهم الضئيل المضحك على قمة رءوسهم. لو راتهم جيجى لظلت تضحك من قلبها حتى تعتاد منظرهم ٠٠ وكاتب المدينه هنا مجرى لا يعرف الرومانية بطبيعه الحال ٠ حتى المدرس يتكلم الرومانية بطريقة مثيرة للضحك ، رغم أن مدرسته مدرسة طائفيه تتلقى اعانه من الكنيسة ٠ وقد عنفه جورج على ذلك ، ولكن المدرس أوضح أن هذه هى العادة فى هذا المكان ، وأن القس الراحل نفسه لم يكن يتكلم سوى الهنغارية ٠ وقد أكد لنا أننا نحن أيضا سيتعين علينا أن نتكيف مع الظروف وأن نستخدم هذه اللغة ٠ وعلى هذا ، فقد أقسم جورج انه، كائنة ماكانت الظروف ، لن يحيد عن واجبه نحو أمته ، وأعلن أن من واجبه ألا يدخر وسعا فى ارجاع هذه الخراف الضالة الى حظيرتها ٠ وكانت كلمات جورج مؤثرة فى النفس حتى أن المدرس ، وأنا أيضا ، لم نستطع الا أن نذرف الدموع ٠٠ أما المدرس فهو أرمل ، وأما الموثق فله زوجة عجوز سيئة الطبع ، ولا أعتقد أننى سأستطيع مطلقا أن أقيم صداقة معها ٠ ولعل هذا أفضل فى الحقيقة ، لأنى سأكون بارادتى ذات نفع أكبر لزوجى فى معركته العظمى من أجل بعث الروح القومية بين هؤلاء الرومانيين المنكودين ٠ وقد بدأت أفهم الحياة فهما أكبر ، وأعى كم هى شاقة قاسية ٠ وقد رتبنا بيتنا على نحو مريح تماما ، واشترينا بعض الأثاث الأنيق من ساتمار ، وهو يشبه الى حد كبير أثاث حجرة الاستقبال عندنا ٠ ونحن راضون وسعداء ، ونتضرع الى الله أن يمن علينا برحمته فى المستقبل أيضا ٠ ويحدونا الأمل فى أن ننجب طفلا فى العام المقبل ٠ اننى أحس باقتناع بأنه فى طريقه الينا ، وقد بدأت بالفعل فى صنع غطاء لرأسه الصغير ٠

« وقد رسم جورج كاهنا منذ أربعة أسابيع ٠ وانى لأعتقد أنه ألطف قسيس فى كل أنحاء البلاد ، وأن القداس الذى يقيمه أفضل من كل نظرائه ــ ولا أقول هذا لأن جورج زوجى ، ولكن لأن هذا هو الواقع حقا وصدقا ٠

« هأنذا ما ان بدأت الكتابة حتى أخذت أثرثر الى غير ما نهاية ٠ واذا لم أكف عن الكتابة فان الورقة ستنتهى ٠ ويبدو أنها قد نالت كفايتها من خطى غير الجميل ٠ بل وأعتقد أيضا أننى قد أخبرتكم بأشياء أكثر مما ينبغى ٠ وقد جاء دوركم فى ارسال خطاب لا يقل طولا عن خطابى هذا ٠ وحتى يحين ذلك ، لكم منى جميعا ألف قبلة ٠ ابنتكم المحبة ــ لورا

ملحوظة : اننا نأمل أن نستطيع الحضور الى بريباس فى وقت ما من شهر أكتوبر • وعندئذ سوف أحضر عزيزتى جيجيتسا لتقيم معى هنا • ولها منى قبلة خاصة مع كل حبى وأشواقى ــ ل • »

« نظرا لأن عزيزتى لورا لم تترك مكانا لى كى أكتب فيــه ، فانى لا أستطيع الا أن أعبر لكم عن حبى • ان الحب قد جعلنا لا نفكر الا فيما نحن فيه من سعادة •• فمعذرة • جورج »

وضع هرديليا الخطاب على المنضدة ، ثم مسح نظارته ، وارتسمت على وجهه ابتسامة حانية ، واغرورقت عيناه بالدموع • وانقضت جيجى على الخطاب فأوسعته تقبيلا ، وراحت تدور فى أرجاء الغرفة وهى تبكى وتضحك فى سعادة ، بينما بللت السيدة هرديليا شفتيها بطرف لسانها ، ثم قالت برقة :

ــ فليباركهما الله ، هذين الحبيبين !

- ٤ -

أما وقد أصبح ايون مالكا لأراض جديدة ، فانه لم يهدأ بالا ، بل بدا أشد شراهة من ذى قبل • وأقلقه بشكل متزايد احساسه بأنه قد خدع ، ولم يعد يفكر فى شىء سوى قطع الأرض التى كان ينبغى أن تكون له ، ولكنها لا تزال فى حوزة فاسيلى باكيو • وكان ينتظر القضــية بصبر نافذ ، وظل يذهب الى فيكتور جروفشورو بين الحين والحين ، يستحثه أن يفعل شيئا ، حتى ضاق به المحامى فاضطر أن يصرخ فى وجهه مهددا ، واستطاع بذلك أن يهدىء من الحاحه •

ودأب على ضرب أنا ، فلم يكن هناك شىء آخر يمكن أن يريحه • فقد أصبح الآن يكرهها • كان مقتنعا بأنها قد تواطأت مع أبيها على خداعه ولم يكن يستريح الا عندما يراها تنفجر بالبكاء •

وتحملت المرأة هذا كله صاغرة مستسلمة • وخطرت لها فى بعض الأحيان فكرة أن ايون لم يعد يحبها ، ولكنها كانت تسارع فى وجل الى استبعاد هذا الخاطر ، كأنه خطر مميت ••• وغالبا ما كانت تجد مبررا لسلوكه ، كما كانت تفعل فى الماضى ، مقتنعة بأن همومه ومشاكله هى التى تجعله يفقد أعصابه • وكانت تتطلع فضلا عن ذلك الى ماستجده من عزاء وسلوى فى الطفل الذى باتت تنتظره فى أى يوم • وأملت فى أن يجعله الطفل اكثر رقة وحنوا •

وكانت أنا تقوم بأعمال البيت كأنها خادمة • فان زنوبيا لم تكن تتنازل بعمل أى شىء ، حتى ولو كان مجرد تحريك مقعد من مكانه ، منذ حلت بالبيت زوج ابنها • وكافأتها على ذلك بأن كانت تكلفها بالمزيد من الأعمال ، وتظل تكيل لها السباب طوال اليوم • وكان على أنا أن تقوم بكل أعمال البيت بمفردها • فكانت تطهو الطعام ، وتحمله الى الحقول أيضا ، حيث كان ايون يعمل على رأس رجاله • وفى المساء ، كانت لا تكاد تحتمل ما بظهرها من آلام ، بينما كانت بطنها تثقل عليها وتكاد تخنقها • وكانت تتنفس بصعوبة فى فراشها حتى أن ايون كان يلكزها بين ضلوعها بمرفقه ، ويسبها لأنها تعوقه عن النوم ، بسبب نوبات القىء وضيق التنفس التى كانت تنتابها لساعات طوال •

كانت أنا ذات يوم ، قرب نهاية فصل الصيف ، بمفردها فى البيت • وقد راحت تعد الطعام الذى ستحمله عند الظهيرة الى الرجال الذين كانوا يحصدون القمح ، وبرفقتهم زنوبيا ، فى أحد الحقول • وأحست أنا فجأة ، بينما كانت تصب البصل المقلى على الحساء الذى كان يغلى فى مرجل حديدى كبير ، بآلام مبرحة فى بطنها • وتندى وجهها بقطرات كبيرة من العرق الساخن • وارتمت على أريكتها فوق الموقد والخوف يطل من عينيها ، وراحت تئن ألما ويداها تمسكان ببطنها • وفكرت والألم يزايلها بعد لحظة: « لقد أزفت الساعة • »

وتذوقت الطعام ، ثم أضافت اليه قليلا من الملح •• وبدأت آلام المخاض تعاودها ، ضعيفة فى البداية ، ثم أخذت تشتد بالتدريج كأن ابرا تنغرس فى لحمها • وظلت تعمل حتى الظهيرة رغم أن آلامها لم تتوقف • وانتهت من اعداد الطعام ووضعته فى سلة لترسله مع أحد ، اذا قدر الله لها أن تضع مولودها فى ذلك اليوم •

وهدأ الألم تماما عند الظهر ، فأحست بشىء من راحة • ورسمت علامة الصليب ، ثم التقطت سلتها وسارت فى خطوات بطيئة ، وتركت البيت فى رعاية دوميترو موركاش العجوز ، الذى كان قد استقر نهائيا ، فيما يبدو ، فى بيت جلانيتاشو ، ولم يجرؤ على العودة الى باراشيفا •

وكان حقل القمح الذى يشكل جزءا من بائنة أنا بعيدا بعض الشىء ، يلاصق الطريق القديم الذى يؤدى الى جيدوفريتسا • كانت الشمس تلقى حمما من اللهيب عبر السماء التى كانت صافية كقطرة من الدمع • وسرت السخونة الخانقة فى الهواء ، ثقيلة جاثمة كأنها ضباب غير منظور •

وبدا الحقل أصفر تحت وطأة الحرارة • وانتشرت بضع أشجار متفرقة هنا وهناك بأوراقها الخضراء الساكنة كأنها درع واق من الأشعة القاسية • وهرولت المرأة في طريقها بخطوات مترنحة ، وهى تجر أقدامها العارية على الدرب الذى غطته الأعشاب •

ووصلت قبل الأوان ، فاتجهت الى شجرة تفاح برى على حدود الحقل، حيث وضعت سلتها فى ظلها ، وتناولت منجلا تجز به حزمة أو حزمتين • وعندما انحنت لتضع السلة الى جوار جذع الشجرة الأجوف ، أحست بجسمها يتشنج فى ألم حاد حتى بدا لها كأن فأسا قد بقرت بطنها نصفين • وألقت بنفسها على الأرض الجافة المتشققة الساخنة فى كلل ، وصرت على أسنانها بصوت مسموع كأن عظامها تتحطم ، محاولة أن تخفى ما بها من ألم • ورغم كل ما بذلته من جهد ، ندت عن صدرها برغمها صرخة طويلة حزينة مدوية ، تلاها أنين ثقيل جف له اللعاب فى حلقها • فصاحت زنوبيا وهى تنصب قامتها ، ممسكة بالمنجل فى يد ، وبحزمة من القمح فى يدها الأخرى :

ــ « يا لله ! لقد جاءها المخاض •• » ثم أعنت النظر تجاه شجرة التفاح وأضافت : « نعم ، لقد حان الوقت ! أنظر كيف تتلوى ! »

فهمهم ايون دون أن يلتفت :

ــ يالها من امرأة حمقاء ! انها تعرف أن الساعة قد أزفت ، ومع ذلك تأتى لتضع جراءها هنا فى الحقل ! ألم تكن تستطيع أن تتصرف على نحو أفضل ؟

فتمتم جلانيتاشو وقد اختنق صوته اشفاقا :

ــ اسكت يا رجل ، والا ابتلاك الله بالموت على نحو ما فعل بالقسيس فى رونك !

فقال الزوج بصوت أكثر رقة :

ــ كان يمكنها فى الحقيقة أن تفكر بشكل أفضل •

وجرت زنوبيا صوب أنا ، التى رقدت على ظهرها تتقلب وتتلوى ، وقد راحت يداها تضغطان على بطنها كأنما تحاول أن تخمد نارا تستعر فى أحشائها • وتسلل شعاع أبيض خلال ظلال شجرة التفاح الخفيفة ، وألقى بضوئه الباهت على جسد المرأة المعذب •

وقالت زنوبيا فى اشفاق وهى ترجع الى جوارها محاولة أن تخفف آلامها :

ـ ما خطبك يا أنا ؟ آه يا عزيزتي ، كم أنت متعبة ! لماذا لم تمكثي في البيت مادمت تحسين بآلام المخاض ؟

كانت زنوبيا ، شأنها في ذلك شأن كل نساء القرية العجائز ، تعرف تماما ما ينبغي عمله ، رغم أنها لم تكن قابلة مدربة • فخلعت حزام أنا وميدعتها ، وأخذت تدلك بطنها في خفة الى أسفل • وازدادت أنات أنا حدة حتى انتهت الى صفير طويل ، وظلت شفتاها الجافتان تهمسان من حين الى حين :

ـ آه يا حماتي ، يا أمي ۰۰۰۰ انني أموت ! انني أموت ! ۰۰۰

ـ لاتخافي يا ابنتي ، فلن تموتي ۰۰۰۰ اهدئي ۰۰۰ تجملي بالصبر فترة قصيرة أخرى ، ولا تبكي ، فسينتهي الأمر في لحظة !

كان الرجال يواصلون عملهم • وكان جلانيتاشو يجفل مع كل صرخة من صرخات أنا • وظل ايون يعمل بكل طاقته ، وقد أصاخ السمع لكل صوت يأتي من ناحية الشجرة ، بينما راح يهمهم ويشأثيء الى نفسه في عنف حتى يطرد ذلك الاحساس بالاشفاق الذي أخذ يسترق طريقه خفية الى قلبه •

وارتجف العجوز فجأة عندما سمع صرخة اكثر حدة ، وقال :

ـ يا للفتاة المسكينة !

فقال ايون وهو يحاول أن يبدو هادئا ، بينما ازداد صوته رقة واضطرابا :

ـ هذا هو قدر النساء على أية حال ، وما باليد من حيلة !

ومرت الدقائق بطيئة كأنها ساعات من الرعب • كانت الحرارة تكاد تجعل الهواء يغلي • وامتد الحقل هادئا في سبات بين أحضان الشمس الحنون • لم يكن هناك انسان فيما حولهم ، فيما عدا تلك الأشباح المتفرقة التي كانت تبدو من بعيد كأنها ديدان صغيرة بيضاء على الجانب الآخر من الطريق ، في المراعي الممتدة على الطريق الى ساراكوتسا • وارتفع حفيف أوراق الذرة التي التوت ذابلة في حرارة الشمس ، بينما كانت أعواد القمح تتمايل وسنانة ، كأنها تحاول أن تتفادى لمسات أشعة الشمس الحارقة •

وتوقفت أنات المرأة فجأة ، حتي باتت ثرثرة زنوبيا مسموعة في وضوح :

ـ اصــبرى يا طفلتى ، تحملى واهدئى ٠٠٠٠ فلم يبق ســوى القليل ٠٠٠٠

« ماذا لو أنها ماتت ؟ » ومضت هذه الفكرة فى ذهن ايون ، فتملكه الفزع ٠ وأوشك أن يجرى اليها ، ولكن الهواء لم يلبث أن اهتز بصيحة مروعة ، قبل أن يتمكن ايون من تنفيذ قراره ، وتلتها على الفور صرخة رفيعة حادة كأنها ضفادع مذعورة ، أو نباح كلب أطبق الباب على ذنبه ٠

وصرخ ايون وقد لفح قلبه ذلك الصوت غير المألوف الذى يعلن خروج كائن جديد الى العالم:

ـ الطفل !

وخفتت صرخات أنا وأناتها بالتدريج ، وأحست بارتياح متزايد ، بينما ارتفعت الصرخات الجديدة وازدادت قوة والحاحا ٠

واندفعت زنوبيا نحوهم فجأة وقد تلطخت يداها بالدماء ، وفى عينيها نظرة جزعة يائسة ، وصاحت بحدة :

ـ اعطنى مقصا ٠٠٠٠ أو سكينا أو أى شىء بسرعة ، فليس لدى ما أقطع به الحبل السرى للطفل ! ٠٠ هيا ، أسرعوا !

وخطفت سكين جلانيتاشو من حزامه ، وأسرعت عائدة الى شجرة التفاح ، حيث بدت صرخات الطفل مختنقة ، وخشيت لحظة أن يكون قد أصابه مكروه ٠

كان الرجلان يقفان منتصبين بلا حراك ، برءوس حاسرة ، وعيون ثابتة على البقعة التى تضم الكائن الجديد الذى يطالب بحقه فى الحياة ٠ ونما فى روحى الرجلين احساس بالدهشة والتقوى أمام تلك المعجزة التى تتكرر كل يوم أمام أعين البشر ، ومع ذلك لايستطيع أحد أن يدرك أبعادها بكل مافيها من جلال البارى ٠ ورسم جلانيتاشو علامة الصليب فى ورع ، وتلاه ايون الذى طغت عليه العاطفة أيضا فرسم على صدره علامة الصليب ثلاث مرات بسرعة ٠

وشاهدوا زنوبيا بعد لحظات تهبط الى الوادى وقد حملت الطفل بين كفيها ٠ وصاحت فى الرجال من بعيد بوجه محتقن :

ـ انى ذاهبة لأغسله فى الغدير ٠٠٠٠ اهتموا بأمه حتى أعود !

وتساءل ايون ، وهو يمد عنقه فى حركة غريزية نحو الطفل الذى

كان يصرخ بين يدى المرأة العجوز ، وهو يرفس بساقيه الصغيرتين كساقى الدمية فى حيوية ونشاط :

ـ ماذا جاء يا أمي ؟ ··· ولد أم بنت ؟

فأجابت زنوبيا قبـل أن تختفى داخل أعواد الذرة ، متجهة نحو « غدير القس » الذى كان يمر عن قرب عند سفح المنحدر :

ـ انه شقى صغير ! ولد !

وتحرك ايون دون أن يدرى نحو زوجته · كانت الى جوارها بقعة كبيرة داكنة ، بدت وكأنها تكشر فى وجه الزوج المبهور · كانت التربة الجافة قد شربت الدماء فى شراهة · وكانت أنا قـد زحفت فى كلل الى شجرة التفاح حتى تسند ظهرها الى جذعها ، بينما غرق وجهها الابيض الشاحب فى العرق · وبدت بقعتان جافتان من الزبد على ركنى فمها ، بينما ارتسمت على شفتيها الجافتين الارجوانيتين ابتسامة سعيدة ·

وتمتمت المرأة برقة : « لقد قاسيت كثيرا يا ايون» ·

فأجابها ايون باضطراب وشغف وهو يحدق بعينيه فى وجهها الذى كان يشع بالفرح رغم ما به من ذبول وانهاك :

ـ انه ولد !

واستطردت أنا بصوت أكثر هدوءا ، بينما كان شعاع فضى يداعب وجنتيها فيزيد من جمال قسماتها المنهكة :

ـ آن أمك تقول انه يشبهك !

وغمر قلبه احساس جامح بالندم · وقست نظرته ، وود أن يقول تجديفا ، ولكن الكلمات توقفت فى حلقه الجاف ، ووقف الى جوارها فى ضيق واضطراب ، ومنجله فى يده ، بينما راحت قطرات من العرق تنحدر على صدغيه وتسقط على كتفى قميصه ·

ولم تلبث زنوبيا أن عادت بالطفل الصغير وقـد تدثر بميدعتها · وألقى ايون نظرة طويلة خائفة الى المخلوق الصغير الذى لا يزيد حجما عن قبضته · كان وجهه أحمر قانيا ، وعيناه مغلقتان بســبب ضوء النهار الساطع · وقد عقــدت سرته الداكنة المقطوعة بخيط قذر · ومد ايون ذراعيه ليأخذه ، ولكنه توقف فجأة متحيرا ، وتساءل :

ـ ولكن لماذا يبدو رأسه مستطيلا وضيقا هكذا ؟

فقالت زنوبيا وهى تضغط على الجمجمة الرقيقة فتجعلها أكثر استدارة :

ـ ان هذا لا أهمية له ٠٠٠ هكذا يبدو كل الاطفال حديثى الولادة ! ٠

وصاحت أنا بنظرة جائعة الى الطفل وهى تمد ذراعيها نحوه :

ـ اعطنى اياه يا أماه ، دعينى أنا أيضا أراه !

فأجابت العجوز وهى ترقد الطفل بين ذراعيها :

ـ لا تقلقى ، فسوف ترينه بما فيه الكفاية ٠

ووقفوا جميعا صامتين لحظة وهم ينصتون الى صيحات الطفل المذعورة ٠ وظل جلانيتاشو يمسح العرق العالق بجبهته بأكمام قميصه ، وهو يتنهد ويدمدم فى انفعال ٠٠ ثم ازدردوا طعامهم على عجل، واستأنفوا العمل ثانية ، تاركين أنا مع وليدها كى تستريح حتى الغروب ،حيث سيتعين عليها أن تسير عائدة الى البيت ٠

وغمر ايون احساس غريب بالحزن والكآبة ٠ وظلت أفكاره تدور فى ذهنه كأنها أسماك فى شباك صياد ٠ كانت صيحات الطفل تقلقه وتسعده فى نفس الوقت ٠ وأحس بالزهو لأن وليده له مثل هذا الصوت القوى، ولكنه تبين فى اللحظة التالية أنه قد صار مرتبطا بأنا ارتباطا لا فكاك منه بفضل هذا الكائن الصغير الأبكم ٠ وتملكه الغضب لهذا الخاطر ، وقفزت الى ذهنه صورة فلوريكا ، فاتنة مغرية بوجنتيها الورديتين ، تناديه ، ثم لا تلبث أن تخبو كأنها آمال تتبدد الى غير رجعة ٠ وأحس بأن مايحل مكان هذه الآمال انما هو هذه الصرخات الحادة العنيدة التى تصفق أذنيه فى صلف ، ممتزجة بهمسات أنا الرقيقة وهى تهدهد الطفل قائلة :

ـ كفى يا حبيبى ٠٠ كفى بكاء ٠٠ كفى ٠٠

- ٥ -

وصل تيتو الى لوشكا ، وهى قرية كبيرة غنية تغطيها المراعى الخصبة وقطعان الماشية ، فى حالة من القنوط واليأس ، مكتئبا مثلما كان يوم هجرته روزا لانج وحطمت قلبه ٠ وبدا أمام الناس مرحا سعيدا ، ولكن قلبه كان جريحا حتى لقد خشى ألا يجد سبيلا الى التئامه ٠ وقد استقبل بترحاب كبير من السادة ذوى الياقات البيضاء فى القرية ، الذين كانوا جميعا من الرومانيين وقد سمعوا بكونه شاعرا ٠

وكان كينتاريانو ، كاتب القرية ، يقيم فى دار العمـــدية القديمة الفسيحة ، حيث أعد حجرة صغيرة جميلة لتيتو ، ذات مدخل مستقل • وهى حجرة نظيفة أنيقة نظمتها الآنســة يوجينيا بنفســـها ، فقد كانت تعرفه من الحفـــلات الراقصة فى أرماديا • وقد أوضـحت له السيدة كينتاريانو منذ اليوم الاول ، وهى امرأة قصيرة بدينة ، ذات بشرة سمراء ولغد يتدلى أسفل فكها ، أنها لن تمانع فى أن يصبح زوجا لابنتها ، اذا ما قرر أن يدرس برنامج تأهيل الكتاب ، حتى يســـتطيع أن يأخذ مكان رجلها العجوز الذى يسعى للحصول على معاش بعد التقاعد ، بعد أن فقد السمع باحدى أذنيه ، بالاضافة الى كسله ، يضاعف من رغبته هذه أنه لم يكن قادرا على تعلم اللغة الهنغارية ، مما جعله فى خوف دائم من أن يفقد عمله • ورغم أن تيتو كان يميل الى يوجينيا لذكائها وسرعة بديهتها، الا أن خطط السيدة العجوز كانت فى نظره شيئا يدعو للسخرية • فمن المضحك حقا أن يرشحه أى انسان ، جادا ، للاقتران بفتاة وهو يبدأ لتوه فى شق طريق لنفسه فى الحياة •

وأخذ تيتو يتهرب من صحبة الناس ، فانعزل عن كل شىء فيما خلا أحلامه • وأحس بالحاجة الى الوحدة حتىيجتر مرارته فى وحدته• وتعجب كينتاريانو اذ رآه مقبلا على العمل ، وأسعده غاية السعادة أن يترك له كل شىء • وظل تيتو يقوم بواجبات عمله الكريهة من مطلع النهار حتى يجن الليل ، دون أن يغادر مكتبه ، غير مكترث بالآنسة يوجينيا وهى تناغيه وتحوم حوله •

ولم يلبث بعد أســـبوع أن تعرف الى فيرجينيا جيرمان ، مدرسة القرية ، التى كانت قد جاءت الى دار العمدية فى شأن منشئون مدرستها• وكان قد سمع بها قبل أن يصل الى لوشكا • كان الجميع يتحدثون عنها باعتبارها آنسة فاضلة محترمة ، تتفانى فى أداء واجبات مهنتها • ولميكن أحد قد رآها مطلقا فى احدى الحفلات أو صالات الرقص • كانت فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، ترتدى ملابس بسيطة على الدوام ، ولكن ما ترتديه كان يلائمها تماما أيا كان نوعه • وكانت لها عينان واسعتان حالمتان ، وفم صغير يفتر عن ابتسامة ساحرة •

وقال لها تيتو وقد أسرته بحلاوتها، بينما كان يصطحبها الى البوابة:

ـ كم أنت جميلة !

فأجابته المدرسة بجفاء :

ـ اننى لا أحب الثناء يا سـيد هرديليا ، وخصوصا اذا كان غثا مبتذلا ! لقد ظننتك أكثر ..

فقبـل تيتـو يدها باحترام ، وكأنه يعتذر . ولكن فيرجينيا تركنه بترفع ولا مبالاة ، دون أن يؤثر فيها اندفاعه .

وضعت هذه المقابلة حدا لعذاب تيتو وآلامه . وقضى الاوقات الطوال يفكر فى فيرجينيا جيرمان ، ويشرد فكره الى ابتسـامتها العذبة وان بدت باردة ، والى نظرتها المتألقة وان نجحت فى تطويعها وكبح جماحها. وكم كان سعيدا عندما اكتشف أنها صـديقة حميمة ليوجينيا ، وأنهـا كثيرا ما تأتى الى بيت كاتب القرية . وعندما ذكرت يوجينيا بعد بضعة أيام أنها ستذهب لزيارة المدرسة ، تطوع تيتو لصحبتها .

كان مسكن فيرجينيا جيرمان يتكون من غرفتين مؤثثتين وفق ذوقها، ينتشر فيهما عدد كبير من السجاجيد والطنافس التى نسجتها بنفسها ، وكثير من العاديات التى كانت قد جمعتها ، ودولاب للكتب لا يبـدو فيه سوى كتب ومجـلات رومانية ، غلفت جميعها بعنـاية وذوق ، ونقشت بخطوط مذهبة ، مع الحروف الاولى لاسم صاحبتها . وأمام المنزل حديقة صغيرة للزهور ، يحوطها سور من أعمـدة رفيعة من الخشب . ووضعت تحت النافذة أريكة تجلس عليها المدرسة لتحلم فى المساء .

وسرعان ما أصبحا صديقين . وتزايد احســاس تيتو بالألفة فى لوشكا كلما ازداد معرفة بفيرجينيا . واعترفت المدرسة فى خجل بأنها هى أيضا تحاول فى وقت فراغها أن تكتب الشـعر . وأخذا يقرآن القصائد معا ، وبلغ الغضب بتيتو مبلغه عندما علم أنهـا قد طرقت أبواب جميع محررى المجلات الادبية دون جدوى . ولكنها كانت تجد عزاءها ، على أية حال ، بل وتجد مدعاة للزهو فى الاعتقاد بأن أحد لم يفهمها .. ولكنها كانت سعيدة لأنه ، كشاعر ، يقدر نظمها المتواضع . وعندما فتح تيتو قلبه لها بعد ذلك ، فكشف عما يعتمل فى نفسه من آلام وأحلام ، هزت المدرسة الحلوة رأسها فى حزن ، مشيرة الى أنها هى أيضا تعـانى نفس هذه الآلام والآمال .

وفى الليـالى المقمرة ، كان تيتو يسرع الى بيت فيرجينيا جيرمان ، حيث يجلسان على الأريكة فى حديقة الزهور التى تغفو فى أحضان الليل، وينسجان معـا آمالهما للأيام المقبلة ، عندما يصبح الرومانيون أسيادا لأرض أجدادهم ، وعندما يشاركهما الجميع ايمانهما المقدس ، وعندما..

كانت الكلمات التي يرددانها تسكرهما · وكان تيتو يقول وهو في طريقه الى بيته :

ــ يا لها من مخلوقة فريدة ! اذا كانت آمالنا قد تغلغلت في أرواح أرق النساء ، فان احراز النصر لا يمكن أن يكون بعيدا !

واسترق طريقه داخل البيت بخطوات متلصصة ، حتى لا يوقظ كينتاريانو الذي كان في ليالي الصيف ينام تاركا نوافذه مفتوحة · واستأنف في حجرته الصغيرة حبل أحلامه ، وقد تبللت عيناه بالدموع · وأنعشته أشعة القمر الفضية المتسللة خلال نوافذه المفتوحة · واضطرمت روحه وكأن الغد هو يوم الانتصار النهائي ·· وراح يتصور ذلك اليوم منطلقا على أجنحة خياله الجامح ، فرأى نفسه في كلوج التي زارها مرة واحدة في حياته ، منذ سنوات بعيدة · لقد أصبح الجميع فيها لا يتكلمون الا الرومانية ·· وأى رومانية ! لقد صار الشعب كله يتكلم «مثلما كانوا يتكلمون في المملكة القديمة» ، في لهجة أكثر جمالا من لهجة فاسيلي بوبا نفسه ، وهو مهندس من فاراريا طوف بانحاء رومانيا جميعا من أقصاها الى أقصاها ·· وأصبحت أسماء المحال التجارية ، والشوارع والمدارس ، والسلطات ·· كل السلطات ، رومانية · ووقف تمثال ماتياس كورفينس يطل من عليائه على المارة مبتسما ، كأنه يقول لهم : « لقد جاءت لحظة العدالة أخيرا ! » ·· وارتدى الجند المارون أمامه قبعات كبيرة من الفراء·· كجنود الشرطة الرومانيين ·· الذين سمع عنهم · وها هو ذا القاضي الذي كان بالغ الوقاحة مع هرديليا في أرماديا · هاهو ذا يحييه فيكاد يكنس الارض بقبعته أمامه · وأراد تيتو أن يكون شهما ليثبت له أن الحكام الرومانيين نبلاء متسامحون ·· فمد يده اليه مصافحا ·· ولكن فيض خيالاته جرفه بعيدا ·· ها هو الآن في سيبيو ، ثم في براشوف ، ثم في أوراديا مار ، وفي آراد ، ثم في تيميشوارا ! وها هي ذي الاعلام المثلثة الألوان ترفرف في زهو على أبراج القصور ــ كما يحكون في قصص الاطفال · لقد اختفى رجال الشرطة ذوو القبعات التي يعلوها الريش ·· ولكن ، من هذا ؟ انه رئيس الشرطة في لوشكا يقبل نحوه في تعال ، وعلى رأسه قبعة شرطي روماني سوداء من الفراء ، ترتفع عند احدى أذنيه ، وفي مقدمتها شارة ذات ألوان ثلاث ·· وتذكر تيتو كيف حاول هذا « الرقيب أول » أن يكسب صداقته ، وكيف اصطنع العجرفة بعد أن رفض الشاعر الروماني الشاب أن يدنيء نفسه بمصافحة شرطي مجرى · وابتدره تيتو سائلا في كبرياء : « أين الريش الذي كان في قبعتك ياحضرة الرقيب ؟»

فتضرج وجه الشرطي سائلا : « أي ريش ؟ أي ريش هذا ؟ انني روماني! ألا تعرفني ؟ لقد كنت دائما رومانيا في دخيلتي ، ولكن الحياة قاسية ، والخدمة العسكرية ٠٠ » فصاح تيتو غاضبا : « أيها المرتد المارق ! » واذ ذاك اشتعل الرقيب غضبا ، وأخذ يسبه باللغة الهنغارية ، ثم انتزع الشارة المثلثة الألوان وألقى بها في وجهه ٠ واندفع الشاب ثائرا لكي يمسك بعنقه ٠٠ ولكن قدمه زلت فسقط على الارض ٠٠ وتساءل تيتو في عجب ، وهو يهز نفسه ويهب واقفا على قدميه : « ماذا حدث ؟ هل أنا أهذي ؟ »

كان القمر يضحك خلال فتحة النافذة ٠ وارتفعت أصوات خشنة في الشارع قادمة تجاه الدار ، فسار تيتو الى النافذة ، حيث كسا ضوء القمر وجهه بلون العاج ٠ كان الحارسان يمران في الظلمة ، وهما يدقان الارض بأحذيتهما الثقيلة ٠ وومض بريق «السونكي» في ضوء القمر ، وتمايل الريش على رأسيهما في غطرسة ، عاكسا أشعة القمر الفضية ٠

وصفق تيتو النافذة في عنف وهو يهمهم بحزن ، وكأن قطعة من قلبه قد انتزعت :

ـ أوه ٠٠٠ انها داورية الحراسة ! أضغاث أحلام ٠٠ أضغاث أحلام لا أكثر ٠٠

ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من هذه الاحلام التي ملكت عليه نفسه ، وسلبته كل قدرة على المقاومة ٠ كانت هذه هي الافكار التي تهدهده حتى ينام ، وهي التي كانت توقظه من نومه اذا أصبح ، وهي التي كانت تتسلط عليه طوال النهار ، وتقود خطواته نحو فيرجينيا جيرمان ، الكائن الوحيد في العالم الذي استطاع أن يفهم آماله وتطلعاته ٠

وتساءل ذات يوم في دهشة ، عندما أصبحت رغبته في رؤياها تؤرقه أكثر من ذي قبل : « ترى هل أصبحت أحبها ؟

وأجفل لهذا الخاطر في وجل في البداية ، كما لو كان قد ضبط نفسه متلبسا بارتكاب معصية ، ولكنه لم يلبث أن استعاد هدوء نفسه وثباته ٠ وراح يفكر : ان الحب يخفي دائما هدفا أنانيا ، وهو من أجل هذا يخلف وراءه في قلب المرء احساسا بالفراغ ٠ واستعاد ذكرى روزا ٠٠ لقد أدرك الآن فقط كم كانت مشاعرهما زائفة ٠ كان كل ما يتحرقان اليه شوقا هو الأحضان والقبلات ، ولا شيء غيرها ٠ وكان كل ما تبادلاه من

عبارات سامية رقيقة تخفى وراءها هدفا واحدا ·· فى حين أن فيرجينيا·· ان المرء ينسى بالفعل أنها امرأة صغيرة وجميلة· وحتى لو أنها كانت عاطلة من الجمال ، ما كانت مشاعره نحوها تختلف · هذه هى الصداقة الحقة فى الواقع · صداقة خالصة ، تقوم على آمالهما المشتركة ·· وراح تيتو يقارن بين خفقات قلبه الحالية وبين المشاعر التى كان يكنها لروزا لانج أو لوكريتسيا دراجو عندما كان على علاقة حب بهما ، كأنه طبيب يلاحظ على نفسه أعراض مرض · ووصل فى النهاية الى نتيجة ملأته زهوا · ان حبه هذا لا يشبه أى حب آخر ، ولكنه شعور ينطوى على جوهر لا حدود لنبله وسموه · وحفزه هذا الى أن يقول برضاء كامل عن نفسه :

ــ ما من شىء فى العالم أثمن من الصداقة المخلصة بين رجل وامرأة!

لذلك فقد أجاب تيتو قائلا فى استعلاء ، عندما اتهمته يوجينيا ذات يوم ، بدافع من غيرتها الخفية ، بأنه لم يأت الى لوشكا الا لأنه يحب فيرجينيا جيرمان :

ــ كلا يا آنستى ·· انك مخطئة ، فليس هذا حبا ! انه أكثر من الحب ·· انه صداقة نابعة من آمال مشتركة قوامها الايثار !

وضايقه أن يوجينيا ابتسمت لكلماته فى حزن وشك ·

- ٦ -

عمد الطفل فى يوم عيد القديس بطرس ، وسمى بيتر· وكان الجميع فى سعادة ومرح شامل ، حتى ان دوميترو موركاش نفسه شرب حتى ثمل·

وعاد كل شىء بعد ذلك الى مجراه المعتاد · فقبل أن ينتهى الأسبوع وجد ايون سببا ليضرب زوجته من جديد ·

واختفت السعادة التى ملأت قلب أنا ، كما انتهت آلام المخاض ، كأنها الضباب تذروه الرياح · وأصبحت ترى فى وضوح أن ايون انما يكرهها ، وعجبت فجأة كيف غابت عنها هذه الحقيقة من قبل · ماذا يمكن أن تأمل اذا كان الطفل لم يستطع أن يلين قلبه ؟ وراحت تتأمل الماضى ، فاقشعر بدنها لما كانت فيه من غفلة · لماذا تعلقت بايون اذا كان كل ما يسعى وراءه هو بائنتها ؟ لقد خدعها منــــذ اقترب منهـا لأول مرة ·

وقد استشعر ضعفهـــا ازاءه ، فتعقبها كذئب جائع • وتذكرت صوته المعسول في حلبة الرقص عندما بدأ يدير رأسها بكلماته •• لم تكن همساته العذبة حينذاك سوى ادعاء كاذب ، وكذلك كانت قبلاته وأحضانه على أريكتها فوق الموقد ، حتى أصبحت حبلى •• حتى قضى على كل آمالها فى الحياة •• وما من جدوى فى الندم على هذا كله •• فقد سبق السيف العذل ••

وبدأ احساس قوى يسيطر عليها بأن حياتها لا قيمة لها فى هذا العالم • كانت فكرة التخلص من حياتها قد داعبتها طويلا ، ولكنها أحجمت عنها انتظارا لمولد الطفل • وتجملت بالصبر • وهى ماتزال تنشد العزاء فى حبها لوليـــدها ، ولكن هذا ماكان ليرضيها تماما • وعندما كانت تسأل نفسها لماذا تعيش ، كانت موجات من اليأس تغمرها ، فلم يكن يحملها على أن تمهل نفسها سوى هديل طفلها البرىء الذى يتناول طعامه من ثديها • ومع ذلك لم تلبث رقة الطفل وعذوبته أن أصبحت توقظ آلامها ، فكانت تصرخ فى يأس قائلة : « ليت الله يأخذنا معا عنده ! » •

كان غموض الموت رغم هذا يخيفها أكثر مما تقدر • وكانت صورة القرية المترامية أمامها ، والحقول العامرة بمحصولها الوفير ، والغابات الغامضة ، والأكواخ المبعثرة كلعب الأطفال بين الأشجار فى الحدائق ، تبدو جميعا وكأنها تقول لها ان كل عذابات الحياة يمكن احتمالها آلاف المرات ، ولكنها لن تستطيع أن تحتمل الأسرار المرعبة للظلال التى تلقى آلام الموت بالانسان اليها • وتبخرت ارادتها أمام البوابة النحاسية ذات المزاليج الغامضة ، التى ابتلعت ملايين الارواح عبر التاريخ ، دون أن ينجح الانسان فى أن يلقى ولو بنظرة عابرة الى العالم فيما وراءها •

ومضى الوقت غير مكترث بما تعـــانيه • كان الصيف يقترب من نهايته ، فازداد العمل فى الحقول • وكانت أنا تتسلق التلال كل يوم ، وهى تعلق مهدا فوق ظهرها ، لتحمل الطعام الى العمال ، وتجزى على هذا دائما بالضرب والاهانة •

كانت أنا قد حلبت البقـــرة ، ثم جلست فى الحجرة الخارجية تستخلص الزبد من اللبن فى الساعات الأولى من الصباح الباكر ، يوم الأحد الأول من شهر سبتمبر ، عنـــدما سمعت ماكيدون سيرسيتاشو يصيح بصوت خنقه الرعب والهلع :

ــ سيدى المدرس ، هلا تفضلت بالمجىء معى • لقد شنق أفروم نفسه !

فصاح المدرس الذى كان يغتسل فى مدخل بيته كعادته قائلا :

ـ يا الهنا الرحيم ، ماذا جرى ؟

فكرر ماكيدون قوله وقد ازداد هلعا :

ـ لقد شنق نفسه ، حقا ، لقد شنق نفسه !

واقشعر جسد المرأة ، وسرت رعدة باردة فى نخاعها فأحالت قلبها قطعة من الجليد • كان ايون قد خرج لتوه •• وخرجت تعدو فجأة نحو الحانة ، مشعثة الشعر ، مهدلة الثياب ، وكأنها تستجيب لنداء لا تستطيع تجاهله • ورأت من بعيد حشدا من الناس ، عند باب فناء أفروم ، وهم يلوحون بأيديهم ، ويمدون أعناقهم مستطلعين • ووصلت الى المكان بأنفاس لاهثة ، وحاولت أن تشق طريقها خلال الحشد لتلقى نظرة على الرجل الميت ، فاصطدمت بايون ، الذى استوقفها قائلا فى غضب :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ أتدسين أنفك فى هذا الأمر ؟ أليس لديك ما تفعلينه فى البيت ؟ اذهبى من هنا فورا أيتها المرأة الحمقاء !

لم تكترث أنا بكلماته • وظلت تشق طريقها خلال الجمع المحتشد حتى وجدت نفسها فى الفناء •

كانت أبواب المخزن مفتوحة على مصاريعها • وكانت هناك عربة ذات حصان واحد ، تقف بعجلاتها الملطخة بالوحل أمام أحد الجدران وكأنها قد تحولت الى حجر أصم ، وقد ارتفع عريشها الى أعلى • واستند الى الجدار الآخر سلم خشبى يرتكز أسفله الى محور العربة ، وقد انغرست قمته بعمق فى الدريس الطازج العطر الرائحة الذى يتدلى من فتحة الغرفة المسحورة ، صاعدا حتى السقف • كان أفروم معلقا فى انشوطة حبل قديم ، مثبتة فى عارضة السلم السابعة ، وقد احتقنت وجنتاه بلون البنجر ، وتشعثت لحيته ، وتهدل شعره لاصقا بجبهته وصدغيه الملتمعين بالعرق • وكان وجهه متجها نحو الفناء ، وعيناه جاحظتين من مآقيهما ، تحدقان فى اكتئاب نحو الناس ، الذين وقفوا عند البوابة ليروه ، وقد نال منهم الخوف فلم يجرءوا على الاقتراب منه • وكان فمه ملتويا فبدا كأنه يضحك استهزاء ، بينما بدا لسانه المحشور بين أسنانه وقد تخطط بخطوط من الزبد الأبيض •

وصاح تريفون تاتارو وهو يعتصر يديه دون أن يبدى حراكا :

ـ انه لم يمت بعد ! •• أين ريفكا ؟ •• تعال ، اقطع الحبل !

فتردد صدى أصوات عديدة تريد اسكاته :

ـ اصمت يارجل ، ان جسده بارد !

كانت نصف دائرة اتساعها خمس خطوات قد تركت خالية حول أفروم • وانتشرت أمامه على الأرض بعض أعواد القش والدريس ، وروث الأوز ، ثم قبعة المشنوق وقد سقطت مقلوبة ، كاشفة عما بها من خطوط دهنية قذرة •

ووقفت أنا ترتعد بين عريش العربة ، ولم تستطع أن تنتزع عينيها بعيدا عن أفروم • لم تكن قد رأت فى حياتها قط رجلا ميتا عن مثل هذا القرب • ولم تشعر بالفزع أو الاشـفاق ، ولكنها أحست برغبة عارمة فى أن تقرأ فى وجهه ذلك السر الذى يجعلها تحجم • وأخذها العجب كيف بقيت طاقيته الصغيرة السوداء فى مكانها فوق رأسه ، ثم حدقت فى قدمى الرجل اللتين كانتا تلامسان الارض ، وركبتيه المثنيتين ، وقد أمسكت يده اليسرى بالسلم ، وامتدت يده اليمنى الى الأمام بأصابع مفرودة ، كأنما كانت تحاول أن تمسك بشىء •

وانطلقت فجأة عدة أصوات تقول :

ـ « افسحوا ! افسحوا جانبا ! » وامتدت يد ثقيلة تدفع أنا جانبا حتى كادت تلقى بها بين ذراعى الرجل المشنوق • وصاح هرديليا وهو يشق طريقه بين الحشد بوجه شاحب قائلا :

ـ لماذا لم يقطع أحدكم الحبل ؟ انه ليس كلبا •• ياللشيطان !

وذهب المدرس الى السلم مباشرة ، وتحسس صدر أفروم ، ثم صاح على الفور بلهجة آمرة :

ـ مازال جسده دافئا !•• اسرعوا ! •• اقطع الحبل ياتريفون !•• امسكه جيدا ، لا تدعه يسقط ! •

فاندفع بعض الفلاحين ، الذين كانوا قد اسـتعادوا جأشهم ، الى الأمام ، ورأت أنا حبل المشنقة الخالى بعد لحظة وهو يتأرجح بخفة كبندول الساعة •

ولم تستطع المرأة أن تعرف ماكان يحدث ، فقد كان الرجل الميت مختفيا خلف الرجال الآخرين • وتبينت المـرأة الحائرة بعد فترة أن شابين يحاولان ، تحت اشراف هرديليا ، أن يعيدا الحياة الى الجثة من جديد بتحريك ساقيها وذراعيها • فتفكرت فى حزن : « وما جدوى هذا ؟ اذا كان قد مات ، فلماذا لا يتركونه يستريح فى سلام ؟ »

وكان الفلاحون يتندرون ويضحكون من محاولات المدرس ، مما جعله يصرخ بعد لحظة فى غضب :

ـ أتسمون أنفسكم مسيحيين ! اننى لا أستطيع حقا أن أفهمكم ! لقد تركتم الرجل يموت أمام عيونكم ، بدلا من أن تقطعوا الحبل على الفور ! .. لابد أن خوفه من الموت هو الذى قتله ، فان قدميه كانتا تستطيعان الوصول الى الارض .. ياأفروم المسكين !

فصاح العمدة فلوريا تانكو ، وهو ينظر فى تحد الى الرجال الآخرين قائلا باحساس شخص واثق بأن الله لن يسمح له بمغادرة هذا العالم .

ـ عندما يكون مكتوبا على رجل أن يموت ، فانه يموت لا لسبب الا لأن الله قد أراد له ذلك !

وتجمع الحشد حول المدرس ، وكل منهم شغوف بأن يعرف لماذا شنق أفروم نفسه . ورقد الرجل الميت ممددا على ظهره ، مهملا منسيا تحت السلم . كانت قدماه تجاه البوابة ، وقد ارتفعت احدى ركبتيه ، وانفتح قميصه عند صدره ، وأخذت عيناه تحدقان فى السقف ، غير مكترث بشىء مما يجرى حوله . وشق جورج بولبوك طريقه الى الأمام ، يحدوه فضول يفوق فضول الآخرين ، فوطىء حذاء الرجل الميت ، وقفز الى الخلف فى رعب ، ورسم علامة الصليب . وتصور ان هذا فأل سيىء ، فخرج الى الطريق مسرعا .

وكان على هرديليا فى النهاية أن يحكى كل مايعرفه بالتفصيل . فقال ان ستوسيل ، كاتب القرية ، كان قد أشرك أفروم معه فى شراء أخشاب غابة دومنياسكا التى تقع عبر حدود القرية . وكانت الصفقة تبدو مربحة تماما ، اذ ادعى الكاتب أنه قد وجد مشتريا سيحولان اليه العقد لقاء ربح كبير ، دون أن يتكبدا مليما واحدا . وكل ماعليه هو أن يوقع العقد ، ثم يأخذ الفرق نقدا وعدا . ولكن ستوسيل لم يعد متحمسا تماما بعد توقيع العقد . فقد اختفى المشترى ، واختفى معه الربح . ومن ناحية أخرى ، اقترب موعد سداد ثمن الأخشاب . وكان كل من يقابل أفروم يقول له ان الصفقة خاسرة ، وأن كل أخشاب الغابة لا تستحق خمس ما اتفقا على دفعه . ورأى اليهودى ذلك المصير المرعب الذى سيجبره على بيع كل ما يمتلك وفاء بما عليه من دين ، فيصبح بذلك مفلسا . وتملكته حالة من اليأس المطبق خلال الأسبوعين الأخيرين. وذهب بالأمس ، وهو يوم السبت ، الى المجمع المقدس فى جيدوفيتسا ، حيث أكد له الكبار من قومه أن ستوسيل قد قصد عامدا الى خرابه ،

فذهب أفروم من فوره الى الكاتب ، وأخذ يصرخ فى وجهه فى مشهد صاخب ، حتى ألقى به ستوسيل خارجا وهو يصيح فيه قائلا : « اذهب واشنق نفسك مادمت على هذا القدر من الحماقة ! » وعاد من جيدوفيتسا بوجه رمادى شاحب يميل الى الاخضرار • وتحدث معه هرديليا فى ذلك الوقت ، فقد تصادف أن كان فى ذلك اليوم يسوى حساباته معه عن شهر أغسطس • وقد ظل يهدىء من روعه ، مستحثا اياه ألا يفقد ايمانه بالله ، دون جدوى • فقد ظل أفروم يردد أنه يفضل أن يشنق نفسه على أن يفقد كل مالديه من أرض ومال ظل يعمل ويكدح فى جمعه سنوات طوالا بكل جهده • ولم يستطع أن يتقبل فكرة الانحدار الى حالة الفقر التى كان عليها عندما جاء الى بريباس خاوى الوفاض • ولم يتصور هرديليا بالطبع أنه كان جادا ، وظل يحثه على الصبر ــ فمن يدرى ماذا يأتى به الغد • فكانت اجابة أفروم التى لا تتغير : « سـوف أشنق نفسى ! سوف أشنق نفسى ! •• » وقد بر بوعده •

وتمتم كوزما كيوكاناش ، خفير القرية ، وهو يرسم علامة الصليب فى تقوى :

ــ عندما تحين الساعة ، يذهب الانسان الى حتفه كما يذهب الى عرس !

واستمعت أنا مأخوذة الى قصة المدرس ، ولكن كلمات الخفير هى التى بلبلت أفكارها • وألقت نظرة سريعة أخرى على جثمان الرجل الميت وقد ترك مهملا ، وومض فى ذهنها خاطر كالبرق : « كم يموت الانسان بسرعة عندما تحين ساعته ! »

- ٧ -

قضى هرديليا ليلة بأكملها ، قبل عرض قضيته على المحكمة بأسبوعين يكتب خطابين رقيقين ، أحدهما الى المفتش المساعد هورفات ، والآخر الى بللا بك ، عضو البرلمان ، يروى لهما ذلك الحدث المشئوم الذى وقع له مع القاضى ، ويطلب منهما التدخل لصالحه لدى أى شخص يعتبرانه فعالا ــ واعدا فى الوقت ذاته بأنه لن يدخر وسعا فى أداء واجباته الوطنية بأعظم قدر من الاخلاص ، كعهدهم به فى الماضى •

كان على ثقة من أنه لن يصاب بسوء • وعلى ذلك ظل ينتظر ردهما

فى صبر ، دون خوف أو وجل ، ولكى يطمئن تماما ، وكل أحد المحامين فى الدفاع عنه ــ وكان مجريا بالطبع ، حتى يعطى انطباعا أفضل • كان محاميه هو لندفاى ، الرجل الذى نظم الحجز والمزاد العلنى • ولكنه تلقى بعد أسبوع خطابا من المحامى ، بدلا من الخطابين اللذين كان ينتظرهما ، يخبره فيه بأنه قد بحث الأمر فى الأوساط العليمة ، وأن المسألة تبدو خطيرة الى حد ما ، وأنه من الأفضل أن يجد شخصا قادرا على كسب عطف رئيس المحكمة عليه •

ابتسم هرديليا وهو يقرأ خطاب لندفاى ، وقد ساوره بعض الشك• وفكر : « انه لخبيث ، هذا الشاب المجرى ! انه يحاول أن يبتزنى ليحصل على أكبر قدر من النقود • حسن ، ماذا يستطيع المرء أن يتوقع، ان المحامى هو المحامى دائما • ولسوف يسلخ جلد ظهرك سبع مرات اذا استطاع •»

كانت ثقته قوية كالصلب • وكان مقتنعا تماما ، اذ لم يصله أى رد من راعييه حتى عشية نظر الدعوى ، أن كليهما لابد أن يكون قد تحدث الى رئيس المحكمة • فلو أنهما لم يفعلا لحذراه بالتأكيد حتى يبحث لنفسه عن مخرج آخر •

ورتب مع ايون أن يستقلا العربة ذات الحصان الواحد ، التى كان الأخير قد حصل عليها ضمن بائنته ، الى بيستريتسا • وفى المساء أخذ يلقنه بدقة ما يجب أن يقوله فى المحكمة ، حتى يسير كل شىء على ما يرام• ولم يكن ايون يهتم اهتماما خاصا بما يعانيه المدرس من قلق ، فقد كان ذهنه مشغولا بقضيته ضد فاسيلى ، تلك القضية التى تبدو بلا نهاية • ولكنه استمع على أية حال الى نصائح هرديليا ، وظل يكرر أنه على استعداد أن يدخل السجن بدلا منه • وكان المدرس يجـــد فى هذه الوعود مدعاة للقلق وفألا ســـيئا • وقررا أن يعلن ايون أمام المحكمة أنه قد ذهب الى هرديليا وركع أمامه على ركبتيه ، متوسلا اليه أن يكتب الشكوى ، وأن هرديليا قد رفض طلبه خمس مرات • وعلى ذلك ذهب ايون الى بيتـــه وكتبها بنفسه بخط يده ، ثم عاد ثانية الى المدرس ليطلب اليه أن يكتبها له باللغة الهنغارية نظرا لأنه لا يعرفها ، ولكن المدرس رفض أن يفعل هذا أيضا • واذ لم يستطع أن يتحمل ظلما يتمثل فى أن يعاقب دون ذنب ، فانه عمد فى النهاية الى الذهاب الى بيت هرديليا ذات ليلة ، حاملا معه دنا كبيرا من خمر قوية كأنها الكحول النقى ، وأنهما أخذا يتبادلان الأنخاب ويشربان معا حتى غاب المدرس عن وعيه تمـــاما • وعندئذ أخرج ايون الشكوى ، وركع على ركبتيه ، متوسلا اليه بعينين دامعتين أن يكتبها له

بالهنغارية • وهكذا قام هرديليا ، تحت تأثير الشراب ، ودون وعى بمـــا يفعل ، بترجمة الشكوى الموجهة الى الوزير • وبهذا يكون بريئا من كل ذنب • وقال هرديليا فى النهاية ، وهو ينظر اليه نظرة رقيقة متوسلة :

ــ أليست هذه هى الحقيقة الكاملة يا ايون ؟

فأومأ ايون برأسه موافقا ، وقال :

ــ نعم ، هذا صحيح ، هذا صحيح تماما ! انها الحقيقة الخالصة • وليعاقبنى الله اذا قلت شيئا غيرها •

وخرجا فى منتصف الليل حتى يصلا الى بيستريتسا فى الوقت المناسب • وكان حصان ايون يسير بخطوات رشيقة رغم عمله الشاق فى الحقول • وعندما ارتفعت الشمس فى الأفق ، كانوا قد أخذوا يصعدون لتوهم تل دوميترا فى بطء • وكان ايون يسير الى جانب العربة ، وهو يروى لهرديليا متاعبه مع فاسيلى باكيو ومع زوجته أنا • كان يثرثر فى هدوء ، كأنما نسى أنه فى طريقه الى المحكمة • وفجأة ظهرت عربة صغيرة أنيقة خلفهما ، وراحت تتسلق التل خببا بخطوات نشطة، وعجلاتها تحف حفيفا خفيفا على طول الطريق • كان راكبها الوحيد هو الأب بلكيوج الذى استدعى كشاهد فى قضية المدرس • وخلع ايون قبعته احتراما ، ولـكن القس ، الذى كان يرتدى معطفا من فراء الثعلب يصل الى ما فوق رأسه ، أشاح بعينيه بعيدا • ولم تلبث العربة أن اختفت وراء المنعطف الحاد فوق قمة التل • فتمتم هرديليا وقد بدأ يحس فجأة بأمنه وثقته بنفســـه تهتز :

ــ ياله من انسان خسيس !

لم يجب ايون ، وسارا فى صمت بعد ذلك فترة • كان الحصان يجر العربة فى غير يسر ، ثم أسرع قليلا فى بعض الطريق ، ليتوقف من تلقاء ذاته بعد برهة ليلتقط أنفاسه ، ثم واصل طريقه ثانية من تلقاء نفسه • وسار الفلاح الشاب مختالا على جانب الطريق ، ملوحا بسوطه فوق رأس الجواد ، يحثه على السير بكلمة بين الحين والحين ، دون أن ينظر الى المدرس الذى ظل يبتسم ابتسامة باردة ويرمش بعينيه وقد تملكه احساس غامر بالقلق • وبدا كأن سحابة كثيفة من الحزن قد هبطت على كل منهمـــا فأسكتته •

وتكشف أمامهمـــا منظر رائع عند قمـــة التل ، هو منظر وادى بيستريتسا وقد كسته غلالة شفافة من شمس الخريف • وبدت المدينة

القديمة أمامهما أسفل التل ، مستندة الى ظهر غابة ذات أوراق خضراء صدئة ، كأنها لعبة واهية من لعب الأطفال ، بينمـــا كان برج الكنيسة الساكسونية يبدو كحارس عملاق عابس ، متشح بعباءة رمادية أبلاها الزمن ، يرقب الوادي ..

وأشار هرديليا صائحا بقوة متجددة :

ـ أنظر ، انها بيستريتسا !

فأضاف ايون ، وهو يلقي بنظرة شاملة على الوادي الأخضر الذي بدا وكأنه حديقة ضخمة غناء :

ـ أرض ممتازة .. ومزروعة جيدا !

وتسللت الطبيعة الشاسعة غير المحدودة التي تكتنف المدرس ، مع هواء الصباح البارد ، الى أعماق روحه . وأحس بضـــآلة أمام الأراضي الشاسعة المترامية الأطراف ، التي تمتد أمام ناظريه ، حتى تملكه احساس مؤلم بالقلق .. ما هي قيمته ، بكل مخاوفه وآماله ، وما قيمة حياته كلها، في دوامة الحياة المندفعة بكل عظمتها ؟ .. انه أقل من حبـــة من الرمال تذروها الرياح هنا وهناك . وقال لنفسه محاولا أن يبدد قلقه : « ان الله يرعى الطيور في السماء ، والرمال في البحر . » وراح يجوس بنظره في أرجاء المدينة باحثا عن المحكمة في خضم المباني القائمة في الوادي . وتنهد عندما وجد البناء القائم فيما بين الكنيسة الرومانيــــة والكنيسة الساكسونية ، مفكرا : « هذا هو المكان الذي يتقرر فيه مصير الديدان ! » ثم صاح وهو يشير الى بناء كئيب ذي طابقين ، له نوافذ صغيرة كأنهـــا عيون خبيثة :

ـ انظر ، يا ولدي ، تلك هي المحكمة ! أتراها ؟

وأخذت ثقته بنفسه تذوب بالتدريج كلما ازداد اقترابا من المدينة. ورغم أن قلبه كان يخفق بشدة ، الا أن ابتسامة متواضعة ظلت تداعب شفتيه ، ابتسامة ينيرها شاربه الأبيض المشذب . وترقرقت في ركن عينيه قطرة من الدمع ، أحجمت أن تسيل على وجنتيـــه اللتين ارتسمت عليهما خطوط رقيقة من التجاعيد الصغيرة الرشيقة ، مكونة في مجموعها تصميما لطيفا . وانطلقت أفكاره في سرعة قاسية لا تهدأ ولا تكل . كيف خدع نفسه فتصور أنه سيخرج من هذه الورطة سالما بلا ضرر ؟ ولم يكن رغم ذلك يلوم نفسه أو يأسف أن ساوره هـذا الوهم .. ماذا يستطيع الانسان أن يفعل اذا ما خلت حياته من الأمل ؟

وقال هرديليا بلهجة مازحة ، وان كانت تنشد الاطمئنان ، بينما كانا يعبران الحاجز عند أبواب المدينة :

ـ أخشى أن تصادفنا المتاعب اليوم يا ايون ، فلدى احساس بأن الأمور لن تسير على ما نهوى !

فضحك ايون بصوت أجش فى غير اكتراث قائلا :

ـ لتكن مشيئة الله !

كانت ردهات المحكمة المظلمة الملتوية تعج بأسراب من النـــــاس يتدافعون هنا وهناك ، ويصيحون بأعلى صوتهم ، أو يتهـــــامسون فى غموض ، ويضحكون أو يبكون ٠ كل منهم غارق فى متاعبه الخاصـــــة ، لا يحس بويلات جاره ٠٠ فما من مكان تزدهى فيه أنانية الانسان بازدرائها للآخرين مثلما تفعل فى ساحة العدالة ٠ فهناك الفلاحون وسكان المدن ، وهناك العجائز والفتيان ، وهناك الرجال والنساء والأطفال، وهم ينتظرون أو يمشون ، يتشاجرون أو يصلون ٠٠ وكل هذه الأصوات تختلط فى جلبة وطنين رتيب مزعج ، يقطعه فى فترات متباعدة رنين حاد من جرس يدعو المتقاضين الى قاعة المحكمة ٠ ووسط هذا الحشد المائج ، كان المحامون وحدهم ــ بحقائبهم المنتفخة بالمذكرات والوثائق ــ يمشون فى خيلاء كأنهم زنابير بين كومة من النمل المذعور ٠

ووقف هرديليا مضطربا وسط هذه الدوامة البشرية ، وقد نال منه الرعب، كأن الأرض تميد تحت قدميه ٠ ولم يلبث لحسن حظه أن لمح لندفاى المحامى ، الذى أقبل نحوه عندما رآه صائحا :

ـ أوه ، ها أنت قد حضرت ! طاب صباحك ! أنت السادس ٠ لن تنتظر طويلا ، فلا تنزعج ! أعتقد أن الأمور ستسير سيرا حسنا ٠ هل وجدت أحدا يوصى بك رئيس المحكمة ؟

وسرعان ما ملأ التفاؤل المهنى الذى يبدو فى لهجة المحـــــامى قلب هرديليا بالثقة من جديد ٠ وعاوده الاحساس بأنه رجل مهم ، يقوم على عاتقه تقدم الجنس البشرى ٠ ولم يعد منذ ذلك الحين يحس بوجود الآخرين فى الردهات ، متناسيا ــ شأنه فى ذلك شأن الآخرين جميعـــــا ــ لكل ما حوله ٠ وأخذ يثرثر بصوت عال مع ايون ، ويضحك ويتندر ، غاضبا لأنه ما زال عليه أن ينتظر دوره ٠

وانتعش عندما دخل الى قاعة الجلســـــة ، اذ رأى الى يمين رئيس

المحكمة ذلك المستشار الذى كان يرأس لجنة الاقتراع فى الانتخابات فى أرماديا • وتحرك الى الأمام ، ولم يسترح حتى التقت عيناه بعينى القاضى، وبدا له أن نظرته تحمل ابتسامة من تعرف عليه • ورغم أن رئيس المحكمة لم يكن يعرفه ، فقد نظر اليه بدوره عدة مرات ، وبدت له نظرته كأنما تقول : « لا تقلق ! سينتهى الأمر على خير وجه ! لا تخف • »

ولم يفقد سيطرته على نفسه أثناء الاجراءات ولو للحظة واحدة • وتكلم بالهنغارية بطلاقة أعظم ، موضحا براءته بالتفصيل ، وهو يضيف باستمرار أنه صادق الوطنية • واذ كان القاضى الذى أقام الدعوى قد تخلف عن الحضور ، أحس هرديليا بما يشبه اليقين بأنه قد تغيب عامدا ليخفف من شأن دعواه • وبدا ممثل الادعاء عدوانيا الى حد ما ، ولـكن هرديليا استطاع أن يكتشف فى ثنايا عباراته القاسية كثيرا من دلائل حسن النية • وأعلن بلكيوج بشهامة وترو وبأعلى صـــوته أنه لا يعرف شيئا عن الشكوى المذكورة ، فقال هرديليا لنفسه بينمـــا كان لندفاى يترافع عنه ويلوح بذراعيه بحماس : « من الواضح الجلى أن اللذين يحميانى ـ باركهما الله ـ قد بذلا كل ما فى وسعهما ! »

لم تستمر القضية أكثر من نصف ساعة • ثم نهض الرئيس ـ بعد أن تداول فى اختصار مع المستشار الجالس الى يمينه ـ وأعلن باسم الملك أنه قد حكم على ايون بوب ـ جلانيتاشو بالحبس لمدة شهر وبغرامة قدرها مائة ريال ، وعلى زهاريا هرديليا المدرس فى بريباس بالحبس ثمانية أيام وغرامة قدرها خمسون ريالا • وكان هرديليا قد احتفظ بابتسامته طوال الوقت ، حتى اذا ما سمع الحكم ، تلفت ناظرا حوله كأنه يسأل الناس جميعا : « ماذا يعنى هذا حقا ؟ »

وسأله المحامى هامسا : « هل نستأنف الحكم ؟ »

فتلعثم هرديليا قائلا ونظرته الحائرة لا تبارح وجهه :

ـ نستأنف •• طبعا •• بالتأكيد !

وفى الردهة ، بين الجمع الصاخب ، سيطر عليه احساس بالوهن الشديد • واضطر الى الجلوس على أريكة ، الى جوار امرأة عجوز كانت تبكى فى مرارة • وبدا له كأن العالم كله يهتز أمام عينيه ، وخشى أن تنهار المحكمة فوق رأسه • واستطاع رغم هذا أن يسمع نشـــيج المرأة بوضوح • وبينما هو يسائل نفسه عن سبب بكائها ، سمع صدى صوت

ايون ، ولكنه لم يستطع أن يفهم ما يقول . ورد على ايون وهو لا يكاد يعى معنى لكلماته ، ولا يكاد يسمع ما يصدر عنه من صوت :

ـ انه لا شيء .. هذا الاستئناف .. بالطبع .. يا لضيعة العدالة !

ثم نهض من مقعده بصعوبة ، فترنح ، واستند الى كتف الفلاح الشاب . وهمهم قائلا بصوت أجش :

ـ حسن يا ايون ، لقد انتهت المحاكمة .. ونحن مستعدون ، فلنذهب !

وظهر لندفاى فى هذه اللحظة مرة أخرى ، وقال له فى عجلة بصوت أراده أن يبدو حزينا ومشجعا فى آن :

ـ لا تنزعج يا سيد هرديليا ! سيسير كل شيء على ما يرام ! تأكد أنه بعد الاستئناف لن يبق من الحكم سوى الغرامة . لقد تخلصنا من المأزق على نحو مرض حتى الآن . كنت أخشى ما هو أسوأ . ان رئيس المحكمة شيطان لا يرحم .. ولكن عليك أن تعد نفسك لابلاغ الحكم ـ رغم أنه ليس نهائيا ـ الى السلطات المختصة بالتعليم ، أى الى المفتش . وهذا يعنى أنك ستوقف عن عملك .. مؤقتا بالطبع .. حتى يفصل فى الاستئناف .. وعلى ذلك فلا ينبغى أن تقلق ، لأن كل شيء سيكون على ما يرام فى النهاية .. والنهاية وحدها هى التى تهم فى واقع الأمر ... اننى آسف أشد الأسف .. ولكن ما باليد من حيلة ! مثل هذه المحاكمات تبدو للرجال كأنها ..

فهمهم هرديليا وهو يجر قدميه الثقيلتين نحو باب الخروج قائلا :

ـ أجل ، أجل ... سيكون كل شيء على ما يرام ... لا حاجة بنا الى القلق ... سأوقف !

وفى الطريق كانت شمس الخريف تبتسم فى حزن . وبدا الشارع صامتا مهجورا بعد الضجيج الذى غصت به ردهات المحكمة . حتى العربات القليلة التى كانت تمر بدت وكأنها لا تحمل سوى أجداث الموتى، مجرد جثث .

ـ لنذهب الى البيت يا ايون ... سأوقف ! أرأيت ؟ ... سأوقف !

وظل هرديليا يردد هذه الكلمة . وأحس بالدموع فجأة تنهمر حارة

أليمة على وجنتيه . وتسربت الدموع خلال شاربه الأشهب ، وسقطت قطرة منهـــا على شفتيه الجافتين فبللتهما كأنها بلسم مهدىء مالح .

وحملق ايون مضطربا نحو هرديليا . وود لو استطاع أن يقول له شـــيئا ، ولكنه لم يعرف ماذا يقول ، فاكتفى بأن يحك جلده خلف أذنه ، وهو يسب ويدمدم بلا حول ولا قوة . وظل المدرس يهمهم قائلا: « سأوقف ... سأوقف ... » وبدا جرس هذه الكلمة في سمع ايون كئيبا حتى انه ـ رغم أنه لم يستطع أن يفهم لها معنى ـ ضم قبضتيه ، ولوح بهما مهددا بعنف نحو البناء الكئيب ذى الطابقين ، الذى بدت نوافذه الصغيرة كأنها عيون خبيثة .

الفصل التاسع

القبلة

- ١ -

عندما علمت السيدة هرديليا بالحكم ، راحت تلعن قائلة :
ـ ليتخل الله والعذراء المقدسة عنهم ، ولتنزل السماء عليهم سياط غضبها ونقمتها لما أنزلوه بك !

وأخذت جيجى فى العويل ، اذ تأكدت من اعراض الراقصين عنها فى الحفل الذى سيقام فى شهر أكتوبر ، قائلة :

ـ يا الهى .. يا الهى .. ماذا سيقول الناس ؟ أبى يسجن كما سجن لورنت قاطع الطريق فى برجو ! كيف أجرؤ على مواجهة المجتمع مرة ثانية ! .. يا الهى !

وحاول المدرس فى بادىء الأمر أن يبدو غير مكترث ، بل انه أخذ يتباهى قائلا انه سيعلم أولئك السادة فى المحكمة كيف يجب أن تكون العدالة . ولكن وراء ابتسامته المفتعلة ، كانت النظرة اليائسة فى عينيه ، ومظهره الذليل المنهار يفضحان مدى حزنه وخوفه البالغين حتى ان السيدة هرديليا ، عندما احتدت كعادتها فى لحظات غضبها ، ترفقت به بدافع من غريزتها واكتفت بأن تصب جام غضبها على الرجال الذين

أصدروا الحـــكم فى بيستريتسا • وبعد أيام ثلاثة أخذ هرديليا يئن قائلا :

ــ بل انهم قد يوقفوننى عن عملى ! ان هـــذا سيكون أسوأ ما يمكنهم عمله !

وانفجرت زوجة المدرس فى سـخط متزايد ، وهى توزع لعناتها بعدالة بين ايون وبين قضاة المحكمة المجريين :

ــ ســينتهى بنا الحال الى تسول خبزنا فى الشـــوارع • اننى أستطيع أن أرى هذا بوضوح • وكل هذا بسبب ذلك الفلاح البائس •

وانتشرت أنباء ادانة هرديليا فى كل أنحـاء أرماديا انتشار النار فىالهشيم ، وامتدت منها الى كل ما يحيط بها من قرى • وشعر الكثيرون بالأسف من أجله ، لكن الكثرة الغالبة كانت تردد لكل سامع :

ــ هكذا يعاقب الله المرتدين ! أتتذكر كيف كان يجمع الأصوات ضد جروفشورو فى الانتخابات • هكذا كافأه الهنغاريون ! لعـل هذا يكون درسا له !

لكنهم عندما رأوه فى أرماديا ، وقد انحنى ظهره واشتعل رأسه شــيبا ، وبدت نظرته وديعة ذليلة ، وقد راح يبحث عن وظيفة صغيرة يمكنه الالتحاق بهـــا اذا ما أوقف عن عمله ، صــفحوا عنــه • بل ان جروفشورو صافحه وسأله عن أحوال تيتو • وفقد هرديليا كل أمل • فقد كان واثقا من أنه سوف يوقف عن عمله ، وأنه لن ينجو من السجن • واعتاد هذه الفكرة بالتدريج ، كما يعتاد الانســـان عموما على كل آلام حياته • بيد أن ماأزعجه أكثر من أىشىء آخر هو ماقد يحدث له فيمابعد• وهذا هو ما دفعه الى أن يهيم فى الشوارع بحثا عن مأوى يلجأ اليه من شر أيامه المقبلة • وبالرغم من انتظاره لاعلانه بقرار الايقاف المخيف ، ورغم أنه كان يعود الى منزله خاوى اليدين وقلبه ينضح بمرارة الاذلال ، فانه كان يبذل قصارى جهده ليبدو سـعيدا ممتلئا بالثقة ، ويروى لآل بيته بالتفصيل كيف استقبله السيد فلان استقبالا كريما ، وكيف وعد بمساعدته ، وينهى حديثه بأن يقرر أن ما صادفه من بلية قد يسفر فى النهاية عن شىء فى صالحه • وقد تمر ساعات وساعات وهو يتشاور مع روجته حول أفضل سبيل يسلكه • هل ينتقل الى أرماديا ويطرق باب هذا المحامى أو ذاك ، أم يظل فى بريباس حتى تنتهى فترة الايقاف التى لن تتجاوز أكثر من أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، أو شهرا على أســوأ

تقدير • وبينما كان قلب السيدة هرديليا ينتعش ويعاوده الأمل بعد هذه الأحاديث ، كان قلبه هو يتلوى كالطائر الذبيح عندما يتذكر كل الأبواب التي طرقها دون جدوى •

ووصلت لورا في يوم من هــذه الأيام على غير انتظــار • وكانت وحدها هذه المرة ، فان بنتيا لم يستطع مغادرة فيرياج ولو لساعة واحدة ، اذ كان العام الدراسي الجديد يوشك أن يبدأ ، وكان يريد أن يستهله بشعائر رومانية •

وقالت لورا بعد أن تبادلت الأحضان والدموع مع كل فرد من أفراد الأسرة :

ـ لقد حضرت لأمكث أسبوعا معكم ، فقد أفقدتكم جميعا بشكل مروع !

وشعر الجميع منذ نطقت لورا بكلماتهــا الأولى بأنها قــد تغيرت كثيرا • كانت ما تزال رقيقة نطيفة الحديث ، لكنها لم تعد حريصة على مناقشة تلك الاهتمامات الصغيرة التافهة التي تدعم وتؤكد وحدة الأسرة • وكان وقع نتيجة المحاكمة عليها أقل أثرا مما كانوا يخشون • فقد كان أى شيء من هذا القبيل من قبل كفيلا بأن يجعلها تنوح وتعذب نفسها أسابيع طوالا ؛ أما الآن فقد طرفت بعينيها عدة مرات ، واهتزت أهدابها ، ثم قالت :

ـ سيكون الأمر شاقا عليك يا أبى ، لو أنهم أوقفوك عن عملك •• ولعلك تذكر أني طالما حذرتك من أن تزج بنفسك في شئون الآخرين • لقد كان ينبغى بدلا من ذلك أن تهتم بمشاكلك وحدها • يعلم الله ماذا سيصير اليه هذا البيت بعد الآن •

كانت تتكلم بغير اكتراث حتى أن هرديليا لم يعقب ، فقد أحس بالحرج أكثر مما لو كان يجلس الى شخص غريب •

وواصلت لورا كلامها ، فانتقلت على الفور الى الحديث عن جورج ، ترفعه بمديحهــا الى الســماء ، وتنبئهم بما يصادفانه من متاعب ، وما يدبران من خطط وما يداعبهما من آمال •• وعندما تذكرت مرة أخرى أنها في بريباس ، عند والديها ، نعت على أبيهــا أنه لم يعط صوته لجروفشبورو • وأضافت قائلة ان جورج قد سمع بهذا الامر أيضا وأنه قد استاء لان حماه قــد سلك مسلك المرتدين • وعندما تطورت المناقشة بينهما بعد ذلك احتدت والتهبت سخطا ، حتى أنهــا رأت أن المجريين كانوا على حق في ادانته ، وأن هذا هو كل ما يستحقه مرتد •

وغضب هرديليا لحظة ، لكنه سرعان ما استرد هدوءه · فالأطفال دائما هكذا عندما يكبرون ويهجرون بيوتهم وأهليهم · ألم يصبه نفس الشيء هو ذاته يوما ؟ حقا لقد ذهب الى جنازة والده عندما مات ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء زيارته ولو مرة واحدة خلال أسابيع مرضه السبعة ، رغم أنه كان على مرمى البصر منه ، في قرية هي الرابعة بعد بريباس · أما أمه فانه عندما تحضر لزيارته يكتفي بأن يقدم لها كاسا من البراندى الدافيء ، فهذا هو كل ما كانت تحظى به من اهتمامه ، وكأنها قد كفت عن الوجود · وقد احتفظ بكل اهتمامه وحبه لبيته كالبخيل · لماذا يعجب اذن لأن لورا لم تعد تحزن لهمه ؟ ·· هذه هى الحيـاة · فمن ذا الذى يستطيع أن يغير من قوانينها أيا كان ماتجلبه من أحزان ؟ ان الحياة تكتسح العجائز والضعفاء ، فهى ملك للشـباب والأقوياء · ان الأنا هى أساس الحياة ·

كانت لورا تنتظر مولودا ، وكانت تتباهى بأنها حامل · وكثيرا ما كان وجهها يقطب ، وتشكو من سقمها وتسأل السيدة هرديليا النصح حول الميـلاد المرتقب ·· وكانت جيجى تشـعر بالخجل فى صحبتها ، وتناضل لكبح جماح نوبات شقيقتها الغاضبة الصاخبة · وقالت جيجى بلهجة يشوبها عتاب رقيق :

ـ لقد تغيرت كثيرا ·

فأجابت لورا بكبرياء لا يخفى :

ـ نعم ، انى أشعر بذلك أيضا · اننى متأكدة من أنى لن أستطيع أن أعيش بعد ذلك كما اعتدت من قبل · وأنا أعجب حقا كيف استطعت أن أحيا هنا هذه المدة الطويلة ، دون أن أعرف جورج !

ـ من كان يتصـور هذا وأنت التى لم تكونى تحبينه حتى ان والدى ووالدتى كادا يضرباك حتى لا ترفضيه !

ـ ذلك لأنى لم أكن على قدر كاف من الثبات ·· كنت طائشة ·

فسألتها جيجى باصرار :

ـ وماذا عن أوريل ؟

فابتسمت لورا قائلة :

ـ خيالات أطفال ، كثيرا ما نضحك منها أنا وجورج ·

وأضافت وقد ومضت عيناها فجأة ، وتشابكت يداها حول بطنها الذى كور ثوبها الصوفى الأحمر المطرز بنقوش سوداء :

ـ « حقا لقد تغيرت كثيرا · ان الفتاة لا تعيش بحق حتى تتزوج · ولهذا يجب أن تطرد مثل هـذه الخيالات المجنونة من عقل الفتـاة ·· فعندئذ يكون للحياة معنى آخر ! » وصمتت لحظة ثم تمتمت :

ـ ثم ··· يأتى الطفل ! ·· الطفل ! اننى لم أشعر حقـا بأن لى هدف فى الحياة الا الآن !

وذهبت الى أرماديا مرة واحدة لتزور آل فليبويو ، والديها بالعماد· وبعد أيام ثلاثة ، بدأ الوقت يمضى ثقيلا بطيئا ، وبدأت تفتقد جورج · ورحلت فى اليوم الخامس ، وأخذت جيجى معها لتكون الى جانبها اذا ما حانت ساعة الولادة · وبللت جيجى ثلاثة مناديل بدموعها ساعة الرحيل ·· لكن لورا لم تذرف قطرة واحدة ·

وتنفس العجوزان الصعداء عندما رحلت ·

وقال هرديليا وقد أصبح وحده مع زوجته :

ـ انها لم تعد منا ·· لقد فقدناها !

وهمهمت السيدة هرديليا وهى تحبس دمعتين حزينتين فى جفنيها :

ـ انهم أولاد قساة ، ذوو قلوب جامدة ·

وتناهت من المدفأة طقطقة وأزيز ينبعث من الخشب الأخضر الرطب الذى ألقى به فى النار ليزيدها اشتعالا · وتسلل خلال النوافذ المبتلة ضوء كئيب ممطر ، حاملا معه الى المنزل صورة الحقول الجرداء الذابلة ، والقرية المتسربلة بغطاء من دخان أزرق دائب الدوران · وأخذت الساعة المعلقة على الحائط تحت صـورة الامبراطور ترسـل دقاتها الخشـنة المشئومة · كان هرديليا جالسا على الأريكة القديمة ، يحدق من النافذة مستغرقا فى تفكير عميق ، وقد تدلى من فمه غليونه المطفأ · وجلست زوجته ، وقد تشابكت يداها على صدرها ، على مقعد ذى مسند مرتفع ، تنصت كالحالمة الى زفيف رياح الخريف · وبدا أنهما يسمعان معا أمواج الزمن تزحف عليهما ، وأحسا بالعجز عن مقاومة مدها ، فراحا يرتعشان بين الحين والحين كأن البرودة تملأ الحجرة · وهمهم المدرس فى النهاية قائلا فى همس ، كأنما يخشى أن يرفع صوته حتى لا يزعج ذلك الطنين المكتوم الذى لا يهدأ لآلة لا تسكن أبدا :

ـ طقس كريه !

ورن صوته حلوا رقيقا فى أذن السيدة هرديليا ، فابتسـمت · وزاد من سحرها فى عينى المدرس ، تلك الفـجوة المظلمة التى خلفتها

احدى أسـنانها التى كانت قد سقطت منذ عامين ، فأجابها بابتسـامة رقيقة مستسـلمة · وأشـاع الالتقاء المفاجىء لابتسـامتيهما الفرح فى الحجرة ، باعثا بعض الدفء فى كل ركن من أركانها · وراحا يتحدثان عن ذكريات الأيام الخوالى التى نسوها منذ آمد بعيد · وبهت الحاضر بمشاكله وأباطيله ، كأنه كابوس مزعج تتعقبه ذكرياتهمـا · وانتقل هرديليا الى المدفـأة ، فأدفأ يديـه بنارهـا ، ثم ربت وجنتى زوجتـه المتجعدتين ، وقبلها قبلة خفيفة على جبهتها ثم تنهد قائلا :

ـ أجل يا فتاتى العجوز ، اننا نحن معشر العجائز فقط الذين ···

وانتفض هرديليا كالملدوغ عندما سمع طرقة حادة على الباب ، كأنه عاشق شاب فاجاته أم حبيبته · واندفع ايون جلانيتاشو الى الحجرة المعبقة بدفء الماضى ، كأنه عاصفة تكتسح أمامهـا كل شىء ، حاملا معه نبأ أنه قد تلقى الحكم لتوه ·

- ٢ -

ألح ايون على المدرس أن ينبئه بما يمكنه عمله حتى يقضى عنه أيام الحبس الثمانية التى حكم بهـا على هرديليا · كان هـو نفسـه راضياً بالذهاب الى السجن ، وبدا غير مبال بالحكم عليه · بل أنه كان على نحوما قانعا بأن هذا الموضوع قد انتهى ، فأنقص بذلك واحدة من مشاغله · فهو الآن يستطيع أن يهب كل وقته وفكره لنزاعه مع فاسيلى باكيو · كانت الأحلام المزعجة قد بدأت تغزو قلبه ، بعد أن تحدد موعد الجلسة فى النهاية ؛ فهو تارة يحلم بأنه قد تشاجر مع حميه وأن الأخير قد تغلب عليه ، ويحلم تارة أخرى بأن جروفشورو قد تخلى عنه وانضم الى جانب فاسيلى ، أو أن أنا قد طلبت الطلاق وانتقلت الى بيت والدها ، مصطحبة طفلها وكل متاعها ، وتركته يكتوى بنيران غيظه · ووخزته هذه الفكرة الاخيرة بشكل خاص ، وتغلغلت فى روحه كمثقاب لولبى · وعندما نبهه هرديليا أخيرا الى أن أنا ستعرقل خططه اذا ما تركت بيته ، غير ايون من سلوكه نحوها على الفور ، فصار يلاطفها ويتودد اليها بدلا من أن ينهال عليها ضربا ، حتى جعل الجيران يتسـاءلون فى عجب عما يهدف اليه جلانيتاشو الصغير ·

بيد أن عطف ايون لم يعد يدفىء قلب أنا · وبدا أن جدارا حجريا قد قام حائلا بينهما ، وهـو جدار بلغ من الارتفاع حدا لا تسـتطيع يد بشرية أن تهدمه · لقد أصبحت مقتنعة تماما بأنها ليست سوى أداة فى

يد زوجها ، ذلك الزوج الذى وضعت فيه كل ثقتها ، والذى وهبته كل حبها وحياتها . وجردها يقينها هذا من احساسها بأى شىء مما يدور حولها . كانت تحيا بلا أمل ؛ حياة لا تعدو أن تكون حملا ثقيلا . وكانت تقوم بأعمالها الشاقة دون كلل ، كأنها آلة مكسورة تستمر عجلاتها فى الدوران ، وتظل تقرقع ، وتستهلك نفسها حتى تتحطم فجأة فى ضجيج .

حانت نهاية الخريف بأمطارهـا الباردة المحملة بالبرد ، وأكوام الجليد المتزايدة على الدوام . وكانت زنوبيا تتسكع ، نثر وقتها فى القرية تثرثر مع النساء الأخريات ،وتذم زوج ابنها وعيرها من أهل القرية الآمنين . وكان جلانيتاشو يقضى أيامه فى الحانة ، وبخاصة منذ وفاة أغروم ، لأن زوجته اليهودية كانت تقدم له الخمر على الحساب . أما ايون ، فكان يقضى فى الطريق وقتا أطول مما يقضيه فى البيت بسبب نزاعه مع فاسيلى باكيو . وهكذا كانت أنا تمضى وقتها وحدها مع الطفل ، الذى كان مريضا ، ومع دوميترو موركاش الذى كان يمد لها يد المساعدة من حين الى حين ، حزينا نائحا لأن باراشيفا لن تدعوه الى البيت ، وأنه سوف يموت فى بيت غريب . كانت أنا ودوميترو على وفاق تام ، فهما لم يكونا يتبادلان أكثر من ثلاث كلمات طوال اليوم . كان العجوز رجلا جافيا ، لا يكف عن التمتمة لنفسه ، وينفث غيظه فى الدجاج الذى كان يخرج هربا منه عشر مرات كل يوم من الغرفة الخارجية الى الفناء . ولكنه كان يعبد الطفل الوليد ، وكان يهدهده حتى ينام ويحنو عليه كأنه مرضعة . بل انه أوشك فى كثير من الاحيان أن يتشاجر مع أنا حتى تدعه يلفه بقماطه . وقد أصابه الهزال منذ أن انتقل الى بيت جلانيتاشو ، وظل يسعل ويذبل كجذوة ذاوية .

كان دوميترو ذات يوم فى حالة معنوية طيبة ، وتملكته الرغبة فى أن يجد من يتحدث اليه ، فأخذ يتسكع حول أنا التى لم تجد وسيلة للتخلص منه ، فصاحت به فى النهاية بينما كانت تغسل طفلها :

ــ ماذا جرى لك الآن ؟ لماذا تحوم هكذا أيها الثرثار العجوز ؟ حذار .. فليس هذا فألا طيبا . ربما تكون ساعة حتفنا قد دنت .

وابتسم العجوز وهو يقف الى جوار حوض المياه ، يدغدغ أقدام الطفل الذى كان مغمض العينين ، يغمغم بسعادة فى الماء الدافىء . وقال العجوز :

ــ ربما ، ولم لا ؟ فليدهمنا الموت .. لقد عشت بما فيه الكفاية ..

ـ ايه ٠٠ أيها العجوز ٠٠ دع الطفل وشأنه وابتعد والا رششتك بالماء !

وجلس دوميترو على الأريكة ، وصمت لحظة ، ثم بدأ يحكى لها مرة أخرى قصة مغامرته مع الغجر بأدق تفاصيلها ، وهى قصة كان يستمتع كثيرا بحكايتها الى أى راغب فى الاستماع ٠ ولم تعره أنا التفاتا ٠ ولم يمنعه هذا من أن يحكى لها عديدا من مغامراته الأخرى وهو يضحك كطفل ، كأن شبابه المرح المنطلق يعود اليه عندما يستعيد ذكريات ماضيه ٠

وبعد الظهر ، وجد أن خير ما يفعله هو حلاقة لحيته ، رغم معارضة انا ـ اذ كان يعترض طريقها دائما ويعوقها عن الاهتمام بأعمالها المنزلية ٠ وأخذ مرآة قذرة غطتها اثار الذباب منذ فصل الصيف ، وعلقها على مقبض النافذة ٠ ثم أخذ بعض الماء الساخن فى اناء ، ووضعه برفق على المقعد الخشبى ، وثبت حزام سرواله فى محور النافذة ، وبدأ يسن موسى الحلاقة الصدىء بضربات طويلة بطيئة ٠ واختبر حدة الموسى عدة مرات على بضع شعيرات انتزعها من خلف أذنه ٠ وغطى لحيته بالصابون الذى استخدمته أنا فى حمام الطفل ، ثم أخذ يدلك به شعر لحيته المتناثر الخشن ٠ وظل يثرثر طوال الوقت بكل أنواع القصص فى سعادة بالغة ، ولم تلبث أنا أن ابتهجت وراحت تثرثر معه وقد أدارت ظهرها اليه وأخذت ترضع طفلها ٠ وقاطعته المرأة سائلة فى اشفاق :

ـ ما هى الحكمة فى أن تحلق الآن ؟ انك رجل عجوز ، ولم تعد تجرى وراء الفتيات !

فأجاب دوميترو بصوت تشيع فيه رنة غريبة ، كأنه منشد يتلو طقوس جناز ٠

ـ لا ، أنا لم أعد حقا أجرى وراء الفتيات ، ولكن هناك فتاة واحدة تجرى ورائى ٠٠ فتاة تحمل منجلا أحد من هذه الموسى ٠٠ انها فى أعقابى، لا تنتظر سوى اشارة فتلقى به نحوى على الفور ! ثم تحملنى رأسا الى عرش الله ، ليحاسبنى على ما فعلت فى هذا العالم الأرضى ٠

والتفتت أنا اليه سائلة :

ـ ألست خائفا من الموت يا جداه ؟

ـ ولماذا أخشاه يا فتاتى ؟ ٠٠ ان المرء يعيش ليموت ٠ وهو يموت كما عاش ٠ فاذا عاش حياة صعبة فان ميتته تكون فى رقة وخفة قبلة

عذراء شابة · أما اذا عاش حياة مرحة ، فعندئذ تكون ميتته قاسية ، ويصبح المنجل مثلوما · انه يتعذب ويتلوى بشكل أقسى مما لو كان فى أعماق الجحيم ··

وصاحت المرأة وهى تجلس على حافة الفراش تهدهد طفلها حتى ينام :

ـ ان قولك هذا لقول غريب !

كان الهدوء الذى يتحدث به دوميترو عن الموت محيرا حقا · كم ينبغى أن يكون المرء ساخطا على الحياة حتى يرحب بالموت هكذا · أما بالنسبة لها فان فكرة الموت كانت ما تزال تثير فزعها كلما استرجعت صورة أفزوم وهو راقد على ظهره فى المخزن ، جاحظ العينين ، مهملا ومعذبا حتى بعد موته · وتساءلت مرة أخرى وعيناها تتسعان :

ـ هل الموت مؤلم جدا ؟

وصمت دوميترو الذى كان يغطى لحيته بالصابون ، وحملق طويلا فى أنا ، ثم اجاب وهو يهز كتفيه :

ـ لست أدرى ·· ربما لا يكون مؤلما ··

ـ ولكن لماذا يتألم الانسان عندما يولد ؟

فأجاب العجوز وهو ينهض واقفا على قدميه :

ـ « عندما يولد ؟ ·· كيف ؟ ·· من ذا الذى يستطيع أن يعرف اذا كان المرء يتألم حقا ؟ ان ما يحدث له هو نفس ما يحدث عندما يموت · انه لا يدرى ، فالله وحده هو الذى يعلم ! » ثم بدأ من فوره يحلق لحيته ببطء وحرص ، فقد كانت يده ترتعد بشدة ·

وأخذت أنا تفكر ، وقد ألقت بيديها فى حجرها · كانت كلمات العجوز تبدو شديدة الغرابة ، لكنها أيضا كانت بالغة الصدق حتى انها شعرت بالخجل لضآلة اهتمامها به فى الماضى · ولم يعد يتردد فى الغرفة سوى صوت احتكاك الموسى وقعقعة النار فى المدفأة ·· وتناهى من الحجرة الخارجية فجأة صوت دجاجة تصيح فى غضب · وأخذت أنا ؛ وظنت فى بادىء الأمر أنها قد توقظ الطفل ، ثم فكرت أنها ينبغى أن تذهب لترى كم بيضة وضعتها الدجاجات ، وأخيرا ، وجدت أن من الأفضل أن تخرج الدجاجة من الحجرة الخارجية الى الفناء ، فقد كان بأبها موصدا ·· وظلت مع ذلك لا تحرك ساكنا · واستقرت عيناها على ظهر العجوز ، وأخذت تنصت الى صوت احتكاك الموسى مأخوذة بهذا الصوت حتى تضاءل كل

صوت آخر فجأة ولم تعد تسمع شيئا غيره · لم تعد تسمع صوت الدجاجة ، ولا الرياح التى كانت تصفق النوافذ ، ولا صوت قطرات المطر التى كانت تسقط على زجاج النافذة ·

وفجأة شد دوميترو ظهره والتفت اليها · كان أحد صدغيه حليقا ، بينما اكتسى الآخر بالصابون · وتلعثم قائلا وهو يغوص فوق الأريكة الخشبية ، ممسكا بالموسى بين أصابع يده اليمنى ، وقد شاعت فى عينيه ابتسامة رقيقة :

ـ آنى ·· آنى ·· انى أموت !

وانتفضت المرأة فى جزع وهى لا تكاد تفهم ما يجرى · وهمس العجوز فى صوت خافت :

ـ شمعة ··

وظل فمه مفتوحا ، وقد عجز عن أن يكمل عبارته · ورأت أنا أسنان فكه العلوى وقد ضغطت على لثته السفلى فيما يشبه ابتسامة لا معنى لها · وومضت الفكرة فى ذهنها فغمغمت فى ارتباك :

ـ يا جداه ·· يا الهى ! ·· انه يقول انه يموت بينما يبدو كأنما يضحك ·

واندفعت فجأة الى الفناء حيث الرياح المثقلة بالمطر ، وقد تركت الأبواب مفتوحة ثم أخذت تلوى ذراعيها فى يأس وتصرخ :

ـ يا الهى ! ·· النجدة ! ·· يا الهى ! ·· انه يموت ! ·· يا الهى ! ··

وطارت الدجاجة وهى تصيح فى ذعر ، ثم توقفت عندما وصلت الى قمة كوم السباخ خلف المنزل ·· وأقبلت فلوريا ، زوجة ماكيدون سيرسيتاشو التى تسكن عبر الطريق ، مسرعة عندما سمعت صرخات أنا وقد ظنت أن ايون قد عاود ضربها مرة أخرى · وصاحت أنا وقد تمالكت نفسها قليلا عندما شعرت بانسان يقترب منها :

ـ انه يموت ·· العم دوميترو يموت !

ووجدتا دوميترو ميتا ، وقد سقط من فوق الأريكة · وارتفعت يده اليمنى الممسكة بالموسى وكأنه كان يحرص على ألا يجرح نفسه أثناء سقوطه · كان المرء يستطيع أن يرى شوقا بالغا فى عينيه الواسعتين بنظراتهما الجامدة ، بينما بدت كلمته الهامسة «شمعة» كأنها ما زالت تتأرجح على شفتيه المنفرجتين ·

وارتعدت فلوريا ، ورسمت علامة الصليب ثم قالت :

ـ اشعلى الشمعة بسرعة ! حرام ! لقد مات كما يموت الوثنيـون ، دون شمعة !

وراحت أنا تشعل شمعة صغيرة ، بينما جاهدت المرأة الأخرى حتى ترفعه على الأريكة • لكنها لم تستطع • وتمتمت وهى ترســـم علامة الصليب مرة ثانية :

ـ انه ثقيل كحجر •• سامحنى يارب !

ووصلت حماة العمدة بعد دقائق من منزلمجاور • وانتزعت النسوة الموسى من يده المتصلبة ، ثم رفعه ثلاثتهن الى الاريكة ، ووضعن الشمعة الموقدة عند رأسه • وعندما وصل ماكيدون سيرسيتاشو بعد قليل ، أسرع بحلاقة الجانب الذى عجز العجوز عن حلاقته بنفسه •

وامتلأ المنزل بعد ذلك شيئا فشيئا بالنساء والرجال • واندفعت باراشيفا الى الداخل ، بينما كانوا يتحدثون حول كيفية غسله وتكفينه • كانت باراشيفا امرأة دائمة الهياج ، حادة المزاج ، مستعدة دائما للشجار رغم أن وجههـــا كان يبدو ضاحكا دائما • وقالت وهى تشق طريقها وسط الزحام :

ـ اذن فقد مات حقا ! لقد قلت له أن الله سيعاقبه ، نعم ، لقـــد قلت له ذلك ! وها أنتم ترون أنه مات كمتسول ، يسبب المشاكل حتى بعد موته ! •• كيف بالله سأنقله الى البيت !

وبدأت تولول فى حزن أمام جسد الرجل الميت ، وتندب فى حدة بلا دموع لتظهر للجميع أسفها العميق • واستغرق نواحها دقائق قليلة دعكت فى أثنائها مقلتيها براحتيها حتى احمرتا ، ولوت وجهها فى تكشيرة كقرد غاضب • ثم توقفت فجأة وتنهدت بعمق وصاحت بصوت عال :

ـ يا الهى ، كم بكيت بمرارة ! •• أوه •• أوه ! •• انى أشـــعر بالألم فى قلبى أيضا !

ثم سارت الى جثمان الميت ، وفتشت جيوب ســـترته الجلدية • ووجدت فى أحد جيوبه كيس التبغ ، وقـــد تدلت منه أدوات تنظيف الغليـــون ؛ وكان الغليون نفسه فى الجيب الآخر • وأزاحت السترة ثم فتحت جيب حزامه ، لكنها لم تستطع أن تدخل يدها فيه ، ففكت الحزام الجلدى العريض فى بطء ، ثم وضعته على المنضدة وظلت تفتشه حتى

عثرت على ورقة مالية من فئة الخمسة « زلوتات » ملفوفة بقطعة من الورق وقلبت الحزام ثم هزته ، وعندما لم تجد شيئا آخر قفزت صائحة :

ـ انظروا كيف خدعنى ، أيها الناس الطيبون ، الذين كنتم تشفقون عليه وهو ليس أكثر من شحاذ • لقد عملت كالأمة من أجله ، وعنيت به وظننت أنه رجل ذو خلق ! •• انظروا ! •• خمسة « زلوتات » ! •• لقد باع المنزل لليهودى ، وشرب بثمنه ، وترك لى خمسة « زلونات » نظير كل ما قدمت له من صحتى ونفسى •

ـ كفى عن هذا أيتها العمة باراشيقا ، انه انتهاك لحرمة الموت وجلاله ••

واستشاطت باراشيفا غضبا ، وعندما رأت أنا اندفعت نحوها قائلة :

ـ يجب أن أكف عن هذا •• أليس كذلك ؟ يجب أن أخرس ، فماذا يهمكم وقد سلبتموه خير ما عنده •• انكم دائما لا تكتفون بما وهبكم الله ، بل تعتدون حتى على دراهم الفقراء • عسى أن تقبرى بكل ما أخذته منه !

وتضرج وجه أنا وعجزت عن الجواب ، وصرخت باراشيفا وقد أثارها صمتها :

ـ لقد سرقتم نقودى أيها اللصوص ! لقد أكلتم عرق كهولتى ، فلتنزل بكم لعنة العذراء المقدسة ••

ودخل ايون • كان قد وصل لتوه من أرماديا ، تلوح عليه امارات الغضب ، اذ كان جروفشورو قد طرده بعد أن طلب منه ألا يقرب مكتبه حتى يحين موعد القضية • وسمع فى الطريق أن دوميترو موركاش قد مات ، وتبدد غضبه اذ شغلته فكرة أنه سيتعين عليه أن ينفق بعض المال فى دفنه • وفتحت باراشيفا فاها متهيئة لقذفه بدوره ببعض شتائمها •• وزمجر ايون بحدة وهو يمسك بكتفيها ويدفعها نحو الباب :

ـ أخرجى •• يا امرأة السوء •

ووقفت باراشيفا فى الحجرة الخارجية ، ثم فى فناء الدار ، ثم توقفت مرة ثالثة فى الطريق ، وهى فى كل مرة تهدىء من ثورتها بأن تصب عليهم لعناتها بقسوة • وانصرفت فى النهاية وهى تلف الورقة المالية فى ركن منديلها ، ثم تدسه فى صدرها وقد أحست بالرضى لأنها

استطاعت أن تنقذ هذا القدر ، ولأنها صبت عليهم كل ما امتلأ به قلبها من سباب ·

واحمر وجه ايون غضبا عندما سمع ان باراشيفا وجدت خمسة « زلوتات » فى حزام الميت ، وكاد يصفع أنا لأنها سمحت لها بأن تسرق النقود · ولكن أنا لم تبال بتهديداته · كانت كلمات العجوز ما زالت ترن فى أذنيها ، واستعادت عيناها ذكرى نظرته الصافية السعيدة فى لحظة موته ·

- ٣ -

حل الشتاء فجأة كأنه عاصفة · وابيضت الارض كلها فى ليلة واحدة · وتلى ذلك سقوط البرد ، الذى يبعث الاسوار المتجمدة على الصرير ، ويجعل النار فى المدافىء تقرقع وينطلق منها الشرر · واستمر الجليد يسقط ، فهو تارة ندف ثقيلة بطيئة تظلم بها السماء ، وهو تارة أخرى حبات دقيقة مدببة تدفعها الرياح العاصفة فتحيلها دوامات هادرة·

وخرج فاسيلى باكيو من بيته ذات يوم فى وقت الافطار تقريبا · كانت العاصفة الثلجية أشد تجهما من المعتاد · وكان فاسيلى يرتدى معطفا جلديا أبيض ، وجذب طاقيته المصنوعة من فراء حمل أبيض على عينيه ، وقد صمم على أن يسوى الامور مع ايون تسوية كاملة ونهائية · لم يكن طوال سنوات حياته - ألتى تقارب الخمسين - قد استدعى مطلقا أمام أى محكمة ، وها هو موعد نظر قضية زوج ابنته بعد غد · كان قد ظل يحتفظ برباطة جأشه ، ويقاوم بأمل أن يذعن ايون فى آخر الامر · وتمكن الخوف منه واستقر فى أعماق قلبه مع كل يوم يقربه من موعد القضية · انه لأمر مخجل أن يصبح فى مثل سنه فريسة للمحامين والقضايا · ان من يسلكون الطرق التى تؤدى الى قاعات المحاكم أناس سيئو التصرف ، وهو يفضل أن يستأصل روحه من صدره على أن يستمر فى هذا النزاع ·

وتوقف أمام بيت جلانيتاشو ، وتنهد بعمق ثم نادى :

- يا ايون !·· ايون !·· هل أنت هنا ؟

ولم يجبه أحد · ومن تحت السقف المصنوع من البوص ، الذى كان يئن تحت ثقل طبقة سميكة من الثلج ، وتحت الافريز الذى التمعت فوقه

كتل الجليد ، تسلل عمود من دخان أرجوانى خلال شقوق الباب المغلق لتبدده فى اللحظة التالية هبات الرياح المزمجرة ٠ ومر بعض الوقت ٠ ثم ظهر ايون حاسر الرأس عند مدخل الحجرة الخارجية متسائلا :

ـ من هناك ؟

فأجاب فاسيلى بسرعة :

ـ « أنا ٠٠ » وأضاف بعد برهة قصيرة فى صوت مختنق :

ـ تعال ٠٠ لنذهب سويا الى جيدوفيتسا !

وقف ايون يحدق فيه بضع لحظات قليلة بارتباك ، ثم سأله وهو ينظر اليه فى شك :

ـ لماذا ؟ ماذا سنفعل فى جيدوفيتسا ؟

وصاح باكيو متلعثما من خلال شاربه المتجمد :

ـ هل ستأتى أم لا ؟ ليس لدى وقت للمناقشة الآن ٠٠

فأجاب ايون :

ـ وهو كذلك يا حماى ٠٠ سألحق بك بعد لحظة !

واختفى برهة ٠٠ بينما وقف العجوز متصلبا فى وسط الطريق ، مستندا على عصاه التى كان معطفه يخفيها ٠ وتمتم ايون وهو يعود وقد ألقى بمعطفه على كتفيه :

ـ اننى مستعد !

ـ هيا بنا !

ورمق كل منهما الآخر بنظرة عدائية ، ثم سارا كرجلين ذاهبين الى معركة ٠٠ معركة حياة أو موت ٠ كان الثلج يصفع وجهيهما ويخز عيونهما بينما كانت الريح تصفر فى آذانهما مهددة ٠ وسارا بعناء جنبا الى جنب وكل منهما يرمق الآخر بركن عينه كما لو كان خائفا ٠ وراح الجليد يتكسر تحت نعليهما ، وامتدت الحقول أمامهما كبساط ناصع البياض ، وقد تناثرت فيها شجيرات متفرقة سودها البرد وأحنتها الريح ، فبدت كمتسول يطلب الاحسان ٠٠ وتحول بئر الزجل الميت الى كتلة من الجليد ما زالت تنساب فوقهـا برغم الصقيع خيوط من ماء أخضر آسن ٠ أما غابات دومنياسكا بأشجارها الجافة العارية التى كلاها الثلج ، فقد أخذت

تولول وتئن ، كأنها تستجدى الرحمة من الرجلين السائرين فى صمت، وهما يتنفسان بمشقة وينقلان أقدامهما فى غير يسر ، وقد غطى وجهيهما الصقيع ٠

وحدس ايون أن حماه يبحث عن وسيلة للوصول معه الى اتفاق ، فأخذ يمعن فكره ، أى حيلة جديدة سيلجأ اليها العجوز ٠ وود لو استطاع أن يدفعه الى الحديث ، ولكنه كان فى حال من التوتر لا تتيح له العثور على الكلمات المناسبة ٠ وسار فاسيلى دون أن ينبس بكلمة ، وبين الحين والحين كان يزوم بصوت مكتوم كأنه دب يتململ اثناء نومه ٠ وأحس بالأسف لأنه قرر أن يسلم ثروته بمحض اختياره ٠ وألحت عليه فكرة العودة وازدادت الحاحا كلما اقتربا من جيدوفيتسا٠لم لا يدع الامور حتى تفصل فيها المحكمة ؟ وبدت الرياح التى كانت تلفح وجهه فيترنح تحت ضرباتها ، وكأنها تحثه على اعادة التفكير فى الامر قبل فوات الأوان ٠

وبلغا آخر منحنى على الطريق ٠ وبرزت أمام عيونهما أسطح البيوت المثقلة بالثلوج ، يتميز من بينها المنزل الأول الى اليمين ، وهو مبنى مرتفع ذو نوافذ واسعة وجدران سميكة صفراء ٠ هذا هو مقر كاتب القرية وموثق عقودها ٠ وأحس فاسيلى باكيو بألم حاد فى قلبه جعله يتوقف كالميت٠ كان الدخان الأسود الكثيف المتصـاعد من المدخنة الرفيعة الطويلة يبدو كسحابة هائلة التفت حولها العاصفة بعد أن عجزت عن تبديدها ، وأخذت تكافح لتلقى بها على سفح التل الذى كسته الاشجار ، والذى كان ينحدر خلف المنزل ٠ وعطس فاسيلى واختلس نظرة سريعة الى ايون الذى كان قد خطا بضع خطوات غافلا عن توقف باكيو ٠ وعاود السير فى اللحظة التالية مدمدما وهو يغلى بالسخط والغضب ٠

وتساءل ايون بخشونة عندما أوشكا على دخول القرية

– الى أين نحن ذاهبان يا حماى ؟

وسار فاسيلى باكيو خطوات قليلة أخرى دون أن يجيب ٠ ثم دلف الى فناء مكتب كاتب القرية ، يتبعه ايون ٠ وصعدا الدرجات الحجرية وهما ينفضان الثلج عن نعليهما ٠ كانت الريح قـد كومت فى الممر الواسع كمية كبيرة من الجليد ٠ وتوقف فاسيلى عند الباب الزجاجى ٠ ومد يده الى المزلاج ، ولكنها سرعان ما تراجعت وكأن المقبض قد اشتعل وأحرق راحته، وخلع طاقيته وأخذ ينفضها على ركبته ٠ وعندما استعاد جأشه فتح الباب فى هدوء ٠

ودخلا مكتب المساعد الذى كان مكتب التوثيق للفلاحين ، فقد كان مكتب الكاتب نفسه مخصصا لعلية القوم ومزارعى الناحية البارزين ·

وظلا واقفين الى جوار الباب ، ينفضان الثلج عن ملابسهما · كان بالمكتب شخصان هما هورنشتين ، مساعد الكاتب ، الذى كان منحنيا على أحد السجلات يدون شيئا فى سمت وقور مصحوب باهتزازة رأسه المعتادة ، وخفير من ساراكوتسا كان يقف الى جوار موقد من الفخار الأبيض ، يدفىء كل جزء من جسمه على التوالى ·

وقال المساعد بعد لحظة باحتقار ودون أن يرفع عينيه عن السجل :

ـ لماذا لا تنفضا معطفيكما فى الخارج ، بدلا من أن تملآ المكتب بالجليد ؟

كان فاسيلى باكيو يود أن يقول شيئا ، لكنه لم يدر كيف يبدأ ، فقد أحس بالحرج لما قاله الكاتب · ولم ينطق أحد بكلمة · وكان المرء يستطيع أن يسمع صرير قلم المساعد ، وطنين ذبابة كبيرة استيقظت من بياتها الشتوى وراحت تطير فى اضطراب من حائط الى آخر ، غير قادرة على أن تجد لنفسها مستقرا ·

وتكلم هورنشتين فى النهاية ، بعد فترة طويلة من الصمت ، وهو يتحسس المنشفة ويحملق باعجاب فيما كتب :

ـ حسن · ماذا تريدان ؟ ثم قلب الصفحة بعناية ومسح عليها براحته · وظلت رأسه تترنح ، أما شفته السفلى السميكة البارزة فقد اختفى الجزء الأكبر منها لحظة تحت ضغط أسنانه الناصعة البياض ، بينما برز سن قلم موضوع خلف أذنه كسهم معد للانطلاق · وصاح المساعد فى صوت كالنباح ، وهو يتناول قلمه من خلف أذنه ويثبته بين أصابعه :

ـ هيا اسرعا ، ليس لدى وقت لانتظاركما طوال اليوم ! كان ينبغى أن تستقرا على ما تريدان فى الخارج ·

وسأله فاسيلى وبصيص من الامل يداعبه فى ألا يجد الكاتب ، ومن ثم لا يضطر الى التخلى عن أى من ممتلكاته توا :

ـ هل الكاتب موجود يا سيدى ؟

فأجاب هورنشتين وقد ضاق بالفلاحين اللذين ما زالا يسألان عن

الكاتب وهو ماثل امامهما ، هو الذى لا يقل دراية عن ستوسيل بكل الأمور ٠

ـ ان الموثق مشغول ٠٠ يمكنكما أن تخبرانى بما تريدان ٠

وساد الصمت مرة أخرى ٠ وراح فاسيلى باكيو يتململ فى وقفته، وينقل ثقله من ساق الى أخرى وقد ألحت عليه فكرة الهرب ، وأن يصرف النظر عن الموضوع كله ٠ بيد أنه قال فى النهاية :

ـ نريد كتابة عقد يا سيدى ، عقد ٠٠

فزمجر المساعد غاضبا :

ـ حسن ! اجلسا اذن ! أيها الخفير ، اذهب وناد الرئيس ! قل له ان هناك من يريد كتابة عقد ! أتسمع ؟

وجلسا على أريكة ، أحدهما الى جوار الآخر ٠ ونظرا كلاهما باستغراق الى هورنشتين الذى كانت ريشته تبدو وكأنها تخربش الورق أشد من ذى قبل ، بينما سكن طنين الذبابة واستقرت على الموقد الدافىء فبدت كبقعة من الحبر على ورقة بيضاء ٠

ودخل الكاتب مسرعا ، وقبعته الناعمة فوق مؤخرة رأسه ، وسار الى الموقد مباشرة وهو يدلك يديه ليدفئهما قائلا :

ـ أى عقد تريده يا فاسيلى ؟ ثم أضاف مبتسما عندما لمح ايون : هل ستعطى زوج ابنتك شيئا آخر ؟

كان ستوسيل رجلا فى الخامسة والثلاثين ، ذا عينين صغيرتين سوداوين حادتين لا تكفان عن التحرك بخبث فى محجريهما ، وأنف ممتلىء وأذنين كبيرتين ٠ واذ كانت الكلمة الطيبة أو الدعابة المرحة دائما على شفتيه ، فقد أحبه الفلاحون رغم أنه يهودى ٠

ونهض فاسيلى وايون واقفين ٠ وبدا أن ابتسامة الكاتب قد بددت ما شاع فى قلب فاسيلى من كآبة ٠ كان يتحدث بصوت واضح طروب ، ولم يبد على وجهه أى أثر للرغبة فى التزام الصمت ، كأنه جاء يطلب تصريحا بأن ترعى ماشيته فى الأرض المشاع :

ـ ماذا ينبغى أن نفعل يا سيدى ؟ يجب أن نصل الى اتفاق فى مثل

هذه الظروف·· فما جدوى انفاق المال على القضايا والمحامين والرسوم··

ووافقه ستوسيل قائلا وهو يخلع قبعته ويجلس على مقعد أمـــام المساعد الذى استمر فى كتابته دون وجل :

ـ أجل ، أجل ، هذا عين الصواب ·

ـ اننى أتقدم فى السن ، والله وحده يعلم كم سيطول بى العمر · لقد عملت بما فيه الكفاية وشقيت طوال حياتى · والآن جاء دورهم ·· دور الشباب ·· لقد قمنا بدورنا ·· أليس كذلك ؟

ـ تماما ·· تماما !

وأجمل فاسيلى القول بابتسامة حزينة وهو ينظر بعمق فى عينى الكاتب :

ـ لهذا فقد فكرت فى أن يأخذا الباقى أيضا وأن أعطيهما كل شىء ، يجب ألا يشغلنى شاغل بعد هذا ·

ـ نعم ، انى أدرك ذلك ·· كم قطعة أرض لديك ؟

فأجاب ايون على الفور :

ـ ثمانى قطع يا سيدى ! فهناك حقل الذرة فى لونكى ، وأربع قطع صغيرة مزروعة بالشعير فى زاهاتا ، وثلاثة حقول من القمح الربيعى على حدود ساسكوتسا ·· ثم هناك المنزل و ···

وقال العجوز وابتسامة حزينة تتلاعب على شفتيه ، وقد تلون صوته بشىء من الحدة :

ـ انه يعرفها خيرا منى ، كما ترى ·

وسأله الكاتب وهو ينظف أسنانه باظفر بنصره المطلى :

ـ ولكن كيف ستعيش ؟

فتمتم فاسيلى وهو يرخى عينيه الى الأرض :

ـ سأحيا كما يشاء الله ·

وقال ستوسيل جادا هذه المرة :

ـ هذه مشكلة ·· احتفظ على الأقل بحق الانتفاع بريعها لنفسك حتى تموت ·· أخذا بالأحوط !

فقفز ايون قائلا :

ـ اننا لسنا كفرة ياسيدى ·

ولكنه كف عندما التقت عيناه بنظرة الكاتب التى تفيض ازدراء ، وكأن شفرة حادة قطعت صوته · وقال فاسيلى مرة أخرى بصوت مختنق:

ـ كل شيء ، كل شيء حتى آخر قرش ·· ولننته من هذا الموضوع الى الأبد !

وطلب ستوسيل النماذج من المساعد ، ثم قدمها لايون كى يوقع بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن أنا ، بينما بصم فاسيلى بابهامه ، فلم يكن يعرف الكتابة · وسأله الكاتب مرة أخرى وهو يدون شيئا فى مذكرته :

ـ بمحض ارادتك الحرة يا فاسيلى ؟

فصاح باكيو وهو يتميز غيظا :

ـ نعم ، بمحض ارادتى واختيارى ، كما ترى !

وقال ستوسيل وهو يفرك يديه :

ـ لقد قضى الأمر اذن ·· وان هى الا أيام قليلة حتى يكون كل شيء معدا ·

ثم أضاف متفكها وهو يربت كتف فاسيلى :

ـ ها أنت ذا قد دخلت هنا غنيا ، وستخرج شحاذا ! ها ·· ها ···

وكست الكآبة وجهى الفلاحين ، فقد نفذت فكاهة الموثق الى قلبيهما على الفور · وخرجا الى حانة زيمالا ، فقد كان فاسيلى على وجه الخصوص يشعر بعطش حاد يهيج دماءه ·· وكان المشرب خاليا ، فقد كانت العاصفة الثلجية تزمجر على أشدها · وتجرعا بعض الكئوس فى صمت · ورآه ايون على نفس حاله من القلق ، فراح يطمئنه ألا يخشى شيئا لأنهم يستطيعون أن يعيشوا ثلاثتهم معا كأنهم فى جنة عدن · وظل فاسيلى ينصت اليه فترة طويلة وهو يتفحصه بامعان · كان بريق الانتصار يلمع باستفزاز فى عينى الشاب حتى لقد أحس فاسيلى بأنه يخزه فى مخه ، مبعثرا كل الأسس التى قام عليها ايمانه ·

وانفجر فاسيلى باكيو فجأة فى غضب ومرارة ، وأطبق على عنـــق الشاب قائلا والزبد يغطى شفتيه :

ــ أيها اللص ، لقد تركتنى مفلسا ٠

وخلص ايون نفسه بهدوء ، فقد كان فيما يبدو يتوقع هذا الهجوم منذ أمد طويل ، ثم كال له لكمة قوية واحدة فى صدره ألقت به من فوق مقعده ٠ وزمجر فاسيلى فى غضب وعجز وهـــو يتدحرج فوق الأرض القذرة :

ــ لقد سرقت أرضى أيها اللص ! لقد قتلتنى أيها الوغد ٠

دفع ايون الحساب لصاحب الحانة ونفسه تجيش بالرضى ٠ واتجه الى بيته بخطوات واسعة خلال العاصفة الثلجية المزمجرة دون أن يبالى البرد والصقيع ٠ أما العجوز فقد جلس بقلب مكلوم ، يغرق أحزانه ويأسه فى الشراب ، وحكى لزيمالا بالتفصيل كل ما تحمله من لؤم زوج ابنته ٠ وأنهى حكايته قائلا وهو يتنهد فى حزن :

ــ لقد تركنى متسولا مفلسا ٠

ــ ٤ ــ

تسلل بصيص من الأمل شيئا فشيئا الى قلب هرديليا اذ لم يصله قرار الايقاف ٠ فأيا كانت مصاعب الحياة وقسوتها فانها لا تستطيع أن تبدد تفاؤل الانسان ٠ وتأكد هرديليـــــا أن هورفات ، نائب المفتش ، عندما تلقى اخطار المحكمة ، تذكر الخدمات الوطنية الجليلة التى قدمهـــا المدرس ، وترك الموضوع معلقا ، بالتأكيد ، حتى يبرئه الاستئناف من كل ذنب ٠

وكم كانت دهشته وحزنه بالغين عندما تسلم قبيل نهاية شـــهر نوفمبر اخطارا رسميا يعلنه بأنه قد أوقف عن عمله ، نتيجة لحكم المحكمة، الى أجل غير مسمى ، وبأن السيد نيكولاى زاجريانو سيحل محله اعتبارا من بداية شهر ديسمبر ٠ وقال هرديليا شاحب الوجه مرتعش الأطراف :

ــ حسن ، هذا لا يهم ٠٠ ألم أكن أتوقع هذا على أية حال ؟ لم يكن هناك مفر من أن يحدث هذا ٠٠ ان ما يدهشنى هو أن الأمر قد استغرق منهم كل هذا الوقت ٠

وبكت زوجة المدرس فى حرقة • وتنبأت بأنهما سيهلكان جوعا فى شيخوختهما • وكان عزاؤها الوحيد أن أطفالها كانوا بعيدين ، فقد كان هذا كفيلا بالتأكيد بأن يقتلهم خجلا • وكذب هرديليا لكى يهدىء من روعها ، قائلا أنه لو أراد فانه يستطيع ان يجد وظيفة فى اليوم التالى، فى مكتب محام ، أو فى أى مكان آخر • وراحا يهدئان من مشاعرهما بأن يلعنا زاجريانو ، وكأنه هو السبب فيما أصابهما من بلاء • كانا يعرفانه جيدا ، فهو ابن حوذى فلاح من أرماديا ، وقد تخرج من كلية المعلمين فى ديفا • وكان الجميع يثنون عليه ، فقد حصل على منحة دراسية من الدولة وكان يحصل دائما على الجائزة الأولى فى كل صف • ويقال أن نائب المفتش كان يشمله برعايته ، وأنه قد جاءه بتوصية خاصة من عميد كلية المعلمين وأنه وعد بأن يرشحه لدى الوزارة كى يعين فى أول وظيفة تخلو ، اذ كان الشاب حريصا على ألا يبرح مقاطعته • وكانت الفتيات تعرفنه أيضا • بل انه كان يتودد الى جيجى فى وقت من الأوقات ، وأرسل لها بعض البطاقات البريدية المصورة من ديفا •

وأسرع هرديليا فى اليوم التالى الى أرماديا ليبحث عن عمل • وعاد فى المساء الى بيته منشرح الصدر ، حاملا تحت ابطه كومة من الأوراق ، فقد أعطاه ستوسيل بعض العقود التى لم يكن وقت الكاتب يتسع لها ، كى يحررها • وصاح المدرس بابتهاج :

ــ ان الله لم يتخل عنا ، كما ترين ، أيتها الأم ! ان ذلك الكاتب شاب لطيف • لقد قدم لى هذا العمل من تلقاء نفسه عندما سمع بأنى قد أوقفت •• وتصورى مع هذا أن هنــاك أناسا يقولون بأن اليهود ذوى قلوب جامدة لا ترحم ! لم أجـد بين الرومانيين جميعــا واحـدا يهب لمساعدتى مثله !

وطرق زاجريانو باب هرديليا فى صباح أول ديسمبر • لقد حضر ليتسلم المدرسة • ورمقته السيدة هرديليا بنظرة مؤنبة لائمة ارتبك لها الشاب فراح يعتذر ويكرر الاعتذار ، فقال انه بالغ الأسف ، وأن الخطأ ليس خطأه ، ولكن •• كان فى نحو الثانية والعشرين ، نحيلا ، صافى البشرة كأنه فتاة ، ذا وجنتين شاحبتين بعض الشىء ، وعينين زرقاوين خجولتين ، وحاجبين عريضين عليهما سيماء التفكير • ولم يدعه أحد الى الجلوس ، فان ما أبداه من تعاطف وود جعل السيدة هرديليا تزداد له كرها • وقالت لنفسها أنه انما يتظاهر بالتأثر العميق ، بعد أن تسبب

فى طرد هرديليا من عمله ·· أما هرديليا نفسه فقد حاول ، بوصفه زميلا قديما فى المهنة ، آن يبدو هازلا مازحا ، رغم أن قلبه كان يدمى · فقد كان شر ما يخشاه دائما تلك اللحظة التى يتعين عليه فيها أن يودع مدرسته · وها هى هذه اللحظة قد حانت ·

واتجها سويا الى المدرسة ، وبدا هرديليا أكثر انشراحا مع كل خطوة تزيدهما اقترابا منها ، بينما كان قلبه فى الواقع يعانى مرارة متزايدة · وظل يقول ضاحكا أنه سعيد اذ أصبح قادرا على أن يستمتع بلحظة من الراحة ، بعد أن ظل يحمل عبء هذه المسئولية الجسيمة ، مسئولية المدرسة ، وبعد أن هد المئات من الأطفال المتعبين قواه طوال ثلاثين عاما ، بينما كان يقول لنفسه فى الوقت ذاته أنه ليست هناك مهنة فى الدنيا أجمل من اثارة عقول هذه البراعم الفتية ·

وتوقف الطنين الصاخب على الفور عندما دخلا مبنى المدرسة · وهب الأطفال واقفين · وشمل هرديليا الاطفال الستين جميعا بنظرة واحدة رقيقة كأنما كانوا جميعا قطعة من نفسه · وفى سكون لا يبدده سوى همسة خائفة وجلة أو ضحكة مكتومة ، سلم هرديليا الى الشاب مفتاح خزانة الكتب التى تضم مكتبة المدرسة ومحفوظاتها من الاوراق · وبينما راح زاجريانو يقلب صفحات السجلات ، القى العجوز نظرة أخيرة بقلب مكلوم على الأطفال الحائرين ، وعلى الجدران المزينة برسوم بيانية ملونة ، وعلى المقاعد المتسخة التى ملأها الشياطين الصغار الذين جلسوا عليها جيلا بعد جيل بالخدوش والحفر ، وعلى لوحة العد التى علمهم بها الحساب · بل انه لم يغفل عن الكوب الفخارى الازرق الذى يستخدم للشرب ، والذى وضع على غطاء الابريق خلف السبورة ·· وتخلل شعره الفضى بأصابعه ، محاولا أن يحبس الدموع التى ترقرقت فى عينيه ··· ثم تناول قبعته ، وصافح زاجريانو الذى صاح بالهنغارية فى صوت حازم :

ـ قيام !

وسار نحو الباب ، وهو لايجد لديه قدرة على أن يعاود النظر الى الأطفال · وصحبه زاجريانو حاسر الرأس الى الباب · ووجد هرديليا نفسه وحيدا فى الفناء · وتناهى الى سمعه ضجيج الاطفال وهم يجلسون · وتوقف مرة أخرى فى الطريق ، وأخذ يتفرس فى البناية البيضاء الطويلة التى كان يعتبرها ملكا له طوال سنوات عديدة ، والتى خلف فيها وراءه أكثر من خمسة عشر عاما من حياته ·· وترددت فى داخل المبنى أصداء

صوت المدرس الجديد ، آمرا ، حادا ، مبددا آثار كده وجهده • ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه • وطفرت دموعه الحارة منسابة على وجنتيه •

وأحس طوال أيام عديدة بحجر ثقيل يرزح فوق قلبه ، وفى الصباح، عندما كان جرس المدرسة يدق ايذانا بيوم جديد ، كان الحنين المعـــذب يتملكه، فيقف أمام النافذة متجها بأنظاره الى المدرسة، ويتصور أنه يسمع أصوات الأطفال يتوافدون فى مرح وضجيج ، وهم يقذفون بعضهم البعض بكرات من الثلج ، وقد احمرت وجوههم من فرط الانفعال •• وفجـــاة تملكته رعدة ، فقد كان زاجريانو يمر به مسرعا وقد مالت قبعته فـــوق عينيه ، يحث السير من أرماديا ، حيث يقيم ، وفى يده ربطة صغيرة بهـــا طعام خفيف لوجبة الغذاء • وتفحص المدرس الشـــاب منزل العجوزين بحرص ليحيى أصـــحابه بكل احترام اذا ما لاح له أى منهم • بيد أن هرديليا ابتعد عن النافذة بسرعة وراح يذرع الغرفة مهموما حزينا •

وعاود هرديليا الذهاب بانتظام الى أرماديا ليبحث عن عمل ، ولكن دون أمل كبير ، لمجرد أن يهدىء من قلق السيدة هرديليا ، اذ كانت لا تكف عن ترديد مخاوفها المشئومة • وكان يتجرع المرارة فى أحد هذه الأيام عندما دخل ايون • كان ذلك فى أصيل اليوم نفسه الذى ذهب فيه مع فاسيلى الى جيدوفيتسا • وقال ايون وهو فى حال من الانشراح لم يشهده طوال العامين الماضيين :

ـ لا يهمنى الآن أن أمكث فى السجن ولو سنة كاملة ، لا شهرا واحدا !

كان ايون يريد أن يعرف ما يتخذ من اجراءات لايقاف سير الدعوى على حميه ، والأهم من ذلك ، أن يعرف كيف يتجنب دفع ما تبقى من أتعاب جروفشورو • وأوضح له هرديليا أن كل ما عليه أن يفعـــل هو الذهاب الى المحكمة ليعلن أنهما قد توصلا الى اتفاق ، وأنه لا يحتاج فى هذا الى محامى ، وأن جروفشورو قد يخفض أتعابه اذا ما ذهب اليه رأسا ورجاه فى ذلك وأخبره بأنه لم تعد هناك حاجة الى حضوره الجلســـة التالية •

وقال ايون بصدر منشرح :

ـ يا والدى فى العماد ! ألا تستطع أن تاتى معى لتنهى هذا الأمر على أكمل وجه ؟

وحملق هرديليا فى الفلاح الذى جلب له كل هذه المتاعب ، وأدهشه هذا الاقتراح • فهذا الفتى يريده هو ، هرديليا ، أن يذهب الى مكتب جروفشورو ، الى الرجل الذى عارضه فى الانتخابات والذى يستطيع أن يقول باطمئنان أنه قد خسر الانتخابات وفشل فى دخول البرلمـــان بسببه • من الغريب حقا أنه لم يفكر فى هذا مطلقا • لقد استمر يحيى جروفشورو كلما قابله ، وكان الاخير يرد تحيته ببساطة دون أن يعقب بشىء • حقــــا لقد صـــــافحه المحـامى مرة ، بعد محاكمته المشئومة • بيد أن هذا لم يغير أى شىء فى العلاقة بينهما • كان فى أرماديا أربعة من المحامين ، وقد زار ثلاثة منهم ، وطلب ، دون جدوى بالطبع ، أن يلتحق بوظيفة صغيرة ككاتب فى مكتب أى منهم • ولكنه لم يجسر مطلقا على أن يحلم بالذهاب الى الرابع ، الى جروفشورو •• ومع ذلك فقد كان ايون محقا فى نهاية الأمر • لماذا لا يحاول ؟ انه لن يمسك بهراوة ويحطم بها رأسه ! أهذا ممكن ؟ لم لا يحاول اذن ؟ وأجاب هرديليا فى حزم :

ـ اذا دفعت لى يا ولدى خمس « زلوتات » ذهبت معك • سأذهب بالتأكيد •

فرد ايون وهو يصافحه موافقا :

ـ بكل سرور يا والدى ! انني أفضل أن أعطيك خمسة على أن أعطيه خمسين مقابل لا شىء !

كان فيكتور جروفشور محاميا قديرا ، ولم يكن يقل دهاء عن أى من السياسيين الذين كان يأمل الانخراط فى زمرتهم • وعندمـــا رأى هرديليا فى غرفة الانتظار ، فكر ثانية أو اثنتين ، ثم اتجه نحوه من فوره مادا يده اليه •

ـ مرحبا بمعارضى ! مهما فعلت فأنت لا تزال واحدا منا ، حتى اذا كنت قد حاربتنى ذات مرة ! والآن دعنا من السياســـة ولنر أية ريح أحضرتك الينا هنا ؟ تفضل الى مكتبى ! ادخل من فضـــلك ! لنتحدث قليلا •

وأمسك بذراعه وأدخله مكتبا مؤثثا برياش فاخـــرة حتى يترك انطباعا طيبا عند زبائنه • وأجلسه فى مقعد وثير من طراز انجليزى مريح ، وقدم له لفافة من التبغ •• وارتبك هرديليا حتى أنه وضع طرف اللفافة

المشتعل فى فمه • وقال جروفشورو باسما ، سعيدا بأن يرى ما عليه المدرس من حرج :

ـ حسن ! قل لى كل متاعبك وأعدك بأن أفعل كل ما أستطيع من أجلك •

كان جروفشورو حريصا على أن يزيد من شعبيته استعدادا للانتخابات المقبلة ، ولذلك فقد صمم على أن يخدم هرديليا اذا ما سنحت له الفرصة ، فهو بذلك لا يكسب مؤيدا وحسب ولكنه يعزز مكانته فى كل انحاء دائرته الانتخابية • وهل يخفق رجل فى أن ينتخب نائبا اذا كان قادرا على تقديم يد العون حتى الى خصم سابق ؟

ورغم أن هرديليا اضطرب لهذا الاستقبال الحار ، الا أنه فكر على الفور فى أن يستغل ما يبديه جروفشورو نحوه من ود وينبئه بكل مشاكله ، وليذهب ايون الى الجحيم • بيد أنه لم يجد لديه الشجاعة ليفعل هذا • ومن ثم فقد أوضح للمحامى أنه انما جاء من أجل ابنه فى العماد • وأعلن جروفشورو ، لكى يبرهن على مشاعره الطيبة ، أنه على استعداد للتنازل عن نصف الأتعاب الذى يدين له ايون به • وأضاف عدة مرات بلهجة ودية للغاية :

ـ اننى أفعل هذا من أجل خاطرك ، وما كنت لأفعله لولا أنك طلبت منى ذلك •

وتلعثم هرديليا ببعض كلمات الشكر ، ثم نهض واقفا • وفكر مرة أخرى أن يطرح مشكلته الخاصة أيضا ، ولكن الكلمات التصقت فى حلقه • وتسمر فى مكانه وفى عينيه نظرة يائسة مستسلمة ، زاهدا فى الخروج دون أن يجرب حظه ، ومع ذلك لم تواته الجرأة •

وعندئذ قال جروفشورو فجأة :

ـ لقد سمعت بكل ما تعانيه من مشاكل مع أصدقائك المجريين • • • انه لأمر محزن حقا • لا يمكنك أن تتصور مدى أسفى •

وحدق المدرس فيه فى جزع ، وهيأ نفسه لطلب مغفرته ، بينما استطرد جروفشورو قائلا :

ـ كان يجب أن تحضر الى بقضيتك ، فقد كان بوسعى أن أبرئك • لقد أخطأت اذ تحاشيتنى •

وسكت جروفشورو وهو ينتظر أن يسمع من هرديليا عبارات الرجاء ، راغبا فى آن يذعن لطلبه فيبرهن بذلك على كرمه • وحاول هرديليا ، الذى كان واعيا بالموقف تماما ، أن يتكلم ، لكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة • واستطرد جروفشورو بعد برهة :

ـ سيكون من الصعب عليك أن تعيش بلا مرتب • يمكننى أن أتصور ذلك تماما ••• سيكون صعبا للغاية •

وانتظر مرة أخرى ، واذ لم يلق جوابا استطرد فجأة قائلا :

ـ ويسعدنى من جانبى أن أساعدك ، فأنا لا أحمل لك ضغينة ، فلست حقودا ••• وفضلا عن ذلك فنحن رومانيون على أيه حال • أستطيع أن أقدم لك وظيفة كاتب فى مكتبى اذا رغبت ••• فأنا أعلم أنك تجيد هذا النوع من الأعمال • ويمكنك بعد عيد رأس السنة مثلا أن ••• أما عن المرتب فأنا واثق من أننا سنتفق ••• اننى أدرك المصاعب التى تواجهك •

فانفجر هرديليا فجأة قائلا والدموع تطفر من عينيه :

ـ يا سيد جروفشورو •••• أنا ••• فى الحقيقة ••• الآن ••• سامحنى ! اننى أرجو مغفرتك ! سامحنى ! ••• أنا لا استحق •••

كانت ساقاه ترتجفان ووجهه يشرق بشرا • ولم يجسر على أن يطرف بعينيه حتى لا تنساب الدموع على خديه •

أما جروفشورو ، الذى استشعر مشاعر الرجل العميقة ، فقد تملكه عطف صادق على روح هذا الانسان الطيب المعذب • وأمسك بيده اليمنى وصافحه بحرارة بكلتا يديه ، ثم ربت على ظهره بشدة ، وهمس قائلا فى اخلاص وانفعال :

ـ ابتهج يا رجل ! لا تغتم ! فالرومانى لا يستسلم أبدا •

لم يكن هرديليا طوال طريق عودته الى بريباس يمشى ، بل كان يجرى ، وكله حماس أن يصل فى أسرع وقت حتى يخبر امرآته العجوز بما لديه من أنباء عظيمة • وكان يتحدث مع ايون أثناء سيره عن جروفشورو باكبار عميق ، وكأنه يتحدث عن الله نفسه • وكان يكرر بعد كل اجابة من ايون :

ـ أؤكد لك يا ايون أنه لا يوجد رجل مثل جروفشورو فى أوربا كلهـــــا ٠

وجعلته السيدة هرديليا يحكى لهـــا كل شىء ٠٠٠ كل شىء على الاطلاق ، من الألف الى الياء ٠ فحكى لها أكثر من خمس مرات عما قاله جروفشورو ، وكل ما فاه به من وعود ، وماذا كان يرتدى و ٠٠٠ ثم انفجرت باكية بدموع الفرح ، وأتبعتها بصلاة من أجـــل هذا المحسن الكريم تذكرتها منذ أيام طفولتهـــا ، راجية من الله العلى القدير أن يهب جروفشورو الصـحة وحسن الطالع ، وأن يحقق له كل أمانيه ٠ وأخذ المدرس ينوح آسفا وقد عذبه الندم :

ـ وهذا هو الرجل الذى عارضته فى الانتخابات ، وأعطيت تأييدى لأولئك المجريين الملاعين ! اننى أود لو ضربت رأسى بهذا الحائط ٠

فقالت زوجة المدرس وهى تمسح فمها بظهر يدها :

ـ كانت هذه حماقة منك فى الحقيقة ٠ لقد رفضت أن تستمع الى ٠ لكن الله سمع صلاتى ولم يتخل عنا ٠

- ٥ -

منذ التقى تيتو بفيرجينيا جيرمان لم تعد حياته فى لوشكا سوى حلم ٠ فلم يكن أى من أصدقائه فى أرماديا أو أخواته فى بيته قد فهمه فهما تاما من كل ناحية كمـــا فهمته مدرسة القـــرية الذكية اللطيفة ٠ وأثارته ابنة كينتاريانو ، كاتب القرية ، بغيرتهـــا ، اذ كانت عاجزة عن تقدير هذا الرباط المثالى الذى يربط بين روحين نقيتين ، وتفهمه ٠

وذات يوم فى بداية فصـــل الخريف أسرع فى حماس عند الغروب الى بيت فيرجينيا ، ولكنه وجد رقيب الشرطة هناك ٠ وتملكته الدهشة ٠ ما شأن رجل الشرطة المجرى بهذه العذراء الرومانية الجميـــلة المتعالية ؟ وكان رئيس الشرطة قد حاول منذ اليـــوم الأول أن يقيم صداقة معه ، ولكن تيتو تحاشاه كما يتحاشى الطاعون ٠ فقد كانت الصداقة مع شرطى مجرى فى نظره هى العار نفسه ٠٠٠ وها هو الآن فى بيت فيرجينيـــا جيرمان ، رفيقة أحلامه ، والمخلوق الأثيرى الذى يشاركه آماله الكبار ٠

وتضرج وجه المدرسة وقالت بالهنغارية :

ـ هل التقيتما من قبل ؟

فأجاب المجرى وهو يمد يده الى تيتو :

ـ لقد التقينا بالطبع ٠

ولم يمكث الشرطى سوى بضع دقائق قليلة ، ثم انصرف بعد أن قبل أنامل فيرجينيا جيرمان باحترام بالغ ٠ وما أن أغلق الباب وراءه حتى انفجر تيتو ، الذى لم يكن قد تفوه بكلمـــة واحدة طوال الوقت ، قائلا :

ـ أنت ٠٠٠ تستقبلين جلادنا فى بيتك !؟

فأجابت المدرسة فى ضجر :

ـ أؤكد لك انه شاب لطيف جدا ٠٠٠ لماذا تبـــالغ ؟ المجرد أنه مجرى ؟

ـ أتستطيعين أنت أن تقولى شيئا كهذا ؟

وأجابت فيرجينيا فى حنق :

ـ لا تكن مضحكا ! ان أحلامنا شيء ، والنـــاس الذين نحيا معهم شيء آخر ٠ ان كل انسان يعرف مشاعرى ، ولكن هذا لا يحملنى على ألا أرى الأشياء على حقيقتها ٠

وحاول تيتو فى وجل أن يبين لها أن أى تناقض بين مشاعر الانسان وأفعاله فى الحياة ليس سوى جريمة فى حق مثله الأعلى ، لكنه لم يلبث أن كف عن المحاولة ٠ كانت المدرسة تهوى اكثر فأكثر فى أعماقه ٠ وقال لنفسه وهو يعود الى منزله كجندى هزم فى معركة حاسمة : « يا لخيبة آمالى مرة أخرى ! يبدو أن الحياة ليست سوى سلسلة طويلة لا تنقطع من المنغصات ٠ انها معركة مخيفة بين الأحلام والواقع ! »

وقالت له الآنسة يوجينيا بضحكة ساخرة ، عندما وجدته متكدرا الى أقصى حد وعرفت السبب :

ـ انك غارق حتى أذنيك فى حب فيرجينيا حتى أنك الرجل الوحيد فى القرية الذى لا يعلم أن ضابط الشرطة يتودد اليها ، وأنه كان يتودد اليها منذ أمد طويل قبل أن تعرفها ٠

وظل ساهرا مسهدا طوال الليـل ، يفـكر ، بعينين مفتوحتين ، ويحاول آن يستشف أعماق قلبه . واخذ يقول لنفسه فى جزع انه اذا كان يحبهـا حقا ، واذا صح ما تعتقده ابنة كاتب القرية ، وربما يعتقده الآخرون أيضا ، فان هذا يعنى أنه كان طوال هـذه الشهور يتمرغ فى حمأة كذبة مشينة تلطخ نقاء اماله ذاتها ... وفضلا عن ذلك ، فربما لم تكن كل أحلامه نقيه مخلصة ، ولعلها هى أيضا ليست أكثر اخلاصا من أحلام المدرسة التى استطاعت أن توفق فى يسر بين هذه الاحلام وبين صداقتها مع المجرى ؟ ... وأحس بأن ما به من ضيق انما ينبع من نفس الاحساس بالغيرة الذى عذبه يوما من أجل روزا لانج ، والذى جعله يعتقد بأن العالم يوشك أن ينتهى بالنسبة له ... ومع ذلك ، كيف يمكن أن يحبها وهو الذى لم يشعر أبدا بالرغبة فى أن يقبلها ؟ أم ترى أن هذه كانت غلطته القاتلة ؟ كان يحدثها عن آمال الأمة بينما كانت هى تتوق الى الحب ... نعم ! هكذا سارت الامور ! وتكشف له فجـأة ما كان عليه من غباء . انه لم يكن يحبها ، ولكنها هى التى كانت تحبه . وبينما كان هو يسبح بين النجوم ، التقت هى بالمجرى على الأرض .

وهدأ فى اليـوم التـالى . وعندما التقى بفيرجينيا جيرمان تضرج وجهه كرجل ضبط متلبسا بجرمه . كان يود أن يقول لها كلمة رقيقة ، ولكنه لم يستطع ، وكأن الرباط الذى كان يصل بينهما قد انقطع . انها لم تعد الآن بالنسبة اليه اكثر من شخص غريب . ولم يشعر لذلك بأى أسف ، فقال لنفسه راضيا :

ـ هذا هو خير دليل على أنى لم أحبها أبدا ، وعلى أنى كنت صادقا مع نفسى !

وسرعان ما انتزعته دوامة الحياة فجـأة من أحلامه وألقت بى فى خضم الـواقع . فانه عنـدما دخل مكتب الموثق ذات صـباح وجد الغرفة ممتلئـة بالفـلاحين الثائرين الذين التفوا حول اثنى عشر ساكسونيا من باونيش ، وراحوا يسـبونهم بأقذع السـباب . ووقف قطيع من الثيران السمينة فى الطريق كأنما ينتظر مصيره . وأخبره العمدة فى كلمات قليلة بما حدث . فقد كان هناك صراع على المرعى بين أهالى لوشكا وبين الساكسونيين فى باونيش ، وقد ظلوا يتنازعون أمام المحاكم طوال الأعوام الخمسين الماضية دون أن يصلوا الى حل نهائى . وفى الربيع الماضى حصل أهالى باونيش على حكم لصالحهم ، لكن أهالى لوشكا عارضوه على أساس أنهم كانوا يستخدمون هذه الأرض المشاع منذ زمن سحيق .

وهاهم الساكسونيون قد أحضروا ماشيتهم الى هذه الأرض المتنازع عليها، معلنين أنها ملكهم · وساق أهالى لوشكا القطيع كله الى القرية وطالبوا بتغريم الساكسونيين لتعديهم على أرضهم · وعندما سئل تيتو عن رأيه أجاب بأن الرومانيين على حق · وبعد ساعتين من الشجار والنزاع رحل الساكسونيون وهم يرغون ويزبدون ، تتبعهم صحيات فلاحى لوشكا الذين كانوا يدقون صدورهم فى تحد معلنين أنهم لن يدعوا الماشية ترحل ··

بيد أن أهالى باونيش عادوا بعد حوالى ربع ساعة ، يصحبهم رقيب الشرطة · وثارت المناقشة من جديد ، واستغرقت ساعتين أخريين ، لأن المجرى أعلن أن الحق فى جانب الساكسونيين · وقال تيتو فى النهاية فى نبرة حادة ، وقد ضايقه معارضة الشرطى له :

ـ أنا لا أفهم سببا لتدخلك ، فليس لك الحق للفصل فى هذه الأمور ·

وهب الشرطى ثائرا :

ـ ماذا تعنى ؟

فأجاب تيتو ببرود :

ـ ليس لك الحق ، ليس هذا فى نطاق اختصاصك !

وصاح الرقيب :

ـ ان من واجبى أن أحافظ على النظام يا سيدى · وأنت أيضا عليك باحترامه ، والا أرسلت تقاريرى الواجبة حتى تلزم حدك ·

ولم يلبث الساكسونيون أن رحلوا مع ماشيتهم · وأحدث رحيلهم هرجا ومرجا فى القرية · وتلقى العمدة بعد أيام قليلة أنباء بأن ثوزا ساكسونيا قد أردى قتيلا فى الأرض المتنازع عليها · وفى نفس الليلة قام ضابط الشرطة بعدد من الزيارات لمنازل السكان الأكثر شغبا بحثا عن أسلحة · وثارت ثائرته اذ لم يجد شيئا ، وضرب اثنين أو ثلاثة من الفلاحين كيفما اتفق ، ثم القى القبض على فاسيلى لوبو ، وهو رجل قوى جسور يسكن فى أطراف القرية من ناحية باونيش ، ولم يكن بمنزله وقت وقوع الحادث · وبعد التحقيق والضرب المعتاد ، أرسل تحت الحراسة الى محكمة بيستريتسا · وتلا ذلك البحث عن الأدلة ·· وتم استعراض كل الأشخاص

المشبوهين فى احدى الحجرات الخالية فى دار العمدية ، واخذا وراء الآخر . ورآهم تيتو يدخلون ، وسمع زمجرة الرقيب ، ثم تناهت الى سمعه أصوات لكمات ثقيلة وتأوهات مكتومة . وفى اليوم الثالث لم يستطع الشاب الاحتمال فاندفع الى الحجرة قائلا :

ـ ان اجراءاتك تبعث على الاشمئزاز ! لماذا تعذب هؤلاء الناس ؟

فصاح الرقيب بتحد :

ـ ليس هذا من شأنك .

فصاح تيتو :

ـ أنا لا احتمل الظلم ! لم أر فى حياتى مثل هذه المعاملة الوحشية بلا سبب ..

وأجاب الشرطى وكأنه استنار فجأة :

ـ هكذا ؟ لقد أدركت الآن لماذا يثور الفلاحون على هذا النحو . لقد عرفت الآن من أين يأتى التحريض .. حسن جدا . لقد أحطت علما . والآن يا سيدى ، اننى هنا أمارس مهام وظيفتى ، وأدعوك لمغادرة الغرفة فورا !

وبعد أسبوع وصل الى لوشكا ضابط شرطة برتبة الملازم على أثر تقرير من الرقيب بأن تمردا قد حدث فى القرية ، وأنه تمرد ينذر بالانتشار . وقد وصل الضابط فى الثامنة صباحا ، وفى التاسعة جاء شرطى يستدعى تيتو للذهاب الى مقر الشرطة . واستقبله الملازم قائلا :

ـ اذن فأنت مثير الفتنة ؟

كانت هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها تيتو هذا الاتهام موجها اليه . وامتلأ فجأة بالزهو والقوة ازاء هذا الاتهام باثارة الفتنة الذى طالما عانى منه عديد من الرومانيين فى ترانسلفانيا . لقد كان يحلم منذ أمد بعيد بالتضحية من أجل القضية الأثيرة الى نفسه . وهاهى اللحظة قد جاءت ! وابتسم فى ازدراء ولم يجب . واربد وجه الضابط وهب واقفا :

ـ اننى أطلب منك الاجابة ! ما معنى هذه البلادة ؟

فتساءل تيتو بهدوء :

ـ أى بلادة ؟

ـ عليك أن تجيب على الأسئلة التى أوجهها اليك ، والا ..

فقال الشاب ونفس ابتسامة الازدراء ما زالت على شفتيه :

ـ والا ٠٠ ؟

وصاح الضابط ثائرا وقد تصبب عرقا :

ـ والا أقمت الدعوى عليك ، أتسمعنى ؟ سأرسلك الى السجن ! أنا لا أسمح لك أن تبتسم عندما أتحدث اليك ٠ لا أسمح بالمزاح ، أتفهم ؟ أنا لا أسمح بذلك !

فقال تيتو بنفس صوته الهادىء :

ـ أرى ياسيدى أن معلوماتك ليست صحيحة ، والا علمت أنى لست مصابا بالصمم ٠ فأنا على العكس أجيد السمع جدا ٠

وتميز الضابط غضبا ٠ وفتح فاه لينطلق فى السباب ، وخطا خطوتين الى الأمام ، ثم توقف ودار حول نفسه وضرب المنضدة بقبضته ٠ وجلس فجأة قائلا فى صوت مختنق :

ـ تفضل بالجلوس ٠٠ يا سيدى ٠٠

فأجاب تيتو بجدية وهو يجلس على أريكة أمام المكتب :

ـ أشكرك ٠

وغمغم الملازم دون أن ينظر اليه :

ـ نعم ٠٠ نعم ٠٠ حسن ٠٠ هذا التقرير يصفك بأنك المحرض على الاضطرابات التى وقعت هنا ٠ هل تسمح بأن تخبرنى برأيك فى هذا !

فأجاب تيتو بصوت رقيق مشوب بنبرة احترام ، تتلاءم مع لهجة الضابط الجديدة ، بينما استمر الضابط يدمدم فى سره وقد دس أنفه فى ملف أمامه :

ـ بكل سرور يا سيدى ٠٠ ولكن قبل أن أبدأ هل أستطيع أن أسأل أى اضطرابات تلك التى تشير اليها ؟

ـ الاضطرابات التى حدثت فى لوشكا ٠٠ ألسنا فى لوشكا ؟

ـ أنا لم أسمع عن اضطرابات فى هذه القرية ياسيدى ، ولو أنى ، بحكم وظيفتى المتواضعة ، فى وضع يسمح لى أن أعرف بكل ما يجرى هنا ٠

ـ التقرير صريح يا سيدى ٠٠

ـ قد يكـون التقرير صريحا ، بالطبـع ٠ ولكن لماذا لا تبحث أولا ما اذا كان التقرير صادقا أيضا ؟

ـ أتريد أن تقول أنه زائف ؟

ـ لا أستطيع أن أقول هذا يا سيدى ، طالما أنى لا أعرف فحواه ٠ ولكن ، اضطرابات فى لوشكا ؟ ٠٠ ان الاضطرابات تعنى التمرد ، الاخلال بالأمن ، الفوضى ٠٠ ولكن اذا ضرب الشرطة وعذبوا عشرات من الناس من كل الأعمار ، هكذا ببساطة ، بدافع من الحماس الزائد ، أو عن رغبة مريضة فى اكتشاف دليل ، أو شركاء فى جريمة ، أو محرضين ، بأى ثمن ـ هل تسمى هذا تمردا ؟

كان المـلازم قد هدأ وحملق فيه بدهشة ، ثم قال فى لهجـة ودية خالصة :

ـ انك تتحدث الهنغارية بطلاقة !

فأجاب تيتو وهو يحنى رأسه :

ـ نعم ، عندما لا أستطيع الحديث بالرومانية !

نظر الضـــابط اليه لحظات قليـــلة أخرى ، ونهض وراح يذرع الغرفة ، ثم جلس على الأريكة بجانب تيتو وسأله بصوت هادىء :

ـ ما الذى يضايقك يا سيدى ؟ أى مظلمة لديك ؟

فأجاب تيتو من أعماق قلبه :

ـ أن الظلم هو ما أعانى منه !

وابتسم الملازم وربت على ظهره قائلا :

ـ يا سيدى العزيز ٠ انك شاب صغير ، وخبرتك بالحياة قليلة ٠ أنت لازلت تحت تأثير الكلمات الطنانة ، وأنت تخلط بينها وبين الوجه الحقيقى للواقع ٠ من السخف أن يبنى المرء أى شىء على كلمات ٠٠ الظلم ، الظلم ! ٠٠ ألا ترى أنها مجرد كلمات فارغة ، بلا مضمون ؟ ٠٠ ومن أجل هذه الكلمات الجوفاء تضطرنى الى أن أسود صفحات من الورق وأملأها بالتقارير والمحاضر وكل ما لا طائل وراءه ٠٠ صدقنى أننى آسف جدا فى الحقيقة ، خاصة وأنك تتحدث الهنغـارية بهـذه الطلاقة ٠٠ ما حاجتك وأنت على هذه الدرجة من الذكاء وعلى هذه المعرفة الدقيقة باللغة الهنغارية ،

ما حاجتك الى أن تزج بنفسك فى أشياء لا تهمك ؟ لقد كان الشرطه متوحشين ، ولقد اساءوا معامله بعض الفلاحين ٠٠ لنفرض أن هذا صحيح ٠ آنا أصدقك ، ولو أن هذه التقارير تلزمنى بأن آكذبك ٠ ماذا فى ذلك ؟ ماذا يهمك من هذه الأمور التافهة ؟ لماذا لا تستخدم ذكاءك فى أغراض أجدى وأنفع ؟ ٠٠ ولكن هكذا أنتم أيها الرومانيون ، لا جدوى من محاوله التاثير فيكم ٠ ومن ثم تبدأون فى الصياح والصراخ عن الظلم ، وعن النير والقهر الذى تعانونه ٠٠ أتظن حقا أن العدالة شىء طيب ؟ ألا ترى أن العدالة يجب أن تكون دائما عدالة الشخص الذى يمارسها ، والا ذهبت أى إدارة أو أى سلطة الى الجحيم ٠ ألست على صواب ؟

فابتسم تيتو بحزن قائلا :

ـ لابد أنك على صواب ، ما دامت تمثل السلطة ٠

وعندما افترقا صافحه الملازم ، مما أدهش الرقيب وضايقه ، فقد كان يتوقع حجز تيتو فى سجن نقطة الشرطة ولو ليلة واحدة على الأقل ٠

ومضى أسبوع ، واستعادت القرية مظهرها المعتاد ، وكأن شيئا لم يحدث ٠ كل مافى الأمر أن الرجال الذين ضربوا أصبحوا يحيون الرقيب باحترام أكثر من ذى قبل ، كلما رأوه يسير متشامخا فى الطريق كأنه ديك منتصر ٠ وقال تيتو لنفسه بتواضع اذ مر به الرقيب ، وأحس بأنه لا بد أن يكون فى طريقه الى بيت فيرجينيا جيرمان :

ـ من يدرى ؟ لعل الملازم كان على حق ٠

وجاء فلاح عجوز ذات يوم من أولئك الذين ضربهم رجال الشرطة الى دار العمدية ، وهو رجل ذو شارب أبيض متهدل وعينين عسليتين هادئتين ٠ واذ كان العجوز يحكى عن كل ما قاساه ، أنهى قصته وعيناه تومضان بنظرة كالحة قائلا :

ـ نعم ياسيدى ، لقد ضربونا وعذبونا ، وأقروا بحق الساكسونيين، ولكن الأرض مازالت أرضنا ولا يجرؤ انسان من باونيش أن يطأ هذه الأرض بقدمه !

وتملكت تيتو الرغبة فجأة فى أن يقبله ٠ كانت نبرة الاصرار فى صوته تكسبه جلالا وعظمة ، وتثبت أقدامه فى الارض فى نفس الوقت كأنها جذور تمتد الى أعماق لا تستطيع أية قوة أن تنزعها منها ٠ وقال تيتو لنفسه متأملا :

ـ ان أملنا يكمن فى هؤلاء ٠ فان أيا منا ، سواء فى ذلك أنا ، أو فيرجينيا ، أو جروفشورو ، ليست له جذور حقيقية ؛ وما من أحد منا يستطيع أن يصمد وأن يقاسى ٠ ان الرياح تقذف بنا هنا وهناك ، وغاية ما نفعله ليس الا تظاهرا وادعاء ٠ انهم وحدهم هم القادرون على التضحية بأنفسهم من أجل الأرض ، لأنهم وحدهم يشعرون فى أعماق قلوبهم بأن الأرض هى جوهر كل شىء ٠

ومنذ ذلك اليوم أحس تيتو بأنه غريب ضائع فى لوشكا ٠ ماذا يفعل بين هؤلاء المحاربين الصامدين الصامتين ؟ لا مكان بينهم للحالمين ، سواء هنا ، أو فى بريباس ، أو فى أى مكان فى كل هذه الانحاء ٠ انهم فى معاركهم لا يحتاجون الا الى مقاتلين أقوياء وأوفياء ٠ أما الآخرون فانهم لا يبشرون الا بحياة من الوفاق والتنازلات ، وهم دائما يحطمون أجزاء صغيرة من نفوسهم حتى يوائموا بينها وبين احتياجات الحياة ٠ وتملكته فجأة رغبة عاتية فى الرحيل الى رومانيا ٠ فمكانه هناك ٠٠٠ واختفى ذلك الخوف من المجهول ، الذى كان يجعل قلبه يتقلص كلما فكر فى عبور جبال الكربات ٠ وقال ليوجينيا فى نفس اليوم :

ـ سأذهب الى رومانيا ، وسوف أرحل عما قريب ، قريبا جدا ٠٠ بمجرد أن يتوفر لدى مايلزم للرحلة من نقود ٠٠

وأصبح هذا الأمل منذ ذلك الوقت هو كل ما يحيا من أجله ٠ أمل ظل يرعاه ويجمله بحرارة وحماس كل يوم ٠ وقدر ما يلزمه من مال ، وامتنع عن انفاق أى مبلغ زهيد ، مدخرا كل راتبه الذى يتقاضاه من كينتاريانو ٠ وكان عيد الميلاد على الأبواب ٠٠ واذ أحصى مدخراته تبين فى حزن أنه يحتاج الى أكثر من ثلاثة أعوام حتى يدبر ما يحتاجه من مال٠ وعندما سمع ذات يوم بأن ألكسى كالدارارو ، وهو أحد أصدقاء الدراسة، قد عين كاتبا فى ماجورا ،كتب له بضعة سطور ٠ ووصله الرد على الفور ٠ كانت ظروف العمل أفضل بكثير مما كانت عليه فى لوشكا ٠ وأحس بحنين للعودة الى مسقط رأسه بعض الوقت ، قبل أن يتسلم عمله الجديد فى ماجورا ٠ كان قد عرف بما ألم بأبيه من كوارث ، وأراد أن يشاركه اياها ، بقوله على الأقل ٠ وأخبرته الآنسة يوجينيا فى يوم رحيله عن لوشكا ، أن فيرجينيا جيرمان قد تمت خطبتها الى رقيب الشرطة ٠ ومع ذلك ذهب تيتو لزيارتها مودعا ٠وشرد ذهنه مفكرا ، بينما كان يهنئها بعبارات تهنئة عادية : « من يدرى ما اذا كنت أنا نفسى قد انتهى الى الزواج من فتاة مجرية اذا بقيت ! »

عاد تيتو الى قريته فى وقت كان فيه والداه فى مسيس الحاجة اليه ليساعدهما فى الوصول الى حل لموضوع ظلا يناقشانه طوال أسابيع ، وعجزا عن أن يحسماه وحدهما • فقد كان من المفروض أن يبدأ هرديليا عمله مع جروفشورو فى أول شهر يناير •• هل يستطيع أن يمشى من بريباس الى أرماديا كل يوم ، سواء أكان الجو صحوا أم ممطرا ، وأن يظل هناك حتى أخر النهار ، ثم يعود سائرا مرة أخرى الى منزله فى المساء ؟ حقا لقد كان زاجريانو يفعل الشيء ذاته ، ولكن زاجريانو ليس الا شابا فتيا فى الثانية والعشرين ، بينما تخطى هرديليا الخمسين ، ولن يلبث هذا السباق ذهابا وايابا أن يقضى عليه فى أشهر قليلة • وهو اذا أقام وحده فى أرماديا ، تاركا زوجته وحدها فى بريباس ، فان هذا يعنى الانفاق على بيتين ومضاعفة النفقات • أما اذا انتقلا الى أرماديا تماما ، فماذا سيصير اليه أمر هذا المنزل • لا شك أن القس يسعده غاية السعادة أن يضع يده على المنزل الذى بناه هرديليا على أرض لا يملكها ، معتمـــدا فى ذلك على كلمة بلكيوج وصداقته •

وقال تيتو على الفور :

ــ ان الأمر بسيط للغاية ! كفا عن التبرم لهذا ، ولتذهب اليوم الى بلكيوج لتشرح له الظروف وتطلب منه أن يكتب حجـة الأرض ! لا أعتقد أنه سيرفض طلبك ، الآن على وجه الخصوص وأنت فى مثل هذه الضائقة •••

وتردد هرديليا فى الذهاب بعض الشيء ، فقد باعدت القطيعة بينه وبين القس منذ مدة طويلة ، وكان يشعر بأن فرصته ضئيلة فى الوصول معه الى أى شيء • وفضل أن يذهب تيتو ، فقد كان الخنزير العجوز يكن له ودا كثيرا •••• ولكنه عندما أخذت السيدة هرديليا تؤنبه لم يجد بدا من أن يستجمع شتات شجاعته ويذهب •

كان بلكيوج فى هذه الأيام يعيش فى حال من السعادة الدائمة • فلقد وضع أساس مبنى الكنيسة الجديدة فى الربيع ، على نحو ما تمناه وخططه ، وارتفعت جدرانها وبرجها خلال أشهر الصيف ، وغطى السقف بألواح من الصاج اللامع قبل سقوط أمطـار الخريف • كان حلم حياته يتحقق أمام عينيه • لقد كان عملا عظيما ، وقد حققه بمحاولاته الدءوبة

وحدها · كان قنعا راضيا ،وقد أفادته هـذه القنـاعة ، فيما يبدو ،من الوجهة الصحية أيضا ، فقد زاد وزنه بضعة أرطال ، واكتست وجنتـاه بلون أكثر اشرقا · وقد قطع كل علاقة كانت تربطه بآل هرديليا تماما ، ومحاهم من روحه كأنه لم يعرفهم أبدا · ولم يكن حقده عليهم يستيقظ الا عندما يمر ببـابهم ، فقـد كان اذ ذاك يتذكر ما لحقه من اهـانة على أيديهم · وكان مايزال ينتظر الفصل فى دعوى القذف التى أقامها عليهم حتى تنال زوجة المدرس جزاءها ، أما هرديليا ، فلقد أصابه ـ فيما يرى القس ـ غضب الله دون ما رحمة ·

ودهش القس وتملكه الغضـب عندما طرق المدرس بابه · ولكنه استقبله رغم هذا بابتسامته المعهودة ، وسأله بصوت ورع :

ـ هل حضرت لرؤيتى يازهاريا ؟ كيف الحال ؟

فأجاب هرديليا فى حرج :

ـ على ما يرام يا ايون ، على ما يرام ·

وتطرق حديثهما فى البداية الى المدرس الجديد ، فأثنى عليه بلكيوج ثناء عاطرا ، ولو أنه ـ فى تقديره ـ لم يكن على ما ينبغى أن يكون عليه من وقار واحترام فى مثل سنه · وأضاف أنه لا ينفرد بأية ميزات خاصة الى جانب ما أوتى من علم ·وصمت القس عندما تحدث هرديليا عن المنزل، وأطرق بعينيه الى الأرض وأخذ يقضم أظافره بأسنانه بضع دقائق ، ثم قال فى هدوء :

ـ لماذا تتعجل الأمور على هذا النحو يازهاريا · لدينا وقت طويل لهذا ···· اننا لن نهرب من بريباس ·

ـ انه ليس بأمر ذى بال فى الواقع ، ولكنه سوف ينتقص واحدة من مشاكلى ···

ـ ما كنت لأتردد لحظة واحدة ، يازهاريا ، لو أننى كنت أقرر هذا الأمر وحـدى ، تأكد من هـذا ··· ولكنك تعلم أن هـذه الأرض ملك للكنيسة · هل أستطيع أن أتصرف وحدى فى أملاك الكنيسة ؟

ـ لو كنت راغبا يا ايون ، فان الكنيسة سوف ···

وقاطعه بلكيوج قائلا وفى عينيه نظرة قرأ فيها هرديليا تهديدا مستترا :

ـ دع هـــذا الأمر قليلا يا زهاريا ـ كل شيء بأوانه ! لماذا تزعج نفسك ؟ انني لا أعترض بل أغضى عن هذا الأمر ! لا أســتطيع أن أعدك يا أخي زهاريا ٠٠٠ لا أستطيع حقا ٠

وافترقا وعلى وجهيهما نفس الابتسامة ، ولكن الحقد في قلبيهما كان أعمق ٠ وراح القس يقول لنفسه انه يفضل أن يقدم الأرض هدية الى أى فلاح فى القرية على أن يدعهـا فى حوزة أسرة أعدائه اللئـام ٠ ولم يكن هرديليا ، من ناحية أخرى ، يتورع عن أن يمسك بهراوة يحطم بها رأس الرجل الذى يحاول أن يجرده من ثمار كده على مر السنين ٠

وبدد عيد الغطاس كل أمل فى الصلح بينهما ٠ كان آل هرديليا ينتظرون أن يحضر الأب بلكيوج ، بصليبه ومائه المقدس ، كما جرت عادة المسيحيين كافة ٠ ووصل القس ناحية بيت هرديليا بعد الظهر تقريبا، فقد بدأ جولته فى النـاحية الأخرى من القرية ٠ ورأوه يدخـل بيت فلوريا تانكو ، ثم دار جلانيتاشو ، ثم مر بباب المدرس وتخطاه الى دار ماكيدون سيرسيتاشو ، ثم سار مبتعدا ٠٠٠٠ وتمتمت السـيدة هرديليـا فى أسى :

ـ انظر ٠٠٠٠ انه لن يحضر الينا ٠

وأثارت هذه الواقعة سـخطا لا حدود له فى بيت المدرس ٠ وقال تيتو وهو يرسم علامة الصليب :

ـ لم يسمع أحد بمثل هذا ٠ ان قسا أمينا لا يحلم مطلقا بالهبوط الى مثل هذا الدرك ٠

وصاح هرديليا فى غضب :

ـ لن أصفح عنه هذه المرة ! لن أصفح عنه حتى لو رأيتـه ميتا أمامى ٠ سأقدم اليوم شكوى فى حقه الى الأسقفية ٠٠٠٠ سوف أجعل هذا الوحش الملعون يأتى الى هنا فى حر الصيف بصليبه ! ٠٠٠٠ سأجعله أضحوكة للقرية كلها ٠

وجلس المدرس من فوره يكتب الشكوى ٠ واهتزت نظارته على أنفه غضبا ٠ وأخذ تيتو والسيدة هرديليا يلعنان بلكيوج فى عنف صاخب ٠ وصاح هرديليا من وراء مكتبه :

ـ اتركاه لى ! لقد خدعنا هذه المرة خدعة قذرة ، لكننى سـألقنه

درسا يذكره بى دائما ٠٠٠٠ وسوف أريه من أنا اذا تجاسر على المساس بهذا البيت ٠ فليحاول ٠٠٠٠ هذا الجثة المتحركة ! ســـوف أحكم اغلاق المنزل ، وأضع الأقفال والاختام عليه ، وليكسرها ويفتحه فى غيابنا اذا واتته الجرأة ٠ ذلك الخنزير ! ذلك الوغد الخسيس !

- ٧ -

وفكر تيتو ، وهو يرى المشـــاكل التى تكومت على ظهر أبيه تكاد تسحقه : « هذه هى الحياة ٠٠٠٠ قاسية لا ترحم ! ٠ »

لم يكن قدتبين قبل اليوم فيما يبدو ذلك العذاب والصراع اليومى الذى يواجهه والداه ، وسلسلة المشاكل الصغيرة المتنوعة التى تتتابع على غير توقع واحدة وراء الأخرى لتشكل نمط حياة والديه ٠ وكان ايمانهما المتجدد دائما ، الثابت أبدا ، والذى قد يكون بطوليا ، يملأ قلبه بفيض من مشاعر الاشفاق ٠ وكان هذا الطريق الشائك المتواضع الذى لاينتهى، الذى يناضلان عليه بلا هدف ، يتعثران فى نفس العقبات ، ويتعللان بنفس الآمال دائما ، يشيع الرعشة فى أوصاله ٠ وتساءل تيتو : ترى ماذا يفعل والده اذا ما جاء اليوم الذى تهتز فيه فجأة هذه المقاييس ، ورأى بوضوح عبث كل هذا التوتر والكدح المضنى ؟

وعندما رحل تيتو بقلب يفيض بالأسى ، قبل يدى والديه باجلال كانهما قديسان ٠ أما هما فقد كانا سعيدين اذ رأيا ولدهما يختط لنفسه طريقا جادا فى حياته ٠

ورحل الى ماجورا فى عربة ايون ؛ وهى عربة جديدة ذات جوادين مطهمين كان قد حصل عليها حديثا من حميه ٠ وفى الطريق ، أخبره ايون بزهو كبير بما أحرزه من نصر على فاسيلى باكيو ٠

وقال الفلاح الفتى وهو يلتفت الى تيتو وفى عينيه نظرة اعتراف بالجميل ٠

ـ لو لم تنصحنى أنت يا سيد تيتو بما ينبغى على عمله ، لأصبحت الآن أسوأ من أى نورى !

وسأله الشاب فى دهشة :

– أى نصيحة تلك التى قدمتها لك ؟

فقال ايون :

– كيف ··· لعلك لا تعنى أن تقول أنك قد نسيت تمـــاما ؟ ألا تتذكر أنك قلت لى ، منذ ما يقرب من عامين ، أنه ينبغى أن أجبر العم فاسيلى على أن يعطينى أنا ؟

وأجفل تيتو · لم يكن قد تخيل أبدا أن كلمة عابرة يمكن أن تؤدى الى تغير شامل فى حياة انسان · لقد بدا له سلوك ايون ازاء أنا وفاسيلى باكيو مشينا وغير مفهوم · وسأله ، يدفعه شعور من شارك ، على غير ارادة منه ، فى أعمال ايون المشينة :

– وماذا عن حميك ؟ ···· هل تركته مفلسا ؟

فابتسم ايون فى جذل :

– كل الأرض ملكى الآن ، يا سيد تيتـــو ! كلها ! ···· كل ما أرجوه هو أن ينعم الله على بالصحة حتى أزرع هذه الأرض التى أملكها ·

وارتجف تيتو عندما سمع ذلك الرنين الحار فى صوته · وأفزعه ذلك العناد والاصرار ، وتلك الأنانية والقسوة التى انطلق بها هذا الرجل الى هدفه ، لا يحيد عنه يمينا أو يسارا · وحلقت أفكاره الى ما عاناه هو من تذبذب وتردد طوال هذا الوقت ، وما أحس به من ضياع وعجز ، وجريه وراء الأوزات البرية ، وسعيه وراء مثل مهتزة غير محددة ··· وجعله هذا كله يشعر بضآلته الى جوار هذا الفلاح الذى سار الى الأمام بخطوات ثابتة ، يزيح من سبيله كل عقبة بغير اكتراث ، ويشق طريقه بعزم لا يكل ، تحركه الى ذلك مشاعر طاغية · بينما راح هو – تيتو – يهدهد آماله الغامضة ، ويضع من الخطط أكبر مما يستطيع أن يحقق ، ويعيش فى جنة المجانين ، بينما تمضى الحياة فى طريقها لا تلوى على شىء · وأطبق على قلبه شعور بالوحشة · وتمتم آسفا ، وهو يحس باخفاقه فى أن يسير نحو هدف واحد بتصميم وارادة :

– لا يعطى الحياة أى قيمة حقيقية ســـوى وحدانيـــة العقل التى لا تهتز ·

استيقظت الطبيعة من سبات موتها · وتمزق الشتاء كعجوز شمطاء قبيحة ، وأخذ ظله ينحسر كلما تقدم الربيع بلمساته المضطردة دفئا ·· وحنوا · وتهلهلت عباءة الجليد فلم يبق منها الا ندف تكشف عن سطح الحقول الأسود ·

وانتظر ايون مقدم هذه الأيام فى شوق بالغ · لقد أصبح مالك الأرض كلها ، فكان يتوق الى رؤيتها بعينيه ، والى الحدب بها ، وكأن كل قطعة منها حبيبته المخلصة · لقد نظر اليهـا عبثا وهى غارقة تحت أكوام من الثلج ، فما كان حبه للأرض يرتوى دون أن يصل منها الى القلب· وما كان يرضى بأقل من أن يعلق طينها بنعليه ، وأن تكتحل عيناه برؤية لونها الفج ، وترتوى بأطيافها المسكرة ·

وخرج وحده يوم الاثنين ، خاوى اليدين ، يرتدى حلة اجازاته · وصعد المنحدر الى لونكا ، حيث يوجد أكبر حقول الذرة وأكثرها خصبا فى أعلى التـــل ···· ورأى الارض بوضوح متزايد مع كل خطوة تقربه منها ، وقد نضت عنها غطاءها الجليدى ، كأنها فتاة جميلة عارية تستعرض جسدها الفاتن العارى ·

كان قلبه غارقا فى السعادة · لقد حقق أسمى أمانيه فلم يعد يرغب فى شىء آخر · كان فى ذروة سعادته · فالأرض ــ كل الأرض ــ تتمدد تحت قدميه ، تدين له بالولاء ···· انها ملكه ، كلها ملكه ، وملكه وحده ····

وتوقف فى وسط الحقل ، وعلقت التربة السوداء اللزجة بقدمه ، تجذبه الى الارض ، وتحتضنه كأنهـــا امرأة محبه والهة · والتمعت عيناه بالفرح البالغ ، وغرق وجهه الذى احتقن بما يجيش فى نفسه من عواطف فى عرقه الدافىء · وتملكته رغبة جامحة فى أن يحتضن الأرض ويسحقها بقبلاته · ومد يديه الى خطوط المحراث الخشنة الرطبة · كانت روائحها النفاذة بعبيرها الغنى الفج تثير الدماء فى عروقه ·

وانحنى ، والتقط حفنة من التراب فى يديه ، وسحقها بين أصابعه يخالجه مزيج من الفرح والخوف · وبدت يداه وقد تلطختا بالطمى اللزج ، كأنما يرتدى قفازات سوداء · وفرك يديه وجذب نفسا عميقا ليملأ صدره بعبير الأرض ··

وخر ساجدا على ركبتيه ، ببطء وخشوع ، وهو لا يكاد يدرك ما يفعل ، وأحنى جبهته وضغط التربة الندية بشفتيه في شوق . وفي نشوة هذا العناق المفاجيء ، شعر برجفة مسكرة تسرى في كيانه ....

وهب واقفا فجأة في حرج ، وألقى بنظرة خاطفة فيما حوله ليتأكد من أن أحدا لم يره ، ووجهه ما زالت تكسوه ابتسامة نشوة طاغية .

وعقد ذراعيه على صدره ، وجرى لسانه على شفتيه اللتين علقت بهما لسة الأرض الباردة ومذاقها الحلو المر . وبدت القرية عن بعد في حضن الوادى ، كأنها عش طـائر مخبأ في كهـف حتى يكون بمأمن من الصقور .

وأحس ايون في داخله بكبرياء وقوة مارد الأساطير الذى قتل حشدا من الوحوش المخيفة بعد معركة وحشـــية دامية . ودفع بقدميه في الأرض بعمق كأنه يخمد الأنفاس الأخيرة لعدو مهزوم . واهتزت الأرض ، وارتعشت ثم سجدت أمامه في خشوع .

الفصل العاشر

المشنقة

— ١ —

عثر هرديليا على مسكن فى أرماديا فى منزل جيتسابوب كاتب المحكمة . وكان المسكن مريحا ورخيصا ، وبه شرفة وحديقة صغيرة . وهكذا انتقلا بعد عيد الغطاس مباشرة الى المدينة الصغيرة بكل ما لديهما من متاع . ورحلا فى المساء « حتى لايتسنى للغرباء أن يحدقوا فى أشيائهما الصغيرة » على حد تعبير السيدة هرديليا . أما الكوخ الذى كانا يشغلانه فى بريباس فقد تركاه خاليا مهجورا كأنه جثة سائل مسكين لا يجد من يعرفه أو يهتم به .

وكانا يحلمان طوال الوقت بأنهما لا يزالان فى بريباس ، ويشعران بالحزن كلما استيقظا فى حجرة غريبة حتى اعتادا على حياتهما الجديدة . وكانا يشعران بالسعادة كلما جاء الفلاحون القادمون من بريباس الى أرماديا لزيارتهما ، ويستفسران بشغف عن كل ما طرأ على البلدة من أحداث . وعلما بمزيد من الاهتمام أن الابن الأكبر لتريفون تاتارو الذى أنهى فترة تجنيده فى الجيش فى الخريف الماضى يستعد للزواج ، وأن جورج ، ابن توما بولبوك قد عقد خطبته على فلوريكا ، ابنة أرملة ماكسيم أوبريا ، وأن الابن الأصغر لستيفان ايلينا قد التوى كاحله وهو يتزحلق

على الجليد أمام بوابة منزلهم ، وأن المدرس الجديد قد حرم على الأطفال الحديث بغير اللغه الهنغارية وأنه يضربهم اذا سمعهم يتحدثون بالرومانية حتى ان التلاميذ المساكين يقفون فى فناء المدرسة هادئين وادعين كالخراف، لا يجرءون على فتح أفواههم ٠٠ حتى السيدة هرديليا التى كانت تكره دائما أن تختلط بالعامة من الناس ، صارت ترحب الان بهم بقلب مفتوح كأنهم أقرباء أعزاء ، وتضحك معهم وتدعوهم للجلوس على أفضل مقاعد غرفة استقبالها ، غير عابئة بما يصيب أبسطتها من قذارة بفعل نعالهم الملطخة بالوحل ، وتتحدث اليهم حديث الحسرة والشكوى من أرماديا ومن الذين فرضوا عليها أن تغادر مسكنها الهادىء فى بريباس ٠

أما هرديليا فقد كان لديه عمل كثير ٠ ولم يكن يأبه للعمل الشاق، فقد كان جروفشورو يحيل اليه أعمالا اضافية يأتى من ورائهـا ببعض المال بالاضافة الى مرتبه ٠ ولم يكن يمر يوم دون أن يئوب من مكتبه الى بيته ووجهه يتألق ظفرا ، فيلقى على المنضدة بمـا كسب من مال وهو يصيح فى زهو :

ـ هاك يا فتاتى العجوز ! ٠٠ حسن ، هل أنت الآن سعيدة ؟

وكان جروفشورو نفسه أعظم مصدر لما يشعران به من رضى ٠ ولم يكف هرديليا عن التعبير عن ندمه لأنه أساء الى أطيب انسان فى الدنيا ٠ وقد ازداد جروفشورو بدوره فى الحقيقة شغفا به ، وعلى الأخص عندما أيقن كم كان هرديليا سكرتيرا قديرا دءوبا على العمل ٠ وكان بين الحين والحين يدعوه « بالمرتد » فى لهجة تمزج بين الجد والمزاح ، تأنيبا منه لما حدث فى الماضى ٠ وكان هرديليا يجيب معبرا عن تكفيره عن الماضى ووعده بالنسبة للمستقبل قائلا :

ـ ستجرى انتخـابات أخرى يا سـيدى فى القريب ! لا تخش شيئا فسوف نجعل منك عضوا فى البرلمان قبل وفاتك ٠

واذ ذاك كان جروفشورو يبتسم راضيا وقد اسكره الثناء ، فقد كان يتطلع فى تصميم الى الانتخابات المقبلة ٠ لقـد كان رجلا طيبا حقا فى واقع الأمر ، ولقد تأثر كثيرا لما أصاب المدرس من بلاء بعد أن توثقت معرفته به ، وأخذ يطلع الناس على نكبة هرديليا بعد أن أضاف الى القصة رونقا وطنيا ساميا ٠ ولم يلبث هرديليا أن أصبح « شهيدا » فهو « المدافع الصلب عن الفلاحين » و « ضحية انتقـام المجريين » ٠ وكثيرا ما كان أحدهم يتوقف فى الطريق ويصافحه بحرارة وهو يهمس :

ـ أجل ، لقد سمعت بما جرى لك · لقد حدثنى عنه جروفشورو ·· أف ، يا لهم من وحوش ! يا لهم من وحوش !

وكان ذلك يسره ، وان مضى يهز رأســه آسفا ؛ فقد ظل رغم كل هذا العطف موقوفا عن عمله كمدرس ، مجبرا على ترك كوخه فى عناية الله كى يعمل بدأب ليكسب عيشه ويبقى نهبا للمخاوف من ألا يستمتع فى شيخوخته بسكينة النفس التى كان يعتبرها حقا له ·

وعندما حل موعد الجلسة الثانية فى الدعوى التى رفعها بلكيوج ، أراد هرديليا أن يستخرج شهادة طبية أخرى تقرر أن السيدة هرديليا ، المتهمة فى القضية ، مريضة ولا تستطيع المثول أمام المحكمة · ولكن جروفشورو ، الذى كان قد علم من هرديليا بما بدر من القس من سلوك شائن فى عيد الغطاس ، أشار عليه بعكس ذلك صائحا :

ـ دع القضية تأخذ مجراها ، ولسوف أزلزل كيانه بطريقــة لن ينساها أبدا !

والحق أن جروفشــورو جعل بلكيوج يتلوى حتى صعد الدم الى عينيه وتتابعت الالوان فى وجهه عدة مرات ، وغص حلقه وأعلن بمحض ارادته فى النهاية تنازله عن الدعوى · وعندما أعلن المحامى آن المدعى ذو طبيعة حقودة محبة للانتقام ، وأنه آخل بواجباته الكهنوتية ، فلم يذهب بالماء المقدس والصليب الى دار أسرة مسيحية كريمة (وهو أمر سيحاسب عليه ، على أية حال ، أمام السلطات الكنسية المختصة) انفعلت السيدة هرديليا فلم تستطع أن تمنع نفســها من أن تتمتم أمام المحكمة قائلة : « ذو الشعر المنفوش ! »

وأكد جروفشورو لهرديليا بعد ذلك أنه ليس هناك ما يدعوه الى القلق بشأن الحكم الصادر ضده أيضا · وأخذ على عاتقه أن يخرجه من القضية سالما غانما · أما الايقـــاف فهو شىء تافه · بل انه لشرف أن يوقف المرء عن عمله جزاء قيامه بواجبـــــه الوطنى فى الدفاع عن فلاح مضــــطهد أما القاضى فمن حسن طالعه فى الحقيقة أنه نقل من منصبه ؛ فلو أنه لا يزال يشغل هذا المنصب لساء وضعه فى المدى الطويل ، لأنه سلك سلوكا غير عادل وتمادى فى أســـلوبه المجرى المتعالى أكثر مما ينبغى · وعندما كان هرديليا يعبر عن شكه ومخاوفه ، وقد أخذ نفسه بالحيطة بعد تجربته السابقة الحزينة ، كان جروفشــورو يســتشيط غضبا ، ويصيح ويقسم بأن « يزيل شاربه لو لم يتمكن من اثبات براءته ورفع كل عقوبة عنــه · » ولم يكن هــذا الوعد ممــا يمكن التقليل من

شأنه ، فقد كانت أرماديا كلها تعرف أن شارب جروفشورو أعز لديه من حبة عينه ذاتها ، وأن الحلاق يزوره كل يوم فى بيته ليغسل شاربه ويضمخه بالطيب ويعقص أطراقه المجدولة ٠

وعادت جيجى من فيرياج بعد انقضاء ما يقرب من شهر على استقرارهما فى ارماديا ، بعد ان وضعت لورا طفلة ٠ وتكدرت جيجى بعض الشيء بشأن منزلهم الذى تركوه مهجورا فى بريباس ٠ بيد أنها لم تلبث أن تلاءمت مع الوضع الجديد ٠ وأصبح باستطاعتها الآن أن ترى كل يوم أصدقاءها الذين كانوا يفدون الى حفلات الشاى التى كانت تقيمها ، كما أصبح بوسعها أن تزورهم اذا لم يأتواهم لزيارتها فى بيتها ٠ كذلك أصبح باستطاعة شباب أرماديا أن يروها أكثر من ذى قبل ، وأن يظهروا اهتمامهم بها ويتوددوا اليها ، وينشدوا لها أغنيات الحب بين وقت وآخر ٠٠ وذهبت الى الحفل الراقص الذى أقيم فى نهاية شهر فبراير بصحبة والديها ، واستمتعت به أيما استمتاع ٠ فقد ظل زاجريانو يحوم حولها طوال المساء ٠ ورغم أنها عاملته ببرود فى بداية الأمر بوصفه أحد الأشخاص المسئولين عن نكبة أسرتها ، الا أنها أقنعت نفسها فى النهاية بأنه شاب لطيف ، واسع الاطلاع ، مهذب حسن السلوك ، وهى صفات أقرت بها السيدة هرديليا نفسها ٠

وبدأ زاجريانو منذ عادت جيجى يكثر من زياراته لآل هرديليا طلبا لنصيحة العجوز وتوجيهاته بشأن المدرسة ٠ ولم يكن يفوته بطبيعة الحال ، بعد أن يفرغ من هذه المهمة ، أن يتحدث مع الآنسة الصغيرة وقد اكتسى وجهه بمسحة من الحزن وراح يتنهد بين الحين والحين ٠

وقد اعترى جيجى بدورها شيء من التغيير خلال اقامتها لدى شقيقتها ٠ لقد أصبحت سيدة صغيرة بالفعل رغم أنها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها بعد ٠ وقد نما عودها وامتلأ قوامها نوعاً ، وتخلت عن سماتها الطفولية دون أن تفقد مرحها المنطلق على سجيته ٠ وشاع بريق أكثر التماعا فى عينيها الزرقاوين اللتين بدتا كأنما تخفيان حنينا الى شيء لم تتحدد معالمه ٠٠ وروت بحماس لوالديها الهرمين عن السعادة والوفاق اللذان تعيشهما لورا مع بنتيا ٠ فما من مرة واحدة سمعتهما يتشاجران ، أو حتى يختلفان على أبسط الأمور ، طوال أربعة شهور ونصف شهر قضتها معهما ٠ فقد كان جورج يحدب على زوجته أشد الحدب ، بينما كانت هى توافق على رغباته وتحدس أفكاره ذاتها ٠ أما الطفلة فقد عمدها كبير قساوسة بايا مارى وأسمياها ماريا تيمنا باسم

السيدة هرديليا . ولسوف يصل ثلاثتهم فى فصل الصيف الى أرماديا على وجه التأكيد ، وعندئذ سوف يذهبون جميعا الى حمامات سينجيورز، حيث ينتظر أن يصل اقرباؤهم القادمون من رومانيا أيضا .

- ٢ -

رغم أن ايون كان يتيه مزهوا شأن كل المنتصرين ، الا أنه لم يزل يستشعر فى أعماق نفسه خواء غريبا . لقد شغل ذهنه بفلاحة أرضه ، لكن قلبه ظل كأنما يجول دائما فى قلق ، باحثا منقبا عن شىء ما .. وعندما عرف أن فلوريكا ، ابنة ماكسيم ، سوف تتزوج من جورج بولبوك ارتجف كيانه ألما ، وصاح بغضب كأن أحدهم قد سرق أكثر أجزاء أرضه خصبا وأكبرها مساحة :

– لماذا تتزوج ؟ ما السبب ؟

كان النضال من أجل الأرض قد استحوذ عليه ، فلم يفكر فى أى شىء أو أى شخص آخر . لقد شعر أنه ليس فى الامكان أن يحدث أى شىء ، فكل ما فى القرية يجب أن يقف بلا حراك ليشاركه معركته القاسية أو على الأقل ليراقبه وهو يخوضها . لذلك ثارت دهشته وغضبه معا لأن الناس انصرفوا الى شئونهم كما انصرف هو الى شأنه ، وأن العالم قد استأنف سيره المعتاد غير عابىء بوجوده .

وأجفل كأنه شخص يستيقظ من حلم . وتذكر كم أحب فلوريكا ، ولم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن ترغب فى الزواج من شخص آخر بينما هو لا يزال موجودا ، ولا يزال يحبها باعزاز كما أحبها دائما . وطافت بذهنه ذكرى رقصة زفافه ، عندما قال لها أنها هى المرأة الوحيدة التى يحبها . غير أنه نسيها بعد ذلك تماما كأن الأرض قد ابتلعتها . وها هو الندم ينهش قلبه . وود لو استطاع أن يعدو الى فلوريكا ليخبرها أنه ما زال يحبها ، وليأمرها بألا تتزوج . ثم اذا به يصحو من غيبوبته خجلا . انه رجل متزوج ، وله طفل ، ولا شك أن الناس سوف يهللون وراءه فى الشوارع ؛ ولا شك أن فلوريكا سوف تقصيه مغلوبا على أمره .. آه ، لو اختفت أنا من الوجود ..

وزاره نفر من أصدقاء العروسين يدعونه الى حفل الزفاف ، فأجابهم فى مرح بأنه سوف يحضر بالتأكيد .

أحدث زواج ابن توما من فتـــاة فقيرة معدمـة ضـجة كبيرة في بريباس • وهلل المعدمون من النـاس على الاخص لانه اختار فتاة فقيرة كشريكة لحيـــاته ، وأعلنـوا بصراحة أن جورج لن يلبث أن يبدد ثروة الرجل العجوز • وعندما كان توما يسمع هذه الاقاويل كان يجيب دون أن يسأله أحد :

ـ اننى لا أزج بنفسى فى شئونه ، فليس هذا من شـأنى •• انه هو الذى سيعيش مع الفتاة لا أنا • لقد قلت له دائما : « افعل ما بدا لك يا ولدى ، افعل ما يحفزك قلبك على فعله • اننا لا نعبأ ما اذا كانت الفتاة ذات مال أم لا ، فان لدينا والحمد لله ما يكفينا • » اننا أبعد ما نكون عن أن نصبح شحاذين • واذا كان يحب الفتاة ويريدها ، فعلى بركه الله • خير للانسان أن يلقى بنفسه فى نهر ســـومش من أن يعيش مع امرأة كالوباء تحت سقف واحد •

وكان جورج مزهوا الى أبعد الحدود • فقد أثار غزوه لقلب فلوريكا خيلاءه على نحو هائل ، فكان يعتبر هذا الزواج تتويجا لنصر غير مألوف ولا معهود •

فمنذ أن تزوج ايون جلانيتـــاشو من أنا ، أصبح جورج زعيمـــا للعزاب من شباب القرية ، الأمر الذى عوضه الى حد ما عن الهزيمة التى لقيها من غريمة • ولم يستطع فى أول الأمر أن يعقد عزمه على الزواج ، رغم أنه قد آن له أن يتزوج • وكان أبوه يســـتحثه دائما على الزواج والاستقرار ، لكن جورج كان يؤجل هذا الأمر باستمرار حتى يستمتع ما شاء له الهوى بزهوه بزعامته لشـباب القرية ، فيشـاركهم فى كل مغامراتهم الطيب منها والخبيث ، فى رقصاتهم أو فيما ينشب بينهم من معارك • بل انه كان يقول فى تعال أنه ما من فتاة جديرة به فى القرية كلها • وما كان يدرى أن قوله هذا كان حقا الى حد ما • فلم تكن أى فتاة تجتذبه الا اذا لاحظ أن شخصا آخر يتودد اليها ، وأحس بأن فى حصوله عليها غلبة على غريمه وقهرا •

وتلقى جورج فى الخريف الماضى صدمة لكبريائـه كزعيم لجيل الشباب • كان نيكولاى تاتارو ، ابن تريفون ، قد عاد لتوه من الخدمة العسكرية • وكان نيكولاى شـابا صـلب العود ، ذا وجه جهم وقلب طيب • كما كان متعلما الى حد ما ، فقد قضى ثلاث سنوات بالمدرسـة الثانوية فى أرماديا ، ولم ينقطع عن الدراسـة الا لرسـوبه فى الصف الثانى عامين متواليين • ومع هذا فقد ظل يحن الى العلم ، وعندما كبر

قليلا اشترك فى جريدة فوايا بوبورولوى الأسبوعية ، فكان فى أيام الآحاد يتلو ما بها من أنباء على والديه وجيرانه الذين كانوا يجلسون على السقيفة ، ويصغون فى شغف الى ما يجرى فى الدنيا • وقد ترقى فى الجيش حتى وصل الى رتبة الرقيب ، وكان يفاخر بأن قائد السرية قد اقترح بنفسه أن يبقى فى الجيش برتبة رقيب أول • وقد خرج من الجيش أكثر دراية بالحياة ، وكان يتحدث بلهجة حازمة كأنه يصدر الأوامر باستمرار ، ويسير بخطوة عسكرية وقامة منتصبة كشجرة الصنوبر • وكان فى كثير من الأحيان يصيح بالألمانية ببعض الألفاظ ، الأمر الذى كان يبهر الشباب ، بل والكبار من القرويين أيضا • واعتاد ماكيدون سيرسيتاشو أن يقبله فى الحانة كل يوم أحد ، ويتحسر لأن ولده قد هرب من الجيش ثلاث مرات وجعل منه أضحوكة • وكان نيكولاى شابا هادئا رصينا ، وكان يفكر فى الزواج بأسرع ما يمكنه حيث كان كل أقرانه من الرجال قد تزوجوا ، بل وأصبحت لهم عائلات • ولكنه اذ كان لديه ستة من الأشقاء أصغر منه فى البيت ، فقد كان يبحث عن فتاة لديها بائنة ومنزل يستطيع أن ينتقل اليه حتى يخفف من حمل والديه • وحتى يعثر على الفتاة التى يريدها ، كان يخرج مع فلوريكا ، ابنة أرملة ماكسيم ، التى كان يجد متعة فى اصطحابها الى حلبة الرقص ، فقد كانت جميلة وذكية رغم أنها فقيرة كفأر الكنيسة •

ولم يلبث جورج أن شعر بأن نجمه يأفل بسبب نيكولاى • وقرر على الفور أن يرد بضربة قاصمة • وعندما رآه يخرج مع فلوريكا ، وسمع ما تردد من شائعات بأنها تفكر فى الزواج من نيكولاى ، حزم أمره بسرعة وتودد اليها ، وأنهى الصفقة لصالحه سعيدا بأن انتزع الفتاة من تحت أنفه •

واستولى على فلوريكا فرح غامر ، فلم تكن تحلم أبدا بأن يكون لها من حسن الطالع ما يمكنها من الزواج من ابن مزارع ثرى مثل توما بولبوك • فهى منذ أن بلغت العشرين من عمرها كانت على استعداد لأن ترضى بأى انسان حتى تجد نفسها فى بيت خاص بها ، فلم تكن لها بائنة من أى نوع سوى بضع ممتلكات ضئيلة عديمة القيمة •

وأقيم حفل الزفاف فى منزل جورج الجديد ، وهو المنزل الذى بناه له والده حديثا • وقام ثلاثة من القساوسة بمراسم الزواج فى الكنيسة ، وأصر توما على أن يحضر ثلاثتهم المأدبة ، حيث استطاع أن يدفع كاهن أبرشية ساراكوتسا الى شرب البيرة حتى ثمل تماما • فقد

اشترى ثلاثة براميل من البيرة خصيصا للصفوة من ضيوفه • وقد اختير ستوسيل ليكون كفيلا للعروسين • فرغم أن ستوسيل كان يهوديا ، الا أنه كان شخصية بارزة للغاية بصفته موثقا للعقود • وقد وصل ستوسيل في عربته الصفراء الجديدة ، تصحبه زوجته وأطفاله • وبقي طوال الليل ، وعندما طاف به طبق العروس ألقى فيه بورقة من فئة المائة ريال ، على العكس من كاهن ساراكوتسا الذى لم يضع سوى عمله فضية ضئيلة وأضاف شاكيا أن كنيسته هى أفقر الكنائس الكائنة فى وادى نهر سومش •

أما جورج فكان بين الحين والحين ينظر فى زهو وانشراح الى نيكولاى تاتارو ليرى كيف كان الأمر يؤلمه • وبينما كان ينظر الى ضيوفه المحرمين طالعت عيناه فجأة عينى ايون جلانيتاشو اللتين كانتا تحدقان فى فلوريكا وتتعلقان بهـا كدودة من ديدان العلق • وافزعته هاتان العينان النفاذتان الملتمعتان القلقتان • وبدا له أنهما تنذران بالخطر • وتهلل فى البداية اذ رأى كم كان ايون يشتهى فلوريكا • وأحس بان هذا هو انتقامه لكل ما كان عليه أن يحتمله منه • ولكن شعورا بالخوف تسلل الى قلبه ، خوف عجز عن تبديده ولو بجرعة كبيرة من البراندى • ولم يهدأ الا عندما أدار عينيه الى فلوريكا فرأها تجلس وقد أطرقت بعينيها المخضلتين بالدموع ، على نحو ما يليق بعروس ، بينما افترت شفتاها الحمراوان الرقيقتان عن ابتسامة فرحة • وقرر ألا يعبأ بايون ، ومع ذلك فاجأ نفسه فى اللحظة التالية وهو يرقبه بعينيه • وظل ايون طوال الوقت يحدق الى فلوريكا كأنما يعانقها فى قبلة مشبوبة العاطفة فما من قوة فى الأرض تستطيع أن تفرق بينهما •• ووقعت عينا جورج بعد فترة على انا بوجهها الشمعى المحتقن ، وقد جلست الى جوار زوجها كأنها تجلس على شوك وتبتسم فى حياء • واذ التقت عيناها بعينى العريس ، همست فى أذن ايون بكلمة زمجر على اثرها باقتضاب دون أن يدير رأسه ، كاشفا عن أسنانه كأنه كلب يوشك أن يعض شخصا • وغاضت الابتسامة من وجه المرأة لحظة ، غير أنها ما لبثت أن عادت من جديد أكثر برودة من ذى قبل •

أحست أنا منذ بدء حفل الزفاف بما يجيش فى نفس ايون من رغبة فى فلوريكا • وكان هذا كفيلا فيما مضى بأن يسبب لها تعاسة لاحد لها ، أما الآن فلم تكن تشعر بغير الخجل الذى يلفح قلبها اذ يشهد الجميع اهمال زوجها لها •• وأخذ هذا الشعور بالخجل ينمو شيئا

فشيئا الى شعور بالنفور والملل • وبدأت الدنيا تميد بكل ما فيها فى مياه موحلة قذرة لا يطفو فوق سطحها الا شعور بالتقزز كأنه رائحة سامة • وأغمضت عينيها ، بيد أنها ظلت ترى هذه المياه ، وأخذت يد ثقيلة تدفعها نحوها ، كأن هذه المياه هى الملاذ الذى سوف تغسل فيه فى النهاية كل آثار المعاناة والأسى •

وعندما اتخذا طريقهما فى الصباح الباكر الى بيتهما ، كانت ساقاها ثقيلتين كالرصاص ، وحذاؤها الجديد يئن شاكيا على الأرض المغطاة بالجليد الهش ، وعصفت بقلبها موجة مرعبة من البرودة فجمدته• ومشى ايون بخطوات بطيئة ثابتة ، يزفر مثل ثور جائع وقد ألقى الى الخلف برأسه التى انتصبت عليها قبعة من الفراء بكبرياء كأنها عرف ديك أسود اللون • سار دون أن يلقى اليها بنظرة ، كأنه لا يعرفها أصلا • واختنقت بتعاسة مطلقة ، ودهشت اذ سمعت صوتها يقول فجأة بصوت عال دون ارادة منها :

ـ سوف أقتل نفسى يا ايون ••

ولم يكلف زوجها نفسه عناء النظر اليها • وتملكه الغضب فجأة كأن شخصا قد أيقظه من حلم لذيذ ، فزمجر بلا مبالاة نافثا بدفعات من البخار الأبيض :

ـ حسن ، اذهبى واقتلى نفسك ، فربما قدر لى أن أتخلص منك على هذا النحو •

وارتجفت أنا • وصمتت برهة لتلتقط أنفاسها •

ودارت بها الأرض وبدأت تتأرجح كما لو كانت تقتلع فجأة من جذورها • وبدت المياه الموحلة العطنة كأنها تفيض فوق كل شىء وتغرقه ، وتهدد باكتساحها واجتذابها الى دوامتها التى ليس لها قرار • ومدت يدها باحثة عن عون ينقذها من القبضة القاتلة • وحاولت أن تصرخ فى طلب النجدة ، ولكن شفتيها قالتا فى همس يائس :

ـ سوف أقتل نفسى ••

ولم تستطع حتى أن تتبين ملامح صوتها •

- ٣ -

ـ « كان بامكانى ان أكسب القضية وأدفع بها الى عياهب السجن • ولكن كيف يتسنى لى أن أحارب امرأة ؟ يكفى اننى أزعجتها تماما ولقنتها درسا • »هكذا خاطب الأب بلكيوج نفسه عندماانقضت دعواه ضدالسيدة هرديليا ، وألمح الى أنه لا يحمل لها أى ضغينة رغم ما منى به من هزيمة •

فمنذ انتقل آل هرديليا الى أرماديا ، بدأ سخطه عليهما يخف شيئا فشيئا ، تاركا مكانه لشعور بالسأم لا يمكن وصفه • كانت كل النكبات التى حاقت بالمدرس تبدو له حتى الآن وكأنها عقاب عادل ، وقد أحس بالفخر اذ ساهم بنصيب فى احداث هذه النكبات ، وتوجها بما يكاد يكون شكلا من أشكال الحرمان الكنسى ، برفضه أن يدخل منزلهما فى يوم عيد الغطاس باعتباره منزلا تحاك فيه الخطط الآثمة ضد رجل من رجال الله • أما الآن فقد بدأ يتحقق من أن الخلاف بينه وبين آل هرديليا قد نشأ من نوازع الغرور التافهة ، والتى تكاد تكون طفولية ، وأن العقاب الذى حل بهرديليا ربما كان أشد قسوة مما ارتكب من خطايا • وراح يقول لنفسه فى ليالى الشتاء الطويلة وهو يتقلب على فراشه مؤرق الجفنين : « ربما كنت عنيفا أكثر من اللازم ، ولكنهما كانا يستحقان درسا • »

وتذكر الامسيات الممتعه منذ سنوات عديدة خلت ، عندما كان هرديليا يحضر لزيارته ويشاركه فى لعب الورق ، أو عندما كانا يجلسان ويتسامران معا حتى ساعة متأخرة من الليل وكأنهما شقيقان • وفى مرات أخرى كان يذهب الى آل هرديليا ويظل حتى الساعات الاولى من الصباح مع الأسرة كلها ، يلعب لعبة الحظ بثمار الجوز التى تكون فى النهاية من نصيب الفائز ، ويستمتع بشرب أكواب الشاى الممزوج بشراب الروم واحدا وراء الآخر • وعندما عاد من كلوج بعد اجراء جراحة فى كليته ، ضعيفا وفى حاجة الى غذاء جيد ، دأبت السيدة هرديليا على ايفاد جيجى التى كانت وقتئذ لاتزال فتاة صغيرة ، حاملة اليه حساء الدجاج وكافة أنواع الأطعمة الشهية • •

ولم ينحسر الضباب عن هذه الذكريات السعيدة بتأثير موقف مغاير من مؤامرات هرديليا الاخيرة ، بقدر مانشأ هذا عن موقف المدرس الجديد،

الذى لم يلبث بلكيوج أن بدأ يعتبره « الابن الخبيث المرتد لفـــلاح نقى السريرة » ... ورغم ان القس لم يحدث زاجريانو أكثر من مرتين أو ثلاثاء الا أنه استطاع أن يجد لقبـــا يقرنه به . فقـد كان الشـــاب يبتسم خلال هذه المقابلات ويعامله بتشامخ وتعال .... وكان بلكيوج فيما مضى قد اتفق مع هرديليا على أن تعقد دروس الانجيـل التى يشرف عليها فى المدرسة فى يوم واحد بعد الظهر ، وعلى أن يتولى أحد التلاميذ فى الصفوف العليا ــ فى حالة انشغاله فى عمل ما ــ قراءة الدرس وحفظ النظام فى الفصل . وعندما وصل بلكيوج الى المدرسة بعد الظهر يوم الأربعاء الأول، وجد زاجريانو جالسا الى المكتب وقد وضع ساعته أمامه ، وابتدره بالتحية قائلا : « لقد تأخرت بعض الشيء يا أبتاه » . وقد وقف فضلا عن ذلك طوال الدرس خلف ظهره يقوم بدور المفتش . وصعد الدم الى وجه القس وتصبب عرقا بتأثير الغضب ، وشعر برغبة فى أن يمسك بالشاب من قفاه ويلقى به خارج الحجرة ، ولكنه كبح جماح نفسه واكتفى بأن امتنع عن مصافحته عند مغادرته الفصل . وانهمك بلكيوج بعد بضعة أسابيع فى نقاش مع المهندس الذى يتولى بناء الكنيسة الجديدة ، فنسى موعد دروسه تماما . وجاءه زاجريانو فى مســاء ذلك اليوم ، وطلب اليه فى أدب ألا يتخلف عن دروسه مستقبلا .... وعندما سمع القس بعد ذلك أن هذا القادم الجديد يجبر الاطفال على الحديث باللغة الهنغارية دون غيرها ، وأنه يفرض غرامات كبيرة على الآباء الذين يتخلفون عن ارســال أبنائهم الى المدرسة ، بدأ يشعر بالأسف على فقدان هرديليا .

ومع ذلك فلم يكن زاجريانو وهرديليا يخطران بفكره الا بشـــكل عابر فى بعض لحظات الضجر، فقد كان فى هذه الايام يعيش أسعد أوقاته. ففى أجمل موقع فى القرية ، فى الدرب الفسيح ، وعلى مقربة من منزله ، قامت جدران الكنيسة الجديدة فى انتظار حلول فصل الربيع ليبدأ العمل مرة أخرى ، ويتحقق حلمه الذى داعبه منذ أمد بعيد . وحتى يحين ذلك الوقت كان يقوم بمقابلات ومناقشات طويلة ، بل وحتى بعض المحاورات مع المهندس ، وهو شخص عنيد ذو لحية طويلة كثة ، كان يدعى أنه يفوقه معرفة بكيفية تزيين ستارة الهيكل والجدران الداخليه للمذبح المقدس .

وفى لحظة من لحظات القلق والعناء العظيمين ، هبطت على القس معجزة من السماء أتته بوفد من الفلاحين من أبناء ساراكوتسا ، كانوا يرغبون فى شراء الكنيسة الصغيرة القديمة ونقلها الى قريتهم . وأحس بلكيوج

برعشة زهو ونشوة ، فهو بهذا المال يستطيع الآن أن يغطى النفقات التى يقتضيها اتمام بناء الكنيسة الجديدة ، ويتحقق له فائض منها ٠

وتمتم وهو يرسم علامة الصليب فى تقوى قائلا :

ــ لقد بذلت كل جهدى ولم يتخل الله عنى ٠ لو أن كل رومانى فعل مثلما فعلت ، لو أن كل شخص بذل من الجهد قدر ما بذلت ، فما أرفع ما تصير اليه أمتنا فى عينى الدنيا وفى عينى الله العلى القدير !

كان بلكيوج وطنيا غيورا ولكن فى غير ادعاء أو طموح ٠ «اننى أقوم بواجبى فى عشى المتواضع ٠٠٠ » هكذا كان يقول بقناعه خليقه برجل من رجل الكنيســه ، قناعه كانت تخفى فى ذات الوقت شـعورا بشىء من الأسف ٠ وقد احتفظ بمشاعره لنفسه حريصا على تحاشى أى اصطدام بالسلطات ٠ ولم يكن يطلق العنان لمشاعره الا لماما فى بعض المناسبات العامة ، وعندئذ كان يأسف فى اليوم التالى لأنه لم يضع على فمه قفلا كما تشير بذلك الكتب المقدسة ٠

وقبل أن يشرع فى بناء الكنيسة كان قد دأب على القول بأنه سيموت سعيدا اذا ما رأى الكنيسة وقد تم تكريسها ٠ أما الآن فقد مد حدود المهلة الزمنية قائلا: «لعل الرب يهيىء لى أن أرى رومانيا ، مصدر كافة الأحلام»٠ وبعدها يستطيع أن يموت فى سلام ٠ وفى انتظار حينه ، دأب على أن يزن نفسه كلما ذهب الى أرماديا ، ويشكو من أن أيامه قد أصبحت معدودة ، ويغضب أيما غضب اذا وافقه أحد على رأيه ٠ وكان وجهه يتألق بشرا عندما يقول له أى امرىء أنه يبدو فى خير أحواله ، وأنه سوف يدفن القرية كلها قبل أن يحين أجله ٠ وعندئذ كان يربت لحيته الكثة ويتنهد رافعا عينيه الى السماء قائلا :

ــ آمال باطلة ، وا أسفاه ، باطلة تماما ! ان المستقبل بيـــد الله ٠ علينا أن نعنى بحاضرنا ٠

و كان الحاضر بالنسبة له هو بناء الكنيسة الجديد ، والحسابات مع المهندس ، وأعباء منزله ، وطقوس الكنيســـة ، وزاجريانو وهرديليـا والفلاحون ٠٠٠٠

واستشاط غضبا من نفسه لأنه سمح لعقله أن ينحو ناحية هرديليا، وصور له احتمالات التصالح معه اذا أسعده الحظ وعاد ثانية الى بريباس ٠ واذا بمشاعره تفلت منه فى محاولة لطرد هذه الأفكار ويصرخ قائلا :

ـ هذا هو نهاية المطاف ! لم يبق الا هذا · أليس لدى ما افعله سوى التفكير فى المصالحة ؟

- ٤ -

كان الشيء الوحيد الذى يحفز تيتو على الحياة فى ماجورا هو رغبته فى توفير المال الذى يفى بنفقات سفره · لقد كان يكدح لهذه الغاية ، وقد استقر عزمه على الاسراع بالرحيل ····

لم يكن هناك الكثير مما يمكن أن يقوم به فى القرية التى تنتشر بيوتها على حواف أخدود صيق يمتد فى بطون الجبال · ولم يلبث أن تحقق من أنه لا مكان لأى رفقة روحية بينه وبين كالدارارو · فرغم أنهما كانا رفيقى دراسة وصديقين حميمين فى مدرسة أرماديا الثانوية ، الا أنهما لم يلتقيا منذ ذلك الحين الا فيما ندر · أما الآن فقد أصبح كالدارارو كاتب القرية وموثق عقودها ، وهو يحيا حياة زوجية مستقرة رغيدة ، بينما كان تيتو رجلا حالما رأسه مفعم وجيوبه خاوية · وفضلا عن هذا فقد تغير كالدارارو حتى بات التعرف عليه عسيرا · كان رجلا صغير الشأن يحمل نفسه فوق طاقتها ليبدو جادا رصينا ، حتى يحمل الفلاحين على احترامه · وكان يستخدم كافة أنواع الطيوب لينمى شاربه ، ويشعر بالتعاسة لأن وجهه الأجرد لم تظهر عليه الا شعرة أو شعرتين · وكان يدفع بكرشه الى الأمام حتى يكتسب شيئا من المهابة · ولما كان جسمه بطبعه أميل الى النحول والهزال ، فقد عمل على أن تكون صدارته وسرواله واسعين عند خصره ، حتى يبدو بذلك أكثر امتلاء وأعظم مهابة ووقارا · أما عيناه الحادتان الصغيرتان السوداوان فكانتا تتحركان فى مآقيه جيئة وذهابا كأنهما عينا سنجاب · وكان يتحدث بصوت عال وثقة زائدة بالنفس ، ويحرص دائما على ألا يضحك أمام الناس · وقد تزوج مؤخرا من ابنة نائب عمدة القرية ، وهو مزارع ثرى ناضل بشدة حتى يحصل لكالدارارو على وظيفته ، رغم أن منافسيه كانوا أكثر منه تقدما فى السن وكانوا مؤيدين من شيتسو رئيس المقاطعة نفسه · وكانت عائلة صهره كلها تنظر اليه كما لو كان أعجوبة من الأعاجيب ، وكانوا يثنون عليه فى كل مكان مبهورين فوق كل شيء بأنه « فى السادسة والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد أصبح كاتب القرية » ، وكأنما قدروا أن يصبح فيما بعد مديرا للأمن على الأقل ·

وقال له تيتو منذ يومه الأول أنه يأمل فى الرحيل الى رومانيا ، وأنه لم يأت الى ماجورا الا ليدبر المال اللازم لرحلته • ونصحه كالدارارو على الفور بألا يكون من الحماقة بحيث يهجر البلاد ، وأن عليه أن يبقى معه ليكتسب خبرة عملية كافية ثم يجتاز الامتحانات المطلوبة ويدرس مناهج التدريب الجامعية للتأهيل لوظائف كتاب القرية • وأخذ يمتدح فضائل هذه المهنة ، ولم ينس أن يقدم نفسه كنموذج لرجل وصل الى منصب لامع من خلال العمل والمثابرة الدائبين • ورغم أن تيتو اعتبر ما أبداه صديقه من مظاهر الولاية عليه اهانة لكرامته ، الا أنه لم ينح عليه بأى لوم ، وانما اكتفى بأن زاد اصرارا على قراره بالرحيل بأسرع ما يمكنه •

وخف اضطراب قلبه فى ظل ما راوده من أمل • فمنذ تحول حنينه الغامض لاجتياز جبال الكربات الى رومانيا الى عاطفة جياشة ، أصبح حمل حياته أخف وزنا ، وبدا له أن تفاهة الحياة ووضاعتها قد اختفت تماما • أما الاحلام التى كانت تختمر فى أعماقه من قديم ، ساعية الى الانطلاق أيا كانت النتائج ، هادفة الى اعادة تشكيل الواقع والى النفاذ الى كل امرىء وحمله على أن ينفعل بذات المثل ، فقد أصبحت الآن ترقد على استحياء فى أكثر زوايا قلبه دفئا ، وقد تخدرت بفعل سحر طاغ امتد تأثيره الى كل شىء • وكان فى لحظات التأمل يعثر على أحلامه فيدللها وينميها ويحميها بحرص من أنظار عالم عاجز عن فهمها • وعلى هذا النحو كانت مطامحه تزداد قيمة وتضطرد دنوا من قلبه كأنها كنز لا يقدر بثمن •

وعندما رآه كالدارارو ذات يوم متجهما منطويا على نفسه ، حاول أن يحمله على الحديث عما ينهش ذهنه من أفكـار ، فرد عليه تيتو قائلا فى حدة :

ـ كيف يتسنى لك أن تفهم ؟ أى مثل تلك التى تسكن قلبك ؟ انك رجل متزوج ، وأنت كاتب القرية ، فأى شىء تريد غير هذا ؟ الاطفال ؟ سيكون لديك منهم أيضا ، فليس من الصعب أن تحصل عليهم ••• ثم ماذا ؟ ان مثلك الأعلى يا صديقى العزيز هو أن تحظى برضاء رئيس المقاطعة • ولهذا لا تفوتك الفرصة أبدا لارسال الهدايا اليه يوم السـبت من كل أسبوع ، ولهذا أيضا فأنت توقع باسم « كالدارار » ، ولهذا فقد جعلت زوجتك تتعلم اللغة الهنغارية ، ولعلك تستطيع أن تجبر أباك العـجوز المسكين على تعلمها •••

فقال الموثق وقد أظلم وجهه :

ـ أرجوك ياتيتو ، انني مواطن محترم ورجل اؤدى واجبى ٠

ـ لماذا تستشعر الاهانة في قولى اذن ؟ هذا هو ماقلته بالضبط ! فأنت تفعل ما تفعل لمجرد أنك مواطن محترم ورجل تؤدى واجبك ٠ ربما كنت على حق ، من يدرى ٠٠٠٠ ولكن ماذا أستطيع أن أفعل اذا لم استطع أن أكون مثلك ومثل الآلاف غيرك ؟ لست مثلك ياصديقى ولا أستطيع أن أكون ٠٠ ولهذا فأنا لا أستطيع أن أجد لى مكاناً ، ســـواء هنا أو فى أية مقاطعة أخرى ، أو فى أى مكان من هذه البلاد ، ولهذا ينبغى أن أترسم مصيرى فى مكان آخر ٠

ندم كالدارارو بعد هذه الواقعة، وعديد غيرها شبيه بها، على اهتمامه بمثل هذا الشخص العنيد الطباع،والذى لا يضعه،وهذا هو الأدهى والأمر، موضع الاعتبار الخليق بمركزه ٠ وود لو تلمس له الأخطاء وتخلص منه ، لكن تيتو كان يعمل كعبد يجدف فى سفينة رغماعنه ، ويحمل على كاهله كل أعباء الوظيفة حتى أنه لم يكن من السهل احلال غيره مكانه ٠

وفى مستهل الربيع تلقى تيتو رسالة من لورا ملأت قلبه غبطة ٠ فقد ذكرت فى رسالتها أن أقارب جورج الذين يعيشون فى رومانيا سوف يحضرون على وجه التأكيد لقضـــاء عطلة الصيف معهم فى سينجيورز ٠ ودنت منه السعادة حتى شعر أنه لا يحتـــاج الى أكثر من أن يمد يديه فيحتضنها بين ذراعيه ٠

– ٥ –

طغى على أنا شـــعور بالسأم منذ زفاف جـورج بولبوك ، ممزوج بالكراهية لكل ما كان يحيط بها ٠ وبدت أيامها قاتمة بلا نهاية كالمياه التى حاولت اجتذابها ذات مـــرة ، والتى مازالت رائحتها الخانقة تتعلق بمنخريها كأنها نوع من الغواية ٠ وأحست طوال الوقت أنها تفتقد شيئاً، وزاد حنينها أكثر فأكثر الى السكينة ٠ وكثيرا ما كانت تقف غائبة عن الوعى ، بذراعيها اللذين يتهدلان فى رخاوة ، وتحدق بعينيها فى الفراغ دون أن ترى أو تسمع شيئا ٠ وكانت زنوبيا كلما فاجأتها على هذه الحال تؤنبها لنومها واقفة ، وتقول أنها جعلت المكان يأسن بكسلها ٠

ولم تعد تستطيع أن تجد أى بهجة فى حياتها ٠ كان الطفل قد بدأ يهدل واتخذ ملامح ايون الى حد جعلها ـ وهى التى كانت تفزع لمرأى زوجها

ـ تزور عن نظرة وليدها خشية أن ترى تينك العينين اللتين شهدتهما في حفل الزفاف ، تينك العينين اللتين نفذتا كسهمين ناريين في جسد المرأة الأخرى • وكان بيتريسور بدوره طفلا حاد المزاج ، يبكى حتى يشيع في وجهه اللون الأزرق • وعندما كانت أمه تدفع في فمه بحلمة ثديها ، كان ينهش صدرها ويقضم حلمتها كما لو كان ينتقم منها لأنها لم تسارع لتلبية ندائه • واذ كانت أنا تربته وتطعمه كانت تردد :

ـ ان الذنب ذنب ايون وحده •••

وكانت تشعر بقلبها جافا خاويا مثل حافظة نقود خالية ألقى بها عابر سبيل باهمال في حفرة على جانب الطريق • وانطفأت شعلة روحها شيئا فشيئا كما لو كانت ثنايا عقلها كلها قد أفرغت مما بها لتترك مكانا لشخصين لاغير ، شخصين أخذ شكلهما يزداد وضوحا يوما بعد آخر ، وأخذا يجوسان في داخلها ، يضغطان عليها ويؤلمانها ، ويجبران قلبها على أن يحفظ ذكراهما •••• هذان الشخصان هما أفروم ودوميترو • وكان الاثنان يبدوان أمام عينيها دائما كما رأتهما لآخر مرة• فكانت ترى اليهودى وقد التفت الأنشوطة حول عنقه وتندى شعره بعرقه وانثنت ركبتاه تحت درج السلم في مخزن الحبوب ؛ كما كانت ترى العجوز بموساه منفرجة في يده كمؤشر البوصلة وقد رفعها في الهواء ليتحاشى جرح نفسه ، بينما تغطى رغوة الصابون البيضاء أحد فكيه • وأفزعتها صورة هذين الشخصين، وأثارت في ذهنها سؤالا عجزت عن صياغته أو حتى عن فهمه تمام الفهم • وكل ما كانت تراه بوضوح هو أن الناس الذين عاشوا وقاسوا مثلما عاشت وقاست ، كانت عيونهم الباردة تكشف عن تعبير ملؤه السكينة والهدوء الكاملين ، حتى باتت تحسدهما لأنها لم تستطع أن تحظى مثلهما بسلام النفس وراحة البال •

واعتادت أنا مع مقدم الربيع على الذهاب الى بيت والدها كل يوم • ولم تكن هى نفسها تفهم ما يحدو بها الى الذهاب هناك ، ولم يسألها أحد في ذلك • كان ايون سعيدا بذلك ، اذ كان يتخلص من صراخ الطفل الذى يرن في رأسه ، ومن الجهامة في وجه زوجته وكأنها انذار بالشر • ولم يكن فاسيلى باكيو يبادلها الحديث الا نادرا ، ولم يزد على أن يصب عليها اللعنات لأنها تسببت في وقوع ثروته في يدى وغد يستطيع في أى يوم أن يلقى به خارج منزله •

وكانت أنا تنساب كالشبح في الطريق الموحل بين بيت جلانيتاشو

ومنزل والدها ، وهي مسافة طويلة ، بينما تحمل طفلهـــا بين ذراعيها لاتلتفت يمنة ولا يسرة ، وتمر بين الناس فـلا تلقى اليهم بكلمة تحية ، وتتمتم لنفسها طوال الوقت بمالا يدريه أحد • وكان الناس الذين يلتقون بها يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وسرى الهمس فى القرية بأن المرأة المسكينة قد فقدت صوابها ، بينما دأب أكثر الناس طيبة وعطفا على اتهام ايون وفاسيلى بالافراط فى ضربها حتى أطاشا صـــوابها وأفقداها عقلها • وكانت تدخل الى المنزل وتتجول فى أرجاء الغرفة كأنما تبحث عن شيء فقدته منذ وقت طويل ، ثم تجلس على مقعد وتطعم وليدها فى صمت كامل ، وفى عينيها نفس النظرة السوداء ، ثم تنهض فجأة وتخرج بنفس الهدوء الذى صاحب مجيئها •

وذات يوم ، بينما كانت تشق طريقها الى منزل والدها أيقظها من غيبوبتها صوت مشروخ يتأتىء :

ـ أنا !•• أنا !•• انتظرى لحظة •• تعالى هنا !

وتوقفت المرأة فى ذعر • كانت سافيستا ، الكســيحة المقعدة ، قابعة عند بوابة فناء تريفون تاتارو ، تلوح لها باصرار • كان يوما دافئا جميلا تشرق فيه الشمس ، وقد جففت الرياح الطين فى دروب القرية • وكانت فروع الاشجار التى زايلتها آثار الشتاء ، قـــد اكتست براعمها باللون الأخضر •

ودهشت أنا اذ رأت سافيستا فى هذا المكان ، وسألتها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

وتلعثمت المقعدة قائلة بابتسامة بينما امتـلأت عينيها بنظرة حادة قاسية ، ولوحت بيديهـا فى عنف كأنما تحـــاول الوقوف على ساقيها الرفيعتين المنثنيتين :

ـ لقد حضرت خصيصا لأجلك •• جئت لأخبرك •

كانت أنا تعرف أن فلوريكا قد أخذت سافيستا معها الى بيتها بعد أن تزوجت • وقد سمعت ما تردد من أن جورج كان يتباهى فى القرية بأن الكسيحة سوف تجلب الحـظ الى بيته ، وكان بهـــذا يجيب على أولئك الساخرين الذين كانوا يرددون على سبيل المزاح أن فلوريكا التى تزوجت بلا بائنة سوف ترسل سافيستا لتستجدى لها وتجمع الاحسان من المارة•

وتساءلت أنا فى دهشة وهى تتجه نحوها : « ترى لماذا عادت المقعدة الى بيت تريفون تاتارو ؟ »

وأسرت سافيستا اليها بشيء ، فاغرة فاها كباب المخزن ، لاهثة وهى تبذل قصارى جهدها لتتحدث فى صوت خفيض حتى لا يسمعها أحد ، رغم أن أحدا لم يكن حولهما اللهم الا خنزير ربطت ساقه الى عمود بالسور ، وقد أخذ يزوم وينبش فى حفرة على الطريق • ونظرت أنا اليها وأنصتت، لكنها لم تستطع أن تفهم شيئا ، فرجتها قائلة :

ـ لا تتحدثى بهذه السرعة ياسافيستا •

ونطقت المقعدة بكلمتين فى وضوح ، ثم أخذت تتلعثم بسرعة مرة أخرى • كانت عيناها تلتمعان بوحشية متزايدة ، بينما علت جانبى فمها قطرات من زبد أصفر • وتدافعت كلمـــاتها وهى تهز قبضتيها وتحرك عينيها اللتين استحال لونهما أبيض لفرط ما بذلته من جهد :

ـ يجب ألا يأتى ايون •• مشاكل كبيرة •• فلوريكا لن •• جورج سيقتل •

وسارت أنا مبتعدة فجأة ، تاركة سافيستا وكلماتها مازالت عالقة بشفتيها ، وهى تتلوى بتفسيراتها فى انفعال • كانت كلمات « ايون ، فلوريكا ، جورج » قد اخترقت أذنها وذهنها ، وكان هذا كافيا • لـكن المقعدة استشـــاطت غضبا وهى ترى أنا تبتعد ، فصـــاحت وهى تهز قبضتيها :

ـ سوف يقتلك أيضا ، أيتها القذرة •• فأنت تتركين ايون ••

وبذلت جهدا خارقا لتندفع فى اثر أنا ، ولـكن ساقيها العاجزتين جمدتا فى مكانهما • ومالت برأسها حتى كاد يلامس الارض ثم صاحت بصوت متحشرج :

ـ ايون يريد فلوريكا •• جورج يقتل •• الجميع ، الجميع !

لم تستطع أنا أن تسمع سوى : ايون •• فلوريكا •• جورج ••• وسارت رأسا الى بيت طفولتها • كان والدها بالخارج • ووجدت المفتاح تحت عقب الباب فقد كانت تعرف أين يخبئه ، وفتحت الباب ثم جلست على الأريكة • وبدأ الطفل يبكى فهدهدته برهة قصيرة ، ثم وضعت ثديها فى فمه •

وأحست أنا بأن رأسها ثقيل كالرصاص • وضمت طفلها دون وعى بشدة الى صدرها حيث راح يرضع بشراهة • وألقت بنظرة حائرة في الحجرة وكأنها تراها لأول مرة •••• أو لآخر مرة • كان كل شيء على حاله مثلما كان دائما • السرير ، والمنضدة ، والأرائك الخشبية ، والمقعد الوحيد ، والدولاب وبداخله الأواني الخزفية ، وقدر الماء والمصباح الذي تدلى من السقف •••• كل شيء كما هو • وبدا الموقد وحده أكثر قتامة بفتحته الفاغرة الواسعة التي لا قرار لها •••• وومض في ذهنها خاطر كالسهم بينما كانت تمعن النظر الى الموقد • وأحست فجأة كأنها قد ارتدت عبر طريق شائك •••• كان الظلام حالكا • ووخزت برودة البلاط الحجرى باطن قدميها وهي تتسلق الموقد الى مخدعها • وراح قلبها ينبض بعنف وراء ضلوعها ••• وزحفت في رفق حتى لا يحدث قميصها حفيفا يوقظ أباها الذى كان يغط في نومه ، تفوح منه رائحة الخمر •••• واحتواها الدفء في مخدعها ، ثم أحست بيد تتحسس طريقها في الظلام ثم تلمس قدمها برفق ؛ كانت يد ايون الذى قرقعت عظامه وهو يصعد اليهـا ويتمـــدد الى جوارها •••• وظل قلبهـــا ينبض بعنف طوال الوقت •••• ويالها من نبضات !

وارتعدت فجأة ، واستيقظت من غفوتهـا ، وتذكرت ــ دون سبب ظاهر ــ أن ايون بعد زفاف جورج قد أصبح صديقه الحميم ، وأنه كثيرا ما يزور العروسين ، وأنهما متلازمان دائما ، يشربان معا في الحانة ، ويتجولان معا في دروب جيدوفيتسا • كيف عرفت هذا ؟ لا تدرى كيف ، ولكنها كانت تعلمه عن يقين •• يبـــدو أن شـــخصا ما قد أخبرها بذلك •••• نعم ، نعم ! انه ايون نفسه ، هو الذى كان يحكى عن هذا الى زنوبيا • كان يتباهى بصداقته ويثنى على جورج ••••

وبدت فوهة الموقد وكأنها تتسع متثائبة ، متجهة نحوها • وترك الطفل ثدى أمه وبدأ في البـكاء •••• ونهضت أنا بسرعة ، وأوصدت الباب وأعادت المفتاح الى مكانه • وشـــعرت بالفوهة الضـخمة الجائعة المنذرة بالخطر تكاد تلتهم ظهرها فلم تجرؤ على النظر خلفها ••

وكانت سافيستا ما تزال حيث تركتها من قبل • ورأتها تبصق عندما مرت بها ، وسمعتها تصرخ بأعلى صوتها :

ــ جورج ••• سيقتل الجميع ••• يا للعار ••• !

وأسرعت أنا مارة بها وكأن شخصا في انتظارها بالبيت • وتردد

صوت طرقعة نعليها على الطريق المترب ، بينما راحت الشمس تلسع ظهرها ٠

وعندما وصلت الى الفناء ، أطلقت البوابة الصغيرة صريرا حزينا أحسست أنا كأنه يمزق قلبها ٠ كان ايون قد شمر عن ساعديه وأخذ يقطع عريشا جديدا لعربته وهو يزمجر مع كل ضربة من فأسه ٠ وتوقف لحظة وشيعها بنظرة ، وخبا النور فى عينيه عندما رآها ، كأنها قد حجبت عنه رؤية صورة الأخرى التى علقت بخياله ٠ ولكن أنا سارت دون أن تنظر وراءها ٠ كان باب الحجرة الخارجية مفتوحا ، فبدا كفجوة مظلمة ، يتسرب من خلالها عمود من الدخان الازرق ٠ وفى الداخل ، كان جلانيتاشو يرقد فى الفراش ، مستلقيا على ظهره ، يغط فى نومه وقد فغر فاه الى أقصى حد ٠ وجلست زنوبيا أمام المدفأة تنفخ النار وقد احمرت عيناها المتورمتين، وما أن رأت زوجة ابنها حتى انفجرت تصب لعناتها على الفور وهى تقلب جذوة النار المشتعلة :

ـ « انك تهيمين على وجهك فى دروب القرية طوال اليوم ، وتنسين أنك امرأة متزوجة ٠٠٠٠ وربة بيت ٠٠٠٠ » ثم توقفت لتنفخ النار واستطردت : « أتتركين كل هذه الفوضى وراءك ٠٠٠٠ (تنفخ) انك لأسوأ من نورية ٠٠٠٠ لقد فقدت كل احساس بالخجل ٠٠٠٠ (تنفخ) أو اللياقة ٠ »

وأنصتت المرأة الى رنين الكلمات ، لكنها لم تدرك لها معنى ٠ وبدا لها كل شىء كأنه حلم ٠ وتوقفت لحظة فى وسط الحجرة ٠ كان الطفل يهلل فى رقة ٠ ولم تلبث أن وضعت الطفل بحرص عند قدمى جلانيتاشو وكأنها تذكرت لتوها ما عليها أن تفعل ، ثم أحكمت لفافاته حوله ورسمت علامة الصليب فوقه ثلاث مرات ٠٠٠٠ وبدت مرة أخرى كأنما نسيت ما كانت تريد أن تفعل ٠ وعاودها الذهول ، وأطلت نظرة متسائلة من عينيها ٠٠٠٠ وتنبهت فجأة فخرجت مسرعة الى الحجرة الخارجية ، حيث أخذت تنبش فى كل أركانها ، وشعرت بضيق بالغ لأنها لم تجد ما كانت تبحث عنه ٠ وخرجت الى الفناء ، فصافحت وجهها أشعة شمس الربيع المشرقة عند المدخل ، وأغمضت عينيها المبهورتين ٠ كانت بوجنتيهـا الغائرتين الشمعيتين ، وأنفها الحاد وذقنها المدبب ، صورة لليأس ٠ وودت أن تعصر يديها حزنا ويأسا ، لكنها لم تستطع ٠٠٠٠ وطرأت على ذهنها فكرة جديدة فجرت رأسا الى حظيرة الماشية ٠

وتحسست هناك طريقها حتى اعتادت عيناها الظلام • واستطاعت عندئذ أن ترى جويانا ، بقرتها التى أحضرتها معها يوم زفافها ، بظهرها الأعجف وردفيها العريضين ، وقد نتأت عظامهما كمجدافى قارب •

كانت جويانا تنظر عابسة كأنها تتضور جوعا ، وقد تدلى ضرعها حتى كاد يلامس الأرض • ونظرت جويانا اليها بعينيها الواسعتين الرقيقتين الحزينتين ، كأنما تسألها : ماذا تريدين ؟ وربتت أنا على فخذها ، ولكن جويانا ازورت عنها فى غير رضى،ودفنت فاها فيما تبقى من كومة التبن وهى تنفخ بقوة من خلال فتحتى أنفها لتبدد الغبار الذى تجمع فى قاع المزود •• ووقفت دومانا ، بقرة ايون ، الى جوارها ، بينما وقف على مبعدة فى نفس الجانب الى اليمين حصانان هزيلان يصهلان فى أمل • والى اليسار كانت الثيران تغفو راقدة على الارض •

وتمهلت أنا ثم توقفت وقد نسيت ما كانت تبحث عنه ، وتحركت من جديد عندما تذكرت ما تريد ، فخطت الى الامام خطوة أو خطوتين • ووصلت الى ركن كانوا يحتفظون فيه بالعجل الصغير الذى باعه ايون لكى يدفع للمحامى أجره • ومن مشجب خشبى فى أحد الأعمدة تدلى الحبل الجديد الذى كان العجل الصغير يربط به حينما يبعد عن البقرة عند حلب اللبن • وابتسمت أنا ابتسـامة عريضة راضية وهى تمسك به وتفرده بين يديها • ثم نظرت حولها • كان السقف منخفضا حتى يكاد المرء يلمسه بأصابعه ، قائما على عروق خشبية سميكة غير مصقولة • ولفت أنا طرف الحبل حول العرق الخشبى الأول بالقرب من الباب ، الى جوار جويانا ، ثم عقدته ثلاث مرات • ووسعت الانشوطة فى الطرف الآخر وتركتها فى الفراغ ، وأخذت تراقبها بارتياح متزايد وهى تتأرجح جيئة وذهابا • واذ راحت تحدق فى الحبل المتأرجح ، تذكرت افروم فجـأة ، وأدهشها أن تلاحظ أن ذكرى الرجل المشنوق لم تعد تخيفهـا • بل انه بدا كأنمـا يبتسم لها على نحو غريب ، كأنه يدعوها •

وتمتمت أنا وهى تستدير وتسير بضع خطوات وقد صممت على الخروج من هذا الظلام الخانق :

ـ معاذ الله أن أفعل أنا أيضا ••

وانسابت حزمة من الضوء الأصفر خلال شق فى الباب تتراقص فيها وتلعب آلاف الذرات من كل لون • وتناهت الى سـمعها من الخارج ضربات فأس ايون ، مختلطة بزقزقة عصافير كثيرة صاخبة • وحاولت أن

تخطو خطوة أخرى ، ولـكن وجه دوميترو طالعها فجأة بوضـوح خلال شعاع الضوء ، وقد أمسك بموساه في يده ، واهتز في رعشة كأنما يومىء اليها • •وأدارت رأسها بعيدا ، وقد تملكهـا الخوف • كان الحبـل قد توقف عن الحركة ، وتدلى بثبات كأن ثقلا كبيرا يشده الى أسفل • وأخذت تتساءل عما يشده على هذا النحو ، فلاحت لهـا رأس أفروم في الحبل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة أثارت حنقها •

وخلعت وشاحها ببطء وتصـميم ، ثم وضـعته على العمـود الذى يفصل بين جويانا ودومانا • وسارت بغضب الى الحبل الذى تدلى حتى عينيها • وشبت على أطراف أصابعها ، وأمسكت المشنقة بكلتا يديهـا ودفعت برأسها فيها • واسـتغرق احكام وضـع الحبل حول عنقها العارى بعض الوقت ، وهي تمسك بالحبل في يد والأنشوطة في اليد الأخرى • وأحست بساقيها تتقلصان وحاولت ألا تمسك الحبل بيديها • وتزايد الألم في ساقيها حتى لم تعد تحتمله ، وتخاذلت ركبتاها • وضـاقت المشنقة أكثر فأكثر حول عنقها • ولم تشعر بألم • وتصـورت أنها لم تثبتها جيدا ، فأحست بالضيق لأنها لم تعط نفســها الوقت الـكافى لتثبيتها بدقة • وشعرت كأن شيئا يدغدغ حواسها ويحملها على أن تفغر فاها وعينيها • وتبينت فجأة أنها توشك أن تموت فتملكها الفزع وحاولت أن تمد ساقيها لتلمس الأرض وتفر من قبضة الموت • ودفعت بساقيها دون جدوى ، اذ أنها لم تجد ما تستند اليه • وأصابها ذعر هائل ، وأخمد أنفاسها شعور محرق خانق • وبدأ لسانها يتورم ويملأ فمها حتى أنها لم تجد مفرا من اخراجه •• ثم غشيت جسمها ارتعاشة • وأحست بسرور وفرح وحشي طاغ ، وكأن حبيبا طال انتظاره قد ضمها بين ذراعيه بانفعال عنيف قاتل •• وحاولت أن تنادى ، فلم يصدر عنهـا سـوى صرختين مكتومتين • وأحست بقواها تخور ؛ وتركت جسدها يتدلى بلا مقاومة • وتتابعت كلمح البرق على ذهنها ذكريات : الليل ، وموقد النار ، والألم ، والغبطة •• ثم اظلم كل شيء •• ولم تعد عيناها الفـــاغرتان تبصران • وظل لســـانها وحده ينمو •• ســـاخرا ، متحديا ، منتقما لما حكم عليه به من بكم طوال حياتها ••

لم تعد جويانا تشعر بحركة ، فأدارت رأسها وحملقت في حيرة • وهزت ذيلها ، فمست بطرفه قميص أنا • واذ ظلت أنا ساكنة ، دفعت جويانا بلسانها المخضر في احدى فتحتى أنفها ثم في الأخرى ، ثم أخذت تجتر طعامها في هدوء بغير اكتراث •

ورن صوت زنوبيا غاضبا بعد فترة :

ـ أنا ٠٠ يا أنا ٠٠ عليك اللعنة ، أيتها المرأة الكسولة القذرة ٠ انها تجرى طوال اليوم فى الشوارع وتترك طفلها هنا يعوى حتى يصيبنى بالصمم ٠ انا ! ٠٠ عليك اللعنة وعلى الرجل الذى اتخذك زوجة له ! لعنة الله عليك ٠٠ عسى الله أن يرينى نهايتك ، أيتها الفاجرة قليلة الحياء ٠

وتمتم ايون دون أن يتوقف عن عمله :

ـ يبدو أنى رأيتها تدخل الحظيرة ٠ لابد أنها قد نامت فى مكان ما ٠

واندفعت زنوبيا الى باب الحظيرة ، وفتحته على مصراعيه ٠ وتدفقت أشعة الشمس فى فرح الى الداخل ٠ وتراجعت المرأة فى الوقت ذاته صارخة فى رعب كأن حية قد لدغتها :

ـ يا الهى !٠٠ النجدة !٠٠ النجدة !٠٠ أيونيكا !٠٠ لقد شنقت أنا نفسها !٠٠ يا الهى الرحيم ! يارب !٠٠ لقد شنقت نفسها ٠٠

الفصل الحادى عشر

اللعنــــة

- ١ -

أحس ايون ، عندما رأى أنا ميتة ، كأن مطرقة قد هـــوت على أم رأسه • ووقت أمام المرأة المشنوقة مبهوتا،وراحته على فمه،وألم عاصف يضغط على رأسه كالحجر • وتذكر اذ ذاك تهديدهافى حفل زفاف جورج الى فلوريكا • وتملكه ذلك الاحساس الغـريب بالاشفاق المختلط بالفزع والوحشة ، الذى يتملك كل انسان بالغريزة فى مواجهة الموت ، فأصابته رجفة • ولم يلبث بعد برهة ، وبعد أن اعتاد وجه المرأة الذى شوهه الموت ، أن أخذ يسأل نفسه كيف استطاع أن يعيش معها فى فراش واحد طوال مايقرب من عام ، وانتهى الى أنه من الخير له أن قتلت نفسها •• وصاح فى زنوبيا فى اللحظة التالية وهو لا يكاد يدرى :

ـ أين الطفل ؟ اهتمى بالطفل يا أماه ! لا تضيعى وقتا • اهتمى بالطفل !

وسيطر على عقله الاهتمام بالطفل فلم يتركه أبدا •

وجاء فاسيلى باكيو قرب المساء ، فوجد أنا موضوعة على المنضدة ،

مغتسلة ، وقد ألبست ثيابها ، وعقدت يداها فوق صدرها · وحملق فيها طويلا · وابتلع الغصة التى صعدت الى حلقه ، ثم تحدث مع ايون حديثا قصيرا دون أن ينظر أى منهما الى عينى الآخر · بيد أن زنوبيا أخبرته بكل التفاصيل : كيف عادت أنا من القرية ، وكيف وضعت طفلها على السرير ، وكيف دلفت الى الفناء ، وكيف أنها ماكانت لتجدها لولا أن الطفل أخذ فى البكاء ··

وحضرت القرية كلها تقريبا مراسم الجناز · وكان الزحام كبيرا حتى امتلأت الحارة التى أمام الكنيسة بالجموع · ورفرفت الرايات بتكاسل فى نسمة الربيع التى حملت رائحة البخور بعيدا وأتت بدلا منها بعبير زهور التفاح الشذى · وبين الحين والحين كانت احدى النسوة تنفجر باكية ، بينما كان الأب بلكيوج يترنم بتراتيل الجناز خلال أنفه ، وهو يهز المبخرة طوال الوقت · وكان ايون يركع الى أحد جانبى النعش ، بينما كان فاسيلى فى الجانب الآخر وقدأحس كلاهما باثمه فطأطأ رأسه الحاسر · وركعت زنوبيا على ركبتيها ممسكة بالطفل بين ذراعيها ، تهزه حتى تسكته · وأخذت تنظر حولها كأنها مزهوة بمراسم الجناز الجميلة · ودفن جلانيتاشو وجهه فى راحتيه وراح يبكى بمرارة فى كرب عميق ويتمتم فى حزن صادق :

ـ آه يا ابنتى ·· يا ابنتى الصغيرة المسكينة ··

وأنصت ايون الى ترانيم القس وانشاد مغنى الكنيسة وكأنه فى حلم · وراحت أفكاره تجول فى منعرجات غريبة ، تقفز من أنا الى الطفل ، ثم الى فاسيلى باكيو ، ثم تعود مرة أخرى الى المرأة الميتة الراقدة فى النعش الخشبى الملفوف فى غطائه الخشن · ثم ترتد فجأة الى فلوريكا ، لتعود من جديد الى الطفل الراقد بين ذراعى زنوبيا · وتملكه خوف بالغ لا يدرك له سببا كلما خطر الطفل بباله ·

وتذكر أن جورج وفلوريكا قد أقبلا نحوه قبل أن يؤخذ النعش من البيت ، بينما كان القس يتلو صلاة طويلة ، وقد علا وجهيهما الحزن ، وقالا له أن هذه ارادة الله ، وأن على المرء أن يتحمل بشجاعة اذ أنه مامن شيء يدوم فى هذه الدنيا ·· وأمسكت نظرة المرأة الجزعة ، اللائمة ، الوالهة بتلابيبه · وبدت له كأنما تفيض بحب عظيم لا تكاد تسيطر عليه · وخشى أن يلحظ جورج نظرتها فأرخى عينيه · ولكنه أحس بهذه النظرة تخترق عقله ، وشعر برسالتها المتجبرة تكتسحه وتغلف قلبه بمرارة لم تلبث أن انطلق منها آمل جديد ·

ورفع عينيه قرب نهاية القداس ، فالتقت أنظاره بنظرة فاسيلى باكيو ، تلك النظرة التى كانت تخترقه كالمثقاب منذ وقت لا يعرف مداه الا الله · وشحب ايون وحاول أن يخفض رأسه مرة أخرى ، لكنه لم يستطع · كانت نظرة حميه كنظرة أفعى ضخمة تنوم فريستها قبل ان تلتهمها · وقرأ ايون قبل كل شىء فى عينيه سؤالا ، لم يكن يبدو واضحا فى البداية ، لكنه سرعان ما أصبح فى وضوح ضوء النهار : « أين الأرض ؟ ·· من التراب الى التراب ·· »

وعندئذ فقط تبين فجأة لماذا كان يفكر كثيرا فى الطفل · فلولا الطفل فى الحقيقة لأفقده موت أنا كل شىء ـ ولذهب كل كفاحه هباء ·· وفى كلمات أخرى ، كانت روح طفله تحمل ثروته ، فالأرض أرضه طالما بقى الطفل حيا ·· وحاول أن يحول نظره الى زنوبيا والطفل ، ولكن عينا فاسيلى لم تتركاه يتحول عنه · كانتا تحرقانه وتمزقانه · كان يرى نفسه فيهما ، وقد بهت لونه كالشمع ، وتملكه الفزع ، وارتعش خوفا من تهديد غامض ·· وبدا وجه حميه كأنه قد اكتسى بابتسامة ظفر وازدراء ·

وظلت عينا فاسيلى باكيو القاسيتين ترقبانه حتى اللحظة التى ووري فيها نعش أنا فى القبر · واكتسحت نظرته أمامها كل مايزخر به عقله من أفكار أخرى : نظرة فلوريكا ، ومراسم الدفن أيضا ، وكل شىء ماعدا الطفل الذى يتوقف عليه قدره ذاته ·

وانتزع الطفل ، فى طريق عودته من المدافن ، من بين ذراعى زنوبيا ، وقد انتابه الخوف من أن يسرقه أحد منه · وضمه الى صدره ، وأحاطه بذراعيه النحيلتين · وكان بيتريسور ينشج باكيا فراح يغنى له كمربية مدربة ، وقد تملكته فكرة أنه يحمل بين ذراعيه كل الارض التى أكتسبها بعد كفاح طويل خلال دأبه المضنى · وتأثر الناس الذين كانوا ينحون عليه باللوم ويقولون أن أنا قد شنقت نفسها بسببه ، عندما رأوه يحمل طفله بين ذراعيه برقة ، وأعلنوا أنه لا يمكن أن يكون ملوما فى موت زوجته ·

وهمس فى أذنه صوت خبيث وهم ينعطفون الى الدرب العريض :

ـ احذر يازوج ابنتى ، احذر أن يسقط حفيدى صريع المرض ·

وأجفل ايون ، وأخفى الطفل تحت معطفه الخشن وكأنه يحميه من نظرات فاسيلى باكيو ·

وجلس ايون طويلا الى أمه ، بعـــد أن وزعت الصدقات على روح الفقيدة ، يناقش معها مايجب أن يفعلوا بالطفل وكيف يمكن العناية به • وتضاءلت مخاوفه الى حد ما عندما أكدت له زنوبيـــا أن الصبى الصغير قد بلغ من السن مايسمح بفطامه ، وأنهم كانوا سيفطمونه على أية حال يوما ما ، فقد بدأ يأكل كل ألوان الطعام ، وأنه سيكبر ويصبح صبيا لطيفا ، ضخما كالجبل ، اذا أراد الله له ذلك ، وأنه سوف يكبر قبل أن يتسع وقت أبيه للقلق بشأنه ، ولن يلبث أن يرعى الماشية فى المرعى • وقال ايون بصوت أجش :

ـ انتبهى اليه جيدا يا أمى ! كونى حريصة جدا • اننى لا أظن أن بيتريسور فى خير صحة •

ـ يا الهى الرحيم ، ألا ترى يارجل كم هو ممتلىء وقوى ؟

ـ كل هذا حسن جدا •• ولكنه اذا مرض ومات ، لا قدر الله ، فسيكون هذا نهاية مابينى وبينك ! •• هذا الطفل هو حياتى يا أماه !

فأجابت العجوز محتجة :

ـ أنت أحمق يا ايونيكا • بشرفى أنت مجنون حقا !

ـ هذا كل ماهنالك • لا يمكنك أن تقولى أنى لم أحذرك •• يجب أن تعنى به وتراقبيه كحبة عينك •

ورسمت زنوبيا علامة الصليب ، وهى تفكر كم كان ايون يحب زوجته ، وان أخفى ذلك ، مادام حريصا على الاهتمام بطفلها كل هذا الحرص •

ـ ماذا جرى لك يارجل ؟ انك تبدو وكأنك ترى الشر ماثلا أمام عينيك ، لا قدر الله !

- ٢ -

ـ « اذا كان قلب الرومانى فى مكانه الصحيح ، فهو اذن مثل صديقى هرديليا » • هكذا كان جروفشورو يقول دائما ، كلما اقترب موعد الاستئناف وازداد هرديليا اكتئابا وقل ثقة •

كانت الجلسة قد تحـــددت فى منتصف ابريل ، أمام محكمة

استئناف تيرجو ــ مورش • وكان هرديليا يعد الأيام كأنه طالب ينتظر اجازته السنوية ، مع فارق وحيد هو أنه مع كل يوم يمر كان قلبه يزداد يأسا ، وتعذبه المخاوف من أن يكون مقدرا عليه أن يبقى موصوما ومحروما من معاشه ، ذلك المعـاش الذى عمـل من أجله كعبد طوال ثلاثين عاما • وعلى الرغم من تأكيدات جروفشورو الطنانة ، فانه لم يجرؤ على أن يتذرع بأى أمل حقيقى ، فقد تحطمت كل آماله بقسوة فى المرة الماضية •

وكان جروفشورو يكرر كل يوم وعده بأن يذهب الى المحكمة ، قاطعا على نفسه عهدا بألا يعود منهـا دون أن يبرىء ساحة هرديليا تماما • ولكى يقدم له أكبر الأدلة على حبه وتقديره ، شرب معـــه فى النهاية نخب الأخـوة فى مشرب راهوفنا قبـــل موعد الجلسة بثلاثة أسابيع ، فى وجود كل الطبقة الراقية فى أرماديا ، وقبله صائحا بلهجة ظافرة :

ــ حسن ، أيهـا السكير ، أنت أخى • اذا كنت لا تزال تجرؤ على الشك فى النتيجة ، وتبدو دائما حاملا هذا الوجه المكتئب ، فسوف أحاسبك على هذا !

وصفق الحاضرون جميعا تحية لعهده • حتى أولئك الذين لم يكونوا على صلة وثيقة به ، ابتداء من ناظر المدرسة العليا حتى مساعد الكاتب ، أخذوا يوجهون اليه الحديث فى ألفة •

كان هرديليا بالغ السعادة فى ذلك اليـــوم • وظل يشرب حتى ثمل تماما ، حتى لقد ظلت زوجته تضع المناشف المبللة على رأسه وتؤنبه طوال الليل •• بيد أن الكآبة عاودته فى اليوم التالى ، كظل لا يتركه أبدا الا عندما يكون فى الظلام • وكثـــيرا ماكان ذهنه يطير الى ايون والتماسه • نعم ، لقد تابع ايون خططه وأصبح غنيا •• لقد كان هذا الأمر بالنسبة لايون مجرد سوء حظ بسيط ، سيخرج منه آمنا مطمئنا ليواجه فى حياته سرورا أعظم • ماذا يهمه الآن اذا أمضى شهرا فى السجن ؟ بل انه قد يسعده أن يريح عظامه بعض الوقت •• ولكن هذا الالتماس كان بالنسبة له هو ضربة ثقيلة ، وقد غير فجأة مجرى حياته تماما • من الغريب حقا أن يقرر مثـل هذا الأمر التـافه مصـــير انسان ويهـــدد مستقبله كله بالخطر ! الأسباب بسيطة ، أما الآثار فجسيمة •• ان حجرا صغيرا قد يقلب عربة كبيرة أحيانا •• وحبة من

الرمال في غير مكانها يمكن أن تؤدى الى انهيار • ان معظم الصغائر التافهـة تؤدى الى كوارث عظيمة ، وكأن الانســان ، المزهو بقوته ، الواثق بنفسه ، ليس سوى لعبة ، أو أقل من لعبة في أيدى قوى خفية مسيطرة رهيبة •

وقبل الموعد المحدد بأيام قليـلة ، توجه ايون الى بيت هرديليا لينبئهم بموت أنا وليطلب الى المدرس أن يكتب له طلبا حتى يؤذن له بقضاء مدة سجنه في السجن المحلي التابع لمحكمة أرماديا ، حتى لا ينقل بعيدا الى بيستريتسا •• وقال المدرس بمـرارة وهو يقرض أظافره ليضبط أعصابه :

ـ وهو كذلك يا ايون ، سأفعل هذا أيضا • لقد ساعدتك من قبل ، وها أنت ترى ما أدى اليه ذلك • لقد أدى الى أن أتسول خبزى من الغرباء في سنى المتقدمة • ولكنى سأفعل هذا من أجلك بالطبع •

وحدق ايون في عينيه مبـاشرة ، وقد استولت عليه عاطفـة مخلصة ، وقد لمست كلمات هرديليا ، فيما يبدو ، وترا في قلبه توقف عن الذبذبة منذ زمن طويل • وقال بهدوء :

ـ انني تعس يا والدى • نحن أشرار أغبياء ، كلنا خطايا • الله وحده يعلم •• ولقد عاقبني الله ، وما كان يمكن أن يكون عقابه أشد قسوة • لقد أخطأت في حقك ، وأنا أدرك هذا بوضوح • لكن الله يساعد ذوى القلوب الطيبة •• وسوف يعينك بسبب ما ألحقت بك من أذى •

وتمتم المدرس في حزن وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

ـ كثيرا ماتساءلت كيف رضخت لأفكارك المجنونة يا ايون • كان من الواجب على ببساطة أن أطردك من منزلى ، لكنى أصبحت مجنونا مثلك بدلا من هذا •

فأجاب ايون بصوت مختلف أكثر جفاء ، يكشف عن أسفه لأنه قد استسلم لحظة لمشاعر التعاطف مع مشاكل الآخرين :

ـ هذا هو مايعانيه الانسان عندما يجرده الله من ادراكه • لكن هل تسمح الآن بأن تكتب لى التماسا لطيفا بما كنت أقول • سأنقدك عليه أجرا بالطبع ياوالدى ••

وكتب هرديليا الالتماس له · وبذرت هذه الكلمات مع الرجل الذى تسبب فى كل مشاكله الحالية بذور الثقة فى قلبه · وكرر كلماته : «ان الله يساعد ذوى القلوب الطيبة» ، ووجد فيها بعض العزاء · وأسف بدوره على أنه كثيرا ماتغافل عن كلمات الله فى لحظات غبائه وغروره · وراح منذ ذلك الوقت يدعو الله باخلاص كل مساء عندما يطفىء الأنوار ويرقد فى سريره ووجهه الى أعلى ويداه معقودتان على صدره ، متوسلا اليه أن يعفو عن ذنوبه وأن يقيله من عثراته وينقذه ، كما أنقذه دائما ، من المأزق الذى وجد نفسه فيه نتيجة لأخطائه ·

وكان على جروفشورو أن يذهب وحده الى تيرجو ـ مورش من أجل الاستئناف · وبقى هرديليا ليصرف شئون المكتب ، فلم يكن مضطرا الى الحضور بنفسه ، فان هذا كان يقتضيه انفاق قدر كبير من النقود بغير فائدة ·· فعلى الرغم من أن المرء يستطيع أن يغادر أرماديا وقت الظهيرة ليصل الى ذلك المكان فى نفس الليلة ، الا أنهم أعدوا للرحلة اعدادا كبيرا · فقد ملأت السيدة جروفشورو ، وهى سيدة جميلة ممتلئة القوام وربة بيت ممتازة ، ملأت صندوقا بأنواع مختلفة من الطعام حتى يجد زوجها مايأكله فى القطار · وقد عاونتها فى ذلك السيدة هرديليا التى أصبحت صديقتها الحميمة · وفى الحقيقة ، كان اعطاؤه طعاما للرحلة احدى أفكار السيدة هرديليا ، وقد وجدتها زوجته فكرة عظيمة ·· وعند رحيله شاركت العائلتان فى توديعه ·· بما فيهما أولاد المحامى الخمسة · وبكى الجميع بغزارة فيما عدا جروفشورو الذى تحكم فى مشاعره ، وطلب من هرديليا ألا يساوره القلق ، وأن يثق فيه وفى الله ثقة كاملة ·

وقررت زوجة المحامى ، كما قررت السيدة هرديليا وجيجى سرا أن تصمن طوال يوم نظر القضية ·· وفى المساء ظل آل هرديليا ساهرين حتى ساعة متأخرة من الليل ، يمتدحون آل جروفشورو ـ أكثر الناس طيبة فى العالم ـ ويقدرون آمالهم وأمانيهم · وعندما آووا الى مضاجعهم ، كان المرء يستطيع أن يسمع بوضوح فى ظلام حجراتهم همسات شفاههم ، وهم يدعون الى الله من أعماق قلوبهم أن يبارك الغد من أجل عجزهم ·· وفى البيت الآخر ، كانت السيدة جروفشورو تتمتم بدعواتها من أجل هرديليا المسكين ، بعد أن جعلت أطفالها الخمسة يركعون ويصلون من أجل « العم هرديليا العجوز » ·

وكان المدرس بدوره قد قرر أن يصوم فى هذا اليوم ، أكثر أيام حياته ايلاما ، دون أن يدرى بما قررته النساء • واستيقظ فى ساعات الفجر الأولى ، ولم يستطع أن يعاود النوم من فرط ماعاناه من قلق وانشغال • ومد يده ليشعل الغليون مستعينا به على قضاء الوقت ، لكنه تذكر فى الوقت المنـــاسب أن على الانسان ألا يدع نفسه لأهواء الشيطان فى يوم وهبه الى الله • وظل يتقلب فى سريره ، فريســـة لمخاوفه المشئومة • وذهب الى المكتب مبكرا على غير عادته ، لكنه لم ينعم بالراحة هناك أيضا • ولم يذهب الى بيته فى موعد الغذاء ، مما ساء السيدة هرديليا التى كانت تنتظره كالمعتاد •

وأخيرا ، وصلت برقية فى المســـاء • وفضها هرديليا ، الذى كان وحده فى المكتب ، وقرأها بانفعال حتى أن ساعى البرق سمعه يقول : « براءة — تهانئى » • وتنفس العجوز الصعداء وكأن حجر طاحون قد أزيح فجأة عن صدره ، وانفجر على الفور فى نوبة من البكاء • وتسلل ساعى البرق ، الذى كان ينتظر بقشيشا ، خارجـــا بسرعة • وتريث هرديليا حتى هدأ ، ثم ذهب الى بيت السيدة جروفشورو ، فقد كانت شقة المحامى فى نفس المبنى • وحاولت السيدة جروفشورو أن تضحك ، لكنها وجدت نفسها تبكى فرحا • وأخذت تثنى على زوجها الذى تعبده ، على الرغم من أنه هوائى طائش بعض الشىء أحيانا • لكن هرديليا كان أكثر انفعالا من أن ينصت اليها • وأحس كأنما يريد أن يجرى ليخبر كل انسان ، صديقا كان أم غريبا ، بما لديه من نبأ عظيم • وفى المشرب ، هنأه أصدقاؤه وعانقوه ، وهم يستحثونه على الاحتفال بهذا النجاح الباهر بليلة يجرى فيها الشراب أنهارا ، الأمر الذى بذل جهودا خارقة ليرفضه ، حفاظا على صومه • ووصل الى بيته عند الغروب وقد أرهقته الســعادة • واستقبلته الســيدة هرديليــا متجهمة حـانقة لأنه لم يحضر الى البيت فى موعد الغذاء ، لكنها عندما رأت البرقية انفجرت هى وجيجى فى نوبة عالية من النشيج ، حتى ردد المنزل كله أصداء بكائهما وكأن قريبا عزيزا قد مات لتوه • ونجح المدرس فى تهدئتهما بعد جهد جهيد ، وكان هذا من ســوء حظه على أية حال ، فقد أخذت زوجته على الفور تؤنبه لعدم حضوره وقت الغذاء تاركا طعامه يفسد • وحتى عندما اعترف بأنه كان صائما ، لم تكن السيدة هرديليا راضية تماما ، ولو أنها كانت فى أعماق قلبها سعيدة لشعورها بأن هذا « الوثنى » قد عاد أخيرا الى الله •

وذهبوا الى فراشهم مبكرين • وشمل البيت كله شعور بالسعادة

البالغة • ومع ذلك فلم يقض هرديليا فى حياته ليلة مؤرقة مثل ليلته هذه • كان جائعا ، وعذبه حنينه الى التبغ أكثر من أى شيء • وظل يتقلب ساعات طوال فى سريره الدافيء • كان جفنـــاه أشد ثقلا من الرصاص •• لكنه عجز عن النـــوم • وغشيته اغفاءة قرب الصباح فخلصته من سهاده ، اغفاءة عميقة حتى أن السيدة هرديليا اضطرت فى الصباح أن تهزه مرتين لتوقظه ، حتى لا يتأخر فى اليوم الذى يغيب فيه المحامى تاركا مكتبه فى رعايته وحده •

وخرجوا جميعا بعد الظهر فى نزهـــة الى جيدوفيتسا لاستقبال جروفشورو •• وكان الاطفال أول من تعرف على صليل أجراس الخيل • وتوقفت العربة وقفز المحامى ووجهه يشرق بالسعادة • وقبل أن يقبل زوجته ، اندفع نحو هرديليا وعانقه بقوة صائحا :

ـ حسن ، أيها المرتد ، أرأيت ما يستطيع رومانى أن يفعل ؟ •• حذار من الشك فى كلمتى مرة أخرى !

- ٣ -

أخذ كاتب نحيل من يد ايون قـــرار المحكمة بالسماح له بقضاء عقوبة الشهر فى سجن أرماديا • وقلبه الكاتب على وجهيه ، ثم بحث فى ملفاته ، وحدق فيه وهو يهز رأسه مؤنبا ثم كتب شيئا فى سجل مترب، وأعطاه بطاقة صفراء وأرسله الى « نهاية الممر حيث ستجد لوحة صغيرة علقت عليها مفاتيح كثيرة » •

وفى نهاية الممر وجد ايون نفسه فجأة فى فناء السجن • وعرفه فى الحال ، فقد أتيح له أن يفحصه عندما جاء فى موضوع سيميون لونجو • وغاص قلبه وشحب وجهه • كان الفناء خاليا • وانعكست أشعة الشمس الساطعة على بلاط الفناء الحجرى المتآكل • والتمع زجاج النوافذ ذات القضبان المتقاطعة فى أشعة الشمس الدافئة • وبدا فى احدى النوافذ وجه ساكن لشخص حليق الشعر ذو لحية سوداء كثة لم تحلق منذ مدة ، تطل منه عينان ـ هما الشيء الوحيد الحى فى هذا الوجه ـ وقد أسكرهما ضوء النهار • وسرت رعشة خفيفة فى جسد ايون ، ورسم علامة الصليب ثم رفع عينيه نحو السماء الزرقاء ، حيث تعلقت فى صفاء الجو بقع بيضاء من سحب صغيرة ساكنة •

وطرق الباب ذا المفاتيح العديدة ، فتناهى الى سمعه من الداخل صوت خشن غاضب مرتفع • ودخل بهدوء ، وهو يتسلل من الباب كأنه يخشى أن يحدث ضجة • وفى حجرة الانتظار المضيئة رأى الحارس الذى التقى به من قبل • واستقبله الحارس باحتقار بالغ ، بينما مد حارس آخر يجلس أمام منضدة صغيرة يده ليأخذ البطاقة الصفراء ، حريصا على ألا يدخل أحد هذه المنطقة بدون مثل هذه الورقة • وتمتم الرجل الذى طلب البطاقة قائلا بالرومانية حتى يفهم ايون أيضا : « رقم خمسة » •

وأخذ السجان الآخر مطواته وحزامه ، وحقيبة الطعام الذى أعدته له أمه ، وزمجر قائلا :

ـ لا يأكل أحد طعاما زائدا هنا •• أتسمع ؟

وشعر ايون بالأسى اذ يترك مثل هذه الأشياء الطيبة حتى تفسد أو يأكلها السجانون • وود لو استطاع أن يدافع عن طعامه على الأقل ، لكن خوفا غريبا أخذ بتلابيبه ومنعه من أن ينطق بكلمة • وفى وداعة الحمل تبع السجان المتجهم الحانق الذى دفعه الى زنزانة ضيقة ، وأمره بأن يحافظ على نظافتها وألا يحدث ضجيجا • ثم ترك وحده بين جدران أربع عارية ، وسمع المفتاح يدور فى القفل مرتين محدثا صريرا حادا • ووقف مأخوذا بضع لحظات ينظر حوله • كان قلبه يدق بعنف وكأنه عاجز عن أن يجد مكانه • ثم بدأ يسير فى الزنزانة جيئة وذهابا ، بسرعة متزايدة ، كوحش مفترس محصور فى قفص ، وعيناه لا تبارحان النافذة التى لا يرى من خلالها سوى رقعة صغيرة من السماء تبدو من بعيد•

وهدأ فجأة بعد لحظة وقد انتابه الخجل لما أبداه من قلق • وقال لنفسه وهو يقف فى وسط الزنزانة : « على أية حال ، ألم أكن أعرف أن هذا أمر لا مفر منه ؟ •• لتكن مشيئة الله اذن ! »

وخلع معطفه بحرص ، ووضعه على الارض فى الركن القريب من الباب وتمدد فوقه • وشعر بالارهاق كأنه كان مربوطا فى محراث • وأغلق عينيه ثم نام ككتلة من الخشب •

واستيقظ فى نحو منتصف النهار على صيحات السجان الذى كان ينخسه بطرف حذائه فى ضلوعه •

ـ قمواستيقظ ، أيها الكلب ! ليس هذا مكان للنوم • مفهوم ؟ الناس هنا يعملون !

وأرسل مع ثلاثة من المسجونين لقطع الأخشاب فى منزل القاضى ٠

وفى اليوم التالى كان قد اعتاد حيـــاته الجديدة وأصبح راضيا عنها ٠ لم يكن لديه مايشكو منه ٠ فلديه الطعام ، ولديه الراحة أيضا ٠ أما العمل الذى كان يدعى للقيام به فلم يكن سوى مراعاة للمظاهر ٠٠ ولكنه رغم هذا كان يحس بالحنين الى بيته ، لاسيما أنه كان قلقا على الطفل ٠ وكان طوال ليله يحلم بأنه فى بريباس ٠ ولم يكن يحلم أبدا بأنه مع طفله فى البيت ، وانما فى بيت جورج ، بصـــحبة فلوريكا ٠ وضايقه هذا فكان ينتظر بفارغ الصبر حضـــــور زنوبيا يوم الخميس حاملة اليه الاخبار والطعام ٠ وسألها بصوت متشكك خشن :

ـ كيف حال الطفل ؟

فأجابت أمه :

ـ فى أحسن حال ، وصحته طيبة للغاية ٠

كان يحيرها دائما أن يبدى ابنهـــا كل هذا الاهتمام بهذا الطفل الهزيل ٠ وكانت ثائرة فى ذلك اليوم لأن السجان لم يسمح لها بأن تقدم لايون أى شىء مما أحضرته معها من طعام ٠

وكان فى ساعات يقظته يفكر فى بيتريسور ٠ وتوفر لديه الوقت لأحلام اليقظة حتى ليكاد يكون قد حلم بكل ما استطاع أن يستخلصه من رأسه ٠ ولكنه كان كلما أمعن فكره ، بدت له الأسئلة التى يطرحها محيرة أكثر فأكثر ، ولم يجرؤ على محاولة الاجابة عليها ٠ وكثيرا ماكان يسمع صوت حميه واضحا وهو يردد الكلمات التى قالهـا فى جنـــازة أنا ، وكانت صورة الرجل لا تبارح مخيلته أبدا كشوكة فى جنبه ٠ وخطرت بذهنه فكرة فاخترقته كسكين حادة : « قد يقتل باكيو الطفل بينما أنا موجود هنا ، حتى يستطيع أن ينتزع منى أرضى ! »

وأصبحت الجدران خانقة منذ ذلك الحين بدرجة لا تحتمل ، ومرت الأيام ثقيلة بطيئة ٠ وأحس برغبـــة في أن يلقى بنفسه فوق قضبان نوافذه السميكة لينتزعها ويجرى الى بيته ، الى طفله حتى يحميه ٠

ولكن أحلامه اذا ماجن الليـــل لم تكن تحمله الا الى فلوريكا ٠ وتذكر كيف زار جورج منذ أسابيع قليلة ، قبل موت أنا ، وتحدث معه عن المزرعة ، وعن عملهما ، وكيف أنهما رسما معا مشروعات لم تكن لديه النية مطلقا لتنفيذها ٠ واعتاد أن يذهب الى هناك بانتظام ، على الرغم من أنه كان يكره جورج كراهية عميقة ، ويعتبره لصا سطا على

أثمن كنوزه • كان يزوره لا لشيء الا لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تدنيه من كنزه • لم يكن أبدا يحدثهـا بكلمة ، بل انه لم يكن ينظر اليها ، ومع ذلك فقد كان يشعر بالسعادة والبهجة • لم يكن يعرف مايريد ، ولم يبحث أبدا عن مبرر • كان قانعا بأن يحس بها قريبة منه ، ويعلل نفسه بالآمال • وقلت زياراته منذ ماتت أنا ، ولكن قلبه كان يخفى أملا أكبر • أما الآن ،بعد أن لم يعد قادرا على الذهاب لرؤيتها ، فقد أصبحت سيدة أحلامه ، رغم محاولته الدائبة ألا يفكر فيها •

وكان ايون دائما يحس بالسعادة كلما استيقظ من نومه ، سعادة يسدل عليها ضوء النهار ستارا من اهتمامه بطفله •

ولم يمض أسبوعان حتى كانت أفكاره وأحلامه قد جعلته نحيلا أعجف كأنه كلب من كلاب الصيد •

واصفر وجهه شحوبا ، وتغضنت أجفانه هما • وظلت عيناه وحدهما تومضان بعاطفة أكثر فيضا وعزم أكثر مضاءا •

- ٤ -

تلقى هرديليا بعد نحو عشرة أيام برقية من مفتش التعليم فى بيستريتسا ، يأمره فيها بتسلم مهامه فى مدرسة بريباس فورا • وأخبره أيضا أن مذكرة قد أرسلت الى مكتب تحصيل الضرائب فى أرماديا لصرف مرتبه الذى احتجز خلال فترة الايقاف •

وقال المدرس : « ان الله وحده هو الذى ينزل العقاب ، وهو الذى يعفو أيضا » • وغمرته السعادة حتى أنه شرب زجاجتين من البيرة فى مشرب راهوفا ، وحمل معه الى البيت أيضا زجاجة من النبيذ حتى تسخنه زوجته وتمزجه بالسكر والقرفة ، كى تستطيع العائلة أن تحتفل بجلال يتناسب مع روعة المناسبة التى لا تقل جلالا عن ذلك اليوم الذى نجا فيه من خطر الحكم عليه •

ورغم أن السيدة هرديليا قد انتابها الغضب قليلا وأنبته على سكره ، كما اعتادت فى مثل هذه الظروف ، فانها غلت النبيذ فى النهاية ونحته جانبا لتتبله بعد العشاء • وكان النبيذ شهيا حتى أن هرديليا أراد أن يجبر جيجى على أن تشرب ملء كأس منه على الأقل ،

الأمر الذى رفضته بشدة ، بالطبع ، فلم يكن من اللائق لفتاة مثلها أن تدنس شفتيها بالخمر ٠

وعقدوا اجتماعا عائليا طويلا بعد العشاء وقد أسكرتهم السعادة ـ والنبيذ أيضا بالنسبة لهرديليا على الأقل ـ وسرعان ما اتفقوا على أن هذا المبلغ من المال الذى هبط عليهم من السماء ينبغى أن ينفق فى تجهيز الآنسة جيجى ـ رغم ما انتابها من خجل لهـــذا الحديث ـ فمن يدرى متى سيحتاجون اليه ؟ ثم عادوا الى مناقشة المشكلة التى طالما تنازعوا حولها فى الأيام التعسة الماضية : هل يعودون الى بريباس ، أم يبقون فى بيتهم هنا ويذهب هرديليا الى المدرسة كل صباح ويعود فى المساء كما فعل زاجريانو ؟ كانت السيدة هرديليا ، بارتباطها العميق بكوخها ، ترى أنهم يجب أن يعودوا الى بريباس ٠ وكانت حجتها الأساسية هى خوفها من غضب « ذى الشعر المنفوش » لأنهم خرجوا ظافرين من كل ماتعرضوا له من مشاكل وقضايا ، وأنه قد يختار هذه اللحظة لاثارة المتاعب حول المنزل ٠ وعلى الرغم من أن هرديليا كان يشاركها الرأى فى الأساس ، الا أنه كان يود أن يذهب الى مدرسته ويحتفظ فى نفس الوقت بمرتبه الذى يتقاضاه من جروفشورو ، بعد أن يصل الى اتفاق على العمل معه بعد الظهر أو فى المساء ٠ فقد رأى أنه من المؤسف أن يفقد مرتبا ومصادر ممتازة أخرى للدخل ، خاصة وأنه لا ضـير فى أن يفكر فى بائنة جيجى أيضا ٠ فالبائنة للفتـــاة تضاعف فرصـها فى الزواج ٠ لقد نجحت لورا فى الزواج لأنه كان من حظها أن وجدت مثل هذا الشاب اللطيف ، ولكن أمثاله قليلون ٠ ومن ذا الذى يســتطيع أن يتنبأ بما سيتاح لجيجى من فرص ٠

وضايق الفتاة قولهم هذا ، وأقسمت ـ بالطبع ـ ألا تتزوج ٠٠ وكان هذا كافيا لرفع حدة النقاش ٠ وانتقلت السيدة هرديليـــا فورا الى اتهامها بقسوة بأنها تحلم بقلاع فى الهواء كما كانت لورا تفعل ، متخذة كمثال على قولها موقف اللامبـــالاة الذى تتخذه جيجى تجـاه زاجريانو ، رغم أنه شاب محترم ويبدو أنه يحبها أيضا ، بينمـا تترك نفسها لكل أنواع الخيـــالات والأوهام وكأنهـا لا تقل عن ابنة حاكم المقاطعة ٠ واعترضت جيجى ، وذرفت دمعها حارا وسدت أذنيها حتى لا تسمع والديها يقولان :

ـ أنت ترين كيف استقرت لـــورا سعيدة ، لأنها استمعت الى نصحنا ٠

وسألتهم جيجى يائسة فى النهاية :

ـ وهل طلب يدى ؟ أم تراكم تودون أن أذهب الى هذا السيد وأغازله حتى أدفعه الى الملل !

وبدت فكرة ذهابها الى زاجريانو ومغازلته مسلية جدا حتى انحسر غضبها فجأة وانفجرت ضاحكة ، مما جعل السيدة هرديليـــا بدورها تبتسم ٠

وهكذا انفض المجلس فى جو مبتهج ، رغم أنه لم يتخذ فيه أى قرار ٠ وتقرر أن يذهب المدرس فى الوقت الحالى الى بريباس كما كان زاجريانو يفعل ٠ ويمكنه فيما بعد أن يتحدث الى جروفشورو ثم يرون ماينبغى أن يفعلوا ٠

وكانت جيجى وحدها هى التى ذهبت الى فراشـــها وهى تشعر ببعض الضيق ٠ لم تكن قد فكرت مطلقا حتى الآن فى زاجريانو تفكيرا جادا ٠ كانت تراه شابا لطيفا ، ولكن أن تتزوجه ؟ ٠٠ وأخذت الى النوم وهى تقول لنفسها : « هؤلاء العجائز غاية فى الغرابة ! ان أول شىء يشغل بالهم هو الزواج ٠ »

وحلمت فى تلك الليلة بزاجريانو ، وضحكت أثناء نومها بصوت مرتفع أيقظ السيدة هرديليا التى رسمت علامة الصليب على صدرها ٠

حلق هرديليا ذقنه فى اليوم الذى عاد فيه الى عمله ، وتأنق كفتى ذاهب الى موعد غرام ٠ وخرج فى الصباح الباكر ، وسار ببطء حاملا فى يده لفافة صغيرة تحوى غذاءه ٠ وبدا الطقس أيضا كأنما يحتفل بعودته الظافرة ٠ كان يوما رائعا من أيام شهر مايو ، والشمس ترسل أشعتها فى لطف ورقة ٠ وكان الطريق المؤدى الى بريباس أبيض كاللبن ، تظله غابة دومنياسكا التى كانت تترنم بأغنيـــة الصباح العـــذبة الرقيقة ، منافسة للطيور المغردة التى كانت تقفز فى حقول الذرة والقمح ٠٠٠ وامتلأ قلب المدرس بالعاطفة مع كل خطوة كانت تقربه من القرية ٠ والتقى بالفلاحين الذاهبين الى أعمالهم والذين ابتسموا له فى ود فبادلهم الابتسام ٠ وصادفه توما بولبوك قبيل مضيق الشيطان ، فاستوقفه وأخبره أن الله لم يتخل عنه ٠ وهز توما رأسه وأجابه وعيناه تومضان بالفرح :

ـ ليحفظك الله سالما معـــافى من أجلنا ياسيدى المدرس ، لأنك واحد منا وكل منا يعرف متاعب الآخر ٠٠

وتوقف ليتبادل الحديث مع تريفون تاتارو ، ومع فلوريا تانكو ، العمدة ، ومع كوزما كيوكاناش ، خفير القرية ، وهو يخبر كلا منهم بنجاحه بزهوه الساذج نفسه · ونظر الى ساعته عندما وصل الى مشارف القرية · لقد وصل مبكرا جدا · وقال مفكرا وقد غمرت وجهه سعادة بلا حدود : « لقد استغرقت أقل مما توقعت · هذا أفضل ! فقد أردت على أية حال أن أرى حال كوخنا البسيط ·· من حسن الحظ أنى أحضرت مفاتيحه معى !

وبدا الكوخ بنافذتيه المطلتين على الحقول كأنه يحدق فيه بشوق وحب · وتمتم هرديليا برقة :

ـ ياله من كوخ صغير مسكين ! لقد هجر منذ مدة طويلة ! حقا ، انها أكثر من خمسة شهور ·· ليس هذا هزلا !

كانت الأعشاب قد نبتت بوفرة فى الفناء · وكانت الحديقة المهملة قد غشيتها الأعشاب أيضا · ونسجت جيوش العناكب شباكها تحت افريز السقف ، وتشقق طلاء الجدران وسقط فى أماكن متفرقة· ودار المفتاح بصعوبة فى القفل ، ولفح وجهه تيار من الهواء اللاذع العفن · ورددت الحجرات الخالية صدى وقع أقدام المدرس بكآبة · وتوقف هرديليا فى كل حجرة ينظر اليها ثم يتنهد · وقال لنفسه وهو يخرج الى الشرفة ، ويشبع عينيه بمشهد القرية التى اتشحت بالزهور والخضرة : « كان ينبغى أن نحضر لتهوية الكوخ والعناية به ، ولكن عندما يكون الانسان غارقا فى المشاكل فانه فى الحقيقة لا يفكر فى شىء آخر سوى متاعبه · »

وحياه جلانيتاشو العجوز باحترام من فنائه رافعا قبعته بوقار كعادته · وخرجت زنوبيا الى الفناء تحمل حفيدها الذى كان يعوى بأعلى صوته · وأخذت تدعو للمدرس شاكرة لله على أن أعاده ، فقد كانوا جميعا حزانى لعدم وجود مثقف فى القرية ، اذ كان القس مشغولا بكنيسته عن التفكير فى أى شىء آخر ·· وأخبرهم هرديليا بدوره بالتعليمات التى تلقاها بالبرق ، والتى تأمره بالذهاب فورا الى المدرسة اذ لم يستطع أى أحد آخر تعليم الاطفال مايحتاجونه الى معرفته · وجاء ماكيدون سيرسيتاشو وغيره من الجيران كل وراء الآخر ، واستمعوا الى كلماته مأخوذين عجبا ورضى ، وكلهم يشكون من أن المدرس الشاب قد تمادى أكثر مما ينبغى · وتساءل هرديليا :

ـ ولكن أين ايون يا الكسندرو ؟

فاجابت زنوبيا وهي تدفع زوجها جانبا :

ـ ألا تعلم ؟ ٠٠ ألم تكتب له الالتماس لكي يبقى في أرماديا ٠٠

وأضاف جلانيتاشو مسرعا ليخفي ما أصابه من حرج لأن زوجته أسكتته :

ـ ان الله سيساعده هو الآخر ٠

فأجاب المدرس وهو يومىء برأسه :

ـ أنت على حق يا الكسندرو ، السجن للرجال ، ليحفظ الله عليه صحته ، ولن يلبث أن يعود اليكم عما قريب ٠

كان زاجريانو قادما لتوه من أرماديا ، سائرا في مرح ، يحرك مظلته التي لا تفارقه مطلقا ، متمسكا بتقاليد المثقفين الذين لا يبرحون منازلهم دون مظلة ، كالجندي الذي لا يخرج بدون سلاحه ٠ وحيا الشاب هرديليا باسما ، وهم بأن يواصل طريقه الى المدرسة ، لكن هرديليا استوقفه قائلا بمرح :

ـ لحظة من فضلك يازميلي ، سأكون معك في لحظات ، فنحن ذاهبان في نفس الطريق ٠

فأجاب زاجريانو بحفاوة :

ـ بكل سرور ياسيدي !

وأضاف هرديليا وهو يهبط الى الطريق بينما كان الفلاحون ينصتون في سكون الى حديث السيدين :

ـ على أية حال ، فأنت ستسلمني المدرسة اليوم ٠

فقال الشاب مندهشا وقد تضرج وجهه حتى منبت شعره :

ـ حقا ؟ أنا لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع ٠٠ لم تصلني تعليمات ٠٠

وتعثر في حرج بالغ ٠ وأحس بالخجل وخاصة أمام الفلاحين الذين راحوا يبتسمون في ازدراء ٠ وقال هرديليا وهو يخرج البرقية ويلوح بها بجبروت المنتصر :

ـ وصلنى الأمـر أمس ·· برقيـــا ·· لو كنت التقيت بك فى أرماديا لأخبرتك ! هاهى يازميلى ! وهى موقعة بتوقيع المفتش الجديد ·

وتمتم زاجريانو وقد عجز عن استعادة ثباته :

ـ نعم ·· نعم ·· واضح ·· لنذهب ·· سأسلمك بالتأكيد ·· بكل سرور ·· اننى مندهش فقط لأنهم لم يحيطونى علما ·· على أية حال ، فهذا لن يغير من الأمر شيئا · أعتقد أنى سأتلقى اخطارا رسميا· لا يهم بالطبع ، انها صحيحة تماما ··

وأمن العجوز على قوله موافقا :

ـ ستتلقى اخطارا رسميا ، بطبيعة الحال ، بالتأكيد ·

وعندما وصـــلا الى المدرسة أشرقت وجوه الأطفال عنـدما رأوا هرديليا داخلا ، وجروا الى الفناء ، بناء على أمر هرديليا ، ليلعبوا حتى يتسلم المدرس الأوراق الرسمية · وبدأ عمله بعـد رحيل زاجريانو مباشرة ، بأقصى قدر من الحماس والحب وكان هذه هى المرة الأولى التى يقف فيها موقف المدرس · وفتح البـــاب ليدخل هـواء الربيع النقى المنعش · وأنصت الأطفال ، دون أن يدركوا كل مايجـــرى حولهم ، وأجابوا على أسئلته وقد غمرهم احساس بالارتياح ، وكأن أبوهم الذى يحنو عليهم قد عاد ليحل محل زوج أمهم ·

وعاد هرديليا خلال فسحة الظهيرة ، مارا بالدرب الخلفى ، تحفزه رغبته فى أن تراه القرية كلها · وأخذ يتبادل الحديث عند كل فناء حتى بلغ نهاية القـــرية من ناحية ساراكوتسا · وكان بلكيـوج فى شرفة منزله ، وقد تلطخت ملابسه بالطلاء والمونة ، اذ كان عائدا لتوه من موقع بناء الكنيسة الجديدة حيث كان البناءون يعملون بهمة · وصاح هرديليا بصوت ودود دافىء :

ـ مرحى يا ايون ، كيف حالك ؟ هل كل شىء على مايرام ؟

فأجاب القس مبتسما وهو يتجه نحو البوابة :

ـ الحمد لله يازهاريا ! لازلت أسعى وحدى بقدر ما أستطيع ·

وقال المدرس بفخار لا يكاد يحاول اخفاءه :

ـ أتعلم أنى قد استعدت مدرستى مرة أخرى ؟

فأجابه بلكيوج جادا مخلصا :

ـ عود حميد يازهاريا ، شكرا لله ! لقد كان زاجريانو هذا خطرا على كل انسان !

وتصافحا دون كلمة أخرى ٠ وسار هرديليا الى البيت ليـــأكل الطعام الخفيف الذى أحضره معــه ، بينما وقف بلكيوج يرقب رحيله وقد استغرق فى التفكير ٠

ـ ٥ ـ

انطلق ايون كالرصاصة الى منزله عنـــدما أفرج عنه ٠ كان قلبه يدق بعنف فى قبضة مخاوفه المشئومة ٠ وظل يكرر وهو يحث الخطى على الطريق من جيدوفيتسا الى بريباس : « ليته لا يكون الطفل » ٠

وعندما خطا الى الفناء تناهت الى سمعه بوضوح صرخة مشروخة واهنة لطفل مريض ٠ « أترى ٠٠ هكذا يعاقبنى الله دون ما سبب ! » ٠

كان بيتريسور ، بعينيه المغمضتين المبللتين بالدموع ، يئن راقدا على ظهره ، ممـــدا على السرير ٠ وبين الحـــين والحين كان يرفع يديه الصغيرتين ليضغط كلا منهما بالأخرى ويرتعش وكأنه يناضل ليخلص نفسه من ألم ممض ٠ وكانت زنوبيـــا أمام المدفأة ، تلتقط جذوات محترقة كتعويذة تحميه من عين الحسود ٠ وجلس جلانيتاشـــو ، أكثر منها حزنا ، على طرف السرير يهدىء الطفل ٠

ـ كفى ياحبيبى ، كفى ٠٠ اهدأ ٠٠ كفى ، كفى !

وألقى ايون بربطته على الأريكة الخشبية وســـار الى الفراش ٠ وصاح اذ رأى وجنتى الطفل الغائرتين الشاحبتين :

ـ هذه نهايته ، لا فائدة ، انتهى كل شىء !

وأجابت زنوبيـــا وهى ماتزال أمام المدفأة حيث كانت تنفخ فى النار :

ـ كلا ، كلا ٠٠ ليس الأمر بهذه الدرجة من السوء ٠٠ لابد أن أحدا قد حسده ، فحولنا عديد من الناس الأشرار ٠

وحول صوتها الهادىء فجأة خوف ايون الى غضب عاصف ٠ وبدا

له أن أمه تحاول قتل طفله عمدا ، فتحول اليها كالمجنون وأمسك بها من شعرها وأخذ يضربها بكل قوته وهو يزأر :

ـ أنت تقتلين طفلي ·· عن عمد ·· لقد قتلته !

وتملك زنوبيـــا الخـوف فأحجمت عن الصراخ في أول الأمر ، وانكمشت على نفسها تئن تحت كل ضربة · وقفز جلانيتاشو لينقذها من يدى ولده فناله بدوره نصيب من ضرباته · وصرخت زنوبيا وهى تندفع الى الفناء بشعرها المشعث :

ـ أغيثونى ، الوغد يقتلنى ! أغيثونى أيها الجيران ! ·· أغيثونى·

وأصلحت من وضع وشاحها على رأسها ، وعادت الى المنزل وهى تسب ايون سبابا متصلا ، بينما جلس هذا أمام المنضدة وقد هدأت ثائرته بعض الشيء ، وجمدت عيناه على الطفل ، وأصم أذنيه عن سماع أى شيء سوى نشيج طفله الخافت العاجز الذى مزق نياط قلبه كطعنات خنجر حاد ·

وعادت زنوبيا الى اعداد تعاويذها ـ وكان مشهودا لها بالمهارة في هذا المضمار ـ محاولة أن تطيب خاطره · وأحضرت دلوا مليئا بالماء من البئر ، وملأت وعاء ثم وضعته على الموقد · وأمسكت ملقطة النار بيسراها والتقطت جمرة من الفحم ثم أسقطتها فى الماء الصافى ، ورسمت علامة الصليب فى داخل الوعاء بســكين أمسكتها بيــدها اليمنى وهى تردد قائلة : « تسعة ، تسعة » · ثم أسقطت جمرة أخرى ، ورسمت الصليب مرة أخرى وهى تعد : « ثمانية » · وواصلت عملها على هذا النحو حتى وصلت الى رقم « واحد » · وأحدث سقوط الجمرات المشتعلة فى الماء فحيحا حادا ، وهمست العجوز وهى تلقى بنظرة جانبية على ايون :

ـ يا للأسف ·· وا أسفاه ، لقد حسدته عين شريرة ، عسى الله أن يفقأها !

وانتصبت واقفة ، ورسمت علامة الصليب على الماء بسكينها عدة مرات ، ثم بدأت تنشد بلحن بطيء طويل ممطوط لا يكاد يفهم :

ـ أيتها العذراء المقدســـة ، يا أم الـرب · اذا كان بيتريسور محسودا بواحد فخلصيه باثنين ، واذا كان مسحورا باثنين فخلصـــيه بثلاثة · واذا كان مسحورا بثلاثة فخلصيه بأربعة · واذا كان مسحورا

بأربعة فخلصيه بخمسة • واذا كان مسحورا بخمسة فخلصيه بستة • واذا كان مسحورا بستة فخلصيه بسبعة • واذا كان مسحورا بسبعة فخلصيه بثمانية • واذا كان مسحورا بثمانية فخلصيه بتسعة ، بكلتا يدى ! اجعلى بيتريسور يسعى وينهض ، نقيا كالذهب الخالص ، متالقا كالفضة ! •• واذا كان محسودا بعيون بنية ، أو محسودا بعيون سوداء ، أو محسودا بعيون عسلية ، فليزل الحسد برقيتى ، وليتم له الخلاص برحمة الله وفضله !

ثم أسقطت بضع قطرات من الماء المسحور بطرف السكين فى فم الطفل ، وغمست أصابعها في الوعاء ثم رسمت علامة الصليب على جبهته ثلاث مرات ، وثلاثا أخرى على ذقنه ، وثلاثا على صدره ، وثلاثا على باطن كل قدم •• وكف بيتريسور عن البكاء فى الحال ، لكنه استمر فى الأنين المكتوم ، وعيناه المفتوحتان تحملقان فى فزع كأنهما تحدقان فى منظر مخيف • وتمتمت زنوبيا وهى تفرغ اناء الماء على عتبة الباب :

ـ لقد غاصت الجمرات كلها الى القاع • لقد سحر الولد الصغير • عسى أن تنشق الارض وتبتلع العيون التى تحسد الأرواح البريئة •

وظل ايون ساكنا لا يحير حراكا فوق الأريكة الخشبية ، وقد أسند مرفقه الى المنضدة ، دون أن يمس الطعام الذى وضعته أمه أمامه • كان عقله يزخر بأفكار سوداء • ونظر من النافذة بعد برهة فلمح هرديليا الذى تصادف مروره أمام المنزل ، فهب واقفا وقال وهو يندفع عارى لرأس الى الفناء كالمجنون :

ـ لقد أرسله الله الى !

وتوقف هرديليا وقد سرته رؤيته ، وسأله

ـ متى أفرج عنك يا ايون ؟ من رحمـــة الله أنك عـــدت حرا مرة أخرى • لقد عدت الى وظيفتى أيضا • ولقد حضرت توا من المدرسة ، اذ سمحت للأطفال بالذهاب للغذاء •

فانتحب ايون قائلا بدلا من أن يجيبه :

ـ ابنى يموت ياسيدى المدرس • انه ينتهى ياوالدى •• واذا مات، فماذا سيصير اليه أمرى ؟ ماذا أفعل ؟

ـ لا تكن غبيا ، انه لن يموت • كل الأطفال يمرضون أحيانا •

فكرر الفلاح قوله بثقة بددت الابتسامة من شفتى هرديليا

ـ انه يموت ياوالدى · أؤكد لك أنه يموت · اننى أشعر بهذا ·

ـ استدع طبيبا اذن يا بنى !

زمجر ايون ، وحدق فى عينى المدرس بنظرة جمدها الفزع قائلا :

ـ لا جدوى ياوالدى · ماذا يستطيع الطبيب أن يفعل عندما ينفذ سهم الله ؟ هذا جزائى ياوالدى ، فى الحقيقة ·· ألم أقل لك منذ أمد بعيد ؟

فقال هرديليا وهو يفكر بامعان :

ـ اننى فى غاية الأسف · اذا كان الأمر هكذا ، فاننى آسف جدا حقا ·

وسأله الفلاح :

ـ وسأعود مفلسا مرة أخرى ·· وتعـــود الارض من حيث أتت ، أليس كذلك ؟

وتعلقت عيناه بشفتى المدرس أملا فى انكار ينقذه · وقال هرديليا بصوت بطىء متردد :

ـ حسن ·· بشكل ما ·· لن يكون هذا شيئا طيبا بالطبع · ولكنه لن يكون أيضا بهذا القدر من السوء على نحو ما تتصور ·· فأنت والد الطفل على أية حال ، واذا مات ، لا قدر الله ، فأنت وريثه بصفتك والده ·· هذا ما أعتقده على الأقل ··

وتساءل ايون وقد اتسعت حدقتاه :

ـ ولكن ماذا عن حمى ؟ ماذا عن فاسيلى باكيو ؟

ـ حسن ، بالطبع سيكون فى امكانه أن يقول الكثير ·· ان ما أعطاك اياه كان من أجل ابنته · وابنته ماتت · واذا مات الطفل أيضا فقد يطلب استعادة الارض بالطبع ·· أنا لا أعرف خير مايمكن عمله ·· ولكنى أقول أنه من الأفضل أن تحاول الاتفاق معه · لقد رأيت بنفسك مايعنيه الذهاب الى المحكمة ، فالمرء لا يجنى منها سوى المتاعب ·

لكن ايون كان مسرورا · فاذا كان الأمر مسألة اتفاق ، فهذا يعنى أن أحدا لن يستطيع أن يأخذ أى جزء من ممتلكاته دون معركة ·

وفى الداخل ، بدأ بيتريسور يبكى بمرارة مرة أخرى · لكن بكاءه لم يعد يمزق قلب ايون كما كان يمزقه من قبل ·

جاء فاسيلى باكيو فى اليوم التالى ليرى الطفل ، فقد سمع بأنه يموت • وراقب ايون كل حركة من حركاته باهتمام بالغ • كان فاسيلى باكيو هادئا تماما • وقد ربت الطفل قليلا ونصح زنوبيا بأن تضع على معدته المتورمة كمادة ساخنة من التبن المعجون فى لبن حلو من بقرة وضعت لتوها عجلها الأول • ثم قال لايون وهو يهم بالرحيل :

ـ ماكان يجب أن تفطموه بهذه السرعة ••• والآن ، ماذا ستفعل ، اذا مات ؟

وأطلت من عينيه نظرة فاحصة • بيد أن ايون أجاب بغير اكتراث :

ـ حسن ، وماذا أستطيع أنا فعل ياحماى ؟ سندفنه ••• اذا لم يهبه الله العمر ، فماذا نستطيع أن نفعل ؟

وسعل فاسيلى باكيو سعالا قصيرا ، كأنما أراد أن يقول شيئا ثم عدل عن قوله • وانصرف مغمغما باقتضاب :

ـ حسن ، وداعا اذن •

كان ايون قد بدأ بالفعل يفكر فى دفن الطفل ، وأخذ يحسب نفقاته وقرر أن يدفنه بجانب أنا ، اذ كان قبرها أوسع وألطف •

وأخذ بيتريسور يذوى بعد ذلك ساعة بعد أخرى • وفى اليوم الرابع لم يعد يقوى حتى على البكاء ، ولم يصدر عنه سوى حشرجة خشنة فى حلقه كأنها صوت منشار يقطع خشبا جافا •• وعندئذ أحضر ايون الطبيب « الدكتور فليبويو » من أرماديا • وعندما وصل مع الطبيب كان الطفل باردا • ورأى فليبويو معدة الطفل الأرجوانية المتورمة المشدودة ثم هز كتفيه قائلا :

ـ لقد سممتموه بحماقة بذلك الطعام الذى كنتم تعطونه له ••• لو استدعيتنى قبل أن يبدأ فى الانتفاخ ، ربما استطعنا انقاذ حياته •

وجاء فاسيلى باكيو مكتئبا حزينا ، بعد الجناز مباشرة ، ليتحدث الى ايون الذى كان فى انتظاره • ودخل الى موضوعه مباشرة قائلا بلا مقدمات :

ـ حسن يازوج ابنتى ، ينبغى أن نصل الى اتفاق شريف • لقد ماتت أنا ، ومات الطفل ••• فليتغمد الله روحيهما برحمته ، فمصيرنا وحياتنا ملك يديه ••• لقد أعطيتك بائنة لائقة • وما لم أعطه لك ،

انتزعته منى بالقوة ؛ وهـذا ما كنت تسعى وراءه طوال الوقت · ولقـد رأيت بنفسك أننى لم أعترض وأعطيتك كل شيء · فقـــد كنت أعطى ما أعطى لابنتى على أية حال ··· أليس كذلك ؟

أشاح ايون بعينيه عنه ولم يجب · واستطرد فاسيلى باكيو بنفس الصوت الهادىء :

ـ حسن اذن ··· والآن وقد ماتت أنا والطفل ، فمن العدل أن يعود الى ما كانا يملكانه · هذا هو ما يقضى به القـانون وما يقضى به حسن المعاملة ··· وهذا هو ما جئت اليك من أجله ، حتى لا يكون هناك مجال لمناقشات أو منازعات أخرى ·

فقال ايون ببرود :

ـ ولكن لماذا يعود اليك وهو ملـــكى يا أبى · أعتقد أن ما أملكه يجب أن يظل ملكا لى !

ـ نعم ، ان ما تملكه سيظل لك · كل ما أطالب به هو ما يخصنى·· اننى أريد استعادة أرضى ·

فقاطعه ايون ضاحكا فجأة :

ـ لا تضيع أنفاسك هباء يا حماى · أنت رجل عجوز ، وينبغى ، بشرفى ، أن تكون أكثر ادراكا للأمور !

وأثارت ضحكته فاسيلى باكيو ، بيد أنه تمالك نفسه وأجابه بصوت اكثر عمقا ، وان ظل هادئا :

ـ لقد أردت الوصول معك الى اتفاق وأن أعاملك كانسان شريف · لكنى أدرك الآن أنك مازلت كما كنت دائما · لقد كنت لصا ، وما زلت الآن لصا · لاعجب أنك قد خرجت من السجن توا ·

فضحك ايون ضحكة خبيثة قائلا :

ـ حسن جدا ياحماى · ليكن ماتقول · اننى أفضـــل أن تدعونى لصا على أن أدعوك بنفس الوصف · اننى أفضل هذا كثيرا ·

وقال فاسيلى ناهضا :

ـ وهو كذلك اذا كنت لا تريد الاتفاق بشكل ودى ، فانك ستستمع

الى حديث غير ودى . اننى لم أذهب الى المحكمة طوال حياتى ، ولكنى هذه المرة لن أدعك تفلت ، حتى ولو بعت أخر ثوب أرتديه .

وظل ايون يضحك وهو يصـــحبه الى البوابة . لكنه أحس عندما صار وحده بأن ما أبداه العجوز من ثبات وضـبط للنفس قد بدد جزءا من ثقته بنفسه .

- ٦ -

أرسل هرديليا ، فى الوقت الملائم ، تقريره الى المفتش معلنـــا أن الامتحانات فى بريباس ستجرى يوم الأحد الثانى من شهر يونية كمـا جرت العادة . فعلى الرغم من أنه كان قد كتب الى هورفات مهنئا بترقيته ومعبرا عن احترامه ، الا أنه كان يخشى الامتحانات المقبلة كما لم يخشها أبدا فى حياته . فقد أنبىء بأن المفتش الجديد يحضر بنفسه الامتحانات فى المدارس التى يعتقد أنها لم تسر سيرا مرضيا فى تدريس لغة الدولة الرسمية ، ومن ثم فقـــد كان متأكدا من أن هورفات ســوف يحضر الى بريباس أيضا . وتذكر زيارة المفتش فى العام الماضى ، وما وجهه اليه من تحذير ، وغمغم فى قلق :

ــ السعادة لا تدوم أبدا .

كان زاجريانو قد استخدم ــ خلال فترة ايقافه ــ طريقة مختلفة ، الأمر الذى لم يؤد الا الى زيادة الارتباك فى أذهان الأطفال . ولم يعد أمام هرديليا الآن سوى شهرين أو أقل ليغطى برنامج عام كامل . لذلك فقد بدأ العمل بكل طاقته ليحشو أذهانهم الفتية بكل ما يستطيع من كلمات هنغارية . كان يحضر الى المدرسة منذ شروق الشمس ويظل بهـــا حتى الغروب ، يحدوه الأمل فى أن ينجح فى ارضاء المفتش ... وكان يرتعد فرقا أيضا لأن بلكيوج ، فى غمرة انشغاله بوصفه قسا ببناء الكنيسة الجديدة ، كف تماما عن اعطاء دروس الدين بالمدرســـة وكثيرا ما كان هرديليا يقول للقس مازحا ، وان كان فى أعماقه يشعر بالخوف :

ــ لا تنس أيها الأخ ايون أن المفتش ســـوف يحضر الامتحانات ، وعندئذ سنكون مسئولين عن هذا التقصير !

ــ أنا لا أقيم وزنا لمفتشك هذا ... لو أنك علمت بما أعانيه من متاعب مع هؤلاء البنائين ماكنت تهتم حتى بمجرد ذكره أمامى يا زهاريا !

لم تكن بينهما صداقة وطيدة ، ولكن لم يكن بينهما عداء أيضا ٠ فلم يكن أحدهما يسعى الى صحبة الأخر ، أو الى تجنبه ٠ فاذا ما التقيا مصادفة كانا يتبادلان بعض الحديث فى الشئون الرسمية ، عازفين عن اطالة حديثهما أو طرق أى من الموضوعات التى فرقت بينهما فيما مضى ٠

صحب هرديليا الأطفال جميعا الى نزهة فى الغابة فى يوم السبت السابق على الامتحان ، حيث أحضر فروع الأشـجار والأزهار ، وزين الفصـول بباقات من الزهور ٠ وعاد الى آرماديا فى سـاعة متأخرة من الليل ، يجر أقدامه منهكا ٠ وكان قد بدأ لتوه يشكو الى زوجته ارهاقه فى العمل عندما توقفت عربة أمام منزله ، واندفعت جيجى الى الحجرة قائلة فى انزعاج :

ـ أبى ، أبى ٠٠٠ انه المفتش !

ونسى هرديليـا فجـأة ما به من تعب وأسرع خارجا ٠ وتمتمت السيدة هرديليا :

ـ لعنة الله على هـذا الرجل ٠ انه لا يتركك لحظة حتى تلتقـط أنفاسك ٠

وعاد المدرس يصحبه المفتش بعد دقيقة أو اثنتين ٠

ـ لقد بحثت عنك فى بريبـاس ٠ لم أكن أعرف أنك لا تسـكن هناك ٠ بصراحة ، أنا لا أفهم كيف يمكن لمدرس أن يدير مدرسة ادارة صحيحة وهو يسـكن فى مكان آخر ٠ على أية حال ، سننظر فى هـذا الأمر غدا ٠

وتمتم هرديليا بكلمات غير واضـحة ، فلم يكن يتحدث الهنغارية بطلاقة اذا انفعل أو ارتبك ٠ وجذب مقعدا للمفتش ، ومسحه بمنديله خشية أن يكون قد علق به بعض الغبار ٠ وقال هورفات وقد اثاره أن يسمع لغة البلاد الرسمية مشوهة من فم أحد مدرسي الدولة :

ـ أشكرك ٠ أشكرك ! ٠٠٠ لقد أردت فقط أن أعرفك أننى حضرت خصيصا من أجل امتحاناتك ٠٠٠ فلم تكن فى المرة السابقة ـ فيمـا أذكر ـ ممتازا جدا ، وقد أردت أن أرى مدى ما حققت من تقدم ٠ لكنى الآن أود أن أجد فندقا أو مكانا أقضى فيه ليلتى ٠

وأسرع هرديليا يزوده بما يطلب من معلومات مؤملا فى التخلص منه بأسرع ما يمكنه :

ـ هناك فندقان يا سيدى ، لكنى أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب الى مشرب راهوفا ٠٠٠ فهو نظيف ورخيص ٠

لم تتحرك السيدة هرديليا من مجلسهـــا على الأريكة بالقرب من النافذة ، حيث كانت ترتق أحد سراويل هرديليا القديمة ، لتوفر حلته الجيدة التى كان يرتديها فى مكتب جروفشورو ، فقد كان زوجها ينوى أن يعود الى عمله هذا بحماس بالغ بعد أن تنتهى الامتحانات ٠ ووقفت جيجى مبهوتة وقد تجمدت على شفتيها ابتسامة خجلة ، عاجزة عن أن ترفع عينيها عن المفتش الذى كان بمثابة معبود يوحى بالرهبة فى بيت كل مدرس ٠ وتساءل هورفات :

ـ أسرتك ؟

فأجاب هرديليا وهو يعقد ذراعيه على صدره احتراما :

ـ أجل يا سيدى ٠ وهناك ابنـــة أخرى ، متزوجة ٠ تبارك اسم الله ٠٠٠ وابن ٠٠٠ لا يقيم معنا أيضا ٠

فقال المفتش ، موجهـــا حديثه الى زوجة المدرس ، مجـــاملا فى استعلاء :

ـ أظنك مشغولة بشئون البيت يا سيدتى ؟ لطيف جدا حقا ! ان الاشراف على شئون المنزل هو أعظم مجد للمرأة ٠

وقالت السيدة هرديليا بترفع أزعج زوجها ، دون أن تتنازل برفع أنظارها عما فى يدها :

ـ اننى لا أتحدث الهنغارية ٠

فسألها المفتش فى دهشة :

ـ ماذا تعنين ؟ ٠٠٠ أنا لا أفهم ما تقولين !

وأجابت السيدة باستعلاء ســاحق وهى تزم شفتيهـــا كأن مجرد التفكير فى التحدث بالهنغارية يثير أعصابها :

ـ أنا أفهم جيدا ما تقول ، لكنى لا أحب أن أتحدث بالهنغارية ٠ فأنا أكره أن أسخر من نفسى بالحديث بلغة أجنبية عندما لا تكون هناك حاجة الى ذلك ٠

وعلى الرغم من أن المفتش هورفات لم يفهم ما قالته السيدة هرديليا كله ، الا أنه أدرك أن هـــذه المرأة ، وهى زوجة أحد مدرسى الدولة ،

لا تتحدث الهنغارية . واذ بلغ به الاستياء مداه ، التفت الى جيجى بابتسامة يائسة .

ـ ألا تتحدث الآنسة الهنغارية أيضا ؟

وتملك جيجى الخوف لاستجوابها فأجابت بلغة هنغارية بالغة الركاكة والسقم ، اهتز لها المفتش ألما :

ـ كلا ... لم أتحدث ... بها أبدا .

ـ «كذا ... نعم ...» ثم أضاف مخاطبا هرديليا : « من الواضح أنكم لا تتحدثون الهنغارية فى البيت ؟

فتمتم المدرس وهو يتنهد :

ـ كلا ... نحن لا نتحدث بها ... أعنى ... انها صعبة .. ولم تتح للنساء الفرصة ... لكن ... ابنى يتحدث بها أفضل من أى مجرى ... أجل ، وهو فى الحقيقة ... موضع الاعجاب من كل انسان فى أرماديا لذلك .

ورحل المفتش وهو يكظم سخطه . وعندما استقل عربته قال لهرديليا بلهجة بالغة الخطورة :

ـ انه لأمر شاذ حقا ! ان المرء يعجز عن التعبير عن نفسه بلغتنا حتى فى منزل مدرس من المفروض أن يكرس نفسه لنشرها بكل اخلاص. كيف يمكننا أن ننتظر تقدما فى تدريس الهنغارية ؟ كيف يا سيد هرديليا فى الحقيقة . ان ما رأيته فى منزلك لمن دواعى دهشتى وحزنى ... على أية حال ، لقد أثرت فضولى كثيرا بالنسبة لامتحانات الغد .

وجدت السيدة هرديليا وجيجى موضوعا للسباب طوال فترة المساء على حساب المفتش ؛ بيد أن المدرس ظل صامتا ولم يستطع أن يجد راحة حتى فى سريره . وفى اليوم التالى ظل هرديليا طوال طريقه الى بريباس يتمتم بكل ما استطاع أن يتذكر من صلوات .

وعندما دقت الساعة الثامنة ، دخل المفتش الفصل ، قبل أن يصل الأب بلكيوج الذى لم يحضر الا فى نحو الساعة التاسعة وقد لطخت ملابسه بقع المونة . وكان الامتحان تعذيبا للمدرس وللتلاميذ على السواء . فقد كان هورفات يتدخل طوال الوقت ، ويعقد الأسئلة ، ويقطب جبينه ويرمى هرديليا بنظرة ظافرة كلما أخطأ طفل فى الاجابة . بل انه قال بصوت مرتفع أكثر من مرة :

ـ كيف تنتظر منهم اجابة صحيحة وهم لا يعرفون اللغـــة ! ليس هناك تلميذ واحد يتحدث الهنغارية على نحو سليم ! انهم جميعا يتلعثمون ويتعثرون ٠٠٠ انها ببساطة فضيحة !

وحاول هرديليا أن يتلمس مبررا ، فقال ان الأطفال لا يستطيعون أن يعرفوا اللغة معرفة تامة ، لأنهم لا يتحدثون بالهنغارية فى منازلهم ، وعلاوة على ذلك ، فان النتائج لم تكن فى المســـتوى اللائق لأن مدرسا شابا حل محله شهورا عديدة جرب فيها طرقا حديثة للتدريس ٠ ولما كان المفتش عازفا عن سماع حججه ، فقد استسلم فى النهاية لمصيره ، وتمالك نفسه ولم يعد يعير المفتش اهتماما ٠ وأخذ يمتحن الأطفال وكأنه معهم بمفرده ، بينما ظل عقله يردد : « الله فى سمائه سيقرر ما يحدث ٠ فلأضع أملى كله بين يدى الله ! »

وأخيرا جاء دور القس فى امتحان مادة الـــدين ٠ وأجاب الأطفال بأصوات واضحة عالية ، وقد أحسوا بالارتياح ، لا يكادوا يسيطرون على فرحتهم بالسماح لهم بالتحدث بلغة يعرفونها ٠ وأخيرا قال هورفات ، وقد أثاره ألا يسمعهم يتحدثون باللغة الرسمية :

ـ أود أن يتلو أحد التلاميذ الصلاة بالهنغارية ٠

فقال بلكيوج بدهشة ، وكأنه لم يفهم طلبه :

ـ استميحك عذرا ؟

فكرر المفتش قوله بلهجة تزايدت حدتها فجأة :

ـ كنت أقول اننى أود أن أســـمع « أبانا الذى » بالهنغارية ، طبقا لما ينص عليه منهج الدراسة ٠

وكانت اجابة القس مقتضبة قاطعة وقد احمر وجهه كبرياء :

ـ هذا مستحيل !

فرد المفتش وقد استشعر الاساءة فى لهجة القس :

ـ ماذا تعنى بقولك مستحيل ؟

وأجاب بلكيوج بصراحة زادته هيبة :

ـ هذا أمر غير قابل للمناقشة ، لسبب بســـيط هو أن التلاميذ لا يعرفون الصلاة بالهنغارية ، لأنى علمتهم الصلاة بلغة بلادهم ، اذ أننى

أيضا لا أعرفهـا بالهنغارية • فان أحدا لم يعلمنى الصـلاة بالهنغارية ، وأنا أيضا لم أعلم أيا من تلاميذى بأية لغة أخرى !

فقال المفتش هورفات بجفاء :

ـ اننى مندهش للهجتك كما يدهشنى مضمون كلماتك يا أبى ! فالقانون ينص على تدريس الدين فى مدارس الدولة بلغة أبائهم وباللغة الهنغارية الرسمية أيضا • ولذلك فعندما اكتفى بأن أطلب تلاوة الصلاة بالهنغارية ، فهذا أقل ما يجب • وأنت نفسك يجب أن تعترف بهذا •

ـ ياسيدى المفتش ، بالنسبة لى ••• فاننى أفضل أن أكف عن تدريس الدين فى هذه المدرسة كلية على أن أدنس ضميرى وأتنكر لمشاعر سـكان أبرشيتى • يمكنك يا سـيدى أن تطلب منى أى شىء آخر غير هذا • فلتبق عقيدتنا وايماننا مصونة على الأقل ! اذا لم تسمحوا لنا بأى شىء آخر ، فهذا حق ينبغى أن تسمحوا لنا به فى بلادنا حيث ولدنا وولد آباؤنا وأجدادنا :

فقال المفتش بحدة وهو يزرر معطفه ليبدو أكثر هيبة :

ـ اننى ألاحظ أن حديثك لا يختلف كثيرا عن حديث مثيرى الشغب الذين يثيرون المتـاعب بين الأمة المجريـة الموحـدة وبين المجريين الذين يتحدثون بالرومانية • يجب أن أحذرك أيها الأب ، من أن الدولة لا تقدم أى نوع من المساعدة للذين يضرون بالمصالح القومية للبلاد •

فقال بلكيوج بحزم جعل هرديليا ينكمش فى نفسه اعجابا وخوفا :

ـ اذا كان احترام العقيـدة الذى ورثتـه عن اجدادى ، وتأدية واجبى باخلاص كقس يمكن أن يسـمى اثارة ، فاننى يا سيدى المفتش أرحب بقبـول كل النتـائج • لكننى لن أحيد بأى ثمن عمـا أعتقد أنه واجبى •

وتمتم المفتش وهـو يكظم غيظه ليتجنب أحـداث فضيحة أمـام التلاميذ :

ـ حسن •• حسن جدا •• سـأكتب مذكرة بهذا •• هذا ـ على الأرجح ـ هو السبب فى أن المدرسـة لا تحرز تقدما •• لا شـك فى ذلك ! حسن جدا •• سأتخذ الاجراءات الضرورية بالتأكيد •

ثم التفت الى هرديليا فجأة واستطرد قائلا :

ـ يبدو أنك متعب بعض الشيء ؟ أليس كذلك ؟ ان المرء يستطيع أن يلاحظ أنك مضنى بالعمل ! ٠٠ كم سنة أمضيتها فى الخدمة ؟

وتلعثم المدرس قائلا فى وجل

ـ اثنتان وثلاثون ٠

ـ كذا ؟ أكثر من ثلاثين عاما ٠٠ هذا يكفى تماما ! اننى أنصحك بأن تطلب احالتك الى المعاش دون ابطاء ! ٠٠ اننى أنصحك بشدة أن تفعل هذا ! ٠٠ ستحصل على معاش مجز وستستريح ٠٠ انك تبدو فى أشد الحاجة الى الراحة ٠٠ سأنتظر التماسك اذن ٠ وتستطيع الاعتماد على فى تزكية طلبك للموافقة عليه بأسرع ما يمكن !

وبقى بلكيوج مع هرديليا فى فناء المدرسة بعد رحيل المفتش ٠ وقد وقفاكلاهما حاسرى الرأس تحت الشمس الحارة الساطعة ٠ وتناهت اليهما من الفصل أصوات الأطفال وقد ذاب احساسـهم بقبضة الخوف الباردة التى اعتصرتهم ٠ كانت أصواتهم رقيقة عذبة كطنين خلية من النحل دائبة الحركة ٠ ووقفا كلاهما لا ينبسان بكلمة ، وقد استغرقا فى التفكير وانفعلا حتى الاعماق ٠ والتقت نظراتهما فجأة ، واستطاع كل أن يقرأ على وجه الآخر نفس الصراع الداخلى الذى يعذبه ٠ وقال هرديليا بصوت متهدج حزين :

ـ انه لأمر شاق يا ايون ! انهم يريدون سحقنا !

وغمغم بلكيوج بثبات وحزم عميق :

ـ هؤلاء الكفرة لا يريدون حتى أن يتركوا لنا الهنـا ٠٠ لم يكفهم أن يضـعوا الأغلال على لغتنا ، وهم الآن يريدون أن يقتلوا أرواحنا !

ثم وقفا صامتين برهة ٠ وبدا الخطر المحدق بهما كأنما يقترب منهما أكثر فأكثر ، ويطوقهما ، ويهز كيانهما ٠ ورقت نظراتهما وكل منهما ينظر الى الآخر ، بينما امتلأ قلباهما بذلك الحب الأخوى الذى يوحد بين الجنود فى مواجهة العدو ٠ وصاح القس بصـوت يهب العفو ويطلب العفو فى نفس الوقت :

ـ ان اللوم يقع علينا أيضا يا زهاريا !

فأضاف المدرس :

ـ ما من خطأ لا يمكن الصفح عنه ٠

وتعانقت يداهما كرجلين يقسمان على عهد وبيعة ٠

- ٧ -

بينما كانت جيبجي تقف ذات يوم فى الحديقة الصغيرة أمام المنزل ، بعد الامتحانات بنحو أسبوعين ، رأت عن بعد عربة مألوفة تثير التراب حولها ، ولكنهـا مع ذلك لم تتبين هويتهـا الا عندما توقفت • واذ ذاك انطلقت صائحة فى فرح طفولى :

ـ لورا ! •• بنتيا !•• لقد حضرت لورا يا أماه !

وجرت نحو العربة • واحتضنت لورا وقبلتها عدة مرات ، وهى تضحك وتبكى وتثرثر دون توقف •

ـ لماذا لم تبرقى لنا بحضورك ؟

ـ لقد أردنا مفاجأتكم ••

ـ لقد امتلأ خصرك قليلا يا عزيزتى لورا •• ان هذا ينـــاسبك تماما •

ـ وأنت تزدادين جمالا كل يوم ••

وصاح بنتيا مازحا :

ـ هـــذا يكفى الآن ! •• أنا أيضـــا لى الحق فى قبلة ، أليس كذلك ؟

وخرج هرديليا بغير سـترته ، وعانق جورج أولا ، بينما وقفت زوجته خلفه والدموع تترقرق فى عينها والضحكات تتألق على شفتيها ، تغمغم وقد اضطرمت نفسها بالعواطف :

ـ يا للأحبة •• لابد أنهم جائعين ، وأنا لم أعد لهم شـيئا • ولو كنت أعرف لذبحت دجاجتين •• يا للأعزاء !

وهبطت من العربة خادمة عفية ، موردة الخدين ، تحمل طفلة لورا بين ذراعيها • وبدأت الطفلة تبكى وقد أخافها الضجيج فأسرعت اليها أمها قائلة :

ـ أعطنيها يا ايلونا !

ومدت يدها لتأخذها ، لكن جيبجي قفزت مسرعة وأخذت الطفلة بين

ذراعيها . لكن الصغيرة ظلت تبكي بصوت أكثر ارتفاعا . وقالت لورا بزهو :

ـ انهـــا لا تعرفك يا عزيزتي جيجي ، ولهذا فهي تبكي . سترين كيف تعرفنا وتضحك ! انها أرق مخلوق على ظهر الأرض .

فقـــالت الســـيدة هرديليا وهي تأخذ ماريا الصـغيرة من جيجي وتهدهدها :

ـ اعطها لي ، فأنا معتـــادة على الأطفال ! كفي ، يا حبيبة أمك ، صه ، يا ابنة أمك الصغيرة الحلوة .

وهدأت الصغيرة في الحـــال ، الأمـــر الذي أثار اعجـاب الجميع ودهشـــتهم . وانتهز هرديليا الفرصـــة لدعوتهم الى الدخول صائحـــا بلهجة عسكرية :

ـ الى الأمام .. سر ! الى الداخل .. لقـــد ثرثرتم بمـــا فيـــه الكفاية في الشارع .

وفي الداخل ذرفوا الدموع من جديد ، ثم نشط الحديث فاستمر حتى منتصف الليل . وروت لورا الأعاجيب عن بنتيا ، كما روى بنتيا الأعاجيب عن لورا ، وحكى الاثنان عن الطفلة الغالية . ووصف هرديليا المفتش الذي تصرف كالوحش في الامتحانات ، لكنه لم يذكر شـــيئا عن نصيحته له بارســـال التماس لاحالته الى المعاش . وأمتعت الســـيدة هرديليا وجيجي ضيفتهم لورا بكل الأنباء والشــــائعات الســـارية في أرماديا ، والتي كان أبرزها خطبة لوكريتسيا دراجو الى المدرس أوبريا . وفي هذه الأثناء وجدت السيدة هرديليا وقتا كافيا لتذبح ثلاث دجاجات كبيرة احتفالا بضيوفها الأحباء وتقدم لهم في وجبة الغذاء حساء شهيا من الخضر المتبلة بالفلفل الأحمر لم يتذوقوا مثيـــلا له بالتـــأكيد حتى في بيستريتسا .

وثارت عاصفة عندما أعلن جورج بعد الغذاء أنهم ســـيسافرون جميعا الى سينجيورز في اليوم التالي . فاعترض هرديليا قائلا :

ـ « لا يمكن أن تفعلوا هذا ! يجب أن تمكثوا معنا أســـبوعا على الأقل . » ثم أضاف بحرارة : « نريد أن نتباهى بكم قليلا أمام النـــاس هنا في أرماديا . عجبا ، أليس لنا الحق في شيء من التفاخر والتظاهر نحن أيضا . »

فقال بنتيا باصرار :

ـ عندما نعود ، في طريق عودتنا ٠ ليس لدينا الآن وقت ٠ ان الآخرين ينتظروننا في سينجيورز منذ أكثر من أسبوع ٠

ـ ومن هم الآخرون ؟

وأوضحت لورا أن الآخرين هم ألكسندرو ، شقيق جورج ، الذى يعمل مدرسا فى جورجيو برومانيا ، والذى عاد مع جوجو يونسكو ، زوج يوجينيا ٠ وأضاف بنتيا :

ـ وايونيل ، وهو شقيق آخر ، مراجع حسابات فى كيرناوتسى ٠ اننا عدد كبير من الأشقاء والشقيقات حتى ان والدى وحده هو الذى يعرف قائمتنا عن ظهر قلب ٠ وبالمناسبة أنت تذكر أنه ذكرها لك ذات مرة بالتفصيل ٠

واستطردت لورا :

ـ لقد استأجروا فيلا مارا وأنا واثقة من أننا سنقضى وقتا ممتعا جدا معا ٠ ويجب ألا ننسى أن نبرق الى تيتو ليحضر أيضا ٠ لقد كتبت له عن هذا الموضوع ، ولكن ينبغي أن نخبره بأننا قد وصلنا ٠

واتفقوا فى النهاية ٠ وخرج جورج مع هرديليا فى نحو المساء ليستأجرا عربتين تقلاهما الى سينجيورز فى اليوم التالى ٠

كانت الرحلة مرحة للغاية ، تتخللها وقفات قصيرة فى كل القرى ، يحيون أثناءها المعارف والأصدقاء ٠

كان وادى سومش يضيق كلما توغل المرء فيه ، تخفيه صخور عالية وأخاديد عميقة يمتد الطريق على حافتها ، بينما يتدفق النهر على امتداده بقوة متزايدة ٠ ويتفرع الشارع الرئيسى « أوليتسا بايلور » من الطريق العام منحدرا الى وسط مدينة سينجيورز الصغيرة الغنية الشاردة ٠ وثمة جدول صاخب يشق مجراه فى الطريق الذى يصعد المنحدر فى خفة بين منازل الفلاحين ، حتى يصل الى منشآت الحمام القائمة فى منخفض أشبه ما يكون بمرجل عملاق تحوطه التلال التى تكسوها الأشجار ٠ وحول تل صغير تنتشر فيلات أنيقة تكاد أشجار الشربين العتيقة تخفيها ، فتبدو كجمجمة ضخمة يعلو هامتها « كشك » أبيض وكأنه قبعة بهلوان ٠ وعند أسفل هذا التل ، تبدو عن بعد ينابيع تامادويريا الشافية ، تندفع مياهها المعدنية منبثقة من الصخور خلال

فتحات عديدة ، ثم تتجمع في حوض كبير تحملها منه قنوات الى الحمامات٠ وتمتد أمام النبع شرفة كبيرة مغطاة بالحصى والرمال ، تتشــعب منها عشرات الممرات ، تحف بها أشجار الشربين العالية ، متجهة الى الفيلات والأكواخ المحيطة في كل اتجاه ٠ ويشرف على الموقع في طرف من أطراف الشرفة فندق حديث البناء يجتذب اليه الجميع ٠

وتوقفوا عند فيلا مارا وخيوط الشمس الغاربة تنعكس على النوافذ المفتوحة ٠ وصاح جورج مناديا من الشارع :

ـ يا أصحاب البيت ، هل ترحبون بالضيوف ؟

وأطل رأس صغير جميل لامرأة من احدى النوافذ ، سرعان ما اختفى وقد أنبعثت منه صرخة مكتومة :

ـ انه جورج ٠٠ لقد وصل جورج !

والتقى الأقارب جميعا في ردهة فسيحة مظلمة الى حد ما ، وتعارفوا٠ وحاول الجميع أن يبدوا مرحين ، رغم أن كلا منهم كان يشعر ببعض الحرج٠ حتى جورج لم يكن على راحته تماما بصــحبة أقاربه الرومانيين ٠ فهو لم يكن أكثر من طفل عندما رأى الكسندرو آخر مرة ؛ وحتى يوجينيا تغيرت كثيرا خلال السنوات الثلاث الأخيرة ٠ ولكي يتخلص جورج من حرجه ، أضفى على صوته رنة مرح وهو يقرن كل اسم يذكره بصفة لطيفة ٠ وأخيرا صاح وهو يدور على ساق واحدة :

ـ هل هناك أقارب آخرون لم أقدمهم ؟ لقد تعبت !

وكان لكلماته رنين ماجن حتى أنهم انفجروا جميعا ضاحكين ، ممــا ساعد على ازالة الحرج فيما بينهم بعض الشيء ٠ وتدخلت أتينا ، زوجة الكسندرو ، وهي امرأة طويلة نحيلة ذات ملامح دقيقة وتعبير جامد ، وان كان صوتها دافئا مرحا ، قائلة :

ـ كيف تنسى يا جورج أبناء وابنة أخيك ؟ تعالوا يا أولاد ! اليــكم ورثتنا المحبوبين : أليكو ، وايونيكا ، وزويه !

واحتضن آل هرديليا الأطفال وهم يغرقونهم بالقبــلات ٠ ووجدت السيدة هرديليا على وجه الخصوص خلاصها في الأطفال ، وانزوت معهم

في ركن وهي تداعبهم وتحنو عليهم ، وقد هالها هذا العدد الكبير من الغرباء الذين كان عليها أن تواجههم ٠

وذاب الجليد شيئا فشيئا ٠ وسرعان ما اكتسب الكسندرو ، الذى كان رجلا هادئا ذا عينين رقيقتين وسوالف سوداء ، صداقة هرديليا ووده وهما يتحادثان عن المدارس والمجريين ، أما جوجو يونسكو ، فهو اكبر من صهره ، في عمر هرديليا تقريبا ، وله زوجة صغيرة جدا ، ويرتدى من الثياب أحدثها ، فهو متأنق دائما ، يحلق ذقنه وشاربه كل يوم ٠ ولم يكن يتحدث الا بعبارات منتقاة بحرص ، وكان كل كلمة من كلماته سوف تظهر في الجريدة الرسمية ، رغم أنه لم يفتح فمه في البرلمان بكلمة ، قانعا بأن يكون أحد مؤيدى الحكومة المخلصين ٠ ولم تكف كل من لورا وجيجى مطلقا عن ابداء اعجابهما بجمال يوجينيا ، بعينيها الواسعتين الزرقاوين اللطيفتين وأهدابهما الطويلة الكثيفة التى تبدو كأنها تتنهد عندما تسبلهما ، وثغرها الأحمر الدقيق كحبة كرز ناضجة والذى يفتر دائما عن ابتسامة : ووجنتيها الناعمتين اللتين لا تحتاجان الى طلاء ، وقوامها الرشيق الرخص الذى يكسوه ثوب بسيط وان كان أنيقا جذابا ٠٠ وكانت يوجينيا ، التى راحت بدورها تكتشف ، بالطبع ، ميزات جديدة في لورا وجيجى ، تقول لزوجها بالفرنسية بين الحين والحين :

ــ انها فاتنة يا جوجو ٠٠ أليس كذلك ؟

وكان جوجو يبدى موافقته مجاملا ، رغم أنه ، وهو المفتون بزوجته التى تزوجها لجمالها وحده وبلا بائنة ، كان يرى أن كل نساء العالم عاطلات من الجمال بدرجة أو بأخرى اذا ما قورن بها ٠

وأخذ جورج ينتقل من مجموعة الى أخرى ووجهه يتألق بالرضى ، ملقيا بكلمة هنا وهناك حتى استقر الى جوار السيدة هرديليا التى كانت قد ألفت المكان قليلا فراحت تناقش الشئون المنزلية مع أتينا ، التى كانت هى الأخرى ربة بيت كاملة ، وأما رؤوما ٠

ونسوا ــ في زحمة التعارف ــ طفلة لورا ، فراحت الصغيرة تنتقل من يد الى أخرى تعويضا لها عن هذا الاهمال ٠ وأخذ الجميع يدللونها ويغرقونها بالقبلات حتى اختارت أن تبلل ملابسها وهى بين ذراعى يوجينيا ، الأمر الذى صار مصدرا لتسلية الجميع ٠ فقد صاحت جيجى :

ــ لحسن الحظ أنها لم تبلل ثوبك ٠

وقال هرديليا متفكها :

ـ انه فأل طيب بالنسبة لزوجة شابة ٠

وقال الكسندرو لجورج عندما هدأوا قليلا :

ـ بالمناسبة ، ان ايونيل هنا أيضا ٠ لقد وجدناه هنا ٠ ويبدو أنه هنا منذ عشرة أيام ٠ ولكن ما من وسيلة لاستئناس هذا الدب ! لقد رفض أن يقيم معنا ، واستأجر غرفة في الفندق ، وهو يتجول في الغابات والتلال طوال النهار ٠٠

ووضعت أتينا في النهاية حدا للثرثرة بوصفها المضيفة :

ـ والآن ، لتذهبوا جميعا الى حجراتكم ! وحاولوا أن تكونوا على استعداد خلال نصف ساعة ، فسنذهب في نزهة قصيرة لنستمع الى الموسيقى في الحديقة ثم نتناول العشاء في المطعم ٠ الى اللقاء جميعا أذن ! بعد نصف ساعة !

وبعد بضع دقائق ، كان كل منهم منهمكا في ارتداء ملابسه ٠ وفي كل حجرة كان الجميع يتبادلون الملاحظات حول معارفهم الجدد ٠ كان الجميع مسرورين ما عدا جوجو ، الذى لم يستطع أن ينسى ثوب السيدة هرديليا الذى يرجع طرازه الى عشرين عاما مضت ، كما أنه كان يشعر بشيء من الاستياء لأن هؤلاء الغرباء لم يقدموا له كل ما يليق بمركزه من احترام ، رغم أنه حاول أن يخفي شعوره هذا ٠

كانت فرقة الغجر ترسل أنغامها الرقيقة في ضوء الغروب الذى يعبقه عبير أشجار الصنوبر والصمغ اللاذع ٠ وكانت الجموع المرحة تتحرك هنا وهناك في الشرفة الفسيحة وما يحيط بها من ممرات ، وقد استخفتها موسيقى الفالس بأنغامها الحالمة ٠ وعند ينابيع تامادويريا كانت هناك حشود من الزجاجات وأقداح الشراب ، بينما كانت همسات الحب تتردد وتتبدد في الهواء فتزيد من دقات القلوب في الظلام الذى أخذ يتجمع في ظلال أشجار الصنوبر ٠ والتقت الأسرة مصادفة في ممر صغير منعزل بايونيل الذى كان يجلس هادئا شارد الفكر على مقعد خشبي ، عازفا عن كل انسان ، وقد تدلت لفافة من التبغ من بين شفتيه ٠ وكان صدى الموسيقى والضوضاء الواهن يصل بالكاد الى هذه البقعة البعيدة تحمله أجنحة النسيم الرقيق ٠ وأجبرته عائلته على مصاحبتهم وتناول العشاء معهم ٠ وتمتم ايونيل وهو ينهض بغير ارادة :

ــ لماذا لا تدعونى هنا فى سلام ؟ اننى أكره الضجيج والزحام ٠

وكانت أضواء المطعم الساطعة تتألق فى ظلام الليل الصافى ٠ وازدحمت الشرفة بالموائد ، واختلط عبير الأشجار برائحة الطعام والشراب، وصاح جورج وهو يتوقف بالقرب من المنضدة التى حجزت لهم :

ــ ها هو أونجريانو ! مرحى يا صديقى القديم ، ماذا تفعل هنا ؟

واذ رأى أوريل لورا فى وسط المجموعة ، رفع قبعته وقال فى شىء من الحرج :

ــ أتمنى لك أمسية لطيفة يا سيدتى !

وأومأت لورا برأسها بوقار ، وواصلت مسيرها دون أدنى انفعال ٠ وابتسمت عندما اتخذت مجلسها أمام المنضدة اذ تذكرت أنها كانت ذات يوم مغرمة بهذا الصبى الغر ٠٠

كانوا فى منتصف العشاء عندما ظهر تيتو فجأة فى الشرفة ٠ وأخذ ينظر حوله فى حرج ، وعندما أبصر بالمنضدة الكبيرة ، سار اليها وحياهم جميعا وكأنه يعرفهم منذ بدء الخليقة ٠

ــ لقد وصلتنى برقيتك متأخرة ، ولم استطع الحضور قبل الآن !

وقبلته لورا ، التى لم تكن قد رأته منذ يوم زفافها ، وهى تبكى وتهمس برقة :

ــ تيتو ، يا عزيزى تيتو !

وأحس هردیلیا وزوجته بزهو متزايد وهما يلاحظان الأثر الطيب الذى تركه ابنهما فى أقاربهم الجدد ٠ وصاح الكسندرو وهو يدفع بمقعده جانبا ليفسح مكانا للقادم الجديد :

ــ هنا ، هنا بجانبى ، لأنى أكثرهم حبا للشعراء ٠

والى يمين تيتو جلست يوجينيا التى أخذت تنظر اليه بفضول ٠ وقبل تيتو يدها المعطرة المرصعة بالخواتم ثم قال لها وهو يجلس :

ــ ما أجملك من شقيقة لجورج ، وما أشد فتنتك ٠

فصاح الكسندرو ضاحكا :

ـ لا تكن بهذا الحماس أيها الشاب ! لا تحاول مغازلتها ، فان زوجها غيور مثل عطيل !

وابتسم جوجو ، عبر المنضدة ، ببرود مفتعل بينما ضحك الآخرون بحرارة . وتضرجت وجنتا يوجينيا وهى تجيب :

ـ ولكنى أحب أن يتغزل الناس بى .

وصاح الكسندرو مرة أخرى :

ـ ها ! ها ! وبمعنى آخر ، هذه دعوة رسمية .. حذار يا جوجو ، فهذا الشاب خطير !

وساد الضحك والمرح الليلة كلها ..

وأقام تيتو أيضا ، بالطبع ، فى فيلا مارا . واستيقظ مبكرا قبل أن يصحو أحد ، حتى يتنزه ويرطب رأسه التى ألهبتها العواطف التى أثارها وجود هؤلاء الناس الذين قدموا من البلد الذى كان يحلم به دائما . كان يشعر بالسعادة ، وكان صدى حديثهم الحار السريع ما يزال عالقا بأذنيه. واذ تبين قد أنه صادف هوى فى نفس الكسندرو قرر أن يكسب صداقة جوجو أيضا ، اذ أنه ، وهو عضو فى البرلمان ، قادر على أن يساعده عندما يذهب الى رومانيا . وسحرته يوجينيا حتى أنه حلم بها ، ولكنه أدرك أن عليه فى الوقت الحالى أن يروض اعجابه بها . فليس هذا وقت الخيال وأحلام اليقظة .

والتقى عند النبع بايونيل بنتيا الذى كان يشرب فى هدوء كوبا من المياه المعدنية الممزوجة باللبن ، ويغمس فيه كعكة بين الحين والحين . وقال ايونيل بابتسامة مغتصبة :

ـ هذا دوائى .

وسارا معا فى دغل كثيف من أشجار الصنوبر . لم يكن ايونيل سعيدا بصحبته ، فقد كان أكثر احساسا بالسعادة دائما عندما يخلو الى نفسه . بيد أن تيتو تشبث به ، تتملكه الرغبة فى معرفة طابع الحياة فى بوكوفينا ، فقد كان ايونيل أول رجل يتحدث اليه من هذه المقــاطعة . وأثارت أسئلته الملحة ايون بنتيا حتى أنه قال له بصراحة فى النهاية :

ـ انك تحاول دفعى الى الحديث عن أشياء لا تهمنى أو لست على معرفة خاصة بها على أية حال . أنا الآن مراجع حسابات بسيط مجهد بالعمل

ليس لديه الوقت أو الرغبة للحديث في السياسة . أنا لا أبالى على الاطلاق بالسياسة .. هذه السخافات ، واستميحك عذرا لقولى هذا ، شغلتنى أيضا ، عندما كنت طالبا ، ولكنى حرصت على ألا أحمل هذا المتاع الثقيل المعوق معى فى حياتى .. وفضلا عن هذا فالسياسة ، وبخاصة فى مقاطعتنا بوكوفينا ، لا تعنى الا الشجار ، والتآمر ، والشغب ، والمتاعب ؛ انها المهانة ببساطة ! اننا قليلون ونحن مع ذلك منقسمون الى عديد من الأحزاب والعصبيات ولا يوجد من يهتم بالصالح العام ؛ وكل انسان يسعى من أجل نفسه وحدها .. أف .. ان كل شيء يصيبنى بالغثيان والقرف ! .. اننى أعتبر الحرية أكبر نكبة لأمة ليست ناضجة بعد لتستمتع بها . ولهذا فانى أجدكم هنا أسعد منا حالا ، رغم أنكم لا تكفون عن الشكوى والاعتراض .. تلك هى الحقيقة ، يا سيدى العزيز ! فالمجريون هنا بلهاء أغبيـــاء ، يضايقونكم ، ويضطهدونكم ، ويقهرونكم .. نعم ، هم يفعلون ذلك . وهذا من حظكم ، لأن هذا يبقى روح النضال عندكم حية ، ويجعل الشعب موحدا قويا . وفى اللحظة التى تنالون فيها حريتكم ، ستفعلون نفس ما يفعله الناس الذين أتيت من عندهم . ان المجريين أغبيـــاء ، لأنهم يقوونكم من حيث يريدون اضعافكم . وهم يستطيعون تدميركم بمجرد التخفيف من قيودكم .

وبهت تيتو دهشة ، ولم يستطع أن يقول كلمة أخرى . واختتم ايونيل حديثه قائلا بقسوة :

ـ حسن ، هل عرفت الآن ؟ الحقيقة قاسية دائما ..

وغمغم تيتو بكلمات غير مفهومة ، وواصل سيره بضع خطوات ، ثم ودعه فجأة وتركه بقلب مثقل . وقال محدثا نفسه : « مستحيل . انهـــا مجرد كلمات . انه ليس سوى حاقد ينفس عن مشاعره !

لكنه أحس باعياء كأنه أمضى ليلة مؤرقة .

وتمتم ايونيل لنفسه سعيدا بأنه تخلص من هذا الرفيق الفضولى:

ـ واحد آخر من أولئك المتحمسين الذين يجرون وراء الأوهام .

ظل تيتو قانطا يائسا طوال يومه . كانت سعادته كلها تبدو وكأنها تتوقف على حديث ايونيل . وتذكر كل كلمة ، وآذته كأنما حلت به كارثة . وهمست لورا له فى أول فرصة سنحت لها :

ـ ماذا بك يا عزيزى تيتو ؟ لا تكن عابسا ! ان مستقبلك قد يتوقف

على هذا • لقد تحدث جورج الى الكسندرو عنك وعن مشروعاتك • حذار من أن تقلق الجميع بوجومك !

وبعد الغذاء ، عندما جلسوا جميعا يثرثرون فى خيمة فى الظل ، روى هرديليا لأقاربه تفصيلات ما مر به من محنة • كان يريد أن يمهد الطريق بقدر ما يستطيع لاعلان تقاعده ، لذلك اتخذ سمت الوطنية ، وبين كيف أن كل شىء كان نتيجة لدفاعه عن فلاح رومانى مسكين ظلمه قاض مجرى • ثم انتقل الى الحديث عن الامتحانات ، فتحدث عن المفتش الذى طلب اليه ألا يجعل الأطفال يتحدثون بالرومانيـة ، وأنهى حديثه قائلا بحزن :

ــ اننى أفضل أن اكون عاملا ، أو أن أموت جوعا ، على أن أتلون فى سنى المتقـدم وأبيع ضميرى ! ولهذا أفكر فى أن أطلب احالتى الى المعاش فى أقرب فرصة •

وغلى أقاربه الرومانيون سخطا وحنقا • حتى جوجو أصابه الانفعال، وعندما أعلن هرديليا أنه لو كان شابا لذهب الى رومانيا مثل تيتو ، ليهرب من اضطهاد الهنغاريين ، اندفع جوجو بحماس الى تيتو وشد على يده :

ــ مرحى ، أيها الشاب ! تعالى الى رومانيا ، الى أرض الحرية ! •• لماذا يحكم عليك أنت أيضا البقاء بين أولئك المتوحشـين الذين يخنقون ضمير الانسان ذاته !

وأشرق وجه تيتو ، وخاصة عندما دعاه جوجو الى البقـاء معهم فى بوخارست قائلا :

ــ يمكنك البقاء فى منزلنا طوال النهار ، ويمكنك أن تأكل وتكتب شعرا بقدر ما تحب

وأضافت يوجينيا وهى ترميه بنظرة لعوب ، وقد ظنت بأنها السبب فيما أصاب الشاب الحزين من وجوم :

ــ يجب أن تأتى وتمكث معنا ! سيسرنى وجودك بيننا •

ودعاه الكسندرو أيضا الى البقاء معه فى جورجيو اذا ما ضـاق ببوخارست • وقالت أتينا :

ــ ما عليك الا أن تحزم أمرك على الحضور الى رومانيا ، وتأكد من أنك ستشق طريقك •

وصاح هرديليا وقد نسى متاعبه فى غمرة الرضى لرؤية ما بابنه من سعادة :

ـ بفضل هذه الرعاية المجيدة يا تيتو ستصبح وزيرا على الأقل ٠

وعاود جوجو والكسندرو الحديث عن تيتو فى أحد الأيام التالية ، فقررا أنه من الأفضل أن يجدا له عملا يخلصه من حرج البطالة ٠ وقررا على الفور أن يعملا على توظيفه ضمن هيئة التحرير فى احدى الصحف ، فان جوجو ، بحكم مركزه كعضو فى البرلمان ، قادر على أن يحصل له على وظيفة مساعد محرر على الأقل فى جريدة الحزب ٠ وقال تيتو ووجهه يشرق بالسعادة عندما سمع بالاقتراح :

ـ نعم ، فى هيئة تحرير صحيفة ! هذا بالضبط ما كنت أحلم به ٠

ومحت هذه الآمال الوردية ذكرى كلمات ايونيل التى أشعرته باليأس فترة ٠ وتركزت أنظار تيتو على هدف يبدو الآن مشرقا ، وقريبا ، ولامعا ٠٠ وأصبحت الحياة تبدو أمامه كأنما تخفى كنوزا ثمينة من أجله ٠

وزاد جوجو ميلا الى « ذلك الشاب الذى تلمع عيناه ببريق رائع غريب » كما كان يحلو له أن يقول ٠ وقاما معا بنزهات طويلة ، يناقشان خلالها مشاكل القومية الرومانية ، بل والأدب الرومانى أحيانا ، رغم أنه جوجو كان يتباهى فى وطنه بأنه لم يقرأ مطلقا طوال حياته سوى الكتب الفرنسية ٠ وكان عضو البرلمان يتملكه الحماس فى صحبة تيتو فيقول :

ـ يجب أن تصبروا ! كافحوا ! واصمدوا ! فيوم الخلاص سوف يأتى فى النهاية ! لا بد أن يأتى ! أتظنون أننا هناك لا نعانى ونحن نعلم بما أنتم فيه من محنة واستشهاد ؟ أنتم أملنا ، كما يجب أن نكون أملكم أيضا !

وسأله تيتو الذى طالما عذبته هذه الفكرة :

ـ لماذا لا تقدمون ولو بادرة من التشجيع على الأقل ؟

فقال عضو البرلمان الرومانى بحزن :

ـ رغم أننا نتوق اليكم من أعماق قلوبنا ، الا أن شفاهنا ينبغى أن تظل مطبقة ٠ انها السياسة ! ٠٠ ما أغباها وأسخفها فى هذا العالم !

لم يلبث ايون أن اكتشف أن فاسيلي باكيو قد ذهب الى محام في بيستريتسا ووكله في استعادة كل أراضيه من زوج ابنته • وقد زاد هذا من قلقه ، اذ كان يشعر بمقاومته تضعف منذ وفاة طفله • وعلى الرغم من أنه كان متنبها لما يكتنفه من خطر ، فان أفكاره لم تعد تتركز عليه وحده، بل تشعبت عاجزة هنا وهناك • فهو تارة يعلن أنه لن يتخلى عن قطعة واحدة من الأرض ، ثم لا يلبث أن يقول في اللحظة التالية أنه لا يضيره أن يتفق مع فاسيلي ويسكته • ولكن قلبه كان من ناحية أخرى ينبض بعنف متزايد ، فريسة لعاطفة طال كبتها فأصبحت الآن مهيأة للاشتعال• وعندما كانت صورة فلوريكا تلوح لخياله ، كان ينسى كل شيء ، حتى حميه، تماما كما نسيها هي في الماضي في غمار سعيه للحصول على الأرض •

والتقى بفلوريكا في اليوم التالي لسماعه أن فاسيلي باكيو قد ذهب الى المحامي • كانت تتهادى وبيدها سلال الطعام لعمال المزرعة ، رشيقة، باسمة ، في تحيتها تحد ، كأنها تدعوه •

ــ أهلا ايونيكا ! كيف حالك ؟ أرجو لك حظا سعيدا

فتمتم وقد أزعجه شعوره بشوقه اليها :

ــ أسعد الله صباحك !

وتوقف ايون في مساء اليوم نفسه ، بينما كان عائدا من الحقول ، عند بوابة جورج ليسأله ماذا يفعل بشأن حميه • وبينما كان جورج يحدثه ويسدي له النصح لم يكن ايون يرى سوى فلوريكا ، التي كانت في الحجرة الخارجية تطهو العشاء وتتحرك بانشغال حول النار • وكافح حتى استطاع أن يكبح رغبته في الاندفاع اليها ليأخذها بين ذراعيه ، ويحملها بعيدا ، بعيدا جدا ، حيث لا يستطيع انسان أن يلمسها ، أو يشتهيها •

وود أن يذهب الى جورج ثانية في اليوم التالي أيضا ، لكنه لم يجرؤ خشية أن تفضح عيناه عاطفته • لكنه ظل يغدو ويروح كالمجنون رغبة في رؤيتها على الأقل ، حتى عثر على حقل القمح الذي كانت تحصده ، وشق طريقه فيه حتى يراها عن كثب •

وأدهشه كيف تركها تتزوج من رجل آخر ، وانحى على نفسه باللوم لأنه لم يتزوجها • ولكنه كان يهدىء من ثائرته بقوله :

ـ فلوريكا لى ، مهما حدث .. ان هذا قدر مكتوب ..

وناضل ليخلص نفسه من خواطره التى كانت تأخذ بخناقه ويحول كل أفكاره الى الأرض التى كان فاسيلى يهددها بعناده . لكنه كان كلما لام نفسه ، كما لامها فى الماضى ، لمخاطرة بثروته فى سبيل امرأة ملعونة، يقفز الى ذهنه سؤال على غير انتظار : ما فائدة الأرض ، اذا كان من تحبه ليس ملكك ؟ عندئذ كانت أفكاره تتداعى . لو كان الطفل على الأقل قد عاش لكان له من يعرق ويكدح من أجله .. أما والأمور على ما هى عليه الآن ، فلمن ستذهب اذا ما اختاره الله الى جواره ذات يوم ، فان رحلة الانسان فى هذه الحياة الدنيا عابرة كنسمة الريح .

وتخلف فى عمله نتيجة لهذا التفكير المضطرب . فبينما انتهى الجميع من حصاد محصولهم ، كان لايزال أمامه حقلان لم يحصدا . وبعد شجار حاد مع أمه ، قرر أن يرسل جلانيتاشـــو مع ثلاثة من الأجراء الى أكبر الحقلين ، بينما يحصد هو القمح فى الحقل القريب من الطريق القديم . كان اليوم يوم الخميس . وكان المرء يستطيع من البقعة التى يعمل بهـا ايون أن يرى الطريق الذى تمر به النسوة حاملات سلالهن وجوالاتهن فى طريقهن الى السوق الأسبوعى فى أرماديا . وكانت شجرة التفاح البرى التى وضعت أنا تحتها طفلها منذ عام ، محملة بالثمار ، تلقى بظلال كثيفة، رغم أن أعواد الذرة الخضراء كانت ترتفع حتى تصل الى فروعها .

كان ايون يعمل بعزم لم يواته منذ زمن طويل ، كأن فرحة طاغيـة تخالجه . ولم يكن يلقى بنظرة سريعة على الطريق الا لماما ، خشـــية أن يشرع أحدهم فى التحدث اليه فيعوقه عن عمله . كان الطريق مقفرا فى نحو وقت الغذاء .. وأخذ ايون يحزم عيـــدان القمح ، ثم أوقف الحزم المتراصة بعد أن انتهى من ربطها ، ثم نظر تجاه القرية . وأبصر عن بعد بامرأة مسرعة تحمل على كتفها بعض الجوالات . وقام فجأة ناظرا فيمـــا حوله ، وأسعده ألا يجد انسانا آخر على مرمى البصر . وتمتم وهو يرى المرأة تقترب :

ـ فلوريكا !

وحدق فيها ، وشملها بنظراته وهى تتقدم صوب موضعه وتبدو أكثر جمالا مع كل خطوة . كانت فلوريكا تحيط رأسها بمنديل أبيض ربطته ببراعة تحت ذقنها . ورأته بدورها ، فتملكتها الدهشة ، وتسللت

رجفة الى قلبها · لكنها لم تفقد تماسكها ، وعندما اقتربت من مكانه قالت باسمة :

ـ أهلا ايونيكا ! أخشى أنني لن أصل الى المدينة الا بعد انتهـــاء السوق · فأصحاب الهموم يغادرون بيوتهم متأخرين !

كان ايون يود لو يجيب ، لكن لســـانه انعقد · وواصلت فلوريكا طريقها · وتملكه خوف مروع فجأة من أن تفوته الفرصة مرة أخرى ، هذه الفرصة الفريدة للحديث اليها وافراغ كل ما تنوء به روحه · وخطى نحو الطريق المقفر وانفجر قائلا فى صوت يكاد يكون يائسا :

ـ الى أين تجرين هكذا يافلوريكا ؟ انتظرى لحظة ، فلدى ما أقوله لك · اقتربى ، فالسوق لن ينتهى اذا تأخرت بضع دقائق ·

ونظرت المرأة اليه وكأنها كانت تنتظر دعوته · ودارت عائدة اليه، وقد التهبت وجنتاها ، قائلة بصوت ناعم :

ـ ولكن لا تدعنى اثرثر طويلا يا ايون ، والا قتلنى جورج ·

وأضافت عندما بلغت موضعه ، بصوت أكثر رقة :

ـ كنت ذاهبة الى السوق لأبيع بعض الكمثرى ، لأننا فى حاجة الى نقود ·· ان جورج لا يدعنى حتى ···

وحملق ايون فيها صامتا ، وقد ضايقه أن يسمعها تتحدث اليه عن جورج · ورفعت المرأة عينيها الزرقاوين المتسائلتين اليه ، وحدقت طويلا فى عينيه المضطربتين · وفهمت ·· فأسبلت أجفانها هامسة فى عذوبة :

ـ ماذا تريد يا ايون ؟

وصر الرجل على أسنانه كأنه يخشى أن تنطلق روحه التى جنت رغبة اليها :

ـ اجلسى لحظة واستريحى ·· لماذا لا تستريحى قليلا ؟

والتقت نظراتهما ·· مأخوذة ·

ـ أنا فى عجلة يا ايونيكا ، حقا ·· دعنى ·· أستمر فى طريقى حقا ·

لكن فلوريكا كانت تسير مع ايون جنبا الى جنب ، وكتفها يلامس

كتفه • ونفذا بين أعواد الذرة ، وتوقفا تحت شجرة التفاح البرى حيث كان معطفه يفترش الأرض فى الظل ، كأنه عش مجهز بتدبير سـابق • وجلسا وكل منهما ينظر الى الآخر بعيون تتألق بسعادة طال انتظارها • وأزاد ايون أن يعاتبها لذكرها اسم جورج لكنه كان يتنفس فى عسر فلم يستطع الا أن ينطق :

ـ آه ، يا فلوريكا ••

وقالت المرأة وهى تلقى جانبا بجوالق الكمثرى :

ـ أوه •• ياله من حر •• اننى أكاد أذوب • لكن الجو هنا لطيف ورطب •• حقا •• انه رطب •

وتلعثم ايون بضع ثوان ، وهو لا يكاد يعى ما يقول :

ـ رطب ••

وظلا صامتين ، ينصتان الى وجيب قلبيهما • ثم القى ايون بذراعه حول خصرها بسرعة كوحش مفترس ، وعض شفتيها ، وأنت فلوريكا وهى تميل بظهرها الى الخلف فى بطء ••

وقال ايون بعد قليل ، بينما كانت فلوريكا تربط منديلها متهيئة للرحيل :

ـ ستكونين لى •• وليكن ما يكون ! ستكونين لى حتى لو اضطررت الى ارتكاب جريمة قتل من أجلك !

فأجابت المرأة وهى تشيح بنظراتها عنه :

ـ آه يا ايونيكا ، ان الرجل يقول أشياء كثيرة ! عندما كان هذا ممكنا لم تكن لديك الرغبة ، أما الآن وأنت تريد ذلك ، لم يعد الأمر ممكنا •

وظل ايون جالسا على معطفه ، وعيناه ترقبان فلوريكا وهى تختفى بين أعواد الذرة • وغمغم كأنما يشجع نفسه :

ـ انه ممكن ، حتى لو اضطررت الى •••

وتوقف فجأة • وخشخشت أوراق شجر التفاح كأنها تعاتبه ••• وذكره عتابها بأنا ، فهب واقفا كأن حية لدغته • وذهب الى حيث يوجد

منجله دون أن يدير رأسه الى الوراء ، كأن يدا غير مرئية تهدده من الخلف .

كانت فلوريكا تسير فى الطريق ، تهز ردفيها برشاقة مزهوة . وانتفض قلب ايون برعشة جديدة ، بينما راحت شفتاه تهمسان فى حزم :

– انه ممكن ! .. حتى لو اضطررت الى ارتكاب جريمة قتل !

الفصل الثانى عشر

جــــورج

- ١ -

كالشباب الذين يذهبـــون لزيارة فتياتهم كل مســـاء ســـواء أكان الطقس معتدلا أو مكفهرا ، وســـواء أكانوا مجهدين بالعمـل أو منتعشـــين أثر عطلـة ، كان ايون يذهب كل يـوم الى منزل جورج ، كأخ مخلص ، اما طلبا للنصيحة ، أو مقدما للمشـــورة ، مسلحا دائما بسبب وجيه يبرر به زيارته ٠٠ لم يعد يشعر بالخجل من جورج ، ومن ثم كان يبادل فلوريكا الحديث أيضا من حين الى حين ــ مجرد ملاحظة عابرة كتلك التى يبديها أى رجل الى ربة البيت وزوجة صاحبه ٠

وكان مما يرضى غرور جورج أن يحضر طلبا لنصـــيحته رجل فى مهارة ايون ، استطاع بعقله ودهائه أن يصبح فلاحا غنيـــا بعد أن كان معدما كفأر الكنيسة ٠

كانت سافيستا وحدها ، تلك الكسيحة المقعدة التى تعيش فى منزل جورج ، هى التى ترغى وتزبد بغضب متزايد ٠ فقد كانت سافيستا تحب جورج وتخثصه بعواطفها الحادة التى تميز أمثالها من المقعدين ، حتى أنها كانت على استعداد لأن تفتك بأى شخص من أجله ٠ فلقد آواها فى بيته

عندما كانت بلا بيت ، وكان يتفكه معها بين الحين والحين ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن ينسى مطلقا أن يقدم لها كأسا من الشراب عندما يعود الى منزله ومعه زجاجة من البراندى • ولم يكن عليها من التزام ، نظير ما يقدم لها من طعام ، سوى أن تجلس طوال اليوم على الســـقيفة تهش الدجاج بعيدا عن باب الحجرة الخارجية • وكان جورج يسمح فى أيام الخميس، عندما يكون الطقس معتدلا ، بأن تذهب زاحفة الى الدرب العريض ، حيث تتسول بضع عملات نحاسية فتجمع بذلك أموالا خاصة بها •• وكانت تكره ايون ، بنفس المشاعر الحادة ، منذ أحست بأنه يسعى وراء فلوريكا، ومن ثم يريد أن يخدع جورج • ولقد هدأت فترة من الوقت ، بعد ذلك اليوم الذى عنفت فيه آنا ، بعد أن رأت أن زيارات ايون قد توقفت فجأة• بل انها كانت فخورة لأنها استطاعت أن تبعد خطرا كان يتهدد معبودها • أما وقد عاود ايون زياراته اكثر من ذى قبل فان هواجسها أخذت تعذبها بقسوة بالغة ، فلم تعد قادرة على النوم حتى فى أصيل أكثر أيام الصيف قيظا • وما أن كان ايون يحضر حتى كانت تلتصق بالشرفة كأنها ضفدع برى ، وتصيخ سمعها حتى لا تفوتها كلمة ، وتلتمع عيناها التماعا غريبا كحبتين من خرز • وكانت ترقب كل حركة وكل نظرة دون أن تغيب فلوريكا عن أنظارها لحظة واحدة • فلم تكن تثق بها • ولم تكن تستطيع أن تنسى أن هذه الفتاة ما كانت لتتوانى عن الزواج من ايون هذا لو أنه كان راغبا فى الزواج منها •• وأغضبها أنها لم تكن تستطيع أن تلحظ شيئا غير عادى فى حركات ايون وايماءاته ، أما فلوريكا فكل ما لحظته من أمرها هو ما يبدو عليها من ارتباك ،وما يتضرج به وجهها من حمرة خفيفة ، فضلا عن أن أوانيها كانت تفور أكثر مما ينبغى ، فتملأ البيت كله بالبخار وتعبقه برائحة الدسم المحترق •

واذ كانت فلوريكا بالبيت وحدها ذات يوم ، عجزت سافيستا عن ضبط مشاعرها بعد أن أثارتها هذه المراقبة الطويلة عديمـــــة الجدوى ، فانفجرت عاوية مهددة :

ــ سأخبر جورج بكل شيء •• أيتها الساقطة •• لماذا يأتى ايون ؟ هه ؟ ما شأن ايون بك ؟ أهو رجلك ؟ ••

واحمر وجهها غضبا وعجزا ، وبصقت على فلوريكا • وجذبت بضع خصلات من شعرها وصرخت بعيون ملتهبة كالدم :

ــ لك العار ! •• ايتها الساقطة ! •• ان جورج سوف يقتل ••

وانزعجت المرأة فى بادىء الأمر ، وخشيت أن تكون سافيستا قد أصيبت بنوبة من الجنون ، ثم أدركت بالتدريج ما تهدف اليه فسبتها • وهدأت المقعدة على الفور كأن دلوا من الماء البارد قد صب فوق رأسها • وندمت لأنها كشفت عن ظنونها ، ولكى تعالج خطأها حاولت أن تبدو كأنما كانت تمزح • وبدأت ضاحكة كاشفة عن أسنانها الصفراء الطويلة :

ـ انه مجرد مزاح يا فتاة •• شرفا •• اعطنى بعض الحساء • انى جائعة ••

غير أن ايون حضر ذات يوم ظهرا ، وكان جورج غائبا • وجلست سافيستا واجمة كالتمثال على السقيفة عندما رأته يدلف الى الفناء • ووقف ايون عند البوابة وصاح بغير اكتراث :

ـ حظ سعيد يا سافيستا ! أما زلت قوية ؟ •• هل جورج هنا ؟

فأجابت بسرعة :

ـ ليس بالبيت سوى فلوريكا !

كانت تود أن تدخله الى الزوجة حتى تتحقق من شكوكها • وتردد ايون بضع لحظات ، والتمعت عيناه وهو يرسل بنظراته الى الحجرة الخارجية ثم قال بصوت خفيض :

ـ كنت أريد أن أحدث جورج فى بعض الأمور •• من المؤسف انه ليس موجودا ••

وابتعد قانطا ، والتفت وراءه وهز رأسه آسفا عندما وصل الى الدرب •

اضطرمت سافيستا بمشاعر الرضى والسعادة • فقد كانت على يقين من أن ايون قد جاء عامدا من أجل فلوريكا ، وأنه يعلم أنها بالمنزل وحدها• ومنذ ذلك الوقت كانت سافيستا كلما غاب جورج عن المنزل تهجر مكانها بباب الحجرة الخارجية ، ذاهبة الى الطرف البعيد للشرفة ، حيث كانت تختبىء وراء كومة من أكواز الذرة ، فى انتظار حضور ايون •

وجاء ايون مرة أخرى قرب الظهيرة بعد بضعة أيام • والقى بنظرة على الفناء قبل أن يفتح البوابة الصغيرة • وأدركت المقعدة من مكمنها أنه يبحث عنها • ثم خطا الى الداخل مسرعا ودلف الى الحجرة الخارجية • وزحفت سافيستا الى الباب دون أن تحدث صوتا • واستطاعت أن تسمع

نبرات ايون الملاطفة وصوت فلوريكا الذى يشيع فيه الخوف • كانت سافيستا ترتعش انفعالا حتى انها لم تستطع أن تميز ما يقولان ، رغم أنهما كانا يتحدثان بصوت مرتفع •

وخرج ايون بعد برهة قصيرة ، وشحب وجهه عندما رأى سافيستا • لكنه سرعان ما تمالك نفسه وغمغم بغير اكتراث :

ـ لقد حضرت مرة أخرى ، ومرة أخرى لم أجد جورج • حظى سيىء ! الى اللقاء يا عزيزتى سافيستا !

ولم تجب المقعدة ، بل نظرت اليه بحقد بالغ حتى أن ايون ابتعد دون أن يدير رأسه • كانت فى قمة سعادتها ، فلم تكد تستطيع أن تنتظر حلول المساء حتى تخبر جورج بكل شيء • ولم تكد تلمحه حتى نادته قائلة :

ـ سيدى •• سيدى ! •• تعال هنا !

وعلى الرغم من أن جورج كان منهكا الى أقصى حد الا أنه سار الى كومة أكواز الذرة ، وسألها مازحا :

ـ حسن ؟ ماذا فعل الدجاج ؟

وبدأت سافيستا حديثها بطيئا وئيدا ، ولكنها أخذت ترغى وتزبد بعد لحظة ، حتى استحال عليه أن يفهم شيئا مما قالت • وسألها وهو يمسح التراب والعرق عن خديه :

ـ ايون ؟ •• حسن ، وماذا كان ايون يريد ؟ •• أكان هنا ؟

وزامت المقعدة فى يأس ، وانفجرت باكية يخنقها النشيج والفواق :

ـ ايون •• كان هنا •• فلوريكا •• كانت •• لصوص •• اقتل •• اقتل !

وأجاب جورج بهدوء :

ـ حسن يا سافيستا ، كل شيء على ما يرام •• نعم أنا أعلم •• حسن !

لم يفكر جورج فى كلمات سافيستا مرة أخرى الا بعد العشاء ،عندما رقد فى فراشه الى جوار فلوريكا • فقد تذكر فجأة نظرة ايون فى حفل

زفافه ، تلك النظرة التى نسيها ، رغم أنها قد أخافته فى ذلك الوقت ، كيف أمكن له أن ينساها ؟ وقال جورج لنفسه بتصميم ، وهو يتحسس بيده جسد المرأة التى كانت تثير الدماء فى عروقه :

ــ حسن ، اذا كان الأمر هكذا فسوف أقتله ! ٠٠ لن تأخذنى رحمة هذه المرة ٠٠ سأقتله !

- ٢ -

أرادت السيدة هرديليا أن تتجنب المنـــاقشة فى سينجيورز أمام الغرباء ، ولذلك فقد انتظرت حتى تعود الى بيتها لتعنف هرديليا قائلة :

ــ لست أدرى ماذا جرى لك ٠ هل جننت حتى تتحدث طوال الوقت عن التقاعد والمعاش ٠ يبدو أنك قد ضقت بحياة الرخاء ٠ هل كنا نقاسى ونناضل من أجل هذا فحسب ؟ هل تسعى وراء الفقر بمجرد أن تخرج من بعض المشاكل ؟

وكانت جيجى تشاطرها الرأى ذاته : فالتقاعد يعنى الهوان ٠ أما عن طلب المفتش بألا يتعلم الأطفال شيئا سوى الهنغارية ، فقد أجابت زوجة المدرس ــ التى اعتادت أن توائم بين آرائها وبين الظروف ــ قائلة فى حزم :

ــ وماذا فى هذا ؟ انت تسير وراء كل كلام معسول لأولئك الرومانيين ٠ هل تظن أنك تستطيع أن تعيش بالكلام المعسول وحده ؟ ان النـــاس يعرفون أننا رومانيون ، لكن التعصب لم يفد أحدا على الاطلاق ٠ ومع ذلك ماذا يجرى لو علمتهم الهنغارية ؟ علمهم ، فلن يضيرهم أن يعرفوا لغـــة أجنبية فى هذه الأيام ٠ يجب أن تدرك أن أحدا لا يستطيع أن يحقق شيئا فى هذه الأيام بدون الهنغارية ٠ اذا كانت الأمور تسير على هذا النحـــو ، فهل نستطيع أن نغيرها ؟

كان هرديليا يشعر بتعاسة بالغـــة لأنه مضطر الى الافتراق عن مدرسته ٠ وأخجله أن يصرح ، حتى لأسرته ، بأن المفتش هو الذى طلب اليه أن يتقاعد ٠ وفضلا عن ذلك ، فقد كان الامل ما يزال يخالجه فى أعماقه بأن شيئا قد يحدث فيوفر عليه مئونة التقاعد ٠ من أجل هذا كان يؤجل كتابة التماسه ٠ ولكنه كان حريصا من ناحية أخرى على أن يشيع فى

أنحاء أرماديا ، على سبيل الاحتياط ، انه يفكر فى التقـــاعد والتخلى عن وظيفته بسبب ما يعانيه من اضطهاد متزايد من جانب المجريين • وقد أتاح له جروفشورو فرصة الحديث فى المشرب عندما صاح به حتى يسمعه الجميع :

ـ يا صديقى وأخى العزيز ! خير لك أن تموت من أن تصبح جلاد أطفالنا !

وطافت هذه الجملة بكل انحاء أرماديا تكتسب عطف الجميع على كل منهما ، بل وحتى على بلكيوج الذى دأب هرديليا على الاستشهاد به ، والذى كان يشحب سخطا كلما ذكر اسم المفتش هورفات أمامه •

وعاد المدرس الى بيته بعد هذا التشجيع وكله اصرار على طلب احالته الى المعاش • غير أنه اصطدم فى منزله بمعارضة حازمة من زوجته غيرت من خططه تماما • كانت السيدة هرديليا قد ظلت تناقش الموضوع مع جيجى طوال اليوم ، واكتشفت حججا جديدة لها وزنها •

ـ انظر الى زاجريانو ! أنت تعرف جيــــدا ـ فقد أخبرتنى أنت نفسك ـ أنه كان طوال عمله فى بريباس يثير شغف الاطفال بالهنغارية •• ومع ذلك فان أحدا لا يعيب عليه ذلك ، بل على العكس ، فهو موضع الثناء من الجميع ، وهم يتنبئون له بمستقبل باهر ! لأن هذه هى الحقيقة!

وفكر هرديليا أن يستفيد بفكرتهم الطيبـــة عن زاجريانو ، فذكر أنه قد يكون من الأفضل أن يتنازل له عن وظيفته فى بريباس ، اذا ما أثبت الشاب ، بالطبع ، جدية نواياه بالنسبة لجيجى • وأخذت الفتاة تعترض على هذا المشروع الفظيع ، معلنة أنها لا تحب زاجريانو على الاطلاق (على الرغم من أنها اعترفت سرا للورا فى سينجيورز بأنه شاب لطيف جدا ، رغم كونه مجرد مدرس) بينما ظلت السيدة هرديليا جامدة كصخرة عتيدة وقالت :

ـ دعك منه ، فسوف يجد له المفتش مكانا • أنت تعلم أنه أثير لدى المفتش ••

وفى أصيل يوم من أيام أغسطس ، حضر زاجريانو منفعلا أكثر مما اعتادوا منه ، على الرغم من أن جيجى لم تكن بالمنزل • وصحبه هرديليا الى الحديقة ليثرثر معه • وأسرع الشاب قائلا انه قد جاء لتوه من بيستريتسا وان هذا هو السبب فى أن ملابسه متربة ، فلم يتح له الوقت حتى يغير

ملابسه • وأضاف أنه قد تحدث الى المفتش •• ثم توقف فجـــأة • ونظر هرديليا اليه مستفسرا • واستطرد زاجريانو قائلا بارتباك أعظم ، وكأنما أعياه أن يجد الكلمات المناسبة :

ـ لقد قال لى أشياء كثيرة • لقد وعدنى •• بكل شىء فى الدنيا •• لقد وعدنى ••

فقال هرديليا بهدوء :

ـ ان المفتش يحبك للغاية • انه لمن المفيد أن يكون المرء على علاقة طيبة بالمفتش • شىء مفيد جدا فى الواقع •• يجب أن يعطيك مدرســـة مناسبة ، فى قرية لائقة ••

فتلعثم الشاب قائلا :

ـ أتعرف يا سيدى •• نعم بالطبع ، انه لأمر صعب بعض الشىء •• فلست أدرى متى يخلو المكان •• لقد قال المفتش أنه يفكر فى اعطائى مدرسة بريباس •

فصاح هرديليا وكأن سهما نفذ الى قلبه :

ـ بريباس ؟

ـ أجل •• أعنى •• لقد ذكر أنك لن تمكث بها طويلا ، وأنك فى حاجة الى الراحة ، وأنك قد خدمت بما فيه الكفاية •• وأن •• حسنا ••

لم يستطع زاجريانو أن يستجمع شجاعته ليخبره بأن المفتش قد أمره بأن يذكر المدرس العجوز بأن يقدم التماسه دون ابطاء ، والا أحاله هو الى المعاش ، وبأنه لن يسمح له بأية حال بالاستمرار فى التدريس فى الفصل الدراسى القادم •

واستغرق هرديليا فى تفكير عميق • فقد أدرك مالم يجرؤ زاجريانو على قوله وشعر بحرج مؤلم • وغمغم بصوت مرتعش :

ـ نعم ، هذا حقيقى ، حقيقى تماما ، لقد خدمت مدة طويلة ، بما فيه الكفاية تمـــاما •• لن أستمر أكثر من ذلك •• لا ، لا ، فليطمئن المفتش ، ولتطمئن أنت أيضا ••

وجلس الى مكتبه فى نفس تلك الليلة ، بعد أن أوت السيدة هرديليا وجيجى الى فراشهما ، وظل يكتب حتى ساعة متأخرة من الليل • وكتب

عديدا من الاوراق ومزقها جميعا بعد أن تبللت بما ذرفه من دموع . كانت فكرة افتراقه عن مدرسته ، عن حبه ، الى الأبد تمزق قلبه . فعندما تسلم قرار ايقافه ترك المدرسة وفي قلبه بارقة من الأمل في أن يعود اليها . أما الآن ، فانه يتركها بلا أدنى أمل . فهو من الآن فصاعدا لم يعد مدرسا.

وقال هامسا كامرأة تبينت فجأة أن الشيخوخة قد أدركتها :

ــ لقد انتهى كل شيء .. انتهى كل شيء .

- ٣ -

استشار فاسيلي باكيو ثلاثا من المحامين في بيستريتسا ، وأخبره ثلاثتهم بنفس الشيء : أن القانون يقضي بأن الطفل يرث والده والوالد يرث طفله . وكان هذا يعني أنه لا جدوى من أن يبلي نعليه دون فائدة . بيد أنه ظل يهدد ايون بمقاضاته أملا في اثارة خوفه ، تماما كما خاف هو نفسه من قبل . غير أن قلبه كان ينضح بالمرارة ، وثار على القانون الذي أباح لأفاق أن يغرر بابنته ، ويجرده من أرضه ، ثم يظل محتفظا بالأرض والثروة التي انتزعها بالقوة والخديعة بعد أن يدفن امرأته .. واستبدت به فكرة الظلم الذي يسود كل شيء ، وعششت في ذهنه حتى وصلت به الى الشك ، بل والاقتناع بأن ايون قد قتل أنا عن عمد حتى يستطيع الاحتفاظ بالأرض ويتزوج مرة أخرى . وقد صدقه بعض من تحدث اليهم بما يعتقد ، ولم يصدقه آخرون ، لكن الجميع كانوا يحسدون ايون لحصوله على كل هذه الأرض عن طريق أنا . واستسلم فاسيلي للشراب أكثر من ذي قبل ، بعد أن استبد به الغضب ومنى بخيبة الأمل .

وذهب ذات يوم الى الأب بلكيوج ليشكو له متاعبه بعد أن أعياه الوصول الى قرار بشأن ما ينبغي أن يفعل . وقلب القس الأمر في ذهنه على كافة وجوهه ثم قال له بعد أن واتاه الهام تقي ورع :

ــ حسن .. سأدعوكما لمناقشة المشكلة ..

واستدعى بلكيوج كلا من فاسيلي وايون في يوم الأحد التالي ، واستدعى معهما عددا من مزارعي القرية المرموقين . وقال القس وهو يفرك يديه :

ــ ان الشرفاء ينبغي أن يكونوا قادرين على الاتفاق . لنحاول جميعا

ونرى ما اذا كنا نستطيع الوصول الى اتفاق عادل ! هذه هى أفضل الطرق واكثرها عدلا !

فقال ايون بصوت هادىء مرتفع النبرات :

ــ لست وحشا ، ولست بلا قلب ·· لست كذلك يا أبى ، والله على ما أقول شهيد · سأتركه يعيش فى المنزل طالما هو حى ، رغم أنه ملكى قانونا ويمكننى الانتفاع به · ولكنى تركته له لأنى انسان ولا أبغى لأحد ضررا · ولقد أراد ثلاث قطع من الأرض ، ولقد حرثها ، وبذرها ، وحصدها · وكان بوسعى أن آخذها ، فهى ملكى · وهو لا يحتاجها فى الحقيقة ، فهو لا يأكل نتاجها · انه يبيعه ويبدد ثمنه فى الشراب · لكنى أقول ليحتفظ بها وليشرب بما يعود عليه منها اذا أراد ، فقد تعب بما فيه الكفاية ولديه من المتاعب ما يكفى ليؤلم قلبه · وهكذا ترون أيها الرجال الطيبون ، اذا كنت أدعه يعيش ، فلماذا لا يدعنى أعيش أنا أيضا ؟

فهب فاسيلى باكيو ثائرا كأى رجل لا يقف القانون فى صفه ·

ــولكن بأى حق تأخذ ثروتى منى ؟ لماذا تظل أرضى ملكا لك ؟ لقد قتلت ابنتى ، وقتلت طفلك ! بأى حق اذن ؟

ونفرت عروقه ، ومضى الوقت وتوالت الكلمات ، لكنهم لم يصلوا الى اتفاق · وعندئذ وجد بلكيوج أن الوقت قد حان لتدخله ، فتنحنح ثم قال فى صوت جاد وقور كصوته عندما يلقى موعظته :

ــ أيها الرجال الطيبون والاخوة الاحباء ·· ان العدالة دائما ذات حدين ، كالسيف فى يد مقاتل باسل · ايون على حق لأن قانون هذه الدنيا يقضى بأن تئول أملاك الطفل الى الأب الذى أنجبه ورباه · وفاسيلى على حق أيضا لأنه بعد وفاة ابنته وطفلها ، من العدل أن تعود الارض الى الرجل الذى حصل عليها بعرقه وكده · والآن ، فاننى كأب روحى لكما ، أحتفظ بحب متساو لكل منكما وأريد لكل منكما السعادة سواء على الأرض أو فى السماء ، كما أتمناها أيضا للسادة الشرفاء الذين بذلوا قصارى جهدهم لمساعدتكم على الوصول الى اتفاق · ولكنكما عنيدان ومتنافران كسيفين لا يمكن أن يغمدا فى غمد واحد · اليكم ما فكرت فيه بينما كنتم تتحدثون : فليحتفظ كل منكما بما فى حوزته فى الوقت الحالى · فأنت يا فاسيلى تحتفظ بالمنزل وشرائح الأرض التى تركها لك ، وأنت يا ايون تحتفظ بالأملاك التى وهبتها لك العناية الالهية · لكنى أعتبر أنه ليس من الصواب أن تقع الأرض فى أيد غريبة ، فحياة الانسان مثل

الزهرة فى الحقول · انها موجودة اليوم ، ولكنها غدا لن تكون ·· ربما تتزوج أنت يا ايون فى يوم ما ويكون لك أطفال ، وربما تموت ، لا قدر الله، فى أوج قوتك ·· وفى هذه الحالة أليس مما يغضب الله أن تقع الثروة فى يد شخص لا تربطه بك صلة ؟ ·· لهذا اذن ، أظن أنه من الحكمة والشرف أن يتعهد كل منكما بأن يترك مايملكه للكنيسة المقدسة فى حالة ما اذا مات أحدكما ، لا قدر الله ، دون وريث مباشر ·· أى بدون أطفال ·· انكما بهذا تقويان مملكة الله على الأرض حتى يستقبل الله روحيكما الى أبد الآبدين ·

وتوقف القس فجأة وهو يرخى عينيه حتى يترسب تأثير حديثه فى عقول الرجال الحاضرين · وعندما أيقن أنهم جميعا يتفقون معه فى الرأى انسحب الى غرفته ، تاركا اياهم ليقنعوا المتنازعين · وبعد مناقشة طويلة ، نجح كبار القوم فى حملهما على أن يتصافحا ·· واذ ذاك عاد بلكيوج فى هذه اللحظة باعلان مكتوب · وتردد ايون برهة عندما رأى الورقة ، لكنه وقع فى النهاية ، مدركا أنها لا تعدو أن تكون قصاصة تافهة ، طالما أنه قد حزم أمره على الزواج بسرعة وانجاب أطفال يرثون ثروته · وأسعدت فاسيلى فكرة أن الأرض ، حتى ولو لم تعد اليه ، فانها على الأقل لن تتبدد بين أقارب جلانيتاشو ·وقال القس وهو يطوى حجة الأرض ويحفظها بعناية ·

ـ حسن اذن · سوف أعلن للقرية كلها من منبر الكنيسة قراركما الذى يليق بمسيحيين ··· بارك الله فيكما كلاكما !

وتوقف فاسيلى باكيو فى طريق عودته عند الحانة ، حيث شرب حتى ثمل وتشاجر مع كوزما كيوكاناش ، خفير القرية · وذهب ايون الى منزل جورج ليخبره بما فعل · وبعد ذلك لم يعد يفكر الا فى زوجته المقبلة ·

- ٤ -

قرر تيتو أن يعبر الحدود ومعه ثلاثمائة « كراون » · وكان معه هذا المبلغ ، فكان كل ما يحتاجه الآن مبلغا زهيدا ـ حفنة من العملات الصغيرة ـ تكفيه حتى رحيله · فقبل أن يلتقى بأقاربه الرومانيين ، كانت تقلقه فكرة القيام برحلة فى عالم غريب وليس معه سوى ثلاثمائة «كراون»· أما الآن ، فهو يشعر بالاطمئنان تماما ، وكأنه يرحل من بريباس الى القرية المجاورة ، الى لوشكا أو ماجورا ·· وكانت النقود القليلة التى ما زال فى

حاجة اليها تقلقه الى حد ما ، فانها لم تزد رغم كل جهوده ، بل لقد أصبح مبلغ الثلاثمائة نفسه مهددا بالتناقص ٠

وجاءه الخلاص فى صورة فكرة طرأت له عندما قرأ فى احدى الصحف أن « أسترا » ، وهى جمعية لثقافة وأدب الشعب الرومانى ، سوف تعقد مؤتمرها العام فى سيبيو خلال شهر سبتمبر ، ولمح على المنضدة فى نفس الوقت نسخة من «تريبونا بيستريتساى» ، وهى صحيفة أسبوعية محلية ٠ وخطر له فجأة أن يذهب الى مهرجان « أسترا » كمراسل لهذه الصحيفة ٠ فهو بالدرجة الأولى سيوفر نفقاته ، بالاضافة الى أنه سيستطيع التعرف على كل المثقفين الرومانيين فى ترانسلفانيا ، قبل رحلة لمدة لا يعرف مداها ٠٠ وكانت « تريبونا بيستريتساى » قد أعادت نشر قصائده التى نشرت فى « فاميليا » مع تقريظ مناسب « لشاعر وادى سومش الموهوب » ٠ وجلس على الفور يكتب بضع سطور بليغة الى رئيس تحرير الصحيفة ، وهو محام بلا زبائن ووطنى غيور ، يطلب فيها أن يوافيه ببطاقة مراسل ومبلغ يغطى نفقاته ٠ ووصله رد رئيس التحرير بعد ثلاثة أيام ، مرفقا به البطاقة ومتضمنا معلومات مؤسفة عن أن الصحيفة لا تكاد تستطيع أن تضمن استمرار صدورها من أسبوع الى آخر ، ويهيب بالمشاعر الوطنية « للشاعر البارز » أن يمثل الصحيفة ــ ومن ثم يقوم بمهمة قومية سامية ــ على أن يتحمل نفقاته اذا أمكن ٠٠ وكان تيتو فى هذه الأثناء قد تخيل نفسه فى سيبيو وقد احتفى به كمعبر عن الرومانيين فى مقاطعة بأكملها ٠ وتحمس لتمثيل «تريبونا بيستريتساى» فلم يعد يشغله ألا يتلقى نقودا من الصحيفة أو يحصل على المبلغ الزهيد الذى يحتاجه لموازنة ميزانيته ٠

وعاد الى موطنه قبل رحيله بأسبوع ليعد نفسه بهدوء ويودع كل معارفه ، فان الانسان قد يعرف متى يرحل لكن الله وحده يعرف متى يعود٠ وعانقه كالدارارو عند رحيله وهو يذكره بأنه ما يزال أمامه وقت لتغيير رأيه ٠ وابتسم تيتو وشكره على نصيحته ٠

وعرف الجميع فى أرماديا أن تيتو ينوى الرحيل الى رومانيا فأعجبوا جميعا بشجاعته ٠ وعندما عرفوا أيضا أنه سيحضر مهرجان أسترا ــ الذى استطاع الاستاذ سباتارو وحده أن يحضره ذات مرة منذ سنوات ــ وأنه سيذهب كممثل لتريبونا بيستريتساى حسده الجميع وهنأه الكثيرون ٠

وبكت السيدة هرديليا وهى تغسل ملابسه وتكويها ، وكانت جيجى تعبىء حقيبته كل يوم لتفرغها مرة أخرى فى اليوم التالى ، وترتبها وتعيد

ترتيبها على نحو أفضل فى كل مرة حتى لا يشعر بالحرج أمام اخوته فى رومانيا • وفى المساء تبادل هرديليا الأب وهرديليا الابن حديثا جادا • فاذ كان تيتو لا يستطيع الحصول على جواز سفر الى الخارج طالما أنه لم يؤد خدمته العسكرية ، نصحه هرديليا بالحصول على تصريح بالمرور فى سيبيو يستطيع به العبور الى رومانيا ، حيث لن يحتاج الى جواز سفر •• واعترف العجوز خلال حديثه بأنه قد أرسل طلبا لاحالته الى المعاش ، الأمر الذى وافقه عليه تيتو بحرارة وأخذ على عاتقه مهمة ابلاغ السيدة هرديليا بذلك• وقام بهذه المهمة بمهارة بالغة حتى ان زوجة المدرس شـــكرت الله على أن زهاريا قد استمع أخيرا الى نصيحتها الحكيمة • ولكى يعبر هرديليا عن عرفانه بجميل تيتو فى اخراجه من هذا المأزق ، صحبه فى الليلة التالية الى مشرب راهوفا ، ليلتقى بكل سادة أرماديا ويودعهم على نحو لائق •

وأقيم حفل رائع فى مشرب راهوفا دون اعداد سابق ، يتخلله المرح والدموع • ورنت الأسئلة والتمنيات الطيبة وعبارات التهنئة فى آذان الشاب الجسور • وطلب هرديليا بطاقة الصحيفة ليريهـــا للجميع وبخاصـــة لجيتسا بوب ، كاتب المحكمة ، الذى لم يكن يصـــدق أن تيتو يمثـــل « التريبونا » حقـا فى مؤتمر أســبترا • والقى الاستاذ سباتارو أيضا خطبة عصماء ، توجها بقوله أن على تيتو أن يكون « همزة الوصل بين الاخوة الموجودين فى هذا الجانب من جبال الكربات واخوتهم فى الجـانب الآخر » وبلغ الحماس مداه عند منتصف الليل حتى ان الجميع أنشدوا « هبوا أيها الرومانيون البواسل » • أما شيتسو ، رئيس المقاطعة ، الذى تأثر بعمق أيضا ، فقد تغاضى عن النشيد رغبة منه فى ألا يفسد سعادة الجمع ، وبخاصة ، حتى لا يدع تيتو يرحل وفى نفسه انطباع سيىء عن الموظفين المجريين •• وفى النهاية صار الجميع سكارى • وشرب هرديليا وأفرط فى الشرب حتى يغرق ما به من أسى ، ولم يكد تيتو يستطيع أن يحمله الى البيت ، حيث أخذت زوجته تلعنه فى سرها دون أن تنطق بكلمة حتى لا تطرد النوم من عينيها •

وازداد تيتو توترا وعصبية كلما اقترب يوم رحيله • كان يشعر بالسعادة ومع ذلك كان صوته يرتعش اذا تحدث ، ولم يبد بيت والديه أبدا بمثل ما يبدو عليه الآن من دفء وود • وكان قلبه يغوص بين جنبيه كلما فكر فى أنه سيعيش فى المستقبل بين أناس لم يلتق بهم من قبل ، فى عالم مجهول حيث لا يعرف أحد ما يخبئه له القدر •

وزار عديدا من عائلات الاصدقاء ليودعهم • والتقى بلوكريتسيا فى

بيت آل دراجو ، حيث كانت مع أوبريا الذى أصبح زوجها ، وتذكر وهو يهنئه غرامه بها والأشعار التى عذب نفسه بكتابتها لكى يخلد فيها عينيها الزمرديتين الخضراوين • وها هى الآن قد استقرت ، تباشر طريقا من طرق الحياة ، يقودها رأسا الى الأمام دون أى منعطف غير مألوف • تلك هى حياة كل الذين يحكمون عقولهم •• بينما يستعد هو للارتماء فى أمواج الحياة ، فى خضم محيط لا قرار له •

وفى أصيل اليوم السابق على رحيله ، ذهب فى نزهة الى بريباس، ليلقى بنظرة أخيرة على البيت الذى قضى فيه طفولته ، ويودع بلكيوج الذى « قد يكون ماكرا وحاد الطباع ، لكنه على أية حال ، رجل لطيف » كما قال والده وهو يستحثه لزيارة القس • وقبله الاب بلكيوج وباركه والدموع تترقرق فى عينيه ، ووعده بزيارته فى بوخارست حيث يرجو أن يستطيع الذهاب اليها بدوره فى القريب ، خلال عام أو عامين • ثم اصطحبه لرؤية الكنيسة الجديدة التى أصبحت معدة للتكريس ، وأطلعه على كل ركن فيها ، وصعدا السلم المؤدى الى البرج والساعة وقال له بصوت متهدج :

ـ اننى شديد الاسف لأنك لن تكون هنا لتحضر تكريس الكنيسة الذى سيتم خلال أسبوعين ! سيكون الاحتفال مهيبا • وسيحضر الاسقف أيضا •• سيكون عيدا قوميا حقيقيا !

ووعده تيتو بأن يرسل له بطاقات بريد مصـــورة من رومانيـــا تنقل له مشاهد الريف ومعالم بوخارست « التى لا بد أن تكون مكانا رائعا » •

وسار بلكيوج معه الى الحانة ، وعانقه مرة أخرى بمشـــاعر أخوية خالصة •

كان منزل هرديليا فى بريباس ما يزال خاليا موحشا • ووقف تيتو يحدق فيه من الخارج ، يتذكر لحظات السعادة التى قضاها فى هـــذا البيت ، سعادة لم يلحظها وقتئذ • واذ راح يصعد درجات المدخل ظهر ايون أمامه فجأة •

ـ لقد سمعت أنك ستتركنا الى الأبد يا سيد تيتو ؟

فأجاب تيتو بوقار :

ـ اننى راحل لأجد لى مكانا فى العالم • فالوقت يمر ، وعلى الرجل أن يحقق شيئا فى حياته • واذا فشل فانه لا يستحق أن يعيش • أليس كذلك ؟

فقال ايون :

ـ أجل يا سيد تيتو ، انك على حق تماما ، ليحفظ الله عليك صحتك وليهبك الحظ السعيد حيثما ذهبت ، لأنك رجل لطيف رقيق حقا .

ـ وليباركك الله أيضا يا ايون ! وبالمناسبة ، لقد كان الله رفيقا بك ووهبك ثروة صغيرة لطيفة .. ولكن من المؤسف أنك لم تسعد طويلا بأنا والطفل ...

فأجاب الفلاح ببرود :

ـ حسن ، ماذا نستطيع أن نفعل ؟ انها ارادة الله ...

ـ والآن ، ماذا أنت فاعل يا ايون ؟ لا أعتقد أنك ستبقى أرمل طوال حياتك ، فأنت ما زلت شابا .

وغمغم ايون بوجوم :

ـ أجل ! هذا صحيح فى الحقيقة .

وكان تيتو قد نزل اليه ووقف مستندا الى عمود البوابة وقد انحدرت قبعته على مؤخرة رأسه . وتوهجت الشمس الغاربة فى غضب وامتد ظل « تل الغرانيق » عبر القرية حتى وصل الى أسفل المزار القائم على جانب الطريق ، حيث انتصب المسيح على الصليب ساكنا ، شاهدا صامتا على كل الأسرار . وألقى ايون بنظرة فاحصة على السيد الشاب الذى بدا أنه قد تغير كثيرا منذ آخر مرة رآه فيها . كان يود لو يطلب منه النصيحة ، كما اعتاد أن يفعل فى الماضى ، لكنه خشى أن يعيب عليه ما فى فعاله من أخطاء .

وعاود ايون الحديث مرة أخرى بعد فترة من الصمت العسير :

ـ لقد ناضلت وتعبت لكى أجد مخرجا من متاعبى ، ولم يهبنى الله الراحة أو البهجة .

فسأله تيتو متفحصا :

ـ وماذا عن الأرض ؟

ـ الأرض .. الأرض بخير ـ بالطبع ـ وهى عزيزة على أى انسان عندما تكون ملكا له .. ولكن اذا لم يكن لك من تعمل من أجله ، فالحقيقة أنه ...

ــ يجب أن تتزوج يا ايون !

فغمغم الفلاح ببلادة :

ــ أجل ، طبعا ، يا سيد تيتو • لكن ليس هناك ما يدعو الى الزواج من امرأة كيفما اتفق •• لقد أسأت التصرف مرة ، أليس كذلك يا سيد تيتو ؟ •••

وصمت كأنما يتوقع استفسارا أو موافقة • ولكنه استطرد ، اذ لم يبد تيتو أية ملاحظة ، بصوت يزداد انفعالا :

ــ والآن يمكنني أن أقول لك الحقيقة ، فأنت بالنسبة لى أكثر من أب ، وقد أخلصت لي النصح دائما •• أستطيع أن أخبرك ومع ذلك لا أعرف كيف أسوق قولى اليك يا سيد تيتو • أنت راحل عنا بعيدا ، وقد لا تسمع أبدا عن متاعبى مرة أخرى طوال حياتك •• يا الهى •• ان الحياة لغز ! ••• وقد يظن المرء أنه أحسن صنعا ، ولكنه يتبين فجأة أنه ليس أفضل حالا مما كان عندما بدأ •• وهذا هو حقيقة وضعى يا سيد تيتو ! اننى أكدح وأكافح ولا أعرف ماذا أفعل ، لا أعرف ببساطة ماذا أفعل !

ــ أنت الآن رجل غنى ياايون ، ولم تعد فى حاجة الى أن تكافح على نحو ما فعلت فى الماضى • فلا ينبغى أن يكون المرء شديد الطمع ، فالجشع يفسد الانسان ، ولديك ما يكفى من الأرض •

ــ ان الانسان لا يكتفى أبدا يا سيدى تيتو •••• فالفتاة التى أريد الزواج منها لا يمكن أن أنالها ، ولست أريد غيرها ••••

ــ ومن تلك التى تريدها ياترى ؟

فصاح ايون وعيناه تلتمعان بحدة :

ــ انها فلوريكا !

ــ أتعنى الفتاة التى تزوجت من جورج ، ابن توما بولبوك ؟

ــ نعم هى بعينها !

فقال تيتو :

ــ حسن ، كل ما أستطيع قوله يا ايون ، هو أن الله قد أعطاك

الأرض بيد ثم سلبك عقلك باليد الأخرى ! ألم تجد فى القرية الواسعة كلها سوى زوجة جورج ؟

فقال ايون بصوت كالفحيح وهو يصر على أسنانه وعيناه تلمعان فجأة بتصميم وحشي حاد :

ـ انها الوحيدة التى تناسبنى يا سيد تيتو !

وغمغم تيتو وصوت الرجل يكاد يشعره بالخوف :

ـ هم ! الوحيدة ٠٠ حسن ٠٠

فسأله ايون متوسلا ، بصوت أكثر رقة :

ـ بماذا تنصحنى ؟

ـ لا شيء على الاطلاق ٠٠ يجب أن تنسى هذا الموضوع !

ـ ولكن ، هب أننى لا أستطيع ؟

ـ فلتفعل اذن خير ما يتراءى لك ٠

فتلعثم ايون يتنازعه الغضب واليأس :

ـ لست أدرى ما هو الأفضل ٠

ـ وكذلك أنا ٠٠ كل ما أستطيع قوله هو أن تحاول نسيان هذا الموضوع ٠

كانت اجابات تيتو بالغة المرارة ٠ لم يكن ايون قد اعترف لأى انسان من قبل بما يعانيه من تمزق فى داخله ، وها هو لا يلقى سوى المعارضة ، بدلا من التشجيع ٠ وآلم قلبه أنه لا يجد سبيلا الى الخروج مما يعانيه من حيرة ٠ ومع ذلك فقد بلغ سعير عاطفته حدا من العنف ، حتى تبين أنها لن تلبث أن تحوله الى رماد اذا لم يسارع الى اخمادها ٠ وقال فى صوت كالأنين ، محاولا أن يسيطر على النار المستعرة فى داخله :

ـ يجب أن تكون لى يا سيد تيتو ، ليس هناك من سبيل آخر !

ارتجف تيتو وقد تملكه الخوف لما ارتسم على وجه ايون من تصميم وأسرع يمد يده اليه قائلا :

ـ أرجو لك حظا طيبا يا ايونيكا ٠ يجب أن تنسى هذا الموضوع ٠ تذكر ما قلت ٠

وغمغم ايون بكلمات غير مسموعة ، ووقف في وسط الطريق يرقب تيتو وهو يبتعد حتى يختفي حول منحنى مضيق الشيطان · ثم بصق غاضبا وتمتم قائلا :

ـ أنا أعرف ما ينبغي أن أفعل ...

وقضى تيتو فترة المساء مع والديه وشقيقته بمنزل جروفشورو · واستقل العربة في اليـــوم التالي الى مونور ، حيث كان عليه أن يأخذ القطار المسافر الى سيبيو ·

ـ ٥ ـ

منذ أن فتحت سافيستا عيني جورج ، بدا وكأنه قد استيقظ من سبات عميق · فلم يكن قد أدرك من قبل لماذا يحوم ايون حوله دائما يســـأله النصح رائحا غاديا الى بيته على الدوام · انه يسعى وراء فلوريكا · لكن جورج ظل يستقبله في بيته · وكان يتحدث ويمزح معه حتى ليقسم من يراهما معا بأنهما خير صديقين · كان جورج يكرهه ، وظل يتربص به في انتظار لحظة يسوى فيها حسابه معه · ولم يكن جورج يرتاح تماما الى هذه الفكرة ومع ذلك فقد ظل يسعى اليها · وكان يغادر منزله في ثقة تامة ، فقد كانت سافيستا حارسا لا نظير له ، وفي المساء كانت تقدم له تقريرا عن كل خطوة خطتها زوجته ·

وقد شعر ايون منذ بعض الوقت بما تكنه سافيستا له من عداء · وكثيرا ما راودته فكرة قتلها حتى يخلي ســـبيله الى فلوريكا · لكنه لم يكن يكره سوى جورج · كان يكرهه بمرارة متزايدة ، فبسببه وحده لم تكن فلوريكا حرة خالصة له · فلو أن جورج لم يتزوجها لكان من الممكن أن تنتظره ، وما كان أغنـــاه الآن عن كل هــذا العناء بحثا عن ســبيل ليدنو منها ·

وسمع ايون ، يوم رحل تيتو عن أرماديا ، أن جورج ليس بالمنزل، فأسرع الى فلوريكا قرب الظهيرة ، آملا في أن تسنح لهما الفرصة لتبادل الحديث معا على انفراد · كانت سافيستا قابعة على السقيفة ، ورأته قادما عن بعد · واذ لم تجد الوقت كافيا لكي تزحف الى برج المراقبة خلف كيزان الذرة ، أسرعت باســناد ظهرها الى الحائط ، وأغمضت عينيهـا

وفغرت فاها وبدأت ترسل شخيرا هادئا ، وكأنها مستغرقة فى سبات •
ودلف ايون الى الفناء ، وصاح مناديا اذ رآها ، لكن المقعدة لم تحر جوابا•
واقترب ايون منها وقلبه يدق فى عنف ، وناداها مرة أخرى ، بصوت خفيض هذه المرة ، ليرى ما اذا كانت نائمة :

ــ سافيستا !

واستمرت المرأة فى غطيطها بجأش رابط ، رغم الذبابات الثلاث التى كانت تتسكع على خديها الغائرين اللذين يغطيهما العرق ، ولثتها البيضاء وأسنانها الصفراء الطويلة •

وغمغم ايون وهو يدلف الى الحجرة الخارجية على أطراف أصابعه :

ــ انها نائمة لحسن الحظ !

وأرهفت سافيستا سمعها • ولكنها لم تستطع أن تلتقط سوى همسات ثم سمعت صوت فلوريكا تستحثه على الخروج •

ــ انظرى ، ان سافيستا نائمة كالأرنب البرى •

وجاش قلب الكسيحة بمشاعر الرضى • لقد اكتشفت ، دون تدبير، طريقة مؤكدة لاصطيادهما • واذ كانت لا تستطيع أن تسمع جيدا ما يقولان بالداخل ، فقد صممت على ألا تستخدم الشرفة مرة أخرى ، بل تجلس فى أحد أركان الحجرة الخارجية ، فى بقعة تستطيع منها أن تواصل عملها فى منع الدجاج من أن يعبر عتبة الباب • وصارت تجلس هناك غافية طوال اليوم ، وتغط فى نومها من حين الى حين • ولم تلحظ فلوريكا فى غمار انشغالها بالعمل المنزلى ، أن سافيستا قد غيرت مكان المراقبة • لكنها عندما سمعت غطيطها سألتها وهى تظن أنها قد تكون مريضة :

ــ ماذا جرى يا سافيستا ؟ يبدو أنك قد فقدت قواك •

ومثلت المقعدة دورها • ففركت عينيها براحتيها ، متظاهرة بأنها قد استيقظت لتوها ، وغمغمت ببلادة :

ــ كلا ••• لقد كنت نائمة فقط ••• نائمة •

وهزت فلوريكا رأسها ، لكنها لم توجه لها أسئلة أخرى ، وقد قدرت أن العمر يتقدم بها وأنها لهذا تنام كثيرا •

ومرت بضعة أيام دون أن يحضر ايون ، فراحت سافيستا تغلى بصبر نافذ •

كان جورج يتحدث الى فلوريكا مساء يوم الجمعة فأخبرها عرضا بأنه سيرحل مع والده ليلة الأحد ليحضر ملء عربة من خشب الوقود من غابة فولجيراتا قبل أن يشغلهم موسم الحصاد . وتصادف أن حضر ايون في اليوم التالى . كانت سافيستا تغط فى ركنها . ولم يكن ايون قد رآها فى الفناء فأفزعه أن يجدها هنا . وتساءل هامسا بصوت مرتعش :

ـ أهلا فلوريكا ... ماذا جرى لسافيستا ؟

ـ انها هكذا منذ مدة ... قد تكون مريضة ... الله أعلم ... اجلس يا ايون . خذ مقعدا .

فأجاب ايون وهو يتفحص سافيستا بنظراته :

ـ « شكرا ، كنت جالسا منذ برهة » . ثم سألها : « أليس جورج هنا ؟ »

ـ كلا ، انه فى حقل الذرة مع الرجال ...

ـ هم ...

ـ انه لا يبقى بالمنزل الآن الا فى أيام الأحد ، منذ بدأ العمل فى الحقول ... وقد لا يكون هنا يوم الأحد أيضا ... فقد كان يفكر فى الذهاب الى الغابة ليلة الأحد .

وسرت رعشة فى جسد ايون كأن يدا غير مرئية قد هزته . وفارت دماؤه كقدر يغلى فوق جمر النار . وحدق فيها بعينين واسعتين كأنه يراها تحت شجرة التفاح وقد احتوى جسدها الملتهب بين ذراعيه . ولم تنظر فلوريكا اليه ، وان حدسبت ما يجول بفكره . وغمغم ايون فى همس خشن بلهجة آمرة :

ـ سأجيء يوم الأحد ،بعد أن يرحل ! ... اتسمعيننى ؟

لكن المرأة لم تجب .

ـ انتظرينى فى الفناء . أتسمعيننى ؟ يجب أن تخرجى . واذا لم تخرجى ...

ووقفت فلوريكا ساكنة دون أن تنطق بكلمة،بينما استطرد قائلا :

ـ اننا لم نتحدث حديثا كاملا منذ تلك المرة ... لم أعد احتمل اكثر من ذلك .

فقالت فلوريكا فى همس واهن ، دون أن تنظر اليه :

ـ اذا عرف جورج ، فسوف يقتلنا !

وصر ايون على أسنانه ، وأحست المرأة برعشة تسرى فى جسدها ·

ـ يجب أن تنتظرينى فى الفناء يافلوريكا ! يجب ـ لأنك اذا لم تفعلى ···

والتفت كل منهما فجأة فى نفس اللحظة الى سافيستا التى كانت تغط فى نومها ، فاغرة الفم ، تشهق بين الحين والحين · وحملقا فيهـــا برعب وقد تملكت قلبيهما مخاوف مشئومة ، سرعان ماتبددت كظل عابر · وغمغمت فلوريكا :

ـ انها نائمة ، مستغرقة فى النوم ·

كانت سافيستا تتنفس فى غـير يسر ، وقد راحت حبات العرق تسيل على صدغيها ووجنتيها ، وأسراب من الذباب تطن حولها ·

- ٦ -

لم يستطع تيتو أن يحول عينيه عن مشاهد الطبيعة فى ترانسلفانيا التى راحت تتابع فى سرعه امام ناظريه ، تمتد على البعد ثم تعود لتقترب منه مرة أخرى ثم لا تلبث أن تتخلف وراءه ··· كان القطار يجرى بكبرياء عبر القرى الرومانية، يشطر بعضها شطرين كأنه طاغية لا يرحم · ويتوقف هنا وهناك لحظة ، يميز كل وقفة من وقفاته رنين كلمات هنغارية جافة تحمل الفلاحين المسافرين والخدم على آن يهرولوا ويسرعوا · انهم نفس الفلاحين المتواضعين ، الصابرين الأقوياء فى كل مكان : على الطرق الزراعية البيضاء الى جوار عرباتهم التى تعمل بلا كلل ، وفى الحقول الصفراء التى شققتها سواعدهم وبللها عرقهم ، وفى القرى الفقيرة الكادحة المضناة بالعمل · انهم ليوجدون حيثما وجد العمل · ثم جاءت المحطات الكبيرة ، وغرف الانتظار الفسيحة فى المدن ، فاختفى الفلاحون ، وانتشر بدلا منهم سكان المدن الصاخبون المتعجلون ، يتحدثون فى صلف بلغتهم الأجنبية وحدها · واختنق تيتو بســخط متزايد ولســان حاله يقول : اننا نعمل لكى نتيح لهم عيشا رغدا · انها صورة لمظالم الدنيا وما نعانيه من قهر واضطهاد !

في أرماديا لا يكاد المرء يلحظ هؤلاء الأجانب الذين يتوهون في غمار العدد الهائل من الرومانيين . ولكن هذه المدن تبدو بأنها تمزق الحجب عن عينيه ، تماما كما مزقتها من قبل تلك الأكواخ الحقيرة على مشارف جارجالاو . كانت المدن تبدو كخلايا نحل ضخمة يقطنها ذكور طفيليون معادون ، يلتهمون في نهم لا يشبع ثمار كدح ملايين الأقنان في كل مكان .

وانتقل في محطة كلوج الى قطار آخر . واستطاع بجهد أن يركب عربة اكتظت بالركاب وألقى بحقيبته في الممر . وأثقل قلبه سماع كل هذا الحديث بالهنغارية . وأحس كأنه رجل سقط في بركة من الوحل .

ــ شكرا لله على أنني سأغادر هذه البلاد ... فعلى الأقل لن أضطر الى سماع هذه الأشياء المقززة ورؤيتها .

وكان في الوقت ذاته يشعر بالخجل ، كأنه يفر هاربا . وأحس بأنه كان من الأصوب أن يبقى ويناضل ، بدلا من أن يهجر الآلاف الذين يعيشون في هوان ويتركهم بلا أمل ، وبلا سبيل من سبيل الدفاع ، تنهشهم هذه المخالب الفظيعة ... لكن شجاعته كانت تخونه كلما نظر حوله ، مدركا أن هذه الحرب التي لا تنتهي تتطلب رجالا من نوع آخر ، رجالا أقوياء ، ذوي صلابة وعناد ، لا تخمد جذوتهم ، يواصلون القتال بلا هوادة ولا يكادون يعوا هذه الحقيقة . رجالا مثل أولئك الفلاحين في لوشكا ... الذين تحملوا الضربات والهوان والسجن ، ومع ذلك لم يستسلموا أبدا .

كان الظلام يسري ، والقطار يجلجل في طريقه ، تتناثر منه فوق الحقول بين الحين والحين سحب من الشرر المشتعل ، تلمع في الهواء كأنما تمطر السماء نجوما هاوية ... واستغرق تيتو في التفكير ، وحدق في الظلام وقد أسند جبهته الى افريز النافذة المفتوحة . وعبث الهواء المشبع بالدخان بشعره . وهدأ ركاب العربة . وأصبح وحيدا في الممشى مع بعض الحقائب . كان يحس بالجوع ففكر أنه كان ينبغي أن يتناول طعاما في مطعم محطة كلوج ، لكن الصخب والضجيج كانا يثيرانه وقتئذ . وأخرج سلة الطعام التي وضعتها أمه في حقيبته . وأخذ يقضم ساق دجاجة مشوية فرآه حارس القطار الذي كان قد انتهى من عمله وجلس لينعم بلحظة من الراحة ، وتمنى له ــ بالهنغارية ــ شهية طيبة ، فأجابه تيتو بخشونة :

ـ أنا لا أتحدث الهنغارية !

ونظر الحارس حوله عندئذ ، واذ لم يجد أحدا آخر ، غمغم قائلا :

ـ انني رومانى أيضا ياسيدى !

وانتعش تيتو فجأة ٠ وقدم له قطعة من الدجاجة وهو يكرر ٠

ـ أنت رومانى ٠٠٠ رومانى ٠٠٠ تفضل ٠٠٠ أنت رومانى !

وأخبره الحارس بأن اسمه ستيفان بوبا لكنه غيره الى باب استفان كما طلب اليه عندما وظفته شركة السكك الحديدية ، وبأنه متزوج من امرأة هنغارية ولديه ثمانية أطفال ، وأنه مضطر لمداهنة رؤسائه حتى يحتفظ بوظيفته ٠

وشرد تيتو بخواطره عندما صار وحده ثانية : « وهكذا فان الرجل الذى يريد أن يهرب من الرق فى القرى عليه أن يبيع روحه فى المدينة ويصبح شرا يهدد الأرقاء الذين وهبوه الحياة ٠ الرجل الذى يترك قريته يسقط فريسة لمكرهم وخداعهم » ٠

وأنهكه التفكير اكثر مما أنهكه التعب الجسمانى فاستغرق فى النوم فوق حقيبته ٠٠٠ وأيقظه ألم فى ظهره ٠ كانت الشمس تشرق فى تكاسل بينما استمر القطار يجلجل فى مسيرته ٠

وفى محطة سيبيو ، كان جمع من السادة يقفون فوق الرصيف ويتجمعون حول أبواب عربات القطار ، وقد علقت على سواعدهم شارات مثلثة الألوان ٠ هؤلاء هم أعضاء لجنة التنظيم ، وقد جاءوا يرحبون بالوفود التى حضرت من كل المقاطعات الرومانية ٠٠٠ وهبط تيتو الى الرصيف ووقف مذهولا اذ رأى كل هـذا العـدد من الناس الـذين يتحدثون الرومانية ، والذين هبطوا من نفس القطار الذى شعر فيه بأنه غريب ٠ ومع ذلك فهم فى القطار لم يتحدثوا بالرومانية ٠ لماذا لم يتكلم أى منهم بلغته فى القطار ؟ ٠٠٠ كانوا جميعا يحتضنون بعضهم بعضا أو ينادى كل منهم الآخر باسمه ٠ وشعر تيتو بالحزن لأنه لم يكن يعرف أحدا ، رغم أنه كان وسط حشد من الرومانيين ٠ وسمع ، فى اللحظة التى تقدم فيها نحو أحد المضيفين ، صوتا مرتفعا ينادى فجأة :

ـ هرديليا تيتو ! ٠٠٠ هرديليا !

والتفت فى ارتباك وحملق فى الرجل الذى نادى اسمه ٠ كان سيدا

متين البنيان ، حليقا ذا وجنتين متوردتين ونظارة ذات اطـــار ذهبى ٠ وصاح تيتو وقد أضفت الدهشة شيئا من الخشونة على صوته :

ــ هأنذا ، أنا تيتو هرديليا !

واندفع السيد نحوه بود بالغ ، وكلتا يديه ممدودتان اليه ٠

ــ اننى سعيد لأننى وجدتك ياسيدى ! أنت لا تعرفنى ٠٠٠ اسمى بنتيا ٠ دكتور فيرجيل بنتيا ٠ لقد كتب الى أخى يخبرنى بأنك ستحضر مؤتمر أسترا ، لكنه لم يذكر موعد وصولك ٠ كنت أخشى أن تتوه منى ، لذلك أخذت انتظر جميع القطارات خــلال اليومين الماضيين ، وأصرخ كالمجنون «تيتو هرديليا» ٠ حسن ، على أية حال ، اننى مسرور بلقائك ٠

وغمغم تيتو :

ــ آه ، شقيق جورج ؟ ٠٠ حقا لقد كتبت لهم لكن لم تكن لدى أدنى فكرة عن أنهم سيخبرونك بوصولى ٠ لا يمكنك أن تتخيل مدى سعادتى ٠

ــ نعم ٠، أنا شقيق جورج ٠٠٠ اننا كثيرون حتى انه ليست هناك بقعة من الأرض الرومانية لا يوجد بها واحد أو اثنان منا على الأقل ٠ هنا ، على سبيل المثال ، يوجد منا اثنان ٠

ــ اثنان ؟

ــ اثنان ، يا سيدى العزيز ٠٠٠ منذ الربيع الماضى ٠ فقــد جاء ليفيو أيضا ، وهو نقيب فى الجيش ، وضابط أركان مهيب ٠ ولن نلبث أن نراه جنرالا ٠٠٠ لكنه انسان غير اجتماعى ٠ لست أدرى عمن ورث هذه الصفة ٠ انه عار على أمتنا ٠ انه لا يحضر حتى لزيارتنا ، فهو يقضى كل وقته مع أصدقائه العسكريين ، ويدفن أنفه فى كتبه وخرائطه ٠٠٠ سأصحبك لزيارته على أية حال ٠ لكنك يجب أن تقبله كما هو ٠

كان فيرجيل بنتيا محدثا عظيما ، مرحا يفيض نشاطا كأنه طفل ٠ وكان الجميع فى سيبيو يعرفونه ويحبونه ٠ فقد كان طبيبا كفئا ورومانيا متحمسا ٠ واستضاف تيتو فى مسكنه ، وهو شقة مريحة فى حى لطيف من أحياء المدينة ، حيث ترك لضيفه غرفة نومه ، ونام هو على أريكة فى حجرة مكتبه ٠

وخرجا الى المقهى بعد أن اغتسل تيتو وبدل ثيـابه ، حيث قدمه بنتيا الى الجميع كشاعر يبشر بمســتقبل عظيم وممثل لجريدة « تريبونا

بيستريتساى » • ورحبوا به فى ود كما اعتادوا فى مثل هذه المناسبات وتذكر بعضهم بعض قصائد تيتو التى نشرت فى « فاميليا » • وكان باربو لوكا على الأخص ـ وهو شاب قصير نحيل ، وشاعر ، ونائب رئيس تحرير احدى الصحف المحلية ـ لطيفا ودودا مع تيتو ، عارضا عليه خدماته كدليل غير متحيز وأهل للثقة •

تعرف تيتو بعد فترة من الوقت على النقيب بنتيا الذى كان يسكن غرفة بسيطة فقيرة بالقرب من قيادة الكتيبة حيث يوجد مكتبه • ووجداه غارقا وسط الخرائط والسيوف والسترات العسكرية والأحذية الطويلة ، يجلس الى مكتبه مرتديا سترة بيجامته ، وأمامه كومة من الوثائق التى سارع الى اخفائها فى درج مكتبه لأنها أسرار عسكرية • كان ليفيو بنتيا رجلا طويلا ، كثيف الحاجبين ، خفيف الشعر ، ذا عينين زرقاوين فى لون الصلب ، وبشرة سمراء ملوحة • وابتدره فيرجيل وهو يدخل قائلا :

ـ هذا صهرنا • انه شاعر رومانى ، وأنا أحذرك حتى لاتضايقه بأى من أفكارك المرتدة !

وابتسم النقيب بنتيا وصافح تيتو ببرود انجليزى قائلا فى أدب :

ـ هل تظن أنه اذا كان شاعرا فينبغى بالضرورة أن يكون من دعاة الوحدة أيضا ؟ لاتلق بالا الى حديث أخى • أنا رومانى ، ولكن قبل أن أكون رومانيا فأنا ضابط وخادم لصاحب الجلالة الامبراطور • لذلك لا يمكننى بالطبع أن أوافق على تمنيات أناس على شاكلته ، يتطلعون باستمرار الى بوخارست ورومانيا • وفى رأيى أن مثل هذا الموقف لا يمكن أن يسمى سياسة قومية ، بل انها خيانة لبلادنا •

كان يتحدث فى صوت هادىء حازم بلهجة رجل استقر ، بعد جهود مضنية ، على مسلك فى الحياة يدافع عنه باقتناع وتصميم بارد • وأنصت تيتو اليه فى دهشة • لم يكن قد التقى من قبل بغريم فى مثل هذا التماسك ، ولديه مثل هذه الحجج الصارمة ، ويلقى بكلماته فى مثل هذه الجرأة • وأحس على الفور بعجز مكدر • وظل برهة لا يجرؤ على أن يفتح فاه ، فقد اعتاد عندما يواجه بمعارضة أن يجيب بكلمات تصدر عن عاطفة ملتهبة ، لكنها لم تكن دائما متماسكة فى بناء منطقى سليم • ولكن فيرجيل ، لحسن الحظ ، لم يجد صعوبة فى تفنيد آراء أخيه التى كان يعرفها كلها جيدا ، داحضا اكثر حججه هولا بفكاهة كأنها عقبة تافهة مضحكة ألقيت بين قدمى مصارع صنديد •

وظلا يتجادلان ما يقرب من ساعة . واستجمع تيتو شجاعته فى النهاية وسأل النقيب :

ـ أتعنى أن تقول أنك لا ترغب فى وحدة الرومانيين جميعا ؟

ـ حسن ، هذا محض خيال فى الوقت الحالى .

ـ ماذا تعنى بالوقت الحالى ؟

ـ حسن ، بضعة قرون فيما أعتقد ... على أية حال ، طالما بقيت قوتنا العسكرية قوية سليمة ، فستظل كل هذه الاثارة الوحدوية مجرد حلم طوباوى .

ـ ولكن ماذا لو نشبت حرب ؟

ـ لا يمكن أن تؤدى الحرب الى تحقيق أحلامكم . ان رومانيا حليفتنا، كما تعلم . لذلك ...

ـ ان التحالفات ليست أبدية .

فسأله النقيب باسما :

ـ أتعنى أن تقول ان رومانيا قد تنقلب علينا ؟ أنت مخطىء . مخطىء تماما . ان رومانيا لن تقع مطلقا فى هذا الخطأ ؛ فكل مصالحها ترغمها على أن تكون على وفاق معنا ، انها ترغمها .. أقولها واكررها ، ترغمها !

ـ ولكن اذا لم تسر الأمور على نحو ما تظن ، ماذا ستفعل عندئذ ؟

فقال ليفيو وقد اكتسى وجهه فجأة بسمت وقور :

ـ هذا سؤال غريب حقا . حسن ، سأقوم بواجبى طبعا . لا مجال للمناقشة فى هـــذا . لن أتردد لحظة واحدة فى أداء واجبى ضـــد عدو الامبراطور بغض النظر عمن يكون هذا العدو !

ـ اخوتنا ...

ـ لا مجال للأخوة فى مثل هذه الحالات . عندما يكون أخوك عدوا لك ويهدف الى سرقة بيتك ومزرعتك ليوسع رقعة أملاكه فانك ترد عليه عندئذ بلا رحمة ، كما تضرب أى عدو آخر دون أن تشغل بالك بما اذا كان آخا لك ذات يوم .

كان فيرجيل ينصت الى الحـــوار بين تيتو وليفيو وقد ارتســـمت

ابتسامة على شفتيه • فكثيرا ما سأل هذه الأسئلة وتلقى دائما نفس الاجابات ، على الرغم من أنه كثيرا ما أظهر ضعف ما يقدمه ليفيو من حجج • لكنه كان يعلم أن هذه المناقشات تثير دائما ضمير النقيب وتزعجه ، لذلك كان فيرجيل سعيدا بأن يرى تيتو يضيق الخناق على خصمه • وأخيرا صاح الطبيب ضاحكا وهو يرى تيتو يزداد يأسا :

ـ دعك منه يا صديقى العزيز ، لا فائدة من الحديث معه • انه مرتد من قمة رأسه الى أخمص قدمه ••• لقد فقدناه كلية ••• انه لن يتغير الا عندما ننصبه جنرالا فى رومانيا العظمى •

وابتسم ليفيو بنتيا باستخفاف •

ـ كان من الانسب أن نتحدث عن أشياء أخرى •

فقال فيرجيل ساخرا :

ـ نعم ، عن رادتسكى أو عن غزو بوهيميا •

واستطرد النقيب ملتفتا الى تيتو ، متجاهلا سخرية أخيه :

ـ كنت أود أن أقرأ مؤلفات صهرنا • أنا لا أجيد الحديث بالرومانية كما ينبغى ، لأنى كنت دائما أعيش مع غرباء ولم تتح لى الفرصة للحديث بلغتى ، ولكنى مولع للغاية بقراءة الكتب الرومانية ، عندما يكون لدى الوقت • وبشكل عام ، أحب الروايات وأكره الشعر •

فصاح الطبيب :

ـ حسن ، لقد وقعت • ان تيتو لا يكتب سوى الشعر •

ـ لا يهم ! سأقرؤه ببساطة على أسوأ الأحوال •

غادر تيتو منزل النقيب بنتيا وهو يشعر بالضيق ، على الرغم من أن المناقشة قد جرت بلهجة ألفة ودية • وظلت حجج الضابط تصطدم فى داخله بمعتقداته الحماسية ، وانتهت به الى صياغة تساؤل مخيف : ماذا لو كان النقيب على حق ، فى واقع الأمر ؟ ولم يتح له فيرجيل فرصة لحسن الحظ ليعذب نفسه بشكوكه ، اذ قال فى لهجة جادة :

ـ أرأيت أى هراء يفكر فيه هؤلاء الجنود ضيقوا الأفق ؟ لكننا جميعا مهددون بنفس الخطر ، ما لم نناضل بكل ما نستطيع حتى ننقذ أرواحنا من الغزو الأجنبى !

اكتست مدينـــة سيبيو بثوب العيـــد . وازدحمت الشـــوارع بالرومانيين الذين قدموا من كل انحاء البلاد : فهناك قسس ، ومدرسون ريفيون يتابط كل منهم مظلته ، ومدرسون بالمدارس العليا ، ومحامون ، وفلاحون ... وعلى الرغم من طابع المدينه الالمانى ، فقد كانت تبدو فى ذلك اليـــوم كموطن رومانى أصـيل . واختفى الأجانب فى حضـــم الرومانيين .

وتشجع تيتو لدى رؤيته لهذا الحشد من الرومانيين ولسان حاله يقول : « يبدو أن آلاف الأرقاء النشطين الكادحين قد استولوا على عش ذكور النحل الطفيليين . »

وحضر تيتو في المســـاء حفل تعارف فى فندق ترايان . واتخـذ مجلسه الى مائدة الصحفيين ، بينما جلس فيرجيل بنيتا ، بوصفه عضوا بارزا فى جمعية أسترا ، بالقرب من رئيسها المسن .

أحس تيتو بالحرج بين رجال الصحافة الصاخبين . فقد جمعت بين أكثرهم علاقات التعارف والصـداقات القديمة ، وآخذ كل منهم يروى للآخرين أحدث ما لديه من أخبـــار قومية ، وراحوا يعددون قضاياهم ومقالاتهم ، وعدد النســـخ التى يصدرونها ، ويتحدثون عن الأعضـــاء الرومانيين فى برلمـــان بودابست ، وعن الحـــكومة المجرية ، والمدعين العامين ... وتكشف عالم جديد بكل أسراره أمام هذا المراسل الشاب لصحيفة «تريبونا بيستريتساى» . عالم محير ثبط آماله . كانت كل كلمة تبلغ آذانه تغص باهتمامات ذاتية ومصالح شخصـية تافهة . لم يكن هناك شخص واحد ينطق بكلمة واحدة عن المثل العليا . كان كل منهم يبدو مزهوا بنفسه ، حريصا على أن يرفع من قدرها فوق الآخرين بأى ثمن . ولم يعد لدى جاره الوقت ليهتم به ، فقد راح يقرع كأسه مع «المأمور القضائى الشهير لمجمع الكرادلة» أو مع «صاحب الفخامة فلان» ، وفى كل مرة يعود الى مقعده يهمس لتيتو فى عجلة :

ـ هذا الشخص الشهير نذل وضيع ، ولكن عليك أن تحتفى بهؤلاء الناس اذا أردت أن تعيش !

وأحس تيتو قرب نهاية الحفل ، وبعد أن استمع الى كل ما قيل من خطب عصماء مرحة ، بخيبة أمل مريرة ، حتى لقد تملكته رغبة فى البكاء.

وفكر وهو ينظر حوله الى الوجوه التى توردت بالشراب وابتسامات النفاق على الشفاه الرطبة :

ـ لا شيء سوى الأنانية فى كل مكان ٠ يا الهى !

ورن من خلفه صوت فيرجيل فأيقظه :

ـ تيتو ! هلا أتيت هنا ! ٠٠ ما ذا بك أيها الشاعر ؟ لماذا تبدو مكتئبا هكذا بينما يستمتع الجميع ويمرحون ؟

وصارحه تيتو عندما عادا الى البيت بما يعانيه من حيرة وارتباك ٠ واغرورقت عيناه بالدموع كطفل صريح أصابه اتصاله بالعالم لأول مرة بجرح عميق ٠ وأنصت فيرجيل بنتيا اليه باهتمام وهو يهز رأسه مشفقا، ثم قال فى النهاية وهو يحدثه كأب عطوف :

ـ لقد أصبنا جميعا بخيبة أمل مماثلة ٠ ولكن هذه هى الحياة ياصديقى العزيز ٠ ان الحياة تقضى على الاوهام ٠ والرجل الذى يستطيع أن يحتفظ بأحلامه على الرغم من قسوة الحياة هو وحده القادر على الاحتفاظ بثقته الى الأبد ٠٠٠ ان العرض يفقد ما فيه من سحر رومانسى بالطبع اذا رأيت الحبال التى تحرك كل شيء خلف الكواليس ٠ لاتلق بالا الى الافراد، فلو أخذت كل فرد على حدة ، فلن يكون أى منهم أكثر من مخلوق وضيع تافه يناضل من أجل شق طريق لنفسه ٠ ولكنك اذا رفعت عينيك ونظرت فيما خلفهم سترى منظرا مختلفا تماما ٠٠٠ هذه الاحتفالات على سبيل المثال ! دعك من الناس هنا ، بخطبهم ومحاضراتهم ، وتقاريرهم حيث يحاول كل منهم أن يستلفت الأنظار بصفات حقيقيه أو خيالية ٠ كلا ! ليس هؤلاء بالشيء المذكور ٠ ينبغى أن تحاول أن ترى الصورة كلها ! فعندئذ ستشعر فى كل ما تراه ، طيبا كان أو خبيثا ، ساميا أو حقيرا ، متحضرا أو متوحشا ، بنبض أمة تريد أن تعيش وتناضل بأقصى ما تستطيع من جهد كى تظل حية ٠٠٠ وفى المعارك ، النهاية وحدها هى التى تهم ٠ ماذا يعنينى اذا ما سكر الجنود أو التهم بعضهم بعضا ، ما دامت الحرب مستمرة ؟ ان التاريخ لن يسجل سوى النصر أو الهزيمة٠ وفضلا عن ذلك فان معركتنا عملية دفاعية نشطة ، كما يمكن أن يسميها أخى النقيب ٠ فالعدو يهاجمنا بكل أسلحة العدوان الحديثة : بثقافته ، ومدارسه ، وفنونه وأمواله وعمله ٠ وينبغى أن نقاوم بكل ذرة من كياننا حتى لا يسحقنا ٠ هذا كل ما نستطيع أن نفعل ٠ اذا استطعنا أن نظل فى المعركة ، فهذا كل ما نحتاجه ٠ هذا هو نصرنا ٠ ان هدفنا هو

أن نمنع العدو من أن ينفذ الى قلعتنا · حسن ، لقد نجحنا فى هذا على الرغم من كل الصغائر الانسانية التى تحزنك · وهذا هو ما نفخر به ، وما ينبغى أن تفخر به أنت أيضا ، وما يجب أن يفخر به كل رجل يحب أمته حقا !

وخلال الأيام الثلاثة التى استغرقها المؤتمر حضر تيتو كل جلسة ، وكل محاضرة ، وكل احتفال ، هادئا راضيا وكلمات فيرجيل بنتيا يتردد صداها فى آذانه كلما أوشك أمر صغير أن يقلق باله · وفى الليلة الثالثة، فى الحفل الختامى الراقص ، لم يستطيع تيتو السيطرة على حماسه ··· كانت السيدات ترتدين الملابس الوطنية الخاصة بكل منطقة ـ كان منظرا بالغ الأثر فى النفس · وقرب منتصف الليل أمسكت كل هاته السيدات الجميلات ، وكل منهن جميلة رشيقة كزهرة ، بيد الأخرى ، وكون دائرة ترقص رقصة الهورا وتغنى غناء جماعيا بصوت عذب قوى ، أغنية شعبية كان فيرجيل بنتيا يعزفها على ناى راع ، واقفا فى وسط القاعة وقد ارتدى ملابس فلاح ··· كانت رقصة الهورا تبدو لتيتو رمزا لكل حياة الرومانيين فى ترانسلفانيا ، ورباطا يجمع بين الجماهير العريضة الكادحة المتواضعة وبين قادتها الذين ارتفعوا على اكتافها دون أن يفقدوا ارتباطهم بأصلهم · وفجأة صاح تيتو وقد فقد السيطرة على عواطفه :

ـ عاش الرومانيون !

كانت الصيحة تتردد فى قلب كل واحد منهم ، ولم تلبث القاعة أن امتلأت بعد برهة بصيحات حماسية ·

ـ عاش الرومانيون ! ·· عاشت نساء رومانيا ! ·· عاش الشعب الرومانى !

وتدخل رئيس شرطة المدينة بحذر لدى رئيس الجمعية الموقر لكى يحاول أن يهدىء من حدة حماسهم الخطر · لكن صوت الرئيس بدا خافتا كنداء ضعيف ضائع وسط زمجرة اعصار جارف ·

وأراد تيتو فى الليلة ذاتها أن يكتب مقالة لصحيفة « تريبونا بيستريتساى » ولكنه لم يستطع أن يخط حرفا · لقد امتلأ قلبه بالسعادة ، حتى أنه ظل يتردد على غرفة فيرجيل لكى يشاطره مشاعره ·

ـ كم هو رائع أسلوب الحياة الرومانى ! وكم هى نبيلة ·· أمتنا ! ليست هناك أمة أبدع منها فى العالم ، وليس هناك من يفوقها

مثابرة ، أو روعة ، أو قوة ٠٠ كلا ، لا يمكن فى الحقيقة أن تكون هناك أمة أخرى تماثلها !

وتذكر تيتو وهو فى ذروة ابتهاجه أن عليه أن يغادر ترانسلفانيا فى اليوم التالى ، وأن يعبر الجبال الى رومانيا ٠

ـ كلا ، لم أعد أريد أن أغادر هذه البلاد ! سأظل هنا ! هذا المكان يحتاج الى رجال أكثر من أى مكان آخر ، ومن الخيانة ان أهرب منه ! ٠٠

وغلبه النوم وقد صمم على البقاء فى سيبيو ، والالتحاق بشكل أو بآخر باحدى صحفها ، حتى يكون ذا نفع لشعبه ٠

واستيقظ فى الصباح التالى على هزات فيرجيل القوية ، وهو يكاد يموت تعبا ٠

ـ انهض ياذا العظام الكسولة ، انهض ! ٠٠ ان الساعة الآن العاشرة يا شعرى العزيز ، والقطار لن ينتظرك حتى تنتهى من هضم انطباعاتك الوطنية بينما تغط فى نومك ! ٠٠ اننا سنتأخر فى نقطة الشرطة ، حيث يتعين علينا أن نحصل على تصريح مرورك ٠ سوف تتخلف هنا اذا لم تسرع ٠٠

قفز تيتو من فراشه وهو ينضو عن نفسه كل ما به من تعب ، صائحا :

ـ ماذا تعنى بقولك اننى سأتخلف هنا ؟ سأكون مستعدا فى لحظة ! لن أستغرق أكثر من خمس دقائق ! ٠٠ كيف تظن أننى سأظل هنا وقد بدأت الرحلة الكبرى ؟ ٠٠ ان السعادة فى الجانب الآخر من الحدود ٠٠ فالسعادة الحقيقية لا يمكن أن توجد الا هناك !

- ٧ -

اضطرم جورج بمشاعر السخط والغضب ٠٠ وكان أول ما خطر بباله أن يلقى بنفسه على فلوريكا فيمزقها اربا ٠ أتحاول أن تلوث شرفه بعد أن انتشلها من الوحل ، وبعد أن تبين عجزها عن أن تنجب له طفلا ؟ ولكنه كبح جماح نفسه بعد أن قدر أن ايون هو على أية حال

سبب كل هذه المتاعب ، وهكذا يتعين عليه أن يصفى الأمر معه ٠ لقد تسبب هذا الشخص من أسرة جلانيتاشو دائما فى الاضرار به ، ولم ينله من ورائه الا الضرر ، على الرغم من أنه (أى جورج) لم يسىء اليه مطلقا على أى نحو ٠٠

وظل يكظم غضبه طوال السبت كأنه لا يرتاب فى شىء على الاطلاق ٠ واذ لم يحضر ايون أثناء النهار ، ذهب جورج الى الحانة فى المساء حيث قابله ٠ وأخذا يتسامران وهما أكثر ما يكونان مودة ، وذكر جورج أنه سوف يذهب فى اليوم التالى الى الغابة ، ونظر اليه بهدوء حتى استطاع أن يستشف مشاعر الفرح بوضوح فى عينى ايون ، فرح دفعه الى أن يسأل :

ـ ومتى ستشرع فى رحلتك يا جورج ؟

وعلى الرغم من أنه حاول أن يبدو صوته طبيعيا ، الا أن نبرة خفيفة من الرضى كانت تشيع فيه ، ولم يفت جورج أن يلحظها فأجاب بهدوء :

ـ حسن ، سأذهب فى وقت متأخر من المساء ، اذ يكون الجو أقل حرارة ٠

ومر بالحانة مرة أخرى بعد ظهر يوم الأحد ، حيث التقى بايون والقى مرة أخرى بكلمة عن أنه يتعين عليه أن يذهب هذا المساء الى الغابة ٠ وكان ايون مخمورا بعض الشىء ، فراح يصيح ويرقص كأن العالم كله ملك يديه ٠ وتألقت عيناه بنظرة تحد وفرح بالغ ٠ وعندما هم جورج بالخروج تمنى له ايون عودا سالما ، وطلب زجاجة أخرى من الشراب ليخمد النار التى تستعر بداخله ٠

ولم يستطع جورج أن يحصل على شىء من فلوريكا ٠ فقد كانت تقوم بعملها فى المنزل كالمعتاد ، حتى ان زوجها ظن أنها قد لا تكون ملومة فى الحقيقة ٠ وأعدت له طعامه ووضعته فى جرابه ، ثم ربطته الى عريش العربة ٠ وأقبل الغسق ، وأوقف توما بولبوك عربته فى الطريق أمام منزل جورج ٠ وكان الاخير قد وضع النير على عاتق ثيرانه ، فى انتظار وصول والده ٠ وصعد واحد من خدم توما الى عربة جورج حتى يؤنسه فى الطريق ٠ وصاح الخادم اذ شرعا فى الرحيل بعد أن رسم كل منهما علامة الصليب :

ـ ألم تحضر فأسك ياسيدى جورج ؟

وأجفل جورج · فقد ترك الفأس وراءه عن قصد ، ظنا منه انه قد يحتاجه فى البيت · وهبط جورج من عربته وجرى الى الغرفة الخارجية· وغمغمت سافيستا ــ التى كانت قد زحفت الى السقيفة ، والتى لم تستطع أن تفهم كيف يمكنه أن يرحل بعد أن أخبرته بأن ايون جلانيتاشو سوف يحضر ــ قائلة بلهجة نائحة :

ـ لا تذهب ياسيدى جورج ، لتبق هنا ··

وتمتمت فلوريكا :

ـ جورج ، احذر أن يصيبك مكروه · ان العودة تجلب سوء الحظ·

فرد زوجها بصوت مرتفع خشية أن تسمع دقات قلبه :

ـ بل احذرى أنت أن يقع مكروه فى البيت !

وأجابت المرأة بهدوء :

ـ لا تشغل بالك ، أنت تعرفنى جيدا !

وتحركت العربتان ، ولم يلبث الظلام أن ابتلعهما ، ولم تخلفا وراءهما سوى صدى صرير العجلات الذى ظل يخفت باطراد ·

وأخذت النجوم تبدو واحدة وراء الاخرى على صفحة القبة الزرقاء الداكنة ، كأنها شموع صغيرة مذعورة · وهبط على القرية قناع أبيض رقيق من الضباب ، خفف من الظلمة وزادها برودا ·

وارتعد جورج فى عربته ، كأنما تملكته رعشة الحمى · واصطكت أسنانه عندما تكلم · كانوا قد تركوا القرية وراءهم وشرعوا لتوهم يصعدون المنحدر ، خلال الحقول الساكنة حيث كانت أكوام التبن تلقى ظلالا كثيفة تبدو كأنها لصوص متربصون على الطريق ·· لقد تدرب طوال يومين على ما سوف يقوله لوالده عندما يحين الوقت ، ولكنه لا يستطيع الآن أن يتذكر كلمة واحدة ، فقد كان عقله مجدبا كصفحة بيضاء · وبدا له كأنه قد ترك بيته منذ قرن مضى ، وتبدت لعينى خياله صورة ايون يتسلل الى فناء بيته ، ثم يستلقى فى السرير الى جوار فلوريكا ·· فزمجر فجأة قائلا :

ـ اننى لست على ما يرام ·· سوف أعود ··

وقفز من العربة وشرع من فوره يعود عبر الحقـول ، وسمع والده يصيح به ، ولكنه لم يستطع أن يميز شيئا مما يقول • وحاول أن يجيبه قائلا « سمعا وطاعة » ولكنه لم يستطع أن ينطق بحرف • وشرع يجرى عندما كف صرير العربات عن أن يبلغ أذنيه • وتعثر مرتين أو ثلاثا فى نتوءات الأرض وحفرها • وشعر بحرارة خانقة • وسقطت قطرة من العرق على يده فأجفل كأنه لمس جمرة ملتهبة • وتعاظمت مخاوفه كلما ازداد اقترابا ، خشية أن يصل بعد فوات الأوان •

وقفز الى الحديقة الامامية الصغيرة عبر سور حقل الأذرة الذى يقع خلف المنزل ، ثم تسلل الى الفناء • كان المنزل هادئا ساكنا يلفه سبات كأنه عملاق ميت • ونبح كلب عبر الطريق نباحا قصيرا مرتين ، بينمـا كانت الضفادع فى بركة فى الوادى تتنافس فيما بينها فى اصدار نقيقها الأجش • وخطر له فى بادىء الأمر أن يندفع داخلا ، ولكنه عدل عن هذا الرأى قبل أن يصل الى الغرفة الخارجية • فربما لا يكون ايون قد جاء بعد، وعندئذ •• وطرق الباب بخفة ، كما يفعل الشبان عادة عندما يطرقون نوافذ عشيقاتهم • وأجابت فلوريكا على الفور بصوت يقظ واضح النبرات:

ـ من هناك ؟

لم يجب جورج • وتردد صدى صوت المرأة فى عقله بينما راح يقول لنفسه :

ـ ها هى ذى لم تكن نائمة ! لقد كانت فى انتظاره ••

وسمع وقع خطوات فلوريكا وهى تنزلق حافية القدمين ، واختلط الصوت بحفيف قميص نومها • وفتح الباب فى حذر حتى لا يحدث صوتا وهمست قائلة :

ـ أهذا أنت ؟

فغمغم جورج قائلا وهو يدلف الى الداخل :

ـ نعم أنا ، أنا •

عرفت الزوجة صوته فتراجعت كأنما أصابتها ضربة ســوط • ولكنها استعادت رباطة جأشها قبل أن يتمكن جورج من أن يلحظ ما هى عليه من رعب ، واستفسرت بقلق وهى تغلق الباب بالمزلاج :

ـ ماذا حدث يا جورج ، ما الذى أعادك ؟

فقال الرجل بصوت خفيض ، كأنه يخشى أن يوقظ شخصا نائما :

ـ أشعر أنني لست على خير ما يرام ٠٠ كلا انه ليس بشيء ذي بال ٠٠ اذهبي أنت الى فراشك ! سأكون على ما يرام غدا ٠

كانت فلوريكا تود أن تستجوبه ، ولكن اجابته الهامسة المرتعشة أخرستها ٠ واستلقت في سريرها ، والتحفت بالغطاء وأجهدت عينيها كي ترى في الظلام ما يفعله جورج ٠ ولم تستطع أن ترى شيئا ، ولكنها استطاعت أن تسمع أنفاسه الثقيلة ثم سمعته فجأة يخلع ثيابه بسرعة ٠ وعندما رقد الى جوارها تحت الغطاء ، سرت في أوصالها رعدة ، فقد كان جورج باردا كلوح من الثلج ٠ وسألها الرجل بصوت غليظ له وقع أجراس الانذار :

ـ ماذا جرى ؟ لماذا ترتعدين هكذا ؟

ـ لم يجر شيء ٠٠ لقد بردت عندما فتحت لك الباب ٠٠

وبدا الوقت كأنه قد توقف ، مثلما توقفا هما عن أي حركة في رقادهما ، واحتبست أنفاسهما في ترقب صامت ، كي يستطيعا أن يميزا بوضوح كل بادرة صوت ٠ كان المرء يستطيع أن يسمع نقيق الضفادع يتصاعد خلال طبقات من الطين ، فيصير رقيقا كأنه أغنية حب ٠ وكفت مصاريع النافذة بالتدريج عن أن تومض ببصيص الضوء في الظلام ، مبينة أن الوقت يمر على الرغم من كل شيء ، وانتشرت السحب ببطء على صفحة السماء ٠ واختفت فجأة نجمة خضراء وحيدة كانت آخر ما تألق ، كأنما أسدل عليها ستار أسود جذبته يد غير مرئية ٠

من يدري كم طال بهما هذا الانتظار ؟

وفجأة خطرت لهما فكرة في نفس الوقت تقريبا ٠

ـ ربما لا يجيء بعد الآن ٠٠

وأخذا يقلبان هذه الفكرة في ذهنيهما ، ولكنهما سمعا فجأة صريرا واهنا يصدر عن الباب ، ثم تحركت وقع أقدام خفيفة حذرة تجاه البيت ٠ ونبح الكلب عبر الشارع نبحتين قصيرتين مرة أخرى ٠ وكفت الضفادع عن الغناء فجأة كأن أحدهم قد ألقى حجرا في البركة ٠

وظل جورج وفلوريكا راقدين في جمود كالأحجار ٠ وبعد دقيقة أخرى كان وقع الأقدام في الفناء ما يزال يقترب ٠ وأعقب ذلك سكون

ثقيل كغطاء قبر ٠٠ ثم مزق السكون شعاع باهر من البرق ، ورأى كل منهما فى ضوئه عينى الآخر تلتمعان ترقبا ٠ وارتفع صوت صفير خافت فى نفس اللحظة ، صفير عذب ناعم كأنه نداء طال تكراره ٠٠ وعنـــدئذ جلس جورج فى سريره وأنصت ، ثم غمغم بعد برهة بصوت مختنق :

ـ أعتقد أن هناك شخصا ما فى الفناء !

فأجابت فلوريكا وقد اختنق صوتها رعبا :

ـ ومن يمكن أن يكون ؟

فغمغم جورج بعجلة وهو ينهض ويسير باصرار الى الغرفة الخارجية :

ـ سأذهب لأرى !

وخطر بذهنه وهو يلمس المزلاج أنه لا يستطيع أن يخرج الى الفناء بيد خاوية ٠ وفكر فى أن يأخذ فأسه ، لكنه تذكر أنه قد تركها فى العربة٠ وتذكر فى نفس الوقت أن لديه فى ركن الغرفة الخارجية ، خلف الباب ، جاروفا جديدا كان قد اشتراه يوم الخميس السابق من أرماديا ، وهو نفس الجاروف الذى وضع له مقبضا جديدا بالأمس ٠ وتحسس طريقه ، محاذرا حتى لا يتعثر فى سافيستا ويوقظها ، حتى بلغ الركن ووجد الأداة ٠٠٠ ثم فتح الباب وخرج الى الشرفة وقد قبض على الجاروف بيده اليمنى ٠ وتهيأ ليضرب به على الفور ، ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا فى الظلام ٠٠

وصاح بصوت أجش عال :

ـ من هنالك ؟ ٠٠ من هنالك ؟

وهبت ريح باردة فجأة ، كأنما أثارتها صيحة الرجل ، وزمجرت بأسى خلال أوراق الاشجار ، فصفقت الباب الذى كان قد تركه مواربا ٠ وشعر جورج فى تلك اللحظة بحركة لا ارادية فى طرف الحديقة الأمامية الصغيرة ، ثم سمع :

ـ هست ٠٠ هست ٠٠ هست ٠٠

وثارت دماء جورج ، وتحرك بضع خطوات الى الأمام صوب الحديقة ٠ ثم سأل مرة أخرى بصوت أكثر اصرارا :

ـ من هناك ؟

ـ وجاءه الجواب من مكان أكثر قربا : هست ! ·· ست !·· ست! ست !

رفع جورج الجاروف بكلتا يديه ثم هوى به · وشعر بالنصل الصلب يقطع بعمق في شيء لين فتساءل : « ترى أين أصبته ؟ » ولكنه لم يلبث أن سمع « هست ·· هست ·· » تتردد مرة أخرى بصوت أكثر وهنا واستعطافا ·

أهوى جورج بضربة أخرى · فزفزف صوت الجاروف فى الهواء ، ثم صوت ارتطام أجوف ، أعقبه صوت مكتوم كأنه صوت جوال ممتلىء يسقط على الارض · وجعله هذا الصوت بالأخص أكثر شراسة · وشعر كأن الظلمة من حوله قد تحولت فجأة الى بركة من الدماء المتجمدة التى تستحثه فى طلب المزيد · ثم كال ضربة ثالثة ، دون أن يدرى أين تصيب ضرباته ··

وعاودت الضفادع نقيقها ، فظا ، مذعورا ومهددا فى آن ، كأنه نواح تطلقه الريح التى كانت تهب فى عنف وبرودة متزايدين باضطراد · وأجفل جورج ناظرا حوله ، كأنه قد استعاد حواسه فجأة ، وأسرع عائدا الى الغرفة الخارجية ، وأغلق الباب بالمزلاج باحكام ثم أعاد الجاروف الى مكانه ·

وفى الداخل ، كانت فلوريكا تقبع فى رعب على أريكة بالقرب من النافذة ·وغمغمت المرأة وقد مدت ذراعيها نحوه ، ضارعة ·· أو دافعة :

ـ ماذا فعلت يا رجل ؟

فأجاب جورج باقتضاب :

ـ لقد قتلته !

الفصل الثالث عشر

النهاية

- ١ -

سقط ايون تحت وطأة الضربة الثانية التى شجت جمجمته الى نصفين · ولم يشعر بالضربة التالية ، كما أنه لم يشعر بأى ألم بعد الضربة الأولى ·· كان قد جاء من الحانة مباشرة ، وقد أسكرته السعادة أكثر مما أسكره الشراب ، رغم أنه كان قد أفرط فى الشراب حتى أن أرملة أفروم نفسها قد ارتاعت · وراح يصفر بجذل وهو يسير متسكعا كما اعتاد أن يفعل فى أيام عزوبته عندما كان يطارد الفتيات ، قبل أن يفكر فى الزواج بوقت طويل · كان قلبه يفيض بالسعادة ، حتى تعين عليه أن يكبح جماح نفسه حتى لا يعدو ويقبل كل سور يقابله ، أو حتى لا يقبل الكلاب التى كانت تنبح فى وجهه هنا وهناك · وعندما تسلل الى فناء فلوريكا ، غمغم بسباب مكتوم عندما أطلق الباب صريرا خافتا ، خشية أن يؤدى هذا الصرير الى ايقاظ سافيستا · وكان على أية حال قد قـرر أن يخرس الكسيحة اذا استيقظت وأحدثت ضجيجا · وقد ترك الباب مفتوحا عن عمد ، حتى لا يحدث صريرا مرة أخرى عندما يغادر المنزل · لقد رتب كل شيء بحرص بالغ ؛ ولم يفته الا جورج الذى نسيه كأنما لم يكن له وجود على الاطلاق ·

وعندما فتح باب الغرفة الخارجية بصخب ، تملكته فكرة أن يهمس « هست » حتى لا يوقظ سافيستا • ومع ذلك فلم يكن ما سمعه وقع خطوات فلوريكا • ووخزته عقارب الغيرة : ربما كان هناك رجل آخر يضاجع حبيبته •• ولكن فكرة أنه قد يكون جورج لم تخطر ببـاله على الاطلاق • ولم يكد يصر على أسنانه حتى سمع صوت جورج • وأذهله الصوت حتى تبخرت كل قواه فجأة ، تاركة اياه دون قدرة على الحراك • ولم يستطع حتى أن يرفع يده • وكانت الفكرة الوحيدة التى خطرت بذهنه هى « هست » التى شعر بحاجته الى أن يكررها ببلادة على الدوام، دون ارادة •

وتحقق فى نفس اللحظة أن ساعة موته قد حانت • وتيقظ ذهنه، على الرغم من أن شفتيه ظلتا تتمتمان بنفس الصوت « هست » على نحو يزداد وهنا • وانتظر أن تنهال الضربات عليه ، فلم يشغله الا أن يعرف على اى نحو ستنزل به ضربات القدر • وسمع بوضوح كامل شيئا يئز فى الهواء ، ثم شعر بضربة حادة تصيب ذراعه الأيمن ، لكنها لم تكن مؤلمة، واعقبتها موجة حرارة غريبة صهرت ذهنه ، وتداعت فى ذهنه ذكريات خاطفة عن نفسه كأنها حلم ، فرأى نفسه صبيا صغيرا يذهب الى المدرسة فى أرماديا ،وتذكر كيف كان يهرب من المدرسة ليأخذ قطيع الماشية الى المرعى ويمسك بالمحراث ، ثم حبه الأول لابنة سيميون.بوتونويو منشد الكنيسة ، والتى تزوجت من شخص ما فى ساسكوتسا ، ثم توقه الجارف الى الأرض ، وأنا والطفل وفلوريكا وتيتو وعائلة هرديليا كلها ، والأغانى العذبة التى اعتادوا أن يتغنوا بها فى المسـاء فى شرفة دارهم ، وأحس بالأسى لأن هذا كله سيضيع سدى ، وأنه سوف يفقد أرضه • ثم سمع مرة أخرى هزيم الريح فى صحراء بلا حدود ، وأدرك أنه يتلقى ضربة أخرى •• ثم ساد كل شىء ظلام دامس فجأة ، كأن شـمعة موقدة قد انطفأت •

واستيقظ بعد بعض الوقت من سبات عميق • لم تكن لديه أدنى فكرة عما أمضاه من وقت غائبا عن الوعى ، أو عما حدث بالفعل • ولم يستطع أن يتذكر شيئا الا عندما سـمع أناته •• كان جسده مبتلا ، وشعر كأنه يرقد فى بركة من ماء آسن • وفكر : « ربما كان هذا دمى ! » وأراد أن يمد يده ليتحسس ما حوله ، لكنه لم يستطع أن يحرك ذراعه الأيمن • ولم يكد يستطيع أن يفتح عينيه الكليلتين • كان المطر يتساقط رذاذا •• وكانت القطرات التى تسقط على وجنتيه تخز جلده الملتهب •

وكان الهواء حوله رماديا ، وبدا له انبلاج الفجر قريبا ، لكن السماء كانت ملبدة بالسحب والمطر يرسل قطراته الدقيقة اللزجة البـــاردة . وماج جسده كله بألم مبرح ، والتهب ذهنـــه فى دوامة آلامه . حتى تأوهاته كانت تخز صدره كالخناجر . ولم يستطع أن يفكر الا فى البركة القذرة التى يتمرغ فى حمأتها ؛ فقد كانت تثير غثيانه . وأحس أن عليه أن يخرج منها بأى ثمن . وفكر بذهنه المحموم يأسا : « اننى أموت كأننى كلب ! »

أخذ ايون يجر نفسه توا بكل قواه الى الأمام ، مســـتندا الى يده اليسرى ، رغم الآلام الفظيعة التى كانت تمزق جسده . وظل يتأوه من خلال أسنانه المطبقة ، زاحفا نحو شجرة الجوز العتيقة القريبة من السياج المطل على الطريق . وكلفه بلوغ هذا الموضع ربع ساعة كاملا من الجهود اليائسة ، ولم يبق أمامه سوى خطوتين أو ثلاثا ليبلغ البوابة ، ولكن كل شىء استحال حوله الى ظلام دامس مرة أخرى عندما بلغ شجرة الجوز . ولم تعد تند عن جسده المهشم سوى آهات مختنقة ..

وتوقف المطر برهة ، وأخذت القطرات التى كانت تنســـاب من الأشجار وافريز السقف تخف شيئا فشيئا . وانقشعت الســـحب ، واستبانت زرقة السماء التى اغتسلت بماء المطر . وانبعث من مكان قريب خوار بقرة ، مرتفعا طويلا ، فأيقظ الكلاب وجعلها تنبح منذرة فى طول القرية وعرضها . وأخذت الديكة تنافسها بصياحها بحمـــاس . وخرج الناس الى أفنية دورهم وهم يفركون النوم عن أعينهم أو يتمطون ليفردوا عظامهم المتيبسة . وشرعت العربات الذاهبة الى الحقول تقرقع على الطريق الزراعى .

وكانت باراشـــيفا ، أرملة دوميترو موركاش ، أول من مر بمنزل جورج . كانت تسير مسرعة فى الوحل المثلج الرخو ، حافية القدمين ، وقد تقلصت أوصالها بردا ، بينما أخذت تحكم وضع وشاحها حول رقبتها وتغطى به فاها . واستوقفها صوت حشرجة جوفاء ، كأنما أصابتها صاعقة فأخذت ترسم علامة الصليب لفرط ما أصابها من رعب ، ولكنها تحركت صوب السياج حيث رأت ايون ، خلال الأغصـــان ، غارقا فى دمائه . فأخذت تولول وتصيح كأن عصبة من اللصوص قد دهمتها :

ـ النجدة ! .. هيه ! .. النجدة !

واندفعت فلوريكا خارجة ، مشعثة الشعر ، فى قميص نومها . كانت قد ظلت طوال ليلها قابعة على الأريكة ، تنصت الى الآهات المروعة المنبعثة

من الفناء ، كأنها تنتظر دورها كي تلحق به في أى لحظة • وثبتت عيناها على جورج الذى كان قد جلس بعد برهة على حافة الفراش ، وراح يتنفس بصعوبة ويتلفت فجأة من حين الى حين ، كأنما يبيت أمرا فى عقله المحموم •• كانت فلوريكا بيضاء شاحبة كالطباشير ؛ وارتعدت فرائصـــها حتى لا تكاد تقوى على الوقوف • ورأت بركة الدماء بقرب الحديقة الصغيرة ، بجوار الشرفة ، ثم الأثر الأحمر الشاحب الذى يمتد حتى شجرة الجوز حيث كان ايون يرقد كأنه قطعة كبيرة من اللحم • كان كل شيء فيما حولها يدور ، لكنها لم تجد لديها من القوة ما يكفى لتعتصر من نفسها صيحة أو دمعة • وظلت واقفة فى مدخل دارها كأنها شبح دهمه مطلع النهار •

ولم يلبث الفناء أن غص بجمع من الناس الذين راحوا يحملقـــون ويصيحون ويسبون أو يرسمون علامة الصليب ، بينمـــا أخذ الأطفال المشعثى الشعور يشقون طريقهم بين سيقان الجمع ، وقد غلبهم الفضـول فأخذوا يفحصون الدم كأنهم كلاب صيد أطلقت من عقـالها • ولم يلبث فلوريا تانكو ، عمدة القرية ، أن حضر ، وأفاض فى الحـديث على نحو ما يفعل دائما عندما يمارس عمله الرسمى ؛ وصرخ فى القوم ليفسحوا له جانبا ، وراح يرمق جثة الميت بخطورة ، دون أن يرسم علامة الصليب كما فعل الآخرون ، ثم أعلن بوقار أنه لا ينبغى أن يقترب أحد من الجثة قبل أن يصل كاتب العدل • ثم أمر كوزما كيوكاناش ، خفير القرية ، بأن يأخذ حصانا من حظيرة جورج وينطلق به بأقصى سرعة الى جيدوفيتسا •

ومضى الوقت ، وصفت السماء تماما ، وبدأت الشمس تجفف رطوبة الجو • وطلب العمدة دثارا يغطى به الجثة ، اذ كان الذباب يطن حولهـــا بوقاحة متزايدة ، فأحضرت فلوريكا ملاءة من الكتان تضاهى الزهرة بياضا وجدة • وخرج جورج أيضا ، بوجه هزيل شاحب ، وعينين غائرتين • وما أن رآه القوم ، الذين انحصر اهتمامهم فى القتيل حتى ذلك الوقت ، حتى بدأوا يفكرون فى القاتل أيضا • وسأله فلوريا تانكو ببساطة :

ـ هل قتلته ؟

ولم يجب جورج ، ولكنه أطرق برأسه الى الأرض •

ولم يلبث جلانيتاشو أن جاء يعدو بعد قليل ، تصحبه زنوبيا التى راحت تولول وتستنزل اللعنات فيتردد صدى عويلها فى سائر أنحـــاء القرية •

وأخيرا وصل ستوسيل ، كاتب العدل ، قبيل الظهر ، يصحبه قاضى محكمة أرماديا الجديد ، والطبيب الشرعى واثنان من رجال الشرطة • وذكرت باراشيفا للقاضى كيف سمعت ايون يتأوه ، لكن الطبيب ، الذى كان قد ألقى نظرة على الجثة ، ضحك ساخرا •

ـ هذا هراء أيتها المرأة ! بعد ضربة كهذه ما كان هذا المسكين التعس يستطيع أن يتأوه الا فى جوار الله ، حيث يتلى عليه مصيره فيرسل الى السماء أو الى الجحيم ، وفقا لسلوكه هنا على الأرض !

كان الطبيب ، وهو يهودى كهل ، يتحدث الرومانية كأى رومانى • وكان لديه ولع جنونى بالضحك والهذر فى كل لحظة ، حتى ولو كانت غير مناسبة • وبينما كانت باراشيفا تقسم بكل القديسين أنها سمعت تأوهات الرجل ، خف الطبيب لتصوير الجريمة علميا • لقد سحب القتيل بواسطة شخص ما ـ يرجح أن يكون القاتل نفسه ـ من الشرفة الى البوابة تقريبا ، ويرجح أن يكون ذلك بقصد تضليل مفتش التحقيقات فى تحقيقه للحادث •• وقاطع القاضى تفسيراته مخاطبا العمدة :

ـ أليس القاتل معروفا ؟

فخطا جورج بثبات الى الأمام وأجاب :

ـ أنا الذى قتلته •

ـ وكيف قتلته ؟

ـ بالجاروف •••

ـ ولماذا فعلت ذلك ؟

ـ لأنه أتى الى زوجتى و •••

فقاطعه القاضى قائلا : « هذا يكفى ! » وأشار الى رجلى الشرطة بالقبض عليه •

وكان الطبيب فى هذه الاثناء قد خلع معطفه وطوى كمى قميصه وشرع فى تشريح الجثة تشريحا عاجلا للتحقق من سبب الوفاة • وأخلى رجال الشرطة الفناء ، وظل جورج بمفرده يرقب الجراح وهو يمزق جسد القتيل ، بينما كانت فلوريكا تقف بالقرب من الباب وقد تسمرت قدماها الى الأرض •

وراح الطبيب الثرثار يمزق الجثة ويعمل مقصه فيها ، مشيرا الى

الجراح وشارحا للقاضى الذى ظل يدخن سيجارة اثر أخرى ليزيل ما انتابه من غثيان ٠

ـ هذه الضربة يا سيدى القاضى كانت أقوى الضربات جميعا ٠٠ لقد سقطت على قمة رأسه ، ولكن عظام الجمجمة كانت من الصـــلابة بحيث شرخت فقط ٠٠ انها لمعجزة ! انها حالة نادرة فى الحقيقة ! وربما لم تكن الضربة شديدة على أية حال ٠ ولكنه ليس من المألوف أن يضرب شخص على رأسه بجاروف دون أن تتحطم جمجمته ٠ هذا لا يمكن حدوثه الى بين الفلاحين ٠٠ ومن ناحية أخرى ، ها هى أربعة ضلوع مهشمة تماما ٠ انها ضربة مميتة أيضا بطبيعة الحال ٠٠ وهنا يمكنك أن ترى كيف شق صدره ، انه جرح عميق يكفى لاخفاء أصابعك ٠٠ وهو جرح طويل أيضا ٠٠ عشرة ٠٠ بل ثلاثة عشر سنتيمترا ٠٠ من أثر الجاروف طبعا ! ٠٠ نعم ، وهذه الذراع قد تهشمت أيضا ، ولكن هذا ليس خطيرا ٠٠ انه شيء هين ، وكان من الممكن أن يلتئم بسرعة ٠٠ وفى أسوأ الأحوال كان الذراع سيعجز عن الحركة بعض الشيء ٠٠ لابد أنها كانت الضربة الأخيرة ، عندما أخذ القاتل يهدأ بعض الشيء ٠

وبعد أن أنهى الطبيب عمله وغسل يديه أعلن فى تأكيد :

ـ لقد كان الرجل قويا كلوح من الفولاذ ! ٠٠ وكان من الممكن أن يعيش مائة عام !

وأمر القاضى رجلى الشرطة بأن يأخذا جورج ، فاستجمعت فلوريكا أشتات قواها ووضعت بعض الطعام فى جراب أعطته لزوجها الذى أخذه بوجه مكتئب وقلب مكلوم ٠ ورفع عينيه الحزينتين فالتقتا بعينيها الواسعتين الزرقاوين اللتين كانتا تتفحصانه وقد كساهما تعبير هو مزيج من اللوم والاشفاق ٠ ولكنه لم يكن يستطيع أن يتبين ما اذا كان هو أو الرجل الآخر محور هذا الاشفاق ٠ وتحرك كما لو كان سيقبلها ، أو على الأقل سيمد يده لها ، ولكنه كبح جماح نفسه ، محجما عن أن يفتح قلبه لـكل هؤلاء الناس الذين يرقبون كل ايماءة أو حركة تبدر منه ٠ واكفهر وجهه وصاح فى صوت آمر :

ـ انتبهى واعتنى بكل شيء يا فلوريكا ٠٠ فمن يدرى متى سأعود ٠

وأطرقت المرأة فى اذعان ٠ كان السهر وما انتابها من مشاعر أثناء الليل قد أزالا كل مافى خديها من حمرة ، وتركا هالات زرقاء تحت عينيها ٠

وزادها شحوب لونها جمالا . كان منظرها مؤثرا ، فاستدار جورج فجأة مبتعدا ، واتجه نحو البوابة ، يتبعه رجلا الشرطة دون أن ينبسا بكلمة .

وصاحت سافيستا ، التى كانت تقبع فى الشرفة طوال الوقت كدجاجة مذعورة ، بصوت نائح :

ـ يا عزيزى جورج .. آه يا حبيبى جورج .. آه !

وكان جورج قد بلغ منتصف الدرب ، فاستدار ، ولكن عيناه استقرتا فى وله على فلوريكا . ثم سار بخطوات وئيدة حتى غاب عن الأنظار .

وقال القاضى بالهنغارية للطبيب والكاتب وهو يمعن النظر الى فلوريكا :

ـ اننى اعتقد اعتقادا جازما أنه لو لم تكن هناك نساء فى العالم لما كانت به حاجة الى قانون جنائى ! ان النساء هن منبع الخطايا كلها !

فأضاف الطبيب :

ـ انهن البداية .. والنهاية ..

وضحك كأنه ألقى بفكاهة طريفة .

أما ستوسيل ، كاتب العدل ، وهو أقلهم مرتبة ، فقد اصطنع ابتسامة ، ثم اقترح عليهما باحترام :

ـ نستطيع أن نسجل المحضر فى مكتب العمدة اذا رغبتما ، فانه أكثر نظافة وأدعى الى الراحة .

ووافقا على اقتراحه فساروا جميعا الى العربة التى كانت تنتظرهم فى الطريق ، ولحق بهم فلوريا تانكو ، العمدة ، ممسكا قبعته بيده وسألهم عما ينبغى أن يفعله بالجثة . فصاح الطبيب :

ـ ادفنه ! يا له من سؤال سخيف ! هيا بنا ! دعونا نسير فان مرضاى ينتظروننى .

غطيت جثة القتيل بالملاءة المخضبة بالدم . وظلت أسراب الذباب تدور حولها . واندفعت زنوبيا داخلة وأخذت تولول وتبكى ابنها ؛ وعندما شبعت بكاء شرعت تلعن جورج وكل افراد عائلته ، وفلوريكا ، والطبيب، وأخذت تلعن القاضى بوجه خاص لأنه لم يأمر الشرطيين بأن يمزقا القاتل اربا وهو الذى قتل عائلها فى شيخوختها . ولم تتوقف عن السباب

الا عندما وصل جلانيتاشو بعربته التى حملت الجثة • وسار العجوز فى المقدمة ، عارى الرأس تتبعه الثيران التى تجر عربة الميت ، ومن خلفهـــا سارت زنوبيا وقد أحاط بها جمع من النساء صارخات فى نشيج مكتوم •

ووقفت فلوريكا وسط الفناء ترقبهم فى ذهول • واستقرت عيناها على العربة التى أخذت تبتعد فى بطء • كان الألم يعتصرها ، ولم تعـد تستطيع أن تحتمل أكثر من هذا • وبدأت دموعها تتساقط ، ثم أخذت تنساب فى غزارة على وجهها الذى بدا كصفحة ورق بيضاء •

- ٢ -

لم تحـدث جريمة قتـل فى بريباس من قبـل ، كما تعى ذاكرة الأحياء من أهلها • وكانت القرية كلها تموج بأحاديث القرويين الذين راحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم • وطار الخبر الى جيدوفيتسا وأرماديا ، وكافة القرى المجاورة • وأخذ الجميع يعبرون عن اشفاقهم ، بل وثنائهم على ايون الذى كان شخصا طيبا دءوبا مجـدا • ولم يذكر أحدهم جورج بالسوء أيضا ، بل كان الجميع يأملون أن يخرج من متاعبه بأقل الخسائر الممكنة • ولم يكن غير فاسيلى باكيو يقول بين الحين والحين :

ـ ان الله ينزل نقمته •• كما ترون • لقد سرق أرضى ، وقد أعطاه الله كل ما أراده من أرض !

وعاد توما بولبوك ، والد جورج ، الى بيته فى وقت متأخر وقد حملت عرباته بأخشاب الوقود • وكان قد سمع بالكارثة وأنحى على نفسه باللوم لأنه لم يعـد عندما انطلق ابنه عائدا • وأخذ يسـتجوب فلوريكا وسافيستا ، وفى فجر اليوم التالى كان فى أرماديا • ولم يسمح له بالتحدث الى جورج ، أو حتى برؤيته ؛ بيد أن أحد حراس السجن قال له ان جورج لن يلبث أن يرحل الى بيستريتسا ، الى سجن المحكمة ، اذ أن قضيته تدخل فى دائرة اختصاص محكمة جنايات بيستريتسا • وعلى ذلك أسرع توما الى بيت هرديليا ليسأله النصح • وكان آل هرديليا قد علموا بالخبر من امرأة جاءت من بريباس فى اليوم السـابق ، وظلت جيجى تبكى « ايون المسـكين » طوال المسـاء • ولكنهم كانوا يتحرقون شـوقا الى مزيد من التفاصيل ، ولذلك حملوا توما بولبوك على أن يخبرهم بكل ما يعرفه • ونصحه هرديليا بأن يوكل جروفشورو ، فهو خير محام فى الدنيا • وذهبا

سويا الى المحامى ووعده توما بكل ثروته اذا أخرج ابنه من القضية ، ولكن المحامى أجاب قائلا :

ـ سـوف أكون موفقا غاية التوفيق اذا اسـتطعت أن أخرجه منها بعامين أو ثلاثا فى السجن • وعلى أية حال ، ثق بأننى سوف أبذل كل ما فى وسعى ••

ورأى الأب بلكيوج فى ذلك الحادث الدموى رحمة من الله • فقد كان آسفا من أجل ايون ، ولكنه كان سـعيدا فى الوقت ذاته لأن الكنيسة ستستفيد بموته • وهنأ نفسه على تلك الفكرة السعيدة التى ألهمه المولى اياها ليحصل لبيت الله المقدس على مثل هذه الثروة الثمينة • وقرر أن يقيم شـعائر جناز غير عادية لذلك الرجل الذى تخلى ، بارادته الحرة ، للكنيسة عن كل ما كان يمتلكه فى وادى الأحزان هذا • كما سمح بأن يحفر قبر ايون فى فناء بيت العبادة الجديد ، ووعد بنفسه أن يوضع شاهد على القبر ليخلد هدية تلك الروح المسيحية الطيبة التى اختارها الله الى جواره •

وحضر معظم سكان القرية مراسم الدفن • وجاء آل هرديليا والأنسة جيجى خصيصا لكى يصحبوا ايون الى مثواه الأخير • فقد كان ، على أية حال ، شابا مخلصا دمث الخلق ، رغم أنه كبدهم الكثير من المتاعب بذاك الالتماس • وفضلا عن ذلك ، فقد كانت هذه المناسبة فرصة طيبة لاثارة مشكلة منزلهم والوصول الى اتفاق مع « ذى الشعر المنفوش » حول قطعة الأرض التى أقاموا عليها كوخهم •

وأقام بلكيوج قداسا عظيم الأثر فى النفوس • فقد كانت خطبته بهذه المناسبة مؤثرة بوجه خاص حتى فى أشد القلوب تحجرا • وقال عديد من الناس ان ايون كان يتنبأ بموته منذ أن وهب ثروته الىالكنيسة• واتخذ القس من ايون مثالا يحتذى لجميع المسيحيين الطيبين • ثم قال :

ـ ان الكنيسة هى موئل راحتنا ، فاليها نعود عندما ينتابنا الكلل من حياتنا ، لنجد فى أحضانها الالهام والراحة • ان الكنيسة هى طفلة أمتنا المقهورة التى تخشى الله • ومن يعطى الكنيسة انما يعطى الشعب ، ومن يعطى الشعب ، يمجد الله • وطالما ظلت كنيستنا عظيمة راسـخة البنيان ، فاننا نستطيع أن نواجه كل العواصف والهموم فى هذا العالم •

وعنـدما ألقى ايون تحيـة الوداع ـ بلسـان القس ـ الى والديه وأصدقائه ومعارفه ، لم تكن هناك عين واحدة لم تفض بالدموع • وعندما ذكر الكاهن فى النهاية اسم جورج الذى وضع حدا لحياة ايون على الأرض

قائلا على لسان الفقيد : « اننى أصفح عنك ، فانك لم تكن تدرى بما أنت فاعل» ، انفجر الجمع كله بالبكاء . وأخذت زنوبيا وقد غلبها الأسى تضرب رأسها بحافة التابوت ، وقد استبدت بها حالة من اليأس حتى أنه لم يكن من اليسير على الناس حولها أن يهدئوا من روعها .

ثم أنزلوه الى الأرض ، تلك الأرض التى طالما أحبها ، وتحرك القوم جميعا ، كل بدوره ، ليلقوا عليه بحفنة من التراب الرطب ، فيتردد صدى سقوطها ، ثقيلا حزينا ، على الألواح الخشبية لمثواه الأبدى .

وأقام جلانيتاشو وليمة الجناز ، وأجزل العطاء لأرباب الصدقة . وكان على آل هرديليا ، بكل ما يكنونه من ود لآل جلانيتاشو، أن يشاركوا فى الوليمة ، ويتناولوا من كل لون يقدم من طعام « حتى ترتاح روح ايون » . أما الأب بلكيوج ، الذى كان معتل الصحة كعادته ، فلم يحضر الا تكريما لذكرى « الفقيد المسيحى النبيل » ، ولكنه احجم عن تناول أى شىء من طعام أو شراب .

وعنـــدما انتهت الوليمة ، دعا بلـكيوج هرديليا وزوجته المحترمة والآنسة الفاتنة جيجى ، لكى يستريحوا قليلا فى بيته ، قبل أن يرحلوا الى أرماديا ، فهى مسيرة طويلة مرهقة فى الواقع لمثل هاتين « السيدتين الرقيقتين » . ورحبت الأسرة بالطبع بقبول دعوته بكل سرور ، رغم أن السيدة هرديليا لم تكن من ذلك النوع من الناس الذى يمكن أن ينسى مكائد الأشرار بسهولة . ولذلك فقد أطبقت شفتيها ، وردت باقتضاب على دعوة القس البليغة ، رغم أنه شفع كلماته بابتسامات مرحة كأنما لم تكن هناك أى سحب تلقى ظـلالها على صـــداقة هؤلاء العجائز من قرية بريباس . وكان من اليسير على المدرس فى مثل هذه الظروف أن يطرق موضوع قطعة الأرض المشار اليها ، وصفت السماء فجأة من السحب لدى اجابة بلكيوج ، حتى بالنسبة للسيدة هرديليا . فقد قال القس وهو يفرك يديه :

ـ نعم بالتـــأكيد أيهـــا الأخ زهاريا ، فنحن الرومانيون ينبغى أن نتضامن ويحب بعضنا بعضا . ألا يكفينا أن يكون هؤلاء المفتشين الملاعين فى أعقابنا . أينبغى أن نتشاحن نحن أيضا من أجل التوافة ؟ سوف نكتب الحجة يا زهاريا ، دون ابطاء ! عندما أحضر الى أرماديا يوم الخميس القادم ، سأمر ببيتك ، ثم نذهب معا لتوقيع الحجة وتسجيلها كما يليق باخوة أن يفعلوا .

واذ جلسوا يتجاذبون أطراف الحديث ، حضر فاسيلي باكيو ، الذى كان لا يزال ثملا بعد الوليمة ، لكى يطالب بأرض ايون التى تعتبر ــ على حد قوله ــ من حقه طبقا لكافة القوانين البشرية . فثار بلكيوج غاضبا :

ــ ينبغى أن تخجل من نفسك اذ تسعى وراء الملكية ، بعد أن أصبحت موضع سخرية القرية بسكرك ! قد يكون من حق الرجل أن يتناول قليلا من الشراب من حين الى حين ، وأنا لا أنكر هذا ، ولكنه لا يجوز له أن يعب الشراب كالخنزير على نحــو ما تفعل ! سأدعك تأخذ ريع الارض التى أعطاها لك الفقيد ــ طيب الله روحه ــ بشرط أن تحسن التصرف . ولكنك اذا لم تخفف من زياراتك لغرفة الشراب فى الحانة ــ ولعلك تعى كلماتى جيدا يا فاسيلي ــ فاننى سوف أطردك حتى من منزلك ! وعلى هذا ، فعليك أن تسلك مسلكا معقولا ، والا ..

وأراد فاسيلي باكيو أن يقاطعه ، ولكن هذا أثار غضب الأب بلكيوج حتى أنه أمسك بيده ودفع به خارج البيت قائلا :

ــ أخرج من هنا .. أنا لا أسمح لسكير وقح قليل الحياء أن يدخل بيتى ! احتفظ بوقاحتك للحانة ، أيهـــا الصائع الضائع الذى لا يصلح لشىء !

وشاركه آل هرديليا نقمته على فاسيلي . وقالت السيدة هرديليا وقد أثارتها وقاحة الفلاح :

ــ ان هذا الرجل هو أسوأ شخص فى القرية كلها !

- ٣ -

لم تجد أسرة هرديليا موضوعا آخر للحديث طوال الأيام القليلة التالية ، ســوى ايون والأب بلكيوج . وتذكرت الســيدة هرديليا فى تأثر شــديد كيف كان ايون المســكين ينصت اليها فى ورع وتقوى عندما كانت تترنم بأغانيها فى الأمسيات فى شرفة منزلها . ولم يعد المدرس أيضا يحمل لايون أى ضغينة لكل ما سببه له من متاعب بسبب الشكوى التى كتبها من أجله . بل لقد ذهب به الأمر الى حد أن يقول :

ــ من يدرى ، ربما كان هذا كله لصـــالحنا ! فمنذ أن انتقلنا الى أرماديا ، والحظ يبدو كأنما يبتسم لنا !

وأصبح بلكيوج ألطف رجل فى العالم • وقررت السيدة هرديليا أنه أيا كان قول الناس عنه ، فليس هناك من يمكن أن يقارن به • فهو يعيش حياة فاضلة ، رغم أنه مايزال شابا وقد ترمل منذ سنين عديدة • ان أهل بريباس لا يستحقون مثل هذا القسيس ، فهم قتلة يغتال بعضهم بعضا فى همجية • واذ كانت جيجى تتحدث عنه ذات مرة ، زل لسانها بعبارة « ذى الشعر المنفوش » ، وهو لقب طالما وصف به من قبل ، ولكن السيدة هرديليا عنفتها قائلة أنه ليس من اللياقة أن تتحدث آنسة مهذبة على هذا النحو عن واحد من خدام الله الصالحين •

وكان هرديليا طوال هذا الوقت ينتظر أنباء عن تيتو الذى ينبغى أن يكون قد وصل الى رومانيا فى هذه الأثناء • وكان قد قرأ فى صحيفة « جازيتا ترانسلفانياى » ، لدى جروفشورو ، تحقيقـــا عن الاحتفالات الرائعة التى أقيمت فى سيبيو ، وخفق قلبه طربا عندما رأى اسم تيتو هرديليا (تريبونا بيستريتساى) بين ممثلى الصحافة • وظل يحمل الصحيفة فى جيبه طوال يومين ، ويعرضها على كافة أصدقائه بعد أن وضع خطا أحمر تحت اسم ابنه بعناية • ولكنه كان يخشى أن تكون قد صادفته المتاعب عند عبور الحدود ، طالما أنه لم تصله منه أنباء بعد • وقالت زوجته عندما أحست بمدى مايعانيه زوجها من قلق :

ــ أنا واثقة بأن الله سوف يجنبه هذه التجربة : وفضلا عن ذلك فان الفتى ذكى بما فيه الكفاية ••

فتمتمت جيجى وهى تتنهد وقد سرحت بخيالها :

ــ أوه ، ان تيتو شاب نادر ! لو أن الآخرين كانوا مثله ! ••

كانت جيجى فى الفترة الأخيرة فى حالة ذهنية غريبة • فهى تارة تحس أن بها رغبة للبكاء وتارة أخرى تحس أن بها رغبة للضحك دون ما سبب واضح • ولاحظت بعد بعض الوقت أن أحوالها المزاجيـة ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك الأيام التى عجز فيها زاجريانو عن الحضور لاستشارة والدها فى مسائل تعليمية بالغة الأهمية ولا نهاية لها • وكانت الفتاة تشعر بالخجل لأنها غرقت فى الحب الى أذنيها ، ولهذا كانت تردد على نحو متزايد أنها لا تطيقه • وأدت هذه التصريحات من جانبها الى مناقشات صاخبة لا تختلف فى كثير عن تلك المناقشات التى هزت منزل هرديليا فى بريباس ، عندما ظهر جورج بنتيا • وكل الفرق هذه المرة أن المدرس ، والسيدة هرديليا على الأخص ، لم يكونا راغبين فى أن يأخذا جيجى

مأخذ الجد كما فعلا مع لورا ٠٠ وقد أذل هذا جيجي وأغضبها من زاجريانو حتى أنها لم تلبث أن وصلت الى حد القول بأنها تفضل أن تتزوج كناسا عن أن تتزوجه • وعبثا حاولت أمها أن تذكرها بمدى مافيه لورا من سعادة • فمن ذا الذى يضمن لها أن تكون محظوظة مثل شقيقتها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يتنبأ أى نوع من الرجال سيسفر عنه زاجريانو • ان هذا القناع الذى يرتديه كشاب نموذجى قد يخفى تحته منافقا أو سكيرا أو شخصا هوائيا ، وهناك مئات من الحالات التى جرت على هذا النحو • لو أنه كان على الأقل سليل أسرة أرفع شأنا ، ولكن والده حوذى بسيط ٠٠ وقالت جيجي وقد امتلأت زهوا :

ـ اننى أفضل بكثير من أن يستحقنى ! وفضلا عن هذا ، فمن يدرى متى سيعين هذا الزاجريانو ! ان قدرا كبيرا من المياه سوف يتدفق فى نهر سومش قبل أن ٠٠

وكانت هذه هى الحجة الوحيدة التى يقام لها وزن عند أبويها • فقد كان هرديليا يعجب لماذا لم يتلق ردا على طلب احالته الى المعاش ، بل انه كان يخشى فى بعض الأحيان أن يكون المفتش قد غير رأيه • فمنذ أن بدأ يعتاد فكرة التقاعد كان يتوق الى أن يمسك قرار الاحالة الى المعاش بين يديه • وكان بدء العام الدراسى يقرع الأبواب ، وما لم يسو أمر معاشه سريعا ، فان هذا يعنى أن يحمل عصاه من جديد ويسير الى بريباس كل يوم جيئة وذهابا بدلا من أن يهتم بعمله عند جروفشورو ويتسلم معاشه بهدوء كل شهر دون ما ضيق أو عمل • واعتاد أن يسأل زاجريانو عن معلوماته بشأن هذا الموضوع ، ولكن الشاب ، الذى كان أكثر قلقا من هرديليا نفسه ، لم يكن يعرف أكثر مما وعد به المفتش فى البداية ، وهو أن الوظيفة فى بريباس ستكون من نصيبه •

وعلى أية حال ، فقد اتفق هرديليا وزوجته بعد مناقشة طويلة ـ اذ كان يوم الخميس يوشك على الحلول وهو اليـــوم الذى تحدد لحضور بلكيوج لتسوية موضوع المنزل ـ اتفقا على أن تسجل أملاكهم فى بريباس باسم جيجي احتياطا للطوارىء • فعلى الرغم من أنه لم يكن يهددهم أى احتمال بالحجز أو غيره من المتاعب ، الا أنه كان من صالح الفتاة أن يكون لها بائنة ، لا أن تكون مثل لورا المسكينة • أما العجوزان فيستطيعان أن يعيشا بما يكسبانه ، وحتى اذا لم يستطع هرديليا أن يحتفظ بوظيفته عند جروفشورو ، فان هذا لا يهم فى الحقيقة ، فبوسعهما أن يدبرا أمرهما بما يصرف له كمعاش ، فلم يكونا بحاجة الى التظاهر ، ولم تعد

لهما أية مطامح بالنسبة لنفسيهما ، وكل مايحتاجانه هو أن يكون لديهما مايكفي قوت يومهما في شيخوختهما ٠

ووصل الأب بلكيوج الى منزلهم ٠ ورغم أنه كان متعبا نتيجة لكل مابذله من جهد من أجل تكريس الكنيسة الجديدة ، الا أن عيناه كانتا تتألقان بالفرح لأن هدف حياته قد تحقق أخيرا ٠ وأخبرهم وكيانه يهتز انفعالا بالترتيبات التى أعدها من أجل الاحتفال ، الذى سوف يقام يوم الأحد المقبل ؛ فقد دعى أسـقف جيرلا الذى وعد بالحضـور على وجه التأكيد ، وكان واثقا من أن كل قساوسة المقاطعة سوف يحضرون ، وكذلك كل المثقفين الرومانيين فى أرماديا وما حولها ، كذلك سيكون هناك حفل راقص تلعب الآنسة جيجى الدور الرئيسى فيه ؛ وأخيرا فان بريبراس ستكون فى ذلك اليوم مركزا لكل الآمال الرومانية السامية ٠

أما عن مصير المنزل ، وهو ماكان يهم هرديليا ، فقد حضر القس مسلحا بكل مايلزم لاكمال الرسميات بسرعة ٠ وذهبا سويا الى المحكمة ، ثم الى الموثق ، والمسجل ٠٠ ولم يأت ظهر اليوم حتى كانا قد أنهيا كل شيء ، بل ووجدا متسعا من الوقت للمرور على جروفشورو الذى كان من الكرم بحيث أخذ على عاتقه أن يقـوم دون مقـابل بنقل ملكية ايون جلانيتاشو وتسجيلها باسم الكنيسة الرومانية فى بريبراس ٠

وفى مساء اليوم نفسه أرسل هرديليا بموافقة زوجته خطابا الى الأسقفية ، يسحب فيه شكواه المقدمة ضد الأب بلكيوج ، معلنا أن عدم حضور الأب الروحى البارز لبريبراس الى منزله يوم عيد الغطاس كان نتيجة السهو وليس نتيجة أى قصد سيء ٠

وفى اليوم التالى وصل خطاب المفتش أيضا ، معلنا اياه بأن الوزارة قد وافقت على احالته الى المعاش وأنها تشكره على الخدمات التى أداها للدولة ٠ وارتعشت أوصال هرديليا وهو يقرأ الاخطار ، وانتفخ صدره زهوا بكلمات التقدير التى أرسـلها الوزير ٠ ولم يحل مساء اليوم ، بالطبع ، الا وكانت أرماديا كلها قد علمت بأسف الحكومة على فقدها مدرسا قديرا مثل هرديليا ، وتأثر الجميع بهذا التفوق النادر ٠ والتقى هرديليا فى حانة جريفيتسا ــ حيث توقف ليتناول قدحا من البيرة ــ بزاجريانو الذى كان قد تسلم لتوه خطاب تعيينه ٠ وصاح هرديليا وهو يطلعه على خطاب المفتش :

ــ مرحى بخليفتى ! أتمنى أن تتلقى خطابا كهذا بعد ثلاثين عاما !

واحتسى هرديليا قدحين من البيرة مع زاجريانو احتفالا بالحدث السعيد ، وهو يأمل فى الخفاء أن يطرق الشاب موضوع جيجى بعد أن تسلم خطاب تعيينه · ولكن زاجريانو بدا مكتئبا ، وتنهد مرارا ولم يجسر حتى على مجرد النظر الى عينى هرديليا ·

وعندما وصل هرديليا الى منزله قال وهو يذكر مالقيه به الشاب من صمت :

ـ يخيل الى أن هذا الفتى زاجريانو خبيث بعض الشىء !

وهنا صاحت جيجى محاولة أن تبدو ظافرة رغم أن قلبها كان ينتفض كورقة شجر فى مهب الريح :

ـ ها أنتم ترون بأنفسكم كم كنت على حق !

- ٤ -

كانت جيجى تجرب قبل الظهر ثوب الرقص الذى تعتزم ارتداءه فى اليوم التالى فى حفل التكريس فى بريباس عندما وصل زاجريانو وقد ارتدى حلة أكثر أناقة واتخذ لنفسه مظهرا أكثر رزانة من المعتاد · وقالت جيجى لنفسها وقد عراها الاضطراب ، دون أن تجسر على النطق بكلمة واحدة : « لقد جاء يطلب يدى » ·

وسأل زاجريانو السيدة هرديليـــا ما اذا كان زميله موجودا ، وعندما علم ماكان يعلمه من قبل ألقى نظرة صوب جيجى ، واكتست وجنتاه بحمرة قانية ، وبدا عليه أنه سوف ينصرف مباشرة ، ثم انحنى فى النهاية يقبل يد الفتاة قائلا :

ـ يخيل الى يا آنســـة جيجى ·· أنك ستحضرين حفل تكريس الكنيسة غدا فى بريباس ؟

فتمتمت الفتاة قائلة :

ـ أجل ·· لقد كنت لتوى أجرب ··

ولم يدعها زاجريانو تكمل قولهـــا ، بل قال متلعثما وقد عراه الاضطراب :

ـ « حسن اذن ·· سوف أراك فى بريباس ! » وانصرف مسرعا

دون أن يستأذن من السيدة هرديليا • وقالت زوجة المدرس لنفسها بعد أن انصرف : « ربما ان يكون هذا الشاب ماكرا او خجولا » • وهزت رأسها دون أن تغضب كما اعتادت فى مثل هذه الظروف • « ليأذن الله بأن ينتهى كل شيء وفق مانريد ! »

وذهبت جيجى بعد الغذاء مباشرة تبحث فى كافة المحلات عن بعض الشرائط التى لن يكون لثوبها أى بهجة بدونها • فقد كانت تريد أن تكون أجمل الفتيات فى الغد ، وأضافت لنفسها فى شيء من الحزن : « خصوصا أنها قد تكون آخر حفلة أحضرها كفتاة ! » وعندما مرت بمبنى مكتب البريد ، سمعت نقرا على النافذة ، والتفتت فرأت بالان يومىء اليها بالدخول •

وقال بالان عندما دخلت وقد تألقت ابتسامة رقيقة على وجهه المستدير الذى ينضح عرقا :

ـ خطابات !•• أحدها من بوخارست • لقد وصلت توا •• وكنت الآن أفكر كيف أجعلها تصلكم بأسرع مايمكن ، فأنا أعلم كم كنتم تنتظرونها بصبر نافذ •• هاهى الخطابات يا آنسة ، وأرجو أن تغفرى لى أننى استوقفتك فى الطريق !

وصاحت جيجى وهى تمسك بالخطابات وتنطلق خارجة وقد اجتاحتها عاصفة من الانفعال :

ـ من تيتو !

ونسيت كل شيء عن شرائطها ولم تتوقف لحظة حتى وصلت الى المنزل ، وقد عصف الانفعال بجوانحها • وعلى الرغم من أنها ظلت تقلب الخطاب بين أصابعها فلم تكن لديها الشجاعة لتفتحه بنفسها • وصاحت بشغف :

ـ تيتو ! خطاب !

ـ فقال هرديليا وهو يثبت نظارته على أنفه كما كانت عادته عندما يقرأ شيئا غير عادى :

ـ مرحى ! شكرا لله ! لقد انزاح عن قلبى عبء ! حسن ، دعونا نرى ما يقوله صديقنا فى بوخارست عن نفسه !

وبدأ يقرأ :

« أعزائى ، لم يمض على وجودى في رومانيا الا أسبوعين ومع ذلك أحس أننى هنا منذ الأزل . ان حياة جديدة تبدأ بالنسبة لى ، أما انها ستكون حياة أفضل أو أسوأ فهذا مايصعب أن أقوله لكم . فأنا الآن أحس بحيرة شديدة وبأننى ضئيل حتى أننى أشعر بالخوف طوال الوقت من أن تسـحقنى الدوامة التى تدور حولى . وأنا لا أحس بالسعادة الحقة الا عندما أفكر فيكم ، يا أعز أعزائى فى هذا العالم الهائل الغريب .. » .

وتمتمت السيدة هرديليا وقد عبس وجهها وتخضلت عيناها بالدموع :

ـ يا ولدى المسكين !

« أما ماحدث فى سيبيو وما فعلته هناك فلاشك أنكم قد طالعتموه فى الصحف . ولقد كان من الواجب على أن أكتب مقالا لجريدة « تريبونابيستريتساى » أيضا ، ولكننى فى الواقع لم أجد لحظة واحدة من الراحة أكتب فيها ولو سطرا ، فقد كان ذهنى مشغولا تماما بفكرة عبور الحدود ! »

وقطع هرديليا قراءته ونظر من فوق نظارته الى زوجته كأنما يطلب رأيها قائلا :

ـ كان من الأفضل أن يكتب المقال ؛ فالناس هنا كانوا سيرونه !

وقالت السيدة هرديليا فى صوت هامس :

ـ يا ولدى المسكين !

« لم يكن عبور الحدود الى رومانيا بدون جواز سفر أمرا سهلا ، ولولا فيرجيل بنتيا ، فلست أدرى كيف كنت أستطيع الوصول الى بوخارست . لا تتصوروا كم هو لطيف ! فهو كريم ، وعلى استعداد دائما للمساعدة ، ونشيط ـ انه كنز حقيقى ـ ويحق للورا أن تفخر بأن يكون شقيق زوجها كهذا .. »

فقالت جيجى :

ـ أعتقد أن الخطاب الآخر من لورا .

فأجاب هرديليا قائلا .

ـ سوف ننظر فى أمر الخطاب الآخر فيما بعد ، أما الآن فاصمتوا!

«لقد كان فيرجيل منقذى • فعندما رأيت كل المصاعب والمخاطر التى كان على أن أتغلب عليها بنت على استعداد للتخلى عن المحاولة • بالاضافة الى أننى كنت قد بدأت أعجب بسيبيو وفكرت فى البقاء هناك • ولكن فيرجيل رفض هذه الفكرة قائلا : « هل ستبقى مغروزا فى الوحل فى منتصف الطريق ؟ مستحيل ! •• » وذهبنا سويا الى رئيس شرطة المدينة ولكنه رفض رفضا قاطعا • وكان نصيبنا نفس الرد من قائد شرطة الحدود •• وفى النهاية أشفق على العمدة ــ وهو ساكسونى عجوز لطيف وصديق لفيرجيل ــ عندما شرع فيرجيل يخبره أننى صحفى وأننى أريد انتهاز هــذه الفرصة لزيارة بوخارست وما الى ذلك • ورسمت علامة الصليب وشكرت الله عندما رأيت نفسى وتصريح المرور فى جيبى •

« وقد صحبنى فيرجيل بنتيا حتى تورنو ــ روشو • ولم أتأثر فى حياتى قدر ما تأثرت فى النصف ساعة الذى ظللت فيه أذرع نقطة الحدود جيئة وذهابا • وبدا الحصى تحت قدمى كأنه يبكى وأنا أسير عليه وغص قلبى بالألم ، وظللت أفكر أننى قد لا أرى ترانسلفانيا مرة أخرى هذه الأرض العزيزة على نفسى ، والأعز عندى من أى شىء فى العالم ثم دوى صفير القاطرة ، وكان النغم طويلا ورقيقا مس شـغاف قلبى • والقيت بذراعى حول فيرجيل وانخرط كلانا فى البكاء •• »

وتمتمت السيدة هرديليا وهى تمسح أنفها :

ــ ياروح أمك المسكين يا حبيبى !

«ولم تمض الا هنيهة فيما يبدو صرت بعدها فى كينينى•• برومانيا! بلادنا ! تبارك اسم الرب •• لقد اختفت اللغة الهنغارية ، وفى كل مكان كان الجميع يتكلون الرومانية : موظفو السكك الحديدية ، وضـــابط الجمرك ، والحارس ، والناس فى القطار ، والمنازل •• كل شىء وكل الناس •• وكان الأمر بالنسبة لى ــ أنا الذى اعتدت أن أرى الأجانب فى كل المناصب الرسمية الهامة ــ معجزة • لقد سمعتهم يتكلمون ولم أستطع أن أصدق أذنى ، وأحسست بسعادة غامرة ، ووددت لو استطعت أن أقبل واحتضن كل فرد منهم •

«لكن السعادة عمرها قصير فى كل مكان • فقد وصلت الى بوخارست ليلا ونزلت فى فندق • وفى اليوم التالى أردت أن أذهب الى أنسبائنا الذين قابلنـاهم فى سينجيورز والذين كانوا قد دعونى للاقامة معهم • وذهبت الى منزلهم ، ولكنى لم أجد سوى بعض الخدم الوقحين • فلم يكن

السادة قد عادوا بعد من ينابيع المياه المعدنية • ويبدو أنهم قد ذهبوا من سينجيورز الى مكان آخر • وبحثت فى اليوم الثالث عن غرفة مفروشة رخيصة ، فقد كان الفندق كفيلا باستنزاف كل النقود التى أحضرتها معى الى أرض أحلامى • وظللت بعد ذلك أتردد يوما بعد يوم على دار عضو البرلمان وسأظل أذهب ، ولكن آمالى تذوى • فالحياة هى الحياة فى كل مكان ، بنفس غرورها ، ونفس آمالها وتوقعاتها ، وخصوصا بنفس وجهها البشع الذى يقص أجنحة الحماس • ان الأحلام هنا أو هناك على حد سواء لا قيمة لها • والذين لا تداعبهم الأحلام هم وحدهم السعداء ، فهم وحدهم الذين يستطيعون أن ينتزعوا بعض السرور من الحياة !

«ان المرارة التى تنهش فى قلبى قد تكون نتيجة خطئى أيضا • فما من جنة تبلغ من الجمال قدر جمال الجنة التى يرسمها المرء لنفسه فى قلبه • وقد تكون جنة المرء جحيما بالنسبة للآخر • وما السعادة الا نتاج ما يتخيله كل منا ، انها رداء يشكله كل منا لكى يناسبه • وربما لا أكون كفئا كخياط • وربما لا أجد أبدا لنفس هـذا السبب ذلك الرداء الذى حلمت به • ومع ذلك ، فحيثما تحطمت آمالى ، تبرز دائما آمال جديدة أكثر اغراء وأكثر بريقا ، آمال تفتح أمام المرء طرقا جديدة وتستثير فى النفس آمالا جديدة • فالمجهول وحـده هو الذى يحتفظ بجاذبية دائمة لأنه فى هذا المجهول يكمن كل السر الذى يزيد من قيمة الحياة •

«وهكذا فاننى أتطلع الى المستقبل وأعزى نفسى بالماضى • ان الدوامة التى وقعت فيها تجعل أفكارى تطير اليكم كثيرا • فحتى أجد لنفسى مأوى فى هذا العالم الجديد ، فاننى أحلم بالعالم القديم الذى خلفته ورائى • ولهذا أرجوكم أن تـكتبوا الى كثيرا ، خطابات مطولة عن كل مايحـدث عندكم ، لأن كل الاشياء الصغيرة أغلى عندى الآن منها عندما كنت أعيش بينها • ان قلبى يهيم فى صحراء لامأوى فيها كطائر فقد عشه •• أقبلكم جميعا ، مع كل حبى • تيتو •»

وعندما انتهى هرديليا ، ران على الحجرة صمت كصمت الكنيسة الخاوية • ومر بعض الوقت قبل أن تستطيع زوجته التفوه ببضع كلمات مكسورة •

ــ يا للولد المسكين ، مسكين ، كم يحس بالوحدة بعيدا عن وطنه ، غريبا فى بلد أجنبى •• يا الهى ، ياربى !

فرد هرديليا محاولا أن يخفى مشاعره :

ـ ماذا تقصدين بكلمة غريب ؟ ان هذا هو الشعور الذى يحس به الانسان عندما ينزل لأول مرة فى بلد جديد ٠٠ سوف يعتاد هـذا الأمر ، فهو شاب صلب العود قوى الارادة !

وبدأ ثلاثتهم يتحدثون ، وقد نسوا الخطاب الآخر ٠ وفى الحقيقة لم يكن لدى لورا جديد تقوله ، اللهم الا أنها كانت حاملا مرة أخرى وأنها تأمل هذه المرة ،بعون الله ، أن تنجب ولدا ٠

وأرادت السيدة هرديليا أن تكتب بنفسها خطابا لتيتو على الفور ، لكى تطمئنه وتواسيه وتخبره بكل شىء وكل شخص ، وتنبئه على الخصوص بوفاة ايون جلانيتاشو ، لأنهـا كانت تعلم كم كان الفتى يحب « ايون المسكين » ٠ ولكن هرديليا أقنعها بأن تؤجل الكتابة الى مابعد حفل تكريس الكنيسة فى بريباس ٠

ـ من يدرى ، ربما يجد جديد هناك أيضا فتكتبى له عنه ٠٠

وتبادل العجوزان نظرة ذات مغزى : « فالجديد » يعنى زاجريانو ٠ وسمعت جيجى ولكنها لم تبد اعتراضا كعادتها اما لأنهـا لم تكن راغبة فى مضايقة نفسها بعد خطاب تيتو ، أو لأنها كانت هى أيضا تتعلل ببعض الآمال فيما يتعلق بحفل تكريس كنيسة الأب بلكيوج ٠ بل انها أكدت لنفسها فيما بعد فى غموض :

ـ سوف أكتب له أنا أيضا وأخبره بكل شىء ٠٠٠

- ٥ -

وجاء يوم الأحد ٠٠ وبدت قرية بريباس كأنها قد استعادت شبابها وارتدت أفخر ثيابها استعدادا للحدث الكبير ٠كانت القرية نظيفة ومرحة، فقد أمر القس بأن يكنس الجميع الطريق أمام منازلهم ، وأن ينسـقوا الأفنية ويزينوا أبوابهم بالخضرة ٠ وأدركتهم رحمة الله بأن أفاء عليـهم بطقس لطيف كمكافأة على جهد خادمه المخلص ٠ وارتدى الجميع ملابس العطلة البيضاء ٠ وأشرقت شمس الخريف هادئة رقيقة ، وألقت بضوئها الدافىء اللين على كل شىء ٠ كان الأب بلكيوج فى أقصى حالات الكلل بعد كل ما قام به من اسـتعدادات ، ولم يعد يشعر بشىء سوى احساسـه بانفعال جارف ممزوج بسعادة غامرة وترقب أليم ٠ وكانت طلائع الفلاحين

قد وصلت من أماكن نائية مساء يوم السبت فلم يذق بلكيوج للنوم طعما طوال هذه الليلة • وفي الساعات الأولى من الصباح كان واقفا على قدميه، مهرولا نحو مبنى المدرسة حيث تقــام مأدبة جماعة المثقفين ، والى بيت تودوسيا ، أرملة مكسيم أوبريا ، حيث يحتفل عامة الناس ، والى الكنيسة الجديدة ليرى ما اذا كان كل شيء فى مكانه الصحيح • وكان على الدوام يرفع يده الى قلبه كمــا لو كان يخشى أن يتوقف عن النبض فجــاة في اللحظة التي يستعد فيها ليجنى ثمار كده •

وكانت العربات القادمة من جيدوفيتسا أو ساســكوتسا تزمجر باستمرار فى الدرب الفسيح • وكانت العربات الأنيقة والعربات الصغيرة كلها على السواء مغطاة بالتراب ، فمن عربات خفيفة الى أخرى سريعة الى عربات فخمــــة كانت كلهــــا تأتى حاملة وجهاء القوم ، بينمــــا كان الفلاحون الأثرياء والقرويون من الاماكن النائية يحضرون فى عربات مغطاة بسجاجيد مزركشة ، أما الفلاحون من الأماكن المجــاورة فقــد اغتسلوا وارتدوا أفخر ثيابهم وحضروا سيرا على الأقدام فى جماعات صاخبة •• وبدأت الحانة تمتلىء بالرغم من تنبيه القس بألا يتذوق رعيته من أبناء بريباس شيئا حتى ينتهى قداس الصلاة • وقامت ريفكا ، أرملة أفروم ، يساعدها أيزيك بملء كل الزجاجات بالبراندى ، حتى لايحدث تحت أى ظرف أن ينفذ الشراب فى يوم عظيم كهذا مع وجود مثل هذا العدد الهائل من الزبائن • وحضرت فرقة جوجى الغجرية من بيستريتسا فى عربات ثلاث ، وكان ثالثة العربات تحمل آلة الكونترباص الفخمة وقد انتصبت واقفة علامة على ما ينتظر القرية من مرح • ولم يكن الأب بلكيوج قد نسى أن يستأجر عازفين لجمهور العامة أيضا ، وكان بريسياج وزميلاه هولبيا وجافن يشربون فى الحانة قتلا للوقت حتى يبدأ الاحتفال •

وأحس الأب بلكيوج بالسعادة عندما وصل آل هرديليا • وتنهد مبتسما وهو يضغط بيديه على صدره قائلا :

ـ أوه ، شكرا لله أنكم حضرتم ! أنتم تقدرون ما أنا فيه بعد كل هذا الانفعال • كم أتمنى أن يسير كل شيء على مايرام !

وطلب من السيدة هرديليا وجيجى على الفور أن تلقيــا نظرة على زينات الكنيسة ثم تعنيان عناية خاصة بعد ذلك باستعدادت التى بذلت لوليمة السادة فى المدرسة • فرغم أن الغذاء يشرف على تقــديمه مطعما راهوفا وجريفيتسا المعروفين فى أرماديا ، الا أن عين المرأة أقدر دائمــا

على رؤية الأمور من أمهر صاحب فندق في العالم • أما هرديليا فكان عليه أن يبقى مع بلكيوج ليساعده في استقبال ضيوفه •

ووصل الأسقف في الساعة العاشرة ، في عربة تجرها أربعة جياد ، يرافقه أربعة من شباب بريباس الذين امتطوا ظهور الخيل وفقا لأوامر القس واصطحبوه ابتداء من الجسر المقام على نهر سومش • وسارت في أعقاب العربة ست عربات أخرى تقل حاشية نيافته التى تضم عددا من كبار رجال الدين •

وأسرع اثنان من القسس الشبان ليساعدوه على النزول • وعندما وضع الأسقف قدمه على سلم العربة ، مالت حتى كادت تنقلب • وكان الأسقف رجلا متقدما في السن ، بدينا للغاية ، ولكن محياه كان رقيقا وعيناه زرقاوان كأنه طفل • وكانت لحيته البيضاء تتداخل مع شعره الطويل وشاربه الضارب الى الصفرة • أما وجنتاه فكانتا متوردتين وكان تنفسه ثقيلا •

ونظر الأسقف حوله وعلى وجهه ابتسامة مغتصبة ، ورفع أصابعه يبارك الحشد الحاسر الرءوس ثم تمتم قائلا :

ـ ان الجو حار جدا •

والتمعت على حاجبه حبات من العرق ، ذلك الحاجب الكثيف الذى ينثنى نحو قمة رأسه الصلعاء اللامعة • وأحس برغبة في العطس فأسرع يغطى رأسه ، فقد كان يخشى أن يصاب بالبرد وكان يتفادى دائما أن يتعرض لأقل تيار أو نسمة هواء باردة •

وتمكن بلكيوج بصعوبة بالغة من أن يشق طريقه خلال الحشد وهو يهمس في انفعال دائم « اسمحوا لى ، من فضلكم » حتى وصل الى الأسقف• وبدأ بسعال خفيف حتى يطرد الانفعال عن حلقه ثم نطق ببضع كلمات ترحيب كان قد تدرب على القائها أمام المرآة ، كلمات مازال يتعثر في القائها الأمر الذى زاد من رهبة الموقف وجلاله •

وتثاءب الأسقف في ملل قائلا :

ـ نعم ••• لطيف جدا ، لطيف جدا في الواقع •••• اننى أقدر حماس نيافتكم تقديرا عاليا •• ان القسيس ••• هو مبعوث الله ••• أجل ••• حقا ••• ولكنى أحب قبل أن يبدأ البرنامج أن أستريح قليلا

... عشر دقائق على الأقل .... فقد استهلكتنى الرحلة .... وفضلا عن ذلك ، فقد نمت نوما سيئا للغاية فى أرماديا فى الليلة الماضية ...

أما كبير قساوسة أرماديا ، الذى كان قد استضاف الأسقف فى منزله ، وأعد لنيافته سريرا فخما ، فقد امتقع وجهه ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع ملاحظته .

وسار الأسقف الى المنزل يرافقه الأب بلكيوج ، وطلب كوبا من الماء ، وجلس فى مقعد خشبى ذى مساند حيث بقى بلاحراك طوال ربع ساعة وقد أغلق جفنيه المكدودين ، وكانت شفتاه تتحركان بين الحين والحين فى همهمة غير مسموعة . وظل بلكيوج الى جواره صامتا تملؤه الرهبة . وبدأ الناس فى الخارج يتحركون متجهين صوب الكنيسة .

واشترك اثنان وخمسون قسيسا يرأسهم الأسقف فى قداس التكريس . وامتلأت أرجاء الكنيسة بالبريق الذى يشع من الأردية الموشاة بخيوط الذهب . وارتفعت رائحة البخور الى السقف ، ثم هبط على أرواح المتعبدين الذين كانوا يتنفسون بعمق ويستنشقون تلك الأبخرة الذكية الرائحة وقد اسكرهم دوار التعبد الورع . وحرك القلوب والعقول غموض مرح مسيطر عميق .

وفى اللحظة التى تخطى الأسقف فيها عتبة الكنيسة تغير مظهره كما لو كان ذلك بفعل السحر . وبدت عيناه المتسعتان كما لو كانتا تسبحان فى موجة شاملة من الوداعة ، واكتسى وجهه بابتسامة دافئة نقية ورعة فسببت ارتعاش لحيته الفضية ارتعاشا خفيفا . ودوى صوته المتعب بنبرات حلوة واضحة نفذت الى قلوبهم مباشرة فغلفتها ورفعتها الى عالم آخر . حتى حبات العرق على حاجبيه بدت كما لو كانت فصوصا من الماس فى تاج ذهبى رائع .

وقرب النهاية صعد المنبر الضيق ، باذلا جهدا مضنيا على الدرجات المتعرجة ، بينما كان صوت تنفسه العالى يسمع فى رواق المنشدين . وشمل الكنيسة كلها بنظرة دائرية فى هدوء وجأش رابط ، وتعلقت عيناه بالأيقونات الجديدة ، والسقف المزين بالنجوم ــ حيث تدلت ثريا ذات عشرات من الشموع الموقدة فبدت كأنها شعلة هائلة متقدة ــ وفوق الرسوم المذهبة سبحت حلقات من دخان البخور الأبيض فوق رءوس الحشد البشرى الصامت حيث كان الناس بوجوههم المتوردة التى غطاها العرق ، وعيونهم المحملقة المرفوعة صوب المنبر ، يكونون حشدا مزركشا ، يضم السادة

بملابس السهرة السوداء ، والفلاحون بقمصانهم الناصعة البياض، والنساء بأرديتهن الملونة ۰۰۰۰ ثم بدأ يتكلم بصـوت بطيء هادىء كحكيم عجوز أضنته السنون ومع ذلك لا يزال قادرا على أن يستشف السعادة الهائلة التى تغمر المكان ، بدأ يتكلم دون أى تلويح أو اشارة ، عن الله والناس ، عن الرومانيين ، والمدرسة والعقيدة ، وعن الأب بلكيوج ، وعن كل شيء فى كلمات صـــافية غير متكلفة ، ثم أنهى خطابه بمباركة بسيطة ، بدت فى بســاطتها كما لو كانت روحا حية هائمة ۰ وغرقت كلماته فى صـــمت شغوف ، تلك الكلمات التى نفذت الى قلوب الناس كأنها بلسم الهى ۰۰۰

أحست السيدة هرديليا لأول وهلة بكراهية نحو الأسقف ، الذى بدا لعينيها اكثر سمنة واقبالا على الدنيا مما ينبغى ـ ولهذا السبب لم تحاول أن تشق لنفسها طريقا حتى تقبل يده عند وصوله ، رغم ما يقال من أن مثل هذه القبلة تجلب الحظ للانسان طوال حياته ۰ أما الآن ، بعد أن جلست فى مقعدها ، وجلست جيجى عن يسارها والســيدة فليبويو عن يمينهما ، فقد شعرت بالرقة تسرى الى قلبها وتزايد عطفها على هــذا الرجل العجوز الذى تغيرت سحنته فبدا كما لو كان قد رأى الله ۰ وعندما انتهت موعظته همست الى السيدة فليبويو كأنما تكفر عن خطئها :

ـ على هذه الصورة أتخيل الرسل ! فهم رجال لهم نقاط ضعفهم أمام الناس ، وقديسون تتقمصهم أرواح مقدسة أمام الله ۰۰۰

فقالت السيدة فليبويو وهى تلتفت حولها فى ارتباك :

ـ «نعم ، حقا ۰» فلم تكن تستطيع الا أن توافق على الكلمات الهامسة، فهى لا تقدر أن تؤكد محتواها أو تنكره ، اذ أنها كانت طوال الوقت الذى تحدث فيه الأسقف تفكر بحزن فى ابنتها الفيرا التى لم يتقدم أحد ليطلب الزواج منها بعد ۰

وما أن انتهى القداس ، حتى طلب الأسقف عربته ، فقد كان تواقا الى بلوغ منزله فى مســاء اليوم نفسه لكى يستريح فى سريره الناعم من عناء رحلته ۰ واستطاع بلكيوج بصعوبة بالغة أن يقنعه بتناول بعض الطعام وكأسا من النبيذ نخب مستقبل أبرشية بريباس ۰ ورحل كبار رجال الدين مع الأسقف بطبيعة الحال ؛ فهم انما حضروا لكى يثبتوا أنهم لا يتغيبون مطلقا عن أى احتفال له مغزى قومى أو دينى ۰

وتنفس بقية الضيوف الصعداء بمجرد أن تحرروا من القيد الذى

كان يفرضه وجود صاحب النيافة . وفى لحظات كان السادة جميعا يجلسون الى مائدة الوليمة ، يرحب بهم قائد الجوقة الذكي جوجى بلحن « هبوا أيها الرومانيون البواسل . » وكانت الموائد قد صفت فى حجرات المدرسة الخالية ، تزينها باقات الزهور والخضرة . واقترح جروفشورو النخب الأول فى صحة « الأب بلكيوج العظيم » دون ينسى أن يؤكد وهو يلتفت فى كل اتجاه « أنه من واجب هذا المركز الرومانى فى المستقبل أن يبعث بنائب رومانى الى البرلمان على ضفاف الدانوب . » وتتابعت الأنخاب منذ هذه اللحظة دون انقطاع لمدة ساعتين ، حتى بدأ الشباب من الجنسين يهمهمون تعبيرا عن تطلعهم الى الرقص . وتلقى بلكيوج التهانى من كل الناس وشكرهم جميعا ، مصدرا أوامره طوال الوقت الى الخدم بحماس لا يكل كأن السعادة التى دفعت بالحمرة الى وجنتيه قد ضاعفت أيضا من قوته .

وشربت جيجى نصف كوب من النبيذ الأحمر ، وقرعت كأسها بكأس زاجريانو الذى احمر وجهه خجلا حتى صار كالجزرة ، وطلب اليها ان تحجزله الرقصات جميعا ، ودارت عيناه فى محجريهما من فرط الانفعال ، ولم يجد من الكلمات مايعبر به عن أفكاره ، وبدأ يكشف عن خططه للمستقبل ، وهو مستقبل يتضمن قبل كل شىء زوجة جذابة فاضلة ومثقفة ... « زوجة مثلك ، يا آنستى الفاضلة . »

وترددت من أفواه الشبان صيحات بصبر نافذ تطلب « الرقص ! الرقص ! » وجاوبتهم الشابات الخجلات بنظرات ممتنة فكانت لهم خير الجزاء . وكانت الفتيات فى معظمهن من بنات رجال الدين ، وقد فاض بهن الحنين الى الرقص ، حيث لم يكن هناك طوال الصيف أى حفل راقص ذى بال فى المقاطعة .

وأخيرا ، بدأ زاجريانو فى مفاوضات غامضة مع جوجى ، مفاوضات انتهت بمصافحة دس زاجريانو أثناءها فى يد جوجى ورقة من فئة العشرة ريالات كان يمسك بها فى راحة يده . وكانت النتيجة لحنا مجنونا لرقصة « السومشانا » أثار عاصفة من التصفيق من جانب الشباب . وفى لمح البصر رفع عدد من الفلاحين بعض الموائد فحولوا نصف حجرة الدراسة الى مكان للرقص . وهرول زاجريانو وقد استخفه الطرب ليدعو جيجى ، التى تضرجت وجنتاها زهوا لأنها ستنال شرف افتتاح الحفل الراقص ، بينما جلست صديقاتها من بنات أرماديا مكتئبات فى مقاعدهن . وجلست السيدة هرديليا وقد أمسكت فى يدها ببطاقة الرقص الخاصة بجيجى

وشروحتها ، وقد أسندت مقعدها الى الحائط بين السيدة فليبويو والسيدة جروفشورو ، وراحت تناقش متاعب الحياة ، دون أن تحول عينيها عن جيجى التى كانت ترقص برشاقة الجنية ، تدور وتسبح متقبلة عددا لايحصى من عبارات الاعجاب ، مثرثرة مع زاجريانو ومتفادية لنظراته المتوسلة ٠

وفى النصف الثانى من القاعة كان الرجال يواصلون الوليمة والانخاب ٠ وسرعان ما لعبت الخمر برأس قسيس فاراريا ، مثلما فعلت بالدكتور فليبويو والاستاذ مايريانو ٠ وفى النهاية ، ورغم معارضة سباتارو ، القى شيتسو ، رئيس المقاطعة ، خطابا قصيرا أشار فيه الى المفهومات المتحررة للحكومة التى يسعدها أن تتبنى صالح كل القوميات المخلصة للتاج وللبلاد ٠ وتلقى مداراسى ، حارس الغابة ، قبلة من الوطنى المتحمس سباتارو لصيحته الحماسية التى أطلقها : « عاش الرومانيون ٠ » أما هرديليا الذى تعرف بين القسس على عدد من أصدقاء دراسته السابقين الذين لم يكن قد رآهم منذ سنوات ، فقد شرب كأسا من النبيذ مع كل منهم وروى لكل منهم كيف أنه قد تلقى الشكر من وزير التعليم نفسه عندما طلب أن يستريح بعد أن أمضى فى الخدمة اثنين وثلاثين عاما ٠ وظل فى نفس الوقت يمتدح الأب بلكيوج لجميع الحاضرين بقوله : « انه قسيس لامثيل له ، وهو ألطف رجل فى العالم » ٠ وظل بليكوج بدوره يروى للجميع فضائل هرديليا : « انه صديق لا يعوض ووطنى رومانى يستحق احترام الجميع » ٠

وقبل الغروب بقليل ، اقترح القس على هرديليا أن يزورا حفل الفلاحين بعض الوقت ٠

ــ ان واجبنا يا زهاريا أن نعنى بالناس !

فأجاب هرديليا وهو يغمز بعينه فى مرح :

ــ هذا صحيح يا ايون ٠٠٠ صحيح تماما ٠٠٠ لحظة واحدة من فضلك ، فسوف أذهب لاحضار زوجتى !

ولم تكن السيدة هرديليا طبعا تستطيع أن تترك جيجى وحدها ٠ وعندئذ تذكر زاجريانو أيضا أن من واجبه أن يذهب اليهم بدوره ، بصفته مدرس القرية ، خصوصا وأن الحفل لايساوى شيئا بدون الآنسة جيجى ٠ وسرت جيجى هى الأخرى لمغادرة المكان ؛ فقد عاد زاجريانو الى الاكتئاب من جديد ، ولم يتحدث طوال الوقت الا عن عينيها ، بل لقد بدأ

عدة مرات فى الادلاء بتصريح : « يا آنســـة جيجى .... اننى .... » ولكنه لم يجرؤ على اكماله بقوله « .... أحبك ! » ولما كان آخرون أيضا قد اعربوا عن رغبتهم فى مشاركة العامة حفلهم ، فقد تكون حشد مرح لم يلبث أن اتجه الى منزل تودوسيا .

كان الفناء يعج بالناس .. وكان القرويون العجائز وعلى رأســهم فلوريا تانكو ، العمدة ، يقفون قرب البوابة المفتوحة يرقبون الشباب وهم يرقصون ، ويتجاذبون أطراف الحديث عن الكنيسة والمحصول والضرائب الباهظة . وكان توما بولبوك مكتئبا يتنهد باستمرار ، ملقيا بكلمة بين الحين والحين ، لأن عقله كان مشـــغولا بالتفكير فى جورج الذى كان يذوى فى السجن فى بيستريتسا ، فى انتظار مثوله أمام محكمة الجنايات . ووقف جلانيتاشو العجوز وحده بعيدا ينصت الى حديثهم ، وقد أحس بانكسار اكثر من ذى قبل ؛ فقد أحال موت ايون لون شعره أبيض وأكسب عينيه الوادعتين تعبيرا من حزن مقيم .

وكان الأب بلكيوج قد عهد الى كوزما كيوكاناش ، خفير القرية ، بتوزيع ثلاثة أدنان من الخمر بلا مقابل ، ضمنت فى مصاريف الاحتفال بتكريس الكنيســــة . وقام كوزما بواجبه بعدالة فائقة ، ووبخ بعض الشبان الذين حاولوا الحصول على جرعة ثانية ، بل لقد وصل به الأمر الى حد الاشتباك بالأيدى مع ماكيدون سيرسيتاشو .

وكان كيوكاناش يعلن فى نبرة ودودة بين الحين والحين ، وقد جلس فى وقار الى جوار باب الحجرة الخارجية ، وفى احدى يديه قمع وفى الأخرى مكيال من الصفيح استعاره من أرملة افروم :

ـ لكل رجل الحق فى نصف مكيال من الشراب ! تلك هى الأوامر ! ومن يريد الحصول على أكثر من ذلك عليه أن يذهب الى الحانة ليحصل على ما يريد !

والتف جمع من الرجال قرب الشرفة حول ســيميون بوتونويو ، الذى راح يروى حكاياته القديمة ، لا يقاطعه فيها الا سعاله وعطســـه الصاخب . وكان ماكيدون سيرسيتاشو يوشك أن يفقد وعيه ؛ وأخذ يذرع الفناء جيئة وذهابا ، صائحا بأوامره بالألمانية ، ملوحا بيديه ، الأمر الذى كان مصـــدر متعة للأطفال الذين راحوا يحيونه على الطريقـــة العسكرية .

كان العازفون يعزفون لحنا ملتهبا لرقصة « الانفرتيتـــا » • وراح الفتيان يدقون الأرض بأقدامهم فى زهو ، بينما أخذت الصـــبايا تدرن رافعات رءوسهن وهن تبتسمن فى سرور • وألقت شجرة الجوز العجوز ، القائمة الى جوار مخزن الحبوب ، ظلها فنشر غلالة رقيقــة تكاد تغطى الفناء كله •

وتوقف الرقص فجأة ديلا على الاحتـــرام عنـــدما وصلت مجموعة السادة • ورفع الكبار جميعا قبعاتهم ، بينما تجمع العمدة وكبار السن حول بلكيوج وهرديليا ، يتحدثون عن حفل التكريس الذى شرف القرية عموما كل هذا الشرف ، كما شرف قسها بوجه خاص • واتجه ايليا أونو ـ الذى كان قد أصبح زعيم العزاب بعد أن تزوج نيكولاى تاتارو من ابنة ستيفان هوتنوج ـ اتجه الى زاجريانو ودعاه الى الرقص ، مقدما ماريا ، ابنة تريفون تاتارو ، كشريك له فى الرقص • وكانت ماريا أجمل بنـات بزيباس ، وكان أونو نفسه يتطلع الى الزواج منهـــا عندما يحين الوقت لزواجه • ولكن زاجريانو ما كان ليبارح جيجى ، ورفض الدعوة بارتباك، وعندئذ دعا ايليا الآنسة الى الرقص ، الأمر الذى أحنق السيدة هرديليــا وجعل جيجى تبتسم فى خجل • وفى النهاية ، أمر العمدة الشــــبان ، بموافقة القس ، باستئناف رقصهم حتى يرى السادة مدى ما فى الرقصات الشعبية من جمال •

ولم يلبث توما بولبوك أن وجد طريقة للانتحاء بهرديليا جانبـــا ليستشيره فى أمر جورج • واقتربت زوجة توما ، وهى عجوز نحيلة ذات عينين صغيرتين مرحتين غائرتين وصوت نائح حزين ، اقتربت منهما وهى تعتصر يديها وأقسمت بأن سحرا شريرا هو السبب فيما حل بابنها من متاعب • وشجعه هرديليا ، مطمئنا اياه بأن يثق فى جروفشورو ثقة كاملة، لأنه ليس هناك محام أفضل منه فى العالم كله •

وأضـــــاف توما بعد قليل وقد ارتسمت فى عينيه نظرة أكثر تفاؤلا :

ـ عندما يعود جورج ، ستكون زوجته فى انتظاره وهى تحمل طفلا بين ذراعيها فيما اعتقد • فهى تقول أنها حامل •• من يدرى فتلك مهمة المرأة •

وانتشرت فى القرية اشاعة تقول ان ايون قد ترك فلوريكا حاملا • ولم يكن أحد يدرى مصـــدر هذا القول ، ولكن عددا كبير من الناس كانوا

يصدقونه • ودأب عدد من الزوجات العجائز ، النهمات الى الثرثرة بسيرة الآخرين ، على استجواب سافيستا • وكانت هذه الأخيرة قد عادت الى دار تريفون تاتارو واستأنفت تسولها فى الدرب الفسيح ، اذ كان مجرد رؤياها قذى فى عين فلوريكا • ومع ذلك رفضت الكسيحة أن تجيب على أيه أسئلة ، ولكنها كانت طوال الوقت مكتئبة حادة الطباع حتى بدأ الناس يقولون أنها لابد أن تكون قد بدأت آخر سنوات عمرها •

وعندما توقف الرقص حضر اليهم فاسيلى باكيو فى جلبة • وكان قد فشل فى افساد ذمة كوزما كيوكاناش ودفعه الى اعطائه شرابا آخر ، فذهب الى الحانة لكى يطفىء ظمأه على نحو سليم • وما أن لمح بلكيوج حتى اكتسى وجهه قتاما ، واتجه اليه مباشرة وهو يصيح قائلا :

ـ اذن فقد قررت أيها الأب أن تستولى على أرضى بأى ثمن ، أليس كذلك ؟

وحاول القس أن يتجاهله حتى لا يعكر صفو مزاجه • ولكن فاسيلى لم يتركه وظل يزداد هياجا حتى فقد الأب بلكيوج ما تذرع به من ضبط النفس ، ورد عليه بصوت جهورى سمعه الجميع :

ـ لقد أصبحت عار القرية يا فاسيلى ، ولا زلت تواصل التمسك بمعاصيك وتستمر فى طريقك الآثم ! أتريد مزيدا من الأرض حتى تستطيع أن تحصل على مزيد من الشراب ؟ أليس من الخطأ فى حق الله أن نمكنك من الحصـــول على الأرض لكى تضـــيعها فى الحانات ؟ •• دعنى أخبرك يافاسيلى ان الأرض ليست للسكيرين والصائعين الضائعين ! كلا ، ليست لهم ! ان الارض تريد كدحا وعملا ، لا كسلا ! •• لقد كان زوج ابنتك ايون ، رحمه الله ، يستحق الأرض ، نعم كان يستحقها ؛ فقد صانها وفلحها بكل قوته وبكل قلبه • لقد كان يعرفك حق المعرفة ولذلك لم يترك الارض لتقع بين يديك من جديد •• وعندما تقرر أن تعمل من جديد كمواطن شريف ، وتقلع عن السكر ، عندئذ تستطيع أن تحضر الى وتناقش الأمر معى ! أما الآن فحتى ما تملكه أكثر ممـــا تستحق •• هذا هو القول الفصل !••• وحتى ذلك الحين أغرب عن وجهى ، أيها الشيطان الملعون !

وقوبل توبيخ القس الذى ألقى فى هدوء بموافقة من جميع الفلاحين الحاضرين • حتى فاسيلى باكيو بدا أنه قد تأثر ، لأنه شرع على الفور يرسم علامة الصليب على صدره ، وتمتم قائلا :

ـ حسن ، اذا كان الأمر كذلك ، فسوف أقسم فى الكنيسة الجديدة نفسها أننى لن أذوق قطرة واحدة من الخمر بعد ذلك مادمت حيا ..

وسمع بلكيوج الوعد وأحس بالرضى ولكنه كان راغبا عن الاستمرار فى المناقشة والتفت الى جماعة الفلاحين القادمين من ساسكوتسا ، الذين كانوا قد حضروا للمشاركة فى صلاة التكريس ولكى يكفلوا لأنفسهم الازالة السريعة للكنيسة القديمة ، حتى تصبح لهم كنيسة صغيرة خاصة بهم شأنهم شأن كل القرى المسيحية .

ولما كان الغسق قد حل ، وخصوصا لما كان هرديليا قد بدأ يقرع كئوس الشراب مع الفلاحين ، قررت السيدة هرديليا أن الوقت قد حان لكى تعود الى بيتها فى أرماديا ، دون الرجوع الى مبنى المدرسة حيث كانت وليمة السادة الأفاضل لا تزال على أشدها . وعبثا حاول الأب بلكيوج أن يثنيها عن عزمها ، فقد كان القس يرى أن الوقت قد حان ليجلس الى هرديليا ليتسامرا ويتناولا كأسا من الشراب ؛ وعبثا حاول زاجريانو أن يلحف فى طلبه ، فقد أقسم أن رحيل جيجى سوف يحرم الحفل الراقص من كل بهجة ـ ولكن السيدة هرديليا ما كانت لتنثنى عن قرارها . وعندئذ قدم لهم بلكيوج عربته اللطيفة ، مكررا أسفه لأن السيدة لا ترغب فى البقاء حتى ولو ساعة واحدة أخرى على الأقل . ولكى تؤكد له السيدة هرديليا مشاعرها الودية ، دعته الى النزول بمنزلهم كلما ذهب الى أرماديا ، وهى دعوة تقبلها الأب بلكيوج بكل سرور . وأضاف القس وقد شابت صوته رعشة :

ـ انه لأمر مؤسف للغاية ، يا عزيزى زهاريا ، أننا لن نعمل سويا بعد الآن !

ـ انه أمر مؤسف حقا ، ولكن .. لازال معك صديقنا زاجريانو ، وهو أيضا من أبناء قومنا ، أليس كذلك ؟

فتمتم بلكيوج وقد زوى ما بين حاجبيه :

ـ كلا ! .. زاجريانو ! .. أخشى أننا لن نستطيع مطلقا أن نتفاهم سويا .

ورد هرديليا وهو يشمل زاجريانو بابتسامة ملؤها الثقة :

ـ انه شاب لطيف ، حقا ، انه ولد طيب جدا فى الحقيقة .

فقال القس بنبرة أكثر وقارا :

ـ ربما لو أسعده الحظ بأن يجد زوجة شابة ، زوجة رومانية مخلصة، كالآنسة جيجي مثلا ، فقد يدرك رسالته الحقيقية بيننا !

وكاد يغمى على جيجي ارتباكا ، بينما تملكت زاجريانو نوبة من جرأة غير معهودة فأعلن قائلا :

ـ لو قبلتنى الآنسة ، فاننى ٠٠ اننى ٠٠

فقاطعته السيدة هرديليا بصوت رقيق لم تعتده قبلا :

ـ مهلا ، مهلا ، مثل هذه الأمور الجادة لا تحسم على قارعة الطريق ! احضر الى منزلنا وسوف نرحب بك بكل قلوبنا ٠٠

وأمسك زاجريانو بيد جيجي لكي يهدىء من عواطفه ، وطبع عليها قبلة طويلة :

وسارت العربة فى بطء ، فقد كان زاجريانو يرافقهم سيرا على قدميه جزءا من الطريق ٠ وعندما بلغوا منزلهم فى نهاية القرية ، توقفت العربة برهة ٠ وكانت زنوبيا تجلس فى حزن بمدخل دارها ، فاتجهت الى العربة وراحت تتكلم عن ايون ، ثم انفجرت باكية ، وأخيرا لعنت جورج وكل من يمت لتوما بصلة ، فقالت السيدة هرديليا :

ـ مسكين ايون ! لقد كانت حياته قصيرة بالتأكيد ٠ أعتقد أن هذا مكتوب فى لوح القدر !

وعادت زنوبيا الى منزلها ، مخلفة وراءها أثرا مديدا من الأسى ٠ وعندئذ راحوا ينظرون الى بيتهم الذى كان خاليا مغلقا وقد نمى العشب فى حديقته ٠ وقال هرديليا بلطف وهو ينظر بثقة فى عينى خليفته :

ـ ان المنزل فى انتظارك لتضع عليه يدك ٠

وعلى الجانب الآخر من الطريق ، كان المسيح الصفيحى مرتكزا على صليبه الخشبى ، وقد سقط على محياه شعاع من الشمس الغاربة ، وبدا كأنما يمنحهم حبه وبركته ، بينمـــا راح جسده يرتعش فى نسيم تلك الأمسية من أمسيات الخريف ٠

وترك زاجريانو فى وســط الطريق ، فوقف ، والحب فى عينيه ، يرقب العربة اذ راحت تبتعد على ايقاع خبب الجياد الرشيق ٠ وكان بوسع

جيجى ، التى جلست على المقعد الصغير فى المقدمة ، أن تراه وتعتقد أنه أكثر الناس وسامة فى العالم ·

وعند مضيق الشيطان أدار العجوزان رأسيهما الى الوراء · لم يكن يبدو من القرية الا عدد صغير من المنازل · وارتفع برج الكنيسة الجديدة اللامع شامخا فوق بقية المبانى كأنه رأس فاتح منتصر · وكان زاجريانو لا يزال واقفا فى الطريق أمام المزار ، عارى الرأس ، كما لو كان يقطع على نفسه عهدا مقدسا ·

ويدور الطريق حول منحنى ، ثم يتعرج فترة، لكى يعود الى استقامته من جديد ، كشريط رمادى يشق طريقه فى الغسق البارد · وعلى اليسار يترك بئر الرجل الميت الى الوراء ، بينما ترتفع الى اليمين فى الحقول الذاوية قطع من الأرض المقسمة ، تنقسم بدورها الى مساحات أقل ثم تعود لتمتزج من جديد وتمتد حتى تبلغ حدود غابة فاراريا · ثم نصـــل الى غابات دومنياسكا التى تطوى ضوضاء العربة الهادرة ، لتعود فتطلقها الى بعيد فى أصداء رنانة عالية ··

ونترك القرية الى الوراء ، كشأنها دائما ، كأن شيئا لم يتغير مطلقا· ومر بعض الناس ، وحل محلهم آخرون · فالزمن يمضى بلا مبـالاة فوق متاعب الحياة ، ويمحو كل آثار ما حدث من قبل · وتضيع الآلام والعواطف والآمال ، صغيرها وكبيرها ، فى ســـكون غامض لا يمكن الوصـــول الى قراره ، كما تضيع الاوراق الهزيلة المرتعشة فى اعصار هائل ·

ويصمت آل هرديليا جميعا · وتجرى أفكارهم الى الأمام على الدوام، تحفزها الآمال التى تضيىء روح الانسان · وتتردد طرقات حوافر الجياد على الطريق المرصوف فيرجع الطريق صداها ، وتمضى عجلات العربة الى الأمام ، بنفس الضوضاء المملة ، ملالة انقضاء الزمن نفسه ·

ويمضى الطريق عبر جيدوفيتسا ، ويعبر القنطرة الخشـــبية التى تقطع ضفاف نهر سومش ثم يذوب فى الطريق العام ، الطريق العـــام العريض الذى لا تبدو له نهاية أو بداية ··

الى الكثرة المستضعفة !

مارس ١٩١٣ ــ يوليو ١٩٢٠

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الساحل

هذا الكتاب

ليس كالقارىء العربى من يستطيع أن يحس بالجو العام الذى تتحرك فيه شخوص هذه الرواية ، وليس مثله ايضا من يستطيع أن يقترب من روح المؤلف التى ظلت تعتصره لسبع سنوات كاملة حتى انتهى من هذا العمل الأدبى الكبير فى عام ١٩٢٠ .

ومسرح هذه الرواية هو اقليم « ترانسلفانيا » الرومانى ، الذى وقع تحت نير الاحتلال المجرى وما فرضه على الشعب الرومانى فى هذه البقعة على مر القرون من ألوان العسف والقهر . ولكن الشعب المضطهد فى « ترانسلفانيا » يظل غصة فى حلق المستعمر .. ويظل حنين الشعب المناضل ــ رغم القرون العديدة ــ لاجتياز جبال الكربات ، حيث الوطن الأم ...

وامام الاستعلاء الذى يمارسه المحتل ، ورغم العلاقات الاجتماعية والانتاجية التى تصرخ بالتناقض. ورغم البؤس العميق القرار الذى يتردى فيه الفلاحون، ويعتمل فى نفوسهم ليجد متنفسه فى العنف والقسوة والأثرة والتصارع من اجل لقمة العيش ، ومسخ كل القيم البشرية .. ورغم هذه المخلوقات الشائهة التى اراد لها المستعمر أن تكون .. فان الشعب فى مجموعه لاينى عن تحدى الغاصب ، ويناضل على الدوام لتنقية روحه القومية من كل مايلوثها من ادران فرضت عليه لتمسخ روحه وتستذل كبرياءه .

انها صورة قريبة الشبه كأنها توام لما حدث وما يزال يحدث فى اجزاء غالية من وطننا العربى وفى كافة المناطق التى كانت ترزح تحت النير الاستعمارى فى مختلف البقاع .

ولعل هذا هو ماحدا بنا الى ترجمة هذه الرواية لعلها تكون محاولة جادة للتقريب بين الوجدان العربى ووجدان الشعب الرومانى الصديق .

« المترجم »

